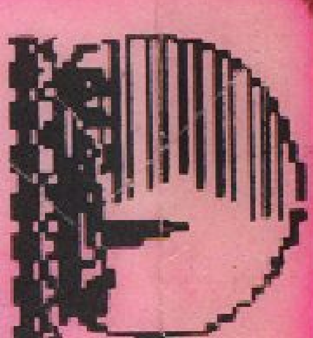
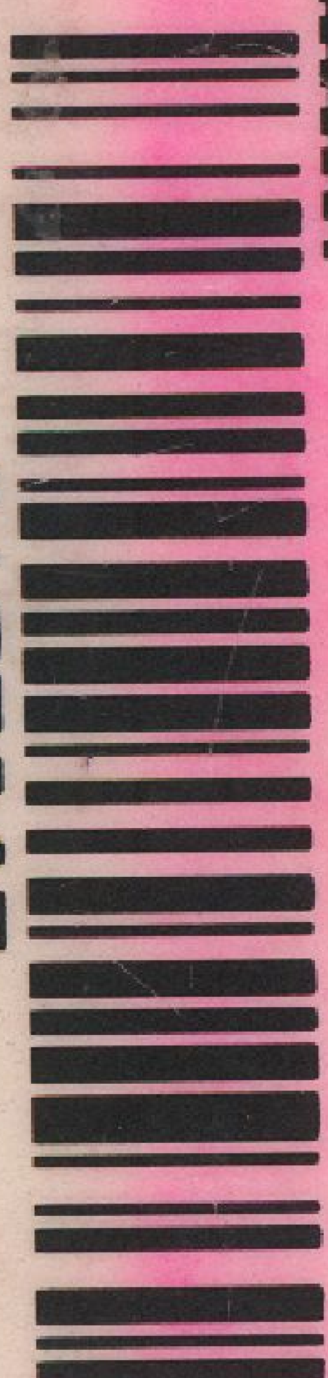
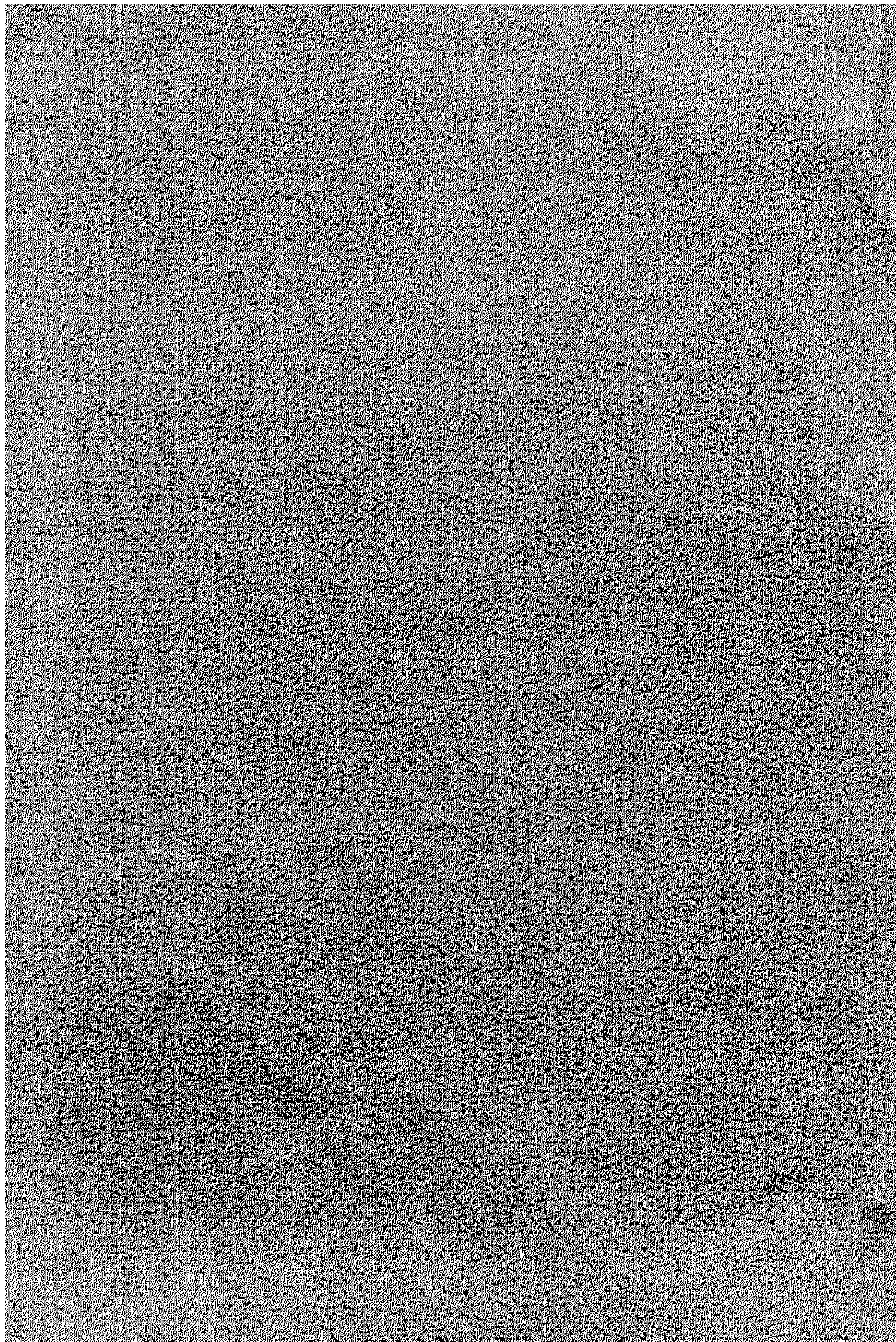





اقرأ

الدكتور السيد أبو النجا

# ذكريات عارية






تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان

دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

السيد أبو النجا

# ذكريات عارية

اقرأ ٣٤٦
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٦ – أكتوبر سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

إلى الملايين

من المواطنين الصالحين

[illegible]

# مقدمة

## بقلم الدكتور شوقى ضيف

هذه ذكريات يشيع فيها ألوان من النقد الذاتى والموضوعى ، فهى ليست خواطر عن طفولة وصبا وشباب وكهولة ، وما بعد الكهولة فحسب ، بل هى أيضاً ملاحظات ناقدة عن الكاتب ونشأته وتربيته ، وعن بعض من عرفهم فى حياته : فى المدرسة وفى الأزهر ، وفى الجامعات المصرية والغربية ، وفى الصحافة وفى دور النشر ، منهم المدرس والعامل ورجل الأعمال والسياسى والصحافى وأستاذ الجامعة والوزير والطباع والآذن والموظف الكبير والصغير والفتاة المصرية والأوربية : أنماط متباينة من الناس ، وذاكرته تسجل وترصد ، وهو يلاحظ وينقد ، ويبوح ويمعن فى البوح والصراحة ، دون تحفظ أو مداورة أو مواربة ، ولا شك فى أن كثيرين سيحاكونه فى كتابة ذكرياتهم بهذه الصراحة المفرطة المحببة إلى النفوس.

ودائماً موقفان متقابلان يمتزجان : موقف الكاتب الراوى ، وموقف الناقد الساخر ؛ إذ يكثر الدكتور السيد أبو النجا من نقد كل شخص وكل شىء ، وينقد العادات الريفية التى كان يبصرها فى قريته الصغيرة ، وينقد نفسه فى كثير من تصرفاته مصوراً بعض عبثه فى صباه وبعد صباه ، على نحو ما يحدثنا عن ذكرياته فى الجامع الأزهر ، وضيقه بكثرة من كانوا ينامون فى ساحته وأروقته من الباعة وأصحاب الحرف ، فكان يتخذ من الورق ما يشبه «ماسورة» ويحشوها لا بالتراب ، ولكن بالشطة ، ويستلقى بجوار أحد النائمين وينفخها فى أنفه فى أثناء شهيقه ، فينهض مفزوعاً ولا يعود بعدها أبداً . وينقد تربية أبيه له مصوراً كيف كانت تقوم على الخوف والقهر

مع البر والعطف والحنان ، ويعرضه دون أى حجاب حين يذكر عنه إلحاحه على مستر « فرنس » ناظر الخديوية الثانوية أن يعاقبه بالضرب المؤلم أمام رفاقه من التلامذة ، لأنه عبر عن شعوره الوطنى ذات يوم إزاء أحد مدرسيه من الإنجليز ، ولا يخفى أن زملاءه فى المظاهرات كان منهم الجرىء الذى يفتح لرصاص الإنجليز الباغين صدره غير هياب ولا وجل ، ومنهم المتخاذل الذى كان يفر على وجهه أو يستخفى مروعاً مذعوراً . ويصف حياة الأزهر وما كان يحفها من تخلف ، وحياة الأزهريين وقيامها على الشظف الشديد . وينقد نظام الكشف الطبى عند التحاقه بالتعليم العالى ، وكيف كان يضطر كليل البصر من أمثاله إلى الغش والخداع ، وينقد أيضاً نظام القبول فى هذا التعليم ، وكيف دفع به إلى مدرسة لا توافق هواه ، هى مدرسة التجارة العليا ، وكما يقول المثل القديم : رب ضارة نافعة . وينقد بعض أساتذته فى تلك المدرسة ، لأنهم لم يكونوا يرعون فى امتحاناتهم لطلابهم عهداً ، ويأسى لبعض الصحافيين أن يكون مثل دوّارة الريح ، فهو فى الصباح يكتب فى صحيفة حزب حتى إذا كان المساء كتب فى صحيفة خصومه بائعاً نفسه بثمن بخس دراهم معدودات . ويحمل على بعض من كانوا يتجرون بالحزبية ، كما يحمل على بعض المنتسبين إلى الدين ممن لا يتجاوز عندهم أطراف اللسان وحركات أعضاء الجسم دون أن يمس ضمائرهم وسلوكهم . وينقد ما كان من شيوع المحسوبية البغيضة فى التوظف أيام أن كان الحكام يعزون ويذلّون ، ويبسطون الرزق لمن يشاءون ، ويكفونه عمن يشاءون دون وازع أو رقيب . ويسخر من نفسه سخرية مرة لولعه بالمظاهر حين أصبح مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة بالظاهر ، وتدور به الأيام دورات ، وتمده الصحافة ودور النشر بشخصيات كثيرة يضع كلا منها فى مكانه السوى ، وهو عادة من الشباب الممتاز ، ينزل أو ينزله — مكاناً عليًّا ، والمعوج — ينزل أو ينزله — مكانا زريًّا ، ويعرض بعض تجاربه

مع الناس مصوراً ما كان يهدى بعضهم لبعض من الشر والكيد والمكروه تصويراً لاذعاً .

وكل هذا النقد يجسمه الدكتور السيد أبو النجا فى أشخاص وأحداث ، ونحس أنه يحاول بقدر وسعه أن يتحرى الإنصاف مبتدئاً دائماً بإنصاف قارئه من نفسه فى ملاحظاته ، وفيما يطلعه عليه من خفيات حياته وأسرار عمله ونجاحه فيه ، حتى ليعترف بما استلزمه نجاحه أحياناً من بعض الخبث والدهاء . وقلما نشعر عنده بمبالغة ، إذ لا يوارى ولا يدارى ، وكأنه يريد أن ينقل الواقع نقلا مطابقاً له دون أى تزيد ، مما يطبع كلامه بطوابع الوضوح واليسر والسهولة ، وهى طوابع تشفع بغير قليل من السخرية والفكاهة والدعابة ، مما يملأ نفس القارئ شوقاً إلى متابعة القراءة حتى الفراغ من الكتاب .

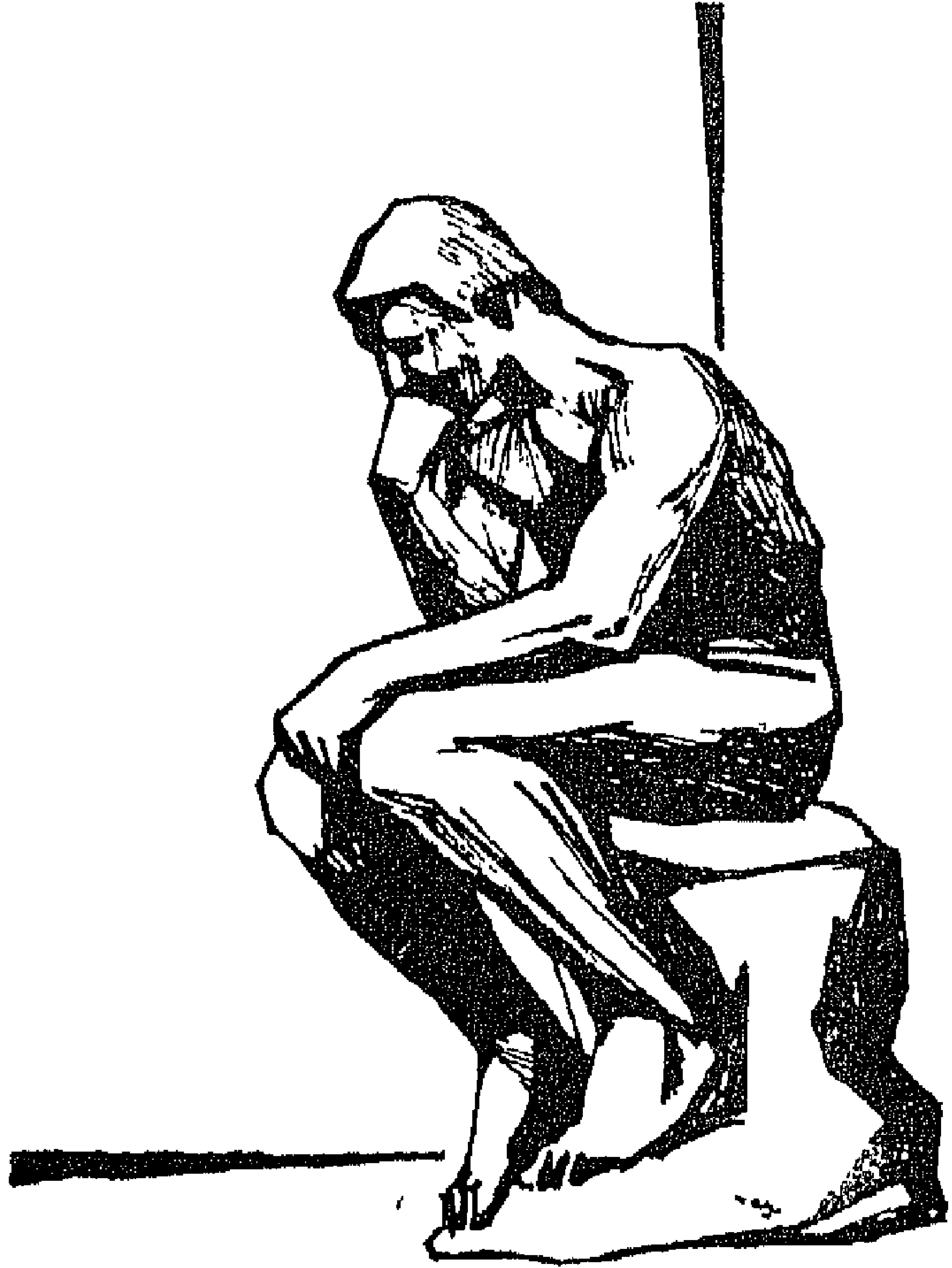
ومن أطرف ما نقرأ فيه من فكاهات خطبة لسيف الإسلام أحمد ، مندوب المملكة المتوكلية اليمنية فى مؤتمر فلسطين الذى انعقد بلندن سنة ١٩٣٨ ، بدأها بقوله : « أيها السادة ! إن الخلاف القائم بين الإنجليز والعرب سببه العفاريت » ! وتمادى سيف الإسلام فى هذه الخطبة المضحكة والمترجم المصرى يغير — وقد تصبب عرقاً — فى معانيها بما يلائم المؤتمرين ومؤتمرهم ، ونترك للقارئ إكمال قراءتها فى موضعها . ولعل كل ما كتب عن تخلف اليمن فى عهد تلك المملكة الحالك لا يبلغ فى التعبير والتصوير مبلغ هذه الخطبة التى لا تعد خطبة ، وإنما تعد عبثاً عقلياً كبيراً ، تهوى فيه من حالق كل قواعد المنطق ، حتى لنشعر بفقدان توازننا ، وإذا بنا نستغرق فى الضحك دون نظام ، أوقل فى فوضى كفوضى ما نقرأ من الكلام . وتلمع فى الذكريات من حين إلى حين بارقة الدعابة ، حتى فى أثناء ما يسرده الدكتور السيد أبو النجا من بعض الأحداث ، على شاكلة ما يرويه حين استقال من الجامعة ليدير شركة الأخبار المصرية لقاء مائة وخمسين جنيهاً شهرياً . بعد أن كان راتبه من الجامعة

خمسة وثلاثين جنيهاً لا غير ، قفزة أو وثبة لم تكن فى الحسبان . وقد مضى يذكر كيف كان يعيش براتبه الجامعى المحدود ، فقد كان يشترى الدجاجة فيشرحها تشريحاً ليتناول مع أسرته نصفها فى يوم ويحتفظ بنصفها الثانى ليوم تال ، بسبب ضيق ذات يده ، وكانت الفاكهة المشتراة بلحاً حتى ينتهى موسم البلح ، فتصبح جوافة حتى ينتهى بدوره الموسم ، وكان يسكن فى حى العباسية فانتقل إلى حى الزمالك الأنيق ، وكان أولاده يتعلمون فى المدارس الأميرية فنقلهم إلى المدارس الخاصة ، وكان يتنقل فى « الترام » فأصبح يتنقل فى سيارته وحده أو مع أسرته، كما أصبح يقيم الولائم الفاخرة للمتعاملين معه من أصحاب الأعمال .

ويلفتنا فى الذكريات تطور عقلى واضح لصاحبها فى مراحل حياته ، فهو فى نشأته محمل بخرافات وتقاليد كثيرة تلقاها من أسرته ومن بيئته التى أحاطت به ، حتى لنراه مندمجاً فى بعض الطرق الصوفية ، وما تزال خبرته بالناس من مختلف المنازع تدفعه إلى التفكير السليم ، وإلى أن يلقى عن كاهله أثقال التقاليد والخرافات ، حتى يوشك وهو فى التعليم العالى أن يتخلص من كل تلك الترهات . ويذهب إلى الغرب فى بعثة، فيتكامل تحرره العقلى ، ويستقر فى نفسه أن الغاية المثلى للمناقشة البحث عن الحقيقة لا غلبة الخصم وقهره، وأن المجاملة شىء والنزول عن الحق شىء آخر لايتصل منها بسبب . ونؤمن دائماً بصدق لهجته وشدة إخلاصه، وإن كنا نعتب عليه لإكباره الإنتاج ومغالاته الشديدة به ، حتى لتصبح الحياة بدونه شاحبة ، بل مقفرة كطلل مهجور ! وحقاً بدون الإنتاج تكون الكارثة أو الكوارث الاقتصادية ، ولكن ينبغى أن نذكر بجانبه دائماً معانى الحياة الروحية ، فليس كل ما فى الحياة إنتاجاً ، ولو صح ذلك لخلت الحياة من مباهجها ومفاتنها التى تغذى فينا الشعور بالجمال، ولأصبح الإنسان يعيش لينتج، لا ينتج ليعيش معيشة تسمو به إلى معانى الحق والكمال، إلا أن تكون هذه المعيشة نفسها ضرباً من ضروب الإنتاج.

ويؤكد الدكتور أبو النجا فى غير موضع من ذكرياته أن كل ما أصابه من توفيق أو نجاح إنما هو ثمرة ظروف عارضة خارجة عن إرادته ، وكأنه يريد أن يقول فى إصرار إن شيئاً من نجاحه أو توفيقه لم يؤد به إلى غرور ولا إلى ما يشبه الغرور . فهو يعرف قبل غيره قدر نفسه ، وهو تواضع حميد ، ومنه تسرى أسراب كثيرة إلى الذكريات، وتسرى معها بساطة مسرفة، ولعلها هى السبب فى عدم العناية بالأداء أحياناً واستخدام بعض الكلمات الدارجة . ولا أرتاب فى أن الدكتور أبو النجا يقصد إلى ذلك قصداً حتى يرفع الكلفة بينه وبين القارئ ، ويحل محلها ألفة شديدة ، وهو يستعين عليها بوسائل كثيرة ، بلغته اليسيرة وبصدقه وصراحته وتواضعه ودعابته ، مما يجعل هذه الذكريات خفيفة سائغة قريبة إلى نفوس قرائه .

# هــذه الــذكريات



ليس فى نية الكاتب — وهو يتحدث عن نفسه — أن يتغاضى عن ذكر ما يؤهله للتقدير ، ليقول الناس إنه متواضع ، فهذا استجداء للثناء لا يرضى به بديلا عن الصدق . كما أن التواضع الذى قد يدعيه هو فى حقيقته مركب نقص ، لأنه خوف من الاتهام بالخيلاء .

وليس فى نية الكاتب أن يستعلى بنفسه على حقيقتها ، فنى هذا مجانبة للصدق، ومكاثرة بما لا يملك . كما أنه — لو حدث— يلغى قصده من كشف نفسه ، وهو أن يصل منها إلى ما يصعب تحقيقه على سواه ، فلو تصدى لكشفها غيره لكان على الأرجح أقل علماً بخباياها ، ولو كان أكثر موضوعية فى تناولها .

وليس يزعم الكاتب أن ما يقدمه فى هذه الذكريات من آراء يجىء بالضرورة مطابقاً للحق. كلا، فالرأى ينبثق من عقله كما ينبثق عند سواه. وعقله مغلوط فى بعض نواحيه . كما أن رأيه ينبع من مكونات كثيرة من بينها بيئته . والبيئة إناء يلون الرأى بلونه ، ثم إن الرأى يكتسى بنوازع صاحبه ، وهى تتسلل إلى قلمه دون علمه ، بل إن الرأى يخرج من بين ثقافته وخبرته وهما أصلا غير محايدين. والثقافة عصبية وإن لم تكن بالضرورة متعصبة ، والخبرة كلما اشتد عمقها بعدت عن الرأى وانحازت إلى الانطباعات ، فزادت من سيطرتها على حرية الفكر .

إن الكاتب يحكم عقله فى نوازعه قدر جهده، ويقيم فى نفسه حاجزاً بين عاطفته ورأيه قدر إمكانه ، ويجتهد فى التفرقة بين الصديق وصاحب الحق ، ولكن بعض الناس يحملون هذه التفرقة أحياناً على أنها تنكر للأول أو مجاملة للثانى . ومع أن الكاتب يجتهد فى تجريد نفسه أشد الاجتهاد ، فهو يعترف أنه لا يوفق فى هذا على الدوام ، لأنه كإنسان

لا يستطيع أن يفكر بعقله فقط ، وإنما يفكر بكل ما فيه من عقل وعاطفة وجسم صحيح أو عليل . إن برداً عارضاً أو اضطراباً فى الهضم قد يكون له تأثير خفى فى رأيه ، حتى لقد يكون فى حالة من الحزن أو الفرح فتمتزج هذه الحالة النفسية برأيه وتكون عنده نزوعاً لم يكن يتكون لولاها .

والكاتب يعتقد أنه مواطن صالح ، فهو لا يدعى لنفسه أكثر من هذه المنزلة ، ولا يصطنع التواضع فيرضى بأقل منها . إنه يحترم القانون لأن القانون ناموس التعامل ، ويحترم الشرطى لأنه أداة القانون ، ويحترم رؤساءه لأنهم يمثلون الدولة ، ويحترم مرءوسيه لأنهم ليسوا أقل منه ، ويحترم مواعيده مع الناس ، لأنه يعدها عقوداً بينه وبينهم .

إن له رأيه السياسى كمواطن مثقف ، ولكنه لم يحترف السياسة يوماً فى حياته ، وإنما احترف الإدارة علماً وعملا ، ووضعها فى خدمة بلاده . وهو يعتقد أن العالم العربى إذا كان متخلفاً عن أوربا وأمريكا فى التكنولوجيا فهو أشد تخلفاً عنهما فى الإدارة . ولو قورن المهندس العربى بالمهندس الأجنبى ، أو قورن الكيميائى العربى بالكيميائى الأجنبى لكان كل منهما أقرب إلى نظيره من المدير إلى المدير ، وعلى الرغم من أن الكاتب قد جاوز الستين فإن تفكيره الإدارى لم يشخ ، لأنه لايزال ينمو. إنه يتتلمذ على تلاميذه كل يوم إيماناً منه بأنه إذا كان أستاذهم بحكم السن فيما مضى ، فبعضهم أساتذته اليوم بحكم ما تهيأ لهم من تفوق علمى .

والكاتب بهذا يرى أنه ليس أقل استحقاقاً للتقدير من السياسيين فمشكلتنا مع إسرائيل — قبل أن نزيل هذه الدولة — هى أن نكون أو ألا نكون . ومشكلتنا مع الاستعمار هى أن نبلغ سن الرشد فى استقلالنا ، ومشكلتنا فى الاشتراكية هى أن نصل بها إلى مضاعفة الدخل ، ومشكلتنا فى الاجتماع هى أن ننجح فى تحديد النسل والطلاق وتعدد الزوجات .

إن الكاتب يعتقد أن الطريق السوى للتحرر هو أن نكافح الاستعمار فى أنفسنا، فالاستعمار مرض مستوطن كالبلهارسيا والإنكلستوما لا يهاجم إلا الضعفاء والفقراء . والشعارات والمظاهرات لا تقضى عليه وإنما يقضى عليه العلم والإنتاج .

إن المبادئ لا تعيش إلا فى ظل الإمكانيات . فالنظافة من الإيمان، ولكن أين للفلاح الفقير أن يكون نظيفاً إذا لم يكن لديه ماء نقى وصابون ؟ والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها ، ولكن ألا يدل الواقع على أن الحاجة أمّ الانحراف ؟

لذلك فإن الكاتب يؤثر المحاضر على الخطيب ، ينصت للخبير أكثر من الأستاذ ، يفضل الندوة على الاجتماع العام . يستفيد من التقرير أكثر من المقال ، يخاف من اللمعان إذا لم يكن للذهب ، وينصرف عن رجل الدين إذا لم يكن هو نفسه إعلاناً حياً عن التدين .

والكاتب يعرف أن الحق وسط بين باطلين، ولذلك يكره التطرف، ويحب الوقوف فى أحكامه بين الجبن والاندفاع ، بين التقتير والإسراف، بين الإيجاز والإطناب ، وهو اتجاه لا يجعل منه شخصية فذة ، وإنما يجعل منه إنساناً سوياً .

ولكن لماذا يكتب وهو من رجال الأعمال ؟

مادام يتقيد بالصدق فهو يجيب: «إنه فى الحلقة السابعة من عمره، يشبع رغبته فى أن يسجل حياته . إنه يعرف أن علَمه سيطوى بعد أيام أو بعد أعوام . وهو يود بهذه الذكريات الصادقة أن يبقى علَمه مرفرفاً بعد مماته . إن الناس — لأنهم أخفقوا فى مد آجالهم — قد وجدوا فى الذكرى امتداداً طبيعياً لأعمارهم ، فعكفوا على إقامة التماثيل لعظمائهم ، وتسمية الشوارع والميادين بأسمائهم . واستخدم الأثرياء منهم أموالهم فى إقامة المساجد والكنائس والمستشفيات ، بل فى تشييد الأهرامات والمدافن . أما المواطنون العاديون — مثل صاحبنا — فهم يستخدمون قدراتهم فى رسم

الصور القلمية عساها تعيش . ولعل فكرة الموت ورغبة التخليد هما اللتان تعللان مجيء التبرعات من الأغنياء فى سن متأخرة ، وكتابة الناس مذكراتهم فى سن متأخرة كذلك .

ولكن الرغبة فى التخليد ليست كل شيء . إن وراء هذه الذكريات هدفاً أسمى هو أن يزيد إيمان الناس بالله . وإذا كان العلم يؤكد لنا أن لكل نتيجة سبباً . فإن الواقع يرينا أن من الناس من جد ووجد ، ومنهم من جد وأخفق ، كما أن منهم من لم يكن يستحق بعمله شيئاً من النجاح ، ولكن الظروف هيأت له أكثر مما يستحق . إن هذا الكون لغز محير ، وما نعرف منه قطرة فى بحر من المجهول ، فعلينا ألا نيئس من الحياة إذا أخفقنا ، وألا نستنيم إذا أصبنا منها ما نبغى . ولنعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً ، ولكن لنؤمن دائماً أن للقدر يداً فوق أيدينا .

هدف آخر يكتب من أجله هذه الذكريات. إنه يقدم فيها نموذجاً لإنسان عادى بدل أن يتحدث عن الإنسانية . ولعل من الخير أن نتمثل شخصاً صحيحاً بدل أن نقرأ عن الصحة . ولعل من الأفضل أن نشاهد فتاة فقيرة بدل أن نقرأ عن الفقر . إن الإنسان لايزال أهم موجود على هذه الأرض ، فهو الذى اكتشف القارات والحاسبات الإلكترونية ، وركب متن الطائرات والصواريخ . ودراسته لا تزال أعقد من دراسة الميكانيكا والكيمياء ، فلعل هذه الذكريات تصلح صورة قلمية لاتجاهاته إذا لم تكن تحليلا علمياً لقدراته .

ولكن هل تأثر الكاتب فى عرض ذكرياته بالأيام لطه حسين ؟

إنه يحب القصص منذ كان يكتبه ، وهو طالب فى مدرسة التجارة العليا ، فتنشره المجلات الأدبية — ومنها الرسالة — اعترافاً بمستواه . والقصص بعض بضاعته التى يقدمها الآن فى دار المعارف ، ثم إنه وجد نفسه منذ صغره فى توافق مع شخصية طه حسين ، بعد أن قرأ له كتاب «الأيام» ، فعرف منه أن عميد الأدب العربى نشأ فى بيئة أزهرية كان هو يعيش فيها ،

وأن نشأة العميد كانت حزينة ، وكان الكاتب لا يزال يعانى هذه النشأة.
ثم إن طه حسين أصبح مديراً لجامعة فاروق والكاتب مدرس بإحدى كلياتها ، فأتيح له أن يرى طه حسين الجامعى بعد أن تابعه عميداً للأدب العربى .

وترك الكاتب الجامعة إلى الصحافة فاتصل بطه حسين وزير المعارف ، ولمس فى تصرفاته اشتراكية أصيلة غير مطرقة صدر عنها مبدؤه المشهور : « التعليم كالماء والهواء حق لكل مواطن » .

ثم ترك الكاتب مهنة الصحافة إلى مهنة الكتاب ، فتولى نشر « الأيام » مع ما ينشره من كتب طه حسين . ورأى بالأرقام مدى إقبال القراء على هذا الكتاب وتأثرهم به .

على أن الكاتب اختلف فى الرأى مرة مع طه حسين وإن كان قد نزل أخيراً عند رأيه .

كان الكاتب مديراً لجريدة المصرى ، وكان يعمل معه صحفى يتأخر فى تقديم مواده ، فتتأخر الجريدة بسببه . وبعد أن أنذره غير مرة فصله من عمله ، فوصل الخبر إلى الدكتور طه حسين ، وكان الصحفى أحد تلاميذه فى كلية الآداب ، فغضب لذلك غضباً شديداً ، وعلم صاحبنا بالأمر فاتصل تليفونياً بالدكتور ، ليعرف سبب غضبه ، ودارت بينهما هذه المناقشة :

— هل صحيح يا دكتور أنك غاضب منى ؟
— ومن أدراك يا سيدى أنى غاضب ؟ هل هى عقدة الذنب ؟
— أؤكد لك يا دكتور أننى لا أشعر بخطأ فضلا عن ذنب ، ولكننى أجد من واجبى أن أسترضيك حين تغضب .
— يا سيدى أنت مدير ، ومن واجبك أن تحضر وأن تنصرف فى مواعيد محددة . أما الكاتب فهو يكتب حين يستوحى لا حين تريد أنت .

— إنه — حين تعاقد معي على أن يعمل صحفياً — قد قبل أن يقيد نفسه بمواعيد الجريدة .

— لا يا أخي . إن حرية الكاتب لا يمكن تقييدها بعقود .

— ليكن . ويكفي هذا الصحفي أنه تلميذك لكي يستحق العودة إلى عمله . إنني كمدير أرى أن الحفاظ على صداقتك للجريدة كسب يزيد كثيراً على خسارتها بإعادة تلميذك .

— إنك تعتقد أن منطق المكسب والخسارة هو منتهى ما يصل إليه النجاح ، وأنا أؤكد لك أن في الحياة من المثل العليا ما يعلو على هذا المنطق .

قلت : هذا درس جديد أضيفه إلى مكسبي . وانتهى الحديث .

لقد خرج الكاتب من هذه المناقشة بأن رجال الأدب لا يجوز مطالبتهم بأن يكونوا رجال أعمال . إنهم زهور تملأ الدنيا عبقاً ، والزهور تنبت في الحدائق لا في المصانع والحقول !

وماذا بعد ؟

أما بعد فإن هذه الذكريات محاولة صادقة لنقد ذاتي . والكاتب يرجو أن تنجح هذه المحاولة فتدعو إلى محاولات أنجح .

# رأس أزهرىّ فى طربوش !

- ١٩١٦ -



لم يكن يوماً زعيماً سياسيًّا ، فلا هو انتظم فى عضوية إحدى لجان الطلبة خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها ، ولا دعا مرة فى إحدى المناسبات السياسية للإضراب فى مدرسته احتجاجاً أو ابتهاجاً . كان تلميذاً مجتهداً فقط : يحضر إلى المدرسة بحارة الروم فى موعدها المقرر ، ويدخل الفصل فى هدوء ، فيبقى فيه إلى أن يرى الأدراج قد خلت من حوله ، فيأخذ ماشاء من كتبه وينصرف إلى منزله فى الباطنية .

ولعل السر فى هدوئه أنه فقد أمه قبل أن يبلغ السنة الأولى من عمره ، فتولته إحدى المرضعات ، ثم أسلمته إلى إحدى الخادمات ، فلقى من جهلهما ما يلقاه أهل الريف من سحابة على العين ، وأمراض مستوطنة ، وخرافات تملأ الرأس الصغير ، وبقى الطفل يلعب الكرة « الشراب » مع أترابه فى أزقة القرية حتى دخل كتاب الشيخ «أبو درويش» ، ووصل فى حفظ القرآن إلى سورة القصص ، فأعد رأسه لدخول العمامة ودخول الأزهر .

ولكن قريباً له جاء مع أبيه يوماً فى زى الأفندية — وكان تلميذاً فى إحدى مدارس الإسكندرية — فأثار بزيه إعجاب أهل القرية جميعاً ، وكأنما كان يحمل عصا سحرية فإذا والد الصبى — وكان من شيوخ الأزهر — يدخل عليه منبسط الوجه والعمامة ويقول : « ستلبس بدلة مثل قريبك وتدخل المدرسة » .

وجاء يوم الرحيل إلى القاهرة ، فدارت الدنيا بالصبى من كثرة العوامل التى تدعو إلى فرحه والعوامل التى تدعو إلى حزنه . إنه يترك قريته الصغيرة إلى «مصر» ، أم الدنيا ، ليرى معجزاتها التى منها — كما كان يسمع — أن الماء ينساب فى ماسورة تمتد مع الحائط ، والنور يتدفق فى خيط يتدلى من السقف ، وأن الترام يجرى وحده فوق قضبان دون أن يجره حصان ، وأن

حديقة الحيوان فيها أسد يزأر وفيل ينأم ، وفيها من عجائب البحر ما يقلب الفلك وهى تسير . ثم إن فى مصر مسجداً لسيدنا الحسين ، ومسجداً للسيدة زينب ، فيهما تقام الموالد الحافلة والأذكار .

كان يطرب حين يفكر فى هذا كله ، ولكنه كان يحزن حين يخطر بباله أنه سيترك امرأة عمه إلى امرأة أبيه . إن الأولى هى التى قامت بدور أمه منذ فقدها ، فاحتضنته ، وأحاطته برعاية لم يكن يتمتع بمثلها طفل فى القرية . لم ترزق بخلف فصبت حنانها فيه ، وكانت فارسة تركب الخيل ، وزعيمة تسير على رأس نساء القرية كلما كان فيها محزنة ، أو كان فيما جاورها ما يستحق المشاركة . كان الصبى يحب القاهرة بعقله . ولكنه كان يكرهها بقلبه ، لأنه لا يستطيع أن ينتزع نفسه من دنياه الصغيرة التى نشأ فيها ، ومن ناسها الذين عايشوه ، ومن ساقيتها التى كان يطيب له أن يدور فيها حتى ينفد الماء من بئرها فتظهر الأسماك متخلفة فى القاع .

وركب القطار مع والده من « أبو كبير » لأول مرة . وفى حى الباطنية بالقاهرة قضى ليلته الأولى ، فلما كان الصباح ذهب به أبوه إلى بائع الملابس بالغورية ، وطلب منه أن يعد للصبى ما يلزمه لدخول المدرسة ، فاختار الرجل بدلة وحمالة وقميصاً وربطة عنق طواها جميعاً فى غلاف دون أن يستشير الطفل فى اللون أو الوالد فى المقاس ، فقد كان واضحاً أن هذه هى تجربتهما الأولى . ولم ينهض الوالد لممارسة حقه كمشتر إلا حين طلب منه الرجل جنيهين كاملين ، فاستعان الوالد بما يحفظ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما روى عن السلف الصالح ، حتى بلغ التأثر بالرجل مبلغه فقبل أن ينزل بما يطلب إلى جنيه ونصف جنيه .

وجاء يوم المدرسة التحضيرية — وكانت الجمعية الخيرية بدرب الجماميز — فحاول الصبى أن يرتدى ملابسه ، ولكنه عجز . واستغاث بوالده ، فوضع الحمالة فى عنقه ، فلم تؤد مهمتها على الوجه المطلوب ،

ثم عرف من خرومها أنها لأزرار البنطلون ، ولكنه يدير أطرافها حول وسط الصبى فلا تستقيم ، ويمطها فتأبى أن تستطيل . إن فيها جهازاً للتطويل لا يستطيع أن يستخدمه، والساعة اقتربت من الثامنة ، فلم يجد سبيلا إلا أن يأخذ ولده فى ملابسه الداخلية إلى الطريق العام !

كانت الأسرة تسكن فى حارة ملتوية لا يغشاها أفندية ، كانت حافلة بصنوف من صناع الأحذية والمراكيب الذين لا يكفون عن الدق طول النهار وطرفاً من الليل . أما الأفندية فكان لهم مسار آخر يتصل بمفترق قريب ، وكان السكان يذهبون إلى هذا المفترق كلما احتاجوا إلى شىء من البقالة أو الفجل . وإلى هذا المفترق جاء موظف فى طريقه إلى المصلحة يشد حبات مسبحته فى عصبية بادية ، وكان يردد فى سره عبارات لا خشوع فيها ، وكأنه يتوجه إلى الله قائلا : «هات علاوة.. هات علاوة » ، ولذلك لم يرتح له الشيخ أول الأمر ، ولكنه — تحت ضغط الظروف — استوقفه ، وأخرج له ملابس الصبى من « البقجة » راجياً أن يدله على طريقة استعمالها . فارتسمت على فم الأفندى ابتسامة خفيفة ، ولكنه رحب بالمهمة ، وشرح للشيخ وظيفة الحمالة بشعبها الثلاث ، أما ربطة العنق فبقيت معقدة أشد التعقيد ، ولذلك قنع الشيخ برؤية ولده وقد استدارت الربطة حول عنقه .

وجلس الصبى فى الفصل شديد الضيق بمقعده الخشبى ، وبما يحيط بجسمه من ضوابط : فالحذاء فى قدمه ، والربطة فى عنقه ، والطربوش على رأسه ، والجاكتة تحوط صدره ، والبنطلون يشد بطنه ويفصل رجليه ، مع أنه كان إلى الأمس القريب يمرح فى القرية فى جلباب فضفاض ، ويلعب الكرة بقدميه العاريتين .

ولاحظ الشيخ سعيد مدرس الفصل أن الصبى لا يشارك زملاءه فى مرحهم ، ولا يشترك معهم فى إجاباتهم الجماعية عن أسئلته ، فناداه من بينهم ، وطلب إليه أن يطالع الصفحة الأولى من القراءة الرشيدة ،

فإذا الصبي يلتهمها بعينيه التهاماً ويقرأها متدفقاً « أرنبٌ . جملٌ . حصانٌ قطةٌ . غزالٌ .. » فدهش الشيخ سعيد لقدرة الصبي . وسأله عن اسمه ، فأجاب فى نفس واحد : « السيد الصادق عبد المعطى أبو النجا من كفر عيسى أغا مركز فاقوس شرقية » ، فضحك الشيخ سعيد من سذاجة الصبي وسأله عن أبيه ، فأجاب فى نفس واحد أيضاً : « الشيخ محمد الصادق أبو النجا من علماء الأزهر الشريف بحارة الباطنية نمرة ( ٦ ) » . وكان والد الصبي قد لقنه كل هذه المعلومات ، وأعادها عليه مرات حتى حفظها خوفاً من أن يضل فى طرقات القاهرة فيتعذر عليه أن يدل على منزله .

قال الشيخ سعيد : « أين تعلمت يا شاطر ؟ » فأجاب الصبي : (حفظت من القرآن حتى سورة القصص فى كتاب سيدنا الشيخ « أبو درويش » وتعلمت الحساب حتى الكسور الاعتيادية فى مدرسة الشيخ عبد الواحد) . فربت الشيخ سعيد على كتفه وقال : «ماشاء الله. انتظرنى يا بنى بعد الدراسة فإننى أريد أن أذهب معك لمقابلة أبيك.» ..

وحاول الشيخ سعيد أن يقنع والد الصبي بنقله إلى السنة الأولى فى مدرسة أخرى — ولم يكن فى مدرسة الجمعية الخيرية سوى السنة التحضيرية — ولكن الوالد أصر على ألا يرسل ولده — وكان فى السادسة — إلى مدرسة بعيدة فيتعرض فى الطريق لعربات الكارو والحنطور .

ولم يكن بالشقة التى يسكنها الصبي إلا مصباح صغير نمرة (٥) يضاء بالكيروسين يتداوله أفراد الأسرة فيتنقلون به من غرفة إلى أخرى . ولذلك كان يستذكر دروسه فى الأزهر الشريف الذى كان يضاء بغاز الاستصباح. واشترى له أبوه مصباحاً نمرة ( ١٥ ) كان يربطه بحبل فى العمود فيضيف إلى نور الغاز نور الكيروسين. وكان لهذا الامتياز أثره فى التلاميذ الذين كانوا يستذكرون فى الأزهر، فتقرب منهم كثيرون إلى الصبي، ليسمح لهم بالمطالعة معه فى ضوئه .

وكان بين الأولاد تلميذ فى الجمعية الخيرية يتوسم فيه والد الصبي الفطنة والذكاء ، فنى إحدى الأمسيات جاء الوالد للتفتيش وسأل ابنه إن كان قد تعلم شيئاً من الإنجليزية ، فأجاب بالنفى ، ولكن هذا التلميذ خالفه فى خبث ، وأنشأ يلقى أحرف الأبجدية الإنجليزية فى تتابع — وكان قد حفظها من قبل — فظن الوالد أن التلميذ بدأ ينطق هذه اللغة فعلا بعد أيام قليلة ، وثار على ولده ، وأقسم ليضعن أرجله فى الفلقة ، فبكى الصبي ماشاء الله له أن يبكى ، وضحك زميله ما شاء الشيطان له أن يضحك .

وجاء يوم عقد فيه الشيخ سعيد امتحاناً لتلاميذه ، وأعلن قبله أن من يكون الأول سيعين « ألفة » على الفصل ، فسعد الصبي بهذا الإعلان ، لأنه كان يطمع فى أن يكون على رأس فصله ، ولكن شيئاً خفياً كان يقلقه ، فماذا يحدث ياترى لو ظهرت النتيجة دون أن يكون فيها «الأول»؟!

وعلى الرغم من هذه السذاجة البادية كان الصبي أول التلاميذ وصار الأول فى السنوات كلها بعد أن انتقل إلى مدرسة العقادين حتى حصل على الشهادة الابتدائية . وذلك لأن دراسته الأولى فى كتاب الشيخ « أبو درويش » ومدرسة الشيخ عبد الواحد كفلت له تفوقاً على أقرانه فى اللغة والحساب ولكن ذهنه بقى ريفياً لم يتفتح . كانت معلوماته أكثر . . . وثقافته أقل .

كانت دنيا الصبي تحدها تلال المقطم من الشرق وميدان العتبة الخضراء من الغرب . وكانت السوق هى الغورية والسكة الجديدة . أما الموسكى فللأغنياء فقط : فى وسطه محل الجمال للملبوسات وفى نهايته محل الماوردى للمفروشات . وما بعد العتبة الخضراء حرام على المصريين ، لأن محال سلامندر وشيكوريل وشملا أجنبية للمبرنطين : الحديث فيها رطانة ، والداخل إليها يتمتع بالامتيازات الأجنبية ، والأسعار فيها فوق دخول الفلاحين والموظفين .

وكان صاحبنا لايرى بأساً فى أن يخرج بالشبشب ، لكنه إذا نوى الذهاب إلى العتبة لبس مايساوى عنده «البنجور» ، وهو الجاكتة فوق الجلباب

مع الطربوش والحذاء . فإذا كان الجو حاراً فى الصيف ركب «سوارس» بثلاثة مليمات ، وإذا ارتفع مافى جيبه إلى خمسة مليمات ركب أوتوبيس سيد يس ، وتلفت ذات اليمين وذات الشمال عساه يرى أحداً من أصدقائه سائراً على قدميه ، فيحييه ، ليلفت نظره إلى العز الذى هو فيه .

وكان يقضى عصر الخميس بالتناوب بين شبرا وقصر النيل مع بعض من يكبرونه سناً من الأزهريين . أما شبرا فبقرب النيل لغسل الملابس ونشرها ، ثم إنفاق الوقت فى لعب الكرة حتى تجف ، وأما قصر النيل فلمص القصب حيث كان يزرع فى أرض المعرض الحالية . وكانت الجماعة تدفع قرشاً واحداً تشترى به من الزراع عشرة عيدان تجد فى مصها حتى إذا أتت على أغلبها بدأت تعتدى على العيدان المزروعة حتى تحس بالاكتفاء فتجهز على ما بقى من عيدان مشتراة .

كان صاحبنا ينفق فى هذا ومثله أوقات فراغه لأنه كان لا يحب بيته . إن أمه ليست فيه ، وامرأة أبيه تعطيه ابنتها الصغيرة ليحملها ، فيضيق بها بعد حين ، فيقرصها فى فخذها لتبكى ، ثم يتظاهر بإسكاتها ، فتقبل أمها عطفاً عليها ، ولكن الأم كانت تعنفه على خيبته فى مداعبة أخته ، وتغلظ له فى القول أحياناً كثيرة . والبيت كان فراغاً كله إلا من سرير والده الذى يمثل المرتفع الوحيد فى الشقة . كانت الأرضية من البلاط المعصرانى ، وكان لكل فرد حشية ترفع من مكانها متى قام من نومه . والطعام يتألف فى أغلب الأحيان من مستخرجات الفول حتى يجىء يوم الجمعة فيتحلق الجميع حول طبلية عليها رطل من اللحم المسلوق وطبق من الثريد .

لقد كان أبوه يتقاضى فى الشهر ثلاثة جنيهات ، ينفق منها ثمانين قرشاً فى إيجار الشقة ، ويعتمد فى الخبز على « الجراية » وهى ستة أرغفة تأتيه يومياً من وقف خيرى ، مع تكملتها بدقيق يأتيه من أرض زراعية يملكها فى الشرقية ، فيخبز منه فى فرن البيت ما يكمل به حاجة الأسبوع .

وقد جرى العمل على أن تباع الجراية صباح الجمعة مادام فى البيت خبز طازج ، وبالثمن تشترى وجبة فول . وكان صاحبنا يقوم بهذه المهمة فيدور بالأرغفة فى سوق الجراية على من يتوسم فيهم الرغبة فى شرائها ، ويعود فيأخذ طبقاً كبيراً يملؤه فولا وزيتاً .

وفى أيام الدراسة كان أبوه يعطيه خمسة مليمات يشترى بها إفطاره ، ويلف له رغيفاً وقطعة من الجبن أو العجة لغدائه ، فإذا لم يكن فى البيت ما ينفع للغداء أعطاه خمسة عشر مليما للإفطار والغداء معاً ، وترك له حرية التصرف . وإذا بدت هذه المعاملة قاسية اليوم فإن وقعها على صاحبنا لم يكن بمثل هذه القسوة . فقد كان ينظر إلى المخالطين له من الأزهريين فيجد نفسه أحسن منهم حالا وأكرم مستوى . كان يرى الأزهرى يشترى من بائع الطرشى بمليمين هو مع الخبز كل غدائه ، ويعود إلى نفس البائع فى المساء برغيف يطلب منه أن يرش عليه شيئاً من ماء اللفت ، فيكون الرغيف المبلل كل عشائه . أما وليمة الأسبوع فهى طبق من الفول المدمس يطهى مع سمن من المحلبة وبصلة مما فى الخزانة ، أو هى طبق من الطعمية يشترى من عند « مهيأ » ومعه بعض الطحينة . وحين نبلغ السعة مداها يجتمع الفول والطعمية فى وجبة واحدة ، فتنتقل الأيدى من لون إلى لون. وإذا سخا الأزهرى على نفسه انتقل إلى «المسمط» فطلب ثريداً ولحم رأس بقرش كامل. أما الأطعمة الأخرى كالكباب والفاكهة وصنوف الحلوى فلم تكن فى رأيه للتغذية، وإنما كانت للتفكه مرات فى السنة !

وكان الأزهر معهداً ومسجداً ومسكناً : يتعلم فيه الأزهرى ويصلى ويعيش . ومتى جاء الليل تحول المسجد إلى ساحة للنوم تحتوى مئين من ذوى العمائم والطرابيش والطواقى ، وتضم الطلاب والمقرئين والشحاذين . وفى رمضان يكثر عدد المقرئين فى العاصمة فيتوافدون فى المساء على الأزهر ليناموا على حصيره ولينعموا بدفئه ، ومعهم ما جمعوه فى المقابر من بلح وفطير .

وفى إحدى الليالى ضاق الصبى بهؤلاء المتطفلين ، فتآمر مع زملائه على مطاردتهم . لقد حشا كمية من الشطة فى ماسورة من الورق ، ورأى حانوتياً مستغرقاً فى النوم ، وقد أسند رأسه فوق ربطة مما أعطاه الله فى أثناء النهار ، فنام إلى جانبه ونفخ الشطة فى أنفه فى أثناء شهيقه ، فنهض واقفاً من أثر ما حل به ، وإذا هو يرى صبيين يجريان وفق ترتيب سابق فجرى فى إثرهما ، وقام الذى كان نائماً فنثر ما فى الربطة على أرض المسجد . وتجمع الأزهريون من كل مكان ليأكلوا ويشمتوا . وتكرر هذا الفصل مرة بعد أخرى مع المقرئين والحانوتية حتى امتنعوا جميعاً من غشيان الأزهر.

ومهما يكن من شىء فقد كان هذا الحى جميلا فى جميع فصول السنة إلا فى الشتاء حيث ينزل المطر ، فتتحول الحوارى إلى بحيرات يتعذر السير فيها ، فيجد باعة البطاطة من الأربح لهم أن يتحولوا عنها إلى استخدام عرباتهم فى نقل الآدميين .

وقد ينزل المطر على الأسقف الخشبية للمنازل فلا تحجبه عن الغرف ، وإنما تفسح له الطريق ، فإذا السكان يستقبلونه فى جرادل يضعونها فى وسط الغرف ، ثم يستديرون حولها فيتبادلون الحديث على خرير الماء حتى يمتلئ الجردل فتحمله إحداهن لتفرغه فى الحمام ، ثم تعود به ليؤدى رسالته من جديد .

ولكن هذا الحى مع ذلك كان مسرحاً لأحداث سنة ١٩١٩ . كانت المظاهرات العاتية تتجمع فى صحن الأزهر ، ثم تتدفق منه هائجة غاضبة بعدما سمعته من الخطب والقصائد . وإن صبينا ليذكر سعداً وهو يعتلى منبر الأزهر بعد صلاة الجمعة ، ويذكر الشيخ مصطفى القاياتى وهو ينشد قصيدته عن تهجم الإنجليز على مساكن الفلاحين بالبدرشين فيقول :

أو َما علمتم ما جرى      بالبدرشين من الدمار
سلبوا الحلى من النسا      ء وخربوا البلد العمار

ويذكر من قصيدة حافظ إبراهيم فى مظاهرة قامت بها السيدات قوله :

خـــرج الغوانى يحتججـ ... ـن ورحت أرقب جمعهنه
وأخذن يجتزن الطـــريـ ... ـق ودار سعد قصـــدهنه
وإذا بجيش مقـبـــل ... والخيـــل مطلقة الأعنه
وإذا الجنـــود سيوفها ... قـــد صوّبت لنحورهنه
والورد والريحـــان فى ... ذاك النهـــار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان سا ... عات تشيب لها الأجنه
فتضعضع النسوان والـ ... ـنسوان ليس لهن مُنّه
فليهنأ الجيش الفخـــو ... ر بنصره وبكسرهنه

وهذا الشعر السياسى يعود بذاكرة صاحبنا إلى وراء ... إلى واقعة دنشواى التى قال فيها شوقى :

يا دنشواى على رباك سلام ... ذهبت بأنس ربوعك الأيام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها ... وبأى حال أصبح الأيتام
نيرون لو أدركت عهد كرومر ... لعرفت كيف تنفذ الأحكام
السوط يعمل والمشانق أربع ... متـــوحدات والجنود قيام
والمستشار إلى الفظائع ناظر ... تدمى جلود حوله وعظام

راجت سوق الشعر فى الحى بسبب السياسة ؛ فعالج غيرها من الأغراض، فلما عاد الشيخ النجدى شيخ « الشراقوة » من الحج استقبله الشيخ الأحرازى بقصيدة كان مطلعها :

عجبى لبحر فوق ظهر سفينة كيف استطاعت أن تسير وتعبرا

ولما رقى الشيخ محمد شاكر سكرتيراً عامًّا للأزهر هنأه الشيخ الأحرازى بقصيدة قال فيها :

تنقل فدتك النفس فالمنصب الأعلى يناديك أهلا مذ رآك له أهلا
خطبت له كفئاً كفيلا بمجده خبيراً به شيخاً مهيا له طفلا

لقد اندمج الصبى فى وسطه الجديد ، ولكن قريته بقيت حبيبة إلى قلبه ، يحن إليها كلما انتهت السنة الدراسية ، وقربت إجازة الصيف ، وقد كان يستعد للسفر فيشترى فانلات ملونة ذات كم طويل وجلبابين من الزفير الفاخر وزجاجة من القسيس ذى العطر الحاد وعصا من الأبنوس يتوكأ عليها فيبدو كبير المقام . وهو لا يزال يذكر صيف سنة ١٩١٩ ، فقد نزل من القطار فى ههيا ، لأن القطار تعطل فيها ، وامتطى دابة كانت فى انتظاره ، لتحمله إلى كفر عيسى . وفى الطريق مر على بلدة شرشيمة فإذا فلاح منها يتعرض له ويطالبه بالنزول من على حماره ، فلما سأل الصبى مرافقه عن سبب ذلك ، طلب إليه أن يطيع ، فالبلدة واقعة فى تفتيش أحد الأمراء ، والأمير هناك . وسار الصبى مطرقاً مع مرافقه خلف الحمار ، حتى جاوز البلدة . . وأدرك الصبى أحد الأسباب التى أدت إلى قيام ثورة ١٩١٩ ، وإن بقيت غير معلنة . .

# زهرة الصبا تتفتح

- ١٩٢١ -



اشتد عود الفتى ، بعد أن أصبح مراهقاً يقف على أبواب الرجولة ، وكان يستعجلها فيحلق ذقنه قبل أن ينبت بها شعر . ويدخن أمام الناس برغم أن التدخين يسبب له السعال ، ويمسك فى يده « منشة » يهش بها على نفسه دون أن يكون فى الجو ذباب ولا ناموس .

وقد بدأ يتأذى من أثر كي بالنار فى قفاه أحدثه أعرابى ليشفيه من حمى أصيب بها وهو صغير . فكان يسير وقد شد رأسه إلى خلف ليمتد شعره فوق قفاه فيغطى أثر هذا الجرح . وكان شد الرأس يستدعى شد القامة ، وشدها يفرض مشية فيها خيلاء .

ويبدو أن الشعور بالنقص من أثر هذا العيب الجسمى قد انقلب بمضى الوقت إلى شعور بالاستعلاء ،فقد لاحظ الفتى أنه حصل على الشهادة الابتدائية ولما يصل إلى الثالثة عشرة من عمره ، ورشحه مجموع درجاته لأن يدخل المدرسة الخديوية ، وكانت تتقدم المدرستين الأخريين فى القاهرة ، وهما التوفيقية والسعيدية . يضاف إلى هذا أنه متفوق فى النحو والصرف ، لا يكاد الشيوخ من أعمامه يرونه مع أبناء عمومته حتى يمطروهم بوابل من الأسئلة فى إعراب جملة معقدة مثل « ف القنديل زيتاً » وفى تحويل المبنى للمعلوم إلى مبنى للمجهول مثل: « كان الله فى عونهم» ، لتصبح « كين فى عونهم » وفى اسم الفعل لتتحول جملة « اجلس ياغلام » إلى « جلاس ياغلام » وفى اسم الإشارة للمؤنث السالم مع التأكيد لتصبح « هؤلاء » هؤلياثكن .. إلى آخر هذه المعميّات التى لا تؤدى إلى تبسيط اللغة وتحبيبها إلى التلاميذ ، وإنما إلى تعقيدها وإبعادها عن أفهامهم الصغيرة .

وكان تفوقه فى حل هذه المشكلات اللغوية يزوّده بشحنة من الاعتزاز بالنفس ، فيتيه على أترابه بعلمه ، ويستعلى عليهم باستقامته . ولكن

فتيات الأسرة كن يفضلن سائر الفتيان عليه ، لأنه كان فى رأيهم « كفقهاء الكتاتيب ومشايخ الطرق : لا يعرف النكتة الحلوة ، ولا المرح الجذاب . لقد تأخر به الزمان فعاش فى غير زمانه » .

كانت القاهرة تغلى بالثورة ، وكان الرصاص يتساقط كالمطر من بنادق الإنجليز ، وكان القناصون من الطلبة والعمال يصطادون الإنجليز فى الشوارع وعند خروجهم من المكاتب ، وكانت الاجتماعات والخطب سبيل التوعية للشعب كلما صودرت الصحف واحدة بعد أخرى .

وأراد الفتى يوماً أن يعبر عن كراهيته للإنجليز ، فاتفق مع عدد من رفاقه فى الفصل على ألا يقفوا للمدرس الإنجليزى حين يدخل . وكان ناظر المدرسة هو مستر « فرنس » . فلما بدأ التحقيق سأل الفتى لماذا لم يقف ؟ فأجاب : « كنت أبحث عن ريشتى التى وقعت تحت التختة » فسأل التلميذ الذى يجلس خلفه فقال : « كنت أعطيه إياها » ، فاستشاط الناظر غضباً ، وقضى بسجن الاثنين ثلاثة أيام ، والسجن كان فى زنزانة مع الخبز الحاف . فلما كان العصر لم يعد الفتى إلى بيته فى الموعد ، فبحث عنه والده فى كل مكان إلا فى المدرسة . ولما عاد فى المساء ، وعرف منه الخبر ، ذكره بمبدئه الذى كان يعيده عليه دائماً وهو أنه يضرب ابنه ظالماً أو مظلوماً ، ولكنه اكتفى بتعنيفه هذه المرة حتى الصباح . وذهب إلى الناظر يستفسر عن جلية الأمر ، فلما عرف منه ما حدث ألح عليه ألا يترفق بولده ، وأن يضربه فى فناء المدرسة أمام سائر التلاميذ شرط ألا يحرمه الدروس . فرق قلب الناظر ، وأخذ يتلمس المعاذير للفتى ، ثم صفح عنه وعن زميله .

فيما عدا هذه الحادثة لا يذكر الفتى أنه كان محرضاً على شىء . كان يسير مع إخوانه فى المظاهرات فتدفعه فى سيرها إلى حيث تنتهى ، أو إلى حيث تفرقها الشرطة ، فيبحث عن نفسه فإذا هو فى مكان لا يعرفه . فيسأل الناس عن الطريق حتى يصل إلى حى الأزهر حيث يسكن .

لقد أصبحت المظاهرات لكثرتها شيئاً عادياً فى حياته ، ولم يكن يفهم لها هدفاً سوى أنها بديل عن الدروس : تبدأ بالتصفيق ، فيكون دعوة إلى التجمع فى فناء الكرة حيث يعتلى القائد كتف أحد إخوانه ويهتف : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » ، فيردد الجميع هتافه ، وتدب الحمى فى نفوسهم فيتدفقون نحو الباب الخارجى ، ويسدون المسالك فى الحلمية حتى يتركوها إلى حى لاظوغلى . ولم يكن الفتى يعرف سبباً لاختيار هذا الحى بالذات فى كل مرة ، حتى أخبره أحد زملائه أن الوزارات تقع فيه . وكان يقع فيه أيضاً بائع فول متخصص فى بيع الشطائر : يملأ الرغيف فولا وطعمية وفلفلا أخضر وطماطم ، ويبيع ذلك كله بخمسة ملاليم ، فيزود الفتى نفسه بواحد من هذه الأرغفة المنبعجة ليقوى على السير وترديد الهتافات . وكانت المظاهرات تلتقى فى الميادين فيمتزج بعضها ببعض ، وتكبر حصيلتها ، ويستفحل أمرها ، فلا يرى رجال الشرطة بداً من استخدام خراطيم المياه فى تفريقها . ويعود الفتى إلى أبيه مبتل الملابس فيعنفه أشد التعنيف .

وكانت النفوس البشرية تظهر على حقيقتها عند ظهور الشرطة . فمن الناس من يثبت فى المعركة ، فيتناول الأحجار ويقذف بها فى وجوه الإنجليز ، ومنهم من يقذفها فى كل ناحية فيصيب بها الجنود المصريين وزملاءه من المواطنين ، ومنهم من يجرى إلى أقرب برميل للنفايات فيختفى فيه ، ويطل برأسه بين وقت وآخر ، ليحض الناس على الثبات فى المعركة ! ومنهم — مثل الفتى — من يجرى إلى الأزهر فيفتح كراسته ويعمل القلم فيها على التو .

كانت الدراسة تعتمد على القوة الحافظة فى التلاميذ ، وعلى القدرة التلقينية فى المدرسين . كان مدرس الجغرافيا يمتحن تلاميذه فى المحطات التى يقف عليها القطار فى سفره من القاهرة إلى الإسكندرية ، فيجيب التلميذ : قليوب — بنها — طنطا .. فيضربه المدرس بالمسطرة على يده

قائلا : « نسيت شبرا » فيقول التلميذ : « القطار إكسبريس يا أفندى » !

وكان الفتى يحفظ كتاب « عمر الإسكندرى » فى التاريخ عن ظهر قلب ، وتظل المحفوظات طافية فوق سطح ذهنه حتى يجىء الامتحان فيفرغها على ورق الإجابة مادة أولية لم تتفاعل فى نفسه ولم تتحول إلى ثقافة . وقد هم يوماً بحفظ قاموس أكسفورد ليتعلم اللغة الإنجليزية دفعة واحدة .

وكان مدرس اللغة العربية يعطى الفصل نماذج من الإنشاء يطلب من التلاميذ حفظها ، ويذكر منها الفتى نموذجاً عن المطابع هذا نصه :

« هى المطابع . فحدّث عنها ولا حرج . فإنما الشىء بآثاره . والرجل بأعماله ، والسيف بحده ، انظر بما تقدمت الأمم وارتقت ، وأخذت زخرفها وازينت . وبما استنارت عقول أفرادها ، واتسعت مداركها ، وهديت الصراط المستقيم ، ونالت الخير العميم ... » إلى آخر هذه الألفاظ المصفوفة .

ولم يكن هذا الاتجاه غريباً على الفتى ، فهو من بيئة أزهرية . كان يرى أخاه فى الأزهر يحفظ الحساب حفظاً ، فإذا جاء الامتحان لم تخرج الأسئلة عن عدد مختار من المسائل التى درسها الطلاب فى أثناء السنة بنصها وأرقامها . وكان أخوه يكتب الحلول على ورقة الإجابة من حافظته لا من تفكيره .

وكان الشيخ فى الأزهر إذا تكلم عن الفاعل والمفعول استشهد بالجملة التقليدية « ضرب زيد عمراً » ، وكان الطلاب يستشهدون أيضاً بهذه الجملة ، فلا يجرؤون على جعل الضارب محمداً والمضروب بكراً . وقد سمع الفتى أن أحد المجددين من الشيوخ قال لأحد القدامى : « ارحم عمراً من ضرب زيد إياه » فرد عليه : « والله لا أرحمه حتى يرد الواو التى سرقها من داود » !

وكان النقاش بين الشيوخ إذا احتد ، وأراد أحدهم أن يتهم صاحبه

بعدم الفهم، قال له: هل أتحدث إلى « ما »؟ مشيراً إلى أن « من » للعاقل و « ما » لغيره !

ومضى الفتى يدرس فى الخديوية حتى جاء إليها يوماً مدرس من خريجى دار العلوم عاد من بعثته فى إنجلترا ، فتولى تدريس اللغة العربية للفتى فى السنة الرابعة ، وقلب تدريسها رأساً على عقب . لقد طلب إلى تلاميذه أن يكتبوا فى الموضوع الذى يختاره كل منهم ، فكتب بعضهم فى الحب ، وكتب واحد عن « وردة على غصنها تتكلم » وكان الفتى متصوفاً فأنشأ يقول :

إلهى أنت رب العالمينا      فحاسبنا الهوينا أجمعينا
بعدلك لاتحاسبنا ولكن      بفضلك سع جميل المسلمينا

ولفتت هذه الأبيات نظر الأستاذ هاشم — وهذا اسمه — فطلب الفتى وسأله عن نفسه ، فأنهى إليه أنه من مريدى الشيخ منصور « أبو هيكل » أحد مشايخ الطرق ، وأنه يكثر من الذكر تقرباً إلى الله ، عسى أن يصل يوماً إلى أن يكون شيخ طريقة . فأعجب الأستاذ هاشم بشخصية الفتى ، وأشعره بصداقته ، وشجعه على قرض الشعر .

وفى الأسبوع التالى كان الفتى قد وضع قصيدة فى الغزل قال فيها :

حسناء تهجر حبها      فتزيده حباً لها
وتميل عنه كلما      طلب الرضا وودادها
فدعا الهوى كى يشفعا      إن كان أذنب عندها
لكنها أبت الوصال وآثـ      ـرت هجرانها
تعساً له خاب الرجا      سلب الفؤاد فليتها
وأدته . ذاك ولا البقاء بحـ      ـالة يرثى لها
يا أخت يوشع خبرى      لو قيست الدنيا بها
أيكون ذاك تحدثاً      بالحسن أم ذماً لها ؟

فاستشعر الأستاذ أن الفتى يحب ، وأنه خاب فى حبه ، فطلبه

فى غرفة المدرسين ، وهناك روى لأستاذه قصته :

« جاءت ثريا مع أبيها وأمها من الشرقية ، وكان والدها أفنديّاً لم يكمل تعليمه ، فقدم يطلب عملا فى القاهرة ، ونزل مع أسرته ضيفاً علينا ، وكان من أقربائنا .

« كانت ثريا فارعة العود فى سن ١٤ ، لها شفتان فيهما نداء يستهوى كلما ابتسمت ، ويهمس بالإغراء كلما سكنت . كانت تتحرك أمامى فتحرك عاطفتى من الأعماق . تواجهنى فأغضى حياء من نظرتها ، وتستدير فتستقر نظراتى على كل جزء من جسمها لتمضغه عيناى . كانت فتاة وأنا فتى ، لولا أننى كنت مرتبطاً بعهدى مع الشيخ منصور . . هذا العهد الذى كان يفرض على أن أتوجه بحبى إلى الله ، وأن أحصر طاقتى فى التهجد والذكر ، وأن أنفق فراغى فى قراءة القرآن ودلائل الخيرات .

« و خفق قلبى يوم جاءتنى والدتها ترجونى أن أساعد ثريا قليلا فى الحساب لكى لا تنساه فى أثناء تغيبها عن المدرسة . لقد غمرتنى السعادة لهذا الرجاء ، وساورنى الخوف من معقباته . أخذت أتصورها جالسة إلى جانبى تميل نحوى ، وتنصت لحديثى . وربما مست يدها يدى ، أو قربت أنفاسها من وجهى . ولكننى تذكرت عهدى مع الشيخ منصور ، فاستغفرت ربى من وسوسة الشيطان ، واستعذت بالله من الوقوع فيما يغضبه.

« وتوالت جلساتها معى ، فكنت أراها ترد براحتها خصلة شعرها ، وتشد طرف جلبابها ليستر ركبتها ، فإذا طالت المدة استرخت فى جلستها ، وتمطت وتثاءبت ، فتتزاحم الأخيلة فى فؤادى ، فأنهى الجلسة ، وأتطفل على النوم لأن النوم لم يطلبنى .

« واشتد الصراع فى نفسى يوماً ، فأغلظت لها فى القول ، فتركتنى غاضبة وخاصمتنى ، فسعيت لمصالحتها ، ودسست فى جيبها ورقة عليها هذان البيتان :

أنت الثريا عز من سماك     وأنا الثرى أرجو هطول سماك
جودى على بقطرة أبقى بهـــا     حياً وإلا مت قبل لقاك

« وأعتقد أن ثريا لم تفهم هذا الشعر لأنها لم تستجب له » .

ولم يضق الأستاذ بصراحة الفتى ، بل حمل هذه الصراحة على أنه أصبح يثق به ، فيعترف له كما يعترف بين يدى شيخه « منصور أبو هيكل » .

قال الأستاذ هاشم : « هل تعتقد أن ثريا بادلتك حباً بحب ؟ » قال الفتى : « يبدو لى أنها لم تر حبى لأنه بقى فى أعماقى » .

قال الأستاذ : « إن كبت الحب هو الذى جعلك تعبر عنه بالإغلاظ لها فى القول » . قال الفتى : « هو ذلك » . واغرورقت عيناه بالدموع . فربت الأستاذ على كتفه وقال : «أنا أهنئك يا بنىّ بنفسك . لا تضعف ، واسعد بصمودك للإغراء ، وبانتصارك على نداء الجنس . وعليك بالعبادة والرياضة فهما سياجك من السقوط » .

ومنذ هذا اليوم والفتى مكبّ على الصلوات والتسبيح. يصحو مع الفجر فيغتسل ويتوضأ بالماء البارد فى الشتاء القارس . ويصلى الظهر فى المدرسة وسط التلاميذ على أرض الحديقة . ويقضى الوقت بين المغرب والعشاء فيما يسمونه صلاة الغفلة . وفيما بين الصلوات يذكر الله على مسبحة اشتراها ، وأصبح حريصاً عليها حرصه على أدواته المدرسية وكلما جاء يوم الخميس قضى عصره فى زيارة الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة ، ومساءه فى الذكر بحضرة الشيخ الدرديرى ، وكانت مجالا لجمهور كبير من المجاذيب .

كان عهده مع الشيخ منصور أن يكرر على مسبحته « لا إله إلا الله » ، ويستمر على ذلك حتى يرى فى منامه حلماً يقصّه على أحد المأذونين بتفسير الأحلام من قبل الشيخ ، فإذا وجد فى الحلم ما يبشر بروحانية متقدمة نقل الفتى إلى « الله » ومن أحلامه ينقله إلى « هو »

ثم إلى « حي » ، وهكذا حتى يصل إلى « قهار » ، فهذه المرتبة التى يصبح له فيها أن « يسلك العهود » أى يعطيها . وكان الفتى يرنو لهذه المرتبة الكبيرة ، ولذلك كان فمه لا يقف عن ترديد اسم الجلالة .

وكان كلما سافر إلى الشرقية فى إجازة الصيف حرص على زيارة الشيخ منصور ، فكان يركب دابة إلى « أبو كبير » يتركها فى وكالة للحمير ، ثم يستقل القطار إلى السنبلاوين حيث يركب قطار الدلتا إلى أبى حريز ، وهى بلدة الشيخ ، ثم يعود بنفس الطريقة إلى قريته فى المساء .

وفى إحدى الليالى الظلماء عاد من زيارته ، فركب حماره ، وسار وسط المزارع دون أن يرى طريقه ، فإذا الحمار يدخل فى ترعة مستعرضة فيغوص فيها ، والفتى من فوقه يغالب الموج ويصرخ فى طلب النجدة حتى أسعفه فلاح قريب منه .

واعتلى الفتى ظهر حماره والماء ينضح منهما حتى بلغ بحر فاقوس ، وكان عليه أن يعبره ، فى مركب ذى سلسلة تشد فتدفع المركب نحو البر الآخر . ولكن المركب أبى مغادرة الشاطئ ، فظن الفتى أن المركب مغروز فى الطمى ، وذكر شيخه ، واستغاث ببركاته ، وكرر أدعية خاصة أوصاه بها حين تواجهه مثل هذه الصعوبة . ولكن المركب لم يتحرك لأدعيته ، ولا لان لكرامات الشيخ منصور . ونظر الفتى فى جانب المركب فوجد قفلا كبيراً يربطه بعمود على الشاطئ ، ورأى أن الأدعية لا تفل الحديد فلا بد من فتح القفل بمعرفة « المراكبي » . ووصل الفتى إلى منزله بعد منتصف الليل ، وهو سعيد بالمتاعب التى لاقاها لأنها تضاعف ثوابه ، وتقربه إلى قلب شيخه ، وتطلق النور الذى يشع فى خياله من أستار الكعبة ، وتستدرج الطائر الأخضر الذى يراه فى أحلامه يرفرف فى السماء .

وألف الفتى مع أبناء عمومته فى كفر عيسى فريقاً للعب الكرة ، فكان أبوه يغضب كلما رآه يكشف ما فوق ركبته ، وينهاه عن ذلك لأنه ينافى الكرامة . كما كان ينهاه عن السباحة فى بحر فاقوس ، ويرسم

على فخذه بالحبر علامة يحذره من أن تزول ، فيكون زوالها دليلا على أنه نزل إلى الماء .

ولكن هذا التضييق فى القرية لم يستمر فى القاهرة . فقد انشغل الوالد بدروسه فى الأزهر ، وانتهز الفتى هذه الفرصة فألف مع أقرانه فى الكحكيين نادى السباع المفترسة . واتخذوا من أرض جلال بالدراسة ساحة للعب .

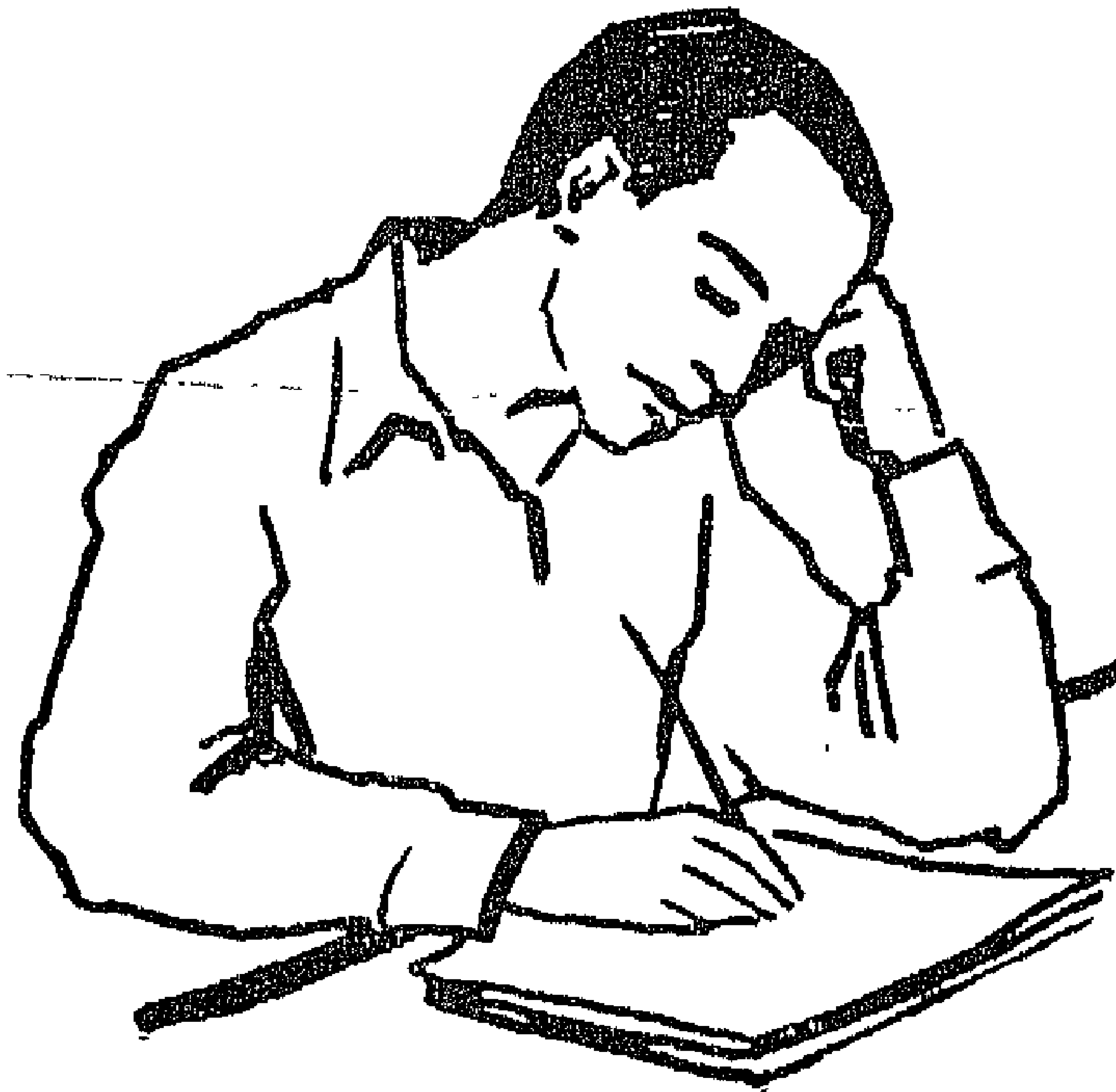
ومن الناحية الأخرى ألف عدد من أولاد البلد نادياً آخر باسم نادى العباسية ، وقامت بين الناديين منافسة شديدة كانت تؤدى دائماً بعد كل مباراة إلى التضارب وتمزيق الثياب والتقاذف بالأحجار . وكان الفتى معروفاً بسرعة العدو ، فوقع عليه الاختيار ليكون هجوماً أيمن ، ولكنه كان يستحوذ على الكرة فيجرى بها دون أن يشرك معه أحداً حتى يقذفها خارج الهدف . ويتكرر هذا فى كل مرة حتى يجد إخوانه من الخير أن يجعلوه أميناً عاماً للنادى يتوفر على الأعمال الإدارية ، وحراسة الملابس ، فيرى الفتى فى هذا ما يجنبه شر أولاد البلد إذا لعب ، ويرضى به . ولم يمارس الفتى رياضة الكرة منذ ذلك الحين ، وإن كان قد بقى يحب التفرج عليها . ويتحمس لفريق الخديوية كلما لعب أمام فريق التوفيقية أو السعيدية .

ثم تحول إلى رفع الأثقال ، فانتسب لناد فى السيدة زينب ، وكان المشتركون فيه من التلاميذ والعمال ، والاشتراك قروشاً زهيدة ، فكث يبنى جسمه حتى تمكن من رفع خمسين كيلو ، ومن زيادة وزنه إلى خمسين كيلو أيضاً .

وبين الذكر والرياضة انصرف الفتى عن الحب وعن الدراسة ، فتأجل نجاحه إلى سبتمبر ، ليتقدم للمحلق فى اللغة الإنجليزية . كان رسوبه فى هذه اللغة أول رسوب صادفه فى حياته الدراسية ، وآخر رسوب أيضاً .

# وبدأ الشاب يفكر

١٩٢٥ -



بدأ الفتى يكبر فيصبح شاباً بادى الرجولة . لم يكن يود أن يختار القسم العلمى فى دراسته الثانوية لولا أن أباه أصر على ذلك بعد أن علم أن السوق امتلأت بالحقوقيين وخريجى الآداب . فلما نجح فى البكالوريا وجد أن مجموع درجاته لا يستطيع أن يدنيه من الطب أو الهندسة ، فاتجه إلى مدرسة المعلمين . وشجعه أبوه على هذا الاتجاه بترديد قول شوقى :

قم للمعلم وفه التبجيـــلا      كاد المعلم أن يكون رسولا

ويوم الكشف الطبى رافقه ريفى من أقربائه إلى المدرسة ، وكانت فى المبنى الحالى لمعهد التربية بالقصر العينى ، فلما أعلنت النتيجة ظهر أن الشاب راسب فى النظر ، فغضب الريفى لذلك غضباً شديداً — وبخاصة أن الطبيب أعور — فدخل عليه دون استئذان ، وساءله مساءلة شديدة : « لماذا أسقطت قريبى فى النظر وهو لن يحارب ؟ كل ذى عاهة جبار ! » ، فجرى الطبيب وراءه ، وتماسكا لولا أن ناظر المدرسة تدخل فى الأمر وباعد بينهما .

وانصرف الشاب من مدرسة المعلمين إلى مدرسة التجارة العليا ، فلما ذهب للكشف الطبى وجد الطبيب الذى كان فى مدرسة المعلمين قد انتهى من مهمته هناك ، وجاء إلى مدرسة التجارة فتوقع منه شراً . واتجه إلى الله فصلى ركعتين على أرض الحديقة . وفيما هو يركع ويسجد شاهده معاون المدرسة — وكان متديناً — فأثنى على استقامته واصطحبه إلى مكتبه ، وهناك قص عليه الشاب قصة قريبه مع الطبيب ، فطمأنه المعاون ، ووعده بأن يتولى بنفسه تغطيه عينه فى أثناء الكشف ، وبأن « يؤشر » على ظهره بما يرشده لفتحات العلامات . ولم يشك الطبيب فى أمانة المعاون ، وإنما شك فى أن النظارة مقعرة أكثر من اللازم . فلما

فحصها وجدها قانونية ، ففهم أن الطالب استبدل بنظارته الأولى نظارة جديدة . وهكذا دخل الشاب مدرسة التجارة العليا بطريق الغش ، وشكر للمعاون جميله ، وإن كان قد عجب لموقفه المتناقض ، فهو متدين يحب في الشاب تمسكه بالدين ، ولكنه لا يرى فى مساعدته على الغش ما يخالف هذا الدين !

على أن هذا العجب يسير إذا قيس بالعجب الأكبر . فكيف تفرض قوانين التعليم على شاب يحب الطب أو الهندسة أن يتقدم للاشتغال بالتعليم ، فإذا لم ينجح كان عليه أن يصبح من التجاريين ؟ وهل هناك ملكات إنسانية صالحة لكل نوع من أنواع الدراسة والممارسة ؟ أليس فى هذا إهدار لما يستفيده المجتمع من الاستعدادات الطبيعية لبنيه، وإرهاق للناس بتكليفهم مالا يطيقون ؟ .. وبدأ الشاب يفكر!

وانتظم فى الدراسة بمدرسة التجارة العليا . وبعد بدايتها بقليل جاءه نبأ فاجع هو أن امرأة عمه توفيت فى الزقازيق ، وكان عمه قد تزوج عليها فتاة صغيرة ، فمكثت الأولى تعانى من ذلك حتى ألح عليها الداء ، ونقلها الزوج من القرية إلى حيث تسكن الثانية ، فأشقاها هذا مرة أخرى ، وماتت بالسكتة القلبية .

لو فقد الشاب بصره لقنع بالسمع عن البصر ، ولكنه فقد صوت هذه السيدة وابتسامتها إلى الأبد ، فود بعد فقدانها لو استغنى عن سمعه وبصره جميعاً . ولقد كان قلبه يخفق بحبها على الدوام ، فخيل إليه بعدها أن هذا القلب لن يخفق بحب أحد . إن ذاكرته تمتلئ بصورها وهي تحنو عليه ، فتنقله من حجرها إلى فراشه ، وتحيطه بعطف الأم ورعاية المعلم . ثم تفيض الذاكرة بالصور فتفيض العين بالدموع .

وعلم أنهم نقلوها إلى القرية ، فلحق بها هناك ، ولكنه بدل أن يجد مأتماً وجد ثورة عارمة . إن والده وأعمامه مجتمعون لتبادل الرأى فيما حدث من تعرض أهل المرحومة لنعشها فى الطريق الزراعى أمام قريتهم ،

وإصرارهم على أن تدفن فى مدافنهم ، ما دامت لم ترزق من زوجها بخلف يسوّغ دفنها فى بلده مع أهله . ووالد الشاب ثائر معهم ، لأن أخاه وافق على ذلك حقناً للدماء .

ويل للموتى من الأحياء ! .. إن الأحياء مشغولون عن مصابهم فى فقيدتهم بوضع كراماتهم فوق أيديهم والسير بها وسط الناس . وقد خيل إليهم أن كراماتهم وقعت فى الدنس ، فانكفئوا ليلتقطوها ، فتصادمت رؤوسهم وفقدوا هداهم .. وبدأ الشاب فى حزنه يفكر !

ثم أفرغ حزنه الكبير فى كتابة المذكرات التى كان يمليها عليه أستاذه فى الاقتصاد ، فإذا امتحنه توقع منه أن يعيد فى إجابته ما أملاه عليه بالحرف . وفى أحد الأيام ساءله عن معنى « ارتفاع الثمن سبب فى الربح لا نتيجةَ له » فصحح الطالب الجملة قائلا : « نعم ارتفاع الثمن سبب فى الربح لا نتيجةٌ له » وبدأ يجيب ، لولا أن الأستاذ استوقفه وقال : « أنت لا تفهم شيئاً فى النحو » ألا تدرى أن « لا » نافية للجنس ، فما بعدها يكون مبنياً فى محل نصب ؟ فاستأذن الشاب فى أن يقول إن « لا » هنا حرف عطف . فسخر الأستاذ من جهل الشاب ، وشاركه الطلاب فى سخريته . وفى اليوم التالى جاء الشاب ومعه كتاب « الأشمونى فى النحو » ، فالتف حوله جمهور من زملائه واقتنعوا برأيه . ولما جاءت المحاضرة التالية رفع أحد الخبثاء منهم أصبعه وقال : « يظهر يا دكتور أننا بلداء فى النحو ، فقد ثبت أن ( لا ) حرف عطف فعلا » وطلب من الشاب أن يقدم المرجع الذى معه ، فأسرها له الأستاذ فى نفسه .

وجاء الامتحان الشفوى فى آخر العام فسأله الأستاذ : « آدم سميث ولد سنة كم ؟ » فلما عجز عن الإجابة سأله : « طيب مات سنة كم ؟ » وأعطاه صفراً لولا أن الشاب انحنى للعاصفة واسترضى الأستاذ ، فرفع الدرجة من صفر إلى ثلاثين .

وقام الشاب من مكانه بعد أن فقد ثقته بالأستاذ ، كما فقد ثقته

بالزمان . لقد سرق الزمان منه امرأة عمه ، وها هو ذا أستاذه يسرق منه نجاحه . لماذا ؟ ألأنه سمح لنفسه على استحياء بأن يناقش الأستاذ مناقشة علمية جادة ؟ وهل التعليم إلا تفاعل بين المعلم والتلميذ ؟ وكيف يسمح الأستاذ لنفسه بأن يظلم وهو فى كرسى القضاء ؟ أسئلة نقرت رأس الشاب وهو على أبواب الحياة ، وأوشكت أن تفقده ثقته بمستقبله .

لقد ذكر أن هذا الأستاذ تغيب يوماً لمرضه ، فحل محله أستاذ مغرم بالإملاء هو الآخر ولاحظ الطلاب أنه يملى عليهم كلاماً سبق أن كتبوه ، فلما لفتوا نظره لذلك تبينوا أن الأستاذين معذوران فقد نقلا عن أصل إنجليزى واحد ! وبينما هما مشغولان فى الإملاء كان حسن كامل الشيشينى أستاذ الجغرافيا الاقتصادية يفرغ رصاصه فى صدور الإنجليز مع شركائه ماهر والنقراشى والحاج أحمد جاد الله ، ثم يجىء إلى الفصل فى الصباح كأن شيئاً لم يحدث ، فيتكلم فى السياسة حتى إذا دخل عليه حمدى بك ناظر المدرسة — وكثيراً ما كان يفعل — غير الشيشينى مجرى الحديث فقال : « وهكذا يا أبنائى ينقسم العالم إلى قارات ، وتنقسم القارات إلى دول » .

ومع ذلك كان الشاب يحب ناظره حمدى بك ، لأنه كان أديباً ، كان يضع فى وسط حديقة المدرسة لوحة عليها هذه العبارة : « قطف الزهور استئثار بالذات ممقوت » ، وكان يضع تحت كل زهرة ورقة عليها : « دعنى أعيش » . ولما ماتت أم مصطفى النحاس أرسل إليه برقية عزاء قال فيها : « لم تمت من أنجبتك » ، وعلق البرقية والرد فى فناء المدرسة .

على هذه الصورة سارت الحياة فى مدرسة التجارة العليا ، فكانت امتداداً للحياة فى المدرسة الخديوية . لم تكن حياة جامعية ، لأن جامعة القاهرة لم تكن قد جعلت المدرسة كلية من كلياتها . ولم تكن حياة

خلاقة ، لأنها خنقت روح البحث العلمى والمبادرة الفكرية . ولكنها علّمت الشاب أن البنوك ضرورية للادخار ، وأن الفائدة جزاء رأس المال ، كما أن الأجر جزاء العمل ، فوجد فى هذا النظر ما ينقض مبدأ يؤمن به ، هو مبدأ القرض الحسن ، ولذلك بدأ يفكر ...

وقد وجد المظاهرات تنصرف عن الاصطدام بالشرطة إلى أغراض أخرى ، كلبس القبعة بدل الطربوش وتكوين جامعة عربية ، فسار يوماً فى واحدة منها إلى بيت الأمة حيث خطب «سعد» ، فخالف المتظاهرين فى لبس القبعة ، ودعا إلى التمسك بالطربوش ، لأنه أصبح شعاراً قومياً .. واستطرد إلى الكلام عن الجامعة العربية فخالف فكرتها ، وقال : إن كل دولة فى العالم العربى مشدودة إلى مستعمر ، ولا يمكن أن تتم الوحدة بينها إلا إذا تخلصت كل منها من أغلالها . وقد هتف الشاب مع قرين ممن معه : « الاتحاد قوة » فرد سعد على الفور : « صفر + صفر = صفرا » .

لقد كان سعد فى نظر الشاب نبي الوطنية حتى هذا اليوم ، فأصبح زعيما تحتمل كلماته أن تناقش .

وتولى محمد محمود الوزارة فدعا إلى ردم البرك والمستنقعات ، وقال كلمته المشهورة : « أنا وحدى أقرر متى أسافر إلى لندن » ، يريد بذلك أن يتحدى الملك ، فقام توفيق دياب فى حفل كبير للوفد يندد بهذه الأقوال ، وكان الشاب حاضراً فأثر فيه الخطيب ببلاغته تأثيراً كبيراً فانتظم على الفور فى مظاهرة أحاطت ببيت محمد محمود بشارع الفلكى ، وقذفته بالطوب ، فأحاط بها رجال الشرطة وأصلوها سعيراً من الضرب بالعصى ، فعاد الشاب إلى بيته مثخناً بالجراح ، ممزق الثياب . ولما راجع نفسه بعد أيام وجد أن ردم البرك والمستنقعات عمل مستحب لا يستحق الرجم ، وأن تمسك رئيس الوزراء بحقه الدستورى اتجاه يستحق الإعجاب لا الثورة ، ففقد ثقته بالخطب الحماسية وبدأ يفكر ..

بقي الشاب على ولائه للأزهر، وكان الإمام المراغي قد عين شيخاً له في أواخر سنة ١٩٢٧ ، وأصبح هذا التعيين حدثاً كبيراً ، فلم تكن لحية الإمام طويلة بمقدار قبضة ، وإنما كانت مقصوصة لا تكاد تبرز من الذقن ، وكان لا يلبس « الفرجية » على عادة كبار العلماء ، وإنما يلبس « ككولة » . وكان نعله حذاء مفتوحاً برباط ، ولم يكن مركوباً أصيلا . وقد سمع الشاب أن أحد الشيوخ تحدث يوماً في مثل هذا إلى صديق له فقال : « والله لقد سمعت ممن أثق بخبره والعهدة عليه.. » ثم انقطع عن الحديث وتلفت يميناً وشمالا ليستوثق من أن أحداً في الخارج لا يسمعه ، وواصل حديثه بصوت خفيض : « سمعت أن الشيخ المراغي يمشط شعره ! » فصرخ الصديق : « يا شيخ ! قل كلاماً غير هذا » فأقسم الشيخ إنه لم يحرف فيما سمع ، وإن كان لا يقطع بصحته ! .

وزاد الطين بلة كما يقولون أن الإمام المراغي استهل عمله بإدخال الكهرباء في الأزهر . وحرم النوم والطبخ فيه ، وفصل الأروقة من المسجد ، فسد أبوابها من الداخل ، وفتحها من الشارع ، ثم لم يكفه هذا فأدخل « النظام » في الأزهر تمييزاً له عن « القسم العام » فأنشأ فصولا وضع فيها مقاعد خشبية للتلاميذ وطلب من الشيوخ أن يجلسوا على مرتفعات أمام المناضد ، فكان الكثيرون منهم يفضلون أن يخلعوا نعالهم ويتربعوا فوق المناضد .

وكانت التقاليد تقضي بأن تكون أول حصة في الصباح للفقه ، فوضع الأستاذ المراغي جدولا للحصص يجعل الفقه في بعض الأيام متأخراً عن النحو والحساب . ولم يعد في وسع الشاب بسبب هذا النظام أن يحضر في الصباح دروس « ابن عقيل » مع الأزهريين كما كان يفعل في الماضي حين كانت الدراسة في حلقات ، وكانت تبدأ في الأزهر قبلها في المدارس . وكان يواظب على الذهاب إلى الأزهر كل مساء ليستذكر دروسه على ضوء الكهرباء ، وينكفئ على الحصير كلما

أمعن فى البحث وهو يصور الميزانية العمومية لشركة مساهمة .

كان الشاب يرى ثورة المراغى على الجمود ، ويرى ثورة الجمود على الثورة ، فينحاز للإمام فى المناقشات التى كانت تحتدم فى كل ركن من أركان الأزهر. وكانت تمر أمام عينيه أحداث تحفر تأثيرها العميق فى فؤاده ، فيجد فى المراغى – مع كل ماعمله – طبيباً يعالج ، والأمر فى رأى الشاب قد يحتاج – أحياناً – إلى جراح يفتح البطون . لقد سمع أن ثلاثة من الطلاب الأزهريين كانوا يترددون يوماً على أحد محلات الفجور ، فيعقد أحدهم زواجه بإحداهن ، ويشهد زميليه على العقد ، حتى إذا قضى وطره انتقل الثلاثة إلى أخرى ، فيعقد الثانى زواجه بها ، ويصبح الأول والثالث شاهدين .. ثم يتزوج الثالث !

وسمع الشاب أن أحد الشيوخ يزكى عن ماله ، فيعطى أحد الفقراء الزكاة ، ثم يقول له الفقير : « وهبتك هذا المال » ، فيتقبله الشيخ ، ويكون بذلك قد أبرأ ذمته وأدى ما عليه من زكاة .

وعرف الشاب مما شاهده كيف يكون الانحراف المهنى فى خدمة الغرض الشخصى ، وكيف يصبح تطبيق النصوص احتيالا لا تفسيراً . خرج من مشاهداته بأن الدين تشريع سماوى لتحقيق الخير . ومادام كذلك فهو أهداف حية ، ولا يمكن أن يكون نصوصاً صماء ، هو روح لا إجراءات .. وبالرغم من أن رجال الدين هم رسل الفضيلة وملاذ الإنسانية فإن فيهم منحرفين .. ولذلك بدأ يفكر ..

كان يقرأ الجرائد والمجلات ولا يثق فى الحزبية منها . لقد كانت خالية من الأخبار ومملوءة بالمبالغات . كانت إحداها تحتفظ بصورة لزعيم الطلبة يظهر فيها رأسه ملفوفاً بالشاش بسبب جرح أصابه فى إحدى المظاهرات ، وكانت الصحيفة تعيد نشر هذه الصورة كلما سارت مظاهرة جديدة مدعية أن الزعيم كان على رأسها واصطدم بالشرطة فجرح .

ويذكر الشاب أن أحد رؤساء الأحزاب أراد يوماً أن يسافر إلى طنطا في زيارة سياسية ، فتظاهر ألوف من العمال ليودعوه في محطة القاهرة ، فتعرض لهم رجال الشرطة ، فقذفهم المتظاهرون بالطوب ، فأطلق رجال الشرطة عليهم الرصاص ، ومات عدد منهم ، فعدل الرئيس عن السفر ، ولكن جريدة الحزب لم تكن تعرف أنه تخلف ، فظهرت بعد الظهر تصف الحماس الذي قوبل به في جميع المحطات ، والحفاوة التي استقبل بها في طنطا.

وكما شاهد الانحراف في بعض رجال الدين شاهده في بعض رجال الصحف . كان أحد كبار الكتاب يعمل في الصباح في جريدة الأحرار الدستوريين وبعد الظهر في جريدة الوفديين فكان في الصباح يكتب مقالا في السياسة يهاجم فيه الوفد ، وفي المساء يكتب مقالا في البلاغ ، يرد به على هذا الهجوم ، ثم يتقاضى مرتباً من الجريدة الأولى ، ومرتباً من الجريدة الثانية !

لقد تعلم الشاب مما قرأه ورآه كيف يفرق بين الدين والمنحرفين من أهل الدين ، بين الوطنية وتجار الحزبية ، بدأ يخلي المبدأ من مسئولية التطبيق الخاطئ ، فلم يعد يندد بمبدأ لأن كثيراً من الآثام ترتكب باسمه ، ولم تعد الكلمة المطبوعة عنده مقدسة ، وإنما يجرى عليها من الأحكام ما يجرى على سائر الكلام .

تخلص من ترهاته الأولى .. وبدأ يفكر ..

# قم للمعلم وفه التبجيلا

- ١٩٢٩ -



الأسرة كلها فى فرح : نساء يزغردن ، ورجال يتبادلون التهنئة والقبلات ، وأطفال يرقصون فى ميدان القرية الكبير حول صفيحة ملئت « شربات » ، وقد وقف فلاح وسيم يسقى منها كل قادم . لقد جاء عامل البريد إلى القرية هذا الصباح بالجرائد، فإذا نتيجة دبلوم التجارة العليا منشورة فى الأهرام ، والشاب فى مقدمة الناجحين .. وبدأت الأفكار تتراقص فى ذهنه !

إنه أول شاب فى الأسرة يتخرج فى مدرسة عليا . وها هوذا على عتبة المستقبل السعيد، وليس بينه وبين أن يقبض خمسة عشر جنيهاً فى كل شهر إلا أن يجد عملا فى الحكومة أو إحدى الشركات ، وهذا يقتضى أن يسرع بالسفر إلى القاهرة ليسبق غيره فى البحث عن وظيفة . ولكن أليس من المناسب أن يبقى يوماً آخر لاستقبال المهنئين من القرى المجاورة ؟ ترى ماذا تقول عنه الآن فتيات الأسرة ؟ لقد سخرت منه إحداهن يوم أن دخل مدرسة التجارة فتساءلت : « ولماذا لا يفتح دكاناً من الآن ؟ »

ثم فكر فى مسكنه الحالى فى تحت الربع . إنه لم يعد صالحاً للعهد الحاضر . لم تعد كرامته تسمح له أن يدخل هذه الحارة المظلمة التى تسلمه إلى زقاق المسك . فيسير فى منعطف طويل مسدود حتى يوشك أن يصطدم بالحائط ، فيجد البيت إلى اليسار . ثم ما هذه السلالم العالية الملتوية ؟ إن الصعود فيها إلى الدور الخامس أمر عسير على الزملاء الذين قد يزورونه للتفاهم فى العمل أو السؤال عن الصحة أو التهنئة بالعيد . وأفاق من أحلامه على صوت أحد أعمامه يهنئه ويشد على يديه، فقبل يده ، وطلب منه الدعاء ، ثم أوى إلى حجرته ليستريح .

« رباه ! إن الدنيا لا تسعنى . كيف أنفق خمسة عشر جنيهاً كل

شهر ؟ لو انتقلت إلى أحسن شقة فلن تكلفنى أكثر من جنيهين ، ولو أفطرت كل يوم « بغاشة » وتغديت « كباباً » وتعشيت « فراخاً » فلن أنفق ثلاثة جنيهات . ولن تكلفنى ملابسى أكثر من جنيهين ، فأين يذهب الباقى ؟

لم ينم الشاب ليلته ، ولم يطق الانتظار فى الصباح ، فانطلق إلى المعهد الدينى بالزقازيق ، حيث كان يعمل والده وتزود منه بشىء من النقود ثم سافر إلى القاهرة .

كان — قبل تخرجه — كلما سار فى شارع قصر النيل أغمض حياء من بناء جبار على الطراز الإنجليزى يشغله البنك الأهلى ، ويقف أمامه أحد رجال الشرطة ، فكان يسرع الخطى حتى لا يتهمه الجندى بالتلكؤ أمام البنك ، واليوم يريد أن يعمل فيه . ماذا لو ذهب إلى سكرتير المحافظ وعرض عليه نفسه ؟ ودخل فظل يسأل عن مكتب السكرتير حتى وجد نفسه أمام إنجليزى أحمر الوجه أزرق العينين . قال له فى إنجليزية مصرية : « سيدى ، أنا خريج مدرسة التجارة العليا وترتيبى السابع ، وأود أن أعمل فى هذا البنك إذا كان فيه وظيفة خالية » ، فنظر إليه الإنجليزى فى استعلاء وسأله : « هل أنت مصرى ؟ » فقال : « نعم » ، فعاد ببصره إلى ما كان بين يديه من أوراق وقال : « المصريون لا يسمح لهم بالعمل فى البنك الأهلى » .

وانصرف الشاب يجرر رجليه من التخاذل ، فهو يفهم أن يقول له السكرتير : « لا توجد وظائف خالية » ، أو أن يعقد امتحاناً يسقط المصريون فيه . أما أن يواجهه بأن البنك الأهلى المصرى لا يقبل المصريين فى وظائفه فهذا آخر ما توقعه .

وكانت التجربة قاسية ، فانصرف عن المؤسسات الأجنبية كلها إلى بنك مصر . كان عبا الله فكرى أباظة رئيس نادى التجارة مديراً عاماً لإحدى شركات البنك ، وكان هو الذى يرشح لوظائفه ، بتكليف

من « طلعت حرب » ، فتقدم الشاب إلى عبد الله أباظة فوضع اسمه فى كشف المرشحين . وخرج الكشف من مكتب طلعت حرب فإذا باسم الشاب قد شطب ، ووضع مكانه اسم أحد الزملاء المتأخرين عنه فى الترتيب .

وكبر على الشاب هذا النبذ فذهب يشكو إلى طلعت حرب .

دخل عليه فى شىء من الانفعال قائلا : « يا سعادة البيه ، ضعوا قواعد للقبول ولو فاسدة . قولوا إن الطويل قبل القصير ، والرفيع قبل السمين ،ولكن لا تأخذوا الناس هكذا دون ترتيب » فابتسم ــ رحمه الله ــ فى أستاذية ورزانة ، وكان يشبك يديه ويمدهما على مكتبه ، وقال : « اسمع يا شاطر .. لو كنت مكانى ، وكان عندك عميل أودع البنك مائة ألف جنية دون فوائد .. هل تعرف بهذه المناسبة معدل الفائدة فى حالة الإيداع ؟» قال : ٣ ٪ ، فقال طلعت حرب: « عظيم ! إذن هذا المودع ينزل للبنك كل عام عن كم ؟ » فأجاب : عن « ثلاثة آلاف جنيه » فاستمر الزعيم الاقتصادى : « والمودع لا يطلب الآن لقاء ذلك إلا أن أعين ابنه فى البنك، وهو زميلك ومتخرج معك فى نفس الدفعة ، لولا أنك حفظت أكثر منه ، فتفوقت عليه فى الامتحان ، وقد يكون فى الحقيقة أحسن منك » . واقتنع الشاب على مضض، وبدأ ينصرف ، لولا أن طلعت حرب فاجأه بقوله : « ولكنك ذكى تستحق أن تعين أيضاً » وأرسله إلى إدارة الحسابات .

لم يكن الشاب سعيداً بعمله فى بنك مصر ، فقد كان هذا العمل مقصوراً على جمع الأرقام طول النهار ، ولم تكن الآلات الحاسبة قد دخلت البنك . فما إن علم بعد شهر واحد أن وزارة المعارف تطلب مدرسين فى مدارس التجارة حتى تذكر قول أبيه :

قم للمعلم وفه التبجيــلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

وتقدم بطلبه ، فعين مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة بالظاهر .

شعر المدرس بصغر سنه من جديد ، فمن التلاميذ من كان يبلغ الثالثة والعشرين وهو لما يبلغ الحادية والعشرين ، حتى إن أباه اشترى باسمه نصف فدان، فأمضى العقد عنه بوصفه وليًّا طبيعيًّا لقاصر . لقد ودّ لو قفز بعمره فوق الأشهر القليلة التي تحجبه عن سن الرشد، ليقف على قدم المساواة مع زملائه المدرسين . إن أحدهم أرسل نكتة عنه قال فيها : إنه يأتي المدرسة على « مشاية »، فكانت خنجراً جرح كرامته ، ولذلك أسرف في التظاهر بالتدخين ، وحرص على أن يركب الدرجة الأولى في الترام ، واشترى لنفسه « منشة » طويلة ، ووضع في الجيب الخارجي للجاكتة قلماً أحمر كان يدق به على المنضدة كلما دخل الفصل . وشعر بالرضى حين صحب المدرس الأول إلى محل « جروبي » فلما رآه يطلب « ويسكي » طلب مثله ، وتحامل على نفسه ، فذاق الخمر ليفعل فعل الرجال !

ولم يقتصر أمر مركب النقص على هذا ، بل تعداه، فخلق في سلوك صاحبنا صرامة وشدة . سمع مرة من أحد زملائه المدرسين أنه يعالج عند طبيب قريب من المدرسة، وأن الطبيب أعطاه حقنة في غير موضعها وأحدثت عنده خراجاً ، قال لزميله : « ولماذا تستمر في العلاج عند هذا الطبيب؟» قال : إنني أريد استرداد ما بقي من حقن لولا أنني مكسوف، فعرض صاحبنا عليه خدماته في الحال، وذهب معه إلى عيادة الطبيب. وهناك بقي الزميل في غرفة الاستقبال ودخل صاحبنا إلى غرفة الكشف. قال للطبيب : إن زميله موجود في العيادة ، وهو لا يريد الاستمرار في العلاج ، وقد كلفه أن يتسلم عنه باقي الحقن ، فغضب الطبيب وأمر صاحبنا بالانصراف ، فلما لم يخرج أمر « التمرجي » بإخراجه . وما إن مد التمرجي يده ليشده حتى أهوى صاحبنا بكفه على وجه الطبيب! وتماسك الاثنان ، فزلت قدم الطبيب ووقع على الأرض، ووقع صاحبنا فوقه ، ومن فوقهما أدوات العلاج من سماعة وقطن وحقن وسوائل .

ودخل المرضى على طبيبهم فوجدوه على هذا الحال فخرجوا من العيادة مذعورين !

لقد كان صاحبنا مدرساً ، ولكنه كان فى سن المراهقة الفكرية .

وفيما هو يصلح من النقص الذى يحسه دخل عليه يوماً فى غرفة المدرسين أحد السعاة وفى يده ظرف ، وعلى فمه ابتسامة . فلما قرأ الظرف عرف أنه من أبيه ، ووجد العنوان هكذا : « مدرسة التجارة الدنيا بالظاهر — إلى فلان المعلم بالمدرسة » وفهم لماذا يبتسم الساعى . إن أباه كتب الاسم غير مسبوق « بالأستاذ » ولا متبوع بلقب « أفندى » لأنه يرى أن الأبوة تقتضى تجريد الأبناء من ألقابهم عند ندائهم ولو بالكتابة . وقد استخدم كلمة « معلم » اقتداء بشوقى ، واستخدم كلمة « الدنيا » لأن ولده تخرج فى المدرسة العليا .. وتصور أن زملاءه جميعاً يسخرون منه ، فطلب إلى خاله أن يتوسط عند أبيه ليفهمه أن ابنه أصبح ذا حيثية تقتضى أن يعامل بشىء من التقدير ، فسعد الوالد بذلك ونزل عند مواصفات وضعها الخال .

وسار كل شىء على مايرام ، فقد جاءه بعد ذلك خطاب من أبيه معنون طبق المواصفات ، ولكن الرسالة التى بداخله تقول إن أحد الموظفين فى أسرة منافسة بالقرية يريد شراء « الدوار » الذى يملكه عمه ، وهو واقع وسط بيوت الأسرة ، ويطلب من ولده أن يبيع « زر طربوشه » إن اقتضى الأمر ، ليحضر ومعه مائة وسبعون جنيهاً هى ثمن الدوار . وكان الابن قد جمع هذا المبلغ من الدروس الخصوصية والتدريس فى الأقسام الليلية . فسافر إلى كفر عيسى ، ووقع مع أبيه على عقد الشراء فى الشهر العقارى وسط أقربائه . لقد شعر لأول مرة أنه أصبح رجلا .

وعاد إلى القاهرة فرأى أن مسكنه لم يعد يليق بمركزه ، وصمم على أن ينتقل منه إلى الظاهر . وفيما هو يفكر فى ذلك زارته صاحبة البيت مهنئة بالوظيفة ، وعرضت عليه أن تطبخ له غداءه كل يوم ، فلما تأبى ألحت

عليه فى ذلك ، وقالت : إن العشرة الطويلة جعلت منه ابناً لها ، فلا بد أن تقوم نحوه بواجب الأم . وصار يعطيها خمسة قروش كل صباح ، فيجد فى الظهر أرزاً وخضاراً ولحماً وفاكهة . وطغى عنده حسن المعاملة على سوء المسكن فأجل مشروع الانتقال .

وذات يوم جاءته صاحبة البيت تطلب خدمة . إن ابنتها تريد فتح حساب جار فى بنك مصر ، وهى ترجو منه أن يساعدها فى ذلك ، لأنها تجهل الإجراءات المصرفية . فرحب بما تريد، واتفقا على أن يصحب ابنتها إلى البنك فى اليوم التالى . ولكن الأم استدركت قائلة : « أليس من الأفضل أن أعرفك بها الآن ، إذا لم يكن عندك مايشغلك ؟» ؛ فلم يمانع المدرس فى ذلك ، وامتدت يده فى حركة تلقائية إلى ذقنه وربطة عنقه تتحسسهما لتطمئن على أنهما فى أحسن حال .

وجاءت فتاة بدا أنها تزينت للمناسبة ، وأعلن عن مقدمها عطر زكى كان يخطو قبل خطاها فجلست ساقاً على ساق، وتحدثت فى طلاقة تشهد لها بالخبرة والتجربة .

وفى الصباح ذهب معها إلى البنك فوجدها تجيد الكتابة وتجيد التصرف ، بل وجدها تملأ قسيمة الإيداع وحدها ، وتكتب فى خانة صاحب الحساب اسم المدرس فلما لفت نظرها إلى أن صاحب الحساب هو صاحب النقود قالت فى تخابث : « نعم هو أنت » . ورأت فى وجهه حيرة فواصلت كلامها : « إننى أريد الحساب باسمك ليسهل علىّ أن أسحب وأن أودع عن طريقك دون أن أضطر للحضور بنفسى » ووقع الأستاذ فى المصيدة !

أصبح الحساب الجارى مسوغاً لاتصال الفتاة بالمدرس فى كل يوم ، كانت تسحب ثم تودع ماسحبته ، وتودع ثم تسحب ما أودعته ، حتى عرف المدرس غرضها . إنها سيدة مطلقة تبحث عن زوج وأسرع بالانتقال إلى الظاهر ، ففهمت من الانتقال كل شىء وطلبت إقفال الحساب الجارى .

كان المسكن الجديد قريباً من المدرسة فأصبح ملتقى معظم الزملاء ،

يستريحون فيه بين الحصص ، وينامون إذا شاءوا وكان مدرسو التجارة بالإسكندرية والمنصورة وأسيوط إذا انتدبوا للقاهرة فى الامتحانات يتخذون من هذا المسكن مقرًّا لهم ومنتدى . كان الجميع ينامون بعد الغداء ثلاث ساعات ، ثم يسعون بين المقاهى ، فيلعبون النرد ، ويتحدثون فى العلاوات. وكان قد استقر فى ذهن مدرسنا أن من سمات الموظفين أن يجلسوا فى المقاهى بعد ساعات العمل فيمسحوا أحذيتهم ، ويشتروا ماطاب لهم من الملابس الصغيرة والكتب والفاكهة . وكان يرى أن المقاهى هى ملتقى المستقيمين من المدرسين ، فإن أحد زملائه كان يبدأ سهرته فى «جروبى» ، فيتناول فيه قدحين من الويسكى ، ثم يقصد حانة فى عماد الدين ، فيشرب زجاجة من النبيذ أو البيرة ، وينتهى آخر الليل إلى خمارة بشارع محمد على ، فيجرع من المشروبات الكحولية ما شاء الساقى أن يقدم ، مادام لم يعد يستطيع التمييز بينها .

كان صاحبنا يرى فى سير هذا الزميل عزاء له عن وقته الذى يضيعه فى المقاهى ، ولكنه استيقظ يوماً فوجد حياته مع ذلك فارغة ، فقرر أن يملأها بالزواج .

وكان قد رآها فى سيارة أبيها ، فتاة صغيرة فى الثانية عشرة ، نجحت فى الشهادة الابتدائية وهى تتأهب لدخول الأميرة فايزة الثانوية . كان هذا أول لقاء له معها ، وبقى آخر لقاء حتى سمح له أن يراها بعد خمس سنوات فى ليلة الزفاف ! لقد قدم خاتم الخطبة لأبيها — وكان طبيباً — لأنه لم يسمح بتقديمه للخطيبة ، وقدم الشبكة للطبيب لأن التقاليد لا تسمح بالسلام وتبادل النظرات قبل كتب الكتاب ، وكتب الكتاب لا يصح أن يسبق الحصول على شهادة الكفاءة .

ومن الغريب أن صاحبنا لم يثر لهذه المعاملة ، فقد أقدم على الزواج من فتاته لسبب واحد هو أن أباها أعجبه ! راقته استقامته وأحب فيه تزمته ، فاستبشر خيراً بسلوك ابنته . وتمر أكثر من ثلاثين عاماً على هذا الزواج

الذى لم يجئ فى إثر عاصفة من الحب ، فيتطلع إليه كل عام منها ليعرف معنى الخلود .

اتحد الكيانان فأصبحا كياناً واحداً فى شخصين ، واستحالت عيوب كل منهما بفعل الحب الصحيح إلى توابل فى حياتهما الزوجية تزكى طعمها وتخلصها من الرتابة . وتدافعت الأيام ، فخرج من موكبها خلف صالح نشأ فى رعاية أبوين وحنان أمين . ترى أكان هذا بمحض المصادفة أم كان بفعل التوافق الموضوعى ؟ إن صاحبنا لا يدرى ، ولكنه يعرف أن زواجه كان أكبر توفيق فى حياته .

وبعد الزواج بقليل جاءه تكليف من مراقب التعليم التجارى فى أثناء الإجازة الصيفية بفحص كتب فى الحساب التجارى لاختيار أصلحها لمدارس التجارة ، وكان صاحبنا يعتزم السفر مع زوجته فى قطار البحر إلى الإسكندرية ، فأخذ معه النسخ فى ظرف كبير كان قد جاءه من صديق فى النيابة العامة . ولما وصل القطار إلى الإسكندرية ظهر أن قطارين اثنين قد وصلا قبله ، فماجت المدينة بالمصيفين ، وتعذر على كثير منهم أن يجد لنفسه سريراً فى فندق أو « بنسيون » .

وتعب صاحبنا وزوجته فى البحث واللف والاستفسار حتى وجدا « بنسيوناً » يقف أمامه صف طويل من الناس فى انتظار معلومات عن غرفة خالية ، فوقفا فى آخر الصف ، وإذا بصاحب « البنسيون » ينتقى المدرس بالذات ويدعوه للتقدم ، ثم يؤثره بالغرفة . لم يعرف صاحبنا سبباً لهذه المجاملة حتى فاتحه الرجل وهو يودعه فى قضية أحيل من أجلها للنيابة ، وطلب وساطته ، ففهم أنه لمح الظرف الذى فى يده ، وقرأ العنوان الذى عليه « النيابة العامة » فاعتقد أن صاحبه من وكلاء النيابة .

هكذا هيأت الفرصة له هذا « البنسيون » وهيأت له التعرف بمراقب التعليم التجارى ، فقد كان ينزل مع أسرته فى البنسيون نفسه . وقد سأله عما تم فى فحص الكتب فقال : « إنهما اثنان ، أحدهما لأستاذ الحساب

التجارى بمدرسة التجارة العليا ، والآخر لمدرس فى التجارة المتوسطة » ؛ فعلق المراقب قائلا : « لا بد أن يكون كتاب أستاذ التجارة العليا أحسن » ولم يكن يدرى أن مؤلف الكتاب الثانى هو أحد أقرباء المراقب ، ووجد الفاحص أن كتاب الأستاذ يعلو على أفهام التلاميذ ، فاستبعده مخلصاً وزكى الكتاب الثانى .

قامت الدنيا ولم تقعد ، فقدم الأستاذ شكوى لعلى زكى العرابى وزير المعارف بدت وجيهة ، لأنه اتهم المراقب بالتأثير فى حيدة الفاحص لمصلحة قريبه ، فبدا الحرج واضحاً فى موقف المراقب ، ولكن الفاحص فنّد الشكوى فى منطق وقانون ، فاقتنع الوزير بهما وأقر الكتاب وحفظ الشكوى .

ونشأت بين صاحبنا والمراقب بسبب ذلك صلة تقدير متبادل جعلته يختاره فى بعثة إلى إنجلترا سنة ١٩٣٧ . ما أعجب الظروف !

# رأس المطربش في قبعة

- ١٩٣٧



مدارس التجارة فى شغل شاغل . المدرسون يتهامسون وقد بدا الاهتمام على وجوههم . والأجراس تدق فلا يكادون يسمعون لأنهم لا ينصتون . فإذا سمعوا انصرف كل منهم إلى فصله فى تثاقل وشرود ، وكثر ترددهم على من فى عهدته ملفاتهم ليستوثقوا من تواريخ حصولهم على مؤهلاتهم ودخولهم الخدمة ، وترقيتهم للدرجات التى هم فيها .

لقد جاءت الأخبار بأن الوزارة قررت إيفاد أربعة منهم فى بعثة إلى إنجلترا ، اثنان لدراسة المحاسبة ، والثالث لدراسة الإعلان ، والرابع لدراسة أساليب البيع . واختلفت المعلومات عن أساس الاختيار : أهو المؤهل أم هو الأقدمية ، وهل السن مهمة فى الحالتين ؟ وإذا تعارض الترتيب عند التخرج مع الأقدمية فأيهما يرجح الآخر ؟ وهل يكون الاختيار للمحاسبة من بين مدرسيها والاختيار للموضوعين الآخرين كذلك ؟

أسئلة كانت تجمع بين كل اثنين أو ثلاثة فى ركن من الأركان ، ليناقشوا الإجابة عنها ، ويستعدوا للرد على من يعارضها ، فإذا عاد كل منهم إلى منزله بدأ يفكر فى استغلال إمكانياته ، ومنها عمته التى تعرف حرم الوزير ، وصديقه الذى هو محسوب على كبير الأمناء ، وبدأ يستعرض إمكانيات الزملاء ليوازن بين فرصته وفرصتهم فى الفوز .

كان كل منهم يبنى حكمه على مكانة الواسطة التى لديه ، ومدى اهتمامها بأمره ، لأنها هى التى سترفع مؤهلاته لتظهر على مؤهلات الآخرين. واشتدت المعركة ، وتقاذف المتصارعون بالاتهامات ، ثم قذفوا بها فى وجوه الرؤساء حتى أسفرت المعركة عن انتصار ثلاثة كان منهم صاحبنا . أما الرابع فقد تأجل اختياره حقناً للدماء !

وتأخر سفر الثلاثة لطول الإجراءات ، فرأت إدارة مدرسة التجارة

بالظاهر — ومنها الفائزون الثلاثة أن تعهد لهم فى تدريس مواد إضافية إلى أن يسافروا، فكانت الجغرافيا من نصيب صاحبنا . ولم يكن يعرف إن كانت تنجانيقا قريبة من ممر سمبلون ؟ أم هذا فى قارتين مختلفتين؟ ولكنه قبل المهمة ، فكان يمعن فى التركيز على موضوع الدرس لكى لا يستطرد طالب فيسأله فى موضوع متصل.ولذلك كان يرسم الخريطة على السبورة قبل أن يدخل الفصل ، وينسخ منها صوراً يوزعها على الطلاب لكى لا يتطلعوا إلى سواها . وكان شديد الحرص على النظام لكى لا تطير المعلومات من رأسه . كان يحفظ الدرس فينقله إلى الطلاب ، وكان يعجب إذا فهموه لأنه لم يفهمه . وزاره أحد المفتشين الكبار مرة فأعجب بأسلوبه فى الشرح ، وعنايته بوسائل الإيضاح ، فكتب فى تقريره أن له مستقبلا عظيما فى عالم الجغرافيا !

وسافر صاحبنا مع زميليه بعد انتهاء الإجراءات ، وترك امرأته حاملا إلى ما بعد الميلاد . وعز عليهم أن يمروا بالقطار على باريس ثم لا يمكثوا فيها يومين ، فنزلوا ، وكانت فرنسيتهم جميعاً عرجاء، وكان جهلهم بادياً فى تصرفاتهم ، لأن هذه كانت سفرتهم الأولى خارج الديار .

كانوا يرون الرجل يحيط رفيقته بذراعيه ويقبلها فى الطريق العام ، فيجدون فى هذا فجوراً كبيراً . وكانوا يرون المطاعم لا تقدم الماء مع الطعام ، فلا يفهمون لهذا الإحجام سبباً . وكانوا يرون أفواج الناس تنزل إلى المترو فيقصد كل منهم إلى قطاره دون أن يستدل عليه من أحد ، فيجدون فى هذا مهارة خارقة . كان كل شيء غريباً عليهم . كانوا يخافون الناس ، ويعجبون لارتفاع العمائر ويضيعون فى الطرقات ، وقاموا ببضع رحلات مع « كوك » ، فاستمتعوا بجمال المدينة، وشاهدوا كثيراً من آثارها ، وظنوا أن إلمامهم باللغة الإنجليزية سيسهل مهمتهم فى لندن ، ولكنهم حين حاولوا التحدث إلى الشيالين ورجال الشرطة وجدوهم يتكلمون رطانة غير مفهومة . واستقبلهم صديق عرف موعد

وصولهم من القاهرة فكان ترجمانهم ، وحجز لهم ثلاث غرف معتدلة السعر فى حى فقير .

كان صاحبنا موفداً لدراسة الإعلان علماً وعملا . وقد وصل بعد أن أوشكت السنة الدراسية أن تنتصف ، فتوجه فى الصباح إلى مكتب البعثات . وهناك التقى بالسفير . قال لصاحبنا متهكماً : « طبعاً حضرت متأخراً لأنك كنت مشغولا بالإجهاز على منافسيك ! » وظن صاحبنا أن السفير يعرف ما حدث لولا أنه التفت إلى مدير المكتب قائلا : « من الأسف أن أعضاء البعثات يختارون لاعتبارات كثيرة ليست مؤهلاتهم أهمها » ، وبقى صاحبنا صامتاً يستمع .

وبناء على توجيهات المكتب اتصل بمجمع الدعاية التجارية يطلب موعداً مع رئيسه، فلما حدد له أخطأ طريقه إلى مقر المجمع ، فوصل متأخراً ، ورفضت السكرتيرة أن تدخله ، وحددت له موعداً آخر بعد أسبوعين ، فبقى دون عمل طول هذه المدة، وكان لهذا الدرس أثره القاسى فى نفسه ، فلم يعد يتأخر عن موعد إلا لسبب قاهر ، وأصبح معروفاً بالدقة فى مواعيده حتى بعد أن عاد إلى مصر .

عرف صاحبنا أن عليه أن يعمل فى الصباح فى إحدى وكالات الإعلان ، وأن يدرس فى المساء بإحدى الكليات المتخصصة، فقدم نفسه لشركة « كروفورد » حيث أشرفت عليه آنسة فى سن الخمسين، صارمة الوجه والقسمات . قالت له : « ستعمل ساعياً تنقل الأصول والكليشيهات بين المكاتب لمدة شهر حتى تعرف العلاقة بينها . وتقوم على تصنيف الكليشيهات وحفظها فى الخزائن شهراً آخر ، ثم تعمل على آله لطبع التجارب شهراً ثالثاً . وبعد ذلك تجلس إلى مكتب فتعمل فى الإدارات المختلفة » .

وأومأ صاحبنا علامة الموافقة ، ثم قام من عندها قلقاً على كرامته ، فهو مدرس بمدارس التجارة وعضو بعثة ، ومن كان هكذا لا يصح أن

يعمل ساعياً ، ولكنه آثر الانصياع خوفاً من نتائج المخالفة .

وطلب منه موظف فى الدور الأول أن يأخذ أوراقاً إلى زميل له فى الدور السابع ، فافترض أن الصعود بالمصعد ، ولكن العامل صده قائلا : « إن السعاة لا حق لهم فى استخدام المصاعد » ، وصعد صاحبنا على رجليه !

وظل يصعد وينزل مع ساع أصيل نشأت بينهما صداقة بسبب العمل ، ساعد على تمكنها أن صاحبنا كان يكثر من تقديم السجائر له . وذات يوم جاء رئيس مجلس الإدارة إلى الشركة فى سيارته ، وإلى جانبه فتاة جميلة ، عرفها صاحبنا على الفور ، فهى التى تنظف مدخل الدار . قال لصديقه : « أليس عيباً أن يصادق رئيس مجلس الإدارة هذه الفتاة التى تعمل عنده ؟ » ، فضحك الصديق من جهل صاحبنا وقال : « هذه الفتاة العاملة هى ابنة رئيس مجلس الإدارة ! إنها تبدأ هكذا لتصبح فى النهاية مديرة لمثل هذه الشركة ، ولها أخ يعمل جرسوناً فى مطعم كبير للسمك ، سيكون هو الآخر مديراً له » ، فحمد صاحبنا ربه لأنه لم يبدأ بتنظيف الأرض !

وكان عمله محل الرضا ، لولا أن تأخر فى الصباح مرتين خلال سنة ونصف سنة ، فتلقى فى المرة الأولى نظرة حادة من تحت نظارة المشرفة ، وفى المرة الثانية استدعته وطلبت إليه حين يتأخر أن يتغيب ، ولولا أنه أخطأ مرة فوضع أحد الكليشيهات فى غير مكانه ، فتاه منه ، ولم يستطع تقديم تجربة منه فى الوقت المناسب ، فلقى فى هذا تعنيفاً كبيراً ، ولولا أنه أخطأ مرة فأرسل تجربة سيئة الطبع فرجعت له مع كثير من التوبيخ .

لقد تعلم من هذه الأخطاء الصغيرة أن يتجنب ما فوقها ، وتكوّن عنده سلوك ذهنى يعنى بالتفاصيل لتجىء الكليات سليمة . كان يعتقد أن المبدأ هو المهم ، فعرف أن أسلوب التنفيذ لا يقل أهمية عن المبدأ .

وعرف شيئاً كبيراً هو أنه لا يعرف ! فقد كان يتولى تدريس الإعلان فى مدارس التجارة على أنه لغة جذابة تستدرج الناس إلى الشراء ، وكان يدور حول هذا المعنى البدائى فلا يحيد عنه ، ثم وجد الإعلان صناعة كبرى تحدد خصائص المستهلكين لكل سلعة ، وتضع الصيغ والرسوم التى تصلح لهم ، ثم تنتقى وسائل النشر التى تصل إليهم . ووجد وكالات الإعلان مصانع كبيرة فيها أستديوهات ومطابع ومخرجون ومصورون وكتاب ورسامون . دخل صاحبنا وكالة « كروفورد » جاهلا لا يشعر بحاجته إلى العلم ، وتركها نصف جاهل يبحث عن العلم فى كل مكان .

أما الكلية فلن ينسى صاحبنا أول مرة دخلها . لقد وجد فى المدرج امرأة عارية تمثل للطلاب تحت إشراف الأستاذ، لتبين لهم الفرق فى الإخراج بين الضحك والتثاؤب ، بين الجرى والترنح ، بين الموت والنوم ، وكانت تبين أثر ذلك فى قسمات وجهها فيسجله الطلاب فى كراساتهم . أما صاحبنا فكان مشغولا عن ذلك بالتفرج على جسمها واستراق النظر لصدرها . ولما تكرر حضورها لم يعد يجد فيها شيئاً مثيراً . إن صدرها بقى جميلا ، ولكنه لم يعد يستثير فيه رغبة جنسية ، وإنما يثير عاطفة جمالية ، وبقى تكوين جسمها رائعاً ، ولكنه بعد أن كان طعاماً للغريزة أصبح مقياساً عقلياً للنسبة والتناسب .

كان صاحبنا يخجل أول الأمر وهو يرى هذه العارية ، فأصبح لا يجد مانعاً من أن يتحدث إليها ، بل أصبح يتردد على أستديو خارج الكلية تتردد عليه نماذج من العاريات لتصوير أجزاء من أجسامهن تظهر فى الإعلانات . وكان يشترك مع غيره فى البحث دون أن تستبد بتفكيره اتجاهاته الأولى .

لقد طلب إليه أستاذه فى الفن أن يتردد على هذا الأستديو ، ليثقف نفسه ، بعد أن اختبره فأطلعه على لوحتين فى إحداهما لونان

متكاملان ، وفى الأخرى لونان متنافران ، وطلب منه أن يقول أيهما أجمل ، فوقع اختياره على اللوحة المتنافرة . وهرش الأستاذ رأسه ، ففهم صاحبنا أنه أخطأ . ثم أبرز الأستاذ لوحتين أخريين ، وسأل صاحبنا عن رأيه ، فود لو اختار واحدة بالذات ، ولكنه عكس قراره ، فاختار الأخرى ، وأظهر الأستاذ موافقته ، لولا أن صاحبنا صارحه بحقيقة شعوره ، فقال الأستاذ : « ظننت أنك خالفت رأيك ! »

ومن تردد صاحبنا على الأستديو اقتنع بأن العرى ليس مخيفاً إلى الحد الذى كان يتصوره ، وأن القبائل التى تعيش عارية فى خط الاستواء ليست بالضرورة منحلة ، بل بدأ يعرف سبباً لإنشاء أندية العراة . إن القائمين عليها يريدون تجريد المرأة من أهم أسلحتها وهو التجمل ، وتجريد الرجل من أهم سبيل للوقوع فى الإثم وهو التخيل . ورجع بذاكرته إلى أيام المراهقة ، فقد نظر من شباكه يوماً فرأى فى الناحية الأخرى من الحارة خيالا يتحرك لسيدة خلف « الشيش » . والتهبت عاطفته بجمال السيدة ثم انفتح « الشيش » فى الصباح فإذا الخيال « لقلة » .

لقد تبدلت عقلية صاحبنا بعد أشهر من إقامته فى إنجلترا ، فتحرر فى آرائه وإن لم يتغير فى تصرفاته . كان يؤمن بمسلمات لا يعرف مأتاها ، ولكن فيه نزوعاً للدفاع عنها واستعداداً لمهاجمة من يخالفها ، فأصبح يرى الرأى ولا يستبعد من حسابه أن يكون خاطئاً ، ولذلك ينصت لمن يخالفه عسى أن يستفيد من وجهة نظره .

كان يناقش لينتصر فى المناقشة ، فأصبحت المناقشة عنده تعاوناً فى البحث عن الحقيقة ، وكان إذا اختلف مع سواه يعد موضوع الخلاف كلا لا يتجزأ ، فإما اتفق عليه أو تركه معاقاً ، فأصبح لا يمانع فى أن يتفق على بعض الأجزاء ويترك الأخرى إلى أن يتيسر الاتفاق عليها . كان عندما يتناقش يشغل نفسه بما يريد هو أن يقوله ، لا بما يود

الآخر أن يبديه ، فأصبح يؤمن بفضيلة الإنصات ويعرف أنها عملية إيجابية توفق بين مختلف الاتجاهات لتصل إلى الحق الذى هو — فى أغلب الأحيان — وسط بين باطلين .

لكن ما هو الحق ؟ لقد رأى صاحبنا رجال الأعمال فى إنجلترا يحققون مصالحهم عن طريق مصالح الآخرين . فهم لا يبيعون سلعة أو فكرة إلا إذا كان ثمنها أكبر منها عندهم ، وهى أكبر من ثمنها عند الآخرين . العبرة إذن ليست بالحق ، وإنما هى بالحل الذى يلتقى عنده الطرفان . إن الحق لا تعرفه البشرية ، وإنما يعرفه الله وحده !

وجاءت امرأته إلى لندن تحمل طفلا عمره ثلاثة أشهر ، فأعدت لها الأسرة التى يسكن عندها عشاء خاصاً ، وكانت ابنة الأسرة مخطوبة ، فجلست على ركبتى خطيبها الذى جعل يقبلها ويعبث بشعرها على سبيل المجاملة ، ولكن امرأة صاحبنا اشمأزت من هذا التصرف ، فتركت غرفة الاستقبال وحبست نفسها فى غرفتها . ولما طال انتظارها قام صاحبنا يستعجلها فوجدها تبكى . قالت : « إذا كنت تقبل أن تعيش فى هذا البيت فإن كرامتى لا تسمح بذلك. دعنى أعود إلى بلدى». وحاول صاحبنا أن يقفها على حقيقة الأمر ، ولكنها لم تقتنع ، فاعتذر لأصحاب البيت عنها بحجة أنها تشكو مغصاً شديداً من أثر سفرها الطويل بالباخرة ، وأيد كلامه بشراء دواء للمغص من إحدى الصيدليات .

ولم يجد صاحبنا بداً من أن يترك هذه الأسرة إلى شقة مفروشة ، فأصبح على الزوجة أن تعنى بالطعام وشئون البيت إلى جانب العناية بالطفل ، وكان زوجها يساعدها فى ذلك إلى أن انعقد مؤتمر فلسطين فى لندن سنة ١٩٣٨ ، فاستعان به الشيخ حافظ وهبة وزير السعودية ليعمل فى المفوضية ، إلى جانب عمله . كانت البلاد العربية المستقلة ثلاثة هى : مصر والسعودية واليمن . وكان الأمير محمد عبد المنعم هو رئيس الوفد المصرى ، يساعده على ماهر ، وكان الأمير فيصل

هو رئيس الوفد السعودى ، وسيف الإسلام أحمد رئيس الوفد اليمنى .

وجاءت جلسة الافتتاح فاحتج الوفد اليمنى على أن مكانه بعد وفد السعودية ، وكان بين المملكتين خلاف — فحاول على ماهر أن يشرح لسيف الإسلام أحمد أن ترتيب الوفود وضع حسب الحروف الأولى لبلادهم ، ولكنه لم يقتنع . فنزل الوفد المصرى عن مكانه للوفد اليمنى وحلت المشكلة . ولكن حدث بعد ذلك مالم يكن فى الحسبان ، فبعد أن ألقى مستر « إيدن » وزير الخارجية البريطانية كلمته ، ورد عليها على ماهر باسم الوفود العربية ، وقف سيف الإسلام — دون أن يدعوه أحد — وقال : « أيها السادة . إن الخلاف القائم بين الإنجليز والعرب سببه العفاريت ! » فوقف الدكتور أحمد فريد رفاعى ، وكان أميناً عاماً للوفد اليمنى ، وقال كأنما يترجم كلام سيف الإسلام : « إن حسن النية كفيل بإزالة سوء التفاهم بين الإنجليز والعرب » وواصل سيف الإسلام كلامه : « إن العفاريت ألقت علىّ الطوب مرة ، فرددت فى سرى ( قل هو الله أحد . الله الصمد ) ، فجرت العفاريت وجريت فى إثرها وأنا أقول : ( لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ) حتى اختفت » .

وهنا ترجم فريد رفاعى قائلا : « إنه مهما يكن من اختلاف وجهات النظر فإن على كل طرف أن يضع فى اعتباره وجهة نظر الطرف الآخر ، لتلتقى النظرتان عند حل مشترك » . واستعد سيف الإسلام لكى يستأنف كلامه ، فنظر فريد رفاعى إلى على ماهر وقال بالعربية : « أنا استنفدت كل ما عندى من اختلاقات فأسعفنى يا باشا » ؛ فقام على ماهر وربت على كتف سيف الإسلام راجياً أن يجلس ، ولكنه أبى وخرج غاضباً من المؤتمر ، وكان الصحفيون الإنجليز يقفون فى الخارج ، فلما رأوا الأمير يخرج مبكراً ، سألوا فريد رفاعى ، وكان معه ، عن السبب فقال : « إن سموه يرفض أن يساوم على حقوق العرب » وظهرت الصحف الإنجليزية فى الصباح وعلى صدرها هذا العنوان :

« أمير اليمن لا يقبل التفاوض فى حقوق العرب » . وسافر سيف الإسلام غاضباً إلى « باريس » وبقى فيها حتى انتدب الرؤساء العرب الأمير محمد عبد المنعم لمصالحته . وجاء الاثنان إلى فندق « دورشستر » الذى تقيم فيه الوفود ضيوفاً على الحكومة البريطانية ، فخطر لسيف الإسلام أن يسوغ سبب تمسكه بالعفاريت ، ورد عليه الأمير عبد المنعم مازحاً : « أنت اللى عفريت » فعدها سيف الإسلام قذفاً فى ذاته ، وشتم الأمير ، فرد عليه هذا بلكمة قوية وقع منها مغشياً عليه !

كان صاحبنا يحضر مؤتمر فلسطين مع الوفد السعودى ليقوم بالترجمة ، وكان يشاهد ويسمع عن هذه المناظر ، فيرى كيف يتناول الرؤساء العرب قضايانا الكبرى !!

وكان صاحبنا يذهب وزوجته فى المناسبات إلى النادى المصرى ، فيقابلان أصدقاءهما ، ويشتركان معهم فى وجبة مصرية ، ثم يطالعان الصحف العربية . وفى إحدى الأمسيات اشترك الجميع فى مناقشة عن سياسة الأحزاب وموقفها من الإنجليز ومن السراى . وكان محمد محمود قد تولى الوزارة وكان ابنه همام حاضراً. وهاجم أحد الأطباء الوفديين سياسة محمد محمود وجعل يقلده فى أحاديثه وخطبه متعمداً إثارة « همام » ، لكن « همام » كان يؤمن بحرية الرأى فبقى ينصت ولا يعقب .

وخطر لأحد أعضاء النادى أن يداعب الطبيب ، فطلبه بعد أيام فى التليفون مقلداً صوت مدير البعثة : « قل لى يا دكتور ؛ هل صحيح أنك شتمت رئيس الوزراء أمام نجله همام ؟» قال الطبيب : « كيف ؟ » قال مدير البعثة : « لقد جاءتنى برقية باستدعائك إلى مصر بسبب هذه التهمة » ، فصرخ الطبيب : « هذا فظيع .إننى برىء ، والتهمة مختلقة» ، قال المدير : « إذن تعال لمقابلتى » . فجرى الطبيب إلى المكتب ، وتقدم إلى شباك الاستعلامات فملأ بطاقة قال فيها إنه يقابل المدير بناء على موعد سابق .

وذهبت العاملة تقدم البطاقة لمدير المكتب فلم يفهم معناها ، ولكنه لم يمانع فى استقبال صاحبها . ودخل الطبيب منفعلا يقول : « والله يا سعادة البيه أنا مظلوم . أنا لم أتكلم فى حق رئيس الوزراء ، وأرجوك أن تدافع عنى . فلم أكن فى يوم من الأيام وفديا » ؛ فجعل المدير يهز رأسه مستفسراً ، واستمر الطبيب يتدفق . قال المدير : « من أين جاءتك هذه المعلومات يا دكتور ؟» قال :« ألم تذكر لى ذلك فى التليفون اليوم ؟ » ، فضحك المدير وقال : « أنا لم أتحدث إلى أحد ، فابحث عمن يسخر منك » . فخرج الطبيب يلعن من سخر منه ، ولكنه حمد الله لأن الحكاية غير صحيحة .

وبقى صاحبنا وإخوانه يتناقلون هذا الفصل ، ويضحكون منه ، إلى أن جاءت الأنباء بما هو فوق الأحزاب وسياسة الأحزاب ، فأكدت أن الحرب العالمية الثانية على الأبواب ، وكان صاحبنا قد أنهى امتحانه ، ونجح فيما أوفد من أجله ، فأخطر صاحبة البيت بأنه سيتركه بعد أسبوع .

وجاءت لتعاين الشقة فوجدت ورق الحائط ممزقاً فى جزء صغير منه ، فطلبت إبداله كله ، حيث إن إصلاحه متعذر لعدم وجود اللون . ونشأت بسبب ذلك مناقشات كثيرة ، هل ما حدث استهلاك عادى يغطيه الإيجار ، أو هو إتلاف يقتضى التعويض ؟ وفى إحدى الجلسات كان عند صاحبنا ضيف ، فتدخل فى الحديث هازئاً من طلب التعويض قالت له صاحبة البيت : « أرجوك يا سيدى ألا تتدخل فى أمر مقصور على مؤجر ومستأجر » ، فثار صاحبنا لهذا التقريع ، وقال : « مادمت تهينين ضيفى فلا تفاهم بيننا » . فرأت أن هذا الأمر العارض قد يفسد المفاوضات ، وقدمت اعتذارها على الفور للضيف ، ثم التفتت لصاحبنا قائلة : « أما وقد قدمت اعتذارى فقد انتهت المسألة ، ولنعد إلى موضوعنا الأصيل » . ولما لم يصلا إلى حل قالت فى صوت خفيض : « معذرة

فإنى مضطرة الآن لوضع الأمر فى يد المحامى » . واستأذنت فى الانصراف ، فودعها صاحبنا وكان خارجاً هو الآخر لكليته .

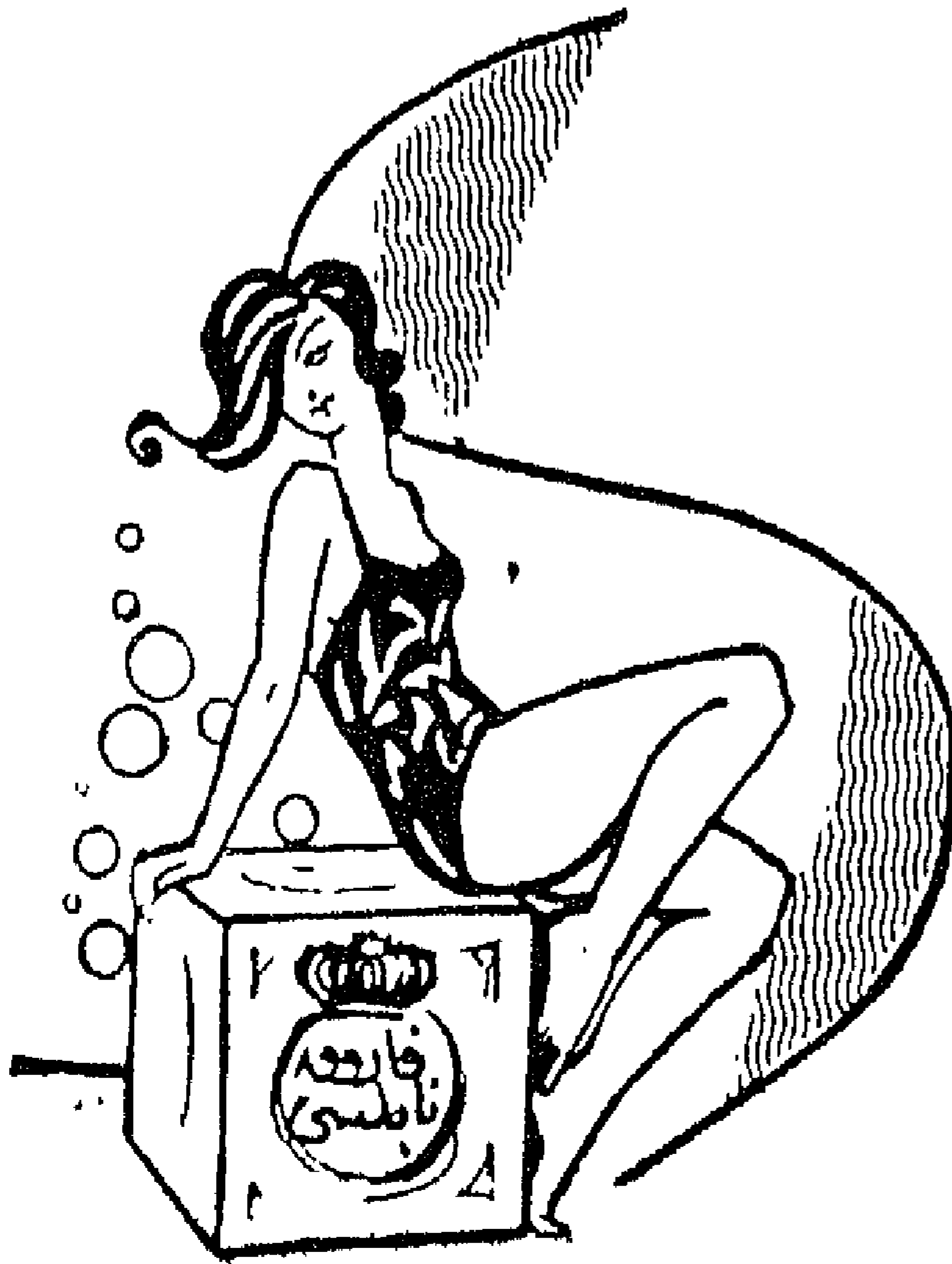
وعندما ركبت السيدة سيارتها رأت صاحبنا يمشى ليأخذ المترو ، فدعته ليركب معها ، وظن فى هذا معنى الترضية والعدول عن التهديد ، ولكنه تسلم بعد يومين اثنين إنذاراً أحمر بالحجز على أثاثه مع تحذيره من مغادرة الشقة قبل نظر القضية بعد ثلاثة أيام .

وذهب صاحبنا يبحث عن لون الورق فى كل مكان حتى وجده عند تاجر للمخلفات ، فاشترى منه متراً بثلاثة شلنات ، وعاد به لصاحبة البيت ، قالت : « شكراً سألغى الآن الإجراءات » .

وبعد يومين ذهب صاحبنا إلى محطة فيكتوريا ، ليأخذ القطار مع أسرته إلى « دوفر » فوجد على رصيف المحطة سيدة وباقة ورد ، إنها صاحبة البيت تقوم بواجب التوديع . ما أجمل الموضوعية فى التفكير !

## لم يضيّع في الإعلان عمره

- ١٩٣٩ -



وصلت الباخرة « كوثر » إلى مشارف الإسكندرية قبل قيام الحرب العالمية الثانية بأسبوع ، فخفضت سرعتها ، وكان صاحبنا يضيق ببطئها ، لأنه لم يعد يطيق الصبر على هذا الميل الأخير الذى يفصل بينه وبين الوطن ، ولكن الجو محا بضيائه آية الضباب ، فملأ قلبه إشراقاً وحباً . وضحك البحر ، فأخذ يهدهد الباخرة ، ويتلاعب بالموج من حواليها ، ثم يرسل الرذاذ إلى وجه صاحبنا ، فيداعب أنفه وجبينه ، ليهون عليه أمر المسافة الباقية .

وأرسلت الزوجة بصرها ، فى منظار لديها ، فشاهدت جموعاً من المستقبلين على رصيف الميناء ، وأيقنت أن من بينهم ولدها الأكبر — وكانت قد تركته فى رعاية جدته — فاستيقظت أمومتها ، وتحركت من أعماقها إلى شفتيها ، فتلاقتا على خد ابنها الذى معها — وكان نسخة من أخيه — فى قبلة نطقت ببعض ما يعتمل فى نفسها .

وأخيراً رست الباخرة ، فتعطلت لغة الكلام وجلجلت القبلات ، ثم برز من بين الصفوف مدير الجمارك — وكان من أقرباء صاحبنا — فأشار بيده فإذا الشيالون يتزاحمون على الحقائب ويتقلونها إلى الخارج دون أن تمر برجال الجمارك ، وكفى الشيالين شرفاً أنهم حملوها ولم يتقاضوا عنها شيئاً . وانطلقت سيارة المدير بالقادمين رأساً إلى الطريق العام . لم يكن فى حقائب صاحبنا ولا معه ما يخضع للرسوم الجمركية ، ولكنه تمكن بنفوذه من خرق القانون بمجرد أن انتقل من إنجلترا إلى مصر !

وكان أول ما فعله هو أن يقرأ الإعلانات التي تظهر في الصحف وعلى الملصقات ، كان معظمها من نوع « شرفونا تجدوا ما يسركم » للإعلان عن محل كبير ، و « قنبلة تنفجر في ميدان العتبة » للإعلان عن افتتاح مطعم جديد ، كأن الطاعمين مغرمون بالأكل وسط القنابل ! وكان أصحاب المطاعم حريصين على نشر صورهم في الإعلانات كأن الناس « تفت » في شواربهم ولحاهم ، أو كأن هذه الشوارب واللحى من شأنها أن تختلط بالشوربة الساخنة تزكى طعمها ! كان صاحب مكتب يضيء واجهته بلفظ الجلالة « الله » ثم لا يتبعه بشيء يدل على نوع عمله . وكانت الأخطاء المطبعية كثيرة ، حتى لقد أرادت شركة أن تعلن حضرات عملائها فظهر إعلان يقول : « شركة ... تلعن حضرات عملائها » وأرادت دار كبيرة للنشر أن تعلن عن نفسها فقال الإعلان إن الدار « للنشل » .

وكان سمعان صيدناوى يعلن عن محله بوصفه « أكبر معرض في مصر » فنسيت الجريدة نقطة الضاد ! وكان بائع ذكي للفول في مصر القديمة يكتب على محله : « إن خلص الفول أنا غير مسئول » ! ومطعم لأحشاء الذبائح أمام مسجد السلطان أبو العلا بشارع فؤاد يكتب على لوحته : « كل باطمئنان ، وادع للسلطان » . وكانت الصحف ملأى بإعلانات « لولا الراعي ما انكست الرعية » .

كان الإعلان بالفطرة . لم يكن بيعاً على الورق ، وإنما كان دعاية جوفاء قد تسيء أحياناً ولا تنفع . ورأى صاحبنا هذا الحال ، فذهب إلى مراقبة التعليم الفني يطلب إنشاء دراسة جادة في الإعلان يقوم هو عليها ، فقيل له إن البلد ليس في حاجة إلى مثل هذه الدراسة ، وإن عليه أن يعود إلى تدريس الحساب التجاري وتنظيم المكاتب ! وكان صاحبنا يعرف صاحب الأهرام ، عرفه في لندن في صيف ١٩٣٨ ، واصطحبه لزيارة إحدى الصحف وإحدى وكالات الإعلان ، فطلب معونته ،

فوافق على أن ينشئ هذه الدراسة فى الأهرام .

وذهب صاحبنا يستأذن فى التدريس بالأهرام ، إلا أن المراقب استنكف ذلك ، فأنشأ فى معهد التجارة العالى دراسة مسائية ذات شعبتين ، إحداهما لممارسى الإعلانات فى دور الأهرام والهلال وشركة الإعلانات الشرقية ، والشركات المعلنة ، ووكالات الإعلان ، والأخرى لخريجى مدارس التجارة ممن يرغبون فى التخصص فى الإعلان .

وأثارت هذه الدراسة اهتماماً كبيراً فى الوسط المصرى ، حتى لقد طلب المصور من صاحبنا كتابة عشر مقالات عن الإعلان تقاضى عن كل منها جنيهاً كاملا ، وعهد إليه نابلسى النمر بإعلاناته فظهر فى الصحف هذا الشعار : « النمر على الصابون علامة الصنف المضمون » .

ثم توقفت الإعلانات عن هذا الصابون لظروف خاصة ، فانتهز منافسه « نابلسى فاروق » هذه الفرصة ، واتفق مع صاحبنا على أن يشرف على سياسته التسويقية . وكانت الرقابة على الصحف شديدة ، فظهرت أخبار اليوم وفيها صفحة كاملة بيضاء فى وسطها هذه العبارة :

« هذه الصفحة لم يحذفها الرقيب ، وإنما استحمت بنابلسى فاروق » .

وفى اليوم التالى ظهرت الأهرام والمساحة اليسرى للإعلانات فى الصفحة الأولى بيضاء إلا من هذه الجملة « إذا أردت أن تقرأ ما فى هذه المساحة فارفع الورقة للضوء » وكانت المساحة المقابلة من الظهر قد تركت بيضاء كذلك وكتب عليها من اليسار إلى اليمين « نابلسى فاروق » فظهر الاسم معتدلا من خلال الورق .

ثم امتلأت الصحف بأنباء المفاوضات بين الأحزاب لتحقيق الائتلاف بينها ، فظهر فى الصحف عنوان كبير مثير : « اتفق الزعماء » ، وتحت العنوان صور مصطفى النحاس ومكرم عبيد ومحمود بسيونى رئيس الشيوخ وحافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى ومحمد حسين هيكل رئيس

تحرير السياسة ، وشهادات بخط كل منهم تؤكد جودة نابلسى فاروق ثم ينتهى الإعلان : « وهكذا اتفق الزعماء على أن نابلسى فاروق ملك الصابون » .

وكان صاحبنا قد تعاقد مع أحد الصحفيين على أن يقدم علبة من الكرتون فيها قطعتان من الصابون لكل زعيم ليجربه فى بيته ، ثم يرجوه الصحفى بعد ذلك أن يكتب رأيه تشجيعاً لصناعة مصرية ، فقبل الجميع إلا أحمد ماهر ، إذ تقدم الصحفى إليه بطلب شهادته ، فقال إن ابنته جربت الصابون فوجدته رديئاً .. وأسرع الصحفى فى الانصراف !

وفوجىء صاحبنا يوماً بزعيم يهدد برفع دعوى لأن الشهادة المنسوبة إليه مزورة ، فلما رجع إلى الصحفى أكد أنها صحيحة . وذهبا إلى هذا الزعيم فى نادى الحزب ، فظهر أن الصحفى استكتبه وهو سكران فلم يذكر بعد ذلك ما حدث ! .

وكان لصاحبنا صديق من أعضاء مجلس النواب، فطلب إليه أن يقدم استجواباً عن هؤلاء الزعماء الذين يسخرون أسماءهم فى الإعلانات لترويج صابون معين ، ولم يكن الصديق يعرف أن صاحبنا مسئول عن هذه الإعلانات فقدم الاستجواب .

وفى اليوم التالى قابل صاحبنا « أنطون الجميل» رئيس تحرير الأهرام، وكان يعرف أنه رجل نزيه لا يؤثر فيه الذهب ولا الجنس ولا الخمر والميسر، ولكنه ذوّاقه يؤثر فيه الشعر، فحفظ بعض الأشعار وطلب إليه موعداً ، ثم جعل يستفسر منه عن معنى بعض الأبيات ودلالاتها ، فأضاء النور الأحمر إعلاناً بأنه مشغول ، ومنع دخول المحررين والإداريين بالأهرام إلى غرفته ، وفى هذا الجو استمضاه صاحبنا على مقال يرد على استجواب النائب عنوانه « لماذا يرغى هذا النائب ويزبد ؟ » فاحتج مدير إعلانات الأهرام على هذا النشر لدى رئيس التحرير ، وأدرك الباشا بعد فوات الوقت أنها كانت مناورة إعلانية .

ثم جاءت الكارثة . لقد ظهر إعلان فى الصحف فيه فتاة جميلة بلباس البحر تجلس على قطعة كبيرة من نابلسى فاروق ، وقد كتب تحت الصورة : « نابلسى فاروق عماد الجمال » ، فإذا السراى الملكية تتهم صاحب الصابون بأنه أهان الذات الملكية ، لأن الفتاة تجلس على التاج وهو علامة الصابون ! كانت فى « السراى » عصابة تتحرش بالناس عن طريق اتهامهم بالعيب فى الذات الملكية ، ثم تسوى الموضوع معهم لقاء بضعة ألوف من الجنيهات . وأجفل صاحب الصابون قائلا إن له خبيراً فى الإعلانات هو الذى يتولى صياغتها ، وأحال إليه المسئولية ، ولكن العصابة كانت تعرف أن الخبير مفلس ، وأن صاحب الصابون ملىء فتشبثت به ، ودفع ثلاثة آلاف جنيه لوسيط من كبار الصحفيين !

ونجحت الحملة الإعلانية لنابلسى فاروق نجاحاً غير مسبوق رفع مبيعاته إلى ستة أضعاف ، ورفع سمعة صاحبنا بنفس النسبة ، فعهد إليه مصنع « قها للأطعمة المحفوظة » أن يصمم إعلاناته ، وظهرت فى الصحف حملة شعارها «منتجات قها يحبها من ذاقها . منتجات قها ، لو ذقتها لعشقتها » .

وطلبت منه « دار الهلال » أن يقوم ببحث ميدانى عن خصائص قراء مجلتى المصور والاثنين ، فكان أول بحث من نوعه فى الشرق الأوسط ، واشترك فيه خمسة وعشرون مستقصياً من خريجى الدراسة المسائية ، تقاضى كل منهم ثلاثة جنيهات عن عمل استغرق ستة أشهر ، وتقاضى الأستاذ الذى أشرف عليه عشرين جنيهاً فلم تبلغ الأتعاب كلها مائة جنيه ! وكانت الجنيهات الثلاثة تغطى مصاريف الانتقال وبدل الطعام وكان على المشرف العام — ضمن المقاولة — أن يشرف على إخراج كتيب باسم « دليل المعلن » فيضع له التصميم ويكتب المتن .

وجاءته يوماً فى أثناء البحث مندوبة تعمل فى إعلانات الدار ، قالت إنها كلما تحدثت إلى معلن كبير فى الإعلان حدثها فى الغرام .

وهي لا تريد أن تفقد ميزانيته الإعلانية ، ولا تريد أن تفقد نفسها . فما العمل ؟ ومكث صاحبنا يفكر .. ثم طلب منها أن تطلب منه موعداً لمديرها بحجة أنه يريد أن يفتش عملها . وذهب صاحبنا فى الموعد ، فسأله عن مدى رضائه عن إعلاناته فى المصور ، فأثنى عليها وعلى مندوبة الإعلانات ، فانتهز المدير المزعوم هذه الفرصة وقال : « وسيزيد رضاؤك عن هذه الفتاة حين تعرف أنها مخطوبة ومشغولة بتربية إخوتها الصغار » فانصرف المعلن عن ملاحقتها منذ هذا اليوم بعد أن رآها تلبس فى أصبعها تعويذة يسمونها « دبلة » !

كان دخل صاحبنا من كل هذا النشاط الإعلانى لا يكاد يصل إلى عشرة جنيهات فى الشهر ، ذلك أن المعلنين لم يكونوا يزنون أتعابه بميزان عمله ، وإنما كانوا يقدرونها بما يناسب مستواه ، وقد كان مرتبه عشرين جنيهاً ، فكان قميصه من قماش متين ، وحذاؤه ذا نعل سميك ، ومنديله من صنف رخيص . كان قادراً على أن يعلن عن السلع والخدمات ، وعاجزاً عن أن يعلن عن نفسه !

وتجمد له مبلغ كبير من مكافآت التدريس فى الدراسة المسائية ، فذهب إلى الوزارة يطلب حقه ، ولكن موظفاً فى المستخدمين أشار إلى أنه يريد مكافأة مقابل تسهيل الصرف ، فابتعد عنه صاحبنا ، ودخل إلى مدير المستخدمين — وكان من أصدقائه — فوعده المدير بأن يأمر بالصرف على الفور ، ودق الجرس فإذا الموظف نفسه هو الذى يدخل . قال له المدير : « لماذا لم تصرف مستحقات فلان ؟ »قال : « إن دراسة الإعلان تابعة للتعليم التجارى ، وإن كان مقرها فى المعهد العالى فكافآتها مكافآت التعليم المتوسط ، والأستاذ يطلب صرفها على أساس الدراسات العالية » . ورأى المدير فى هذا شبهة جدية تقتضى التريث فأبدى أسفه لصديقه . ولكن الصديق خرج فوجد الموظف فى انتظاره . قال : « إذا دفعت لى ريالا فإنك ستأخذ حقك الآن . وطأطأ صاحبنا رأسه

ودفع الريال ، فإذا الإذن يصدر ! ماذا جرى ؟ لقد أخرج الموظف من درجه فتوى من وزارة المالية بأن الدراسات التكميلية التي تعد لخريجي المدارس المتوسطة يكون حكمها حكم الدراسات العليا فى المكافآت .

وانصرف صاحبنا والنقود فى جيبه والقلق فى نفسه : هل المبلغ الذى دفعه للموظف مكافأة أو رشوة ؟ إنه لم يطلب من الموظف إخلالا بواجبه ، فكيف يكون رشوة ؟ ولم يقدم المبلغ بعد الأداء وإنما قدمه قبله ، فكيف يكون مكافأة ؟ وهل صحيح ما قرأه مرة فى إدارة الأعمال من أن المدير قد يرشو لمصلحة ، ولكن ليس من حقه أن يرتشى ؟ إننا إذا أبحنا الرشوة من ناحية فإننا نطلق قبولها من الناحية الأخرى . وهل قواعد الأخلاق مطلقة لا تعترف بقصد أو بظروف ؟ إن كانت كذلك فهى لا تتصل بدنيانا التى نعيش عليها ، وإن كانت تتشكل بحسب الملابسات فهى ليست قواعد ، وإنما هى اتجاهات توجه ولا تلزم .. واختصمت أفكاره فضاع صوابه !

على أن اهتمام صاحبنا بشئونه المالية لم يشغله عن المشاركة فى الشئون العامة للتعليم التجارى ، فقد كان سكرتير اللجنة الاستشارية ، وهى التى كانت تخطط لهذا التعليم ، وكان رئيسها محمد عبد الرزاق السنهورى المستشار الفنى للوزارة ، ومن أعضائها محمد صادق جوهر مراقب التعليم الفنى وكان رجلا عصبياً . ويظهر أنه كان بين الرجلين عداء ، فقد حدث بينهما نقاش فى أثناء أحد الاجتماعات احتد فجأة ، فقام مراقب التعليم الفنى ورفع مقعده فى وجه المستشار ، ولكن المستشار لم يتحرك من مكانه ، وإنما قام أعضاء اللجنة يحولون بين المراقب والاعتداء ، ثم رفع الأمر إلى « نجيب الهلالى » وزير المعارف ، فاستدعى السكرتير ، وكان قد سجل النقاش كلمة كلمة ، وسجل عبارات الأعضاء دون تصرف ، فكان لهذه الدقة فى الرواية أثرها فى تحديد المسئولية . وعرض

المستشار الفنى على صاحبنا أن يعمل مديراً لمكتبه، ولكنه آثر البقاء فى دنيا الإعلان .

ولما تخرجت أول دفعة فى المعهد التجارى العالى أعلن صاحبنا عنها ، فأعد مجلداً جذاباً تتحدث كل صفحة فيه عن خريج ، فعليها صورته ودرجاته فى الدبلوم، ووزنه ولونه واللغات التى يحسنها ، والرياضة التى يمارسها ، ونوع العمل الذى يصلح له .. إلى غير ذلك من البيانات التى يبحث عنها رجال الأعمال . ودار بهذا المجلد على رؤساء مجالس الإدارة ، فكان يرشح الشخص المناسب للمكان المناسب ، ووظف الخريجين جميعاً .

لقد كان صاحبنا أول من درس الإعلان دراسة علمية فى إنجلترا . وكانت هذه الدراسة مقصورة على الإنجليز وحدهم ، ولكن صاحبنا عرف أن الأمين العام لمجمع الدعاية التجارية كان قد أمضى مدة طويلة فى السلك السياسى بالقاهرة ، وتعرف بزوجته فيها ، وأنجب منها ولده الوحيد ، فاستعان به على السماح له بالالتحاق بهذه الدراسة .

ولما زار جبرائيل تقلا صاحب الأهرام لندن فى سنة ١٩٣٨ ، سعد بصاحبنا كثيراً ، وقال إنه لم يكن يعرف أن وزارة المعارف غيرت اتجاهها فى قصر بعثاتها على دراسة الآداب واللغة الإنجليزية . وقص على صاحبنا قصة نشر الإعلانات عن الخمور لأول مرة فى الأهرام . قال إن أحد الوكلاء زاره فى مكتبه وعرض عليه حملة إعلانية عن الويسكى بثلاثة آلاف جنيه ، وكان هذا مبلغاً يسيل له لعاب أى ناشر فى ذلك الوقت ، فاستشار رئيس تحريره داود بركات، فقال إنه شخصياً يحب الويسكى ، ولكنه يخاف أن يهجم الجمهور فى الصباح على مكاتب الأهرام ويرجمها بالحجارة . وأخيراً رأى الثلاثة أن من الخير إشراك « المصرى » فى الحملة من باب الحماية ، فرحبت بذلك ، ولكنها طلبت إشراك « الجهاد » كذلك ، وكان صاحبها توفيق دياب فى ضائقة مالية ، فسعد بهذا العرض

أيضاً ، واتفقت الصحف الثلاث على أن تنشر الإعلان الأول فى يوم محدد .فلما جاء اليوم ظهرت الأهرام والجهاد بالإعلان ، وظهرت المصرى خالية منه . لقد أضمر صاحبها أن يتخلف ليرى اتجاه الجمهور ، فإن غضب أفلت من غضبه ، وإن مرت العاصفة بسلام قال لزملائه إن سهواً حدث ، وإن المختص قد عوقب أشد العقاب .

والحق أن الإعلان بصفة عامة كان بالنسبة للتحرير كالعظم فى اللحم ، وكان القراء ينظرون إليه كمجموعة مبالغات وأكاذيب. وساعد على ذلك أن الصحف كانت تبيع أعمدتها التحريرية . فتصبح إحداها لسان حال المضاربين على الصعود فى بورصة القطن . وتصبح أخرى لسان حال المضاربين على النزول . بل إن من أصحاب الصحف من كان يشترك مع المضاربين بنسبة مئوية فى الربح . وإذا كانت الدور الصحفية قد نهضت فى الأربعينات ، فاشترت مطابع حديثة ، فإن معظم الفضل فى ذلك يرجع لإعلانات البورصة .

وإذا كانت الصحف قد أثرت على حساب الناس ، فقد أثرى على حسابها أحد المعلنين . أراد أن يحصل على توكيل ثلاجات من إحدى الشركات الأمريكية ، فاشترطت الشركة لذلك أن يبيع فى السنة الأولى ثلاجات بمليون جنيه ، ولم يكن يستطيع ذلك ، فجاء إلى صاحبنا وعرض عليه أن يشترى منه فى صحف شركة الإعلانات الشرقية مساحات إعلانية بثلاثين ألف جنيه مقابل ثلاجات ، وطلب خصما قدره ٣٠٪ لأن الإعلانات ستنشر فى أشهر الصيف ، ثم ذهب إلى الأهرام فعرض عليه ثلاثين ألفاً أخرى بنفس الشروط ، واشترى مساحات من باقى الصحف حتى بلغ مجموعها مائة ألف جنيه .

وضجت القاهرة والإسكندرية بنحو خمسين مندوباً من مندوبى الإعلانات فى سياراتهم يبيعون ثلاجات هذا المعلن ، ويؤكدون للناس أنها أحسن ما فى السوق . وكان المعلن قد اتفق مع الشركة على أن

تمنحه عمولة قدرها ٤٠ ٪ وأن تتحمل ١٠ ٪ من ثمن البيع كمساهمة فى الإعلانات ، فطلب من الصحف أن تعطيه فواتير بالقيمة الكاملة قبل الخصم ، وحصلها بالكامل من الشركة . ونجح المعلن فى بيع ثلاجات بمليونى جنيه لا مليون واحد ، أخذ من ثمنها أكثر من النصف . وسخر مندوبى الصحف فى عمل الدعاية لثلاجاته فأصبح سهلا عليه أن يبيعها فى السنوات التالية .

لقد كان المندوبون يتذرعون بكل وسيلة لبيع المساحات الإعلانية ، كان مندوب يستهدى أحد المعلنين ما يبيعه من حلاوة حمصية وسمسمية ليوزعها على عملائه من المعلنين الآخرين فى مولد النبى . وكان آخر يشترى مفكرات فاخرة فى مستهل السنة الميلادية ثم يكتب عليها من الداخل اسم صحيفته بخط رفيع ليزيل عن عملائه حرج تقبلها حين يقدمها لهم كهدايا . وكان ثالث يستقصى أحوال عملائه ، فإذا عرف أن عند أحدهم مريضاً استأذن فى أن يدعو له طبيباً صديقاً مع أنه سيدفع له الأتعاب فيما بعد . وقد روى أحد المندوبين لصاحبنا أنه حاول غير مرة مقابلة أحد المعلنين فلم تمكنه السكرتيرة من ذلك ، وكانت نزيهة فلم يستطع أن يرشوها ، ولكنه لاحظ أنها عانس كبيرة السن ، فتودد إليها وغازلها فهيأت له عند المدير ما أراد .

ويذكر صاحبنا أنه كان يدفع لسكرتير أحد الباشوات من كبار رجال الأعمال نسبة صغيرة من إعلانات الباشا مقابل أن يحصل لصحفه على نصيب الأسد منها . وفى يوم طلب منه السكرتير أن يشكوه للباشا على سبيل التعمية ففعل ذلك ، وطلب الباشا سكرتيره على الفور ، فعنفه ، وألح عليه أمام صاحبنا أن يكون دائماً فى خدمة المصرى . وأنشأ السكرتير يشكو من معاملة مدير المصرى ، ويقول إنه لم يفلح فى كسب مودته برغم تفانيه فى خدمته . وانصرف صاحبنا فخرج معه السكرتير يودعه ويشكره على هذه التمثيلية ويهنئه على إجادة التمثيل .

وبعد يوم سأله صاحبنا عن رد الفعل عند الباشا بعد الزيارة فقال إنه طلبه بعد قليل وأفهمه ألا يعبأ بما سبق أن قاله له ، فهو مجاملة لصاحبنا ، وعليه أن يسير فى طريقه كما يرى !

وقد كان هذا الباشا يشطب كسور الألوف من الجنيهات من فواتير الإعلانات ، فكانت الصحف تزيد أسعارها ليبقى حقها كاملا بعد الشطب . واستمرت فى زيادة أسعارها حتى أصبح الباقى يزيد كثيراً على المستحق ، وفى يوم جاء مندوب شركة الإعلانات لدى الباشا إلى صاحبنا يعرض نزوله عن عمولته مقابل ما يزيد على حق شركة الإعلانات الشرقية بمقتضى التسعيرة ، فلم يتردد صاحبنا فى الرفض !

وكان هذا الباشا رئيساً لأحد الأندية الرياضية ومغرماً بكرة القدم إلى حد بعيد ، فكان المندوبون يتوددون إليه عن طريق التحزب لهذا النادى ضد ناد آخر ، وكانوا يبتعدون عنه إذا انهزم النادى ، لأنه يكون فى حالة نفسية سيئة ، ويقبلون عليه حين ينتصر النادى ، فيدفع لهم قيمة الفواتير كاملة .

وكان هذا الباشا على خلاف مع وزير من وزراء التموين فى وزارة الوفد ، بشأن تسعيرة السكر ، فأراد الوزير أن ينشر بياناً فى الصحف للتشهير به ، فاعتذرت الأهرام عن نشره رعاية للباشا ، وقبلته « المصرى » بحكم كونها لسان حال الوفد ، فانتهز صاحبنا الفرصة وأعطى الباشا صورة من البيان ليرد عليه فى اليوم نفسه ، وتمكن بذلك من تحصيل عشرة آلاف جنيه كانت على الباشا ثمن إعلانات . وثار الوزير ، وأراد أن يمنع الرد ، وانضم له رئيس التحرير ، ولكن صاحبنا تذرع بحرية النشر فكان له ما أراد .

وقد كان أحد المعلنين فخوراً بثرائه العريض ، يصرح بأنه يحترم الشخص بمقدار ما يستطيع الإمضاء عليه من أصفار إلى يمين الواحد الصحيح . عرف المندوبون ذلك فكانوا يبالغون فى هذا الثراء ليورطوه

فى الإعلانات . وقد كان عليه يوماً ثلاثة آلاف جنيه لأخبار اليوم ، فطلبه صاحبنا بالتليفون وقال : « يا صديقى إذا لم تدفع فسأثقل عليك بالزيارة فتضطر لاستقبالى وإضاعة خمس دقائق من وقتك الثمين ، والناس يعرفون أن دقيقتك بألف جنيه ، فتكون الخاسر فى النهاية..» وضحك فى اعتزاز ثم استدعى رئيس حساباته وأمره بإعداد الشيك .

وكان معلن آخر مغرماً بالقهوة السادة ، يسخر من عملائه الذين يطلبون « سكر زيادة » ويقول إنهم أطفال أولى بهم أن يشربوا « شربات » فكان المندوب يتحرى أن يطلب فنجان قهوة « سادة بن محروق » ، ليدخل السرور على عميله .

ويذكر صاحبنا أن مندوباً كان قد تناول عشاءه فى منزله ، فلما خرج التقى بأحد المعلنين الكبار ، وكان يحاول عبثاً مقابلته فى مكتبه ، فدعاه المعلن للعشاء ، ووعده بإمضاء العقد ، فلم يتردد المندوب فى قبول الدعوة ، وتعشى للمرة الثانية. ثم عاد إلى منزله وفى يده عقد وفى معدته اضطراب !

هكذا كان حال الإعلان فى الأربعينات ، فهل حاله الآن أحسن ؟

إن صاحبنا لم يقدم الجوانب المضيئة من الإعلان فى العهد الماضى ، مع أن الإعلان قدم خدمات كثيرة للنظام الاقتصادى الذى كان قائماً ، وهو يقدم اليوم خدمات أكبر للنظام الاشتراكى ، ولكن بعض الكتاب الاشتراكيين ينادون بإلغائه كوسيلة للبيع لأنه يؤثر فى حرية الصحف فى النقد .

وصاحبنا يرى أن الإعلان إذا كان يتملق المعلن ليزيد حصيلة الإعلانات فإن التحرير قد يتملق القارئ ليزيد حصيلة التوزيع ، والخطأ فى الحالتين فى التطبيق لا فى المبدأ ، وإذا كان التحرير هو أخبار السياسة والاجتماع فإن الإعلان هو أخبار السلع والخدمات ، والجمهور فى حاجة إليهما جميعاً .

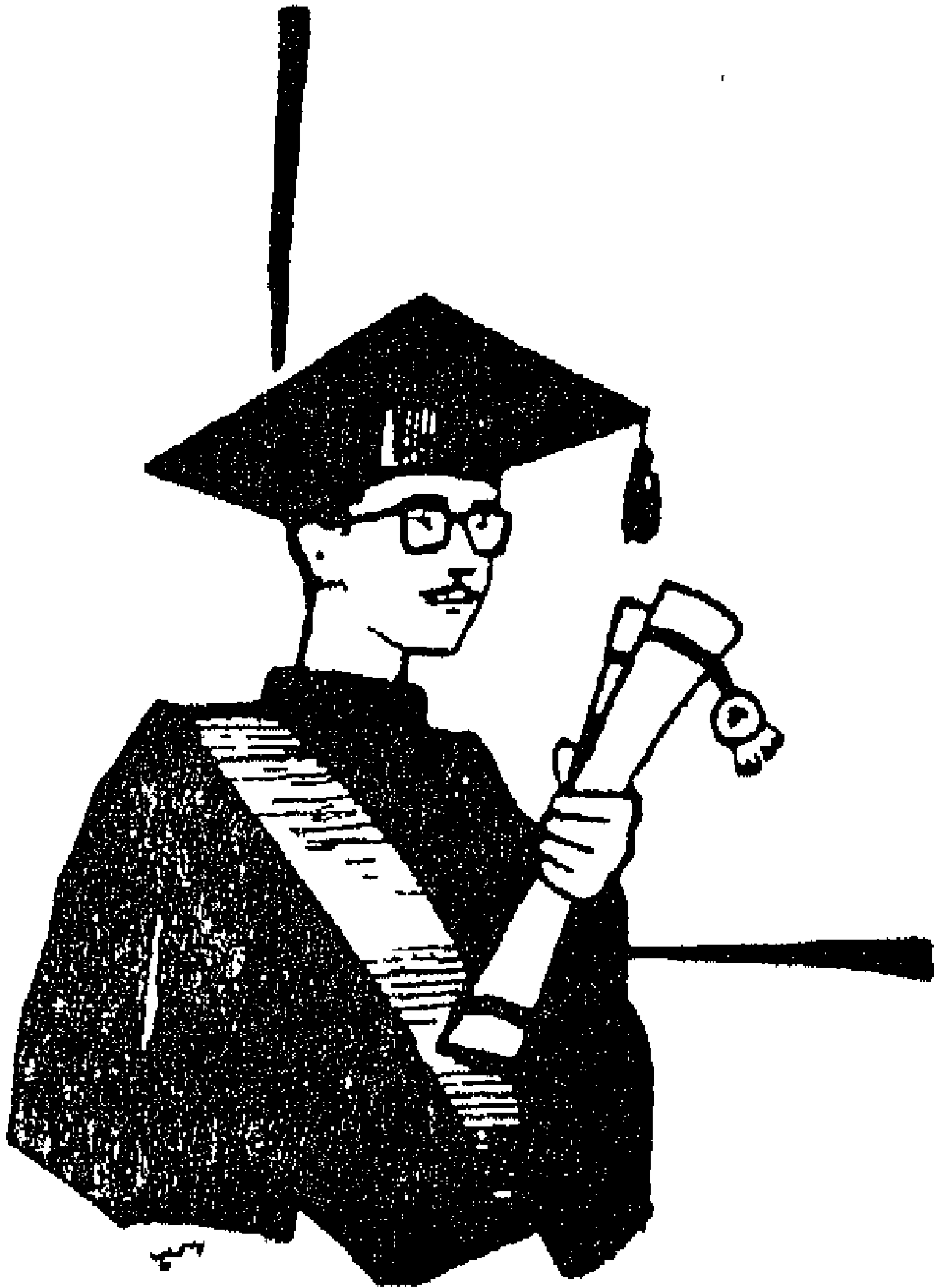
إن صاحبنا كتب فى جريدة المصرى فى الأربعينات يدعو إلى إنشاء اتحاد للإعلان يجمع المعلنين والناشرين ووكالات الإعلان ، ويعمل على تقنين الإعلان . وقد تمكن أخيراً من إنشاء المركز العربى للبحوث والإدارة ( اراك ) لجعل البحث والاستقصاء أساساً للتسويق ، فنجح فى هذا نجاحاً ملحوظاً .

وصاحبنا إلى هذا يعتقد أن الإعلان هو فن التعريف ، والتعريف ضرورى فى النظام الاشتراكى ضرورته فى النظام الرأسمالى .

أمخطئ هو فى هذا الاعتقاد أو مصيب ؟ من يدرى !

# في الروب الجامعي

- ١٩٤٢ -



هذه هى المرة الأولى التى يعمل فيها صاحبنا خارج القاهرة نقل زملاؤه جميعاً إلى الأرياف بعض الوقت ، وبقى هو فى مدرسة التجارة بالظاهر حتى سافر منها إلى إنجلترا ، ثم عاد من لندن إلى معهد التجارة العالى بالقاهرة . ذلك أنه كان يعمل فى لجان التخطيط فيقوم بإعداد محاضرها وتقاريرها ، وكانت مراقبة التعليم التجارى تؤثر الاحتفاظ به قريباً منها لهذا الغرض .

وها هو ذا يسافر إلى الإسكندرية للبحث عن مسكن يناسب مركزه الجديد ، فقد أصبح مدرساً فى جامعة فاروق ، والمدرس فى الجامعات يحمل عند النداء عليه لقب أستاذ ، والأستاذ يحمل فى الحديث لقب دكتور . صحيح أن المرتب ثلاثة وعشرون جنيهاً تخصم منها الضرائب فيبقى عشرون ، ولكن المركز الأدبى فى الهيئة الاجتماعية كبير ، والسلطة التى فى يد المدرس تطوع له أن ينجح طالباً ويسقط آخر دون أن يكون عليه رقيب إلا ضميره . وقد انتهى عهد المفتشين الذين يزورونه فيكتبون التقارير عنه ، أصبح سيد نفسه يقول فى إدارة الأعمال ما يشاء ، ويبدى رأيه الشخصى فى نظريات العلماء وتجارب الأولين . وإذا كان الناس يقيسون أموالهم فى البورصات فإنهم يقيسون معارفهم فى الجامعات . وصاحبنا لا يستطيع المكاثرة بماله ، فليكاثر بمكانته العلمية. إن فى إمكانه أن يقترض مجلداً باللغة الإنجليزية من مكتبة الكلية ، ثم يمضى به إلى ترام الرمل ، فإذا الراكبون جميعاً ينظرون إليه فى احترام !

وفيما هو يفكر فى ذلك جاءه مندوب الجامعة يطلب ستة جنيهات . قال لماذا ؟ قال المندوب : إن حفل الافتتاح قريب ، وقد أعدت الجامعة « أروابا » لأعضاء هيئة التدريس يتكلف الواحد ضعف هذا المبلغ ، فدفعه متأففاً لأنه يرهق دخله، ودفعه سعيداً لأنه يجسد أحلامه .

وتوالت حفلات الافتتاح ، فحضر الملك فاروق الحفل الكبير ، ثم أقيم آخر حضره النحاس باشا والوزراء ، ووقف فيه طه حسين مرحباً بوصفه مدير الجامعة فقال :

« سيلوى الرئيس

« هذه الجامعة لما تبلغ من العمر سنة واحدة ، فهى أصغر من أن تقوم بشكرك ، ولذلك أقوم عنها بهذا الشكر . وأنا أعرف أنك تكره الثناء ، ولكنى أحب أن أتحدى السلطان ، فأشكرك بالرغم منك لأنك أنشأت هذه الجامعة ، ولم تتركها لوزير المالية . إن مهمة وزراء المالية فى جميع العهود أن يقولوا : ( لا ) ولكن وزير المالية لم يستطع أن يقولها هذه المرة » .

وكانت كلية التجارة فى « سراى » عمر طوسون بالمحمودية ، وهى « سراى » مهجورة منذ سنين ، والثعابين تمرح فيها بوضع اليد ، فترى فى دخول الآدميين اعتداء يستحق المعاقبة بالسم ، ولذلك كان الأساتذة يتلفتون وهم يسيرون ، ويجزعون لأى شىء ناعم ، فقد يكون ثعباناً .

وعجزت إدارة الجامعة عن مقاومة الثعابين ، فاقترح عليها صاحبنا — وهو من الشرقية — أن تستقدم شيخاً من الرفاعية ليستخدم نفوذه الروحى فى مكافحتهم ، ولكن مسئولا فى الجامعة سخر من هذا الاقتراح أمام الأساتذة ، وقال إنه لا يضن بالتكاليف ، وهو يعرف أنها يسيرة ولكنه يضن بسمعة الجامعة أن تلجأ للشعوذة ولدى أساتذتها من وسائل العلم ما هو أولى بالتطبيق .

ولكن الثعابين استمرت تسخر من علم الجامعيين وتهاجم طلاب

الجامعة ، فلم يجد المسئول فى النهاية بدًّا من أن يجرب شيخ الرفاعيين وجاء الرجل فوقف على مرتفع صغير ، وبدأ يدير فى فمه بعض التعاويذ ، ثم يرسل فحيحاً خاصًّا فإذا الثعابين تأتى بسرعة إليه . وكان الثعبان يرفع رأسه ، فيتناوله الشيخ بيده ، ويضغط على رقبته ، فيفتح فمه ، ويخلع الشيخ أسنانه ، ثم يضعه فى قفة معه . وتجمع فى القفة أكثر من عشرين ثعباناً جاء يعدها للمسئول ليتقاضى عن كل منها خمسة وعشرين قرشاً .

واستدار الأساتذة فى حلقات بعد ما شهدوه . قال بعضهم إن الشيخ من ذوى الكرامات ، وقال آخرون : « كلا ، فى الفحيح الذى يرسله نداء يستجيب له الثعبان ! » ، ولكنهم انتهوا جميعاً إلى أن الباحث لا يصح أن يستمد المعرفة من علمه فقط ، وإنما يستمدها من جهله كذلك . وانتهز صاحبنا فرصة هذا الحديث فأراد أن يعيد لنفسه اعتبارها فقال : « لو ذكر طالب فى العام الماضى أن الذرة تتفتت لأعطيناه صفراً ، ولكن الأمريكيين فتتوا الذرة ، وهاهم أولاء يستخدمون القنبلة الذرية فى هيروشيما » .

وانصرف صاحبنا لعمله ، فأكب على قراءة المراجع فى إدارة الأعمال . وساعده على التفرغ أن لم يكن له ولا لزوجته صلات فى الإسكندرية . كانت التسلية الوحيدة لهما أن يمشيا على « الكورنيش » حتى ميدان الرمل ذهاباً وجيئة لا تقطعهما إلا جلسة قصيرة فى مقهى يتناولان فيه مشروباً خفيفاً .

وفرضت ظروف العيش على صاحبنا أن يبحث عن عمل إضافى يدر عليه بعض الدخل ، فصار يكتب مقالا شهريًّا فى مجلة « الغرفة التجارية » تنقده عنه جنيهاً واحداً . ثم رأى إعلاناً فى الأهرام عن حاجة أحد المكاتب الأجنبية إلى مترجم يجيد اللغتين الإنجليزية والعربية ، فتقدم للوظيفة وأصبح يملأ حقيبته كل يوم بالرسائل الإنجليزية وهو فى

طريقه إلى المنزل فيترجمها إلى العربية ويعد لها الرد بالإنجليزية ، ثم يعود فى الصباح فيقدم ما أعده للمكتب . وكان يتقاضى عن ذلك خمسة جنيهات فى الشهر .

ومن خلال هذا العمل تعرف بأحد الموظفين من الأجانب ، كان يريد تعلم اللغة العربية ويبحث عن زميل يعلمه إياها مقابل تعلم الفرنسية ، فراقت الفكرة صاحبنا ، وعرض أن يكون هذا الزميل .

كان الاثنان يسيران على « الكورنيش » ، فيحاول الأجنبى أن يعبر عن نفسه بالعربية ، ويحاول صاحبنا أن يرد عليه بالفرنسية ، وكانا يلقيان فى التعبير عناء كبيراً ، ولكن تعاونهما أثمر ، فالتقط كل من أخيه كثيراً من الكلمات والتعابير ، حتى أصبح يسيراً عليه أن يدير حديثاً باللغة الجديدة .

كان صاحبنا يود أن يقضى وقته فى العلم وحده ، ولكنه اكتشف أنه بشر أولا وأستاذ ثانياً . لابد أن يجد حاجته من الطعام والكساء لكى يتسنى له أن يتذوق معنى العلم . ولذلك جعل يستعجل عميده لكى يحصل له على الدرجة الرابعة ، فهى ترفع مرتبه إلى خمسة وثلاثين جنيهاً مرة واحدة . ولما طال انتظاره طلب موعداً من مدير الجامعة .

قال لطه حسين : إننى أشغل وظيفة مدرس ( أ ) ولا أشغل درجتها .

فرد عليه قائلا : « عميدك هو الذى ظلمك لأنه لم يتقدم بترقيتك فى الوقت المناسب » .

— أنا لا أحب أن أنسب الظلم لعميدى فقد كان أستاذى .

— إذن من الذى ظلمك . أنا ؟

— لا . إنه حظى .

— إذن (اشكه للزمان) .

— وسعادتك ملك الزمان .

فضحك طه حسين ووعد بإنصافه .

وفى أول جلسة لمجلس الجامعة ، كان أحد العمداء متقدماً بطلب ترقية لمدرس عنده، ورأى طه حسين أن صاحبنا أكثر استحقاقاً منه ، فطلب من عميد كلية التجارة أن يقدم طلباً بترقية صاحبنا ، وأخذ عليه موافقة المجلس .

وهكذا كان طه حسين فى عمله لا يخضع للروتين الحكومى ، ولكنه يفكر بعقل طليق ، فإذا اقتنع بشىء أقره ، ولو جاء مخالفاً للوائح . وكان مديرو المستخدمين والمخازن ورؤساء الحسابات يلقون من هذا عناء كبيراً، لأنه يحطم قواعدهم ، ويكاد يعرضهم للمسئولية ، لولا أن طه حسين يترك لهم أن يسطروا على الورق اعتراضهم ، ثم يذيل ما كتبوه بكلمة « ولو » ويمضى .

كان طه حسين يدافع دائماً عن المنصب الذى يشغله . فلما كان عميداً لكلية الآداب كان السكرتير العام للجامعة فى نظره « كبير الكتاب » . ولما تولى إدارة جامعة الإسكندرية كان القول قوله حتى إن أحد العمداء احتج فى مجلس الجامعة على أمر يخص كليته ، فقال له طه حسين : « إذا كنت غير مقتنع بهذا الأمر ففى وسعك أن تستقيل من العمادة » ، قال العميد : إذن أقدم استقالتى منها ، قال طه حسين : « واستقالتك مقبولة من الآن » . وهكذا دخل الرجل مجلس الجامعة عميداً وخرج منه مجرد أستاذ .

وقد استقل طه حسين بإدارة الجامعة فلم يكن يرجع فى شىء من شئونها إلى وزير المعارف، ولكنه حين أصبح وزيراً للمعارف سيطر على مديرى الجامعات، فأصبحوا يرجعون إليه فى كل شىء .

وكان صاحبنا يعرف مع زملائه فى طه حسين قوة الشكيمة ، حتى إن أحدهم ، وكان قريباً لأحد الوزراء ، جاء إلى صاحبنا يقول إنه قدم طلباً إلى إدارة الجامعة بإمضاء « أستاذ القسم » ، وكان فى الحقيقة أستاذاً مساعداً ، فرد عليه طه حسين بخطاب يقول فيه :

« إن هذا احتيال لا يليق بالعلماء » ، وإن الزميل قد أعد خطاباً إلى مدير الجامعة يقول فيه : « إن هذا القول جاف أرفضه وأحتج عليه» فقال له صاحبنا : « لو كتبت هذا فسيكون لطه حسين معك شأن». ونصحه أن يغير الصيغة لتصبح « إن هذا القول ماس لا أستطيع أن أقبله » قال : « وما الفرق ؟ » قال صاحبنا : « إن كلمة جاف تنصرف إلى مدير الجامعة ولكن كلمة ماس تنصرف إليك ، والرفض كلمة إيجابية ، أما عدم القبول فهو سلبي »! فاقتنع الزميل بالتغيير ، وتقبل طه حسين خطاب الزميل بصدر رحب ، بل استدعاه وطيب خاطره بعد أن وعد بالتقيد بلقبه العلمي الصحيح .

كان طه حسين يقضي في كل شئون الجامعة دون الرجوع إلى « نجيب الهلالى » وزير المعارف . فلما سقطت وزارة النحاس وجاءت وزارة أحمد ماهر استقال طه حسين ، وجاء « صادق جوهر » . وكان رجلا إدارياً ، فلما رأى صاحبنا يعمل فى جريدة المصرى مع عمله فى الجامعة أرسل له خطاباً يحاسبه ، وكان صاحبنا قد أبرم عقداً مع صاحب المصرى وصاحبي أخبار اليوم يوافق فيه على أن يستقيل من الجامعة ليتولى إدارة شركة الأخبار المصرية . وهى التى تضم المصرى وأخبار اليوم وآخر ساعة . وكانت أخبار اليوم قد سعت له عند « عبد الرحمن البيلى » وزير المالية ليوافق على إحالته إلى المعاش — ولم تكن مدة خدمته قد جاوزت سبعة عشر عاماً — فطلب الوزير ملف الخدمة من الجامعة دون علم مديرها ، واستدعى « عبد الشافى عبد المتعال » رئيس اللجنة المالية ليجمعها على الورق ، ويقدم له قرارها بالموافقة . وبعد يومين اثنين عرض الوزير الأمر على مجلس الوزراء فأقره دون أن يكون مدير الجامعة فى الصورة ، ورد صاحبنا على خطابه لينبئه بأنه ترك الجامعة ، وأنه يرجو لها فى عهده كل تقدم وازدهار ! وأدرك « صادق جوهر » أن صاحبنا لا بد أن يكون من ذوى النفوذ ، فسعى إليه فى كلية التجارة

مودعاً ومبدياً أسفه على حرمان الجامعة من خدماته . ثم استدعى مدير المستخدمين ليلومه على إرسال الملف لوزير المالية دون الرجوع إليه ، فأفهمه هذا أن « السراى » كانت وراء الموضوع ، وكان هذا كافياً .

لقد كان صاحبنا يتقاضى من الجامعة خمسة وثلاثين جنيهاً فى الشهر ، فأصبح يتقاضى من الصحافة مائة وخمسين . وبعد أن كان يشترى الدجاجة فيشرحها تشريحاً ليتناول مع أسرته نصفها فى يوم ونصفها فى اليوم التالى ، وبعد أن كان يشترى بلحاً بانتظام حتى ينتهى موسم البلح ، ثم يأخذ يشترى الجوافة حتى ينتهى موسمها ، وهكذا يأكل الشىء نفسه من خضر وفاكهة يوماً بعد يوم ليدفع فى الطعام أقل الأسعار ... بعد أن كان يفعل هذا ، نقل مسكنه من العباسية إلى الزمالك ، ونقل أولاده من المدارس الأميرية إلى المدارس الخاصة ، وأصبح يتنقل فى سيارته الخاصة بدل الترام ، ويقيم الولائم فى منزله للمتعاملين معه من أصحاب الأعمال .

على أن صاحبنا لم يترك الجو الجامعى ، فقد ظل يقيس قدرته الشرائية فى بورصة الأوراق المالية ويقيس ثروته العلمية فى بورصة الجامعة . وظل يحاضر فى الدراسات العليا بجامعة القاهرة ، ويشترك فى مجالس كليات التجارة ولجان الجامعة ، ويشرف على بعض رسائل الماجستير والدكتوراه .

ويذكر صاحبنا أنه اشترك فى اللجنة التى وضعت برامج كلية الإدارة والمعاملات بجامعة الأزهر ، وكان أحد الشيوخ عضواً فى اللجنة ، فاشترط أن تنبعث البرامج كلها من القرآن ، فيقول المحاضر : « وأذّن فى الناس بالحج » ، أى أعلن لهم ، ثم يتكلم عن الإعلان ، ويقول : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » ، ثم يتكلم عن السندات الإذنية ، واشتد الضيق بأحد العمداء فى اللجنة فقال مستطرداً : « والنفاثات فى العقد » ثم يتكلم عن الطائرات النفاثة !

فثار الشيخ لهذا التعليق الساخر ، ووقف يعلن انسحابه من اللجنة ، ولكن صاحبنا تدارك الموقف — وهو محسوب على أهل الدين لأن والده منهم — فقال إنه لا يأتمن الأساتذة التجاريين على الدين ، وإنما يأتمن الشيوخ وحدهم عليه ، ولذلك يقترح أن تسير الدراسات التجارية والدراسات الدينية فى اتجاهين متوازيين ، فيدخل الأستاذ التجارى ليتحدث عما هو كائن ، ويدخل الأستاذ الشيخ ليتحدث عما يجب أن يكون . وهكذا انحلت العقدة واعتمدت البرامج .

وخرج صاحبنا من الاجتماع كارهاً تزمت الشيوخ وعدوان المحدثين. فليس من حق الشيوخ فى رأيه أن يفسروا : « وما فرطنا فى الكتاب من شىء » على أن الآية تعنى العلم بفروعه المختلفة ، فالواقع أن الدين قد نزل لتقنين العبادات والمعاملات، ولذلك يتلقاه الناس بقلوبهم. وليس من حق المحدثين أن يقصروا أفهامهم على عقولهم ، فالعقول لا تحكم إلا بما تعلم ، والله يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . إن الدين أهداف والعلم وسائل ، وليس بينهما تنابذ ، فالدين يقول : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، والعلم يكتشف فى كل يوم أنه ليس فى حرب مع الدين .

لذلك فرح صاحبنا لقيام جامعة الأزهر ، وإن كان لم يفهم علة فصل البنات عن البنين فى الكليات . إن الجنسين يختلطان فى الطرقات والمتاجر والنوادى وسائر الجامعات . فلماذا لا ينفصلان إلا فى جامعة الأزهر ومركز الشبان المسلمين؟ فى الجو النظيف ينفصلان، وحيث لا رقابة يجوز الاختلاط !

إن صاحبنا طلب يوماً من أحد شيوخ الجامعة أن يحاضر أعضاء الروتارى بفندق هيلتون فى شهر رمضان ، فرفض الدعوة ، لأنه يعتقد أن أعضاء النادى من المتفرنجين، وأن الفندق يقدم الخمر لرواده ! قال صاحبنا للشيخ : إن هذا — لو صح — يكون أدعى لإسماعهم كلمة

الدين ، فأصر على أن يتشبه بالدجاجة التى ترقد على بيضها ، وأن يقصر إرشاده على منابر المساجد . . المساجد التى يؤمها المهتدون !

وكان صاحبنا يتأمل سير الجامعات الأخرى ، فيجدها كثيرة التغيير فى مناهجها ، كأنما المناهج هى المسئولة عن انخفاض مستوى المتخرجين فيها. إن صاحبنا يشهد بأن البرامج المصرية لا تقل على الورق عن نظائرها فى الجامعات الأوربية والأمريكية . ولكن العيب كامن فى إيصال ما فى هذه البرامج إلى أذهان الطلاب ! إن الأستاذ يحاضر بضع مئات منهم ، فلا يستطيع أن يتفاعل معهم بما يؤثر فى سلوكهم الذهنى . والطلاب لا يستطيعون متابعة المراجع الأجنبية لضعف مستواهم فى اللغات ، فلم يبق أمامهم إلا كتاب الأستاذ ومذكراته . وقد رأى صاحبنا أن الكليات النظرية أمعنت فى التخصص ، فكلية التجارة بها أقسام منفصلة للمحاسبة وإدارة الأعمال والاقتصاد ، وكلية الآداب بها أقسام منفصلة للاجتماع والتاريخ والجغرافيا والصحافة ، وكلية الاقتصاد بها قسم للاقتصاد وقسم للعلوم السياسية . وقد دعاه هذا إلى أن يستقصى مدى الترابط بين الوظائف التى يعمل فيها الخريجون والأقسام التى تخرجوا منها ، فإذا هو يكتشف أمراً خطيراً هو أن كثيرين ممن يعملون فى المحاسبة هم من قسم إدارة الأعمال ، وكثيرين من رجال البيع والعاملين فى شئون الأفراد هم من أقسام المحاسبة ، بل إن من العاملين فى الوظائف التجارية كثيرين من خريجى الحقوق والآداب ، ومن العاملين فى التدريس كثيرين من خريجى كليات التجارة ، كما أن المحامين يقبلون القضايا من كل نوع . لم كان كل هذا التخصص إذن ؟ أليس من الأفضل أن يكون التخصص فى الدراسات العليا ، وأن تكون الدراسات فى مرحلة البكالوريوس عامة شاملة ؟ ويل للطلاب من المتخصصين ! إن أستاذ المحاسبة يريد أن يجعل من كلية التجارة كلية للمحاسبة ، وأستاذ إدارة الأعمال يريد أن يجعل منها كلية للإدارة

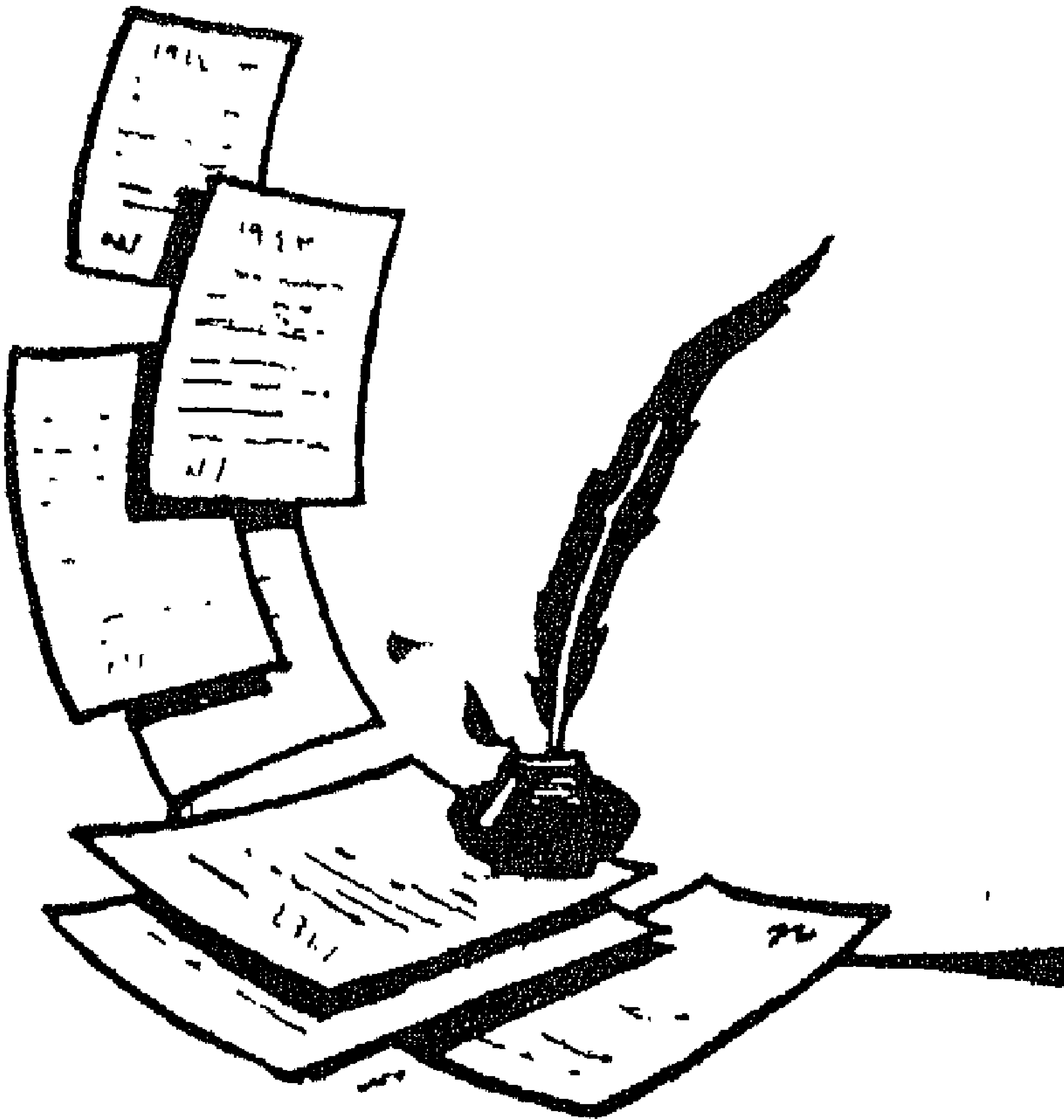
والمعاملات، وهكذا يمعن كل منهم فى ملء أذهان الطلاب بما يراه ضرورياً ، وهو فى الحقيقة تزيد .

إن المطلوب فى الجامعة هو تكوين طالب يفكر ويعبر ويعمل . وعن طريق التفكير والتعبير والعمل يغترف من الحياة ما يزيد معلوماته .

هكذا يعتقد صاحبنا ، ولكن لعل رجل الأعمال قد تغلب فيه على رجل الجامعة .

# الأستاذ في قصة صحفية

- ١٩٤٣ -



كان صاحبنا فى بيته يطالع ، فإذا رجل يدق الجرس . وخرج يستوضح الأمر فإذا الرجل رسول من صاحب « المصرى » ينقل رغبته فى أن يلقى صاحبنا على الفور . وكان الوفد فى الحكم ، فكبر على أستاذ الجامعة أن يستدعى على هذا النحو ، فاعتذر بمشاغله وأصر على أن يكون اللقاء فى اليوم التالى . وفى الموعد قابل صاحب المصرى ، فعرض هذا عليه أن يتولى تنظيم جريدته من النواحى الإدارية ، فقبل المهمة على أن يقوم بها فى الإجازة الصيفية .

وفى منتصف يونيو سنة ١٩٤٣ كان صاحب المصرى يجلس فى مكتبه بشارع ضريح سعد منصتاً لمن حوله ، وكان الإنصات هو عمله الوحيد . أذناه تتجاوبان معهم وعيناه تتشاغلان عنهم. وبين دقيقة وأخرى يرفع بصره فى وجوههم ، فكأنما يبعث من عينيه أشعة نفاذة تكشف ما فى نفوسهم . وقد يتصدق ببعض كلمات فى أثناء الحديث فلا يرسلها إرسالا ، وإنما ينبس ببضع مقاطع لا تحدد اتجاهه ، وإنما تخلق جواً من الموافقة أو من الاختلاف .

ودخل صاحبنا فإذا صاحب المصرى يرحب به ، ويقبل عليه إقبالا فهم منه الحاضرون أن بقاءهم لم يعد له محل ، فاستأذنوا منصرفين وخلا المكتب للاثنين .

قال صاحب المصرى : « هل عندك مانع من مبدأ فى أن تكون وفدياً ؟ » قال : « لا . ولكن طبيعتى تنفر من الحزبية بصفة عامة » . قال صاحب المصرى : « أليس لك رأى محدود فى سياسة البلد ؟ »

قال : « إنني أبدى رأيي فى الشئون العامة ، ولكنني لا أحترف السياسة » .
قال صاحب المصرى : « ولكن السياسة هى السبيل لخدمة الوطن » .
قال : « أعرف ذلك ، ولكنني أخدم وطنى بعملى ، فالسياسيون كثيرون والفنيون قليلون ، وأنا أحب أن أبقى واحداً من القلائل » .
فلم يعترض صاحب المصرى على هذا الرأى ، بل أبدى استحسانه له ، ودعا صاحبنا للغداء معه فى اليوم التالى .

وعلى المائدة شرح له مهمته الأولى . قال : إنه على خلاف مع شركة الإعلانات الشرقية ، فهى تحتكر إعلانات المصرى مقابل ثلثمائة جنيه فى الشهر ، وهو يريد رفعها إلى أربعمائة ، ولكنها ترفض. ويشجعها على الرفض أنه لا يستطيع إنشاء إدارة لبيع المساحات الإعلانية ، وطلب من صاحبنا أن يسعى إلى رفع المبلغ أو أن يعمل للاستقلال بإعلانات المصرى عن الشركة .

ودارت بين صاحبنا والشركة مفاوضات شاقة نجحت فى النهاية بفضل تقدير مديريها له منذ كان يحاضرهم فى الإعلان ، وتأكدهم بسبب ذلك من أنه يعرف كيف ينشئ إدارة للإعلانات . وفى ضوء الأرقام أمكن زيادة المبلغ من ثلثمائة إلى سبعمائة جنيه ، فكان نجاحاً رفع أسهم صاحبنا فى الجريدة .

وكان للجريدة عند سلطات الاحتلال البريطانية أربعمائة طن من ورق الصحف سبق أن أقرضتها إياها ، ولم ينجح صاحب المصرى فى استردادها ، فطلب من صاحبنا أن يقوم بهذه المهمة . وذهب للسفارة البريطانية يطلب مقابلة المسئول ، فإذا سكرتيره من زملاء الدراسة . لقد كان طالباً معه فى دراسة الإعلان بلندن ، وتصافحا فى حرارة ، ثم سأله السكرتير عن طلبه ، فلما عرفه استجاب له على الفور ، وجاء الورق للجريدة فزادت أسهم صاحبنا ارتفاعاً .

ولم يكن لدى الجريدة فى أعقاب الحرب إطارات للسيارات ،

فطلب صاحب المصرى من صاحبنا أن يسعى للحصول على إذن بأربعة ، وذهب إلى وزارة التموين يطلب مقابلة رئيس لجنة التوزيع ، فإذا هو أحد أنسبائه ، وإذا هو يجد القواعد لا تسمح بصرف الإطارات ، ولكنها تسمح بصرف سيارتين كاملتين من سيارات النقل ، وعاد صاحبنا بالإذن ، فارتفعت أسهمه إلى السماء .

سلسلة من الانتصارات لعب الحظ فيها دوره . وتمت كلها فى أشهر الصيف الثلاثة ، يضاف إليها أن إدارة الجريدة بدأ فيها روح جديد من التنظيم ، وتوزيع الاختصاصات ، فاعتزم صاحب المصرى فى نفسه أمراً . .

وجاءه صاحبنا يستأذن فى السفر إلى الإسكندرية بعد انتهاء مهمته ففاجأه صاحب المصرى قائلا : « أنا أحب أن نستمر فى العمل معاً » . وأطرق صاحبنا قليلا يفكر ثم قال : « وأنا أرحب بذلك ، ولكننى لا أريد أن أترك الجامعة » . قال « لك ذلك فمن الممكن أن أحصل لك على ترخيص منها بأعمال الخبرة فى غير أوقات العمل » ووعد بالتحدث فى ذلك إلى مدير الجامعة .

وذهب صاحبنا إلى طه حسين يسأله : « هل تحدث إليكم صاحب المصرى فى شأن الترخيص لى بالعمل معه كخبير؟ » قال : لا « ولكنه كلم نجيب ( يقصد نجيب الهلالى وزير المعارف )، ونجيب كلمنى ، فقلت له : لا » . قال صاحبنا : « ثم ماذا ؟ » قال المدير : « هذا هو كل ما حدث » . فقال صاحبنا : « إذن فأنا آسف لأننى أضعت وقتكم . لقد ظننت أنكم موافقون » . قال : « ياسيدى أنا حريص على أن أغضب صاحب المصرى ، فإنه يجمع المال من جريدته ثم لايزكى عنه بالإنفاق على الثقافة العامة » . قال صاحبنا : « وهل الصحافة إلا تثقيف ؟ » .قال : « كلا ، إنها تجارة فيها يسلى الناس ولا ينفعهم » . قال صاحبنا : « يا دكتور إن عملى خارج الجامعة

يتيح لى تطبيق ما ألقيه على تلاميذى من نظر » . فقبل منه ذلك وسمح له بالعمل . وأصبح لصاحبنا مرتب من جريدة المصرى يبلغ ثلاثة أضعاف مرتبه من الجامعة ، ولذلك كان يقضى الأسبوع بين القاهرة والإسكندرية.

كان توزيع الجريدة يدور حول عشرة آلاف نسخة فى اليوم ، وكان توزيع الأهرام يدور حول مائة ألف . وقد أغرى هذا مدير إعلانات الأهرام بأن يرسل خطاباً دورياً للمعلنين يقول فيه إن الجريدة الأولى فى مصر ، وهى الأهرام ، تبيع مائة ألف نسخة . ولا توجد جريدة ثانية . بل لاتوجد جريدة ثالثة . أما الجريدة الرابعة فتبيع عشرة آلاف نسخة . ورأى صاحبنا أن فى هذا التهكم قذفاً واضحاً فى حق المصرى ، فأشار على صاحبه برفع دعوى بطلب التعويض .

واستشار صاحب الأهرام محاميه ، فأفتاه بأن المسئولية محققة . ولم يجد بداً من أن يقبل إرسال خطاب دورى يعتذر فيه عن خطابه الأول ، وأن يرسل أصل الخطاب إلى المصرى ، فجعل صاحبنا من هذا الخطاب نقطة الانطلاق فى حقل الإعلانات .

كان بادياً أن توزيع المصرى لا بد أن يرتفع إذا أريد للجريدة أن تنافس الأهرام ، والارتفاع غير ممكن ما دامت مواد الجريدة مقصورة على بضع مقالات تهاجم الأحزاب المعادية للوفد ، وتصف استقبالات النحاس (باشا) ، وعلى مقال أسبوعى عن المسجد الذى قصده فجأة لصلاة الجمعة . واستقبال المصلين له خارج المسجد وداخله .

كان من رأى صاحبنا أن القارئ يبحث عن الأخبار ، وهو يتطلب فيها السبق والصدق ، ولا يمكن أن يثق فى المصرى وهو يقرأ فيه أن عدد الذين حضروا خطاب النحاس (باشا) ثلاثون ألفاً مع أنه كان بينهم وقدرهم بثلاثة آلاف .

وكانت تجربة صاحب المصرى مع الجامعى قد نجحت فى الإدارة ، فاتجه إلى جامعى آخر فى التحرير . وأشار عليه صاحبنا بالدكتور

محمد حسن الزيات المدرس بكلية الآداب ولكن هذا قال إنه ليس وفدياً ، فانتقل الاختيار إلى زميله الدكتور محمد مندور .

وجاء الدكتور مندور فلفت أنظار القراء بمقالاته التحليلية القوية ، ولكنه رأى أن الجريدة تبتعد عن وفديتها ، فأسر بذلك للنحاس (باشا) ، وكانت شخصية لصيقة به حاضرة فنقلت القول لصاحب المصرى ، وساءت العلاقات بين المحرر وصاحب العمل حتى فصله فاستحق تعويضاً كبيراً حكم به القضاء .

وسافر صاحب المصرى إلى أمريكا فاتفق مع صاحبنا على أمر بالغ الخطورة . قال : « إننى طلبت إلى سكرتير التحرير أن يعمل بتوجيهاتك فى أثناء غيابى ، فحاول أن تخفف كثيراً من وفدية الجريدة ، ولكن حذار أن تصطدم بالنحاس ( باشا ) فيفصلها عن الوفد فتموت » .

وأصبح صاحبنا رئيساً للتحرير من وراء ستار . فقسم التحرير إلى إدارات ، ونظم مواعيد العمل فى كل منها ، فأصبحت الجريدة تصدر مبكرة قبل الأهرام ، بل اشتغل بالصحافة الميدانية ، فأجرى أحاديث مع عدد من الوزراء ظهر فيها الصحفى نداً للوزير يناقشه ويحاسبه ، ثم حقق نصراً صحفياً غير مسبوق . جاءه يوماً موظف بالإدارة فأخبره أن وكيل وزارة المالية قدم تقريراً لرئيس الوزراء يتهم فيه أحد الوزراء باستغلال النفوذ ، وأن « الملك فاروقاً » طلب الاطلاع على هذا التقرير ، وهو معه ، وقال إنه يستطيع الحصول على صورة منه لقاء مائتى جنيه .

كان فاروق يتردد على امرأة بشارع قصر النيل فيتغدى عندها وينام بعد الطعام . وقد أدركت المرأة أهمية التقرير الذى وضعه الملك على منضدة بجانب السرير ، فاتصلت بالموظف — وكانت تعرفه — وعرضت أن تعطيه التقرير نظير مبلغ من المال ليصوره ويعيده قبل أن يصحو الملك من نومه .

وظهر المصرى يوم السبت — وكان ينفرد بالسوق دون الأهرام

فى هذا اليوم من كل أسبوع — وعلى صفحته الأولى صورة زنكوغرافية للتقرير . فاضطرت الوزارة لتقديم استقالتها واتهم وكيل الوزارة بأنه هو الذى أعطى الجريدة التقرير ، فاضطر إلى الاستقالة هو الآخر .

وكان حسين أبو الفتح يقوم بأعباء رياسة التحرير عند غياب صاحب المصرى فى أوربا . فجاءته يوماً برقية من محسن مؤمن مراسل الجريدة فى بغداد يقول فيها إن الملك فيصل — ملك العراق — تقدم لخطبة الأميرة فريال ابنة الملك فاروق ، فنشر حسين أبو الفتح الخبر فى الصفحة الأولى بعنوان « مصاهرة ملكية » . وثار فاروق لنشر الخبر واتصل بمحمود منصور النائب العام طالباً القبض على حسين أبو الفتح . ونفذ النائب العام ما طلب منه دون أن يدرى السبب ، فذهب صاحبنا مع وهيب دوس المحامى إلى مقر التحقيق بباب الخلق فوجدا محضراً لم يتجاوز بضعة أسطر انتهى بحبس المتهم أربعة أيام تحت التحقيق . ودخل وهيب دوس على محمود منصور — وكان زميله فى الدراسة — يسأله عن جلية الأمر . قال محمود منصور إنه لا يدرى ، ولكنه ينوى أن يتصل بكريم ثابت ليعرف منه سبب القبض على حسين أبو الفتح .

وفى المساء جاء وهيب دوس إلى مكتب صاحبنا صاخباً هائجاً وقال : مادمتم تلعبون بالنار هكذا فلماذا تشركوننى معكم فى مثل هذه الألاعيب؟ قال صاحبنا مستفهماً : « ماذا ياوهيب بك ؟ » قال : إن كريم ثابت كان قد سافر إلى بغداد ومعه كلبة ملكية لتحمل من كلب ملكى فى بغداد . وقد أراد حسين أبو الفتح أن يشير إلى هذه الواقعة فنشر الخبر بعنوان « مصاهرة ملكية ». فنفى صاحبنا علمه بهذه القصة ، وذهب على الفور إلى النيابة يطلب مقابلة حسين أبو الفتح فى السجن ، فدهش هو الآخر عند سماع القصة .

وأرسل كريم ثابت إلى سفير مصر فى بغداد يطلب التحقيق ، فاستدعى مراسل المصرى يسأله إن كان قد أرسل البرقية ، فأجاب

بالإيجاب ، وقال إنه رأى كريم ثابت فى بغداد بصحبة أحد رجال « السراى » ، فسأل هذا عن سبب مجيئه . قال : « إن هناك مصاهرة ملكية » ، وسارع المراسل إلى مكتب التلغراف فأرسل البرقية إلى القاهرة .

واتصل السفير برجل « السراى » فقال إنه كان يمزح ، ولم يدر بخلده أن المراسل سيأخذ الأمر مأخذ الجد ، ثم يكمل الخبر من عنده .

وهكذا كان صاحبنا يعمل فى جو الإدارة الهادئ ، فأصبح يعمل فى جوّ من التحرير متلاطم الأمواج . . وجاء يوم ...

. . كان عنوان المقال الأسبوعى عن صلاة الجمعة ينشر ببنط ٥٢ على ستة أعمدة ، فلا يبقى فى الصفحة إلا عمود واحد . وكان لدى صاحبنا إعلان على عمودين ، فأمر سكرتير التحرير أن ينشر العنوان على خمسة أعمدة ببنط ٣٦ وكانت الكارثة . .

جاء صاحبنا إلى مكتبه فى الصباح ، فإذا التليفون يدق والعامل يقول : « رفعة النحاس باشا » وألصق صاحبنا السماعة بأذنه ليستمع ، فإذا صوت هائج يصرخ : « أين السيد أبو النجا . أين السيد . . . » فرد صاحبنا « أنا يارفعة الباشا » ، فاستمر الصوت يتدفق : « ياواد فين بقولك ، فين أبو النجا » ورد صاحبنا « أفندم يارفعة الباشا .. أنا أبو النجا » . فقال : « أنت بنط ٣٦ ؟ أنت جابوك منين ؟ تاجر يعمل رئيس تحرير ؟ » وأسرع صاحبنا إلى منزل الزعيم فى جاردن سيتى . .

كان يجلس مع صبرى أبو علم سكرتير الوفد ومع عدد من الشباب ، فلما دخل صاحبنا هاج الزعيم مرة أخرى قائلا : « أنت دسيسة » فقال : « لا ، يا رفعة الباشا . أنا رجل فنى ، انتدبنى صاحب المصرى من كلية التجارة لإصلاح الجريدة ، وأنا أعرف أن صاحب المصرى لا يستطيع أن يخالفكم ، فكيف أخالفكم أنا ؟ » فهدأت ثورته على

الفور ، وربت على كتف صاحبنا قائلا : « إذن أنت أستاذ فى كلية التجارة ! قالوا لى إنك تاجر ! طيب ولماذا جعلت المصرى جريدة محايدة ( ! ) » فعقب صبرى أبو علم قائلا : « ياريت ! إنها جريدة غير محاربة » فضحك النحاس (باشا) قائلا : « ما دامت لم تعلن الحرب بعد فلا بأس » . وتأسف لصاحبنا بأن قبّل رأسه فى عنف ثم دفعه بعيداً فلما أراد صاحبنا أن يستأنف كلامه قال النحاس ( باشا ) : « لا ، خلاص . أنا صالحتك » وقام يودعه حتى السيارة وأصر على الانتظار حتى انصرف .

وكان فى الجريدة مفتش للتوزيع بعمامة ولحية مصبوغة ، كل مهمته أن يخطب فى المساجد ، فيقول إن الأهرام جريدة مسيحية ، وإن المصرى جريدة مسلمة ، وإن قارئى الأهرام كفار بنص القرآن والسنة ، ثم يشعل النار فى ربطة من الأهرام ، ويدعو المصلين للتهليل والتكبير ، وبقى الأهرام واقفاً كالطود ، وبقى المفتش متعلقاً بأقدامه !

كان أول ما عمله صاحبنا أن طرد هذا المفتش ، وأعطى دار الهلال توزيع المصرى فى مناطق القاهرة والإسكندرية والوجه البحرى ، مقابل أن تعطيه توزيع مجلاتها فى الوجه القبلى . وكان يقصد بذلك أن تكون ممارسة التوزيع فى الوجه القبلى مرحلة أولى تعينه على التوزيع فى جميع المناطق فيما بعد .

ثم رأى صاحبنا أن يستزيد من الأنصار فى مواجهة الأهرام ، فكون شركة للتوزيع بين المصرى وأخبار اليوم ، وبذلك انتزع أخبار اليوم وآخر ساعة من أحضان الأهرام ، وباشر التوزيع فى جميع أنحاء القطر .

وكان انحياز أخبار اليوم للمصرى فى التوزيع عربوناً لصداقة أكبر ، ففى أوائل سنة ١٩٤٦ اندمجت الداران الصحفيتان فى دار واحدة .

وعرض الشركاء على صاحبنا أن يستقيل من عمله الجامعى ، وأن يتولى إدارة الشركة ، فاشترط أن يحال إلى المعاش ، وأخذ أحد الشركاء

هذا الأمر على عاتقه . فسافر إلى الإسكندرية ، وقابل وزير المالية الذى استدعى رئيس اللجنة المالية فعقدها على الورق ، ثم أصدر مجلس الوزراء قراراً فى ظرف يومين بإحالة صاحبنا إلى المعاش .

# المدير المحترف

- ١٩٤٦ -



ترك صاحبنا عمله فى الجامعة واحترف الإدارة . جعل مكتبه فى عمارة أخبار اليوم ، ومنه تولى إدارة شركة الأخبار المصرية ، وهى التى ضمت دارى المصرى وأخبار اليوم .

كان هناك مسوغ لاندماج الدارين ، فصاحب المصرى ثرى كثير الأسفار ، وقد ضم إلى عمله الصحفى أعمالا تجارية كثيرة ، وصاحبا أخبار اليوم صحفيان بارزان فى سن الشباب ، وهما فى حاجة إلى المال ، فالاندماج يحقق تكاملا مطلوباً من الطرفين ، ولكنه يصطدم بواقع كبير هو أن الدارين متنافرتان فى مبدئهما السياسى ، فواحدة على علاقة طيبة بالوفد ، والأخرى تعمل فى الجبهة الأخرى .

وقد كان فى نية صاحب المصرى أن يجذب أخبار اليوم إليه ، وكان فى نية صاحبى أخبار اليوم أن يبعدا المصرى عن الوفد ، بل إن الجميع أفرغوا نواياهم فى وزقة أمضوها وأودعوها خزانة خاصة فى بنك مصر تعهدوا فيها بأن يتوخوا المصلحة العامة فيما يكتبونه دون ارتباط بسياسة الوفد أو خضوع لرأى إنسان مهما علا قدره !

ولكن النوايا شىء والممارسة شىء آخر ، فقد ظهر لصاحبنا بعد أيام قلائل أن الخلف يربض فى السياسة العليا لأصحاب الشركة ، وأنه يقود عربة إدارية يجرها جوادان متنافران . وقد أعلن هذا الخلاف عن نفسه حين أراد صاحب المصرى أن يعين الأستاذ محمد عبد القادر حمزة محرراً بمرتب يناسب كفايته ، وكان معروفاً بوفديته ، فاعترض الأخوان فى أخبار اليوم بحجة أن المرتب كبير . وكان الاتفاق على أن

تكون الإدارة مشتركة والتحرير مستقلا ، ولكن هل تعيين محرر مسألة إدارية أو تحريرية ؟

ثم اشتد الخلاف حين زاد المصرى عدد صفحاته فى يوم السبت ، فاعتبر الأخوان أن فى هذا استنزافاً للورق والمال ، والحقيقة أن فيه منافسة لأخبار اليوم ، فأمرا مهندس المطابع بالامتناع عن طبعه ، وذهب أفراد أسرة المصرى إلى المطبعة بالسكاكين للاعتداء على الأخوين إذا خطر لأحدهما أن يدخلها .

وكان صاحب المصرى قد اشترى ورقاً للشركة بأكثر من أربعين ألف جنيه حين بدا جلياً أن استمرارها أصبح مستحيلا ، فانفصلت الداران وبدأت المتاعب .

رأى صاحبنا أن يتمهل فى ترك مكتبه حتى يستعيد لصاحب المصرى أمواله ، وهو متغيب فى الخارج ، فاستخدم سلطته كمدير فى بيع ورق الشركة المخزون لدى البنك إلى صاحب المصرى مقابل دينه عليها ، وكان الورق نادراً ، وسعره فى السوق السوداء عشرة أضعاف سعره الرسمى . فأتم الصفقة وودع الأخوين ، ثم عاد إلى مكتبه القديم .

وفى الصباح أرسلت إدارة الحسابات تطلب ورقاً لأخبار اليوم ، فجاءها الرد من البنك بأن مدير الشركة قد نقل ملكية الورق كله ، وكان رد الفعل أن شد الأخوان عروق الأرض لتبتلعه ، وهزا أعمدة السماء لتهبط عليه . اتهماه بالتزوير ، واتهما البنك بالتواطؤ ، وأبلغا النيابة للتحقيق مع الاثنين . لكن كان واضحاً أن صاحبنا تصرف فى حدود حقه ، ولم يبع بأقل من ثمن المثل مادامت العبرة بالسعر الرسمى ، فلا مجال للبحث له عن جريمة ، وإنما المجال هو فى طلب تعويض منه يكون محل نظر . واشتدت حاجة الأخوين للورق ، فتفاهما على طريقة سداد الدين وسكنت العاصفة .

كان المصرى قد ارتفع توزيعه فى أثناء قيام الشركة إلى ما فوق ثلاثين ألف نسخة ، فانفرد بشركة التوزيع ، وعهد صاحبنا فى إدارتها إلى شاب فى مقتبل العمر كان يتميز بصفاء الذهن واستقامة الخلق ، فحقق فى عمله نجاحاً كبيراً .

وفرض المصرى نفسه على شركة الإعلانات الشرقية ، فتكونت بينهما شركة جديدة باسم شركة الإعلانات المصرية ، تحتكر إعلاناتهما ، ويتولى صاحبنا إدارتها مع العضو المنتدب ، وهو أجنبي يدير الشركة الشرقية .

ولم يكن فى الشركة مصريون غير السعاة النوبيين ، ومندوب واحد من مندوبى الإعلانات ، فألفوا من بينهم وفداً جاء يقدم التهانى لصاحبنا ويعبر له عن فرحهم باختياره . وأدرك على الفور أن تمصير الشركة هو أول واجباته ، فبدأ ينتقى للوظائف التى تخلو شباباً مصريين من الملمين باللغات الأجنبية .

وكان العضو المنتدب أجنبيًّا شديد المراس ، وكان من حوله مساعدون أوفياء لا يأتمرون إلا بأمره ، وكان مجلس الإدارة قد تألف من ثمانية أعضاء : أربعة يمثلون شركة الإعلانات الشرقية ، وأربعة يمثلون جريدة المصرى ، فكان صاحبنا يحضر المجلس بمفرده باسم الأربعة. وكان أحد الشبان من خريجى كلية الآداب قد لمع فى عمله الإعلانى ، فاقترح صاحبنا اسمه كمساعد لمدير الإنتاج ، ولكن العضو المنتدب لم يوافق بحجة أن فى هذا تعدياً على من هم أقدم منه . وأصر صاحبنا على الترقية بحجة أن الشركة تعمل فى مصر ، ومصر فيها عشرون مليوناً من الناس ، منهم مليون واحد من الأجانب . صحيح أن الأعمال فى يد الأجانب لكن أليس فى الأغلبية العددية الساحقة معلنون ؟ أو ليس من حق هذه الأغلبية أن يعترف بوجودها فيختار لها موظف مصرى واحد يتحدث إليها بلغتها ؟

وكان من بين ممثلي شركة الإعلانات الشرقية فى مجلس الإدارة اثنان من المصريين أحدهما كريم ثابت (باشا) ، والآخر هو حسين عنان (باشا) ، وكان الأول يتقاضى ألف جنيه فى السنة مقابل حضور جلسة واحدة فى كل عام هى الجلسة الختامية التى تنظر الميزانية وتوزع الأرباح. وقد تذمر يوماً من أتعابه هذه ، فقال متخابثاً لصاحب المصرى : « كل هذا الاستغلال للقصور بألف جنيه ! » فضحك صاحب المصرى قائلا : « القصور فى عقلك » . وساءت العلاقة بين الرجلين !

أما حسين عنان (باشا) فكان رجلا جاداً وأميناً ، ولذلك اختاره صاحبنا ليطلب معونته . قال له الباشا : « أرسل لى هذا الشاب ، فإن أعجبنى فسأعمل على تعيينه » . وذهب الشاب فاقتنع به الباشا وزكاه . ومنذ هذا اليوم أصبح من معالم النهضة الإعلانية فى مصر .

ثم صدر قانون اللغة العربية ففرضها على الشركات الأجنبية فى الدفاتر ، وانتهز صاحبنا هذه الفرصة فرقى شاباً آخر رئيساً للحسابات . وقامت الدنيا لأن مرتبه يقل عن مرتب أجنبى فى القسم نفسه ، فصحح صاحبنا الموقف بأن أعطى الرئيس المرقى علاوة تزيد مرتبه جنيهاً واحداً على مرتب الأجنبى . ومنذ هذا اليوم أصبح الشاب من معالم التفوق الإدارى فى دنيا الإعلان .

وفى قسم المراجعة لمع شاب من خريجى كلية التجارة فأفسح له صاحبنا الطريق حتى أصبح فيما بعد مديراً عاماً للشركة .

لقد كان صاحبنا سعيداً بنفسه حين كان من أوائل أساتذة إدارة الأعمال فى الجامعة ، وهو الآن أسعد لأنه أصبح صاحب مدرسة إدارية تمصّر وتوجّه ، ثم تتلمذ على تلاميذه بعد أن تفوقوا ، فزاد نجاحه بهم ، وزاد تعلقهم به حتى أصبح لمجموعهم أسلوب متميز فى العمل الإدارى فرض نفسه على الصحافة كلها .

ولكن الإدارة تعمل دائماً فى خدمة السياسة ، ولا تستطيع أن

تستقل عنها . وجاء يوماً إلى صاحبنا عم الملكة « ناريمان » يفاتحه فى أمر الفتور القائم بين المصرى و« السراى » . قال إنه ليس فى مصلحة البلاد ، وإنه يرجع إلى أن صاحب المصرى أقرض الملكة « نازلى » وهو فى أمريكا مبلغاً من المال مع أنه يعرف سوء التفاهم الذى بينها وبين ولدها فاروق ، كما أنه ثبت لدى فاروق أن صاحب المصرى يتعقب الأميرات فى مغانى باريس، ليصورهن فى السهرات تشهيراً بهن . ورأى صاحبنا من واجبه أن يطلع صاحب المصرى على هذا الحديث ، فرأى منه رغبة فى تصفية سوء التفاهم .

ورتب صاحبنا اجتماعاً بين صاحب المصرى وعم ناريمان اتفقا فيه على أن يكتب الأول خطاباً بخط اليد للملك يشرح فيه ظروف القرض ، وينفى فيه الاتهام ، وأخذ الثانى الخطاب ثم عاد يعلن أن فاروقاً أظهر استعداده لاستقبال صاحب المصرى فى موعد يحدد فيما بعد .

ولكن صاحب المصرى لم يسعد بهذا الخبر وقال للمدير إن فى تشرفه بالمقابلة الملكية إعلاناً عن توبة . ثم أضاف : « لقد ضحكوا عليك! فهم يريدون أن يعلنوا عن مقابلتى كما أعلنوا عن مقابلة عبد الحميد عبد الحق ، ليغضب النحاس (باشا) فيفصل المصرى ، وبذلك يصلون إلى القضاء على الجريدة » . وأدرك المدير أنه لايزال فى السياسة تلميذاً مبتدئاً .

ولكن إلياس أندراوس — وكان رئيساً لمجلس إدارة بنك مصر — أفهم صاحبنا فيما بعد أن فاروقاً اقتنع بما جاء فى خطاب صاحب المصرى ، وأنه يعرض عليه أن يكون وزيراً إذا دفع مائة ألف جنيه ، أو أن يكون رئيساً للوزراء إذا دفع ربع مليون جنيه ! فرأى صاحبنا من واجبه مرة أخرى أن ينقل العرض لصاحب المصرى . وسخر هذا منه ، ولكنه طلب من صاحبنا أن يمنى « إلياس أندراوس » بالقبول دون أن يرتبط معه تفادياً لصدام عاجل يضر ولا ينفع .

ودارت الأيام ، فإذا صاحب المصرى يسافر إلى جينيف . ويطلب صاحبنا إليه . وسافر صاحبنا فوجد صاحب المصرى قد حجز له جناحاً فخماً فى فندق كبير ، وألحق به سكرتيرة خاصة من الفندق . وفى الصباح كاشفه بأن رئيس مجلس إدارة بيبسى كولا سيحضر من نيويورك ليكل إليه توكيلها فى مصر ، وطلب إلى صاحبنا أن يحسن استقباله ، وأن يتفاوض معه على أسس حددها . وجاء الرئيس فقالت له الاستعلامات إن صاحب المصرى متغيب وإن مديره موجود ، فردت السكرتيرة قبل تحويل المكالمة إلى صاحبنا ، ثم نزلت فصاحبت الرئيس إلى الجناح ، وهكذا تم إعداده ذهنياً للتفاوض .

ودعاه صاحبنا للعشاء فى الجناح فلبى .وكان صاحبنا على المائدة يعطى السكرتيرة تعليماته ، فتنقلها لرئيس الخدم الذى كان موجوداً هو الآخر ، ثم بدأت المفاوضات فى جو مشرق .

وكان صاحب المصرى قد عرف أن « إلياس أندراوس » موجود فى باريس ، فاتصل به ودعاه لمقابلة مديره إذ هو الذى سيتولى دفع المبلغ المطلوب للوزارة . وحضر على الفور بالطائرة .

كان رئيس مجلس الإدارة يعرف « إلياس أندراوس » منذ قابله فى القاهرة ، ولذلك أقام صاحب المصرى عشاء حضره الرجلان الكبيران ومعهما سفير مصر فى برن، وعدد من رجال السفارة وسيداتها . وفى الصباح جاء الرئيس فقبل جميع الشروط ، وأمضى عرضاً قدمه لصاحبنا يبقى صالحاً ستة أشهر ، ثم استقل سيارة صاحب المصرى « الرولز رويس » إلى المطار وهو يهنئ نفسه على التعامل مع صاحب الملايين .

وكان فى أقصى المدينة رجل ينتظر . . إنه هو صاحب الملايين الفعلى الذى سيمول الصفقة كلها فينشئ شركة التعبئة ، أما صاحب المصرى فقد حقق لنفسه ربحاً كبيراً .

وجاء دور « إلياس أندراوس » فاتفق صاحب المصرى مع صاحبنا ،

على أن يصطنعا خلافاً يصرفه بعد أن أدّى مهمته فى مفاوضات البيبسى كولا دون أن يدرى. فلما جاء قال صاحب المصرى لصاحبنا : « أنا لا أقبل أن أكون وزيراً ، ولكن لامانع عندى أن أكون رئيس وزراء فادفع لإلياس (باشا) ربع مليون جنيه » قال صاحبنا : « سأفعل بمجرد أن تتفضلوا بعمل الترتيب مع البنوك » . قال صاحب المصرى متعجباً : « أنا الذى أعمل الترتيب مع البنوك ؟ وما هى وظيفتك إذن ؟ » قال صاحبنا : « إن المصرى لايستطيع دفع هذا المبلغ ». فصرخ صاحب المصرى « وهل كنت وصياً على حتى أحتاج إلى مشورتك إذا لم تكن مهمتك أن تقوم بالدفع ؟» قال : « لا، إن هناك سوء تفاهم ». فثار صاحب المصرى قائلا : « إنك تخلق سوء التفاهم عن قصد لتتخلص من الدفع ». ورأى « إلياس أندراوس » أن من واجبه أن يتدخل لإعادة المياه إلى مجاريها بين صاحبنا وصاحب العمل، ثم استاذن فى السفر.

وساءت العلاقات بين القصر والمصرى من جديد ، فإذا مدير مصلحة التنظيم يأمر بإزالة جميع التخشيبات التابعة لشركة الإعلانات المصرية فى طريق الهرم بحجة أنها منافية لجمال المنطقة الأثرية . وذهب العمال فوراً فحطموها ، ولكن صاحبنا رفع دعوى عاجلة أمام مجلس الدولة فحكم بإعادتها مع دفع تعويض مناسب .

وفى مثل هذا بقى صاحبنا يعمل ليبقى الجريدة حزبية الوفد وغضب « السراى » .وكانت دار أخبار اليوم قد اعتزمت إصدار جريدة يومية باسم « الأخبار » ، ورأت أن تصدرها فى ثمانى صفحات بعشرة مليمات بدلاً من اثنتى عشرة صفحة بخمسة عشر مليما ، كما كانت تفعل الأهرام والمصرى . واختلفت الجريدتان القائمتان إزاء هذا الموقف ، فرأت الأهرام أن تبقى على حالها ، ورأى صاحبنا أن يصمد لمنافسة الجريدتين معاً فأصدر الجريدة فى اثنتى عشرة صفحة بعشرة مليمات . وكان لهذا القرار الجرىء أثره البعيد فى مركز الجريدة . فقد وصل توزيعها إلى مائة وستين ألف نسخة .

# ثم جاءت الثورة

١٩٥٢-



استيقظ صاحبنا في الصباح على جرس التليفون يدق في إصرار فإذا العامل يقول : « المصرى محاصر بالجنود » . وتصور صاحبنا أن الحكومة تصادر عدد اليوم من الجريدة ، أو أن جريمة قتل وقعت فيها والجريدة ماثلة للطبع ، أو أن السلطات علمت بأمر العامل الذى قيل مرة إنه يتجر في المخدرات . تنقل بأفكاره بين هذه الاحتمالات ولكن احتمالا واحداً بقى بعيداً عن ذهنه وهو أن الثورة قامت لتقتلع الملك من عرشه !

ارتدى ملابسه ، وذهب إلى مقر الجريدة بشارع القصر العينى ، فوجد أمامها ثلة من الجنود على رأسها ضابط صغير قدم له نفسه فسمح له بالدخول . وعاد المحررون من ثكنات الجيش ومعهم أخبار الثورة وطلبٌ بإصدار ملحق عاجل عن مطالبها .

كان المحررون والإداريون في الجريدة يتنازعهم عاملان : عامل الفرح بالثورة والحرص على إنجاحها ، وعامل الخوف من إخفاقها ، فيحيق العقاب بهم جميعاً ، ولكن العامل الأول كان غلاباً فظهر الملحق على الفور .

وكان صاحب المصرى متغيباً في أوربا ، فلما عاد زار أعضاء مجلس الثورة في ثكناتهم مهنئاً ، ودعاهم إلى غداء في بيته . وكانت عنده آنية من الذهب الخالص اشتراها بمناسبة أن الملك عبد العزيز آل سعود كان قد وعده بالزيارة حين يجيء لزيارة الملك فاروق، فلما حضر وأراد أن يبر بوعده عرف أن العلاقة بين الملك وصاحب المصرى سيئة ،

فعدل عن الزيارة . وقدم الطعام لأعضاء مجلس الثورة فى هذه الآنية ، فلاحظ صاحبنا أن أثرها عليهم كان سيئاً .

ووجهت الثورة للعضو المنتدب لشركة الإعلانات المصرية — وكان يهودياً — تهمة الاتصال بدولة أجنبية ، واقتضى التحقيق تفتيش بيوت مساعديه من اليهود ، فخطر لأحدهم أن يشكك فى أدلة الاتهام التى قدمها أحد الضباط من رجال الشرطة ، وأوعز إلى زوجته أن تغازله حين يدخل البيت وأن تحتفظ بمسجل بالقرب منها . وأحس الضابط من المحاولة بسوء القصد ، فأخطر مخابرات الجيش ، فأمرته أن يسايرها ليعرف مداها .

ودأبت الزوجة على الاتصال بالضابط تليفونياً لتسجل ردوده ، فكان هو يسجل كلامها علي مسجل عنده ، وأخيراً طلبت منه أن يقابلها فى منزل فى وسط البلد ، فوعدها بذلك . وأخطر المخابرات ، وأخطرت هى النيابة العامة ، فجاء مندوبان فى الموعد ينتظران أمام المنزل دون أن يعرف كل منهما صاحبه . وجاءت الزوجة ففوجئت برجل المخابرات يقبض عليها . وجاء ضابط الشرطة ففوجئ برجل النيابة العامة يقبض عليه وسيق الاثنان للتحقيق .

وفى الصباح جاء الزوج إلى صاحبنا يتصنع الاحتجاج . قال إنه قد يتقبل الاضطهاد ، ولكنه لن يقبل أن ينتهز رجل الشرطة فرصة هذا التحقيق فيغازل زوجته ، وطلب من صاحبنا أن يحميها من العبث . ولم يكن صاحبنا يعرف حقيقة الأمر فثارت حميته وقصد فوراً إلى مكتب الصاغ عبد المنعم النجار ، وهو الذى كان يهيمن على التحقيق .

قال صاحبنا : إنه لا يمكن أن يتدخل فى التحقيق ، ولكن من واجبه أن يطلع المشرف على التحقيق على أمر يسيء إلى سمعة المحققين .. فابتسم الرجل وأدار شريط التسجيل ، فإذا صوت يعرفه صاحبنا ، هو صوت الزوجة وهى تغازل الضابط وتدعوه لمقابلتها . وصدر القرار بإخراج

العضو المنتدب من البلاد وانتخب صاحبنا لمنصبه ، وأصبح عليه أن يقود السفينة فى جو كثير التبعات .

وأول تبعة قابلته أن فريقاً موسيقياً من فرنسا كان متعاقداً مع الشركة على أن يعزف ثلاث سمفونيات تحت رعايتها فى الأوبرا ، وكان صاحبنا لايجيد الفرنسية ولايفهم فى السمفونيات ، فحاول أن يعتذر عن حضور الحفل ، ولكن مساعديه أفهموه أن سفير فرنسا سيحضر ، وليس من اللائق أن يستقبله أحد يقل عن الرجل الأول فى الشركة .

وخطر لصاحبنا حل . . لقد طلب من رئيس تحرير البورص أن يعد له معلومات كافية عن كل سمفونية ، حتى إذا جاء السفير أمكن لصاحبنا أن يتعالم فى حديثه معه فيسوق هذه المعلومات مستخدماً المصطلحات الموسيقية .

ولكن خاطراً آخر أزعجه . ماذا لو غيرت الفرقة ترتيب السمفونيات فبدأت بالسمفونية الثانية مثلا ؟ إن صاحبنا سيأخذ فى الحديث مع السفير عن الأولى ! وطلب من رئيس التحرير أن يجلس معهما فى نفس البنوار حتى إذا رأى تغييراً فى الترتيب لفت نظر صاحبنا إلى أن يقدم فى محفوظاته أو يؤخر .

وبدأ الحفل بكلمة محضرة بالفرنسية ألقاها صاحبنا ، رد عليها السفير ، ثم سار العزف وسار الحديث طبقاً للخطة الموضوعة . وعند الختام سلم السفير مودعاً ومشيداً بمعلومات صاحب الدعوة فى فن الموسيقى !

وكانت الكوكاكولا من أكبر عملاء الشركة . جاء رئيس مجلس إدراتها فى زيارة للقاهرة ، فطلب مديرها المقيم ، وهو أمريكى ، من صاحبنا أن يشترك معه فى تكريمه . وأقام صاحبنا عشاء حافلا فى القاعة الكبرى للشركة حضره رجال الأعمال والرسميون وعلى رأسهم رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت . وسار مستر هانجان — وهذا اسمه — فى صحبة الرئيس لافتتاح المقصف فطلب زجاجة كوكاكولا . .

واكتشف منظمو الحفل أنهم فكروا فى جميع المشروبات إلا الكوكاكولا !

وفى اليوم التالى أقام المدير المقيم غداء مرحاً فى صحارى سيتى ، وكان الوقت شتاء فأقام خيمة ، وأتى بخيول ترقص وجمال تركبها السيدات ، وكان من بينهم سائحة أمريكية أراد المدير المقيم أن يمزح معها ، وهو صديق زوجها ، فاتفق مع صاحب الجمل على أن يركبها إياه ، ثم يقف الجمل فجأة على رجليه من أمام ، فتفقد توازنها ، فتوشك أن تسقط . واتفق مع هانجان على أن يتلقاها بين ذراعيه ، وكان المصور على علم بهذين الاتفاقين ، فالتقط الصورة التى بدت غرامية متأججة ، وأرسلها المدير المقيم لزوجة هانجان ولزوج السيدة فى أمريكا !

كان على صاحبنا أن يخرج على نفسه أحياناً ليساير هذه الروح الأمريكية العابثة ، وأن يتوفر على عمله الإعلانى فلا يفكر فى سواه . وقد سبق أن عرض عليه أن يرشح نفسه وفدياً لمجلس النواب فأبى ، بل لم يقبل يوماً أن يكون عضواً فى لجنة من لجان الأحزاب، فكان الجميع يلتقون فى مكتبه وهم مطمئنون إلى أنهم على أرض محايدة .

وعرف صاحبنا أن الأوصياء على ورثة مستر فنى لم يعد لهم مصلحة فى أن يستمروا فى إصدار البورص والبرجريه والجازيت ، فساومهم على شراء شركة الإعلانات الشرقية التى تملك هذه الصحف ، ونجح فى ذلك فأصبح صاحب المصرى ملك الصحافة المصرية .

كان صاحبنا سعيداً بعمله فى الشركتين ، ولكنه كان دائماً يتوقع شرًّا من ناحية المصرى . كان يرى الأمور تتعقد بينها وبين الثورة ، حتى صدر القرار أخيراً بمحاكمة صاحب المصرى أمام محكمة الثورة .

وبينما صاحبنا جالس بعد ذلك فى مكتبه بشركة الإعلانات المصرية دخل عليه على يحيى دون موعد سابق ، وقال إن له عند صاحب المصرى مبلغاً كبيراً هو رصيد عمليات فى البورصة ، وطلب منه أن يسدده قبل أن

تصادر أموال المصرى . قال صاحبنا إنه لايعرف شيئاً عن الدين ، واعتذر من عدم الدفع ، ولما لم يجد على يحيى استجابة رفع دعوى مستعجلة فلم تسفر عن شيء . وهنا تقدم مدير أحد البنوك الكبرى من أقربائه ، فأظهر استعداده لإقراض المصرى مبلغاً مساوياً للدين مقابل تقديمه لعلى يحيى . ولكن صاحبنا أصر على أن تبقى ساعة المصرى دقاقة حتى توقفها المحكمة إذا شاءت .

وكانت المصارف قد رأت أن تحتاط للأمر فضيقت على الجريدة فى الائتمان ، بل أخذت تستولى على كل ما يصل إليها من إيراداتها ، فظل صاحبنا يجمع من إيرادات الجريدة بعيداً عن البنوك حتى تمكن من صرف مرتبات الموظفين جميعاً فى آخر شهر من حياة الجريدة ، وإن كان قد نسى نفسه فلم يقبض مرتبه .

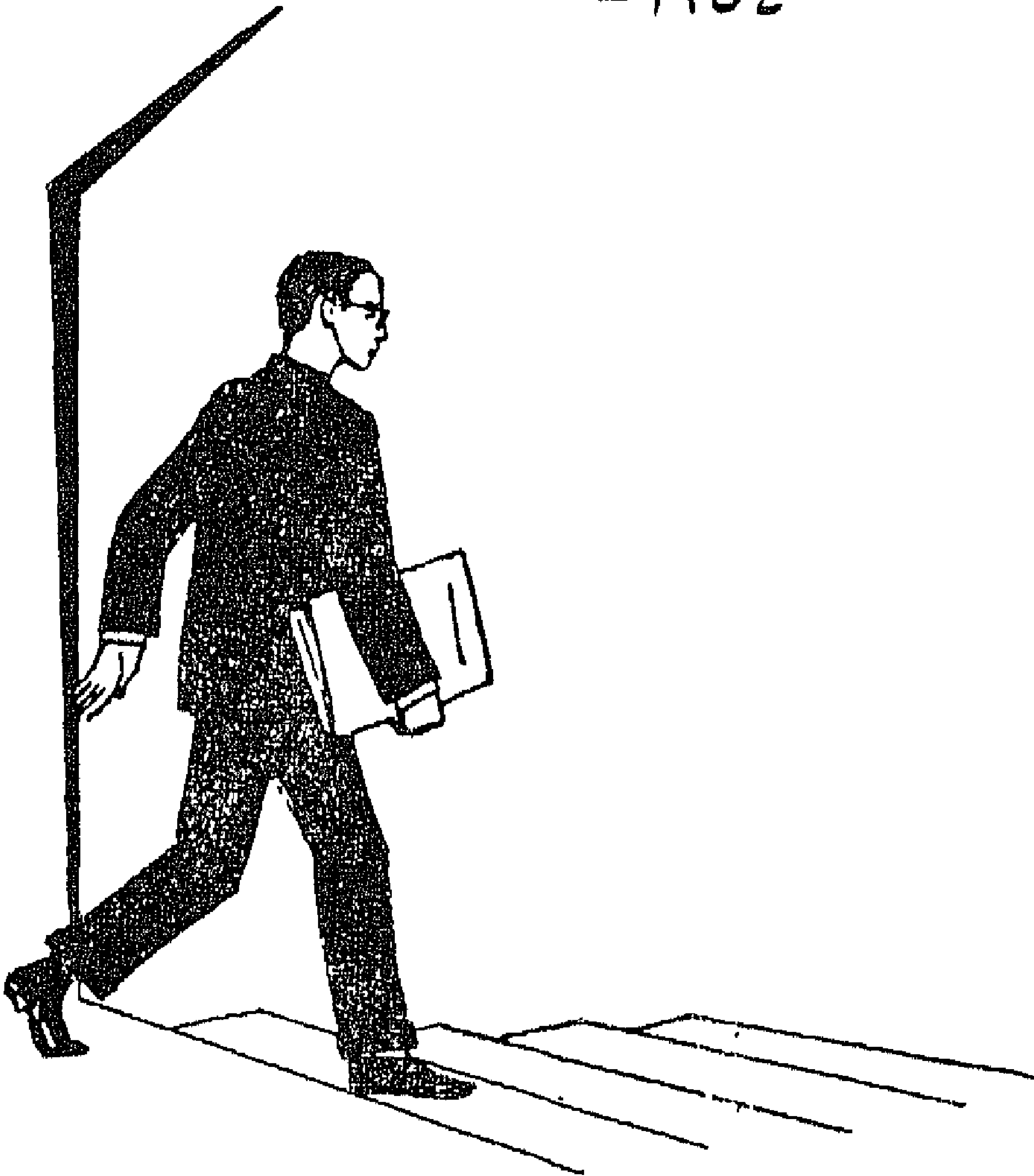
ثم بقى على وفائه للسيدات وللأطفال من أسرة صاحب المصرى حتى غادر القطر منهم من غادر ، واستقر الباقون على حال آخر .

أما شركتا الإعلانات الشرقية والمصرية فبقيتا تعملان ، وبقى صاحبنا فى مكتبه ، فإذا ضجيج وهتاف ومئات من العمال متجمهرون أمام المكتب غاضبين ، ماذا ؟ لقد جاء موعد صرف أجورهم ، فإذا الشيك يرتد لأن أموال الشركة جمدت فى البنوك ، فاعتقدوا أن صاحبنا هو الذى فعلها .

وأدرك أن بقاءه لم يعد فى مصلحة العمل ، فقدم استقالته من مناصبه كلها .

# وانتقلت المدرسة

١٩٥٤-



قبع صاحبنا فى بيته بعد إقفال المصرى لايزور أحداً . ثم خطر له ــ وهو عضو فى نادى الجزيرة ــ أن يقضى فيه بعض الوقت ، وكان اليوم يوم جمعة والنادى مزدحماً بالناس. فلاحظ بعد قليل أنهم لا يكادون يجدون لأنفسهم مكاناً ، ومع ذلك بقيت المنضدة التى إلى جواره خالية يأخذون المقاعد من حولها ولا يجلسون إليها ، فأدرك أنه أصبح تهمة ، وسارع بالخروج من النادى ليفرج عنهم !

قبع فى بيته لا يزور أحداً ، ولكن كان يزوره زملاؤه الذين كانوا معه فى المصرى ، وأصدقاؤه الذين فهموا من عدم القبض عليه أنه قابل للمس . وكان الزملاء حزانى لأن المصرى كان بالنسبة لهم عملا كبيراً. لم يفكروا فى سياسته التحريرية التى أدت إلى إقفاله لأنهم لم يربطوا أنفسهم يوماً بعجلتها ، وإنما كانوا يفكرون فى المدرسة الإدارية التى أقاموها ، وفى النجاح التوزيعى والإعلانى الذى حققوه .

وبينما كان الزملاء يناقشون موقفهم دق جرس التليفون ، وكان المتكلم أحد صاحبى أخبار اليوم . إنه وأخاه فى طريقهما للزيارة . وبعد قليل حضرا ، فقال أحدهما لصاحبنا : « إننا نريد أن تعمل لأخبار اليوم مثل ما عملته للمصرى . . » ، وقبل أن يتم كلامه انفجر صاحبنا باكياً ! لقد كان هذا آخر ماتصوره ، فقد كان إلى ثلاثة أيام خلت مديراً للمصرى ، وكان منافساً منتصراً ، فهل يترك اليوم مكتبه إلى مكتب

غريمه ؟ صحيح أن قلعة المصرى قد انهارت ، ولكن ساعة إنزال العلم هى التى تبكى .

وذهب يستطلع الأحوال فى « أخبار اليوم » ، فإذا هو يرى منظراً لا ينساه :

محرر يأخذ بخناق أمين « الخزينة » ويضربه بمسطرة فى يده ، وأمين « الخزينة » يدافع عن نفسه ويقول : « أنت أخذت مرتبك فى الشهر الماضى ، فدع غيرك يأخذ مرتبه فى هذا الشهر » . واستفهم صاحبنا عن جلية الأمر فعرف أن الدار عجزت عن دفع مرتبات المحررين منذ أشهر ، فقررت أن تعطى فريقاً منهم فى شهر ، وفريقاً آخر فى الشهر التالى ، ليقبض كل منهم مرتبه الشهرى كل شهرين. وانتهز أمين « الخزينة » هذه الفرصة فخلق لنفسه سوقاً سوداء : يعطى المرتب لمن يدفع الأتاوة ويمنعه عمن لايدفعها .

وفيما صاحبنا يتجول فى الدار رأى المعاون يمارس نجاراً فى إصلاح شباك ، فطلب النجار خمسة عشر قرشاً ، ووافق المعاون ، ولكن النجار اشترط الدفع المقدم ، وقال إن على الدار عشرين قرشاً لم تدفعها عن عملية أخرى منذ أشهر .

وفى غرفة الحسابات رأى تاجر ورق يتهجم على رئيسها . إن التاجر عائد لتوه من البنك بعد أن لم يتمكن من تسلم قيمة « الشيك » الذى أعطته الدار إياه لنفاد رصيدها .

وأدرك صاحبنا مهمته على حقيقتها . إن الدار تكتنفها الصعوبات المالية من كل جانب ، فلابد من قطرات من الدم فى حقنة سريعة قبل التفكير فى العلاج .

وذهب صاحبنا إلى « أحمد عبود ( باشا ) » ومعه هدية هى قطعة من أستار الكعبة عليها هذه الآية الكريمة . .

«ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد» . قال : يا باشا ، إن أعمالك الاقتصادية فى حاجة إلى إعلان دائم ، والدار فى حاجة إلى مبلغ عاجل ، فأعطنا ثلاثين ألفاً ونحن نقدم لك خصما كبيراً على أسعارنا ، فقبل الباشا وتسلم المدير المبلغ ، فلم يودعه فى البنك خوف الحجز عليه ، وإنما أودعه خزانة حديدية فى مكتبه .

وذهب صاحبنا إلى « عبد المقصود أحمد ( باشا ) » . وكان رئيس مجلس إدارة بنك مصر ؛ قال : يا باشا ، أنت تعرفنى كمدير للمصرى ، وتعرف خطتى فى العمل . إن على أخبار اليوم للبنك ديناً كبيراً ، ولكننى لم أحضر لأسده ، بل حضرت أطلب ديناً جديداً يحيى للبنك دينه الأول فاسمح لى أن أتقدم بمذكرة أشرح فيها خطتى لتحقيق ما أقول . قال « عبد المقصود أحمد » بعد أن قرأ المذكرة : أنا أعرف أن أحوال أخبار اليوم سيئة ، ولكننى ثقة فى مقدرتكم أوافق على السلفة الجديدة .

ثم ذهب صاحبنا إلى البنك العربى ، فوجد « عبد الحميد شومان » ثائراً . قال إن أخبار اليوم قدمت للبنك « شيكات » من شركة التوزيع ، ثم ظهر أن الشركة ليست شخصية معنوية مستقلة ، وإنما هى إدارة من إدارات الدار . وقال إنه تسلم « شيكاً » على أنه من معلن ، فإذا بالمعلن مندوب من مندوبى الإعلانات قدم « الشيك » ليمكن الدار من سحب حاجتها من الورق فى انتظار ورود القيمة المقابلة ، ثم أنهى كلامه قائلا : « نحن نريد أن نسكر الحساب » .

ولكن صاحبنا قال إنه يربأ بالبنك العربى أن يقرن اسمه بإشهار إفلاس أخبار اليوم ، وطلب مزيداً من الصبر .

على هذه الصورة عمل صاحبنا فى سنته الأولى . كان كمن يسند حائطاً بالخشب والحبال ، فقد غير فى الوظائف والموظفين ، واقتصد

فى بدلات الانتقال والتمثيل ، ورتب مع الدائنين نظاماً للدفع يضمن لهم حقوقهم ولا يرهق مالية الدار .

وكان الإمضاء على «الشيكات» لصاحبنا وحده لا يشاركه فيه حتى أصحاب الدار أنفسهم . كان مطلق اليد إلا فى شىء واحد هو كل ما يتعلق بالأستاذ «محمد التابعى» . فقد تتلمذ عليه صاحبا أخبار اليوم ، ولذلك كانت كلمة «الأستاذ» لاتنصرف إلا إليه ، وكان يتسلم مرتبه دون أن يمضى على إيصال ، فلما حاول صاحبنا تغيير الوضع رفض التابعى ثم قبل بعد إلحاح .

كان فى أخبار اليوم مفهوم خاطئ للمسئولية الإدارية . فالإدارة تنحصر سلطتها فى الإداريين ، أما المحررون فيخضعون فى حقوقهم المالية لرئيس التحرير . هو الذى يقرر ما يخصم من ضريبة كسب العمل ، وهو الذى يحدد مدة الإجازة السنوية لكل منهم ، ويمنحهم السلف . فلما أرادت الإدارة أن تبسط نفوذها فى هذه الميادين قام الخطباء فى صالة التحرير يندِّدون بالاتجاه الجديد ، ويستنفرون العزائم لمقاومته. وكتب كامل الشناوى لصاحبنا خطاباً قال فيه :

« إذا كنت ياسيدى تود الاشتغال بالتحرير فإننى أهدد بالاشتغال بالإدارة . إنك وازنت بين الإيرادات والمصروفات بجمع التبرعات من المحررين ، وأحلت أخبار اليوم من مؤسسة صحفية كبرى إلى متجر كبير » .

ولكن المحررين أدركوا بعد قليل أبعاد النظام الجديد ، وسعدوا به حين توجهوا بعد شهر واحد إلى « الخزينة » فوجد كل منهم مرتبه بالجنيه والمليم فى ظرف عليه اسمه .

وانصرف صاحبنا إلى زيادة التوزيع ليتمكن بعدها من زيادة حصيلة الإعلانات ، فأجرى استقصاء ميدانياً فى مناطق القطر ، ليتعرف على خصائص المشترين لصحف أخبار اليوم والمشترين لصحف الدور الزميلة ، وخرج منه بذخيرة كبيرة من المعلومات أنارت السبيل أمام

المسئولين عن التحرير ، فقدموا للقراء ما طلبوه من مادة تحريرية . ثم أشعل الجذوة فى نفوس العاملين بتقرير حوافز للإنتاج مجزية ، فزادت الإعلانات وتحسنت سمعة الدار لدى البنوك والمتعاملين .

وكان « عبد المقصود أحمد » قد ترك بنك مصر . فلما دفع صاحبنا آخر قسط من الذين زاره فى داره وقال له : « لقد كنت يا سيدى عند حسن ظنك ، وهذه مخالصة من بنك مصر » ففرح « عبد المقصود أحمد » فرحاً شديداً وعانق صاحبنا مهنئاً .

ثم أراد صاحبنا أن يسافر إلى الخارج ليتصل بمنابع الإعلانات . فلما انتهى فى المطار من الإجراءات الجمركية ، واستعد لركوب الطائرة بعد أن نقلت إليها حقائبه . سمع منادياً يناديه فى المكبر أن يذهب إلى مكتب الشرطة . ويذهب صاحبنا فيجد اسمه فى سجل الممنوعين من السفر . ثم يصدر أمر بإنزال حقائبه من الطائرة . فتنتشر فى المطار شائعة بأنها مملوءة ذهباً ، وأن المسافر مهرب دولى كبير . ويلطم موظف الجمارك خديه على أن صدق المسافر فلم يفتح حقائبه ، وتلتهم الأنظار شخص صاحب الحقائب لتحقق معالمه ، فترى مظاهر المكر فى عينيه ، وأمارات الخيانة فى وجهه ، ولكن ضابطاً يخرج فجأة فيخيب ظنهم ويفسح الطريق للمسافر ليعود إلى بيته ، ثم يعرف الناس أن أمراً صدر بمنع الذين كانوا يعملون فى المصرى من السفر ، ومن بينهم صاحبنا .

وفى الصباح زار صاحبنا « عبد العظيم فهمى » ، وكان مديراً لمخابرات الشرطة بوزارة الداخلية . قال مدير المخابرات : « نحن نعتقد أن فيك طاقة من الوفاء لأصحاب المصرى . وقد تسافر إلى أوربا فتتورط معهم فى عمل لاتريده ، وأنا أريد أن أحميك من نفسك » . قال : شكراً ، ولكن لى ماضياً يمكن أن يدل على مستقبلى ، فقد كنت مديراً لجريدة المصرى ، ومع ذلك فلم أكن عضواً فى لجنة من لجان الوفد فى

وقت كان الانتساب إليه مكسباً كبيراً . ولست اليوم مضطهداً حتى أبحث عن مغامرة جديدة ، فأنا أتقاضى من عملى مرتباً هو من أكبر المرتبات فى الدولة وأنا سعيد بأسرتى ، ولى طفلة لم تكمل سنتها الأولى . ومن كان هذا حاله لايعد نفسه لعمل أحمق» . قال « عبد العظيم فهمى» : « أنا اقتنعت » . وسمح لصاحبنا بالسفر .

ثم سار كل شىء فى طريقه فسعد صاحبنا بتحسن الأحوال فى أخبار اليوم وتزايد ثقة صاحبيها فيه . ولكن أحد كبار المحررين بدا له يوماً أن يكتب له خطاباً جارحاً للاحتجاج على قرار إدارى وجده مجحفاً به ، فلم يزد صاحبنا على أن أمسك قلماً أحمر — كما كان يفعل وهو مدرس — وأصلح الأخطاء اللغوية الكثيرة التى وردت فى الخطاب ثم حوله هكذا إلى صاحبى الدار .

ولفت نظرهما دقة صاحبنا فى قواعد النحو والصرف ، وتذكرا نشأته الأزهرية فطلبا منه أن يعالج الأغلاط اللغوية فى صحف الدار بالإشراف على المصححين ، ورأى أن يطمئن على مستواهم فاختبرهم فى اللغة ، وخرج أحدهم يشكو من قسوة الامتحان متهكماً : « هذا المدير أين عمامته ؟ »

وكان صاحبنا على موعد مع القدر حين جاءه يوماً أحد كبار المحاسبين فقال إن الدكتور مصطفى الحفناوى استشاره فى القيمة الدفترية لقناةالسويس ، وإنه علم منه أن فى نية الرئيس جمال عبد الناصر أن يعلن تأميم القناة فى الغد ، وفكر صاحبنا فى سبق صحفى عالمى تنفرد به الأخبار ، فدخل على صاحبى الجريدة يريق الخبر فى آذانهما ، ويقترح أن يسافر محمد يوسف كبير المصورين إلى الإسماعيلية ومعه أحد المخبرين ليقوما بتحقيق صحفى عن منطقة القنال ، فإذا أعلن الخبر كانا فى المكان المطلوب ، ولكن صاحبى الجريدة استبعدا صحة الخبر فلم يستجيبا للاقتراح . وفى اليوم التالى كنا جميعاً حول جهاز الراديو

نستمع إلى خطاب الرئيس، فإذا به يتندر ويمزح . قال أحد الأخرين لصاحبنا متهكماً : « ألا تزال تظن أن الرئيس مقدم على تأميم القناة ؟» وبعد قليل انتقل الرئيس من المرح إلى الجد فأعلن القرار التاريخي .

كان صاحبنا لايسعى إلى الأخبار ولكن بعض الأخبار كانت تسعى إليه بحكم وجوده فى الوسط الصحفى . ومن ذلك أن أحد المحققين من رجال الجامعة كان يشرف على قسم المعلومات ، وجاءه مقال من الأستاذ عباس محمود العقاد رأى فيه اسماً لاتينياً يحتاج إلى تعديل فعدله ، وظهرت الجريدة فى اليوم التالى فهاج العقاد وكتب إلى صاحبنا خطاباً جاء فيه : « قل لمصحح الجاهل ألا يستطيل قلمه على مقالى . . إلخ » . وأخفى صاحبنا الخطاب عن المحقق ، ولكنه رجاه أن يستثنى العقاد من تحقيقاته ، فقال : « هل أفهم من ذلك أن العقاد غاضب من التصحيح اليسير الذى أجريته؟ » قال صاحبنا : « نعم » ، فقال المحقق : إننى أعد العقاد أستاذى ، فلا بد أن أزوره لأعتذر له . وكان صاحبنا يعرف فى العقاد حدة الطبع ، فنصح المحقق ألا يفعل ، ولكنه وجد نفسه يوماً فى مصر الجديدة ، فزار العقاد وفتح الموضوع ، فإذا العقاد يفاجئه آه إذن أنت المحرر الجاهل ؟

فخرج المحقق متأثراً ، وعاد إلى مصطفى أمين مهدداً بالاستقالة إذا لم يجر تحقيقاً مع العقاد ، ولكن مصطفى أمين طيب خاطره وقال له : « إن كل ما سيترتب على التحقيق مع العقاد أنه سيؤكد رأيه فيك وسيضمنى إليك فى هذا الرأى » . وانتهى الموضوع .

رحم الله العقاد . لقد كان معتداً بنفسه إلى درجة المبالغة حتى إن أحد علماء الزيولوجيا كان يتحدث إليه يوماً فى المجمع اللغوى فجاء على لسانه قوله : « عندنا فى الزيولوجيا » فعز على العقاد أن يقول : « عندنا » ، وعقب قائلا : « عندكم إيه يا حيوان .هل تعنى أننى لا أفهم فى الزيولوجيا أحسن منك ؟ » .

وجاء العقاد يوماً إلى « خزينة » الدار ليقبض مستحقاته فوجدها مقفلة ، فدخل على صاحبنا فى مكتبه منفعلا وقال : « لم أكن أعرف أنك أصبحت صاحب أخبار اليوم تقفلها حين تشاء ! »

كان صاحبنا مطالباً — بحكم عمله — أن يتعامل مع التحرير ، وأن يسترضى كبار المحررين ، وكان يلاحظ أن الطاقات الكبيرة لها انحرافات كبيرة ، ولذلك كان يداريها إن لم يستطع معالجتها ، وظل يعمل بنجاح حتى جاء يوم فى سنة ١٩٦٠ . . .

لقد دق جرس التليفون مرة أخرى فى إصرار ذكر صاحبنا بدقته الأولى حين أقفل المصرى . وكان المتكلم هذه المرة هو « أمين شاكر » . مدير مكتب الرئيس جمال عبد الناصر . لقد قال إن قانونا صدر بتنظيم الصحافة ، وإن قراراً صدر بتعيين صاحبنا عضواً منتدباً وطلب منه أن يكون فى مكتبه فى تمام الساعة السابعة .

. . . ثم مرت من تحت القنطرة مياه كثيرة ، ونقل صاحبنا من أخبار اليوم عضواً فى مجلس إدارة الأهرام ومشرفاً على دار المعارف .

# وأخيراً إلى الكتاب

- ١٩٦٣



لم يكن صاحبنا يستطيع أن يفرط قيد أنملة فى النجاح الذى حققه بعرق الجبين فى أخبار اليوم ، ولم تكن نقابة العاملين مستعدة أن تحسبه من الأسرة بعد أن كان يعمل مع أصحاب رأس المال . كانت النقابة تتحدث إليه باسم العاملين ، وكان صاحبنا يرد بلغة الأرقام . كانت تطالب برفع الأجور وكان يطالب برفع الإنتاج . وأخيراً ثار العمال فلم يجد بدًّا من أن يستقيل .

لن ينسى صاحبنا ثلاث صور من ذكرياته فى أخبار اليوم : إحداها لإبراهيم مراد رئيس النقابة ، وهو جامع أحرف يسكن فى بولاق ، لقد زاره صاحبنا مرة فوصل بالسيارة إلى أن أصبح التقدم بها متعذراً ، وانحرف يساراً فى طريق متعرج ، ثم يميناً فى طريق منحدر، ثم استقام به الطريق إلى أمام حتى انسد ، فعرف أنه وصل إلى حيث يسكن إبراهيم مراد ! هذا الرجل كان يختلف مع صاحبنا كثيراً فى الرأى ، وكان كلما زاد خلافه معه زاد احترامه له ، لأنه لم يطلب منه يوماً علاوة لنفسه أو لأحد أبنائه . كان يهاجم الإدارة بالحق وأحياناً بالباطل . وكان يهدد بالويل وعظائم الأمور ، ولكنه كان فى هجومه نزيهاً بغير حدود ، مخلصاً فى حدود ما يرى . وقد بحث صاحبنا عن منزله بعد أن ترك أخبار اليوم ليعبر له من تقديره لنزاهته .

والصورة الثانية لعضو فى النقابة كان عاملا بالجراج ، يجيد الإثارة ، ويلوك بين شدقيه كلمات : الانطلاق، وأرضية المفهوم ، واللجنة المنبثقة. ، دون أن يفهم دلالاتها ! ولكنه أصبح عن طريق ذلك موظفاً كتابيًّا — وذات مساء دخل صاحبنا إلى بيته فوجد فى الظلام شبحاً . كان عضو النقابة واقفاً فى ركن فى مدخل العمارة ، فلما رأى صاحبنا انحنى يقبل قدميه ويردد: « أنا خدامك .

إنك إذا أعطيتنى خمسة جنيهات علاوة فسأكون نصيرك على الدوام فى خلافك مع النقابة ، بل سأضرب من يخالفك من الأعضاء » .

وأبدى صاحبنا امتعاضه ، ثم صعد إلى مسكنه . وكانت النتيجة مؤتمراً كبيراً عقد بعد يومين فى نادى أخبار اليوم لمحاسبة المدير على تقصيره فى حق العمال . وخطب فيه عضو النقابة هذا فقال إنه لايفهم أن ترفض الإدارة سلفة قدرها ثلاثة جنيهات لأحد العمال إذا كان لها فى البنك ربع مليون جنيه . وحين يدعى المدير أن المبلغ مخصص لشراء آلة طباعة من الخارج فإن النقابة تتهمه بالمغالطة ، لأن المبلغ بالجنيه المصرى وثمن الآلة تدفعه مراقبة النقد بالإسترلينى ! أما المدير فقد خرج من المؤسسة ، وأما عضو النقابة فقد أصبح من رجال التحرير !

والصورة الثالثة لأحد السعاة ، لقد اعتدى بالشتم على إحدى المحررات ، فنقله صاحبنا من القسم الذى يعمل فيه ، وحقد الساعى على صاحبنا ، فانتهز فرصة وفاة ولده بعد خروج صاحبنا من أخبار اليوم وكتب له خطاباً جاء فيه :

لقد ذهبت أمس لأسير فى جنازة ولدك . وقد تظن أنى كنت أجاملك ، ولكن الواقع أننى أردت أن أتشفى فيك ، فلما رأيت عينيك لاتدمعان قلت : يا لله ! إن هذا الرجل قد قلبه من حجر فهو لايرق حتى لابنه !

ودارت الأيام . . فانتدب صاحبنا من جديد مشرفاً على أخبار اليوم بعد استقالته منها ، فتوقع الساعى شراً ، وجاء يقبل الأعتاب ، فدعا له صاحبنا بالسعادة ليطهر قلبه من الحقد .

استقال صاحبنا من أخبار اليوم ، ليوفق بين ما يراه واجباً كمدير ، وما يجده ضرورياً من النزول عند رأى الأغلبية ، لم يكن أمامه إلا أن يترك فراغه لمن يستطيع أن يملأه خيراً منه . وأراد محمد حسنين هيكل أن

يكرمه فجمع مجلس إدارة الأهرام ليدعوه لقبول عضويته . ومن الجلسة اتصل هيكل تليفونياً بصاحبنا ليبلغه رغبة المجلس . وفى غمرة هذا التكريم نسى صاحبنا ما أصابه من خدوش فى معركة الدفاع عن أخبار اليوم .

ومن الأهرام أشرف على دار المعارف ، فوجد فى عمله الجديد اختلافاً كبيراً . لقد كان يعد الجريدة متأخرة إذا صدرت بعد ربع ساعة من موعدها ، فأصبح يرى الكتاب يصدر بعد ثلاثة أشهر أو أربعة . وكان يحسب توزيع الصحف بمئات الألوف ، فأصبح ، يحسب توزيع الكتب بالألوف فقط بل بالمئات . وكان يعمل مع مجموعة من الصحفيين يتصفون بسرعة الحركة وكثرة الإنتاج ، فأصبح يتعاون مع مجموعة من المؤلفين يتميزون بالعمق فى التفكير والدقة فى إبداء الرأى . وقد ترك أخبار اليوم وهى كبيرة منتعشة ليجد دار المعارف أصغر حجماً وأكبر سمعة .

ولما أصبح صاحبنا بحكم عمله مسئولا عن قسم النشر ، وفيه مجلس من كبار الكتاب والعلماء ، قرر المجلس نشر كتاب يملأ فراغاً كبيراً فى العالم العربى هو « محيط العلوم » ، فصدر الكتاب بأقلام صفوة من الجامعيين ، ولكنه لم يصادف رواجاً يذكر برغم قيمته العلمية الكبرى .

وفكر صاحبنا فى أن خطب الجمعة والعيدين لاتزال فى أسلوبها العتيق بعيدة عن الدنيا وما استجد فيها من شئون ، فرجا الدكتور السعيد مصطفى السعيد ، وهو المستشار الثقافى للدار ومدير جامعة القاهرة السابق ، أن يدعو كبار القضاة الشرعيين ، ورجال الدين ، ليكتبوا الخطب بأسلوب جديد ، وكان من بينهم الشيخ فرج السنهورى والشيخ محمد أبو زهرة ، فجمعت الخطب فى كتاب ، ولكن الكتاب بقى دون بيع ، لأنه خال من السجع ، ولأن خطباء المساجد لايحبون الحديث فى شئون الدنيا !

وتأمل صاحبنا عشرة آلاف مؤلَّف أصدرتها دار المعارف خلال ثمانين عاماً ، فخرج منها بنتيجة غريبة ، هى أنه لو قيل إن رواج الكتب يتناسب تناسبا طردياً مع قيمتها لكان هذا أبعد عن الصواب مما لو قيل إنه يتناسب تناسباً عكسياً مع هذه القيمة . لقد كانت الدار تستمد الفائض طول عمرها من الكتب المدرسية والقصصية والأدبية وكتب الأطفال لتنفق منه على كتب العلم .

وهكذا أدرك صاحبنا لماذا يختلف الجامعيون مع دور النشر . فالعلماء يحكمون على مؤلفاتهم بمقدار ما فيها من مادة علمية ، على حين يحكم الناشرون عليها بمقدار ما ينتظرها من رواج ، فقد يكون المؤلف ذا قيمة ذاتية كبيرة ، ولكن قيمته السوقية محل نظر !

إن أحد الأساتذة فى كلية الحقوق كان يتقاضى عن مؤلفه نسبة عالية ، فلما رقى مديراً للجامعة أنقص الناشر هذه النسبة إلى أقل من النصف ، لأن المؤلف لم يعد يضع الامتحان لتلاميذه ، فلم يعودوا يشترون كتابه .

وقد فتح صاحبنا منافذ النشر فى دار المعارف على جميع الثقافات والأديان ، فترجم الكتب الروسية والكتب الأمريكية ، ونشر تفسير القرآن وتفسير الإنجيل . ذلك أن الثقافة للناس جميعاً فليس من حقه أن يفرض نفسه على القراء . إن عليه أن ينتقى المادة الطيبة فى كل فرع من فروع المعرفة ثم يرسلها إرسالا فيرى ناس أن ما فيها صحيح ويرى ناس أن ما فيها يستحق التعليق ، ولكنهم جميعاً يرون أنها تستحق القراءة ، ثم يخرجون بعد قراءتها وقد أعملوا فكرهم فى معانيها ، وتمثلت المعانى فى أذهانهم ثقافة خالصة .

وبمثل هذه الروح فتح صاحبنا مكتبات الدار لكتب الناشرين الآخرين . إن القارئ يرفض أن يحرم نفسه من حرية الاختيار ، فهو يتجه إلى المكتبة التى فيها أكبر مجموعة من الكتب فى كل فرع من

فروع الثقافة . وعرض الكتاب المنافس مع كتاب الدار فرصة لدراسة السوق واختبار لنواحي القوة ونواحي الضعف فى مؤلفات الدار ومؤلفات الآخرين .

ومن حسن الحظ أن على رأس النشر فى الدار شاعراً كبيراً هو فى الوقت نفسه رجل أعمال . . وعادل الغضبان يتخذ من الشعر هواية ، ومن التعامل مع المؤلفين مهنة ؛ ومن الغريب أنه يستطيع الجمع فى عمله بين الحقيقة والخيال .

أما إسماعيل شوقى فهو المدير الفنى للمطابع . وهو يعمل فيها كالآلة فى أقصى سرعتها ، فإذا أراد التغيير انكب على متن مطبوع ليصحح أسلوبه ، وإذا أراد الترويح عن نفسه جمع بين العملين فى وقت واحد !

لقد نجح صاحبنا بنجاح زملائه فى دار المعارف ، وتوج زملاؤه فى الدور الأخرى هذا النجاح حين انتخبوه أول رئيس لاتحاد الناشرين ، ولكنه اكتشف أن وزارة الثقافة التى أنشأت الاتحاد لم تعترف به من الناحية العملية ، فاستقال بعد سنة واحدة من تولى الرياسة . وهو يدعو كل رئيس أن يستقيل من عمله إن وجد أنه لم يعد منتجاً فيه .




١٩٦٥ -






هكذا يتندر الناس كلما سمعوا اسم « اراك » وهو مختصر ( المركز العربى للبحوث والإدارة ) ، فيبتهج صاحبنا لأنه يرى فى هذا التندر نجاحاً للاسم الذى اختاره .

و« اراك » أصبح حلماً لصاحبنا بعد أن قام ببحثه الميدانى لدار الهلال فى سنة ١٩٤٢ ، فقد علم بالبحث إنجليزى كان مديراً لشركة فى القاهرة تستورد الصابون ومعجون الأسنان ، فقال لصاحبنا إنه لايؤمن بالبحوث الميدانية فى مصر ، لأن أهلها يكذبون ، فقد قام باستقصاء عن عدد الذين ينظفون أسنانهم بالمعجون فأسفر عن أن أكثر من نصف السكان يفعلون ذلك ، وهو ليس بصحيح إذ أن المستورد كله من معجون الأسنان لا يزيد على طنين فى العام وهو لايصنع فى مصر .

واطلع صاحبنا على الأسئلة التى وجهت للناس فوجد أولها هكذا : هل تنظف أسنانك كل يوم ؟ فرفع عينيه عن الورقة إلى وجه الإنجليزى قائلا : « هذا السؤال يا سيدى هو المسئول عن النتيجة الكاذبة التى وصلت إليها . إذاك استثرت كرامات الناس بهذا السؤال ، فجاءت إجاباتهم تدافع عنها . إنى أقترح أن يكون السؤال : هل ترى أن تنظيف الأسنان بالمعجون والفرشاة ضرورى ؟ » قال : وما الفرق ؟ قال صاحبنا : « إن سؤالك يسأل المستهلك عن نفسه ، وسؤالى يسأله عن رأيه . سؤالك محرج ، وسؤالى لا إحراج فيه . وإذا كان المستهلك لا يرى ضرورة فى استخدام المعجون والفرشاة فلك أن تستنتج أنه لايستعملهما». واقتنع الإنجليزى بخبرة صاحبنا ، فطلب منه أن يقوم بالاستقصاء من جديد ، وجاءت النتائج منسجمة مع أرقام الاستيراد ، وعاد الاستقصاء

على المدير الإنجليزى بتوجيهات طورت سياسته التسويقية . وعاد على صاحبنا بسمعة زكته للقيام باستقصاء كبير للكوكا كولا .

كان ذلك فى سنة ١٩٥٠ ، وكانت الكوكا كولا قد غزت سوق المشروبات الخفيفة ، فرأى الأمريكيون المشرفون عليها فى القاهرة أن يستزيدوا من انتشارها بتعمق نواحيها التسويقية . وتقدم أحد الأساتذة المصريين بعرض قدر فيه أتعابه بثلثمائة جنيه ، وتقدم صاحبنا بعرض آخر قدر فيه أتعابه بثلاثة آلاف ، فقبل الأمريكان العرض الثانى ! والذى أنشأ الفرق الكبير بين أتعاب صاحبنا عن استقصاء دار الهلال الذى لم يصل إلى مائة جنيه وأتعابه عن استقصاء الكوكا كولا ، هو أنه كان مدرساً بخمسة وعشرين جنيهاً فى الشهر ، فأصبح عضواً منتدباً لشركة الإعلانات الشرقية ، ومديراً لجريدة المصرى بخمسة آلاف جنيه فى السنة .

ولا ينسى صاحبنا أن أحد الباحثين معه استوقف سيدة فى الطريق العام وسألها عما تشربه ، فظنت به سوءاً وصفعته أمام رجل الشرطة ، فقاده هذا إلى القسم بتهمة معاكسة السيدات ! لقد بذل صاحبنا جهداً كبيراً فى إقناع المأمور أن الباحث لم يكن يريد من السيدة إلا أن تخبره بأنها تشرب كوكا كولا أو تفضل عصير الليمون !

وفى سنة ١٩٥١ قام صاحبنا ببحث ميدانى عن قراء الصحف ظهر منه أن أحب كاتب للقراء فى الأهرام هو « أحمد الصاوى محمد » ، وأحب كاتب فى دار الهلال هو «فكرى أباظة» ، وأحب كاتب فى المصرى هو « عبد الرحمن الخميسى » ! ودخل صاحبنا بهذه النتيجة على صاحب المصرى ، وكان الخميسى قد طلب منه علاوة رفضها ، فلما وقف على مكانته بين القراء طلب من صاحبنا أن يمنحه العلاوة دون أن يقول إنه رجع فيها لأحد . ودخل الخميسى على صاحبنا شاكراً ومحذراً بأنه سبق أن عرض الأمر على صاحب المصرى فلم يوافق عليه ، فلبس

صاحبنا مسوح الأسد وقال للخميسي : « إذا كان صاحب المصرى ملكاً فإننى رئيس الوزراء . إنه يستطيع أن يقيلنى ، ولكنه لايستطيع التدخل فى عملى . إنى مدير وهو ممول ، فعلاقتى به لاتزيد على علاقتى ببنك مصر. هل يتدخل البنك فى أعمال الجريدة؟ » فخرج الخميسى وهو يؤكد لكل من يقابله أن مدير المصرى هو أقوى شخصية فى الجريدة . إنه أقوى من صاحبها .

وفى سنة ١٩٥٥ قام صاحبنا ببحث كبير عن قراء صحف أخبار اليوم ، فأثبت البحث أن « أنيس منصور » من أحب الكتاب للقراء ، فأوفده صاحبا الدار فى رحلة صحفية حول العالم ، وأثبت البحث أن مجلة « الجيل الجديد » لامكان لها فى السوق فتقرر وقفها .

ثم قام « اراك » فى مستهل سنة ١٩٦٥ فكشفت بحوثه عن حقائق تقتضى كثيراً من التأمل . منها أن قراء الثقافة العامة أغلبهم من طلاب الجامعات ومدرسى التعليم الثانوى ، وأن العزاب يقرءون أكثر من المتزوجين ، وأن متوسطى الدخل يقرءون أكثر من الأغنياء ، وأن الشباب يقرءون أكثر من الشيوخ ، وأن المتخصصين فى مجموعهم لايقبلون على الثقافة العامة ، وإنما يقبلون على القراءة فيما تخصصوا فيه .

وقد أثبت البحث أن قرية غالبية سكانها من الأقباط فى الوجه القبلى تقرأ الكتب الإسلامية . فلما شك صاحبنا فى هذه النتيجة أرسل مستقصين جدداً ، فإذا هم يؤكدون النتائج الأولى بل يزيدون عليها أن أهل القرية يشتركون مع المسلمين فى الاحتفال بمولد النبى . . . نتيجة تبدو غريبة ولكنها صحيحة !

وقد أشار صاحبنا يوماً على مصنع للصابون النابلسى أن يجعل أطراف القطع مستديرة بعد أن كانت مدببة حتى لا تؤذى الأيدى عند الغسيل ، فنقصت المبيعات نقصاً مفاجئاً . وقد تبين بعد الاستقصاء أن المستهلكين رأوا فى تدوير الأطراف انتقاصاً من حجم الصابون ، مع أنه كان يباع

بالوزن ! .. نتيجة غير منطقية ولكنها صحيحة !

وكان فى شارع تحت الربع محل صغير للأحذية يتردد عليه شيوخ الأزهر فيتربعون على حشية من القطن ويقيسون المراكيب وقد بدا لصاحبنا أن يرفع المستوى فأشار على صاحب المحل أن يضيئه بالنيون ويزوده بكنبة وحامل خشبى يستقبل أقدام الشيوخ فإذا الشيوخ يفرون من المحل ! ولعن صاحبه يوم عرف صاحبنا وعاد إلى حشيته .. نتيجة أخرى غير منطقية ولكنها صحيحة !

لقد وجد صاحبنا أن المنطق فيما تقدم كان من صنعه ، فقد تشكل وفق رأيه فى ربط المقدمات بالنتائج ، وقد يكون الربط فى ظروف مختلفه ولذلك يجىء البناء غير صحيح فى حقيقته ، وإن كانت عليه مسحة الحق . أما الواقع فهو صادق أبداً لأنه الحقيقة نفسها . والواقع إذا ترجم فى ظروف الشخص وأهدافه فإنه يكون منطقياً سليماً .

إن صاحبنا أصبح بعد هذه التجربة يعجب لمديرى الأعمال الذين يبنون قراراتهم على المنطق وحده لا على الواقع فتجىء النتائج مخيبة لمنطقهم . إنهم حين يتخذون المنطق أساساً لقراراتهم يفترضون أن البائعين والمستهلكين والوسطاء منطقيون ، وهم ليسوا كذلك ، فهم بشر يحبون ويكرهون ، وعلى قدر حبهم وكرههم تجىء تصرفاتهم .

إن صاحبنا وهو يجرى بحثه عن معجون الأسنان فى القاهرة كان يعرف أن معجوناً آخر انتشر فى أمريكا حتى أصبحت مبيعاته تمثل ستين فى المائة من مبيعات المعاجين جميعاً ، ولما سئل المستهلكون عن سبب تفضيلهم المعجون الرائج قالوا : إنه مطهر ؛ وهو سبب ظاهر البطلان ؛ لأنهم لايستطيعون الحكم على مدى تطهيره لأسنانهم . لقد وضع الإعلان فى أفواههم هذه الحجة فرددوها .

وقد راجت سيجارة رواجاً كبيراً فى إنجلترا ، فأراد مكتب للأبحاث أن يستقصى أسباب هذا الرواج ، وقدم لبضع مئات من المستهلكين

ست سجائر غير معلمة طلب من كل منهم أن يخرج من بينها سيجارته المفضلة فأخفق أكثر من تسعين فى المائة . وأكبر الظن أن المصادفة لعبت دورها مع بعض الناجحين . لم يبق إذن إلا أن المستهلكين يدخنون صورة ذهنية تكونت بفعل التعود .

وقد أراد أحد الباحثين فى أمريكا أن يقف على فعل الإيحاء فى الناس ، فقال فى جمع منهم إن لديه نوعاً قوياً من البن جاء من اليمن ، وإنه يريد التثبت من مدى تأثيره فى النوم ، وأعطى كلا منهم عينة ليشرب قهوته منها ، فلم ينم القوم ، وعادوا يقولون إن البن مملوء بالكافيين ، مع أن الواقع أن الكافيين كان منزوعاً منه !

وبعد مدة جاءهم يقول إن لديه مسحوقاً من اللبن مقوى بمواد تفيد الصحة ولكنها تدعو إلى النوم ، وهو يريد التأكد من مدى تأثير هذا اللبن فيهم ، فنام معظمهم نوماً عميقاً ، مع أن اللبن كان مملوءاً بالكافيين !

إن صاحبنا يضع فى ذهنه هذه الأمثال وهو يقوم برسالته فى «اراك» فلا يضع سؤالا موجهاً حين يستفسر عن شىء ، ولايبدى استغرابه إذا جاءت الإجابة عنه غير منتظرة . إنه يحب الإنصات لأن الإنصات أداة الباحث فى الوصول إلى الحق ويؤمن بقول من قال : إن الله خلق للإنسان لساناً واحداً وأذنين اثنتين ليسمع ضعف ما يتكلم . ولكنه تعلم الكلام فى سنتين بعد ولادته ، ولايزال وقد تعدى الستين من عمره يروض نفسه على مزيد من الإنصات !

وهو اليوم يتتلمذ على تلاميذه



لكل إنسان فى عمره مراحل ثلاث : مرحلة أولى يكون فيها رأس ماله ، ومرحلة وسطى يقرض فيها تلاميذه ، ومرحلة ثالثة يسترد فيها ما أقرضه .

ولكن صاحبنا كان يقرض فى مرحلته الوسطى ويسترد ، بل لعله استرد ديونه من تلاميذه أضعافاً مضاعفة حين تسلق على أكتافهم إلى حيث أراد الله له أن يكون . ولكنهم فى مرحلته الثالثة لايزالون يعاملونه على أنهم مدينون له ، فهم يحيطونه بالعرفان ، ويضعون أنفسهم فى خدمته كلما بحث ، ويكملون خبرته بعلمهم الجديد كلما طلب المشورة .

وإذا كان من الناس من يختزن المعلومات دون هضم ، فإن منهم من يختزنها بعد أن تتمثل فى نفسه ثقافة خالصة ، ولكنه يخاف عليها من الضوء فلايفاعلها بمعلومات الآخرين ، ومنهم من يصب ثقافته فى بوتقة الحياة ، فيخرج منها بمشروعات اقتصادية ، ومبادئ سياسية ، وأصول أخلاقية ، وأسلحة فتاكة .

ولا يعرف صاحبنا مكانه من هذه المجموعات الثلاث ، ولكنه يعرف أنه تفاعل مع عدد مرموق من رجال الإدارة ورجال العلم فى مجال الصحافة والأبحاث . وهو يداعب بعضهم بهذه الصور القلمية .

## أمين عدلى – نائب المدير العام لمؤسسة الأخبار

مدنى الأخلاق عسكرى النزعة . إذا تحدث عن عمله زمجر فى كبرياء ، وإذا تحدث عن نفسه اغرورقت عيناه فى تواضع . يحارب دفاعاً عن كل شبر من أرض الجريدة التى يعمل فيها ، ويحسب النسخ التى باعها فى الصباح ، فإذا وجد فيها زيادة باعد بين شدقيه

ليضحك طول النهار ، وإذا وجد فيها نقصاً فتش الأرض عمن كان السبب .

فى سنة ١٩٤٣ كان فى الصبح موظفاً فى مجلس الشيوخ ، وبعد الظهر محاسباً بجريدة المصرى . وانتدب صاحبنا من الجامعة خبيراً بالجريدة ، فلم يجد من يدله على طريق الإصلاح غير أمين علش . وهمّ صاحبنا أن يعينه رئيساً ال ..سابات لولا أن رآه صغير السن .

وكان باهر فراج هو الذى يوزع الجريدة بطريقة بدائية ، فرأى صاحبنا أن ينشئ مكتباً للتوزيع كان نواة لشركة التوزيع المصرية ، ثم لشركة توزيع الأخبار . وكان أمين علش هو الرأس الفنى الذى كفل نجاح المشروعات الثلاثة .

ناظر مدرسة تخرج فيها كثيرون من رجال التوزيع . له من اسمه نصيب كامل ، فهو أمين لافضل له فى أمانته ، لأنها طبع وليست تطبعاً .

## د . حسين الغمرى مدير عام دار المعارف

عصامى كبير . بدأ حياته العملية بالشهادة الثانوية مندوباً للبيع فى إحدى الشركات ، وفيها انتسب لكلية التجارة فحصل على البكالوريوس .

وأعلنت مؤسسة الأخبار عن حاجتها إلى رئيس لقسم الاشتراكات فاستجاب حسين الغمرى ، وطلب أربعين جنيهاً كمرتب ، ولكن صاحبنا بعد أن قابله زاد المبلغ من تلقاء نفسه إلى خمسين .

وتقلب حسين فى مناصب المؤسسة ، كما تنقل من البكالوريوس إلى الماجستير إلى الدكتوراه ، حتى انتقل صاحبنا إلى دار المعارف فعرض عليه أن ينتقل معهُ مديراً للتوزيع . ولكن حسين اعتذر ، فاستعان عليه صاحبنا بصديق فقبل . وفى دار المعارف تولى منصبه فتألق .

جمع خبرته من بيع الشاى وتوزيع الصحف والكتب ، ومن الإشراف

على الحسابات والإعلان بالبريد والعقل[ ]الإيلكترونى وجمع علمه من التحضير للشهادات والتحضير للمحاضرات فى الجامعة والمعاهد فتألف لديه من هذا كله مزيج إدارى متعادل .

توحى قامته الطويلة بأنه لا يعرف مكر القصار ، ولكن الواقع أنه قصيران فى قامة واحدة !

## صليب بطرس – المستشار الفنى لأخبار اليوم

قطار سكة حديد ، يسير على قضيبين فلا يحيد ، يتحدث فى المحاسبة بلغة القانون ، ويتحدث فى القانون بلغة الأرقام ، ولذلك يرتاح إليه المحامون والمحاسبون على السواء .

كان يعمل فى الأربعينات مع محمود درويش بوزارة المالية ، وشارك معه فى إخراج الجنيه المصرى من دائرة الإسترلينى . وكان يعمل فى الوقت نفسه بجريدة المصرى محاسباً بعد الظهر فلما جاء صاحبنا خبيراً وجد عنده خبرة بالمحاسبة والاقتصاد والقانون والضرائب وشئون الورق والنقد ، فأقنعه بالاستقالة من الحكومة ، واستعان به فى تنظيم المصرى ثم نقله معه إلى أخبار اليوم ، فشغل منصب المستشار الفنى وبرع فيه .

أراد يوماً أن يتخفف من صداقة صاحبنا فلم يمكنه من ذلك ، والصداقة عقد بين طرفين ، فلا يستطيع طرف أن ينهيها إلا بموافقة الطرف الآخر . لم يوافق صاحبنا لأنه مدين له بجهوده فى الدفاع عنه وعن إخوانه مديرى أخبار اليوم حين أحيلوا جميعاً إلى النيابة الإدارية فى سنة ١٩٦٠ .

شديد الوفاء . شديد الحساسية . إذا أحبّ وهب ، وإذا عتب غضب ، ولكنه كثير الأصدقاء ؛ لأنه لايحب الانتقام .

خدم الإدارة الصحفية فى أكثر من ميدان ، ولعله أكثر الإداريين

انتشاراً فى الصحافة المصرية . ولكنه يؤثر منصب المستشار على منصب المدير وقد يكون ذلك لأنه المستشار الفنى الوحيد !

## طلعت الزهيرى — مدير الإعلانات بأخبار اليوم

رأس مرفوع على قامة قصيرة . خبرة واسعة وباع طويل استغلهما فى الإعلان والطباعة فظفر بتقدير المعلنين . يكتب المذكرة فيربط فيها الأسلوب بالمنطق والرقم ، ويرسلها فتصيب من تشاء ، وقد ترتد إليه فتجرحه ، ولكنه سعيد بها على أى حال لأنها تعبر بدقة عما يراه حقاً .

التقى به صاحبنا فى فناء المعهد العالى للعلوم المالية والتجارية ، وكان قد تخرج فيه لتوه ، فأخذه فى سيارته إلى شارع جلال ، وعينه محاسباً بشركة الإعلانات المصرية ، وبعد سنوات قليلة خرج اليهود من الشركة ، فخلا فيها منصب رئيس الحسابات ، واختاره صاحبنا لملء المنصب ، فلم يخب ظنه فيه . فقد عمل بالليل والنهار حتى ملأ الفراغ وهو لما يزل صغير السن .

وجاء مع صاحبنا إلى أخبار اليوم وكيلا لإعلانات الأخبار ، ثم مديراً لها ، فلمع كإدارى وكمحاسب ، ثم أحب العمل فى السوق بعد ذلك فنجح ولكن الصفة الغالبة بقيت أنه مدير .

إليه يرجع معظم الفضل فى نجاح الإعلان بالبريد . وقد كان عبد العزيز فريد هو الذى أشعل قنديل الزيت ، فجاء طلعت الزهيرى وأضاء الكهرباء . ولا تزال الكهرباء فى حاجة إلى أسلاك ومصابيح .

قيمة كبيرة لم تستنفد دنيا الإعلان كل طاقتها على الإنتاج .

## عبد الحميد حمزوش — المدير العام لدار التحرير

مدير يحب الإصغاء لأن فيه بحثاً عن الحلول ، ومجاملة للعملاء . هو من القليلين الذين يفرقون بين المنافسة والعلاقة الشخصية ، وهو يعرف

طريقه إلى صيده فيسلكه فى سكون دون أن يشتبك فى مناقشات ومناوشات فرعية .

جاء من كلية التجارة إلى شركة الإعلانات المصرية وكانت ملأى باليهود ، فوجد فيه صاحبنا مادة طيبة لمصرى ناجح ، وعينه فى قسم التحصيل .

ولمع على الفور ، فلما جاء موعد العلاوات حصل على علاوة تزيد على ما حصلت عليه زميلة عينت قبله بشهرين . وغضبت الزميلة ثم لم تجد وسيلة للتعبير عن غضبها إلا أن تستقيل من عملها وتتزوجه . . . وهما الآن زوجان من أسعد الأزواج .

واستقال صاحبنا من شركة الإعلانات المصرية ، وتعاقب عليها مديرون كثيرون ، فكان عبد الحميد حمروش موضع تقديرهم على السواء ، وارتقى فى مناصب دار التحرير حتى أصبح مديراً عاماً لها .

وقف من المركز العربى للبحوث والإدارة موقف المعارضة الصريحة ، وأعلن أن مهمته كمدير لدار التحرير هى أن يدافع عن الجمهورية ظالمة أو مظلومة لا أن يكون قاضياً بينها وبين الصحف الأخرى ، فاحترم صاحبنا هذا المنطق وزاد احترامه لصاحبه .

لايعرف صاحبنا مديراً أرهق المحاسبة وإدارة الأعمال بالاستعمال مثلما أرهقهما عبد الحميد حمروش . إنه يهرش رأسه فى كل دقيقة ليدفع الشر عن داره ، ولعله قد نجح !

## عبد الغنى عبد الفتاح — العضو المنتدب لمؤسسة روز اليوسف

عملاق عريض المنكبين . يحده شمالا رأس كبير يحيط بوجه مستدير . ويحده جنوباً قدمان كبيرتان يضرب بهما الأرض لتفسح له الطريق . ومن الشرق والغرب ساعدان يصلحان لمصارع .

دخل الإدارة من باب الحسابات . ولذلك يفضل النسب المئوية

فى التقارير على الصفات وأفعل التفضيل . ولكنه حين يبيع يرسل الحديث فى همس ويطوع الأرقام لمنطق الصفقات .

كان وكيل إدارة فى أخبار اليوم . وطلب إحسان عبد القدوس رئيس مجلس إدارة روز اليوسف من صاحبنا أن يزكى له مديراً للإدارة، فاختار عبد الغنى عبد الفتاح . ولكن عبد الغنى تردد ، فألح عليه صاحبنا حتى قبل ، وكان القبول بداية عمل خلاق فقد أصبح فى روز اليوسف مدرسة إدارية .

عصامى دخل سوق الوظائف بالشهادة الثانوية ، ثم انتسب لكلية التجارة ، فحصل على البكالوريوس ، وأصبح إلى جانب عمله الإدارى محاسباً وخبير ضرائب . ولما تولى شئون روز اليوسف تعمق شئون الطباعة وجدد فيها .

وفىّ لزملائه ورؤسائه القدامى . يزورهم كلما استطاع ، ويأخذ السوق منهم كلما استطاع أيضاً !

صديق لدود لرجال التحرير . يريد أن يخضعهم لقيود المطابع ، وهم يصرون على أنهم ليسوا صواميل ولوكره المديرون !

## عبد الله عبد البارى — المدير العام للإعلانات فى الأهرام

قوام ممشوق وصوت خشن . أدب جم وتعامل لايعرف الرحمة . شباب العشرين وخبرة الثمانين ، ولذلك امتد فى وجهه أنف طويل على فم دقيق ليرسم علامة تعجب من هذا الخلط والمزج !

جاء فى سنة ١٩٤٩ إلى شركة الإعلانات المصرية ، وكان مندوباً لشركة مصر للطيران فى مطار ألماظة ، فما إن رآه صاحبنا حتى عرض عليه أن يعمل معه محرراً فى المكتب الفنى ؛ وقبل العرض . وكان فى المكتب خطاط يتولى رياسته . ففزع من النفوذ الذى أصبح لهذا الوافد الجديد . يحاك بسماعة التليفون فيأتى بالإعلان من مصدره

فى القاهرة أو فى فرشوط . وشكا الخطاط من أن الإدارة لاتتصل فى شئون المكتب برئيسه وإنما تتصل بعبد الله عبد البارى ، فرأى صاحبنا أن يصحح الوضع وعين عبد الله رئيساً ، فخرج الرئيس السابق إلى دار أخرى .

وسعد المكتب برئيسه الجديد ، ولكن الرئيس لم يسعد بالعمل المكتبى ، فجاء إلى صاحبنا يعرض أن يعمل مساعد مندوب ، ومنذ خرج إلى السوق عرف كيف يخاطب القلوب فيصل إلى الجيوب .

يجوب الدنيا بحثاً عن المعلنين وقد أغرق صفحات الأهرام بالمساحات المحجوزة ، وأغرق السوق بالبضائع المستوردة .

هو اليوم أحسن بائع للإعلان فى العالم العربى ، فهو يبيع وهو يتنفس مستعيناً بلغات ثلاث ، وخبرة كبيرة بالناس وسحر فى التعبير والتصوير .

## د. فؤاد شريف — المستشار الاقتصادى لهيئة الأمم المتحدة

غابة على شكل شنب ، وعناد يعبر عن نفسه فى صوت خفيض فتحسبه دبلوماسية أصيلة ، وقامة قصيرة تحمل دماغاً كبيراً فى إدارة الأعمال .

كان تلميذاً لصاحبنا فى جامعة فاروق ، وعاد من أمريكا بعد أن حصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو . وبعد قليل من التدريس فى كلية التجارة بجامعة القاهرة وثب إلى مركز علمى خطير هو رئيس مجلس إدارة المعهد القومى للإدارة العليا . وبعد قليل هجره إلى مركز خطير آخر هو المستشار الاقتصادى لهيئة الأمم المتحدة ومعه زوجة وخمسة أولاد .

وقد بلغ من وفائه لرسالته وهو رئيس للمعهد القومى أنه لم يرفض طلب صاحبنا حين دعاه أن يكون عضواً فى المجلس الاستشارى لأراك ، بل أخذ مكانه فى رعايته مع الدكتور حسن توفيق والدكتور حسن حسين والدكتور مصطفى زهير والدكتور إبراهيم سعد الدين .

قاد يوماً حركة التدريب الإدارى فى الجمهورية العربية المتحدة ،

فوقع الخلاف بينه وبين كليات التجارة فى أيهما أحق بالتدريب. ولكن وزارة التعليم العالى عادت فاعترفت بمكانته حين عينته عضواً فى لجنة الترقية لكرسى الأستاذية .

لعله يحن يوما إلى إدارة الأعمال باللغة العربية !

## د . مصطفى زهير — عميد كلية التجارة بجامعة عين شمس

عقل كبير فى جسم نحيل . وقد تعب الجسم فى مراد العقل ، فجعل يشكو ويئن .

كان تلميذاً لصاحبنا فى المعهد العالى للعلوم المالية والتجارية ، فأصبح أستاذه فى بحوث التسويق . فيه تواضع العلماء وعزوف الأنبياء . ولذلك لم ينافسه أستاذ حين جاءت إليه العمادة فعرضت نفسها عليه .

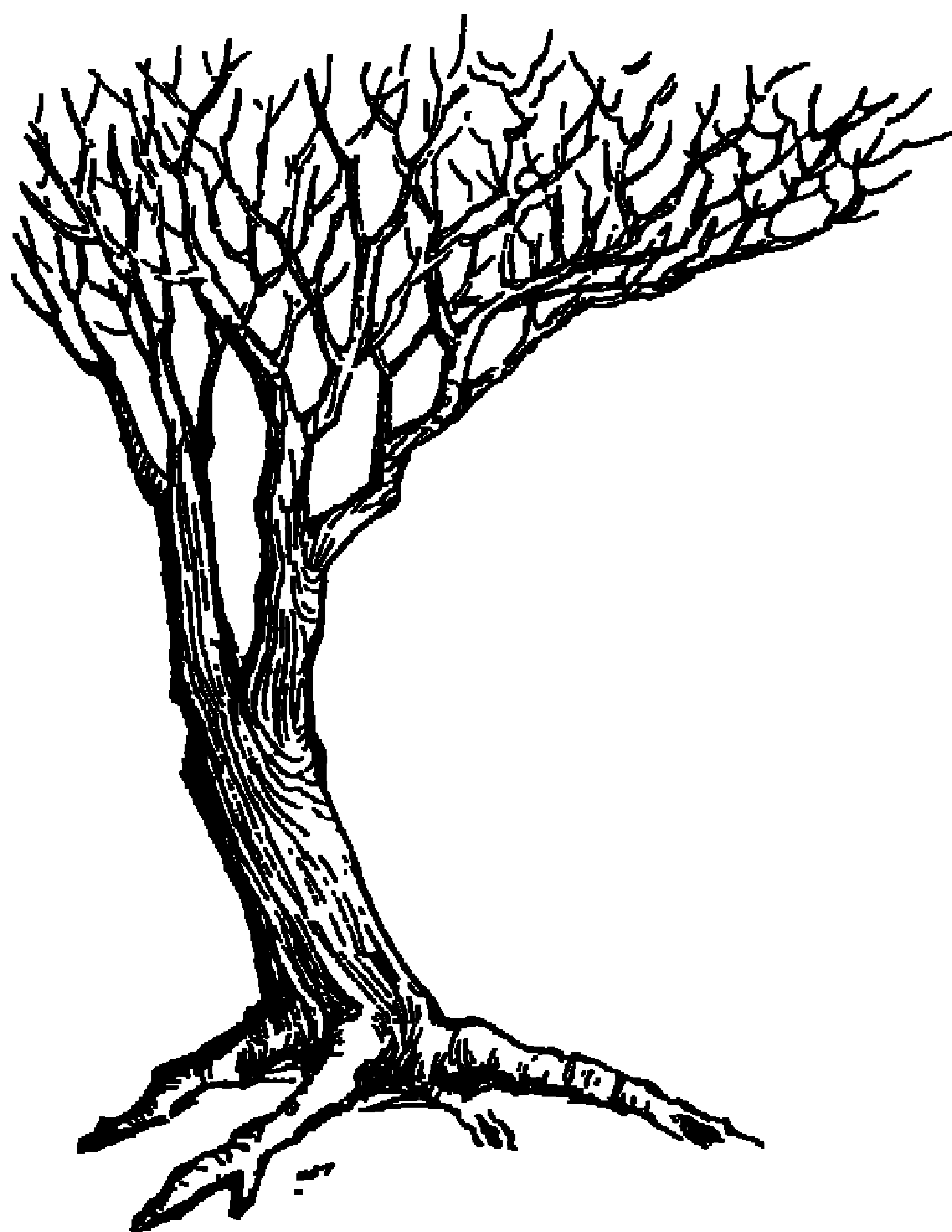
لجأ إليه صاحبنا فى بحث ميدانى عن نوع قراء المصرى ، ولجأ إليه فى بحث آخر عن صحف أخبار اليوم ، ثم عرض عليه عضوية المجلس الاستشارى فى المركز العربى للبحوث والإدارة فاستجاب دائماً كعالم باحث ، لا كرجل أعمال مستغل .

وصاحبنا يشهد كعضو فى لجنة الترقية لكرسى الأستاذية أن أحداً من الأعضاء لم يناقش ترقية مصطفى زهير أستاذاً فى إدارة الأعمال بعد الاطلاع على بحوثه . فقد انعقد إجماع الأعضاء فى اللحظة التى تلاقت فيها نظراتهم ، وكأنهم يقولون فى نفس واحد : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » !

وصاحبنا عضو فى مجلس القطاع التجارى للجامعات ، والدكتور زهير عضو فى هذا المجلس . وزمالتهما تعطى صاحبنا إشباعاً من نوع خاص يصل إلى منتهاه حين يتحدث زهير فى صوت خفيض مستأذناً على الأسماع قبل أن يصب فيها خلاصات نقية من أبحاث اللجان التى يشترك فيها .

ليته يعطى السوق بعض ما يعطى الجامعة !

# من وحى الستين



لم يكن صاحبنا يدرى ما فعلت به الأيام حتى سافر مع زوجته إلى لندن بعد أن بلغ الستين فخطر لهما أن يزورا مسكنهما الذى كانا فيه منذ أكثر من ثلاثين سنة حين كان صاحبنا عضواً فى البعثة وكانت امرأته معه .

كان صاحبنا يقطع المسافة من مسكنه إلى محطة المترو ذهاباً وعودة صباحاً ومساء فلا يجد فى ذلك عناء . ولكنهما حين أرادا أن يقطعا هذه المسافة فى هذه المرة خيل لهما أن البيت انتقل من مكانه ، أو أنهما أخطأا طريقهما إليه ، فقد بلغ منهما التعب مبلغه ، وعدلا عن العودة لمحطة المترو سيراً على الأقدام كما كانا يفعلان من قبل .

جعلا يدوران حول المنزل : هنا كنت أستذكر دروسى ، وفى هذه الحديقة كان طفلى يلعب ومن هذا الشارع كنا نمر إلى السوق . . وفيما هما يعتصران ذكرياتهما رأتهما سيدة عجوز فى البيت المقابل . قالت لقرينها إنها تذكر هذين الزوجين ، فقد كانا هنا منذ مدة طويلة ، وكان معهما غلام . فاستكثر عليها هذه الحدة فى الذاكرة . وخرج يتمسح بصاحبنا قائلا : « هل أستطيع أن أساعدك يا سيدى ؟ » قال : « شكراً ، لقد جئت أستعيد ذكرياتى منذ ثلاثين سنة فى هذا البيت » . فصرخ الرجل مهنئاً نفسه بذاكرة زوجته ، ودعا الزوجين إلى فنجان قهوة معهما .

إن صاحبنا أتم فى نوفبر الماضى اثنتين وستين سنة من عمره الذى لايدرى أيطول أم ينتهى قبل هذا الشهر . لقد مر على مولده هذا العمر فترك كل يوم منه أثره فى تجاعيد الوجه ، وبياض الشعر ونظرة العين . ولم تفلح قطع الغيار من نظارة وأسنان صناعية فى استعادة ما ضاع من

نور عينيه وقدرة فكيه ، فقد أخذت زيادته فى النقص ونقصه فى الزيادة .

لقد قال الشاعر القديم :

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب !

وصاحبنا يشكو شيخوخته إلى شبابه مع هذا الشاعر ، فقد كان يجرى إلى مستقبله وهو أمامه ، ثم أصبح يمشى والمستقبل خلفه . كان يفكر بقلبه ، فأصبح يحب بعقله ، كان يبتسم للدنيا فتضحك له ، ولكن ابتسامته بهتت مع الأيام ، فلم تعد تجذب هذه اللعوب . كان بمفرده خفيفاً يهرول ، فأصبح مثقل الكاهل بما حوله من عيال وما فوقه من أعباء .

ولكن هل الصورة قاتمة إلى هذا الحد ؟ كلا ، إن فى الشيخوخة جمالا لا يعرفه الشباب . فالحب بعد الستين من النوع المتقد غير المشبوب ، هو كالنبيذ المعتق يزكو طعمه بين الزوجين بفعل السنين . والحكمة بعد الستين تجعل الفرد ينعم بالحياة على مهل كأنما يمضغها مضغاً . والصداقة بين الشيوخ تاريخ حافل وتقدير متبادل ، فهى تنتج عن تلازم طويل وتنبع من وفاء مقيم . وحياة الأسرة تاج على رأس عميدها لا يراه إلا من فاته القطار فلم يكمل نصف دينه . فى مثل هذا يفكر صاحبنا وهو يبعد عن الستين ، ثم يرجع بذاكرته إلى وراء . .

ترى هل كان خيراً توافره على العمل الإدارى طول حياته وانشغاله عن العمل السياسى ؟ إنه ليس نادماً على هذا ، وليس فخوراً به . فقد كره السياسة فتركها ، وأحب الإدارة فأقبل عليها . والناس فى الدنيا يتصرفون حسبما يحبون ويكرهون ، ثم تجىء عقولهم فتضفى على ميولهم اعتبارات منطقية هى فى الحقيقة مسوغات وليست أسباباً .

لقد نشأ صاحبنا فى بيئة أزهرية فيها خطب ومظاهرات ، كان من الممكن أن تسلمه إلى العمل الصاخب ، ولكن أباه فرض على

طفولته نوعاً من التسليم بالواقع ، والانصياع لمن هم أكبر منه ، فانصبت شخصيته فى قالب من الرتابة يصلح للإدارة ولا يصلح للسياسة .

وهل كان صاحبنا حراً فى اختيار مهنته الإدارية ؟ لقد كان ممكنا أن يصبح أزهرياً ، ولكن قريبه استثار والده فأدخله المدرسة . وكان من الممكن أن يكون مهندساً أو طبيباً ولكن مجموعه لم يمكنه من ذلك ، وكان من الممكن أن يدخل مدرسة المعلمين فرسب فى الكشف الطبى ، وكان من الممكن ألا يدخل مدرسة التجارة العليا فأسعفه معاون المدرسة . لقد كان سفره إلى إنجلترا بفعل الظروف ، وعمله فى المصرى طارئاً . ونجاحه فيه من صنع السماء . ولم يكن ليعمل مديراً فى أخبار اليوم لو لم يقفل المصرى أبوابه . ولم يكن ليسعد بهذه السيدة التى تزوجها لو لم تخلق الحياة بينهما توافقاً خاصاً .

« كل ميسر لما خلق له » ! هكذا يؤمن . وكل سنة مرت من عمره زادت هذا المعنى رسوخاً فى نفسه ، ولذلك لم يستبد به الغرور كثيراً فى إثر نجاح حققه ، ولا استبد به الأسف كثيراً على خير فاته . كان يؤمن دائماً بأن العامل فى الدنيا كالسابح فى المحيط . لابد أن يتعلم السباحة لكى ينجو ، ولكن موجة عاتية قد تداهمه برغم ذلك فتغرقه .

وهل ينسى أن ولده تخرج فى كلية الهندسة بالقاهرة ، ثم فى أكبر معهد بسويسرا ، وعاد زينة المهندسين ، ثم أوفدته شركته إلى ألمانيا فى عمل كبير ، فسافر بالطائرة جالساً فى مقعد مع المسافرين ، وعاد بالطائرة مسجى فى صندوق مع أمتعتهم ؟ إن والده لم يعبر عن حزنه عليه بغير التسليم ، ولكن هذه الفلسفة لم تتحكم فى آرائه ولم تغير فى تصرفاته .

كان يتقبل بسهولة ما يقال له من خرافات تنسب إلى الدين ، ومن كرامات تشد إلى الأولياء فأصبح يطالب نفسه بالتفكير .

أما ميوله فظلت فى جوهرها واحدة . إنه يحب القراءة ، لأنه

لا يشبع من المعرفة ، ولايحفل كثيراً بما يذاع فى الراديو أو فى التليفزيون . وهو يغشى دور السينما تضامناً مع زوجته وابنته ، ولكنه يشهد الفيلم فلا يرجو من الله إلا أن ينعم عليه بنعمة الخلاص منه . وهو يأكل الطعام الأوربى ولكنه لايفضل شيئاً على الثريد واللحم المسلوق ، وبينه وبين مستخرجات الفول حب ، ولكنه مفقود ، لأنه أصبح عسر الهضم على معدته . وفى خلقه صرامة موروثة تسىء إليه أحياناً فيحاول التخلص منها ، ولكنها مركبة فى أعماق نفسه . .

ولما تحررت آراوءه أصبح لايفرق فى عمله وصداقته بين مختلف الأديان . كان سكرتيره فى شركة الإعلانات مسيحياً ، وزملاؤه من اليهود ، وكان الداخل إليه يمر فى طريقه بآنسة قبطية ورجل يهودى ، وقد علق على ذلك مرة أحد المتعصبين فقال : إن مدير أخبار اليوم وهو مسلم لايحب المسلمين ، فسأله أحد الحاضرين مستغرباً : « ومتى أسلم مدير أخبار اليوم ؟ »

لقد أنفق صاحبنا صدر حياته قريباً من الأزهر والأزهريين ، فكان يتمنى دائماً لو ظهر من بين علمائهم مجتهد جديد — وباب الاجتهاد مفتوح — يعيد كتابة الدين فى حدود القرآن والحديث بما يوفق بين المذاهب الأربعة ، ويتمشى مع تطور العصر . إن الدين الإسلامى ينشر لواءه فى إفريقيا وآسيا ، وصاحبنا يريد أن يرى ألويته فى أوربا وأمريكا . وقد فرح بإنشاء جامعة الأزهر ، لأنه يرى أن العالم الدينى لاغنى له عن لغة العلم ، فالدين أهداف والعلم أساليب .

وقد سمع صاحبنا مع أعضاء كثيرين فى نادى الروتارى بهليوبوليس من كبير من علماء المسلمين — وكان يحاضرهم بعد الإفطار فى رمضان الماضى — أن « أبا حنيفة النعمان » أفتى بأن الخمر هو مااستخلص من عصير العنب ، وهو الذى يصدق فيه أن ما أسكر كثيره فقليله حرام ، أما ما اصطلح الناس على تسميته نبيذاً كعمر الخيام فى مصر ،

وكالعرق فى لبنان فهو حرام . والويسكى فى الاصطلاح الشرعى نبيذ لأنه ليس مستخرجاً من عصير العنب ، فشاربه إذا انتشى لايرتكب محرماً ، وإنما يرتكب المحرم إذا سكر . وعرض صاحبنا هذه الفتوى فى محاضرة له بجمعية العلاقات العامة بالقاهرة فاستغربها كثيرون من الحاضرين . ثم نقلها للصديقين ؛ الدكتور محمد كامل حسين ( مدير جامعة عين شمس السابق ) ، والدكتور محمد سليمان ( أستاذ الطب الشرعى بجامعة القاهرة ) وهما عضوان فى المجمع اللغوى ، فوافقا على أن ما نسب إلى أبى حنيفة صحيح ، وإن كان لم يقل به الشيخان ، ثم أضافا أن أبا حنيفة سئل إن كان يقبل شراب النبيذ فقال ما معناه، إنه لا يرضى ذلك لنفسه .

ولقد رجع صاحبنا فى هذا إلى فضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية السابق وعضو جماعة كبار العلماء فأحاله إلى كتابه « فتاوى شرعية وبحوث إسلامية » الجزء ١ — ٢ وقد جاء فيه فيما يتعلق بالمسكر والخمر :

« عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "كل مسكر خمر وكل مسكر حرام" رواه الجماعة إلا البخارى وابن ماجه وفى رواية مسلم : "كل مسكر خمر وكل خمر حرام" » .

وجاء فيه أيضاً :

« وعن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تذهب الليالى والأيام حتى تشرب طائفة من أمتى الخمر ويسمونها بغير اسمها"» ( رواه ابن ماجه )

ويتابع فضيلة المفتى السابق كلامه فيقول :

« وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به "وهو من أعلام النبوة" فقد سمى الناس فى الأزمنة الأخيرة الخمر بأسماء استحدثوها كالويسكي والروم والبيرة والكونياك وما إلى ذلك مما ابتدعوه فى الأسماء لما حرمه الله سبحانه فى المسميات » .

* * *

وقد سمع صاحبنا أن تنظيم النسل حرام ، وسمع أنه حلال ، سمع أن التأمين حرام ، وسمع أنه حلال . بل سمع أن الموسيقى وإقامة التماثيل من المحرمات .

أما تعدد الزوجات وضربهن فقد أفتى بعض رجال الدين بأنهما حقان لا يجوز لمن يمارسهما أن يسىء استعمالهما ، فى حين اتجه آخرون إلى أنهما رخصتان مطلقتان .

وأفتى بعض رجال الدين بأن المرأة لايجوز لها أن تسفر عن شعرها أو أظافرها وإلا ارتكبت محرماً ، فى حين اتجه البعض الآخر إلى أن الهدف هو عدم إثارة الفتنة ، فالفلاحة التى تكشف عن وجهها وساعديها وهى تعمل بالمحراث لاترتكب محرماً ، ولكن التى تهز نفسها فى الطريق العام بقصد الإثارة ترتكب محرماً ولو كانت متدثرة .

ورأى صاحبنا المسلمين فى جاكرتا يغشون المساجد ويحرصون على أداء الصلاة والحج ، ولكنهم يحلّون كثيراً مما نحرمه ، فلما سألهم فى ذلك قالوا إن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك ! وقد فرح صاحبنا

حين عرف أن الأزهر بعث عدداً من رجاله إلى أندونيسيا لتصحيح ما اشتبه على أهلها .

وهناك أمور استحدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين كركوب الطائرات . إن فى الطائرات ماء ولكن الوضوء فيها غير ممكن ، وليس فيها تراب فالتيمم غير ممكن ، فكيف تكون الصلاة ؟

كان السفر على الجمال لعدد قليل من الفراسخ يجيز الإفطار فى رمضان ، لأن هذه المسافة كانت تستغرق بضع ساعات ، فأصبحت تستغرق بالطائرات دقيقة واحدة ، وبالقطارات السريعة بضع دقائق ، فهل يجوز للصائم مع ذلك أن يفطر ؟

والفدية للمضطر كانت قدراً صغيراً من البر أفلا يزال هذا المقدار يكفى فى سنة ١٩٧١ ، أم يحسن النظر فى دفعه عيناً أو نقداً رعاية لارتفاع مستوى الدخل ؟

إن صاحبنا يعرض هذه الأمثلة الخلافية ، ولا يدعى لنفسه أهلية الإفتاء فيها ، وإنما يدعو إلى مؤتمر إسلامى كهذا الذى عقد أخيراً فى طرابلس الغرب ليقول كلمته فى كل منها .

وأنفق صاحبنا سنوات من عمره فى التعليم الجامعى . وهو لايستطيع أن يقنع نفسه حتى الآن بأن تكافؤ الفرص يعنى أن تمضى الدولة فى الإنفاق على الطالب فى الجامعة مهما طال بقاؤه فيها . إن الذى يستحق رعايتها هو الطالب الناجح . أما الذى يرسب فعليه أن يدفع المصروفات. ثم إن الدولة أعطت التعليم الجامعى من عنايتها أكثر مما أعطت التعليم الفنى ، فنشأ هذا الفراغ الذى نحسه فى الكفايات .

إن الجامعات ضاقت بطلابها ، وعجزت عن تعليمهم بعد أن صارت تحشر كل سمائة فى مدرج ، وتسمح لخمسين طالباً أن يستديروا حول مريض واحد يفتح فمه ، فيحاولون مشاهدة ضرسه والطبيب يخلعه . لقد أصبح يجدر بشهادات التخرج أن تذكر أن فلاناً أمضى خمس سنوات

فى كلية كذا بدل أن تقول إنه تخرج فيها .

إننى أقترح على الدولة أن تفتح معاهد عملية يدخلها التلاميذ بعد الإعدادية ، فيتخرجون فيها سباكين أو برادين أو لحامين أو ميكانيكيين أو كهربائيين أو عمال تليفون . فالتلميذ إذا دخل المرحلة الثانوية أصبح من حقه أن يدخل معهداً عالياً أو كلية ، لأنه إذا لم يدخل تعطل ، وما دامت الدولة لا تستطيع توفير الأماكن لجميع التلاميذ فى الجامعات فعليها أن تنشئ طرقاً فرعية فى مرحلة مبكرة تخفف الضغط على الطريق العام .

إن الرئيس الخالد جمال عبد الناصر أقام السد العالى فى أسوان ولم يقمه فى دمياط ، وكما حفظ السد العالى مياه النيل من أن تذهب بدداً فى البحر ، كذلك تهيئ هذه المعاهد العملية لتلاميذها أمكنتهم ، وتحمى الجامعات من التزاحم ، وهو اتجاه يستند إلى الكفاية ولا يخل بمبدأ تكافؤ الفرص ، ويسد فراغاً قائماً فى الصناعة ، ويخفف زحاماً هائلا على الكليات ، خصوصاً بعد أن تعهدت الدولة بتوظيف خريجيها سنوياً فى شركات القطاع العام .

وترك صاحبنا عمله فى الجامعة إلى الصحافة فازداد إيمانه بوظيفتها الكبرى ، ولكنه ود لو أصبح كل محرر فنياً فى ميدانه ، فلا يكون مندوب الجريدة فى وزارة التعليم العالى إلا جامعياً ، ولا يكون مندوبها فى وزارة الصحة إلا من خريجى الطب أو الصيدلة . وفى وزارة الاقتصاد أو الخزانة أو التموين إلا من خريجى التجارة أو الحقوق .

إن المندوبين يختارون لصلاتهم بمنابع الأخبار . و بعض المحررين يعتمدون على رشاقة الأسلوب أكثر من اعتمادهم على المادة العلمية . إن أحد المحررين كتب يوماً فى جريدته عن قانون صدر فأثنى عليه وبشر بنتائجه الاقتصادية الطيبة ، ثم قابل صاحبنا فى نفس اليوم يسأله عن الحكمة من إصدار هذا القانون !

والصحفيون — وصاحبنا منهم — يتمتعون بمزايا قد تقتضيها طبيعة عملهم فى الانتقال واستخدام التليفون ، ويتمتعون بمزايا أخرى شخصية لا يجد صاحبنا مسوغاً لها . منها ألا تخصم من مرتباتهم نسبة حين يتغيبون بسبب المرض على خلاف سائر العاملين . ومنها أن إجازاتهم شهر فى السنة ، على حين يستحق العاملون معهم فى نفس الدار أربعة عشر يوماً فقط . إن هذه الطائفية فى الصحافة قد آن لها أن تزول فى ظل الاشتراكية . كما يجب أن تزول فى الجامعة امتيازات أبناء الأساتذة فى دخول الكليات .

وانتقل صاحبنا من الصحافة إلى صناعة الكتاب ، فراعه أن الناشرين يعنون بمادة الكتاب ولا يعنون بإخراجه وتسويقه . إن الكتاب سلعة ولو كره النظريون . والسلعة شكل ومحتوى ، والطلب عليها مشتق من شكلها ومحتواها .

إن عدم الاهتمام بتوفير الورق والحبر وآلات الطباعة الحديثة للكتاب المصرى أثر فى رواجه خارج الجمهورية العربية المتحدة ، فنزل توزيعه إلى ما يعادل ثلاثين فى المائة من مجموع الكتب العربية ، ولو كانت المادة وحدها كافية لبقى الكتاب المصرى فى مكانته الأولى .

والذى يدعو صاحبنا إلى هذا النظر إيمانه بأن العمل الناجح هو الذى يزيد الإنتاج ، فالإنتاج هو وعاء الحقوق ، والحقوق هى وعاء السعادة .

إن صاحبنا بهذا الإيمان يلقى نظرة راضية على ماضيه ونظرة باسمة على حاضره ، ونظرة مطمئنة إلى أيامه الباقية ، ثم يرفع بصره إلى السماء راجياً أن يوفق الله كل داعية إلى أن يسأل نفسه هذا السؤال :

هل من شأن هذا الذى أدعو إليه أن يزيد الإنتاج ؟

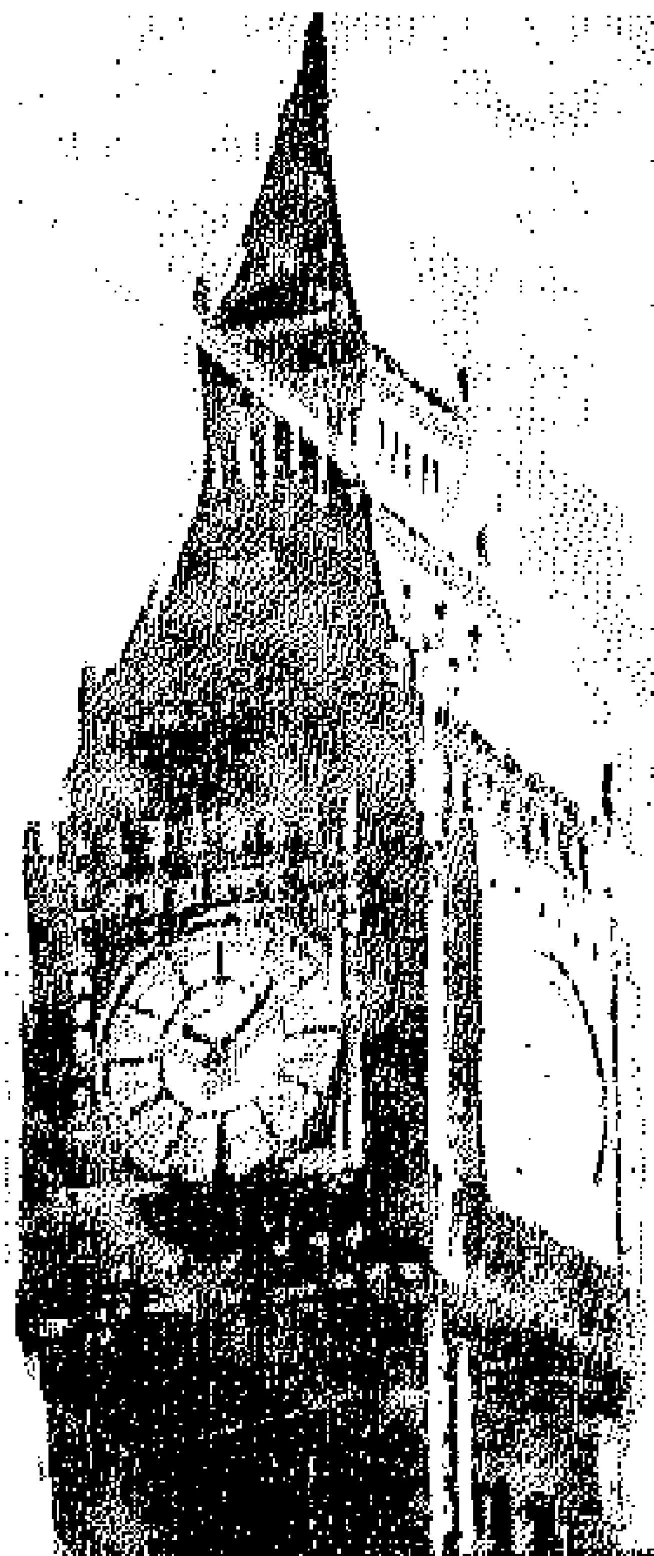
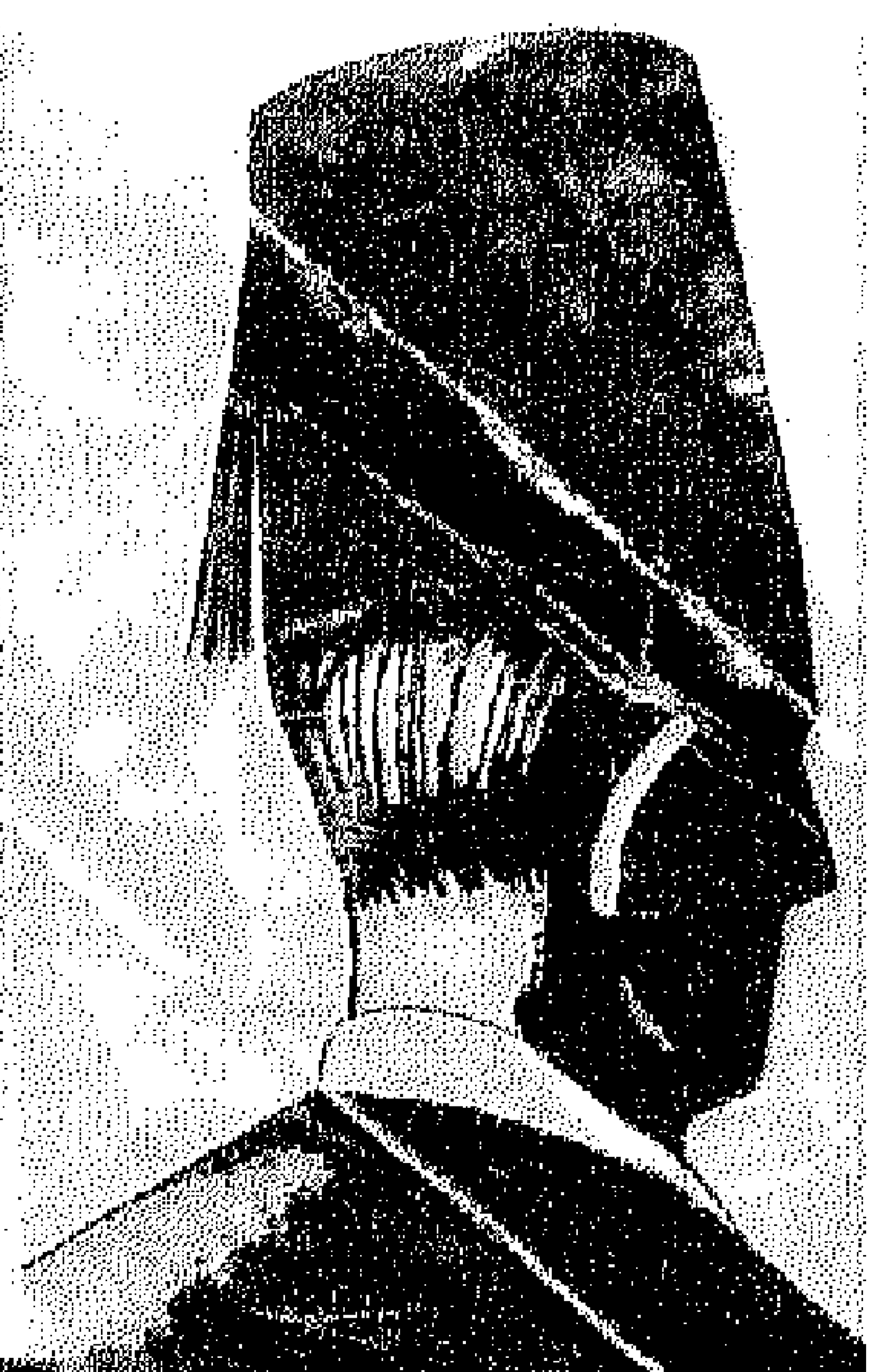
# فهرست



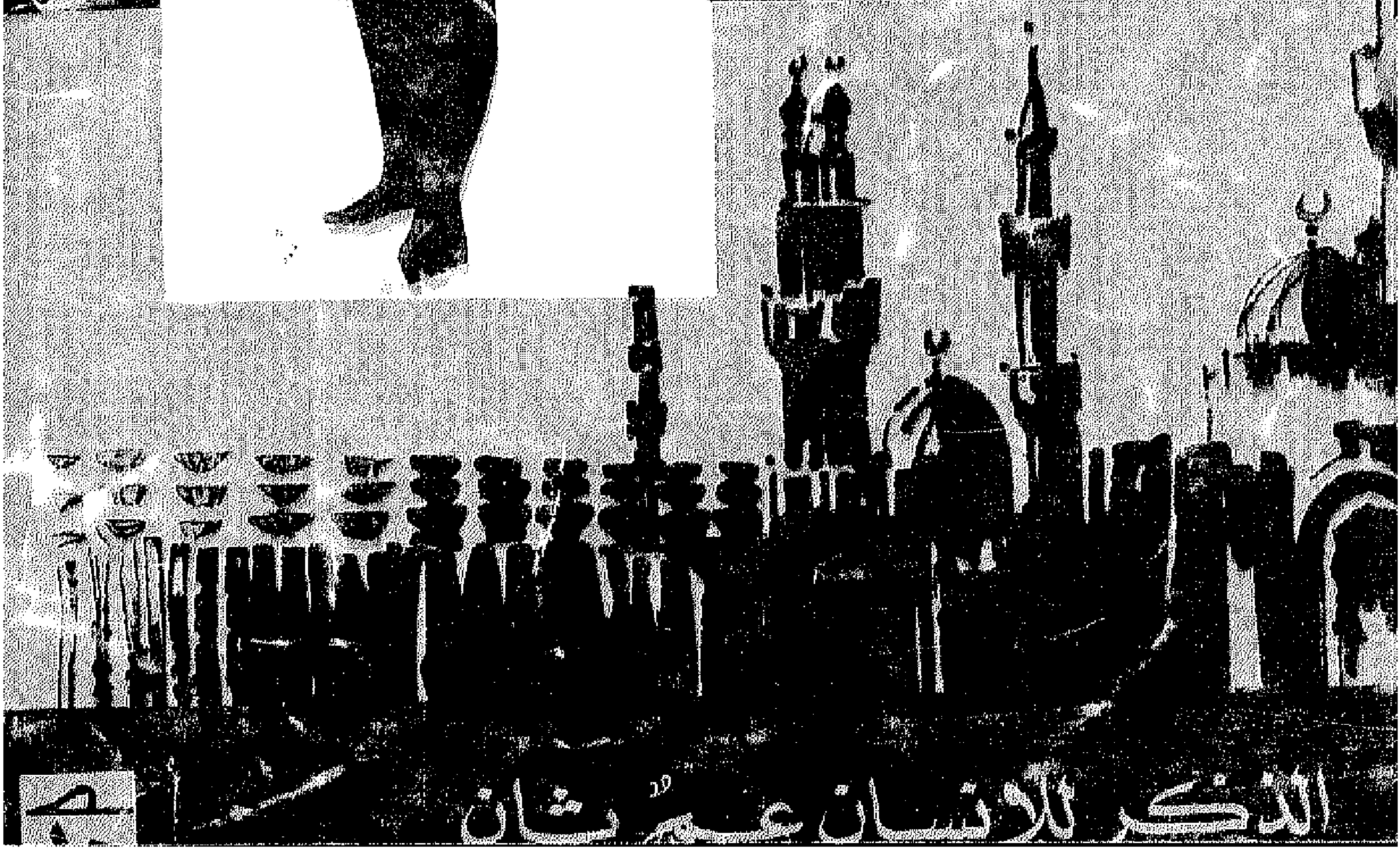

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ٢٣٣٦ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١




الذكر للإنسان عمرٌ ثان

اقرأ

توفيق الحكيم

# بنك القلق





تصدر فى أول كل شهر



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

توفيق الحكيم

# بنك القلق

اقرأ ٣٤٧
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٧ – نوفمبر سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

**ناطحة** سحاب عجيبة فى تركيبها .. يبلغ ارتفاعها خمسة أمتار . إنها ليست من أحجار . بل من آدميين استلقى أحدهم على ظهره فوق المسرح ، ورفع قدميه إلى أعلى . وجاء آخر فقفز فوق القدم اليمنى . وجاء ثالث فقفز فوق اليسرى . ورابع تسلق كتفى رجل اليمين . وخامس تسلق كتفى رجل اليسار . وإذا بسادس أو على الأصح سادسة حسناء ظهرت وانحنت تحيي الجماهير برأس فاحم قصير الشعر ، وقفزت هى الأخرى قفزة لا يدرى أحد كيف حدثت ، فإذا هى فى قمة هذا البناء الشامخ . ولم تمض لحظة حتى أقبل صبى يحمل صينية عليها أكواب وآنية بها شراب أحمر قذف بها هو الآخر فتلقفها أحد الرجال ، وظل يسلمها إلى الطوابق التى فوقه طابقاً طابقاً حتى استقرت فى يد الحسناء بالقمة فتناولتها ووضعتها على رأسها ، وصبت من الآنية الشراب الأحمر فى الكؤوس دون أن تستند بيدها . بينما جماهير الصالة تنظر وتصفق . .

# الفصل الأول

وقف أدهم سليمان قرب أحد الأبواب يشاهد مع المشاهدين . وكان قد دخل إلى الصالة خلسة ، مدفوعاً بالفضول والفراغ والصعلكة . لم يكن مظهره يوحي بأنه ممن يستطيعون حجز كرسي أو مائدة في هذا المكان . لكنه كان يملك الجرأة على اقتحام مثل هذا الملهى . ولقد أعد جواباً سريعاً لمن يسأله عن سبب وجوده . إنه تابع دخل يبحث عن متبوعه . سائق سيارة خاصة . رسول موفد للبحث عن متفرج محترم . وسيذكر أى اسم يخطر على باله . وباله هذا لم يخذله يوماً فى اختراع ما لا وجود له . رأس ملآن بالأفكار التى لا يقدرها أحد . شأن كبار المخترعين فى أول أمرهم . الفرق بينه وبينهم فى رأيه هو مجرد الحظ . وهو الآن فى انتظار هذا الحظ ، لأنه سوف يمر به حتماً فى مكان ما ، فى لحظة ما ، كشعاع من الشمس لا بد أن يقع على وجهك مرة — فى مكان ما ، فى لحظة ما — فى أثناء دوران الأرض الذى لا ينتهى .

على أن رأس أدهم سليمان مشغول الآن — بفكرة طرأت عليه وهو يتأمل ناطحة السحاب الآدمية هذه ، وقمتها رأس الآنية الزجاجية المملوءة تكاد تمس سماء المسرح ، ومن تحتها رأس الحسناء السمراء تطأ بقدميها طوابق من أكتاف رجال . كل ذلك راسخ كالبنيان . وكل هذا البنيان يمكن أن تطيح به سعلة صغيرة أو عطسة مفاجئة ! حقاً ! ماذا يمكن أن يحدث لو دهمت أحدهم عطسة ؟ سينهار بالطبع هذا البناء كله وينقلب الموقف البطولى إلى مهزلة ، فى طرفة عين ! لماذا لا يحدث هذا ؟ ما من أحد سمع أن هذا حدث مرة فوق مسرح . . مع أن هذا ممكن جداً . إن

أساس العمارة هذا . . ذلك الرجل المستلقى على ظهره رافعاً عموديه أى ساقيه ليحمل البناء مصاب ببرد مصحوب بزكام . وقبل المجىء الليلة فاتح تلك الحسناء فى ذلك . إنها زوجته . وليست مع ذلك زوجته . لقد طلقها مراراً وردها مراراً لسلوكها السيئ . عشاقها كثيرون تلك التى التقطها هو من الحانات والشوارع وعلمها ودربها . ما من شاب يحلو فى عينيها إلا وتهرب معه . فينفصل عنها الزوج ويتركها للمغامرة، إلى أن تنتهى الرغبة فتعود إليه صاغرة . ثم تهرب مرة أخرى ثم تعود . حياتها هروب وعودة . والزوج يقاسى وهى تقاسى . هو لا يدرى متى تستقر حياته الزوجية ، وهى لا تدرى متى تنتهى نزواتها ! . . . إنها لا تستغنى عن نزواتها ولا عن زوجها . الزواج والطلاق يتأرجحان باستمرار فى هذه الحياة البهلوانية . وهو للساعة فى استلقائه على ظهره متزوج منها ، ولكنه لا يدرى موعد الانفصال القادم ! . . فى الأفق شبح مغامرة جديدة . يشمها ولا يتبينها . هذا القلق النفسى الذى يعيشه . وهذا القلق الجسمانى من عطسة زكامه . . . كيف استطاع أن يسيطر عليه فى هذه اللحظة ؟ . . إن مجرد التفكير فى العطسة أو السعلة ، وتصور هذا البنيان الشامخ وهو « يتدربك » فوق رأسه بين ضحكات الناس فى الصالة ، لكفيل بأن يحدث الكارثة ! . . ولكنه سيطر على كل هذا فى تلك اللحظة . بماذا ؟ !

. . . وهذه الحسناء فى القمة ، عندها قلقها هى الأخرى . كل واحد من هؤلاء « المتشعلقين » فى الفضاء ، بل كل واحد من الناس فى الصالة له قصة قلقه . هكذا كان يفكر أدهم وهو مستند بكوعه إلى الباب ، لا يدرى متى يطرد من هذا المكان الذى دخله خلسة . وحول بصره إلى الصالة التى عبق جوها بعطور الغوانى والسيدات ، ممتزجة برائحة الكباب المشوى . . إلى تلك الموائد التى يجلس إليها

نساء مع رجال ذوى جيوب سمينة كضروع البقر على المذاود . أمامهم الطعام والشراب وآنية الثلج الفضية كأنها الجرة التى يحلب فيها لبن هذا البقر . والحالبات موجودات . راقصات وغانيات تدربن على الملاطفة والمداعبة والملاعبة فى أثناء حلب الجيوب ، فى صورة زجاجات وكؤوس تسيل بلا انقطاع ، مستعينات فى أعمالهن بسقاة « وجرسونات » واقفين عن قرب ، بين عيونهن وعيونهم سلك كهربائى أسرع وأبلغ من كل زر أو جرس . . كل من فى الصالة من حالب ومحلوب تبدو على وجهه صورة انفعالية واحدة أمام النمرة التى تعرض فوق المسرح . لكن خلف هذه الصورة الواحدة ، آلاف وملايين من الصور المتعددة غير المكررة لأنواع من قصص القلق النفسى والجسمانى ، تدمغ كل فرد بدمغة مختلفة كبصمات أصابع اليد . وقصة قلق أدهم سليمان من بينهم معروفة له بالطبع . سببها بسيط فى نظره ، وسيوضحها هو تفصيلاً فيما بعد . أما الآن فى هذا المكان فهو يريد أن يقرأ وجوه الآخرين ، ليحل رموز تلك الشفرة التى تخفى حقيقة الصورة الظاهرة . إنها هوايته . وربما كانت مصيبته . وربما كانت مصدر حظه الذى لم يشرق بعد . ها هى ذى الموائد أمامه بمن عليها من قطيع مشغول بالأكل والشرب . أما الفرجة فقد استطاعها بالمجان . لكن الطعام ؟ ! يحسن أن يتخيل طعمه من مجرد النظر ، كما تخيل قصص الآكلين . هذه الشريحة من اللحم المشوى محاطة بالبطاطس المقلى ، موشاة بالبقدونس فى طبق هذا الرجل البدين . يفتك بها فتكًا لا هوادة فيه . لعل خلف هذا عملية انتقامية . لا محل للاسترسال فى حياة هذا الرجل . كل ما يهم منه الساعة هو طبق لحمة . وعلى الرغم من أن قطعة اللحم تبدو عسيرة على السكين ، لرداءة الماشية أو كبر سنها ، إلا أن اسمها لحم ، وأدهم لا يذكر متى أكل اللحم آخر مرة . وهو بخياله المنطلق يستطيع أن

يتذوقها خيراً من الآكل الحقيقى . فها هى ذى السكين فى يده هو قد سارت فيها كما تسير فى الزبد . وها هى ذى تذوب فى فمه سائغة شهية فى حين أن ذلك الآكل الحقيقى سيصاب بعسر الهضم .

وشغل أدهم بقطعة اللحم فلم يفطن إلى مائدة أخرى فى صدر المكان ، ليس عليها طعام أو شراب ، عليها فقط أطباق فاكهة . وسوف يفطن إليها قطعاً عندما يريد التحلية . وهذا ما حدث بالفعل بعد قليل . لكن الذى أدهشه أن هذه الفاكهة لا تمسها يد . أو على الأصح تناول منها أصحاب المائدة القليل ، بأناقة ، وتركوها فى الحال ، وانصرفوا إلى المشاهدة . لم يكن على هذه المائدة غير سيدتين . سيدة شابة فى نحو الثلاثين ، أنيقة مليحة نافذة العينين ، لهما لمعان خاطف كبرق المغنسيوم . أما صاحبتها فسيدة تقترب من الخمسين ، محتشمة صارمة الملامح ، وإن كان عليها آثار ملاحة قديمة ذبلت . لم يكن الأمر يحتاج إلى فراسة أو خيال لإدراك حقيقة الحال . فهذه امرأة شابة مع أمها أو حماتها .لكن لماذا هما فى هذا المكان وحدهما دون رجل مصاحب ؟ . . أليس للشابة زوج ؟ لا يمكن أن تكون فتاة لم تتزوج بعد ، مظهرها مظهر زوجة . لعلها أرملة أو مطلقة . نعم هذا هو الأرجح . وهى ترتاد هذه الأمكنة على حريتها . وحدها مع أمها . نعم . لا يمكن أن تكون حماتها إذن .

وهذه الأم تتبع ابنتها المتحررة سعياً وراء زوج جديد . إن منظر هاتين السيدتين الأنيقتين بدون رجل قد لفت النظر فعلاً . لكن الوقار المحيط بهما قد أقام حولهما سياجاً . وكانت نظرات أدهم هنا أيضاً موجهة إلى الفاكهة . ولم يلتفت إلى تغير النمرة فوق المسرح . فهناك الآن رجل يلبس الفراك ويلعب فى الهواء بثلاثة أسياخ مشتعلة . والنار المتوهجة منها تنتقل بسرعة خاطفة من إحدى يديه إلى الأخرى ،

فتصنع فى الهواء دوائر متداخلة تصبح أحياناً كأنها حلقة واحدة كبرى من النيران ، ثم تنفرج وتتشكل فى صورة نافورة ملتهبة . كان لمنظر اللهيب هذا تأثير غريب على السيدتين . فقد اهتزتا فى مقعديهما . وخامرتهما فى وقت واحد فكرة النهوض السريع والانصراف ، كالهرب من شىء مخيف . لكنهما تماسكتا . ثم فاجأت كل منهما الأخرى بنظرة رعب لم تلبث أن انطفأت فى إطراقة ذات معنى . صورة النار لها ولا شك دلالة مشتركة بينهما ! وكان فزع السيدة المسنة أكثر عمقاً . وكأنها كانت تخشى تأثير النار على شىء ما فى أعماق السيدة الشابة . للنار قصة فى حياتهما إذن . قصة تريدان نسيانها أو تناسيها ، لكن عين أدهم كانت مركزة على طبق التفاح . فى أى تاريخ قبل الميلاد أو بعده وقعت فى يده تفاحة ؟

لا لزوم لإجهاد الذاكرة . إن الذاكرة عنده جهاز لم يعد يسترجع الماضى . إنه الآن يخلق صوراً حاضرة ومستقبلة . فهو غير قدير على تجميع أجزاء حياته الماضية . ولا جدوى فى ذلك عنده . لأنه لا يوجد عنده أمس . إنه قشة فى أمواج المجتمع . مجرد قشة . ولكنه لن يغرق . لأن القشة لا تغرق . إنه إذن مطمئن من هذه الجهة ، لكن هذا الاطمئنان نفسه غير مطمئن . هناك شىء أخطر من الغرق . شىء يشعر بوطأته هناك فى أعماق نفسه . على الرغم من هدوء السطح وصفاء الجو . هذا الوجه الخالى من الزوابع ، المشبع بعدم الاكتراث . لكنه يقاوم ... وأداته الابتسام . وهوايته أن يجعل القشة راقصة تلعب بالمرح فوق الموج . وها هى ذى النمرة فوق المسرح قد تغيرت . وظهرت راقصة تلعب ببطنها . فاستقبلتها الأيدى بالتصفيق ، والأفواه بالهتاف . وخاصة من رجل جالس فى الوسط بين غانيتين مبتذلتين تحلبان جيبه . رجل يبدو أنه حديث عهد بلبس البذلة . بذلة غالية الثمن لكنها

كالغريبة عنه ، يعلوها رباط عنق غير منسجم ، وأمام الرجل كؤوس كثيرة وأطباق دجاج محمر . لقد منع الجرسون من إحضار لحم . قال إن اللحم فى هذه الحال لا يؤكل . وهو أدرى . لأنه هو نفسه تاجر الماشية المورد لتلك اللحوم التى يروضها ويغازلها بسكينه ذلك الزبون البدين وتصيبه بعسر الهضم . نظر أدهم إلى ذلك التاجر ولم يحسده إلا على الدجاجة المحمرة . ثم انصرف عنه وبحث بعينيه عن للسيدتين فوجدهما قد غادرتا الملهى . والجرسون ينظف مائدتهما ويرفع أطباق الفاكهة .

وأقبل فتى وفتاة ، مراهق ومراهقة من أنصار الخنافس . جلسا وهما يسألان عن موعد انتهاء هذه النمر السخيفة وابتداء حلبة الرقص . لكن هذه النمر لم يزل فيها بقية . ها هى ذى الراقصة قد اختفت . وحل محلها ممثل خفيف الظل يقوم بحركات من يديه وقدميه وحواجبه وعينيه ، ويحكى حكايات فكاهية ويلقى نكات هزلية ، يضحك عليها هو أولاً فتضج بعده الصالة كلها بالضحك . من سمع ومن لم يسمع . ومن كان مشغولاً بأكل أو شراب أو مغازلة قهقه أيضاً ثم سأل الرفاق عن النكتة ! وانتهى عرض النمر بالتصفيق الحاد . وصعدت على المسرح فرقة جاز بالسكسفون والجيتارات . وفى غمضة عين انفسحت بين الموائد حلبة رقص ، امتلأت وتلاحمت بأجسام مراهقين ومراهقات لا يدرى أحد أين كانوا ولا من أين طلعوا ! .. وانضم إليهم من الرجال والنساء من جاوز الشباب وبلغ الكهولة ولم يخرج عن نطاق المراهقة . وحمى وطيس رقص محموم اهتزت فيه الأكتاف وتخلعت السيقان ، وخيل للرائى أن أجزاء الإنسان تتطاير منفصلة فى المكان . والأفواه تصيح بكلمات لا معنى لها . . تويست . . هالى جالى . . شيك . . والصالة كلها ــ الجالس ، والراقص الرزين ، والخفيف ــ قد أصابتهم كلهم عدوى الجنون العام . لقد انقلبت الصالة كلها قطعة واحدة كبيرة

من المتفجرات الحية . ما هى العواطف الداخلية التى فجرت هذا كله ؟ ما الذى جرى للناس ؟ . . وقف أدهم سليمان ينظر إلى ما حوله ويحلل لنفسه عناصر هذه الحالة . كل هؤلاء ولا شك ليسوا فى حالة طبيعية . ما من أحد الآن فى حالة طبيعية . لماذا ؟

وسكتت الموسيقى فجأة . بغير مقدمات ولا مناسبة ، كما بدأت . شب الضجيج كومضة . ثم انطفأ كومضة أيضاً . وإذا كل من فى الحلبة قد تصبب عرقاً ، وانسحب إلى موائده فى استراحة قصيرة ، ملأها ظهور مغنية تلقى منولوجها المعروف :

وردتى يا وردتى
شم الغرام فى وردتى
ريحة الحبيب بذمتى
تلقاها جوا وردتى

وكانت تحمل بالفعل سلة فيها ورد ، تلتقط منه وتقذف به الجالسين . وتركت المسرح ونزلت الصالة ، تسير بين الموائد تغنى أغنيتها وتنثر وردها أو تقدمه بنفسها إلى صاحب الحظوة من زبائنها ، أو من كتب له السعد أن يظفر بالتفاتها . لم يبق فى الصالة أحد لم يخرج عن رزانته . الجميع يشبون ويشرئبون طلباً للورد أو للمغازلة أو لمجرد الزياط والفرفشة . الصاحى منهم والسكران . شخص واحد فقط بين كل هذا الحشد الزاخر والموج المادر ما تحرك من موضعه . هو بالطبع أدهم سليمان . ظل فى موقفه كتمثال . وقد بدا كمخلوق غريب فى ثباته بين هذه الحركة المائجة . كانت المغنية قد اقتربت منه . ولاحظت جموده فألقت إليه بوردة فيمن ألقت . وتهافت الآخرون . أما هو فلم يتحرك . ولم يعن بالنظر إليها ولا بالتقاط وردتها . وتركها تسقط عند قدميه . وتعجبت المغنية وأقبلت عليه ، ومدت يدها إليه بوردة

أخرى . لكن التمثال لم يتحرك . فهزته بيدها مستغربة : أيوجد من يرفض وردتها ؟ لم تظفر منه برد . وكان الناس قد بدءوا يفطنون إلى طول وقوف المغنية أمام ذلك الشاب النحيل ، الذى لا يبدو عليه تأنق ولا يسر حال . فصوبوا إليه الأنظار . وبدأ التهامس . ثم علا اللغط وتساءل الناس : ما هذا ؟ . . من هذا ؟ . . ولم تجد المغنية حيلة مع هذا الشاب الغريب . ورأت أخيراً ببديهتها الفنية والمهنية أن تخرج من هذا الموقف بشبه نمرة مسرحية ، فتناولت زجاجة صودا « سيفون » موضوعة على مائدة قريبة . وقالت مع ضحكة رنانة : « حضرته حران ويلزم له دش بارد ! » ورفعت الزجاجة إلى رأس أدهم وضغطت على مفتاحها ، فاندفع ما فيها من غاز فوّار ملأ وجهه بالزبد والحبب . فضج الجمهور بالضحك وتحركت الأكف بتصفيق الاستحسان للنمرة المرتجلة. ومع ذلك ظل أدهم بغير حراك . لم يلفظ حرفاً . ولم يرفع يداً لمسح وجهه. وانصرفت عنه المغنية وهى تهز كتفيها . عادت إلى مسرحها تتبعها العيون . وانصرف اهتمام الناس عن أدهم . وأحس أن أحداً لم يعد ينظر إليه . فأخرج منديله وجعل يمسح رأسه ويجفف وجهه . ثم ترك مكانه وانسل خارجاً من الملهى .

كان الجو فى الخارج لطيفاً. فهى ليلة من ليالى مايو القاهرية . كان السير على كورنيش النيل ممتعاً . وقد كثرت خاوات العشاق على مقاعده الحجرية . التصق كل فتى بفتاته. وأدهم يمر بهم ويرى النتيجة بعين الغد . أزمة مساكن ومواصلات ومواد استهلاكية ! .. هذا هو حاصل الجمع والطرح والقسمة فى العمليات الغرامية لعصرنا الحاضر . ما يقلق العاشقين الآن هو كيف يجتمعان . وعندما يضمهما سقف واحد ويتعرى بينهما كل شىء يلبس القلق ثوباً جديداً . .

تعب أدهم من السير . واستبعد فكرة العودة إلى مسكنه . فهذا

المسكن أو الجحر أو الشقة الصغيرة فى ذلك البناء القديم بحارة ضيقة من حوارى شارع محمد على لا تدخله الآن نسمة هواء . ثم إن المصباح ليس به نقطة جاز . إنه بالطبع لا يستعمل الكهرباء حتى لا يتشرف بزيارة قارئ العداد ومحصل النور . وما حاجته إلى نور ، وهو لا يدخل مسكنه قبل الفجر ، ما دام التسكع فى الطرقات مباحاً ، والشوارع بالليل مضاءة . لا بأس من النوم نهاراً . ولا بأس عند الضرورة من تعسيلة قصيرة تحت قبة هذه الشجرة ، فوق هذا المقعد الحجرى الخالى . . واتجه بالفعل إلى مقعد يلقى عليه جسمه المتعب . لم يكن المقعد خالياً تماماً . هناك شخص يجلس عند أحد طرفيه . يجلس بلا حراك هو الآخر . فى نعاس لذيذ على ما يظهر . إذن فليجلس هو على الطرف المقابل . لن يزعجه شىء . وجلس وتنفس براحة فى تنهد طويل ، وبصره يحتضن النيل كله أمامه احتضان المالك لملكه . ويبدو أن صوت تنهده كان مرتفعاً واضحاً ، فأيقظ النائم إلى جواره وجعله يلتفت إليه ويحملق فيه . حملق كل منهما فى صاحبه . وهنا انطلقت من كل منهما صيحة فى نفس الوقت . . .

# المنظر الأول

(أدهم والشخص الآخر وقد اقترب أحدهما من الآخر فوق المقعد الحجرى . . . )

أدهم : ( صائحاً بدهشة ) شعبان جاد عوضين ! . .

شعبان : ( بنفس الصيحة ) أدهم سليمان ! . .

أدهم : صدفة سعيدة ! . .



شعبان : صحيح . والله زمان ! . . سنين فاتت تجرى ! . .
أدهم : من أيام الكلية . . فاكر ؟
شعبان : طبعاً فاكر . . كلية الحقوق . . أيام لا يمكن أن تنسى .
أدهم : كنا والله طلبة مجتهدين . لكن الحظ .
شعبان : أنت سقطت فى كم مادة .
أدهم : أنا أسقط فى مواد .
شعبان : ولا أنا .
أدهم : يظهر أن الحال من بعضه . وما حصل لى حصل لك .
شعبان : تمام والله ! . . وأنت ماذا حصل لك ؟ . .
أدهم : أقول لك . . أنا يوم الامتحان ذهبت وكلى أمل واستبشار . أحمل أقلامى وأدواتى مما جميعه . ومذاكر المقرر على خير ما يكون الطالب المجد المجتهد . جلست فى مقعدى . ومر علينا المراقب يوزع الأسئلة نظرت فى ورقة الأسئلة فوجدت العجب . .
شعبان : ماذا وجدت ؟ . .
أدهم : لم أجد فيها كتابة على الإطلاق !
شعبان : كانت خالية ؟
أدهم : كان فيها فقط رسم . . صورة واحدة . صورة حمار بأذنين طويلتين يخرج لى لسانه ! . .
شعبان : عجيبة ! . . وماذا حدث ؟
أدهم : قمت بالطبع منتفضاً . وصحت فى المراقب وعرضت عليه الورقة . . والحمار المصور فيها . فقال لى بكل تبجح إنها صورتى أنا . .
شعبان : أما إنه رجل سمج وبلط صحيح ! . .

أدهم : والأكثر من ذلك أنى عندما أفهمته بكل أدب أنى أنا لست واضع الأسئلة ، وأنه إن كانت هذه صورة أحد فلا بد أنها صورة الممتحن ، ما كان منه إلا أن طردنى من قاعة الامتحان . فخرجت بلا عودة ! . .

شعبان : عملت طيب .

أدهم : وأنت؟ . . ماذا حصل لك ؟

شعبان : نفس الشيء تقريباً . ذهبت يوم الامتحان . مثلك بكل اطمئنان . أحمل أقلامى وأدواتى ومذاكر المقرر إلى آخره . . إلى آخره . . وإذا بهم يقولون لى : صح النوم أنت جئت متأخراً عن يوم الامتحان أسبوعاً . وعليك أن تشرف فى العام القادم . فلما جاء العام القادم ذهبت إليهم بأقلامى وأدواتى . . إلى آخره . . إلى آخره . . فقالوا لى بكل بجاحة : أنت حضرت مبكراً عن يوم الامتحان أسبوعين . فلم أطق هذا التلاعب . وصحت بهم غاضباً : عندما تعرفون ضبط مواعيد كم أخبرونى ! . . وتركتهم وذهبت بلا رجعه ! . .

أدهم : عملت طيب .

شعبان : نهايته . ما علينا من كل هذا التهريج . . معك سيجارة ؟

أدهم : معى كبريت .

شعبان : كبريت فقط ؟ . .

أدهم : فقط لا غير . وعلى الأصح عود واحد كبريت . وعلى الأرجح أنه منطفىء ! . .

شعبان : عود واحد كبريت ومنطفىء . . ولماذا تحتفظ به ؟ . .

أدهم : أحتفظ به . . لأن الاحتفاظ قانوناً مظهر من مظاهر الامتلاك . أنا إذن أمتلك شيئاً . وهذا هو عندى رمز الملكية.

شعبان : الملكية المنطفئة !

أدهم : الملكية هى الملكية . وهذا هو رمزها عندى . وهذه مزية لا يستهان بها .

شعبان : مفهوم .

أدهم : لا يبدو عليك أنك مقتنع .

شعبان : الواقع أن امتلاك عود كبريت هو فى حد ذاته لا غبار عليه . لكن كونه منطفئاً . . مسألة تحتاج إلى بعض الشرح !

أدهم : أشرح لك . . معنى كونه منطفئاً هو أنه كان قبل ذلك مشتعلاً . لأن الانطفاء منطقياً لا بد أن يسبقه اشتعال . فعود الكبريت الذى معى كان إذن فى يوم ما قابلاً للاشتعال . ولهذا المعنى مزية لا شك فيها .

شعبان : مفهوم . مفهوم .

أدهم : وأنت ؟ . . بماذا تحتفظ ؟

شعبان : بكل المزايا التى تحتفظ أنت بها .

أدهم : عظيم .

شعبان : بالاختصار أنا وأنت ممن ينطبق عليهم قانوناً ومنطقاً وصف : مفلسين !

أدهم : بالضبط .

شعبان : لاحظ أن انطباق أى وصف على أى شىء أو أى شخص هو أيضاً مزية من المزايا .

أدهم : تمام .

شعبان : الحمد لله على كل هذه النعم ! . .

أدهم : اسمع . . أنا عندى فكرة .

شعبان : بخصوص السيجارة ؟ . .

أدهم : لا . . لا . . فكرة نيرة ! . .

شعبان : تقصد مشتعلة . . سابقًا ؟ !

أدهم : أنا الآن أتكلم بجد . . افتح أذنيك جيداً واستمع إلى ما أقول. لأن هذه الفكرة مهمة جداً . وليست بنت ساعتها . إنها تراودنى من زمن . وكنت أتحين الفرص لوضعها موضع التنفيذ . كان ينقصنى زميل يساعدنى . والآن بوجودك أصبح العمل ممكنًا . إنها فرصة العمر . .

شعبان : فرصة العمر ؟ ! أسرع بها من فضلك ! .

أدهم : تأكد يا شعبان أنها فرصتنا الوحيدة فى الحياة . . أنا وأنت . .

شعبان : ما هى ؟ . . انطق ! . .

أدهم : هى أن نؤسس بنكًا .

شعبان : نؤسس ماذا ؟

أدهم : بنكًا . . « بنك » ، أى مصرف . . ألم تسمع عن كلمة بنك . . بنك مصر . . بنك إنجلترا . . بنك فرنسا . البنك الأهلى . . بنك . . بنك . . بنك . .

شعبان : آه . . .

أدهم : لماذا تقول آه ؟ !

شعبان : لأن الكلام معقول .

أدهم : الواقع أن الفكرة فى غاية البساطة . وغاية الوضوح . وقد وضعت يدى عليها تمامًا .

شعبان : وضعت يدك عليها ؟ !

أدهم : تمامًا . . وأعتبرها الآن فى جيبى .

شعبان : فى جيبك ؟ ! الحمد لله ! . .

أدهم : أتعرف من هو أول من ابتكر فكرة البنك ؟ . .

شعبان : من هو ؟

أدهم : مفلس عبقرى . مثلى ومثلك .

شعبان : فعلاً هذه الصفات تنطبق علينا .

أدهم : انتهينا . نستخير الله إذن ونفتح البنك . موافق ؟

شعبان : موافق طبعاً . ما دمنا حائزين للشروط .

أدهم : هيا بنا إذن ! . .

شعبان : هيا بنا ! . .

أدهم : أتعرف ما هى عمليات هذا البنك ؟

شعبان : لا .

أدهم : إذن انتظر حتى أشرحها لك .

شعبان : تفضل ! . .

أدهم : قل لى أولاً ما هو داء عصرنا الحديث الذى يشكو منه أكثر الناس ؟

شعبان : الإفلاس .

أدهم : هذا طبعاً داء . لكن داء العصر الذى أقصده يصاب به أيضاً الأغنياء والفقراء على السواء .

شعبان : السرطان .

أدهم : لا . إنه داء نفسى يصيب الروح .

شعبان : ما هو ؟

أدهم : القلق . البنك الذى سنفتحه سيتعامل فى القلق . معاملاتنا ستكون فى صنف القلق .

شعبان : صنف القلق ؟

أدهم : نعم . كما تتعامل البنوك الأخرى فى صنف النقود . إنها تقرض وتقترض فى نفس الوقت . تقرض بفائدة كبيرة وتقترض

بفائدة صغيرة . والفرق هو مكسبها . نحن أيضاً سنعالج ونتعالج فى نفس الوقت ــ نعالج بأجر كبير ونتعالج بأجر أصغر . والفرق هو مكسبنا . فهمت ؟ . .

شعبان : فهمت . لكن . . يعنى المطلوب منا أن نكون أطباء ومرضى فى نفس الوقت .

أدهم : بالضبط .

شعبان : وإذا رفض الزبون علاجنا ؟ . . إذا قال إنه غير مختص .

أدهم : ما من أحد يرفض علاج أحد فى هذه الأمور . يكفى أن تعرض متاعبك الداخلية على الغير لينقلبوا نصحاء وأطباء ، بقدرة قادر ، بعلم وبغير علم !

شعبان : الواقع أن فكرة هذا البنك بدأت تدخل عقلى . . الظاهر أنك استفدت من دروس الاقتصاد السياسى ! . .

أدهم : وأنت ماذا كنت تفعل فى كلية الحقوق ؟

شعبان : كان كل اهتمامى بدروس الشريعة والزواج والطلاق والنفقة . لأنى وأنا بالكلية كانت على ذمتى زوجة أنوى طلاقها .

أدهم : والآن تحررت طبعاً .

شعبان : الحمد لله . تخلصت منهن جميعاً .

أدهم : منهن جميعاً ؟ ! كن إذن أكثر من واحدة ؟ !

شعبان : بالطبع كن كثيرات ، بعد أن تركت الدراسة وسرت فى الحياة . لعنة الله على النساء . ابتليت والعياذ بالله بداء النسوان . كلما رأيت واحدة لم أملك أعصابى . صرت أضم الواحدة إلى الأخرى فى سبحة الزواج ، حتى أصبحت السبحة طويلة . كنت أسبح بهن جميعاً . . واحدة . . اثنتين . . ثلاث . . أربع . .

أدهم : أربع ؟! . .

شعبان : على ذمتى . والخامسة « ستبن » . موجودة تحت النظر لتحل محل من تطلق . .

أدهم : ومن أين تأتى لهن بأكل ؟ . .

شعبان : كل واحدة تؤكل نفسها . كن كلهن موظفات وعاملات . وأنا أيضاً أؤكل نفسى . عملت فى مختلف المهن والأشغال . حتى الكرة . اشتغلت فى ناد رياضى . كنت أريد أن أكون لاعباً . ونجحت فى الالتحاق بالفريق . وإذا بهم يقولون لى بعد أول مباراة إنى كنت ألعب بالقدمين واليدين فى وقت واحد . وحولونى إلى الأعمال الإدارية للنادى . ولكنى تركتهم واشتغلت بالسمسرة فى شركات تأمين . ثم موظف فى شركة إعلانات . ثم وكيل للمحامين الشرعيين . لأن نفقة المطلقات دوختنى . وأخيراً عشت منفرداً كما ترى . ألتقط اللقمة حيث أجدها — أى لقمة . والمرأة حيث تسمح الظروف . أى امرأة . ولتحى الحرية ! . .

أدهم : نعم . فلتحى الحرية !

شعبان : وأنت ؟ . . ألم تتزوج ؟

أدهم : لا . أبداً . . عملت فى الصحافة . . مخبر يأتى بأخبار المجتمع . ونجحت إلى حد ما . إلى أن قالوا لى أخيراً إن جميع أخبارى أؤلفها بخيالى وأنا على مكتبى . وسحبوا منى العمل وأنزلونى المطبخ .

شعبان : مطبخ الأكل ؟

أدهم : مطبخ الجريدة . عمل روتينى سخيف . تركته لهم وخرجت أهيم على وجهى بكامل حريتى .

شعبان : إذن نحن الاثنين أحرار .

أدهم : نعم . لنختار العمل الذى ينبع من صميم عبقريتنا . وقد وجدناه والحمد لله .

شعبان : البنك .

أدهم : نعم . والآن قم بنا نعد العدة للتأسيس . أولاً يلزم لنا إعلان .

شعبان : أين سيكون مركزه الرئيسى ؟

أدهم : أين تسكن أنت ؟

شعبان : الآن مؤقتاً فى حجرة بسطح عمارة فى حارة . .

أدهم : لا . . . لا . . . لا . . . حجرة فوق سطح ، بحارة . . . هذا لا يمكن .

شعبان : وأنت ؟ أين تسكن ؟

أدهم : أنا أحسن منك على كل حال أنا فى شقة من حجرتين ومدخل .

شعبان : عظيم . إذن شقتك هى مركز البنك . أعطنى العنوان وأنا أتكفل بالإعلان . هذه شغلتى .

أدهم : ستعلن فى الصحف ؟ . .

شعبان : لا . . . لا . . دعك من الصحف . . إنها تتكلف نقوداً . ونحن كما تعلم لا نتعامل بالنقود . . اترك إعلانات الصحف هذه لبنك مصر والبنك الأهلى . أما بنكنا نحن فيجب أن تكون طريقة إعلانه مبتكرة ونابعة من صميم عبقريتنا !

أدهم : كيف ؟

شعبان : ستعرف ذلك فيما بعد . هذا شغلى . المهم الآن صيغة الإعلان ،

أدهم : معك ورقة وقلم ؟

شعبان : طبعاً لا .

أدهم : الصيغة على كل حال لن تخرج عن هذا المعنى : القلق ، كلنا مصاب بالقلق من أجل شيء ما . إذا كنت مصاباً بقلق فاحضر إلينا نعالجك . وإذا لم تكن مصاباً فاحضر إلينا وعالجنا . وهى تجربة طريفة . فلا تضيع فرصة هذه التجربة .

شعبان : جميل . هيا بنا الآن نعاين المركز الرئيسى .

أدهم : تقصد شقتى . إنها لا ترى إلا فى مطلع الفجر .

شعبان : إذن قم بنا نعاين الشوارع التى ستلصق بها الإعلانات .

أدهم : وهل ستلصق إعلانات شوارع ؟

شعبان : طبعاً . . افتتاح بنك !

أدهم : لكن . .

شعبان : ولا كلمة ! . . قم بنا فى الحال نباشر مهام أعمالنا !

( ينهضان ويسيران . . )

# الفصل الثانى

سار الزميلان فى الشوارع متلكئين . أحياناً يكلم أحدهما الآخر كلاماً مقتضباً . وأحياناً يكلم كل منهما نفسه . وأحياناً يصمتان ويشردان ، وفى كل الأحيان تحصى عين شعبان أكشاك السجاير ، ويرقب بنفاد صبر طلوع الفجر . حتى يستطيعا أن يدخلا ذلك الجحر . شقة أدهم . عدوة الليل . ولم يكن هرب أدهم من شقته ليلاً يخلو من فائدة . ما من أحد استطاع أن يعرف حياة الشوارع ليلاً مثل أدهم . إنها معرفة ألفة وصداقة . لا معرفة ضرورة . إنه يمشى فيها إلى غير هدف . يتمهل فى أحشائها بغير استعجال للنور . ويتباطأ فى الخطى دون رغبة فى وصول . وكلما وجد نفسه الصاحى الوحيد وسط الشوارع الساكنة خيل إليه أنها لا تعرف أحداً غيره . وكل تلك البيوت النائمة والحوانيت الهامدة إنما هى أطفال تهجع فى أحضانه الساهرة. وهذه التماثيل الواقفة تخطب فى الظلام لجموع وهمية ، هو وحده الذى يستمع إليها . هو الوحيد الآن الذى يمكن أن تقوم بينه وبينها علاقة وحوار . وكلما مر ليلاً بتمثال طلعت حرب مؤسس بنك مصر قال له : « تكلم . . تكلم . . إنى مصغ إليك . ولا فرق الآن بينى وبينك ، فما فى جيبى يساوى الآن بالتمام ما فى جيبك » .

على أن هناك فوق ذلك متعة أخرى قلما ظفر بها غيره فى تلك السويعات المهجورة ، هى متعة الاستماع إلى الطيور عند استيقاظها ، إنه حريص على أن يمر دائماً عند بزوغ الفجر قرب حديقة الأزبكية . هناك تبدأ فى العزف أوركسترا الطيور . تطلق العصافير أولاً زقزقاتها

الوترية ، يصاحبها لحن قرار من ذكر الحمام ، ثم تدخل ميلودية رقيقة من هديل اليمامات ، تقطعها أصوات معدنية من صرخات الحداءات ، ترد عليها قعقعة صماء من نعيق الغربان ، تلطفها خلفية هامسة من هدهدة الهداهد ، ويتخللها بين حين وحين صفير من ناى العندليب . . سمفونية مرتجلة تضعها فرقة كاملة مؤتلفة فنياً مع تنافر أنواعها ، وتؤديها أداء محكماً كل فجر ، ولا يسمعها أحد غيره .

فالمستيقظ فى تلك الساعة إما مؤمن يهرع إلى صلاة الفجر فى أقرب مسجد ، فهو مشغول بصلاته . . وإما مخمور خارج لتوه من حانته ليؤوى إلى فراشه ، فهو فى غير وعيه . . وإما عامل ذاهب إلى مصنعه ، فهو يفكر فى مواعيد العمل وزحمة المواصلات . . وإما فلاح يسرح إلى غيطه ، فهو يسوق أمامه جاموسته وحماره ، ويصغى إليهما أكثر من إصغائه إلى للطيور ، فلديه ما يشغله عن موسيقى الطير . إلا إذا كان شاعراً . كما كان فى طفولته أدهم سليمان أبو حوايه . لقبه « أبو حواية » هذا حذف عند التحاقه بالمدارس . لكنه عندما كان طفلاً بقريته ( كفر عنبة ) لم يكن عريف الكتاب يناديه إلا بالولد أبو حواية .

فى تلك الأيام كانت صلته وثيقة أيضاً بالفجر . كان يحب سماءه الرمادية ، ثم اللون الأرجوانى الصاعد فوق الأفق شرقى الترعة . على أن الذى كان يسحره حقاً هو صوت القبرة ، ورد أبى فصادة ، فيقف يتلكأ قربهما وتحت إبطه ربع القرآن واللوح الإردواز . وفى عودته يترك رفاقه الصغار ويجلس على شط الترعة يلعب فى الطين ويصنع تماثيل صغيرة للقبرة وأبى الفصاد . إلى أن مر به ذات يوم حمار يشرب بجواره من الترعة ، وفوقه غازية غجرية خلفها طبالها وزمارها . قالت له وهى تشاهد طيور الطين إنها تستطيع أن تصنع له جملا . جملا كبيراً من الجريد . جريد النخيل المعرش أمامه على حافة الأجران . فما إن سمع منها ذلك

وأدار الصورة فى مخيلته حتى تعلق بها وتشبث بذيل حمارها ، وسار خلفها من قرية إلى قرية . ونسى كتابه وعريفه وبيته وأمه وأباه الشيخ المزارع الطيب . وظل غائباً يومين وأهله يقيمون الدنيا ويقعدونها ! . . إلى أن عثر به أحد أهالى قريته فأمسك به وأعاده إلى أهله . إنه متشرد من يومه ، هكذا قال فى نفسه وهو سائر صامت إلى جوار زميله شعبان . وكم خيب آمال أهله فيه .

وتذكر والده الشيخ عبد الصمد أبو حواية وفدادينه الخمسة التى يستأجرها فى أطيان البك الكبير عادل بك عاطف الوجيه الأنيق . وقفته المهيبة كانت تبهره هو وبقية أطفال القرية . أنظارهم كانت تتعلق بالمقبض الذهبى لشمسيته وهو يشرف بنفسه على جمع القطن فى شهر سبتمبر من كل عام . الشهر الوحيد الذى يجىء له من القاهرة مع أسرته . زوجته الحسناء وأختها الصغرى اليافعة وابنته الطفلة مرفت . كان يسمع الخدم ينادونها مرفت هانم أو الست الصغيرة مرفت ، وهى تلح وتبكى لتركب حصان البك الكبير . كانت فى الرابعة وكان هو فى العاشرة . يراها بعيدة مثل ثمرة البرتقال والرمان والجوافة التى تمايل فوق الأشجار من خلف سور الحديقة المحيطة بالسراية . هكذا كانوا يسمون الفيللا التى يقطنها البك . مرة واحدة غامر وتسلق السور ومد يده إلى ثمرة جوافة قطفها من غصنها المتدلى ، ولمحه الخولى وقامت الضجة وأجرى التحقيق . وسمع من يقول إنهم سيوقعون غرامة على أبيه — ما زال يرن فى أذنه صوت أبيه المتألم : « ليه يا ابنى ليه ؟ » لكن القطوف الدانية فوق الشجر أتوجد يد طفل تقاوم إغراءها ؟ !

ولكنه أيضاً يرى أباه وقد جروه ذات صباح إلى سجن المركز بتهمة التبديد . كان أبوه يصيح قائلاً إنه معترف ولا ينكر بيعه قطنه المحجوز عليه لعدم سداد الإيجار . كان ذلك يا ناس ضرورياً لتجهيز ابنته

الكبرى للزواج . ها هوذا الصندوق الأحمر يتراءى لعين الطفل . كان موشى بزخارف طالما لعب فيها خياله . وإلى جوار الصندوق مرتبة ولحاف ببوشه . وحلل وطست نحاس أحمر . ثم ثوب من القطيفة السوداء ومكحلة نحاسية صغيرة ، وزوج غوايش ذهبية وزجاجبة ونميسة ذهب بجلاجل . ولكن رنين صوت أبيه ما زال فى أذنه وهو واقف يستعطف قرب باب السراية ، ثم يضع كفه على رأس طفله ويرفع عينيه إلى السماء داعياً : ليس بكثير عليك يارب أن تجعل ابنى من الحكام ، فى يده أمر السجن والإفراج ! . .

ولقد أصر فعلاً على تعليم ابنه . أرسله إلى خاله فى القاهرة . عطار صغير فى خان جعفر ، ونجح أدهم فى كل مراحل التعليم . لم يبخل عليه أبوه بكل ما استطاع من مصروف ، ولا والدته بكل ما استطاعت من تدبير المؤونة من جبن وبيض وبتاو وبرام أرز تصله من حين إلى حين . وعندما التحق بكلية الحقوق باع والده الجاموسة لينفق عليه . لكنه كان قد بدأ يقرض الشعر . ويعتنق آراء غريبة ، ويرى الدنيا بعينه الخاصة . ومات والده وفى قلبه حسرة يوم علم أنه ترك كليه الحقوق واشتغل بالصحافة . ثم اعتقل . ثم أفرج عنه وعاد إلى الصحافة . . ثم لم يعد أحد فى قريته يسمع عنه شيئاً . انقطعت صلته بأهله . قيل له وهو فى المعتقل إن أمه أيضاً ماتت . لم يبق له أحد يهمه سوى أخته الكبرى التى تزوجت وسمع أن زوجها الفلاح قد ملكوه خمسة أفدنة فى الإصلاح الزراعى ، لكنه الآن بعيد كل البعد عن كل ذلك . دنياه الآن مختلفة . ورأسه يموج بأفكار . . وأفاق أدهم فجأة والتفت إلى زميله شعبان فوجده يسير هو الآخر تاركاً العنان لهواجسه . وربما هو أيضاً لذكرياته . كانت مصابيح الشوارع لم تزل ترسل أضواء خافتة أمام بواكير الصباح : قال له آن الأوان لتشريف الشقة . واتجها بجد نحو شارع محمد على .

لم يكن أدهم يعرف شيئاً عن أسرة شعبان جاد عوضين ولا عن نشأته . كل ما يعرف عنه أنهما كانا زميلى دراسة فى الكلية . ثم زميلا تشرد الآن . ولما نكشه قليلاً ليفضى إليه بشىء ، أجابه باختصار أن والده كان براداً فى عنابر السكة الحديد ، ثم تركها واشتغل عند ميكانيكى سيارات إيطالى ، ثم استقل بورشة صغيرة عبارة عن دكان واحد فى حى باب الخلق . وأن له أخوين أكبر منه ، استمرا فى الدراسة ونجحا . أصبح أحدهما مهندساً والآخر مدرساً . وتركا الحى وعاشا حياتهما المستقلة ، أما هو فقد ابتلى وهو فى الكلية بحب فتاة فى الحى . سحرته بلفة جسمها فى الملاية اللف ، فتزوجها سراً عن أبيه . ثم طلقها وتزوج غيرها من زميلاته فى العمل بعد ترك الكلية ، ثم طلقهن جميعاً كما سبق أن أخبره ، وأصبح طريد النفقة إلى أن يشسن منه موسراً وأيقن أنه احترف العسر . ما أدهش أدهم من كل هذا هو أن زميله شعبان لا يرى فى مثل هذه الحياة ضياعاً . ربما لأن الخيال ينقصه . كما قال فى سره . لكن الأعجب هو أن أدهم نفسه يرى حياته هو طبيعية . لأنه يعتقد أنه صاحب مبدأ . صاحب نظرة خاصة . كان يرفض الحياة المبنية على الامتلاك ، الامتلاك فى رأيه هو السجن . والحر الحقيقى هو من لا يملك شيئاً . لا أرض ولا عقار ولا زوجة ولا أطفال . وعندما وضع هذه الأفكار فى الشعر لم تكن فى ذلك خطورة . لكن عندما بشر بهذه الحرية من خلال سطور مقالاته الصحفية دخل السجن . . .

واقتربا أخيراً من باب المنزل الذى يقطنه . كان على رأس الحارة المؤدية إلى ذلك المنزل دكان طعمجى . هو الوحيد الذى فتح دكانه مبكراً . وبدأ يقلى الطعمية فى طاسة فوق موقد ، فيسمع للقلى نشيش ، وتشم له رائحة أخذت بمجامع قلب شعبان ، فتسمرا على باب الدكان . كان لا بد لهما من الأكل . لأن هذا بالنسبة إليهما هو العشاء لا الفطور .

فهما سيصعدان للنوم طول نهارهما . وقدم البائع لكل منهما سندوتش طعمية وفول محبش بالسلطة . لكن المهم الدفع . وتظاهر شعبان بأن هذا واجب عليه . وجعل يخرج من جيوبه نقوداً لا وجود لها . قرش واحد فقط خرج بين أصابعه من أعماق البطانة . إنه ما زال يقترض من والده كلما تعطل عن العمل . ولا يسمى ذلك قرضاً . بل هو فى عرفه رد لقرض سابق لا ينتهى سداده . فهو فى آخر وظيفة له قبض مرتبه وذهب به إلى والده فى ورشته وأصر على أن يسلفه جنيهين من المرتب ، لم يكن أبوه فى حاجة إليهما . من ذلك الوقت وهو يروح من حين إلى حين يطالب أباه بالرد مع الفوايد ، حتى قبض منه أضعاف ما اقترض . وما زال يقبض ما تيسر . أى مبلغ أو أجر يفوز به . ولو أجر سيجارتين وسندوتشين . إنه لا يطالب بالكثير حتى يكون له حق الاستمرار . وأيقن أدهم أن زميله غير جاد فى الدعوة ، فأخرج فى الحال بعض ما فى جيبه ودفع . وجيبه هو أيضاً لا يحوى إلا القليل . إنه ليس عنده والد ينصب عليه . لكن لديه صديقاً صحفياً سقيم الخيال ركيك الأسلوب ، يقدم إليه من يوم إلى آخر بعض المقالات ليصوغها له بأسلوب شيق ويعطيه أجراً من الباطن . وضع — فى رأيه — يحرره من سيطرة رئيس التحرير . وتم العشاء الصباحى . طلعت الشمس . فصعدا إلى الشقة على سلم مظلم متآكل الدرج . لا يعرف هو الآخر وجود النهار . على الصاعد عليه أن تكون لقدميه عيون . وظل شعبان الغريب غير المعتاد يتعثر ويلعن وصاحبه ينهضه ، حتى بلغا باب الشقة فى آخر طابق ، وأخرج أدهم من جيبه المفتاح وفتح الباب وقال لضيفه تفضل . وتفضل شعبان ودخل فوجد نفسه فى مدخل صغير يؤدى إلى حجرتين . واستقبله بالترحاب تراب ملأ خياشيمه . وهذا بديهى . فمن ذا الذى يتولى التنظيف هنا ؟ ! ... أما المدخل فهو خال تماماً إلا من الغبار . وأما الحجرة التى تواجهه فهى فما

يظهر بالتخمين حجرة مكتب . فهذا شيء يشبه المكتب . ربما كان من خشب عليه جوخة ربما كانت خضراء في يوم ما . وهذان كرسيان من الخيزران مثقوبان ولا يصلحان للجلوس إلا مع الرفق والحيطة والحذر . هز شعبان رأسه وقال إن هذه الحجرة يفترض فيها أن تكون مكان العمل والكتابة ، وإن كان يدهشه أن يخرج منها شعر أو نثر ! . . وفجأة ارتفع في الشقة صوت حاد يصيح : « يا سعيد أفندى كلم سيادة المدير . . يا جرجس أفندى كلم سيادة المدير ! » ، فأجفل شعبان وارتعد وهمس : هل هذه الشقة مسكونة ؟ . . فابتسم أدهم وهدأ روعه وأخبره أن هذا صوت السكرتير الخاص . فما دام يوجد مدير عام لا بد أن يكون له سكرتير خاص . ولا بد من المدير ما دام هناك بنك . وأشار له إلى الحجرة الأخرى ، فدخلها شعبان متردداً ، فلم يجد بها غير سرير صغير من حديد قديم ، وقطعة حصير على الأرض . ومسمار في الحائط معلق عليه جلابية وطاقية . إنها ولا شك حجرة النوم . لكن أين هذا السكرتير الخاص ؟ . . وحانت منه التفاتة إلى الشباك الوحيد في الحجرة . شباك يطل على منور مهجور ، فإذا معلق به قفص فيه ببغاء أخضر أحمر ضخم . قال أدهم إنه وجده بالشقة التي آلت إليه بعد سفر أو هرب ساكنها السابق اليهودى . وقد تولى هو بعد ذلك تعليمه وتدريبه على أعمال السكرتارية !

. . كان السهر والتعب قد نالا منهما . وشرع شعبان يخلع ثيابه وهو ينظر إلى ناحية السرير الوحيد . فلم يسع أدهم صاحب البيت إلا أن يتزل له عنه وينام هو فوق المكتب أو فوق الكرسى . وإذا بضيفه ينظر أيضاً إلى الجلباب المعلق على المسمار فصاح به . : « لا . . حاسب ! » إن هذا الجلباب ليس على مقاسه . وسيمزقه حتماً لأنه فارع ممتلئ ، في حين أن أدهم أقرب إلى النحافة والقصر . ولم يمهله وبادر إلى جلبابه فارتداه وإلى طاقيته فدس رأسه فيها ، وانسل إلى الحجرة الأولى وارتمى على

كرسى ومد قدميه فوق المكتب وراح فى سبات . ولم يجد شعبان بدًّا من البقاء فى بنطلونه فتمدد به فوق السرير . ولم يمض قليل حتّى علا الشخير .

لم يتحرك أحدٌ منهما إلا على أذان العصر من المسجد القريب . فنهض أدهم أولاً وفرك عينيه . ثم أيقظ زميله فقام وهو يحك جلده من البق ويلعن اختياره للسرير ! . . ولم يلبث النشاط أن دب فيهما ، فخف الاثنان إلى العمل . جعل شعبان يبحث فى درج المكتب عن ورق . وقعد يحرر بيده نسخًا متعددة من صيغة الإعلان . فلما انتهى وقف يعلن أن قسم الدعاية للبنك قد تم إنشاؤه بحمد الله وعونه . واصطحب أدهم ونزلا معاً إلى الشارع ولبثا يتسكعان حتّى دخل الليل وأوغل ،، وأغلقت الحوانيت ، فصار شعبان يمر بأكشاك السجاير ودكاكينها ويتخير منها ما يصلح ويلصق على جداره إعلانًا مما خطته يده . . إلى أن نفدت جميع النسخ . فقال إن مهمة قسم الإعلانات قد انتهت ولم يبق سوى انتظار النتيجة . . وعادا إلى الشقة ينتظران الزبائن . وعندما استقبلهما بالباب الغبار المعهود أدركا أن أول واجب عليهما هو تنظيف هذا المكان وجعله لائقًا بدخول الآدميين . ولأول مرة دخلت المكنسة الشقة . اقترضها أدهم من أحد الجيران وسلمها إلى زميله شعبان باعتبار أن النظافة تدخل فى اختصاص قسم الإدارة والدعاية والإعلان .

# المنظر الثانى

( أدهم وشعبان فى الشقة ينتظران . . . )

شعبان : ( فى يده المكنسة ) الشقة ونظفناها . والإعلانات ولصقناها . واللافتة على الباب وركبناها ، باسم البنك ومواعيد الفتح والغلق . كل شىء أصولى ، أربعة وعشرين قيراط وفى انتظار تشريف الزباين .

أدهم : اسمع يا شعبان . . أنت متأكد أن إعلاناتك هذه يمكن أن تأتى بزباين ؟ !

شعبان : وهل فى هذا شك ؟ ! . إعلانات مبتكرة .

أدهم : مكتوبة بخط يدك ، وملصقة على أكشاك السجاير !

شعبان : أحسن مكان . لأن المدخنين عادة هم القلقون .

أدهم : إعلانات خط يد ! . .

شعبان : وماله ؟! . شغل يد . وشغل اليد دائماً أغلى من شغل المكن .

أدهم : وخطك الذى يشبه نبش الفراخ ؟ !

شعبان : هذا أدعى إلى لفت النظر .

أدهم : أتستطيع أن تقول لى من هو هذا الزبون الذى سيذهب لشراء علبة سجاير ويلفت نظره ورقة صغيرة ملصقة بجوار الكشك عليها كتابة بخط منعكس تدعوه إلى زيارة بنك مؤسس فى درب الطبالى بشارع محمد على ؟

شعبان : حب الاستطلاع يصنع العجب .

أدهم : نحن إذن فى انتظار شخص يكون عنده حب استطلاع .

شعبان : سيأتى هذا الشخص .
أدهم : إذا تصادف وقرأ إعلانك !
شعبان : سيقرؤه إن شاء الله .
أدهم : أنت متفائل .
شعبان : دائما .
أدهم : أنت بالطبع عارف شغلك .
شعبان : مؤكد . أنا الصراف وأنت المدير .
أدهم : الصراف ؟ . .
شعبان : طبعاً ، لأن الخزينة تتبع قسم الإدارة والإعلان . فأنا إذن المشرف على الخزينة . يعنى الصراف .
أدهم : وهو كذلك . بس خذ بالك لئلا يدخل زبون ويجد فى يد الصراف مكنسة ! . إنها علامة غير مستحبة .
الببغاء : ( تصيح فى الخارج) يا سعيد أفندى كلم سيادة المدير . . ياجرجس أفندى كلم سيادة المدير . .
شعبان : السكرتير الخاص ينبه الموظفين ! . . آه لو عرف الزباين أن سكرتيرك الخاص هذا ليس إلا ببغاء فى قفص !
أدهم : على فكرة . . الق نظرة من عندك . . هل عنده أكل ؟
شعبان : وما هو أكله ؟ . .
أدهم : قشر خيار . . قشر قرع . . أى قشر . .
شعبان : ومن أين لك هذا الخيار والقرع ؟ . .
أدهم : صفيحة الزبالة عند الجيران عامرة دائماً ولله الحمد ! . .
شعبان : (يلقى نظرة فى الحجرة الأخرى) عنده أكله . . سكرتير قانع متواضع ! . . إنه هو حقاً الذى لا يعرف القلق !

( طرق على الباب . . )

أدهم : الباب . . زبون . . ارم المكنسة حالاً وافتح ! . .

شعبان : ( يفتح باب الشقة مرحباً ) تفضل . . تفضل . . أهلاً وسهلاً . . شرفت !

الزائر : ( فى المدخل ) من أنت ؟ . .

شعبان : ( فى المدخل ) أنا صراف الخزينة .

الزائر : خزينة ؟ . .

شعبان : تفضل . . تفضل جوه عند المدير .

أدهم : ( ينهض لاستقباله ) تفضل هنا ! . .

الزائر : (لأدهم ) الحمد لله لقيتك .

أدهم : ( مأخوذاً ) هو أنت ؟ !

الزائر : أنا يا سيدى . . نسيتنى . . نسيت شكلى ؟

أدهم : لا أبداً . أنت دائماً فى الذاكرة . . تفضل اقعد خذ راحتك !

الزائر : لا متشكر . أنا مستعجل . أنت عارف طبعاً سبب حضورى .

أدهم : الأشواق طبعاً . والقلوب عند بعضها .

الزائر : القلوب عند بعضها صحيح والأشواق إليك صحيح . وإلى أجرة الشقة كذلك .

أدهم : أجرة الشقة ؟

الزائر : أنا متأسف أذكرك .

أدهم : هذا حقك . المطلوب كم بالضبط ؟

الزائر : أربعة أشهر متأخرة .

أدهم : وتتأخر أربعة أشهر ؟

الزائر : أنا لم أتأخر . أنت الذى تأخرت .

أدهم : وعندما تأخرت أنا أين كنت أنت ؟

الزائر : كنت أحضر فأجد الباب مغلقاً، وأدق فلا أجد من يجيب!

أدهم : غريبة ! . . لا بد أنك كنت تحضر فى غير المواعيد .

الزائر : وما هى المواعيد ؟

أدهم : مكتوبة عندك على اللوحة المعلقة بالباب .

الزائر : لم أقرأ لوحة .

أدهم : هذه ليست غلطتنا . المفروض أن اللوحة موضوعة لتقرأ . والحضور يكون طبقاً للمواعيد المحددة على اللوحة . هذه هى أصول البنوك .

الزائر : البنوك ؟ !

أدهم : طبعاً . هنا بنك. واللوحة على الباب مكتوب عليها اسم البنك .

الزائر : هنا بنك ؟ !

شعبان : وله مواعيد فتح وغلق ولا بد من طلب النقود فى مواعيد فتح الخزينة . لا قبل ذلك ولا بعد ذلك . خمس دقائق زائدة أو خمس دقائق ناقصة تمنع من الصرف . هذه هى الأصول المعمول بها فى كافة البنوك . هل تستطيع سيادتك أن تذهب إلى البنك الأهلى بعد الساعة الثانية عشرة والنصف بدقيقة واحدة وتطلب نقوداً ؟

الزائر : وهل عندكم نقود ؟

أدهم : طبعاً . إذا حضرت فى الوقت المناسب .

الزائر : ومتى الوقت المناسب ؟

أدهم : عندما يكون عندنا نقود .

الزائر : ومتى يكون عندكم نقود ؟

أدهم : عندما يأتى الوقت المناسب .

الزائر : بالاختصار أنا أمام جماعة مماطلين مفلسين !

شعبان : من فضلك . . لا تقل مفلسين . . هنا بنك مثل كل بنك . كل بنك فى الدنيا خزينته تفرغ فى ساعة ، وتمتلئ فى ساعة . . حركة صادر ووارد . . وأنت مع الأسف تأتى فى ساعة الصادر .

الزائر : وما قولكم فى أن صبرى نفد . وأنى سأشرع فوراً فى اتخاذ إجراءاتى ضد هذه المماطلات . وألقى بكم فى الشارع أنتم وكراكيبكم هذه كلها . .

أدهم : وما قولك أنت فى قبولك شريكاً معنا فى عُمليات البنك ؟

الزائر : شريك ؟ !

أدهم : بحق الثلث . وبذلك تشرف على جمع الإيرادات ، وتأخذ نصيبك علاوة على أجر الشقة والمتأخرات .

الزائر : وهل يدخل لكم إيرادات ؟

شعبان : طبعاً . . هذا بديهى . ألم تقرأ اللوحة ؟ . . هنا بنك يجرى عمليات مهمة جداً .

الزائر : وما هى هذه العمليات ؟

شعبان : نحن نتعامل فى القلق . . هذا هو الصنف الذى نتعامل فيه .

الزائر : الصنف ؟ !

أدهم : لا . . لا تفهم خطأ . . أعمالنا كلها مشروعة . وفى حدود القانون والشرف . نحن هنا نعالج الناس من قلقهم ويدفعون لنا أجر العلاج ، ويعالجوننا من قلقنا وندفع لهم أجرهم .

شعبان : والفرق دائماً فى مصلحتنا .

الزائر : وهل هذا عمل رائج ؟

أدهم : جداً . لأن القلق منتشر . كل شخص عنده ناحية قلق من شيء . أنت مثلا أليس عندك قلق ؟

الزائر : طبعاً .

أدهم : إذن نعالجك وتدفع لنا أجرنا ، أويخصم من الإيجار . قل لنا من أى شيء أنت قلق ؟

الزائر : من عدم دفعكم الإيجار . هذا هو سبب قلقى . وإذا أنتم سددتم ما عليكم أشفى حالاً .

أدهم : كلام جميل . نحن على استعداد .

الزائر : على استعداد للتسديد ؟

أدهم : طبعاً ما دام هذا هو علاجك ، لكن عليك أنت أيضاً أن تعالجنا من مرضنا ؟ . .

الزائر : وما هو مرضكم ؟

أدهم : مرضنا هو مطالبتك لنا بالإيجار . وإذا أنت لم تطالب نشفى فى الحال .

الزائر : ما هذا الكلام ؟

أدهم : نترجم هذا الكلام إلى أرقام وأنت تفهم الحسبة بوضوح . إذا عالجناك وشفيت تدفع لنا أجرنا . كلام مفهوم ؟

الزائر : وكم أجركم ؟

أدهم : خمسة جنيهات .

الزائر : خمسة جنيهات ؟ هذا إيجار شهرين !

أدهم : أنت أيضاً ستقبض نفس هذا الأجر منا فى حالة علاجنا .

الزائر : معنى هذا أنكم تدفعون لى الآن خمسة جنيهات بدلاً من عشرة .

أدهم : تمام . مطلوبك كله عشرة يخصم منه خمسة أتعاب علاج يتبقى لك خمسة .

الزائر : وهو كذلك . ادفعوا لى الخمسة .

أدهم : سندفع لك . هذه حسابات مضبوطة . لكن . .

الزائر : لكن ماذا ؟ . .

أدهم : فكرة دفع هذه الخمسة أعاد مرضنا مرة أخرى واحتجنا للعلاج . نفس العلاج .

الزائر : معنى ذلك ؟ . .

أدهم : معنى ذلك أن علاجنا هو فى عدم مطالبتك بالخمسة جنيهات الباقية من مطاوبات الشقة .

الزائر : الخمسة جنيهات الباقية ؟

أدهم : لا تنس أنك ستقبض نظير ذلك أتعابك وهى خمسة جنيهات . وعندئذ تكون أنت قد شفيت فنستحق عليك أتعابنا خمسة جنيهات .

الزائر : الحاصل من كل هذا أنى لن أقبض شيئاً .

أدهم : طبعاً . عملية مقاصة .

الزائر : مقاصة ؟ . .

شعبان : عملية معروفة فى كل البنوك . رصيدك الدائن خمسة جنيهات والمدين خمسة جنيهات . . أى لا لك ولا عليك .

الزائر : شىء جميل جداً .

أدهم : إن شاء الله فى العمليات القادمة باعتبارك شريكاً بحق الثلث سيكون لك رصيد دائن محترم . قل إن شاء الله ! .

الزائر : آه يا لصوص . . يانصابين . . يا حرامية !

شعبان : احفظ لسانك من فضلك هنا بنك محترم .
الزائر : وأنت من حشرك أنت ؟ من أنت ؟
شعبان : قلت لك صراف الخزينة . !
الزائر : تشرفنا !
أدهم : أنت نظرتك فينا غلط . تأكد أننا ناس شرفاء . وأن الأمانة والذمة رائدنا فى العمل . لكن اصبر علينا . صبرك علينا . . أسبوع واحد . . وأنت ترى النتيجة سارة جداً . . نحن فى أول عهدنا . . تفاءل . . تفاءل . . وارجع لنا بعد أسبوع وأنت تقبض جميع متأخراتك . .
الزائر : أنا راجع ومعى حكم بالطرد !
(يخرج سريعاً)
شعبان : رح داهية تغمك ! . .
أدهم : ما الذى جاء به اليوم . . هذه فاتحة لا تبشر بخير .
شعبان : تفاءل . . تفاءل . .
أدهم : أنا متفائل . لكن مجىء هذا الرجل الآن عكر مزاجنا .
شعبان : انتظر حتى يجىء قراء الإعلانات . عندئذ ينشرح صدرنا .
أدهم : نحن فى الانتظار .
شعبان : على الأقل سيحضر من يطمع فينا . . ويدعى علاجنا ليقبض منا . . النصابين فى البلد كثير !
(طرق على الباب)
أدهم : الباب ! . . أسرع ! . .
شعبان : (يذهب ويفتح) تفضل . . أهلاً وسهلاً . .
أدهم : (ينظر إلى الزائر الداخل) متولى ؟!
متولى : طبعاً . ومن غيرى ؟

أدهم : قرأت الإعلان ؟

متولى : أى إعلان ؟ !

أدهم : وما الذى جاء بك الساعة ؟

متولى : جئت لك بشغل . . . كالعادة .

أدهم : آه ! . . شغل .

متولى : موضوع مهم . . اسمع . . ( يلتفت جهة شعبان ) حضرته ؟

أدهم : الأستاذ شعبان جاد . . زميل قديم فى الدراسة . والأستاذ متولى سعد زميل فى الصحافة . .

( شعبان ومتولى يتصافحان )

متولى : والأستاذ شعبان صحفى ؟

شعبان : لا . أنا . .

أدهم : هو أحد مؤسسى البنك .

متولى : أى بنك ؟

أدهم : ألا تعرف أننا أسسنا بنكًا ؟ . . ألم تقرأ الإعلانات ؟ طبعًا لم تقرأها .

شعبان : واللوحة التى على الباب ؟

متولى : هل على الباب لوحة ؟

شعبان : لوحة كبيرة بالخط الكبير الفارسى .

أدهم : بنك القلق .

متولى : بنك ماذا ؟

أدهم : القلق . . القلق . . ألا تعرف القلق ؟ . . تسعون فى المائة من سكان العالم مصابون بالقلق .

متولى : جايز . لكن . . ما دخلكم أنتم فى هذا ؟

أدهم : لو كنت قرأت الإعلانات كنت عرفت .

متولى : قلت لك لم أقرأ إعلانات أين هى هذه الإعلانات ؟
شعبان : تملأ الشوارع .
أدهم : ألم تمر بأكشاك سجاير ؟
متولى : طبعاً . منذ قليل . . واشتريت علبة .
أدهم : علبة ؟ . . إذن بالمناسبة . . لا بأس من أن تعزم علينا بسيجارة .
متولى : بكل سرور . تفضل .
أدهم : (يتناول سيجارة) شكراً . . . تفضل يا شعبان !
شعبان : (يمد يده هو الآخر ويتناول سيجارة) مع الشكر .
أدهم : ندخل فى الموضوع . من أين اشتريت هذه العلبة ؟
متولى : من كشك فى ميدان طلعت .
شعبان : ملصق هناك أكثر من إعلان .
متولى : لم يستلفت نظرى شىء .
شعبان : غريبة ! . .
أدهم : ربما كنت شارد الفكر .
متولى : أنا لا يشرد فكرى أبداً . . أنا لست مثلك . . المهم . .
أدهم : المهم لا بد أن نخبرك باختصاص هذا البنك . . يا شعبان سلمه نسخة إعلان ؟
شعبان : هنا عندك فى درج المكتب المسودة .
أدهم : (يفتح درج المكتب ويخرج ورقة يناولها لمتولى) خذ . . ها هى نسخة . . تفضل اقرأ . .
متولى : (يقرأ بعينيه سريعاً) ما هذا الكلام . . الفارغ ؟ . .
أدهم : فارغ ؟ ! . .
متولى : (يلقى إليه بالورقة) رجل مثقف مثلك لا يخلو من موهبة ، يضيع وقته فى مثل هذه الألعاب الصبيانية !

أدهم : صبيانية ؟! . .

متولى : اسمع يا أدهم . . أنا نصحتك أكثر من مرة . . قلت لك أنت خسارة . . خسارة فى هذا الضياع . . عندنا فى الجريدة زملاء وأنت عارفهم . . أقل منك مواهب ووصلوا . .

أدهم : وصلوا إلى أين ؟

متولى : إلى الاستقرار فى الحياة على الأقل . . إلى المحافظة على مراكزهم . . كنت أنت أيضاً تستطيع ذلك . . لم تكن أقل منهم مركزاً فى الجريدة . . لو كان عندك فقط قليل من المواظبة والجدية وتحمل المسئولية ؟

أدهم : الله أنت جئت الآن تلومنى وتعاتبنى ؟ . . قلت لك ألف مرة هذا طبع . . مزاج . . أنا هكذا . . ولا يمكن أن أكون شيئاً آخر .

متولى : أنت حر . المهم أنا جئت لك بشغل .

أدهم : أنا الآن مشغول . . أمامى تأسيس بنك .

متولى : أرجوك يا أدهم يا صديقى . . فكر فى شىء مفيد .

أدهم : وهل هذا البنك ليس بالشىء المفيد ؟! . . إن فائدته سوف تعم المجتمع كله . وغداً تعرف وتشهد أنها فكرة عبقرية .

متولى : أنا معترف لك بالعبقرية . . لكن فكرتك هذه ولا تؤاخذنى تافهة !

أدهم : الأفكار التافهة هى التى غيرت وجه الأرض . قطار السكة الحديد من أين خرج ؟ . . خرج من دخان تافه من إبريق شاى . . نظرية الجاذبية من أين هبطت ؟ من تفاحة تافهة سقطت من شجرة . . البنسلين من أين ظهر ؟ من قطعة خبز تافهة معفنة . . وهلم جرًّا . . وهلم جرًّا . . . .

متولى : ليس الأمر بكل هذه البساطة . . ومع ذلك لا أرى أن فكرتك هذه يمكن أن يخرج منها شىء على الإطلاق ، غير كونها مجرد مداعبات وألاعيب مما اعتدت أن تضيع فيه وقتك .

أدهم : من أدراك أنه لن يخرج منها شىء . . أنت لم تفهم جوهر النظرية .

متولى : أى نظرية ؟ مكتوب فى هذه الورقة أنكم تعالجون القلق . . . هل أنتم أطباء ؟ .

أدهم : نحن أطباء ومرضى فى نفس الوقت .

شعبان : نحن نقرض ونقترض مثل البنك .

متولى : اسمحوا لى . . أنتم بالكم رايق . . تهزاون والدنيا من حولكم تجد . . اسمع يا أدهم . . أنا جئت لك بشغل ونقود .

شعبان : نقود ؟

أدهم : أين هى ؟ . .

متولى : موجودة فى جيبى . . والموضوع كتبته لك باختصار فى صفحتين . لكنه يحتاج من قلمك إلى إعادة صياغته بأساوبك الرشيق إياه ، وعباراتك وتعبيراتك إياها ، على شرط أن لا تشط وتشطح . . كن دائمًا على أرض الواقع وفى حدود الوقائع . . خذ . . هذا تحقيق صحفى عن الاتحاد الاشترا كى فى كفر عنبة .

أدهم : كفر عنبة ؟ . .

متولى : نعم . بلدك . . طبعًا أنت أدرى بها .

أدهم : أنت عارف أنا لم أضع قدمى فيها منذ الطفولة . .

متولى : لا يهم . أنا دونت لك كل الحقائق التى شاهدتها بنفسى على

الطبيعة . وما عليك إلا أن تنفش الصفحتين فى أربع أو خمس صفحات بطريقتك اللامعة المتألقة ، لأنها ستنزل على ثلاثة أعمدة .

أدهم : لا أذكر الآن من قريتى هذه إلا سراية عادل بك عاطف . هل هى لا تزال موجودة ؟

متولى : موجودة طبعاً . لكنها أصبحت مقراً للإصلاح الزراعى .

أدهم : وأين ذهب البك الكبير ؟

متولى : لا أعلم . يظهر أنه توفى .

أدهم : وبنته الصغيرة المدللة مرفت . . التى كانت تمتطى حصانه ويسندها الخدم والحشم ؟ . . لا بد أنها اليوم فى الثلاثين . . . كانت أصغر منى بست سنوات . .

متولى : لا أعرف عنها شيئاً . . لكنى أعرف عمها منير بك عاطف . بيته فى الزمالك . . ما زال له نشاطه فى القرية . . أراد أن يكون عضواً فى الاتحاد الاشتراكى . . كثير الاتصالات ومتداخل . . نفعنى فى هذا الربورتاج وزودنى بمعلومات قيمة . .

أدهم : وزوج أختى ؟ . . بلغنى أنهم ملكوه خمسة أفدنة . .

متولى : جايز . . لقد وزعوا أراضى كثيرة على الفلاحين .

أدهم : الحمد لله أنى لا أحب امتلاك شىء .

متولى : أنت حر فى نظرياتك . المهم كن فى حدود المعلومات والوقائع التى دونتها لك لا تسرح ولا تتفلسف . . استلم . . ( يسلمه الصفحتين ) وسلمنى الشغل غداً . . وخذ هذا الجنيه . . دفعة أولى . .

أدهم : (يقبض منه) هات ! . .

متولى : غداً . . تذكر جيداً . . لأنى يجب أن أسلم الموضوع للجمع غداً . .

أدهم : اطمئن . سأسلمك الشغل غداً فى الميعاد . . على شرط . .

متولى : ما هو ؟ . .

أدهم : طلب بسيط . . انشر لنا خبر البنك فى الجريدة . . مجرد خبر صغير .

متولى : أنت مجنون يا أدهم !

أدهم : كما تنشرون إعلانات عن البنك الأهلى !

متولى : أيوجد مجال للمقارنة ؟ !

أدهم : كلها بنوك يا أخى . . لماذا التفرقة ؟ . .

متولى : تتكلم بجد ؟

أدهم : وهل ترى على وجهى المزاح ؟

متولى : اسمع يا أدهم . . ممكن نشر خبر عنكم . . لكن على سبيل التندر والنكتة والتفكه والتريقة .

شعبان : ليس عندنا مانع . المهم الإعلان عن وجودنا بأى طريقة !

أدهم : لا . . لا . . لا . . بأى طريقة لا . . أنا لا أقبل أبداً تشويه فكرتنا وإضحاك الناس علينا .

شعبان : نتساهل قليلاً . . لنمشى الشغل .

أدهم : ممكن يا متولى إذا أردت .. أن تقول مثلاً إنها فكرة غريبة طريفة غير مألوفة . . هدفها كيت وكيت بكل أمانة وموضوعية .

متولى : سأفكر فى الأمر . . والآن أنا مضطر أترككم . . عندى ميعاد فى الجريدة . . أكرر رجائى يا أدهم . . غداً بدون

تأخير أستلم منك الموضوع . . إلى اللقاء !

( يسلم عليهما ويخرج )

شعبان : ( ينظر إلى النقود) جنيه ! . . يعنى مائة قرش صاغ ! . يعنى ما يساوى كم سيجارة وكم قطعة سندوتش فول وطعمية مع التحابيش والسلطات ! . . هذه ثروة هبطت من السما . . ومع ذلك يقول إنها دفعة أولى . . وعندما تسلمه الشغل غداً يسلمك دفعة ثانية ! . . شىء جميل ! . . قلمك هذا يؤكلك الشهد يا أخى . . ما لنا وما للبنك وشغل البنوك ؟ اصرف نظرك يا أخى عن حكاية البنك ، وكان الله يحب المحسنين . .

أدهم : اخص يا مذبذب ! . . أنت مزعزع العقيدة سقيم الوجدان .

شعبان : يعنى أنت مصمم على مسألة البنك ؟ !

أدهم : إلى النهاية

شعبان : وأنا معك إلى النهاية . هات يدك !

( ويمسك بيده ويرفعها فى يده إلى أعلى علامة التضامن ... ... )

# الفصل الثالث

ثلاثة أيام مرت دون أن يطرق أحد باب الشقة . ولم يشعر الزميلان بمتاعب الحياة . فعندهما زاد من السجاير والطعام . إذ بعد أن فرغ أدهم من صياغة المقال المطلوب ، واجتهد فى أن ينفشه حتى بلغ ست صفحات ، استطاع أن يحصل نظيره على جنيه ونصف علاوة على الجنيه الذى كان قد تقاضاه دفعة أولى . وفوق ذلك أيضاً خطف من يد الصحفى متولى سعد علبة سجاير بلمونت كاملة العدد . لكن . . ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . إن الإنسان قاطرة ، تملؤها فحماً تعطيك دخاناً . هذا بالطبع عند إنسان مثل أدهم . وقد تطاير بالفعل من رأسه دخان كثير . وأخذ أنفاساً متلاحقة من سيجارته وجعل يفكر . . أهو حقاً يضيع حياته ؟ . . كما قال له متولى ؟ . أهو يلعب بها ؟ . إنه حقاً يحب دائماً أن يلعب بشىء . منذ أن كان طفلاً فى قريته يلعب بالطين ويشكله عصفوراً . ربما كان يلعب بحياته . لكنه لم يشكلها بعد . أما الضياع فلم يحسه قط . حتى عندما سار خلف الغازية الغجرية من قرية إلى قرية لم يشعر أنه طفل ضال . ولم يستشعر الوحشة . ولم يجد فى نفسه الرغبة فى العودة إلى أهله . لأنه من فصيلة طير النورس ، يحوم على سطح البحر ويغوص أحيانا بين الموج ولا يغرق أبداً . ولأنه لا يعرف الغرق فهو يعرف القلق . وقلقه من نوع مختلف عن قلق الآخرين . كل ما يخشاه هو أن يرغم على قبول شكل فى الحياة يسجنه . لقد أراد أن يلعب بالحياة لعباً حراً . وهذا ما أعماه عن رؤية المأساة فيما يفعل . إن ما يفعله بحياته لم يضعه حتى فى قصيدة من الشعر الحر . كتب بالفعل

عدة قصائد ومزقها . فالكلمات فى نظره أصبحت مثل نمال تركب فوقها أفيال . كل شيء ضخم إلى أن يحاول صبه فى شكل . فليكن هو نفسه القصيدة . وليتركها متحررة من القوالب . كوب ماء بغير كوب . .

حتى عندما حامت حوله الظنون وأدخل المعتقل ، ورأى الطوائف المختلفة هناك ترحب به طامعة فى ضمه إلى صفوفها ، محاولة صب أفكاره فى فلسفتها ، رفض هذه الفلسفات المتينة التركيب ، حتى حسبوه مدسوساً أو جاسوساً . ثم انتهوا إلى اعتباره مجرد حطام متحلل لا يرجى منه شيء . . ابتسم لتذكره ملامحهم وهو يقول لهم إن الشيوعية الحقيقية بدأت عند الرجل الأول وهو فى الجنة ، وإن ماركس لا بد كان فى وعيه الخفى جنة آدم كما ذكرت فى الأديان . تلك الجنة التى يسكنها آدم مع حواء . إنها فى عرف المسيحيين كانت على هذه الأرض نفسها . وكذلك فى عرف بعض المفسرين من المسلمين الذين قالوا إنها كانت دار « ابتلاء وليست هى جنة الخلد التى جعلها الله دار جزاء » . وإنها كانت فى بقعة مرتفعة من الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونضرة ونعيم . . ما هو إذن النظام الذى كان سائداً على هذه الجنة الأرضية ؟ إنه كان ولا شك النظام الشيوعى فى آخر مراحله . فإن آدم وحواء ما كانا يعرفان الملكية . كل منهما كان يأخذ ما شاء على قدر حاجته لا على قدر عمله . لأنه لم يكن هناك عمل ، إلا اقتباس المعرفة من النور العلوى والاستمتاع بالجمال السرمدى ، ما الذى حدث إذن لهذا النظام ؟ . .

حدث أن آدم وحواء أخرجا من هذه الجنة إلى جهة أخرى مجدبة فيها عمل وعناء . وهناك أنجبا أولاداً أخذوا يملكون . هذا زارع يملك قطعة أرض . والآخر راعى غنم . عرفوا الملكية فعرفوا النزاع والتنافس . وحدث القتل . أول جريمة فى تاريخ البشر . والعجيب أن القاتل فيها كان هو قابيل المالك العقارى ! منذ ذلك العهد وكل ما يحرك ذهن البشرية

حتى اليوم هو ذكرى تلك الجنة والعودة إليها . . تلك الجنة التى يأخذ فيها كل على قدر حاجته . . الإنسانية كلها تحاول شق طريق إليها . إما عن طريق مرصوف بالمذاهب العلمية . وإما عن طريق مفروش بالعقائد الدينية . . كان أدهم يقول مثل هذا الكلام لزملائه فى المعتقل فيسخرون منه ، برفق حيناً وبعنف حيناً . فهو مخرف فى عرف هؤلاء ، ومجدف فى عرف أولئك . وهم جميعاً يمدون الأكف ليقبضوا على تلك الفراشة الهائمة فوق رؤوسهم كى تقع فى هذه المنطقة أو تلك . وهو يصيح فيهم : دعونى ! لا أريد أن كون مالكاً ولا مملوكاً . . لا أريد أن أملك ولا أحدكم يملكنى . .

وأخرج أدهم سيجارة أخرى من العلبة الموضوعة فوق المكتب . لم يبق فيها غير سيجارتين . وأشعلها ونفث الدخان . وألقى نظرة شاردة على صاحبه شعبان ، فوجده مشغولاً بعمل لم يخطر على باله . رآه قد قلب مرتبة السرير وأخذ يلتقط من أركانها البق ويحمله بين أصابعه ويلقى به فى المرحاض . تأمله قليلاً وقال فى نفسه : أى نوع من الناس شعبان هذا ؟ لا يمكن أن يكون هو أيضاً قد قصد أن يلعب بحياته لعباً حراً . إنه مجرد هارب من سجن . من نفقة مطلقاته . لكن إذا سنحت له فرصة صب حياته فى أى قالب فإنه لن يتأخر . ولعله أخذ فكرة البنك ، بنك القلق ، هذا المأخذ . لكن فكرة هذا البنك هل هى شيء آخر غير مجرد لعبة من الألعاب ، كما قال متولى ؟ هل يظن أدهم حقاً أنه مشروع جدى ؟ إنه ما اعتاد أن يسأل نفسه سؤالاً كهذا . لأن الجد والهزل عنده حتى اليوم لفظان غير موجودين . أو هما سيان ولا داعى عنده لفصلهما . يكفى عنده دائماً أن تشتعل فى رأسه فكرة . ما من أسئلة من هذا القبيل تقوم فى ذهن طفل يلعب بالطين ويصنع منه تماثيل. إنه لا يزال يذكر رجلاً آخر رآه يوماً فى قريته . ربما ظل دائماً طفلاً هو

الآخر . كان هو الوحيد فى القرية الذى أدار ظهره لحركتها الدائبة ، وانفلت من المحاريث السائرة والنوارج الدائرة والسواقى الناعرة، وذهب إلى شط الترعة يقطع سيقان البوص ويصنع منها مزامير . ملأ عبه منها وجعل يتنقل بها بين القرى والعزب والكفور . ما كان يهمه أن يبيعها بقدر ما كان يهمه أن يزمر بها . واللعنات تلحقه من أهالى الناحية . ما الذى جرى لعقل هذا الرجل ؟ وماذا يصنع بحياته ؟ وأى مستقبل ينتظره ؟ كل الناس يلقون هذه الأسئلة عنه ، وهو لا يلقيها على نفسه . .

أخذ الوقت يمر بطيئاً ثقيلاً على أدهم لأنه وقت انتظار . انتظار زبون وهمى لا يدرى هل يأتى أو لن يأتى . وهو الذى كان دائماً فى نجوة من هذه البلية . لأنه لم يكن ينتظر شيئاً . لقد خلق الآن بيديه نوعاً من القلق لم يكن عنده . ولمح شعبان ينظر إلى الباب بين حين وحين نظرات ترقب غريزية ، فأيقن أنه هو أيضاً قد أصبح فريسة هذا الداء. ورأى أن يهون عنه وعن نفسه وأن يشغله بشيء . فسأله عن نسائه . ولماذا لم يستبق منهن واحدة . فزفر زفرة ضيق وقال إن المرأة الواحدة سجن وأربع نساء حديقة مغلقة عالية الأسوار ومائة امرأة حرية . لكنها حرية باهظة التكاليف لا يقدر عليها إلا الملوك والسلاطين . أما حرية الصعاليك فلا امرأة على الإطلاق ، وعند ذلك يستوى الصعلوك والسلطان . لم يكن رأى شعبان يصدر عن مبدأ . إنما عن ضرورة . فهو لو استطاع لعاش كالملك سليمان ، له ألف زوجة . إنه على عكس أدهم الذى لا يتصور المرأة إلا مقترنة بالحب . والحب عنده تلاحم روحى وجسدى فى وقت واحد . والعدد اثنان فى رأيه هو العدد الوحيد الذى يمثل الحب . ومن هنا جاءت قوة الحب وقسوته . ولهذا كان أدهم يخشاه ويفر منه . فراره من قضبان ليمان . ومع ذلك فهو يعرف أن فى تركيبه الطبيعى جهازاً خفياً ينبهه عند الخطر . والخطر عنده ليس فى أن يحب هو امرأة ، ولكن فى

أن تحبه هي . وقد أحب ذات يوم زميلة صحفية فأحس أنه انقلب فراشة . وعندما أحبته هي حنطته في كتابها . فانفلت الحب فيه إلى دقيق . . كان شعبان يصغي إلى هذا الكلام ولا يعجبه ولا يفهمه . لأن الحب عنده ليس بهذه الخطورة ولا بهذا التعقيد . إلا عند انقلابه إلى مطاردة في سبيل النفقة . وفرغ من جمع البق في المرتبة على قدر المستطاع وغسل يديه . وعاد نسحب سيجارة من العلبة . وجلس ومد قدميه في استرخاء ، كمن فرغ من مهمة عظيمة . ونفث الدخان ببطء . وترك جفنيه ينطبقان كما لو أنه استسلم للنعاس . ولم يشأ أدهم إزعاجه ، وحاول هو أيضاً أن يفعل مثله . لكنه لم يستطع . فقد تتابعت في رأسه صور وأفكار مختلطة . هذا الشريط السينمائي الذي يعرض أحياناً في الذهن بغير ترتيب ، مرة مقلوباً ومرة مشوشاً ومرة باهتاً ومرة ساطعاً . . يعرض بلا مقدمة ولا خاتمة ولا يعرف له رأس من قدم . .

# المنظر الثالث

(أدهم وشعبان في صمت طويل)

أدهم : (فجأة لزميله) نمت ؟

شعبان : (يفتح عينيه) لا . أبداً . . أنا قاعد أفكر . .

أدهم : تفكر ؟ . . في أي شيء تفكر ؟

شعبان : في الإعلان .

أدهم : إعلانك يظهر أنه خاب خيبة ثقيلة !

شعبان : لا يمكن . . الحسبة بسيطة . . تعال نحسبها . . وضعنا عشرة إعلانات على الأكشاك والدكاكين . في أهم مركز . .

اجمع عدد المارة أمام الأكشاك والدكاكين العشرة . . فى الأيام الثلاثة الماضية . . وعدد المشترين للسجاير . . واستخرج المتوسط . . طبعاً للدقة اطرح من الحاصل عدد العميان والعور وضعاف البصر واللاهين والسارحين والمخمورين والمغفلين والأميين وغيرهم ممن لا يقرءون الإعلانات ، كم يتبقى لنا بعد ذلك ممن قرءوا إعلاناتنا . . كم ؟

أدهم : قل أنت !

شعبان : ألا يمكن أن يطلعوا خمسين شخصاً ؟

أدهم : قل عشرين .

شعبان : عشرين . أنا معك . عشرين شخصاً . . أين هم ؟!

أدهم : لاحظ أن من بين هؤلاء العشرين عدداً . . ربما كان أغلبية . . سيقرأ إعلانك ويهز رأسه بغير اهتمام أو بغير اقتناع بجدية الموضوع .

شعبان : أنا معك . كم تقدر هذه الأغلبية غير المهتمة وغير المقتنعة ؟

أدهم : قل مثلاً خمسة عشر شخصاً .

شعبان : من عشرين يتبقى خمسة . . أين هم ؟

أدهم : لا تنس أن من بينهم أيضاً عدداً لم يستطع فك خطك الذى يشبه نبش الفراخ .

شعبان : ماشى كلامك . . هذا العدد الجاهل الحمار الذى لا يقرأ خطى كم تقدره ؟

أدهم : لا . . . من هذه الجهة لا أقل من تسعة وتسعين فى المائة !

شعبان : أنا معك . . يتبقى واحد فى المائة . . أين هو ؟

(طرق على الباب ...)

أدهم : ها هو !

شعبان : ( يقفز ناهضاً ويتجه إلى الباب وهو يصلح ثيابه ) يا رزاق يا كريم !

أدهم : ( ينهض هو الآخر ويصلح من شأنه لاستقبال القادم ) ...

شعبان : ( يظهر وهو يقود رجلا وجيه الهندام فى الخامسة والخمسين ) أهلاً وسهلاً . . تفضل . . حصل لنا الشرف .

أدهم : ( يسرع بتقديم مقعد إليه ) تفضل سيادتك هنا .

الوجيه : ( يجلس وهو يتنفس بمجهود ) أف .. آه . . سلمكم متعب جداً ! . .

شعبان : أى نعم السلم هنا صعب . . لكن على كل حال وصلت بالسلامة !

الوجيه : الحمد لله !

أدهم : سيادتك طبعاً . . . حضرت بناء على الإعلان ؟

الوجيه : أى إعلان ؟

شعبان : الإعلانات الملصقة فى الشوارع .

الوجيه : أتوجد إعلانات ملصقة فى الشوارع ؟

أدهم : يقصد على أكشاك السجاير . . حضرتك تدخن ؟

الوجيه : ( يخرج علبه أنيقة ويقدم إلى أدهم ) تفضل !

أدهم : ( يتناول سيجارة ) شكراً .

الوجيه : ( يقدم العلبة إلى شعبان ) تفضل !

شعبان : ( يتناول سيجارة ) مع الشكر .

أدهم : ( يبحث ببصره ) علبة الكبريت كانت هنا . .

الوجيه : ( يخرج ولاعته الثمينة ) لا . . لا داعى .. معى ولاعتى . . ( يشعل سيجارته ثم يقدم الولاعة لكل منهما )

شعبان : لا بد أن حضرتك لم تمر بنفسك أمام كشك أو دكان سجاير . .

الوجيه : بالعكس . أنا مررت البارحة واليوم أمام دكان سجاير بميدان طلعت . . واشتريت . .

شعبان : تمام . هناك تجد إعلاناتنا ملصقة . .

الوجيه : لا تؤاخذونى ! . . . أنا لم أقرأ لكم إعلانات بالمرة ، ولم يخاطبنى أحد فى شأن إعلاناتكم .

أدهم : وكيف إذن جئت هنا سيادتك ؟ من دلك على عنواننا ؟ .

الوجيه : الأستاذ متولى سعد . . الصحفى . . لكم به معرفة بالطبع ؟

أدهم : طبعاً . . زميلى . . .

الوجيه : هو الذى حدثنى عنكم وعن مشروعكم .

أدهم : بنك القلق ؟

الوجيه : بالضبط .

شعبان : عمل له إذن الدعاية والإعلان . . .

أدهم : قام بالواجب صحيح .

الوجيه : الحقيقة أن الفكرة أعجبتنى .

أدهم : هذا شىء يسعدنا .

الوجيه : الواقع أن القلق سائد بشكل وبائى ، عند كل الناس ، وفكرة إنشاء بنك للقلق فكرة مدهشة ، أهنئكم !

أدهم : سيادتك طبعاً مصاب بالقلق .

الوجيه : طبعاً مثل كل الناس .

أدهم : اطمئن . جئت لنا فى الوقت المناسب .

شعبان : الحق . هذا من حسن الطالع أن يكون رجل وجيه محترم مثل حضرتك هو فاتحة أعمالنا .

الوجيه : أنا إذن أول من حضر لكم ؟
شعبان : حصل لنا الشرف .
أدهم : الافتتاح على كل حال كان اليوم .
الوجيه : وأنا يسرني أن أفتتح عملكم .
أدهم : أحب أطمئن سيادتك أن أسرار الزباين عندنا فى الحفظ والصون . لن نخوض فى الخصوصيات ولا الشخصيات . كل ما يهمنا هو معرفة نوع القلق بصورة عامة . فمثلاً . .
الوجيه : اسمح لى أن أوفر عليكم الكلام ، وأقول بكل اختصار إن القلق عندى وعند غيرى . . . عند الجميع . . وربما فى العالم كله . . هو الشعور بعدم الاستقرار . . أليس هذا رأيكم ؟
أدهم : طبعًا .
شعبان : طبعًا . . طبعًا . .
الوجيه : والأسباب مختلفة . . كل واحد عنده أسبابه . . خذوا مثلاً حالتي أنا . . وحالة أمثالى . . افرضوا مثلاً د مجرد فرض . . نى أمتلك خمسمائة فدان . . أقصد كنت أمتلكها . . والآن بالطبع لم يبق منها إلا مائة فدان فقط حسب قانون الإصلاح الزراعى . . .
أدهم : سيادتك كنت تمتلك خمسمائة فدان ؟
الوجيه : مثلاً .
أدهم : وأصبحت الآن مائة ؟!
الوجيه : فقط .
شعبان : أنت إذن خير منا :
الوجيه : خير منكم ؟ . . كيف ؟!

شعبان : أنا مثلاً كنت أمتلك سبعمائة فدان . . ضاعت منى كلها ولم يبق لى منها فدان واحد .

الوجيه : الاشتراكية ؟

شعبان : النسوان .

الوجيه : يا ساترا . .

شعبان : وشريكى كان يملك ستمائة فدان . . ضاعت منه كلها هو الآخر ولم يبق له منها ولا فدان .

الوجيه : النسوان أيضاً ؟

شعبان : القمار .

الوجيه : يا حفيظ ! أضعتم أراضيكم كلها فى النسوان والقمار ؟ !

أدهم : وأصبحنا كما ترى لا نملك شيئاً .

شعبان : إلا العافية .

الوجيه : هذه مصيبة ! وما زلتم بعقلكم ؟ !

أدهم : الحمد لله !

الوجيه : يا بختكم ! . .

شعبان : تحسدنا ؟ !

الوجيه : على هدوء بالكم ! . . هل تنامون بملء الجفون ؟

أدهم : ولنا شخير يسمع من سابع جار .

شعبان : ولا يزعج نومنا شىء غير البق ! . .

الوجيه : لا تشعرون بأى قلق ؟ !

أدهم : من هذه الجهة لا .

الوجيه : طبعاً . ما دام ليس عندكم فدان واحد تخافون عليه . أنتم فى راحة تامة . أنتم فى حالة استقرار . أما من يملك مائة فدان فإنه يعيش فى حالة قلق . لأنه لا يعرف ماذا سيحدث

لها غداً . أو وثق فقط أنها ستبقى في يده ؟ لكن. هذا غير مؤكد

أدهم : سيادتك تطلب الاستقرار ؟

الوجيه : هل عندكم علاج ؟

شعبان : العلاج موجود وفى غاية البساطة .

الوجيه : ما هو ؟

شعبان : اكتب لنا المائة الفدان التى تملكها ، نصاب نحن بحالة القلق وتنعم أنت بحالة الاستقرار .

الوجيه : (ضاحكاً) حلوة !

شعبان : هذا هو العلاج العملى . ولو أن فيه تضحية منا . لكن واجبنا الإنسانى يدفعنا إلى إنقاذك وتعريض أنفسنا .

الوجيه : دمكم خفيف !

شعبان : والآن . . تسمح سيادتك بالأجرة ؟

الوجيه : الأجرة ؟ !

شعبان : أتعابنا . . أجر العلاج . . نحن وصفنا الوصفة . . تأخذ بها أو لا تأخذ هذا شأنك ــ الدكتور يكتب التذكرة والمريض حر يستعمل الدواء أو لا يستعمله . لكن الأتعاب واجبة دائماً بالكامل .

الوجيه : النكتة تستحق على كل حال . . كم الأتعاب ؟

شعبان : ادفع حضرتك حسب تقديرك . . .

أدهم : ومن جهتنا نحن أيضاً سندفع لك أتعابك إذا قمت بعلاجنا .

الوجيه : علاجكم من ماذا ؟ أنتم والحمد لله متمتعون بالاستقرار .

شعبان : استقرارنا متوقف على أتعابك .

الوجيه : يعنى إذا دفعت لكم . .

أدهم : نشفى .

الوجيه : تفضلوا . . جنيه يكفى ؟
شعبان : خمسة .
الوجيه : خمسة جنيهات ؟ أتعابكم ؟ وهو كذلك . . . تفضلوا . . .
(يخرج النقود من محفظته) - شفيتم الآن ؟
أدهم : نشعر بتحسن كبير .
شعبان : (يتسلم النقود) التوريد عندى . أنا صراف الخزينة .
الوجيه : والآن . . ما دمتم شفيتم على يدى ادفعوا لى إذن أتعابى !
شعبان : (يعطيه جنيهاً من الخمسة) تفضل !
الوجيه : جنيه واحد فقط ؟
شعبان : كفاية .
الوجيه : أتعابكم خمسة جنيهات وأتعابى جنيه واحد ؟ !
شعبان : أنت ليس عندك مثلنا مصاريف عيادة . أنت دكتور سريح ! لكن هنا شقة لها إيجار وماء ونور وصيانة ونظافة وهلم جراً . . .
الببغاء : (فى الخارج تصيح) ، يا سعيد أفندى كلم سيادة المدير . . يا جرجس أفندى كلم سيادة المدير !
الوجيه : ما هذا ؟
أدهم : السكرتير الخاص .
شعبان : ومصاريف السكرتير الخاص وأكله و . . .
الوجيه : عندكم سكرتير خاص ؟
أدهم : (مشيراً إلى نفسه) ومدير عام !
الوجيه : تسمحون لى . . ألقى نظرة على الشقة ؟
أدهم : الشقة فى الواقع ليست . .
الوجيه : لا بأس . المسألة على كل حال أصبحت واضحة . . وأنا

تمشيت معكم إلى الآخر لأعرف حقيقة الوضع . .

أدهم : نحن قصدنا شريف . . .

الوجيه : وهل أنا قلت عنكم لا سمح الله نصابين أو مهرجين ؟ ! كل ما فى الأمر أن أساويكم تغلب عليه روح المرح والفكاهة والمداعبة . . .

أدهم : فعلاً . . نحن لا نملك إلا أسلوب الترفيه والتخفيف عن الزبائن . . .

الوجيه : أنا معجب بفكرتكم على أى حال . . وأعرض عليكم إذا سمحتم إدخالى شريكاً ثالثاً معكم فى هذا . . البنك . . ما رأيكم ؟ .

أدهم : شريك ؟ !

الوجيه : وممول علاوة على ذلك . . أى أن جميع مصروفات التأسيس أتكفل أنا بها .

شعبان : جميع المصروفات ؟ ! هذا شىء عظيم !

أدهم : هذا عرض لا يمكن رفضه .

الوجيه : فى هذه الحالة اسمحوا لى أبدى بعض ملاحظات . . أولاً يجب إخراج مشروعكم من هذا الجحر فوراً . . والانتقال به إلى شقة محترمة . أى أن مركز البنك يجب أن يكون فى مكان لائق وموقع مناسب .

أدهم : لكن . .

الوجيه : اطمئن . . . عندى شقة خالية فى عمارتى بأول حى شبرا نخصصها مقراً لهذا المشروع . . ما رأيكم ؟

شعبان : عمارتك ؟

الوجيه : أظن يحسن أن أعرفكم بنفسى . . وأنا لست غريباً عنك كثيراً يا أستاذ أدهم . . نحن بالمديات . . وإن كنت لم أرك من قبل ولم ترنى . . قال لى زميلك متولى سعد إنك من كفر عنبة . . أظنك تسمع عن عائلة عاطف بكفر عنبه ؟ . . أنا منير عاطف .

أدهم : منير بك عاطف ؟

الوجيه : وشقيق المرحوم عادل عاطف . . . والدك الله يرحمه كان فيما أعلم مستأجراً فى أطيانه .

أدهم : فعلاً . . صحيح .

الوجيه : ( يخرج من محفظته نقوداً ) إليكم مبلغ خمسين جنيهاً . . أرجوكم أن تقتسموها . . مصروفات أولية .. لوازم ملبوسات لكم ونحو ذلك . . .

أدهم : لا يا منير بك . . لا . . نحن لا نقبل الصدقة والإحسان .

الوجيه : أستغفر الله ! . . أنا لم أقصد ذلك أبداً .. أنا مجرد ممول فى مشروع . وأنتم أصحاب الفكرة . والفكرة ستنفذ على نطاق أوسع . . وطبعاً ستتخذ شكلاً آخر أكثر جدية . . وأنا شريك صاحب مصلحة مثلكم فى النتائج . . من اختصاصى إذن بصفتى الممول المسئول عن التأسيس أن أقدم ما يلزم من نفقات أولى ضرورية ومنها نفقاتكم الخاصة .

شعبان : تقصد حضرتك أن مظهرنا الخاص يدخل فى التأسيس ؟

الوجيه : بدون شك . لأن وجودكم فى الشقة الجديدة يستوجب ذلك .

شعبان : إذا كان الأمر كذلك لا بأس . . ( يتناول منه النقود )

الوجيه : اتفقنا إذن ؟

أدهم : اتفقنا .

الوجيه : على خيرة الله ! اسمحوا لى أنا الآن بالانصراف . . وسأتصل بكم قريباً لأدعوكم للانتقال إلى الشقة الجديدة . . وسأكون قد اتخذت التدابير اللازمة لإنجاح المشروع . . وبالطبع سنرتب معاً بقية التفصيلات عند اجتماعنا القادم إن شاء الله . . إلى اللقاء !

أدهم : إلى اللقاء يا أفندم . . إلى اللقاء وشكراً . . .

شعبان : شكراً . . . شكراً . . .

( يشيعانه معاً إلى الباب بكل احترام و يعودان كالمجانين من الفرح ) .

أدهم : الفكرة يظهر ستكبر وتنقلب إلى جد بحق وحقيق ! . .

شعبان : ( يلقى بالجنيهات فى الهواء و يتلقفها ) السماء فتحت علينا وأمطرت نقوداً . . . فلوساً . . . جنيهات . . . جنيهات . . !

# الفصل الرابع

كانت دقة القدر أو دقة الحظ ، عندما طرق الباب فأيقظ الزميلين القاعدين فى شبه نعاس . ليدخل عليهما ذلك الزبون الذى لم يكن يخطر لهما فى الأحلام . الوجيه الثرى منير عاطف بقضه وقضيضه ، ليعرض عليهما الاشتراك فى تأسيس البنك وينثر عليهما الجنيهات ، ويمهد لهما سبيل الانتقال من حال إلى حال . . كان أول ما فعلاه وقد صار فى حوزتهما خمسون جنيهاً — مبلغ لم يحدث أن اجتمع لواحد منهما دفعة واحدة ! — أن فكرا أول ما فكرا فى أكلة محترمة ! وفى الحال نزلا معاً إلى شارع محمد على ، وجعلا يستعرضان المطاعم بأنفة وكبرياء ! . . هذا مطعم فول وطعمية . . أعوذ بالله ! وهذا مسمط كوارع وكرشة ولحمة راس . . . اخص ! . . وهذا محل سندوتشات . . . يغور ! . . وهذا مطعم السمك قشر البياض . . يعنى ! . . . كل هذه أكلات قد تناسب من فى جيبه خمسون قرشاً لا خمسون جنيهاً !

وخرجا من هذا الشارع إلى شارع عصرى به مطعم أنيق ، وهمّا بالدخول . وإذا بأدهم يتردد قليلاً . إنه يخشى التهور . والنقود التى فى أيديهما مقصود بها التأسيس ، أى المظهر اللائق للوضع الجديد . وأدرك شعبان معنى تردده فدفعه دفعاً إلى داخل المطعم وهو يقنعه أن هذه الأكلة اللائقة تدخل أيضاً فى باب التأسيس . . . وجلسا إلى أول مائدة صادفتهما قرب المدخل . وانتظرا الخدمة . وطال الانتظار . وأصبحا كالأيتام فى مأدبة اللئام . فخدم المطعم كانوا يحملون الصحاف إلى بقية الزباين ويمرون بهما مر القطارات السريعة بمحطات الأرياف . وفطن أدهم إلى الخطأ

الذى ارتكباه . كان عليهما قبل أن يطأ أعتاب مثل هذه المطاعم بما هما عليه من رثاثة أن يدخلا أولاً حانوت ملابس ودكان حلاق . وصفق شعبان تصفيق الغاضب المتحدى ، محدثًا ضجيجًا لفت النظر ، فجاءه خادم يجرى وبيده قائمة الطعام . فما إن وقعت عينه على كلمة دجاجة حتى وضع إصبعه عليها . لقد مضى عليه حين من الدهر كان يعتقد فيه أن الحيوانات المنقرضة هى الديناصور والدجاج . وتذكر أدهم صورة الدجاجة التى رآها يومًا فى ذلك الملهى الليلى أمام ذلك الرجل تاجر المواشى ، وكيف أنه كان يلتهمها معه ، لكن بعينيه لا بأسنانه . الآن جاءت فرصة الانتقام ! . . وانطلقا يأكلان كل ما كانا يشتهيان وخرجا فاشتريا قمصانًا وبنطلونات . وحلقا وابتاعا سجاير من أفخر صنف . وحاول شعبان أن يعثر على إعلاناته الملصقة فوجد بعضها قد تطاير واختفى ، والبعض فى مكانه قد لطخته أيدى الصبية والعابثين . ولم يعد ذلك يعنيهما الآن . فوسائلهما الإعلانية ستكون منذ اليوم قائمة على أساس متين حقيقى بفضل الشريك الجديد . لكن ما الذى حدا بهذا الوجيه أن يدخل معهما فى مثل هذه اللعبة ؟ ! إنها أعجبته ، هكذا يقول . وليس ببعيد أن يكون قد شم فيها رائحة مشروع رابح . كل هذا سوف ينجلى عندما يدخل الأمر مرحلة الجد . .

ومرت أيام أنفق فيها الزميلان كل ما فى حوزتهما من نقود ، ارتكانًا على عودة الشريك الممول . لكن ما من حس ولا خبر . وأقلقهما انتظاره الذى طال وامتد . وخامرتهما فكرة اختفائه كحلم سعيد . سيعقبه استيقاظ على حقيقة خاوية . . لكنهما عادا فاستبعدا هذه الفكرة السوداء . لا يمكن أن يكون هذا الرجل مجنونًا ليأتى ويعطيهما خمسين جنيهًا ويمضى هكذا بلا عودة ! . . وصدق حكمهما . فلم يمض يوم آخر حتى طرق عليهما الباب ، وظهر منير عاطف . وزف إليهما خبر المقر الجديد فى

شبرا . ووصف لهما العنوان . وأعطاهما مفاتيح الشقة بعمارته . وقدم إليهما عقد إيجار باسميهما ، طلب إليهما التوقيع عليه وسلمهما إيصالاً باستلامه الإيجار منهما مقدماً عن سنة كاملة . وفى هذا كما قال لهما منتهى الضمان والاطمئنان . وما عليهما الآن إلا الانتقال إلى مقر عملهما فى البنك ابتداء من اليوم التالى . . كل هذا حدث وهما يكادان لا يصدقان ما يجرى . أيمكن أن يكون هذا كله حقيقة ؟ ! لو أنه كان مزاحاً لكان أقرب إلى المعقول . .

وذهبا فى اليوم التالى حسب العنوان . فوجدا عمارة كبيرة فى شارع شبرا الواسع المزدحم . فدخلا وسألا البواب فقادهما إلى شقتهما فى الدور الأول ، لاحاجة لهما باستعمال المصعد الموجود . ففتح نوافذها وأضاءها فإذا هما فى مكان نظيف يشرح الصدر . مدخل رحب به مقاعد عديدة ومشاية بساط أحمر ، ومرآة فوق شماعة كبيرة . ثم ثلاث حجرات حسنة الرياش ، كل حجرة بها مكتب عليه أدوات كتابة جديدة ، وسجادة وخوان عليه طقطوقة سجاير وحوله مقعدان من الجلد . فأيقنا أن لكل منهما حجرته الخاصة . أما الحجرة الثالثة فكانت مثل الحجرتين ، وإن كانت فى أثاثها أفخم ، وعلى مكتبها يوجد جهاز تليفون وجهاز تسجيل « ركوردر » . ويحيط بالحجرات الثلاث شرفة ممتدة تزينها أصص زرع وأزهار . ما هذا العز كله ؟ ! وتركهما البواب متمنياً لهما طيب الإقامة . وأخبرهما أن البك صاحب العمارة سيمر بهما . وما إن خلا لهما المكان حتى قاما يرقصان . ثم جلسا فوق المكاتب يجربان الوضع الجديد . ثم جعلا يدخلان كل حجرة ويخرجان مبهورين ، ثم عادا إلى المكاتب وانتفخا فوقها وانتفشا . ثم ارتميا فى المقاعد الجلد وانجعصا . ثم أطلا من الشرفة على شارع شبرا الواسع بضجيجه وزحامه ومقاهيه . وأرسل أدهم بصره إلى الناس وهى فى الشارع تموج . . رجال ونساء وأطفال وشباب

وشيوخ . . . ما كل هذا الخلق ؟ وكأنه لم ير من قبل شارعاً مزدحماً بالناس . كل شيء يبدو الآن فى عينه جديد . حتى الزحام فى الطريق اتخذ فى مخيلته صورة جديدة . . .

وسرح بفكرة سرحة . وحسب حسبة . وقال فى سره : بعد ثمانين عاماً لن يكون أحد من كل هؤلاء المزدحمين فى الشارع موجوداً . لا فى هذا الشارع ولا فى أى شارع آخر فى العالم كله . سيكون الموجودون أناساً آخرين . جيل آخر كامل من الناس هم الذين سوف يزحمون هذا الشارع وغيره من شوارع الدنيا . إذن كل ثمانين عاماً أو تسعين تحدث عملية تفريغ كامل ، وتجديد شامل فى كافة الشوارع ! . . ومع ذلك فالعالم لا يتغير بهذه السرعة . لماذا ؟ !

وقفز بذهنه إلى صورة أخرى بعيدة . صورة نوح وسفينته . لقد حدثت مرة حالة تفريغ وتجديد ، سريعين هائلين . جاء الطوفان فجرف الناس جميعاً دفعة واحدة . وبقى من اختاره نوح فى السفينة . كانت عملية انتخاب دقيقة . تخير من كل نوع أنقاه وأرقاه . ولا يدرى أحد أى نظام أقيم على ظهر السفينة . أهو النظام الفاشستى أم الديمقراطى أم الشيوعى ؟ . . مهما يكن من أمر فلا خلاف فى أن نظام نوح كان غاية فى دقته وصلاحيته . إذ استطاع أن يبقى كل هذه الجماعات المختلفة فى حالة نظام تام ، بعيدة عن الفوضى والمجاعة . وغاض الماء وانحسر . وطهرت الأرض من أدرانها . وقذف بجيل جديد مصفى إلى حياة جديدة . فما الذى حدث ؟ طبعاً ما حدث معروف . لأن التاريخ موجود ، يشهد أن كل شيء عاد إلى ما كان عليه . لماذا ؟ هنا المشكلة ! بعد ثمانين عاماً سوف يكون السائرون فى شارع شبرا هذا أناساً آخرين ، وربما يلبسون ثياباً أخرى . لكن ما تحت الثياب وداخل الصدور ؟ ... لماذا لا تمتد إليه بحسم وسرعة يد التغيير ؟ !

واستمر أدهم يسرح ويشطح هكذا وهو ينظر إلى الشارع المائج بالناس ، إلى أن نبهه شعبان بصيحاته المزهوة وقوله له وهو يشير إلى الشارع الكبير تحتهما إنهما الآن فعلا على سطح الدنيا . هنا حقاً يمكن أن يشعر بوجودهما الناس . ويمكن أن يأتى إليهما زباين . وكان الهواء والنور يملآن الشقة كلها . فتنفس شعبان بملء رئتيه . وتذكر الجحر الذى خرجا منه . والفراش الذى عشش فيه البق . ونظر إلى النظافة حوله وقال : «أظن المبيت هنا غير مسموح به» . ولم يتلق رداً . فرد هو على نفسه «طبعاً لا . الشقة كلها مكاتب . معنى ذلك بالمحسوس أن هنا محل عمل فقط لا غير» .

ودق جرس الباب . فأسرعا معاً وفتحاه وظهر منير عاطف وخلفه البواب . وأشار بيده إلى البواب لينصرف . ودخل هو تواً إلى الحجرة الثالثة . وجلس إلى المكتب بجوار التليفون . ونظر إليهما لحظة وهما واقفان أمامه ينتظران أن يبدأ بالكلام . لكنه انصرف عنهما ، وأمسك بالسماعة وأدار القرص وخاطب شخصاً بكلام لم يفهما مضمونه . ثم أنهى المكالمة ، ونهض متجهاً إلى الحجرة الأولى وهما يتبعانه صاغرين . وأشار إلى أدهم ليجلس إلى المكتب . فجلس دون أن ينبس بكلمة . . .

## المنظر الرابع

(منير عاطف ينظر إلى أدهم وهو على مكتبه الجديد . . .)

منير : يعجبك هذا المكتب ؟

أدهم : عظيم . والشقة كلها عظيمة !

منير : ( يلتفت إلى شعبان ) وأنت يا أستاذ شعبان . . مكتبك طبعاً في الحجرة الثانية .

شعبان : ربنا يخليك ويطيل لنا عمرك !

منير : هذه الشقة كانت في الحقيقة مكتبي الخاص . أحضر فيها من وقت لآخر لمباشرة شئون العمارة وتصريف أعمالي الأخرى . وجدت أني أقدر أتنازل لكم عنها . طبعاً إذا سمحتم أنا محتفظ لنفسي بالحجرة الثالثة ، التي فيها التليفون . لكن في إمكانكم استعمال التليفون . . في حضوري وأثناء غيابي . . في أي وقت . . . تحت أمركم .

شعبان : يا سلام يا سعادة البك . الشقة كلها شقتك على كل حال .

منير : لا أبداً . الشقة مؤجرة لكم وباسمكم . وما أنا هنا إلا مجرد ضيف عابر .

أدهم : عابر ؟ لا يا منير بك . . أنت الكل في الكل .

منير : أنتم أمام الناس والقانون أصحاب البيت . المسئولون عنه .

شعبان : لكن سعادتك أنت المؤسس لهذا البنك .

منير : هذا كلام بيننا وبين بعض .

أدهم : والشركة الموجودة ؟

شعبان : سعادتك أهم شريك .

منير : أنا شريك بالمال . يعني أقدم لكم المساعدات بصفة أخوية . والآن ندخل في العمل . قبل كل شيء أحب أعرف مواردكم المعيشية . هل لكم إيراد ودخل ثابت ؟

أدهم : الواقع أننا . .

شعبان : فعلاً أننا . .

منير : مفهوم . . كنتم إذن معتمدين على هذا المشروع .

أدهم : مضبوط .
منير : فى هذه الحالة يحسن أن أنظم لكم أمور معيشتكم . . حتى تستطيعوا التفرغ لعملكم بمنتهى خاو البال . خصوصاً وأن مركزكم هنا فى الشقة يقتضى ظهوركم بمستوى معين من ... من حيث المظهر . . ما رأيكم لو خصصت لكل واحد منكما مرتباً ثابتاً خمسة وعشرين جنيهاً فى الشهر ؟
أدهم : خمسة وعشرين جنيهاً فى الشهر ؟ !
منير : قليل ؟
شعبان : نعمة من الله !
أدهم : لكن . . هل سيأتى هذا المشروع بأرباح تساوى ؟ . . نفرض أنه لم يأت بأرباح تذكر . . أو أتى بخسارة ؟
منير : مسألة الأرباح والخسائر هذه نتركها على جنب . لا نفكر فيها إلا آخر السنة .
أدهم : وإذا اتضح أنك أنفقت علينا أكثر من الدخل ؟
منير : لن أطالبكم برد شىء طبعاً .
أدهم : تتحمل كل هذه الخسارة ؟
منير : هذا شأنى . لا تشغل بالك الآن بهذه الأمور .
شعبان : فعلاً . لا تشغل بالك الآن يا أخى ! .. بشر ولا تنفر . تفاءل يا أخى تفاءل ! . . واترك سعادة البك يتصرف !
منير : نعم . . اتركونى أتصرف . . اتفقنا ؟
أدهم : اتفقنا .
شعبان : الاتفاق مقبول طبعاً يا سعادة البك . لكن طبعاً فى حالة الأرباح الزائدة عن المنصرف . . .
منير : تقصد الزائد عما أنفقته عليكم ؟ بدون شك . . إذا فرض

وتحققت أرباح يكون لكم نصيبكم .

شعبان : يعني لنا مرتب ثابت ونصيب فى الأرباح ؟

منير : بالضبط . إذا فرض وكان هناك أرباح !

أدهم : بعد خصم المصاريف طبعًا بما فيها مرتباتنا .

منير : طبيعى . . أرجوكم . . اتركوا التفكير الآن فى مسألة الأرباح والخسائر هذه . . وأحب أن أنبهكم من الآن إلى عدم المغالاة فى تقدير أتعاب . أو مطالبة الزباين بأجور . . أنا أفضل عدم إرهاق الزباين .

شعبان : يعنى لا نطالب بأتعاب ؟

منير : أفضل أن تتركوا الزبون حرًا يدفع أو لا يدفع .

شعبان : بالنسبة إلى أتعابنا وأتعابه ؟

منير : جميع الأتعاب على السواء . لا تهتموا كثيراً بهذا الجانب المادى .

شعبان : عجيبة ! فى هذه الحالة المشروع سيأتى حتماً بخسارة .

منير : أنا وحدى المتحمل لكل خسارة .

شعبان : وما هى المصلحة ؟

منير : المصلحة المعنوية . الجانب المعنوى هو الأهم .

أدهم : الجانب المعنوى ؟

منير : بالتأكيد . ترك الناس تتكلم . . . أقصد إتاحة الفرصة للزبون يفضى بكل ما فى صدره . . يكشف عن بواطن نفسه . . عن أسباب قلقه . .

أدهم : هذا كلام جميل . لكن يعنى . .

شعبان : لكن يعنى . . ماذا بعد ذلك ؟

منير : لا شىء . هذا هو كل ما عليكم أن تفعلوه .

أدهم : لكن فكرة البنك هى أن نعالج الزبون ويعالجنا .
منير : دعكم الآن من حكاية العلاج هذه .
أدهم : لكن . .
منير : مجرد استخراج ما فى بطن الزبون هو نفسه علاج . .
( البواب يظهر )
البواب : لا مؤاخذه يا بك . . . الست مرفت هانم والست خالتها . . .
منير : آه . . لا بد كانت عند الخياطة .
مرفت : ( داخلة بسرعة وخلفها خالتها ) فعلاً كنا عند خياطتى فى العمارة ، وقلنا نمر عليك يا عمى كالمعتاد .
منير : أهلاً . . انتظرونى فى حجرتى هناك . . . أنا غيرت الحجرة . . لأن بقية الشقة الآن مشغولة . تنازلت عنها لحضراتهم . . ( يقدم أدهم وشعبان ) الأستاذ أدهم والأستاذ شعبان . . عندهم مشروع مهم . . ربما نتحدث فيه كلنا فيما بعد . . ( يقدم السيدتين ) ومرفت بنت شقيقى . . . والست خالتها فاطمة هانم . .
أدهم : ( لمرفت ) أنا سبق رأيت مرفت هانم وهى طفلة فى الرابعة من عمرها . .
مرفت : رأيتنى وأنا طفلة ؟
شعبان : ( مبهوراً بجمالها ) رأيتها وهى طفلة ؟ ! أنت بختك من السما !
أدهم : ( لمرفت ) وكنت تبكين لتركبى حصان البك الوالد .
منير : الأستاذ أدهم من كفر عنبة . . يبقى ابن الشيخ عبد الصمد .
مرفت : لا أذكر أنى رأيتك .
أدهم : طبعًا ولا يمكن أن تتذكرى . أنت كنت صغيرة . أما أنا فكنت يومئذ طفلاً فى العاشرة . وكنا كلنا أطفال القرية

نتظر إليك عن بعد وأنت فوق الحصان .

مرفت : حتى حكاية الحصان هذه لا أذكرها جيداً .

أدهم : كان حصاناً أبيض فيما أذكر ، وله بقعة سوداء فى جبينه .
وكانت يومئذ الست الهانم والدتك . . .

مرفت : ( فى لهفة ) والدتى . . .

فاطمة : ( تجذب يد مرفت بشدة خارجة بها ) تعالى يا مرفت . . كفاية . .
تأخرنا ، نمر عليك فى وقت آخر يا منير بك !

منير : وهو كذلك . أنا على كل حال عارف الغرض من الحضور ،
ما دامت كانت عند الخياطة . . سأجهز المطلوب . .
( يشيعهما إلى الباب )

شعبان : ( هامساً ) يا سلام على الجمال !

أدهم : ( يغمزه ) هس . . بس ! . . اسكت ! . .

منير : ( يعود إلى مكانه ) الخياطة وحسابها . . شيء يطول شرحه ! . .

شعبان : اللهم صل على النبي ! . مرفت هانم تستحق أعظم خياطة فى
الدنيا . هى التى تزين الفستان وليس الفستان هو الذى يزينها !

أدهم : ( يهمس ) اسكت يا شعبان ! .

شعبان : ألا يحق لى أن أمدح الظرف واللطف والجمال . . الله جميل
ويحب الجمال يا أخى !

أدهم : يا شعبان ليس هذا وقته .

شعبان : هذا هو وقته . أنا أتكلم بمناسبة الخياطة . وكلام منير بك . .
واستنكاره حسابها وقوله إنه شيء يطول شرحه !

منير : أنا لا أستنكر ! . أنا فقط أقرر ملاحظة عامة . . الخياطة
والكوافير فى عصرنا الحاضر لهما قوانين نافذة على العالم كله .



شرقًا وغربًا .. هل يوجد من يستطيع مخالفة هذه القوانين ؟
في أي بلد من البلاد ؟ !

أدهم : صدقت . . حكومة عالمية . .

شعبان : حكومة رعاياها النسوان لا بد تمشي كالساعة . وما على الرجل غير الطاعة !

منير : هذا صحيح .

أدهم : فعلاً . . لو استطاع مذهب سياسي واحد أن يظفر بمثل هذا النفوذ على كل العالم . .

منير : على فكرة يا أستاذ أدهم .. نسيت أسألك .. لا تؤاخذني . . أنا سمعت أنك كنت في الاعتقال .

أدهم : متولي سعد قال لك ؟

منير : طبعاً ، لكن مجرد إشارة عابرة لم يذكر لي تفصيلات . .

أدهم : على كل حال لم يكن ذلك بسبب سرقة ولا نصب ولا خيانة أمانة . . لا شيء مما يخدش الذمة والشرف والكرامة .

منير : مفهوم . مسائل سياسية . .

أدهم : مجرد آراء .

شعبان : آراء سخيفة وحياتك يا بك !

أدهم : أنا آرائي سخيفة يا شعبان ؟

شعبان : أقصد أنها ليست خطيرة حتى لا ينزعج البك يا أخي . . افهم !

منير : ومن قال إني أنزعج ؟ ! بالعكس أنا يهمني أعرف كل شيء على حقيقته .

شعبان : حقيقة الأمر أن أدهم رجل طيب ابن حلال . وأن اعتقاله كان من باب السهو والغلط . وأفرج عنه حالاً في أمان الله .

منير : هذا شيء يسر . . لكن يبقى بعد ذلك سؤال أحب أن أسأله بدون إلحاح . سؤال غير مهم . ولك يا أستاذ أدهم أن ترفض الإجابة .

أدهم : تفضل . . تفضل . . أنا يهمنى أن أجيب على أى سؤال .

منير : ما هو موقفك السياسى ؟

أدهم : موقفى السياسى ؟ أنا . . أنا فى الواقع لم أحدده بعد . .

منير : أهذا ممكن ؟ رجل مثلك كان فى الاعتقال بسبب آرائه كما تقول أنت نفسك . .

أدهم : فعلاً بسبب آرائى .

منير : إذن لك موقف سياسى محدد .

أدهم : ليس من الضرورى .

منير : لا داعى للف والدوران . . قل لى بصراحة يا أستاذ أدهم . . هل أنت مع النظام ؟

أدهم : وأنت ؟

منير : أنا . . أنا طبعاً مع النظام .

أدهم : وأنا مثلك .

منير : صاحبك متولى سعد قال لى إنك يسارى متطرف . .

أدهم : وهل هذا . . شيء يخيفك ؟ !

منير : لا . أبداً . . أنا سيان عندى .

أدهم : ما دام الأمر كذلك فلماذا التحرى عن موقفى ؟

منير : لمجرد العلم بالشيء . ليس إلا . ما دمنا سنعمل معاً ، من الطبيعى إذن أن يعرف كل منا موقف الآخر .

أدهم : وهل نحن تحرينا عن موقفك ؟

منير : موقفى أنا واضح .

أدهم : وضح لنا أكثر . إذا سمحت .
منير : أنا طبعاً . . اشتراكى .
أدهم : اشتراكى برجوازى .
منير : بالضبط .
أدهم : أو برجوازى اشتراكى .
منير : تمام .
أدهم : أو يمينى يسارى . اشترأسمالى !
منير : ماذا تقول ؟
شعبان : أرجوكم . . أرجوكم . . هل هذه التحريات والأوصاف والتعريفات لازمة لعملنا هنا ؟ لها دخل بشغلنا ؟ !
منير : لا يا أستاذ شعبان . وأنا سبق قلت إن كل هذا لمجرد العلم بالشىء . لا أكثر ولا أقل . لمجرد معرفة كل منا أفكار الآخر . ونحن كلنا فى الواقع متفقون . ومن مبدأ واحد . وموقفنا واحد . وكل شىء على ما يرام .
شعبان : اطمئن يا منير بك من جهتنا اطمئن !
منير : أنا مطمئن . ومن نعم الله أننا نسير على سياسة كل شىء يمشى مع بعضه ما دام الجميع مع الدولة . ونحن كلنا مع الدولة والحمد لله .
شعبان : أنا أيضاً عندى سؤال . . تسمح ؟
منير : تفضل .
شعبان : اشتراكك معنا فى هذا العمل . . أقصد البنك . . وتحملك كل هذه المصروفات والنفقات . . بدون توقع أو نظر إلى أى ربح . . أهو مثلاً من قبيل . .
منير : من قبيل ماذا ؟

شعبان : من قبيل الهواية مثلاً . . أو شغل الفراغ أو . .
منير : لا أبداً . . هى فى الحقيقة مجرد رغبة فى . . فى الخدمة العامة .
شعبان : الخدمة العامة ؟
منير : خدمة إنسانية . . ألم يكن هذا هو هدفكم الأصلى من هذا المشروع ؟ . .
شعبان : طبعاً ، لكن . . بصراحة نحن كنا ننتظر من ورائه أيضاً شيئاً من الكسب . الكسب المشروع . . كأى عمل آخر أو حرفة تعول صاحبها .
منير : من هذه الجهة أنا ولله الحمد فى غير حاجة إلى الاحتراف .
شعبان : إذن أنت تتبرع بمالك لمجرد الفكرة ؟ !
منير : الفكرة فى الحقيقة أعجبتنى . . وسبق أن قلت لكم ذلك . دخلت مزاجى وسلبت لبى . . وكل مال فى سبيلها يهون .
أدهم : يا شعبان . . نحن سبق تكلمنا فى ذلك . . منير بك حر فى ماله . والفكرة تستحق . والمهم أنها وجدت من يتحمس لها . ما الداعى إذن إلى إعادة فتح باب الكلام فى هذا الشأن ؟ .
شعبان : لنكرر الشكر لمنير بك .. أقل منها يا أخى . . رجل يتحمس لفكرة ويتبرع بماله من أجلها . . لا ينتظر من ورائها جزاء ولا شكوراً .
أدهم : من هذه الجهة هو فعلاً جدير بكل ثناء وتقدير . .
منير : أستغفر الله . . أستغفر الله . أتركتم الآن . . عندى بعض أشغال أخرى مستعجلة . . إلى اللقاء .
أدهم : إلى اللقاء . . .
شعبان : مع ألف سلامة !

( يشيعانه إلى الباب ويعودان يفركان الأيدى استبشاراً . . )

أدهم : كل شيء يدل على أننا نجحنا .
شعبان : المحير هو أن هذا الرجل متفائل أكثر منا !
أدهم : ولماذا هذا محير ؟
شعبان : لأن تفاؤل هذا الرجل يصل إلى حد الهوس ! تفاؤلنا نحن مجرد صرف كلام ، لكن تفاؤله هو مترجم إلى صرف نقود !
أدهم : وماذا يهمك من هذا الهوس أو الجنون ؟ ! هذا شيء يحسن ألا نفكر فيه . .
شعبان : أنا الآن لا أفكر فيه .
أدهم : من يدرى ؟ إن الأفكار الكبرى لا يحققها أحيانًا إلا المجانين !
شعبان : أنا أفكر الآن فى شيء آخر .
أدهم : ما هو ؟
شعبان : جمال مرفت هذه . .
أدهم : لا ، ارجع يا شعبان . . ارجع ! أنا غير مستعد الآن لهذيانك . . سلام عليكم ! . .
شعبان : إلى أين ؟
أدهم : سلام عليكم .
( يتجه إلى الباب منصرفاً )
شعبان : أو تتركنى هنا وحدى . . خذنى معك !
( يسرع خلفه ويخرجان )

# الفصل الخامس

لم يترك شعبان رأس زميله بخير لحظة واحدة . طول الطريق وهما سائران لم يكف عن تصديع رأسه بالحديث عن مرفت التى فى حسن القمر . وأدهم يسد أذنيه ويفهمه أن الوصول إليها بقمر صناعى ينطلق من صاروخ لا يؤدى أيضاً إلى نتيجة . فهو سوف يتحطم فوق رمال مجدبة . ودخلا الجحر العامر بدرب الطبالى بشارع محمد على . فقد تم الاتفاق على أن تكون مواعيد العمل فى البنك من الرابعة مساء حتى العاشرة . لأن فترة الصباح قد يكون الناس فيها مشغولين بأعمالهم . وضماناً للمحافظة على المواعيد رأى الزميلان أن يقطنا معاً ، حتى يكون كل منهما منبهاً ، ومشجعاً للآخر . فترك شعبان غرفته بالسطح ، وقرر مساكنة أدهم بصفة مستديمة . فالشقة وإن كانت جحراً فهى تسمى شقة . وما دام معهما الآن نقود ففى الإمكان تنظيفها وتحسينها . وأول ما ينبغى عمله هو شراء سرير جديد ومرتبة نظيفة جديدة لشعبان . وأن تخصص له حجرة مستقلة ، هى حجرة المكتب . وأن يباع هذا المكتب لتاجر الربابيكيا . فلا حاجة إلى مكتب هنا ، ما دام مقر العمل هناك ، بعمارة شبرا على المكاتب الفاخرة . وما دام تاجر الربابيكيا سيشرف فليأخذ بالمرة سرير أدهم القديم ومرتبته المرصعة بالبق . ونقوده فى جيبه لشراء سرير جديد هو الآخر . . كان منير عاطف قد منح كلا منهما مرتب شهر مقدماً ، حتى يستطيعا الانتظام فى المعيشة . كل شىء إذن سائر على ما يرام . وما كان كل ذلك ليخطر لهما إلا فى الأحلام .

لكن صورة مرفت لا تريد أن تترك شعبان . أما لو ظفر بها . .

كانت هذه الأمنية ترعب أدهم ويحسب لها حسابًا . إن الكنز الذى فتح لهما بابه قد يسده شعبان بحماقته . وحاول أن يثنيه عن هذا المطلب الشائك . فالنساء كثيرات . وإذا شاء اللعب فليلعب بعيداً عن الشغل . امتثل شعبان على رغمه . وإن كان لم يكف عن اللف والدوران حول سيرة مرفت . هل هى حرة ؟ هل هى متزوجة ؟ لا يمكن أن تكون فتاة لم تتزوج بعد ، وهى الآن تقترب من الثلاثين . جميلة ثرية . إذن هى متزوجة . ومن هو زوجها ؟ وأين هو ؟ ثم خالتها فاطمة هانم هذه بوجهها المكتئب وملامحها الصارمة وذبول المرأة التى جاوزت الخامسة والأربعين ؟ . . إنها فيما يبدو ذات سلطان كبير على الشابة الحسناء . فهى عندما أمرتها بالانصراف انصاعت فى الحال . وهذا العم منير بك الذى يصرف شئونهما المالية فيما ظهر . كان قد قال إن شقيقه عادل عاطف قد توفى . لكن والدتها ؟ أين هى ؟ وهنا تذكر شعبان أنه عندما جاء ذكرها على لسانه لفظت مرفت بشىء من الاضطراب كلمة « والدتى » وعندئذ أسرعت خالتها بقطع الحديث وأمرتها بالانصراف السريع ! . .

جعل شعبان يثرثر هكذا . وأدهم يصغى أحيانًا ولا يصغى . لكن الموضوع دعاه بدون أن يشعر إلى استرجاع الذاكرة . مرت برأسه أطياف بعيدة لأفراد تلك الأسرة ، عندما كانوا يمرون بالجرن وقت دراس الأرز وهو صبى صغير فوق النورج . كان البك الكبير الأنيق عادل يرف أحيانًا فى عباءة من الحرير الأبيض أو من الصوف الأسود الخفيف . كان وقتئذ فى نحو الأربعين . وكانت تسير إلى جواره زوجته وهى يومئذ فى الثالثة والثلاثين . كل ما يذكر منها تلك الغلالة البنفسجية حول رقبتها وشعرها . وخلفها أختها الصغرى فاطمة . كانت فى نحو العشرين ، هيفاء بارزة النهدين ، ترى دائمًا وفى يدها كتاب . لم تكن قد انقطعت عن مواصلة دراستها . تلك هى هذه الخالة . يا للزمن!

كيف يغير الأجسام والملامح ! أما منير هذا فلا يذكر أنه رآه من قبل . كانت أرضه فى الناحية على بعد خمسة كيلومترات . وكان مقيماً فيها . وربما كان يتم التزاور بين الشقيقين فى فترات لم يكن ليلحظها صبى فى سن أدهم . ولم يكن لزوجة عادل أرض هناك . فقد كان يقال فى الناحية إن الثروة ثروة عادل بك عاطف وأسرة عاطف . . تلك هى كل معلومات أدهم التى استخرجها من بين غبار ذاكرته . لكن شعبان يريد الاستزادة . ولا تهمه أى تفصيلات بعيدة عن شخص مرفت . ولم يأخذ أدهم صديقه مأخذ الجد . فهو يعرف أن أمثاله من أزيار النساء لا ينفذ فيهم الحب الحقيقى إلى أعماق دفينة . إنما هو نهم طارئ أمام كل صنف جديد من أصناف النساء . ثم إنه فرصة لموضوع حديث يحب أن يصول ويجول فيه أمثالهم . فليتركه إذن يمضى فى ثرثرته . فالكلام لا خطر فيه . وتظاهر بالاستماع إليه وهو مستلق على سريره . لقد رفض شعبان الاقتراب من هذا السرير . وآثر النوم واقفاً أو جالساً على كرسى الخيزران المثقوب .

وفى صباح اليوم التالى بادرا إلى تنفيذ ما اتفقا عليه من تجديد الشقة . ثم ذهبا لتناول الغداء فى مطعم نظيف معتدل . لم يسرفا فى الطلب هذه المرة . فأمامهما شهر كامل عليهما تدبير المعيشة فيه تدبيراً محكماً . لأن النقود إذا نفدت خلاله فلن يجرؤا على طلب سلفة من هذا الممول الكريم ، وهما لم يقوما بعد بأى إنتاج أو نشاط . وما إن وافت الساعة الرابعة حتى كانا فى مقر العمل . المحافظة على المواعيد فى البداية أمر ضرورى . .وعند الدخول فوجئا على باب الشقة المحترمة بلوحة نحاسية مكتوب عليها « بنك القلق » . وقال لهما البواب إن منير بك كان قد أمر بإعداد هذه اللوحة ، كما أمر أيضاً بتركيب لافتة خشبيه كبيرة على جدار الشرفة من الخارج ، ليراها الماره فى الشارع . ولم يكن

الزميلان قد خطر لهما ذلك، فلم يرفعا البصر إلى الشرفة وهما داخلان . فهبطا إلى الشارع مرة أخرى ونظرا إليها بزهو . ثم عادا وصعدا وجلسا . كل إلى مكتبه بوقار كتمثال .

# المنظر الخامس

( فى مكتب أدهم . وقد دخل عليه شعبان )

أدهم : لماذا تركت مكتبك وجئت ؟
شعبان : جئت أنظر إليك وأنت جالس هكذا بوقار !
أدهم : ولماذا لا تجلس أنت أيضاً على مكتبك بوقار ؟!
شعبان : جلست . ولكنى مللت .
أدهم : وأنا أيضاً .
شعبان : الجلوس على المكاتب هكذا شىء ممل !
أدهم : جداً .
شعبان : إذا كنا نساء كنا جئنا معنا بخيط تريكو وقعدنا نسلى أنفسنا بشغل الإبرة !
أدهم : هنا ليست مكاتب حكومة . . هنا بنك .
شعبان : وإذا لم يحضر زبون لهذا البنك ؟ !
أدهم : صبرك يا أخى . . الصبر . . . الصبر . .
شعبان : نصبر . . لكن يعنى . . أنت متأكد ؟
أدهم : متأكد من ماذا ؟

شعبان : من أنه سيدخل عندنا زبون ؟

أدهم : بعد هذه الشقة المحترمة . . فى هذه العمارة الفخمة . . فى شارع شبرا المزدحم . . وهذه اللافتة الكبيرة على الشرفة . . وهذه اللوحة النحاسية على الباب . . وهذا البواب القائم على العتبة . . قلم استعلامات للداخل والخارج . كل هذا ولا يحضر زباين ؟ !

شعبان : افرض . . افرض . . ماذا يكون موقفنا ؟

أدهم : موقفنا مضمون لمدة سنة . أنسيت أن عقد إيجار هذه الشقة هو لمدة سنة قبض المالك القيمة منا مقدماً . ومعنا الإيصال ؟

شعبان : وماذا نصنع بالشقة ! المهم المرتب . هل يستمر يدفع لنا المرتبات مع عدم حضور زباين ؟

أدهم : هذا احتمال لا بد أنه فكر فيه وعمل حسابه .

شعبان : عمل حسابه على طردنا وقفل البنك . هذا بالنسبة له أسهل حل .

أدهم : من فضلك لا تكركب بطنى !

شعبان : نغش أنفسنا ؟ ! الموضوع كله من أوله لآخره لا يدخل العقل . إلا إذا كان هذا الرجل مصاباً بلوثة فى عقله !

أدهم : وهل كنا نحن مصابين بلوثة فى عقولنا عندما خطرت لنا هذه الفكرة ؟ !

شعبان : نحن شىء آخر .

أدهم : تريد أن تقول إننا مجانين أصلاً ؟ !

شعبان : أريد أن أقول إن جنوننا معقول . لكن عندما تدفعنا الفكرة إلى أن نأتى بناس نتنازل لهم عن شقة فخمة، ونعطيهم عقود إيجار ، ونسلم لهم إيصالات ونجلسهم على مكاتب ، وندفع

لهم مرتبات . .

أدهم : يا أخى نحن لسنا مسئولين عن عقول الغير ! . .

شعبان : وهو كذلك .

أدهم : تفاءل . . تفاءل ! . .

( جرس الباب يرن . . )

شعبان : الجرس . . زبون !

أدهم : اذهب حالاً وافتح !

شعبان : أنا الذى أذهب وأفتح ؟! صراف الخزينة ؟ !

أدهم : وهل الذى يذهب المدير ؟ !

شعبان : أمرى إلى الله !. ( ويذهب ويفتح ويصيح ) أهلاً وسهلاً ! يا ألف مرحب . . الشقة نورت . . الدنيا كلها أنوار . .

مرفت : ( داخلة بسرعة ) عمى هنا ؟

شعبان : ( خلفها ) سيحضر حالاً . . تفضلى استريحى .

أدهم : ( ينهض ويقدم لها المقعد ) تفضلى يا هانم .

مرفت : ( تجلس ) مرسى ! . . أنا فى الحقيقة مندهشة من هذه اللافتة وهذه اللوحة على الباب !. . ما معنى بنك القلق هذا ؟ ! أنا وخالتى كنا نتساءل الآن عن ذلك ، ونحن نصعد إلى الخياطة فى الشقة المقابلة . . تركتها هناك تجرى بروفة على فستان ، وحضرت أسأل عمى . .

شعبان : تحت أمرك . . نحن نستطيع أن نجيب .

مرفت : قولوا لى إذن ! . . ما هى حكاية هذا البنك ؟ !

شعبان : حكايته طويلة تحتاج لشرح . . إذا سمحت ننتقل إلى مكتبى فى الحجرة الثانية . .

مرفت : وما هو الداعى ؟ !

أدهم : حقاً ما هو الداعى يا أخى ؟ أليس هنا أيضاً مكتب ؟
مرفت : فهمونى الحكاية باختصار . . لأنى لا أستطيع أن أمكث هنا أكثر من خمس دقايق .
شعبان : خمس دقايق فقط ؟ ! هذا لا يكفى للشرح .
مرفت : ( تنظر إلى الساعة فى معصمها ) عشر دقايق .
شعبان : نحن فى غاية السعادة بهذه الدقايق . ونسأل الله أن يمد فى طولها وعمرها !
مرفت : ادخلوا فى الموضوع أرجوكم . . عمى مشترك معكم ؟
شعبان : طبعاً . . يعنى . .
مرفت : يعنى ؟
شعبان : يعنى بكرمه وفضله وتشجيعه و . . .
مرفت : المهم ما هى فكرة هذا البنك باختصار ؟
شعبان : هى فى الواقع فكرة . .
أدهم : أنا أقول لك يا هانم . . باختصار لاحظنا أن كل إنسان عنده شيء يقلق باله . . فى ناحية من النواحى . .
مرفت : طبيعى .
أدهم : وكل مصاب بالقلق فى حاجة إلى علاج .
مرفت : آه . . طب نفسانى ؟
أدهم : لا أبداً . . نحن لسنا أطباء . نحن أيضاً مرضى . ومهمتنا أن يفتح الناس صدورهم لنا ونفتح صدورنا لهم . علاج متبادل .
شعبان : وهذا هو الفرق بيننا وبين الطبيب النفسانى . . الطبيب النفسانى يعتقد أنه هو السليم وأن الناس هم المرضى !
مرفت : تقصدون أن تبادل الشكوى فيها راحة أكثر .

شعبان : تمام يا هانم .
أدهم : لأن المريض عندما يجد طبيبه أكثر منه مرضاً يخف ألمه ويشعر براحة .
شعبان : وعندئذ ينقلب الطبيب إلى مريض والمريض إلى طبيب . وبالعكس . .
مرفت : شيء غريب !
شعبان : هذه هي كل الفكرة باختصار .
مرفت : لكن . . ما علاقة ذلك بالبنك ؟ !
شعبان : العلاقة موجودة . . البنك يقرض ويقترض فى نفس الوقت . . أليس كذلك ؟
مرفت : أظن .
شعبان : نحن أيضاً كذلك .
مرفت : ماذا ؟ تقرضون وتقترضون ؟
أدهم : لا . . نعالج ونتعالج . . هذا هو أساس التشابه . .
مرفت : إذن أنتم مرضى باستمرار ؟ !
شعبان : طبعاً . ما دام الزبون مريضاً فنحن لا بد أن نكون مثله وأكثر منه !
مرفت : لكن . . عندما يحضر إليكم مريض . . لا بد طبعاً من أن يكشف لكم عن سبب قلقه . . أحياناً يكون السبب شخصياً جداً . . كيف يضمن حفظ السر ؟
شعبان : الأسرار هنا يا هانم فى الحفظ والصون .
أدهم : نحن لا نطالب أحداً بالكشف عن أسراره الخاصة . . يكفى أن يتكلم كلاماً عاماً بشكل يريحه .
مرفت : ( تنهض للانصراف ) مرسى ! . . أنا أخذت فكرة عن الموضوع .

شعبان : العشر دقايق لم تنته بعد .
مرفت : يجب أن أنصرف . . خالتى منتظرة .
شعبان : لكنك . . لم تخبرينا عن رأيك ؟
مرفت : رأيى فى ماذا ؟ !
شعبان : فى هذا البناك ؟
مرفت : لا أدرى آ . . هل حضر إليكم أحد ؟
شعبان : نحن لم نفتتحه بعد بصفة رسمية . . لماذا لا تكونين أنت أول من يفتتحه لنا ؟
مرفت : أنا ؟ !
شعبان : إنها لسعادة كبرى لنا أن تكونى أنت أول زبون .
مرفت : ولكنى أنا لست مريضة .
شعبان : لا نقصد المرض . لا سمح الله . . لكن لا بد عندك بالطبع مثل كل الناس ما . . ما يقلق بالك . .
مرفت : ليس عندى قلق . . ولكن ربما بعض المضايقات . .
شعبان : نحن فى الخدمة . . اطرحى علينا هذه المضايقات !
مرفت : لا .
شعبان : وما هو المانع ؟
مرفت : المانع هو أنكم لستم من الطراز الذى يفهم ذلك .
شعبان : نحاول أن نفهم . .
مرفت : أقول لك إذن عن مسألة ضايقتنى بشكل فظيع . .
شعبان : ما هى ؟ . تفضلى قولى . . أنا خدامك ! . .
مرفت : تصور أن سكاندال دى‌سوار غير موجود على الإطلاق !
شعبان : ماذا ؟ !

مرفت : سكانداال دى سوار . . ألا تعرف ما هو سكانداال دى سوار ؟ . .

شعبان : والله أنا . .

مرفت : بالكلام العربى يعنى فضيحة المساء . . غير موجود على الإطلاق فى السوق !

شعبان : فضيحة المساء ؟ ! غير موجودة فى السوق ؟ ! إن كان على الفضايح فهى تملأ الأسواق !

مرفت : أى فضايح ؟ . . أتعرف ماذا أقصد ؟

شعبان : لا والله . .

مرفت : فضيحة المساء هذا اسم عطر جديد ظهر فى باريس . . آخر موضة فى العطور عند كارفن . . محل كارفن . . فاهم ؟ ظهر من أسبوعين ! . .

شعبان : آه . . لا مؤاخذة ! . .

مرفت : عندما تعلم أنه ظهر من أسبوعين . . ولا تستطيع الحصول عليه ، ماذا يكون شعورك ؟ ألا ترى أن هذا شىء مقلق للراحة . . مقلق للبال ؟

شعبان : طبعاً . شىء مقلق جداً !

مرفت : والأدهى والأمر إذا عرفت أن واحدة صديقتى وصلها هذا العطر من باريس . . وأنها تتيه وتتدلل وتفاخر به علينا . . وتغيظنا وتفرسنا وتكيدنا فى كل مكان . . شىء يجنن ويطير العقل أم لا ؟

شعبان : طبعاً شىء يجنن ويطير العقل !

مرفت : ومع ذلك . . أنا ولا يهمنى !

شعبان : ولا يهمك ؟ !

مرفت : هذه عادتى . كل ما يضايقنى أدوسه تحت قدمى . . ولذلك أنا التى أكيد وأغيظ كل صديقاتى بعدم المبالاة . .

شعبان : يا بختك !

مرفت : أنا لا أحب أن أعلن شكواى من أى شىء !

شعبان : ما دمت أنت كذلك فاسمحى لى أنا أن أشكو . . أنا مريض . . وأحتاج للمعالجة . . .

أدهم : اسكت يا شعبان . . ليس هذا وقته .

شعبان : أنا أتكلم بجد . . إذا كان الزبون ليس مريضاً ولا يشكو من أى شىء فله أن يعالجنا نحن . . أليس هذا هو مبدأ البنك ؟ أنا مريض . . والست تستطيع أن تشفينى . .

أدهم : أنا فاهمك . . ابعد ! . .

مرفت : (تحاول الانصراف) اسمحوا لى . . .

أدهم : أنا متأسف . . زميلى يحب المزاح .

مرفت : ظاهر عليه .

شعبان : أنا غلطت يا هانم ؟ سامحينى !

مرفت : لا أبداً . . لم يحدث شىء . . أنا مضطرة أنصرف . . لو كان عندى وقت كنت قعدت أكثر . ربما فى فرصة أخرى .

شعبان : وهل نطمع فى فرصة أخرى ؟

مرفت : ربما .

شعبان : كنت تسألين عن عمك . . إنه حتماً سيحضر هنا بين لحظة وأخرى . لو مكثت معنا خمس دقائق أخرى . .

مرفت : لا أريد ترك خالتى تنتظر طويلاً عند الخياطة . .

شعبان : أنت دائماً مع خالتك . . يظهر أنك تحبين خالتك كثيراً .

مرفت : طبعـًا .
شعبان : وطبعـًا أولادك . .
مرفت : أولادى ؟ ! ليس عندى أولاد .
شعبان : وزوجك ؟
مرفت : ليس عندى زوج .
شعبان : لم تتزوجى بعد ؟ !
مرفت : تزوجت مرتين .
شعبان : مرتين ؟ وماذا حصل ؟ . .
مرفت : طلاق .
أدهم : كفاية يا شعبان . . كفاية . . هذا لا يصح بالمرة !
مرفت : دعه يسأل . . يظهر أن عنده حب استطلاع شديد . . لننظر إلى أين يريد أن ينتهى . . اسأل !
شعبان : وتعيشين الآن بمفردك ؟
مرفت : مع خالتى . . فى منزلنا بالدقى والمنزل به حديقة . والحديقة بها زهر ياسمين على السور . . وهذا الياسمين أبيض اللون . . عندك أسئلة أخرى ؟
شعبان : والست والدتك ؟
مرفت : ( تضطرب ) والدتى ! . . أرجوكم . . عن إذنكم . . أورفوار ! ( تنصرف سريعاً )
شعبان : أنا قلت كلمة غلط ؟ !
أدهم : أنت زدتها . . وكنت فى غاية السماجة والجليطة !
شعبان : انصرفت مضطربة عند سؤالها عن والدتها . . ما له السؤال عن أمها ؟ !
أدهم : وأنت لماذا تسأل يا أخى ؟ !

شعبان : كلها أسئلة بريئة . . عادية . ألا تذكر فى المرة السابقة عندما جاء ذكر أمها . . كاد يحدث نفس الشيء ، لولا سحبتها خالتها . .

أدهم : يظهر أنها نقطة حساسة عندها !

شعبان : الأم ؟ لماذا ؟

أدهم : من يدرى ؟ هنا فعلاً شيء من الغموض !

شعبان : هى كلها غامضة . وهذا يزيدها سحراً ! .

أدهم : دعك من سحرها ! ولا تكرر ذلك . وإلا عرضتنا لمشاكل ربما هددت شغلنا . . التفت أنت إلى شيء نافع !

شعبان : وهل هناك أنفع من دخول الجنة . . هذه المرأة هى الجنة !

أدهم : جنة أسوارها شوك !

شعبان : أنا لا أدخل الجنة من فوق الأسوار . . أنا أدخلها من الأبواب . . عندى جملة مفاتيح !

أدهم : مفاتيح مزيفة طبعاً .

شعبان : مفاتيح والسلام ! . . ومجربة على كل قفل . . تراهن ؟

أدهم : أنا لا أراهن ولا أوافق على هذه الحماقة . وأحذرك يا شعبان . اترك هذه المرأة . نحن لسنا من طراز هذه الفئة !

شعبان : أهذه امرأة تترك ؟ ! بذمتك . . ألا يتمناها أى واحد ؟ . . وأنت يا أدهم . . لماذا لا تجرب حظك ؟

أدهم : أنا ؟ ! أنا لا أستطيع أن أعقد صلة بامرأة أشعر أنه لا تربطنى بها وحدة تفكير .

شعبان : تفكير ؟ ! ولماذا تريد عقد صلة تفكير بين رجل وامرأة !

أدهم : وأى صلة تريد عقدها بين رجل وامرأة ؟ !

شعبان : الصلة الطبيعية يا أخى ! أنت تعقد الأمور بدون لازمة !

ومع ذلك ما هى صلة التفكير الّتى تربط مثلاً . . بينى وبينك ؟ أو بيننا وبين منير بك ؟ !

أدهم : ما يربطنا بمنير بك أنت عارفه . تمويل مشروعنا . . . لا أكثر ولا أقل .. أما ما يربطنى بك أنت ، فأنت أيضاً عارفه .

شعبان : لا . أنا غير عارفه .

أدهم : ألا تعرف ما يربطنا من تفكير ؟

شعبان : لا . قل لى ما هو تفكيرنا ؟

أدهم : أتجهل ما هو تفكيرك ؟

شعبان : أنا أسألك عن تفكيرك أنت ؟

أدهم : هذا شيء يحتاج إلى شرح طويل .

شعبان : اشرح لى . . أهو التفكير الذى أدخلك السجن ؟

أدهم : ليس الآن وقت الكلام فى ذلك . . نحن هنا فى مكان عمل . ومن واجبك التركيز فى هذا العمل وحده . . إلا إذا كنت تريد فشل المشروع ، وتشردنا من جديد !

شعبان : لا . . لا . . أعوذ بالله ! أنا ذاهب إلى مكتبى ! إلى العمل ! . . فليحى العمل !

( يخرج سريعاً . . . ويترك أدهم على مكتبه فى انتظار العمل . . . )

# الفصل السادس

كان جرس الباب الذى يرن من حين إلى حين مخيباً للآمال . فنى أكثر الأحيان كان رن الجرس بسبب خطأ فى الشقة . وعلى الرغم من اللوحة النحاسية فوق الباب ، فإن كثيرين كانوا يظنون أنها عيادة طبيب أو مكتب محام أو محاسب ولا يكلفون عيونهم مشقة قراءة اللوحة . وكانت مهمة شعبان المضنية أن يضع أصابعهم على اللوحة قائلاً : « هنا بنك . . . بنك » . . . فإذا قرءوا كلمة « القلق » استغربوا وسألوا وابتسموا وانصرفوا . . . ومضت أيام لم يقصدهما زبون . . . وبدأ يلعب فى عبهما الشك وبوادر اليأس ، لولا نشاط منير عاطف المملوء بالتفاؤل . فقد جاء بكهربائى مد سلكاً بين جهاز التسجيل الذى فى حجرته رقم ثلاثة إلى الحجرة الأولى والحجرة الثانية ، حتى يستطيع وهو فى حجرته أن يستمع إلى ما يقوله الزبون الموجود عندهما . كما قام بوضع توصيلة تليفون داخلية على مكاتب أدهم وشعبان ، حتى يستطيع الاتصال بهما وهو جالس إلى مكتبه . ولماذا كل هذه التركيبات والترتيبات ، إلا أن يكون هذا الممول الشجاع واثقاً كل الثقة من حضور زبائن .

وبدأ يعود إليهما الاطمئنان عند ما ظهر خبر طريف عن « بنك القلق » فى الجريدة التى بها متولى سعد . لا شك أنه نشر بإيعاز من منير عاطف أو بماله . فعلى الرغم من صداقة أدهم وزمالته لهذا الصحفى فإنه ما كان يجرؤ على نشر سطر واحد عن مشروع كهذا لو أنه بقى فى حيزه الأول المضحك بتلك الشقة الحقيرة فى درب الطبالى .

لكن هنا فى هذا المكان الجاد بين عيادات الأطباء ومكاتب المحامين والمحاسبين ومحال الخياطات والموضات كل شيء يصبح جديراً بالالتفات . وكان من الطبيعي أن يأتى متولى لزيارة المكان الجديد ويرى ما صارا إليه من نعمة . ومر بالحجرات الثلاث متفقداً . كان ذلك فى غيبة منير بك . ثم جلس يخرج لهما مما فى جرابه الصحفى من أخبار ومعاومات . إنه من طراز أولئك المخبرين الصحفيين الذين ينتقلون بين الأخبار كالنحالة بين الأزهار ، أزهار البرتقال أو البرسيم . لا يلتصق بمبدأ بالذات أو بمذهب . . . ولا يخالط صنفاً واحداً من الناس . فهو مع كل من يمده بخبر . وعند كل من يجد عنده إشاعة أو كأساً من الويسكي . وحينما جاء ذكر منير بك قال إنه كان يسهر عنده من ليلتين . فى شقته بالزمالك . شقة فخمة بها بار أمريكانى عامر بالويسكي الجيد والمزة الطيبة . يقيم فيها مع خليلته . امرأة رومية كانت عاملة مانيكور عند حلاقه . وهى معه من سنوات بعد أن توفيت زوجته بنت أحد أعيان الريف وأم ولديه . وهو لا يرى الآن ولديه ، فأحدهما معيد بكلية هندسة عين شمس وموفد فى بعثة إلى ألمانيا ، والآخر كان محامياً شاباً واعتقل بتهمة الشيوعية قبل ثورة ١٩٥٢ . وهو الآن موظف بشركة شل ومقره الإسكندرية .

وبدا هذا غريباً أن يكون لأسرة عاطف التى تملك نحو ألف فدان فى كفر عنبة منوفية ابن شيوعي ! . . . وربما كان ذلك لتكملة الصورة . فقد كان المرحوم عاطف باشا الجد يرى لذة الهوى والمصلحة فى التنقل ، بين الأحزاب . . . إلى أن استقر فى حزب الملك فؤاد . أما ابنه منير فانضم إلى حزب الوفد . فى حين أن الابن الآخر عادل كان مع حزب الأحرار . وهذا التوزيع نفسه شمل بالطبع تابعيهم من الفلاحين . فكان لا بد للشيخ عبد الصمد أن يكون صوته حراً

دستوريا ويعطيه لعادل بك ، كما لا بد لزوج بنته وهو من فلاحى منير بك أن يكون صوته وفدياً ويعطيه لمتبوعه . وبعد أن وزعت الثورة الأراضى على الفلاحين ، ولم يبق لمنير غير مائة فدان ، ظهر بمظهر الراضى المحبذ لهذا الإجراء . المتغنى بعدالة الإصلاح الزراعى . وجعل يتحكك بالحزب الواحد الموجود : الاتحاد الاشتراكى . ولما وجد أن انضمامه إليه رسمياً أمر متعذر بحكم القانون اعتبر نفسه منضماً بالعقيدة والرغبة فى التعاون . وسعى إلى عقد الصلات مع أمناء الاتحاد والمديرين والمحافظين وكل من له سلطة فى القرية .

وقد قربوه بالفعل . وأصبح بيته هناك مفتوحاً للجميع . إنه رجل بجبوح . قال متولى سعد إنه عند ما أراد أن يجرى تحقيقه الصحفى عن الاتحاد الاشتراكى نزل عنده هناك فى بيته الريفى فأكرمه كل الإكرام وحضر مجلساً له مع بعض الفلاحين المستأجرين لأرضه ، فوجده يشيد لهم بمآثر الثورة . ويقول لواحد منهم : اسمع يا عبد المقصود ، أنا مع الثورة وأحب الثورة . أنا اشتراكى . وكل ما فعلته الثورة خير وعدل وإصلاح . . . لكن يعنى بذمتك والشهادة لله كانت أيامنا سيئة ؟ ! . ألم نكن نوزع عليكم الكساوى فى المواسم ونذبح الذبائح فى الأعياد ونجعل الخير عليكم يعم ؟ ثم يلتفت إلى متولى ويهمس فى أذنه أن الثورة المباركة تنفخ فى قربة مقطوعة ، لأن الفلاحين غير قديرين على الإنتاج ، وأن الإنتاج الزراعى ساء حاله اليوم وتدهور . . . ثم لا يلبث أن يأتى من يبلغه بأرقام المحاصيل عند المستأجرين لديه تلك السنة ، فإذا هى مرتفعة ، فيلتفت هامساً : « تصور أن هذا الفلاح الماكر كان على أيامنا يتكاسل ويتغافل ، والآن عند ما أصبح المحصول له يكد ويعمل بيديه وأسنانه ! . . . » ثم يفطن إلى نفسه

فيعود حالاً إلى الترنم بأمجاد الثورة . . .لكنه رجل بجبوح . ليس ثقيل الظل . والويسكى عنده جيد والمزة طيبة .

وأراد شعبان أن يجر الكلام إلى مرفت . فهذا الصحفى المنتشر لا يمكن أن تخفى عليه خافية . لكن كل ما كان يعلمه متولى عنها لا يعدو ما سبق لشعبان أن عرفه : والدها توفى وكذلك والدتها بعده بقليل . وأنها تقيم مع خالتها العانس وحدهما فى منزلها بالدقى : فيلا بناها والدها وكتبها وأهداها لوالدتها . وقد ورثت عن والدها عمارة فى مصر الجديدة ، علاوة على ما آل إليها من أرض فى كفر عنبة . ووالدها ووالدتها ماتا وهى فى السادسة فتولت خالتها تربيتها وتزويجها . تزوجت فعلاً مرتين وطلقت . المرة الأولى أحد رجال السلك السياسى ذهبت معه إلى باريس ، فلما نقل إلى شيلى تركته يذهب وحده . وطلبت الانفصال عنه . . . وهنا عقب شعبان بقوله : « لها حق . أمثل هذه تذهب إلى شيلى ؟ ! » فرد عليه أدهم قائلاً : « طبعاً لا . . . إنما تذهب إلى درب الطبالى ! » واستطرد متولى يتحدث عن زواجها الثانى من طبيب جراح شاب ناجح . لكنها لم تطق استيقاظه مبكراً ليجرى عملياته فى الثامنة صباحاً . وأعطاها شعبان الحق على طول الخط . . . فالثامنة صباحاً هى بداية النوم اللذيذ عند أصحاب الذوق السليم ! . ولكن الظاهر أن خالتها فاطمة هانم دللتها كثيراً على الرغم من صرامة هذه الخالة وقسوتها فى حق نفسها . فهى لم تفكر فى الزواج ، مكرسة حياتها لرعاية بنت أختها اليتيمة . وشغلت فراغها بالقراءة . تلك هوايتها . على عكس مرفت . لكن لماذا ضحت هذه الخالة بحياتها هذه التضحية من أجل بنت أختها ؟ قال شعبان : يبدو أن فى الأمر سراً لا بد أن يجد له مفتاحاً .

ولاحظ الصحفى الخبيث اهتمام شعبان ، فنظر إليه نظرة ماكرة ،



فهمها أدهم وأسرع يغطى الموقف بقوله إن كل ما يعنيهما من الأمر هو محاولة فهم هذه الطبقة . ما هو موضعها الحقيقى فى هذا المجتمع المتغير ؟ . . . وهل المجتمع يتغير حقًّا ؟ وفى نظر من يتغير ؟ وإلى أى مدى هذا التغير ؟ وهل هو حقًّا تغير حقيقى من الداخل ؟ أو مجرد مظاهر خارجية ؟ ! . . . وهز متولى سعد رأسه واكتفى بذلك . وبدا عليه التعب فجأة . فكل ما يخرج عن دائرة الخبر المجرد يجعله يتثاءب . . . حتى التعليق أو التحليل لخبر من الأخبار يراه شيئًا مملاً لا طاقة له به وسرعان ما يحول مجرى الحديث بنكتة أو قفشة وينهض منصرفًا ، وهكذا نهض سريعًا لينصرف . وترك الزميلين وهو يقول إنه سيعود فى وقت آخر ليعرف ما يستجد من أخبار البنك . . .

وجلسا هما ينتظران كالعادة ظهور الزبون . وامتد بهما الانتظار ، حتى فقد الانتظار نفسه معناه . وكادا ينسيان أنهما ينتظران أحداً أو شيئًا . . .

وإذا بجرس الباب يرن . . . فلم يلتفتا إليه . أو التفتا ولم يصدقا . ولكنه يرن حقًّا . . .

# المنظر السادس

(أدهم جالس إلى مكتبه جامداً وأمامه شعبان . وجرس الباب يرن . .)

شعبان : أهو يرن حقًّا ؟

أدهم : أوتظن أننا نحلم ؟

شعبان : وهل هو زبون حقًّا ؟

أدهم : هذا ما سنعرفه عند ما تفتح الباب .

شعبان : وهل أنا الذى سيفتح الباب ؟

أدهم : طبعاً . ومن غيرك ؟

شعبان : ولماذا لا تفتح أنت ؟

أدهم : لأنى أنا المدير .

شعبان : وأنا الصراف .

أدهم : لا يوجد الآن صراف . ألغيت هذه الوظيفة . لأن البلك الممول هو الذى يتولى كل الشئون المالية .

شعبان : إذن لا يوجد أيضاً وظيفة مدير .

أدهم : كيف ذلك ؟

شعبان : لأن البلك الممول هو الذى يتولى أيضاً الإدارة العامة . وما أنت إلا موظف هنا . مقرك الحجرة رقم واحد .

أدهم : وأنت كذلك على هذا الاعتبار مجرد موظف آخر مقرك الحجرة رقم اثنين .

شعبان : تمام . أى لا فرق بينى وبينك . ولذلك عندما يرن الجرس واحد منا يفتح .

أدهم : أنت . لأنك رقم اثنين ، وأنا رقم واحد . ورقم واحد مفضل على رقم اثنين . . .

شعبان : الرن سكت . يظهر أن الزبون انصرف .

أدهم : طبعاً . ما دمنا أضعنا الوقت فى زحلقة الشغل. كل منا على الآخر . ابتدأنا نعمل شغل موظفى الحكومة .

شعبان : الحق عليك أنت يا أخى . اسمع الكلام الجد . تعال نوزع الاختصاص بيننا بالعدل .

أدهم : وهو كذلك . مسألة الباب . . . الذى يسمع الرن أولا يذهب ويفتح .

شعبان : لا . . . يفتح الله . . . أنت من الآن لن تسمع شيئاً . ستكون دائماً أطرش !

أدهم : ولماذا لا يكون أنت الذى ستدعى دائماً الصمم والطرش ؟ ! .

شعبان : أحسن طريقة نترك الباب مفتوحاً . . . وهذا هو المعقول . أيوجد بنك يغلق بابه فى أوقات العمل ؟

أدهم : صدقت . نترك الباب مفتوحاً هذا فعلاً من شيمة البنوك .

شعبان : مسألة الباب حلت . ندخل فى اختصاص العمل . . .

أدهم : اختصاص العمل نتركه لظروفه . فمثلاً إذا دخل عندى زبون فى موضوع عويص لا أسلك فيه أحوله عليك .

شعبان : ومن جهتى نفس الشىء طبعاً .

أدهم : طبعاً . على شرط الذمة والأمانة والنية السليمة . . .

شعبان : بالنسبة للطرفين .

أدهم : اتفقنا .

( جرس الباب يرن . . )

شعبان : الجرس ! . . . أنا متبرع بالفتح هذه المرة لأثبت لك النية السليمة وسأترك الباب مفتوحاً حسب الاتفاق . . .

أدهم : شكراً .

( يذهب شعبان لفتح الباب . . ثم يعود برجل فى نحو الخمسين يخطو بتردد . )

الزبون : مساء الخير !

أدهم : (ينهض مستقبلا) أهلاً وسهلاً . . . تفضل . . . ( يقدم له المقعد ) شرفت . . . سيجارة ؟ ؟ سجاير يا شعبان !

شعبان : ( فى نبرة احتجاج ) نعم ؟ ! رجعنا ؟ ! ( يخرج فى الحال )

الزبون : لا . متشكر . . . أنا لا أدخن . . .

أدهم : قهوة ؟ . . .

الزبون : لا . . . أرجوك لا لزوم . . . أنا . . . فى الواقع كنت مارًّا فى الشارع وقرأت اللافتة « بنك القلق » . . . ترددت فى الدخول . وفعلاً بعد أن صعدت وضربت الجرس رجعت ونزلت . ثم فكرت قليلاً واستخرت الله ، وصعدت مرة أخرى إليكم . . .

أدهم : خيراً . . .

الزبون : الأمر وما فيه يا سيدى . . . هل أستطيع أن أتكلم عما يقلقنى ؟

أدهم : طبعـًا . تفضل . هذا عملنا .

الزبون : ربما وجدت عندكم المشورة . . . لن أطيل . . . بكل اختصار أنا لى ابن فى الثامنة عشرة من عمره . كان مثال الطالب المجتهد . نجح بتفوق وامتياز فى الإعدادية وكان من العشرة الأوائل للقطر كله . وفى هذا العام تقدم إلى الشهادة الثانوية العامة . لكن مع الأسف وقع فى حب فتاة ... بنت الجيران . وتعلق بها إلى درجة التدله . بل إلى حد الذهول عن نفسه وعن مستقبله . و بالفعل رسب رسوبـًا شنيعـًا . هو الذى لم يعرف الرسوب قط . . . وهو الآن يعيد السنة . لكن ما يقلقنى هو أنه يعيدها ويعيد معها نفس المأساة . وقد نصحته كثيراً . لكن ما به أقوى من النصح . وهو نفسه مقتنع تمامـًا بكل ما أنصح به . وهو أعلم منى بسوء حاله . وأشد شعوراً بأنه يضيع نفسه . ولكنه مستمر . لأنه غير قادر على التخلص مما هو فيه . . .

أدهم : إذن أى كلام معه لا ينفع .
الزبون : لا . . . لا ينفع مطلقاً ... تعبنا من الكلام . قولوا لى ماذا أفعل ؟
أدهم : هون عليك ! . . . أنا أيضاً فى صباى كنت مثل ابنك هذا بالضبط . حدث لى نفس ما حدث له . . . بالحرف . . .
الزبون : وكيف كانت النتيجة ؟
أدهم : كما ترى .
الزبون : أرى على الأقل أنك تحمل شهادة عليا .
أدهم : لا أبداً مع الأسف . لم أفلح فى الدراسة .
الزبون : هذا شىء غير مطمئن .
أدهم : ترى أن حالتى غير مطمئنة ؟
الزبون : العفو . . . أنا لا أقصدك . . . أنا أقصد ابنى .
أدهم : ابنك فاجأه الحب فى وقت غير مناسب . كالبهلوان الذى تفاجئه عطسة الزكام وهو سائر على الحبل !
الزبون : والعمل ؟
أدهم : أمره لله ! . . . وليرحمه المولى عز وجل !
الزبون : ألا يوجد حل ؟ !
أدهم : لعنة الله على الحب وسيرة الحب ! هذا فى الحقيقة ليس من اختصاصى . اذهب إلى الحجرة رقم اثنين !
الزبون : الحجرة رقم اثنين ؟
أدهم : نعم ... صنف الحب ومشتقاته هناك . عند زميلى فى الحجرة الثانية . . . تفضل عنده !
الزبون : ( ينهض ) شكراً !

( يخرج . . ولا يمضى لحظة حتى يظهر زبون ثان فى الخامسة والثلاثين نشيط الحركات )

الزبون٢ : تسمح ؟ . . .

أدهم : تفضل .

الزبون٢ : أنا كنت فى الحجرة الثانية والأستاذ هناك حولنى على حضرتك هنا .

أدهم : أهلاً وسهلاً . . .

الزبون٢ : الموضوع باختصار أنى قرأت . . .

أدهم : اللافتة التى على الشارع . . .

الزبون٢ : بل الخبر المنشور فى إحدى الجرائد . وأعجبنى أن توجد جهة مختصة بالقلق . الواقع أنا فى غاية القلق . لا بسبب حالة خاصة . بل للحالة العامة التى نعيشها . هذه الرجعية التى حولى ، هذا المجتمع الرجعى الذى أتنفس فيه . . . تصور سيادتك . . . ولا بد أنك لاحظت . . . أبسط شىء . . . برامج الإذاعة والتليفزيون مثلاً . . . تصطبح فيها على شيخ مطمطم وتمسى فيها على شيخ مطمطم . . . ونسمع ونشاهد بين كل فقرة وفقرة ندوات وموضوعات ومناقشات دينية أكل عليها الدهر وشرب . . .

أدهم : ولكن الدين ضرورى لهذا المجتمع . . .

الزبون٢ : التقدم أيضاً ضرورى . وما يقلقنى هو أنى أشعر أنى لا أعيش فى مجتمع تقدمى بالمعنى الحقيقى .

أدهم : هذا شعورك ؟ ! .

الزبون٢ : وأنت سيادتك ألا تشعر نفس الشعور ؟ . . .

أدهم : أحياناً . لكن على كل حال المسألة لا تدعو إلى القلق .

لكن اسمح لى أولاً أسألك لماذا حولتك الحجرة رقم اثنين إلى هنا ؟ !

الزبون٢ : قال لى الأستاذ هناك إن الزندقة بكافة أنواعها من اختصاص سيادتك . . .

أدهم : الزندقة ؟ ! قال لك هذا ؟ !

الزبون٢ : بالحرف الواحد .

أدهم : وهل أنت زنديق ؟

الزبون٢ : وأرحب بهذا الوصف .

أدهم : لكني أنا . . . لا أرحب أن يقال عني . . . ولا تؤاخذني . . .

الزبون٢ : هل أنت مع التقدمية أو الرجعية ؟

أدهم : اسمح لى من فضلك . . . ما هو الذى تريده بالضبط ؟ .

الزبون٢ : أريد القضاء على كل تفكير متخلف ... أريد عملاً حاسماً عنيفاً يفسح الطريق أمام كل فكر تحررى تقدمى . . . إن مستقبل العالم هو فى هذا الاتجاه . . . ويجب أن ينقلب مجتمعنا ونصبغه صبغة جديدة حقيقية . فهمت قصدى ؟ . .

أدهم : لكن كيف ؟ . . . بأى الوسائل ؟

الزبون٢ : بكافة الوسائل . . . المهم قبل كل شيء هو إجراء عملية إيقاظ لعقل المجتمع . . .

أدهم : الموضوع خطير . . .

الزبون٢ : طبعاً .

( جرس التليفون يرن )

أدهم : ( يرفع السماعة ) ألو . . . أفندم . . . سيادتك ؟ . . . آه سيادتك وصلت من الباب المفتوح . . . سمعت ؟ . . . آه الركوردر . . . و . . . ماذا ؟ . . . آه مفهوم . . . تريده

حالاً . . . وهو كذلك . سأرسله فوراً . . . ( يلتفت إلى الزبون ٢ ) تسمح .

الزبون٢ : نعم . . .

أدهم : ( وهو يضع السماعة ) تفضل هناك فى الحجرة رقم ٣ .

الزبون٢ : رقم ثلاثة ؟ !

أدهم : نعم . . . الحجرة الثالثة . . . موضوعك يهم رقم ثلاثة . . .

الزبون٢ : شكراً . . .

( يخرج ... ولا يمضى قليل حتى يظهر زبون ثالث فى يده سبحة ... )

الزبون٣ : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ! . . .

أدهم : وعليكم السلام ورحمة الله . . . تفضل !

الزبون٣ : أنا كنت ماراً فى الشارع .

أدهم : مفهوم . وقرأت اللافتة المعلقة .

الزبون٣ : تمام . هذا ما حصل .

أدهم : أفندم ؟

الزبون٣ : قلت أدخل لأزيح عن نفسى الكابوس الجاثم على صدرى .

أدهم : الكابوس ؟

الزبون٣ : نعم . هذا الإلحاد المتفشى فى البلد . . . أنا كل يوم أستيقظ فى الفجر . أتوضأ وأصلى وأستغفر الله لهذا المجتمع الملحد ، الذى نعيش فيه . هذا الجو المتحلل الذى نتنفسه . حتى استبد بى القلق على مصير هذه الأمة المؤمنة . . . تصور يا سيدى الإذاعة مثلاً . . . بين كل أغنية وأغنية أغنية . . . وانظر إلى التليفزيون تجد كل مذيعة ومذيعة وكل مطربة وراقصة مثل لحطة القشدة ، والعياذ بالله ، ما هذه المغريات يا أخى . . . إلى أين نحن مساقون ؟ !

أدهم : أنت فيما يظهر رجل شديد التدين .

الزبون٣ : جداً . وأشعر بمنتهى القلق على مستقبل الدين .

أدهم : الدين بخير يا سيدى . اطمئن .

الزبون٣ : أطمئن ؟ ! كيف يمكن الاطمئنان والبلد بهذا الحال ؟ . . . لا بد من عمل حاسم . . .

أدهم : عمل حاسم ؟ !

الزبون٣ : عمل قوي يزيل من على وجه الأرض هذا الضلال . إن نار الله الموقدة يجب أن تصب صباً على مجتمع بهذا الفجور والإثم والكفر المبين . . .

أدهم : يا ساتر ! . . .

الزبون٣ : هذا هو القلق الذى عندى وعند كافة المؤمنين . . . وأنت لا شك منهم . . . أليس كذلك ؟ . . .

أدهم : طبعاً . لكن . . . على كل حال شئون الدين من اختصاص الحجرة رقم اثنين . . . تسمح تشرف هناك ! . . .

الزبون٣ : الحجرة رقم اثنين ؟

أدهم : نعم . الحجرة المجاورة .

الزبون٣ : وهو كذلك . (ينهض)

(جرس التليفون يرن)

أدهم : (يرفع السماعة) ألو . . . أفندم . . . آه سمعت ؟ . . . أرسله هو أيضاً . . . حاضر . . . سأرسله حالاً . . . (يضع السماعة ويلتفت إلى الزبون ٣) تفضل حضرتك فى الحجرة رقم ثلاثة .

الزبون٣ : قلت لى رقم اثنين .

أدهم : حصل تعديل . موضوعك يهم رقم ثلاثة .

الزبون٣ : وهو كذلك . شكراً . . .

( يخرج . . ولا يلبث أن يدخل شعبان . . )

شعبان : ما هذه الأصناف يا أخى ؟ !

أدهم : ما لها ؟ !

شعبان : أصناف تحير .

أدهم : أصناف المعاملات ! . . . البنك بدأ أعماله بحق وحقيق . . . وأنواع العملة فى القلق من كل لون بدأت فى الصادر والوارد ؟ . . .

شعبان : لكن أنا بصراحة . . . محتار ولايص فى هذه الشغلة !

أدهم : الحال من بعضه ؟ . . .

شعبان : أنت أيضاً لا تجد ما تقوله لهؤلاء الناس ؟ !

أدهم : ولا كلمة مفيدة استطاعت أن تخرج من رأسى . يظهر أن المسألة ليست سهلة كما كنا نتصور ! . . .

شعبان : بالاختصار نظرية البنك ظهر أنها كلام فارغ ! . . .

أدهم : بل ظهر أن دماغنا هو الفارغ !

شعبان : معنى كلامك أننا نقفل البنك ونعود إلى حالة التشرد ؟ !

أدهم : وهل فى إمكاننا حتى أن نقفله ؟ الشقة باسمنا لمدة عام . ومرتباتنا مدفوعة مقدماً لمدة شهر . ولم يظهر حتى الآن أن الممول اشتكى من شىء . بالعكس . يظهر أنه هو بدأ يأخذ الشغل بجد ! . . .

شعبان : على رأيك . نعمل إذن ما نقدر عليه والسلام .

أدهم : وهل أنت عملت أى شىء حتى الآن ؟ كل الحكاية زبون وحولته على أنا .

شعبان : وأنت ؟ ألم تحول علىّ أنا زبونك ؟ !

أدهم : على كل حال منير بك المول حمل عنا زبونين . . . بناء على طلبه تليفونياً ولا بد أنه طلب منك أنت أيضاً . . .

شعبان : لم يحصل بعد .

أدهم : والزبون إياه . . . القلق على غرام ابنه ؟ . . .

شعبان : عندى فى الحجرة . . . وأنا متحير فى شأنه ! . . .

أدهم : ألم يطلبه منك منير بك ؟ . . .

شعبان : أبداً . ولا سأل عنه .

أدهم : يظهر أنها حالة لا تثير اهتمامه !

شعبان : ماذا أقول لهذا الأب المسكين ؟ . . . حب المراهقين هذا لا يقدر عليه إلا الله ! . . .

أدهم : اسمع يا شعبان . . . ألا تذكر أن منير بك كان قد اقترح تعديل الفكرة ؟ . . . وقال لنا دعكم من التركيز على مسألة الحل والعلاج ؟ ! ولا تطالبوا أحداً بالأتعاب ؟

شعبان : نعم . قال ذلك .

أدهم : إذن المهمة أصبحت بسيطة . ما دام الزبون غير مطالب بأتعاب ، ونحن غير مطالبين بتقديم العلاج . . . فلنقصر عملنا على مجرد الاستماع . . .

شعبان : وما الذى يستفيده الزبون ؟

أدهم : يستفيد أنه وجد جماعة متفرغين لسماعه .

شعبان : تظن يعنى . . . أن هذا . . . .

أدهم : هذا وحده عمل نافع . . . أؤكد لك . . . هناك أحيان كثيرة يضيق فيها صدر الإنسان لكتمان ما فى نفسه . ويريد الكلام بحريته . ويحتاج إلى مجرد شخص واحد يستمع إليه . . .

شعبان : إذا كان على الاسماع هذا شيء نقدر عليه .

أدهم : والآن . . . هيا إلى العمل . . . بكل تفاؤل ! . . .

شعبان : يعني أنا أسكت . والزبون يتكلم . . . وإذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . . . أى أن الفضة من نصيب الزبون والذهب من نصيبنا ! . . .

أدهم : وهذا هو بالضبط عمل البنك . . . كل بنك !

شعبان : تمام . . . تمام . . . إلى العمل إذن . . .

(يخرج إلى مكتبه . . . )

# الفصل السابع

كانت الفيلا التى تقطنها مرفت وخالتها فى الدقى مكدسة بالرياش . ليس فقط لأن مرفت فى زواجها الأخير أضافت أثاثاً إلى أثاث ، ولكن لأنها هى نفسها من رواد المزادات . ما من مزاد مشهور إلا وتوجد فيه ، مع صاحبات لها ممن يبحثن مثلها عن التظاهر ، وعما يضيعن فيه فراغ فترة الصباح . وإن لم تجد أحداً يرافقها ألحت على خالتها فتذهب معها مرغمة . إما إلى مزاد أو سينما أو ملهى من ملاهى الليل أو مباراة من مباريات كرة القدم . لكن هذا لا يحدث إلا نادراً . فهى قلما تعدم معارف . من طرازها يلازمونها فى أكثر الأوقات . . .

فى ذلك الصباح كانت مترددة بين الذهاب إلى النادى تجلس مع شلة الدردشة وبين اللف على الدكاكين . وأمسكت بسماعة التليفون كالعادة تسأل صاحباتها السؤال الروتينى : « إيه البرجرام النهاردة ؟ » . كل ذلك وعين خالتها الجالسة فى الركن ترمقها من فوق صفحة كتاب فى يدها . وتسائل نفسها عن مدى مسئوليتها فى دفع مرفت إلى هذا النوع من الحياة ؟ إنها لا يمكن أن تكون مسئولة عن فشلها فى الزواج . فهى لم تختر لها الأزواج . مرفت نفسها كانت هى التى تختار فى كل مرة . كانت تقول إنها استلطفت وأحبت ولا بد لها من الاقتران بمن أرادت . وبنفس الطريقة تقول بعد ذلك إنها أخطأت وزهدت ولا بد لها من الانفصال عمن تزوجت ! . . . أيكون التدليل هو المسئول ؟ لكن هل كان فى استطاعتها أن لا تدللها ؟ . . هناك فى أعماق نفسها أسباب كثيرة تدعوها إلى تدليل مرفت . لو كانت الأم هى التى تولت

تنشئتها أما كان من الممكن أن تصبح خيراً من ذلك ؟ ربما . . . او كانت الأم فى حالة تسمح لها بتولى أمر ابنتها . إن ستاراً كثيفاً بينهما كان لا بد أن يقوم على أية حال .

لكن هل التنشئة هى وحدها المسئولة ، أو أن شيئاً ما أثر فى أعصاب هذه البنت منذ تلك الليلة المشئومة ؟ ! ومع ذلك فلا توجد أى أعراض تدعو إلى استشارة طبيب . ولا ينبغى فتح هذا الباب حتى لا يكون هناك اضطرار إلى الكشف عن أسرار يجب أن تظل دائماً فى طى الكتمان . ربما كان المطمئن فى الأمر أن مرفت نفسها لا تشعر بأى شىء غير طبيعى فى حياتها أو شخصها أو سلوكها . وإن كان هناك قلق فهو قلق الخالة . إنها تقرأ وتفكر وتلاحظ هذه الحياة الضائعة التى تجهل مرفت نفسها أنها ضائعة . ولطالما فكرت فى أن زواجاً ثالثاً قد يصلحها . لكن مرفت مصرة على غلق باب الزواج نهائياً . حتى باب الحب . لقد عرفت الحب كما تقول بما فيه الكفاية . هذا لا يمنع من أنها تصادق من حين إلى حين من تستلطفه وتنشئ معه علاقة ، ثم تتركه إلى غيره وهكذا . . . لكن هذا لم يعد يعنى من ناحيتها أى ارتباط . لم يعد شىء يربطها بشىء . وهذا هو ما يخيف خالتها . وإن كان يعزيها قليلاً أن مرفت ليست الوحيدة . فهى واحدة من ضمن فئة تعيش نفس هذه الحياة . . . غاية اهتماماتها آخر نكتة وآخر إشاعة وآخر موضة ! حاولت الخالة مرات أن تثبت قدمى مرفت على أرض صلبة . لكن الجواب كان هز الكتفين ، كانت تغريها أحياناً بالتشبه بأمها ، وتشير لها إلى صورة الأم فى إطارها المذهب بالجدار : « كان لأمك مثل أعلى » . هذه الكلمة تبدو الآن غريبة فى مجتمع هش . ليس بداخله إيمان حقيقى بشىء أكثر من اقتناص المغانم ! . . .

وهذه الخالة وإن كانت تعيش الآن فى نعمة ، فإنها ما زالت تذكر الطبقة البسيطة التى خرجت منها هى وأختها الكبرى . كان والدهما معاون إدارة المركز . لا يتجاوز مرتبه خمسة عشر جنيهاً . إلا أنه عنى بتربيتهما فى المدارس . كانتا مواظبتين على الدراسة ، دون أن تقعدا عن الكد الذى نشأتا عليه فى شئون المنزل . كل شىء كانتا تقومان به بيديهما . شغل البيت كله من طهو وكنس وغسل وكى فى أوقات الفراغ ، لإراحة أمهما المريضة دائماً . ثم تفصيل الثياب التى تذهبان بها إلى المدرسة . كدح مستمر لم ينقذهما منه إلا المصادفة التى تحدث فى الحواديت . لمح عادل بك أختها الكبرى وهى فى السابعة عشرة بقرب المركز فى انتظار أبيها . راقت فى عينه . وأرادها زوجة له رغم القيامة التى قامت فى أسرته . صمم وانتصر . وبهذا انتقلت الأخت الكبرى إلى حياة جديدة . ولحقت بها أختها فاطمة عندما ماتت أمهما المريضة وتبعها الوالد المتقاعد . منذ ذلك اليوم تم التحول الخطير فى مصير فاطمة .

وليته كان مجرد تحول . لكنه انتهى إلى مأساة . ليست فقط المأساة التى جعلت منها عانساً . لكنها المأساة التى أشعلت هذا البيت كله . ولم تكن مرفت ليلة المأساة قد جاوزت السادسة ، وهى لا يمكن أن تحيط منها إلا بظاهر عابر لا يمس الصميم . وقد أخفيت عنها الحقائق بإحكام . عنها وعن الناس جميعاً . حرصاً على مستقبلها . وهى الآن قد قاربت الثلاثين ، ولا تعرف شيئاً عما حدث أكثر مما أريد لها أن تعرف . كل شىء يسير فى نظرها طبيعياً . لكن خالتها قلقة . وقلقها يشتد يوماً بعد يوم . إلى أن كان يوم خطر لها خاطر ، وهى فى طريقها إلى الحياطة ، وقد وقع نظرها على اللافتة « بنك القلق » . إنها هى الأخرى لم تكن تنظر إليها أول الأمر بعين الجد

وعندما ذهبت مع مرفت إلى الشقة فى المرة الأولى لمقابلة منير بك، لم تحفل بأدهم وشعبان، وهما يقدمان إليها على أنهما شريكان أو مساعدان لمنير فى مشروع من مشاريعه. لكن ما معنى هذا المشروع المقترن بكلمة «القلق»؟ وأى نوع من القلق؟... وهل يمكن أن يكون له نفع فى حالة مثل حالتها؟...

# المنظر السابع

(أدهم فى مكتبه.. والباب يدفع)
(يظهر شعبان فى حركة سريعة..)

شعبان : أنت الذى حولت علىّ فاطمة هانم؟

أدهم : طبعاً.

شعبان : طبعاً طبعاً. لو كانت مرفت كنت استبقيتها لنفسك. لكن على رأى المثل «لو كان فيها خير ما كان رماها الطير»!

أدهم : دعك من هذه الأفكار السخيفة. أنا حولتها عليك لأنى لا أريد أن أدخل فى مسائل خاصة بهذه الأسرة. ولو كانت هى مرفت ذاتها كنت حولتها عليك كذلك.

شعبان : حقيقى؟

أدهم : ثق من ذلك. والأيام بيننا.

شعبان : فهمت. أنت تتحاشى هذه الأسرة باعتبار أنهم من بلدكم..

أدهم : افهمها كما تفهمها. المهم ابعدنى عن هذا النوع من الزباين. وعلى فكرة... ما هو الذى تريد أن تعرضه عليك؟

شعبان : لم أسألها بعد . أنا تركتها الآن فى حجرتى . وأردت أطلب لها قهوة ولكنها رفضت . واستأذنت منها لحظة وجئت إليك . وأنت بالطبع لم تسألها . . .

أدهم : لا . بمجرد أن قالت إن عندها مشكلة خاصة تقلقها لم أجعلها تفتح الموضوع . وقلت لها إنك أنت المختص بالمشكلات الخاصة . ومدحت لها طبعاً فى كفاءتك المزعومة !

شعبان : المزعومة ! . . . على كل حال تشكر . . . وربنا يوفقنى أكون عند حسن ظنك .

أدهم : وحسن ظنها هى .

شعبان : بالطبع . هذا هو الأهم . . . تعرف أنك فى الحقيقة خدمتنى !

أدهم : خدمتك ؟ !

شعبان : بتحويل هذه الست إلىّ أنا . . . إنها هى المفتاح . . .

أدهم : المفتاح ؟ . . .

شعبان : إلى الأخرى . . . ألا تذكر قولى لك إن فى جعبتى مفاتيح لهذه الأمور ؟ اسمع كلام مجرب ! . . . عندما تكون أمام امرأتين متلازمتين ، إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة ، وتريد الوصول إلى الصغيرة ، ابدأ بالكبيرة ! . . .

أدهم : تريد أن تقول . . .

شعبان : ولا كلمة الآن . . . هذا سر المهنة ! . . . أتركك الآن لأباشر مهام أعمالى الناجحة بإذن الله . . . إلى اللقاء ؟

أدهم : تصرف بعقل . . . أرجوك !

شعبان : لا تخف . . . أخوك فى منتهى حسن التصرف ! . . .
(يخرج سريعاً . .)

أدهم : ربنا يهديك ! . . .

( يظهر على الباب زبون رابع )

الزبون٤ : ممكن أدخل ؟ . . .

أدهم : تفضل . . . أهلاً وسهلاً !

الزبون٤ : أنا .

أدهم : أفندم . . . فى الخدمة !

الزبون٤ : ضرورى أقدم نفسى ؟

أدهم : لا أبداً . . . هذا غير ضرورى نحن لا نطالب بأى بيانات شخصية . احتفظ باسمك . قدم لنا فقط الموضوع . موضوع القلق الذى عندك ؟ . . .

الزبون٤ : أنا . . . بعضهم نصحنى باستشارة طبيب نفسانى . . . والبعض أكد لى أنى لست مريضاً . . . الحكاية كلها أنى متحمس زيادة عن اللزوم . . .

أدهم : متحمس ؟ ! يا ساتر . . . خير ؟

الزبون٤ : هو حقيقة تحمس عنيف !

أدهم : فى . . . سياسة ؟ !

الزبون٤ : لا . . . لا . . . فى الكرة . . . أنا زملكاوى . أقصد من حزب الزمالك . . .

أدهم : آه . . . الحمد لله ! حزب الزمالك ! . . . أحزاب أهون من أحزاب !

الزبون٤ : ستقول لى وماذا فى ذلك ؟

أدهم : فعلاً . . . ماذا فى ذلك ؟

الزبون٤ : أقول لحضرتك . . . ما من مرة حضرت فيها مباراة بين الزمالك والأهلى إلا وأحدثت كارثة ! . . .

أدهم : كارثة ؟ . . . من أى نوع ؟

الزبون٤ : أشرح لك . وكل هذا والله رغم عنى . لأن المكتوم فى نفسى انفجر !. . حصل مرة أن الزمالك كاد فى الشوط الأخير يصيب الهدف ، لولا اصطدام الكرة بخشبة المرمى . لم أطق . ولم أشعر بنفسى . وإذا يدى التقطت شيئاً لم أفطن إذا كانت عمامة أو كاسكيت ، فوق رأس الشخص الذى بجوارى ، وقذفت بها فى الهواء وسط الملعب . . . وبالطبع حدث هياج حولى وخناقة ، خصوصاً وقد اتضح أن صاحب غطاء الرأس هذا الذى طار فى الهواء هو حيوان أهلاوى . . .

أدهم : بسيطة على كل حال .

الزبون٤ : وفى مرة أخرى تحمست لهدف عظيم أحرزه الزمالك ، فلم أشعر إلا ويدى قد تناولت طفلاً صغيراً من حجر أمه الجالسة بجوارى ورفعته فى الهواء . . .

أدهم : وقذفت به فى الملعب ؟ !

الزبون٤ : لا . من حسن الحظ أدركونى . . . ولكنهم أشبعونى لطماً وشتماً . . . وأنا أصرخ . . . هذا شىء غصب عنى يا ناس !

أدهم : بالطبع .

الزبون٤ : وأخيراً كدت أقتل رجلا !

أدهم : تقتل ؟ !

الزبون٤ : أهلاوى مغفل . . . جعل يناقشنى ويتحدانى ويستفزنى ويقول إن الأهلى هو الأصل وإن الدهن فى العتاق . . . وكلام فارغ من هذا القبيل . . . كان فى جيبى وقتها مطواة كبيرة ، ما أشعر إلا وقد أخرجتها وفتحت سلاحها وهجمت به عليه . . .

أدهم : وطعنته ؟
الزبون٤ : توسط بيننا أولاد الحلال ، ونصحونى أن أعرض نفسى على طبيب . لكن بصرف النظر عن كل شيء !. . هذا الوغد الأهلاوى أما كان يستحق ؟ . . .
أدهم : يستحق لكن . . .
الزبون٤ : لا تواخذنى . . . سهى على أسألك : أنت من أى حزب !. هل أنت زملكاوى أو أهلاوى ؟
أدهم : ( بسرعة ) زملكاوى طبعاً .
الزبون٤ : إذن أنا شخص طبيعى ؟
أدهم : بكل تأكيد . كل الناس يتحمسون للكرة . . . وما من أحد ، قال إنهم مرضى . كل ما فى الأمر أنك تنفعل قليلا ، وأن هذا الانفعال يضعك أحياناً فى مواقف محرجة .
الزبون٤ : أنا بغير هذا الانفعال أشعر أن حياتى راكدة . أنا لا أريد الذهاب إلى طبيب ، حتى لا يعطينى مهدئات لأن هذا هو ما سيفعله . تذهب إلى الطبيب فيقول لك توتر أعصاب ، ويكتب لك المهدئ. أنا يا سيدى متحمس . ويجب أن أتحمس لوجهة نظرى . لمبدئى . لعقيدتى . لماذا تريد إطفاء حماسى . . .
أدهم : لا يجوز .
الزبون٤ : قل لى مت أحسن ! لأن هذا موت . . . أن أكتم تحمسى ! أنا طاقة يا سيدى . . . طاقة . . . أريد أن أقف وسط الملعب وأصيح بملء فى . . .
أدهم : هذا من حقك .
الزبون٤ : ومن حق جميع المشاهدين ، وأنت أيضاً ولا شك تصيح فى كل المباريات .

أدهم : أنا لا أذهب كثيراً إلى المباريات . لى زميل هنا أجدر منى بالخوض معك فى هذا الموضوع . لكنه الآن مشغول .

الزبون٤ : ولماذا لا تذهب ما دمت تقول إنك زملكاوى ؟

أدهم : مشاغلى .

الزبون٤ : لكن المباريات دائماً يوم العطلة الأسبوعية .

أدهم : أنا شخصياً لا يناسبنى الانفعال الشديد .

الزبون٤ : حالتك الصحية ؟

أدهم : شىء كهذا . ولأسباب أخرى !

الزبون٤ : إذن أنت لا تتحمس لشىء ؟

أدهم : التحمس الشديد فيه خطورة .

الزبون٤ : على صحتك . مفهوم لكن . . . حياتك بهذه الطريقة تصبح على وتيرة واحدة . أنت طاقة يا سيدى . . . ماذا تفعل بهذه الطاقة ؟

أدهم : والله فى الواقع إنها . . . إنها أسلم طريقة . . . وأنا معك . . . أنت نبهتنى إلى مسألة حيوية . . . منذ اليوم ستجدنى معك فى كل المباريات . . . ومع استبعاد المطاوى والسكاكين ورمى العمم والأطفال سأكون إلى جوارك أهتف وأصيح بأعلى صوتى . . . هات يدك . . . اتفقنا ؟

الزبون٤ : ( يصافحه ) اتفقنا .

أدهم : أنت أقنعتنى بمسألة الطاقة هذه . .

الزبون٤ : ألم أقل لك ؟ . . . أنت طاقة مكبوتة يا سيدى .

أدهم : الحمد لله إنك عالجتنى أحسن علاج .

الزبون٤ : يظهر أنى حضرت فى الوقت المناسب .

أدهم : فعلاً . وكان الواجب أعطيك أتعابك .

الزبون٤ : أتعابى ؟
أدهم : بالطبع . ما دمت عالجتنى فأنت مستحق لأتعاب . لكن مع الأسف العلاج هنا أصبح مجانـًا بالنسبة للطرفين !
الزبون٤ : أنا لم يخطر ببالى أى أتعاب . ولا حتى أنى سأقدم لك أى خدمة .
أدهم : أنت قدمت لى خدمة جليلة . فعلاً أستطيع إخراج الطاقة التى عندى بهذه الطريقة المأمونة . . . شكراً يا سيدى شكراً .
الزبون٤ : العفو . . . أنا سعيد بهذه النتيجة . . . وأشعر براحة تغمر نفسى . داوم يا سيدى على حضور المباريات . . .
أدهم : سأنفذ نصيحتك بالحرف . . . وسأهتف وأصيح . . .
الزبون٤ : نهتف معـًا ونصيح . . .
أدهم : بملء الأفواه والحناجر .
الزبون٤ : إلى اللقاء فى الملعب .
أدهم : إلى اللقاء ! . . .
(يشيعه إلى الباب . . ويعود إلى مكتبه)
أدهم : (يدخل) زملكاوى . . . أهلاوى . . . زملكاوى . . أهلاوى . .
شعبان : (يدخل) قل لى يا أدهم ! . . .
أدهم : قل لى أنت أولاً . . . أنت زملكاوى أو أهلاوى ؟
شعبان : ما هى المناسبة ؟
أدهم : أجبنى أولاً . . . زملكاوى أو أهلاوى ؟
شعبان : أهلاوى طبعـًا .
أدهم : يا خبر ! . . . أهلاوى ؟ ! الحمد لله خلصت بجلدك !
شعبان : ماذا تقول ؟ . . .

أدهم : كان هنا الآن زبون . . . لو سمعك لكانت مصيبتك ثقيلة !
شعبان : دعنا من هذا ولندخل فى الجد . . فاطمة هانم التى عندى . .
أدهم : مالها ؟ . . .
شعبان : المسألة خاصة بمرفت . وطبعًا هذا شىء يسرنى . . . وبودى أطلب منها أن تجمعنى بمرفت . ولكنى متردد . لأول مرة أتردد . خفت أثير شكوكها . ما رأيك أنت ؟ هل أسير فى خطتى الأولى وأقوى صلتى بفاطمة هانم أولاً . . . أو أنتهز الفرصة وأتصل بمرفت مباشرة . . .
أدهم : رأيى أن تسير فى خطتك الأولى وتقوى صلتك بالخالة . . . هذا أضمن ، لأنك لن تملك عواطفك . وعندئذ ينكشف أمرك بسرعة . وتخسر كل شىء .
شعبان : لك حق . يجب السير خطوة خطوة . . . بحذر شديد . على كل حال عمل علاقة مع فاطمة هانم فيها مكاسب مؤكدة !
أدهم : مع التمسك بالحكمة !
شعبان : إن شاء الله ( يخرج مسرعاً ) .
( يظهر بالباب زبون خامس فى سن الكهولة . . )
أدهم : تفضل ! . . . أهلاً وسهلاً ! .
الزبون٥ : أنا فى الواقع . . . قرأت اللافتة . . .
أدهم : ( يشير إلى مقعد ) تفضل ! . . . استرح ! . . .
الزبون٥ : وقبل ذلك كنت قرأت خبراً طريفًا فى إحدى الجرائد . . . وبالطبع كلمة « القلق » لفتت نظرى . . . أنا وإخوانى على القهوة . . . وخصوصًا كلمة « بنك » . . . قلت إن الناس أدركوا أخيراً أن القلق عملة جارية الآن يلزم لها بنك !

أدهم : بدون شك .

الزبونه : أنا يا سيدى الفاضل مثل كل الناس أقرأ الصحف وأسمع الإذاعات ، وأصبح رأسى الآن تطير فيه الصواريخ العابرة للقارات ، وتلف فيه الأقمار الصناعية ، وتقوم الثورات وتدور المعارك ، والبيض يضطهدون السود . والرأسمالية تدمغ جبين كل من أراد التحرر من استغلالها بختم الشيوعية . والكرة الأرضية كلها تنطلق بنا فى الفضاء حول الشمس وفى جوفها قنبلة زمنية . وكلنا نعيش ولا نعرف ماذا سيكون غدنا . كل هذا فى رأسى . وأشرب فى اليوم عشرين فنجان قهوة ، لأضع بها فرامل فى دماغى الطائر ، لكن بدون جدوى . بماذا تشير علىّ فى هذه الحالة يا سيدى ؟

أدهم : سيادتك تشكو إذن من قلق عام ؟

الزبونه : أيوجد الآن قلق عام وقلق خاص ؟ . لقد اختلط هذا بذاك ، وأصبح الواحد منا يتخبط اليوم فى بحر واحد من قلق شامل لا يطاق . ألا توافقنى على ذلك ؟

أدهم : طبعاً أوافقك . أنا نفسى مثلك تماماً . ورأسى هو الآخر انقلب إلى طبق طائر ! . . .

الزبونه : وآخرة هذا الحال ؟

أدهم : هذا يتوقف على نوع عملك . . . ما هو عملك فى الحياة ؟

الزبونه : أنا لا عمل لى . . . عندى منزل موروث . عبارة عن ثلاثة طوابق . أسكن فى طابق ، وأؤجر الطابقين بأربعين جنيهاً بعد التخفيض . تكفينى أنا وزوجتى المدبرة وليس لنا أولاد .

أدهم : أليست لك هواية ؟ . . . الكرة مثلا ؟ . . . .

الزبونه : الطاولة وقراءة الصحف فى القهوة . وخبط حجر الطاولة فى الدماغ مثل خبط الأخبار المزعجة سواء بسواء .

أدهم : من رأيى أن تكثر من خبط الطاولة وتقلل من خبط الأخبار !

الزبونه : أهذا هو الحل ؟

أدهم : هذا على كل حال هو الحل عند الشباب اليوم . أغرقوا أنفسهم فى كل بلاد العالم فى خبط الجاز والروك أندرول والخنافس وما شابه ذلك من ألوان الضجيج والحركة العنيفة والأصوات المزعجة ! . . . ليواجهوا خبط الكبار فى ضجيج الحرب والقمع والمؤامرات والمخابرات ! ... صخب عام فى حانة كبرى ، ضمت الكبار والصغار . وإن اختلفت أدوات الزياط وألوان الخمر ! . . .

الزبونه : حانة الكرة الأرضية السكرانة ! . . .

أدهم : ربما كان سبب قلقك أيضاً ناحية خاصة قليلاً . هو هذا المنزل الذى هو عماد حياتك المعيشية . . . ربما خطر بفكرك مثلاً أنه لو زلزلت الأرض من تحته لأى سبب من الأسباب . . .

الزبونه : صدقت . هذا صحيح .

أدهم : أنا أيضاً مثلك . طالما شعرت بالأرض تزلزل تحت قدمى !

الزبونه : هل عندك منزل ؟

أدهم : لا . . . الزلزال عندى من نوع آخر . . .

الزبونه : عندك إذن أطيان ؟

أدهم : ليس عندى إلا هذا البنك القلق !

الزبونه : وكم يدر من الإيراد ؟

أدهم : ولا مليم ! . . .

الزبونه : وكيف تعيش إذن ؟ . . .

أدهم : بالمصادفات .

الزبونه : حياتك إذن غير مستقرة ؟

أدهم : لا يمكن أن تستقر .

الزبونه : أنت إذن فى حالة قلق مستمر .

أدهم : بدون شك .

الزبونه : لهذا إذن فتحت هذا البنك .

أدهم : نعم . لأتعالج . . . بسماع متاعب الآخرين .

الزبونه : حقًا . . . قد يكون فى هذا بعض الراحة لك .

أدهم : أليست حالتى أشد من حالات غيرى ؟

الزبونه : الواقع أنك . . . معذور .

أدهم : أنا على كل حال صابر وصامد . المهم عندى أن أجد وسيلة أخفف بها عن نفسى . . .

الزبونه : أليست لك هواية ؟

أدهم : لا . مع الأسف .

الزبونه : خسارة !.. من رأيى أن تشغل نفسك بهواية . . . إنها خير وسيلة للتخفيف عن النفس .

أدهم : وأين أجد الهواية ؟

الزبونه : هذا سهل جدًا . . . تعلم لعب الطاولة ! . . .

أدهم : ومن يعلمنى ؟ . . .

الزبونه أنا مستعد أعلمك ! . . .

أدهم : متى ؟ . . .

الزبون٥ : فى أى وقت يعجبك . . . مر علينا بالقهوة . . . قهوة البودجا تجدنى هناك دائماً . . . صباحاً ومساء . . .

أدهم : وهو كذلك . . . اتفقنا .

الزبون٥ : اتفقنا . . . أنا فى انتظارك . . . إلى اللقاء . . .

( ينهض ويخرج )

أدهم : إلى اللقاء . . . قريباً جداً إن شاء الله . . . ( يشيعه إلى الباب )

أدهم : ( يعود إلى مكانه مترنماً ) شيش جهار . . . شيش بيش !

( يظهر بالباب زبون سادس رجل فى زى العمال . . )

أدهم : تفضل . . . أهلاً وسهلاً !

الزبون٦ : أنا . . . أقدر أتكلم مع حضرتك . . .

أدهم : طبعاً . . . تفضل . . . استرح ( يشير إلى المقعد )

الزبون٦ : أنا عندى حالة قلق من أسبوع . . . بسبب ظرف أحب أقول لحضرتك عنه . . . وأستشيركم . . .

أدهم : أنا فى الخدمة . . . تفضل !

الزبون٦ : الأمر وما فيه أنى عامل فى مصنع نسيج بشبرا . لى زميل فى العمل طبعه الإهمال والكلفتة . . . فتلة غزل تتعقد يتركها . . نصحته ، ولكنه يقول لى « اسكت ولا يهمك » . وأخيراً لحته وهو يكسر سراً أحد أسنان المشط الذى يمر فيه الغزل حتى تنفذ منه العقد التى يتركها . . . وهنا لم يستطع ضميرى السكوت فهددته بكشف أمره فاتهمنى بالوشاية . ماذا أفعل ؟ . . . أسكت ويظل الإنتاج ينخفض مستواه أو أشكوه فأكون قد وشيت بزميل ؟

أدهم : وزميلك هذا فاقد الذمة فى العمل إلى هذا الحد ؟ !

الزبون٦ : إنه يقول إن عقدة أو عقدتين لا تهم .
أدهم : وأنت ؟ . لماذا لم تفعل مثله ؟
الزبون٦ : لا أستطيع . العمل عندى لا بد يأخذ حقه . . . والدى المريض فى البيت . . . أنا الآن الذى أعوله . . . كان صانع كراسى . وكان يتعب فى الكرسى ويقول لى وأنا صغير : إتقان العمل متعة وفريضة . متعة لنفسك وفريضة أمرنا بها ربنا . والنبي عليه الصلاة والسلام قال : « إن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه » .
أدهم : هذا كلام جميل .
الزبون٦ : تمام . ولو عملنا به كلنا لما كان هذا حالنا . وهو لا يكلفنا شيئاً كثيراً .
أدهم : قل لزميلك !
الزبون٦ : قلت له . ولكنه كان يدير لى ظهره وينغمس مع زملاء آخرين يتناقشون .
أدهم : يتناقشون فى ماذا ؟ . . .
الزبون٦ : فى الأرباح .
أدهم : الأرباح ؟ . . .
الزبون٦ : نعم مواعيد صرفها والأنصبة التى ستوزع والنسب . وكلام من هذا القبيل .
أدهم : وهل الكل سيحصل على نفس الأرباح ؟ . . . المتقن والمفسد
الزبون٦ : من الصعب فى كل الأحوال إمكان فرز هذا من ذاك . لكن كل واحد وضميره .
أدهم : ضميره ؟ ! .. وإذا كان الضمير مصنوعاً من المطاط ؟ . . .
الزبون٦ : المطاط ؟ !

أدهم : مادة خام متوفرة عندنا ولله الحمد !

الزبون٦ : فى هذه الحالة ماذا يكون موقفى ؟ . . . أسكت ؟ !

أدهم : تسألنى أنا ؟ . . . اذهب واكشف أمره ! . . .

الزبون٦ : وأتعرض للإشاعة أنى من الوشاة ؟ ! .. لا أحب أن أوصف بالواشى الخسيس الذى لا يقدر الزمالة والروح الاشتراكية . هكذا سيقال عنى . . . شخص غير اشتراكى !

أدهم : اسمع . . . أنت رجل منتج . . . وتفهم فى الإنتاج . . . ومستوى الإنتاج أكثر منى . . . أنا شخصياً ليس لى أى قيمة إنتاجية . أنا أقرب إلى أن أكون من العاطلين ... من الكسالى . . . من الطفيليات .

الزبون٦ : أنت يا سيدى ؟ !

أدهم : نعم أنا . . . ولا يغرك أنى جالس إلى مكتب وأمامى تليفون !

الزبون٦ : لا تقل هذا ! . . .

أدهم : هذا هو الواقع . . . ما أنا إلا واحد من ستين فى المائة من السكان لا يفعلون شيئاً . أو على الأقل لا ينتجون إنتاجاً حقيقياً . ويعيشون على جيب الأربعين فى المائة الأخرى . ومن هذه الأربعين فى المائة خمسة فى المائة معهم نقود ولا عمل لهم إطلاقاً . يتبقى خمسة وثلاثون فى المائة يعملون وينتجون . منهم خمسة وعشرون فى المائة ينتجون بغير إتقان . يكون الباقى أخيراً بعد كل ذلك عشرة فى المائة فقط من السكان هى التى تعمل وتنتج بإتقان .

الزبون٦ : عشرة فى المائة فقط ؟

أدهم : فقط . عشرة فى المائة هى التى ينطبق عليها الحديث الشريف

الذى ذكرته أنت الآن : « إن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه » .

الزبون٦ : هذا غير مصدق !

أدهم : طبعاً أنت لا تصدق . لكن خذ عندك مثلاً هذه الشقة التى نحن فيها . إنها تحتوى على ثلاث حجرات فيها ثلاثة أشخاص يمكن أن تقول إن إنتاجهم للبلد صفر فى المائة . فإذا مررت على كل شقق هذه العمارة وتحريت عن سكانها ما وجدت أكثر من عشرة فى المائة ينتجون بإخلاص وإتقان . والباقى عالة عليهم . أو يعملون أعمالاً تافهة ، غير منتجة ، أو على قدر المزاج . حتى بواب العمارة تراه يعمل ساعة ويزوغ ساعتين إلى المقهى المجاور يشرب الشاى ويدردش كلمتين ! . . .

الزبون٦ : لكن . . . هذه النسبة يجب أن ترفع . . .

أدهم : إذا رفعت هذه النسبة . . . ولو عشرة فى المائة أخرى . . . فإن بلادنا تتغير . . . تغيراً حقيقياً . . . لا يمكن تصور مداه ولا مستواه ! . . .

الزبون٦ : أزمتنا إذن أزمة إتقان .

أدهم : أنت طبعاً أدرى .

الزبون٦ : وأزمة أخلاق .

أدهم : هذا يؤدى إلى ذاك .

الزبون٦ : صحيح . أزمة الإتقان مرجعها إلى أزمة الأخلاق .

أدهم : نعم . مرجعها ما فى الداخل . ما فى داخلنا ... وأخيراً . . . ماذا نويت ؟ . . .

الزبون٦ : أنا جئت أستشيرك ؟

أدهم : أظنك أدركت أنى لا أستطيع أن أشير عليك . . . أنت قلتها !. . . المسألة مسألة أخلاق . . . وأنا أخلاقى كما قلت لك ليست كما يجب . . . تصرف أنت إذن حسب ما ترضى عنه أخلاقك ! . . .

الزبون٦ : ( ينهض ) وهو كذلك . . . شكراً ! . . .
( يصافح أدهم ويخرج )

شعبان : ( يدخل هاتفاً ) يا للنسوان ! . . المرأة هى المرأة فى كل سن وكل زمان ! . . .

أدهم : ماذا حصل ؟ . . .

شعبان : فاطمة هانم . . .

أدهم : نجحت معها ؟

شعبان : وأى نجاح ! . . .

أدهم : تكلم بدون مبالغة ولا مغالاة ولا فشر ولا معر ! . . . قل ما حصل بموضوعية تامة ! . . .

شعبان : بموضوعية تامة أقول لك إنى أفهمتها أن أمر مرفت غير مقلق . لأنها واجهت حظها مرتين ووضعها طبيعى ، لكن القلق الحقيقى يجب أن يكون عليها هى . وأن الإصرار على حياتها هذه القاسية الصارمة ، مع أنها لم تزل فيها حيوية ونضارة ، هو الذى يجب التفكير فيه .

أدهم : واقتنعت ؟

شعبان : هى تركتنى وهى مشغولة البال بكلامى . ووعدت بالاتصال بى مرة أخرى ، عند ما طلبت إليها ذلك .

أدهم : وهل هذا هو كل النجاح ؟

شعبان : طبعاً ، لا تنتظر من سيدة فى مركزها أن تهتز بسرعة . . .

يكفى أن ألاحظ ، وأنا الخبير فى هذه المسائل ، أن شيئاً من الاحمرار قد دب فى وجنتيها . . .

أدهم : على كل حال المهم أن تصرفاتك تكون على مستوى رفيع .

شعبان : مستوى رفيع ؟

أدهم : أنا عارفك وعارف أساليبك ، وهى فى ظروفنا الحاضرة تحتاج إلى شىء من التهذيب .

شعبان : اسمع يا أدهم . . .

أدهم : اصبر حتى أوضح لك . . .

شعبان : أنا لا أصبر على كلامك الفارغ . أنا حر فى أسلوب عملى . وأنت حر فى أسلوب عملك . لا تتدخل فى شغلى ولا أتدخل فى شغلك ! . . .

أدهم : شغلى وشغلك ؟ ! . أهذا الذى تفعله وأفعله اسمه شغل ؟ !

شعبان : وما اسمه إذن ؟ !

أدهم : بينى وبينك . . بذمتك وضميرك . . من أنت ومن أنا ؟

شعبان : يعنى إيه ؟ !

أدهم : يعنى . . ماذا نساوى ؟

شعبان : نساوى ؟ ! أصحاب بنك يا أخى !

أدهم : بنك القلق ! . . قل لى يا شعبان . . بصراحة . . أنت تعرف القلق ؟

شعبان : وهل هذا سؤال ؟ ! شىء نشتغل فيه ولا أعرفه ؟ !

أدهم : دعك من حكاية الشغل هذه . . أنا أسألك باعتبارك إنساناً ومواطناً . . يعنى بصفتك بنى آدم . . هل سبق لك أن شعرت حقاً بالقلق ؟

شعبان : طبعاً يا أخى . . وإلا ما كنت فكرت فى إنشاء بنك بأكمله

من أجله ! .
أدهم : أنت لم تفكر فى ذلك . أنا صاحب الفكرة .
شعبان : وأنا شريكك . شريك مؤسس .
أدهم : فليكن . . هل تعتبر أن هذا عمل حقيقى ؟
شعبان : بكل تأكيد .
أدهم : اسمح لى أشك .
شعبان : ما هذا التخريف ؟ . تشك الآن بعد أن أصبح حقيقة واقعة . . له مكاتب وتليفونات وشقة مؤجرة باسمنا . وزباين يدخلون ويخرجون ؟ . .
أدهم : يدخلون ويخرجون !
شعبان : بدأ النشاط يدب فى البنك . . ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ . . ألم تكن هذه هى أحلامنا ؟ . . ها هى الأحلام تحققت .
أدهم : بودى أن أصيح صيحة فى هذا البنك . . يسمعها كل من فى الشارع . .
شعبان : لا . . أرجوك . . اعقل !
( يظهر بالباب زبون سابع أنيق فى فمه بيبة . . )
الزبون٧ : تسمح ؟
أدهم : ( ناهضاً ) تفضل . . . تفضل أهلاً وسهلاً ! . .
شعبان : أذهب أنا إلى حجرتى ( ينسحب خارجاً ) .
أدهم : ( يقدم المقعد الزبون ) أهلاً وسهلاً ! . .
الزبون٧ : اسم طريف « بنك القلق » وإن كنت لا أعرف تماماً ما يرمى إليه . . ولذلك جئت أستعلم . .
أدهم : الفكرة باختصار أننا هنا نتيح لكل من عنده قلق من شىء أن يفضى به . . ربما كان فى مجرد الإفضاء راحة لنفسه .

الزبون٧ : فكرة طيبة . هل نجحت ؟
أدهم : لا بأس .
الزبون٧ : وهل يمكن أن يفضى الإنسان بكل ما يريد ؟
أدهم : ولم لا ؟ . .
الزبون٧ : أعتقد أن هذا متعذر فى بعض الأحيان .
أدهم : طبعاً . أحياناً .
الزبون٧ : لو كان الإنسان يستطيع أن يطلق صوته ويصيح بما فى نفسه . . لكن هذا الآن غير ممكن . .
أدهم : ما هو المانع ؟ . . سيادتك مثلاً . . هل عندك شىء تريد أن تفضى به ؟ . .
الزبون٧ : أنا لا أتكلم عن نفسى . أنا أتكلم عموماً . . كل إنسان فى حاجة إلى أن يتكلم وأن يصيح وأن يوافق وأن يعارض . .
أدهم : إذن خذ راحتك ! . . أنت مطلق الحرية تتكلم وتصيح وتوافق وتعارض كما تشاء .
الزبون٧ : أين ذلك ؟
أدهم : هنا فى هذه الحجرة .
الزبون٧ : آه . . لا . . أنا لا أقصد هذا . . أنا أقصد بصفة عامة . . أنت فاهمنى طبعاً .
أدهم : طبعاً فاهمك . . تريد أن تصيح . . أنا أحياناً أشعر برغبة ملحة فى الصياح .
الزبون٧ : حقاً ؟ !
أدهم : بدون شك . وأشعر برغبة عارمة فى أن أعارض أى رأى وأشاكس أى فكرة وأشاغب أى إنسان . . بل إنى عندما لا أجد شيئاً أعارضه ، أعارض أفكارى أنا ذاتها . .

الزبون٧ : طبعاً . . مفهوم . . الإنسان حيوان ثرثار قارض للأفكار . .
أدهم : قارض للأفكار ؟ !
الزبون٧ : مثل الفأر . . الفأر حيوان قارض . لا بد أن يقرض شيئاً . . أحياناً قطعة خشب . . لمجرد استخدام جهازه القارض ، وهو أسنانه . . الإنسان أيضاً لا بد من استخدامه جهازه القارض ، وهو تفكيره . وكما قلت أنت عندما لا يجد شيئاً فإنه يقرض أفكاره ذاتها . . ويجب أن يسمع لقرضه صوتاً فى صورة صياح . .
أدهم : فعلاً . . هذا يحدث أحياناً .
الزبون٧ : هل تعرف حديقة هايد بارك فى لندن ؟
أدهم : سمعت عنها .
الزبون٧ : كان يحلو لى دائماً عند ما كنت هناك أن أمشى فى هذه الحديقة وأصغى إلى صيحات الخطباء المنطلقة بلا قيود فى أرجائها . .
أدهم : حديقة الحيوانات الثرثارة القارضة للأفكار .
الزبون٧ : بالضبط . . أسبق لك الذهاب إلى هناك ؟ . .
أدهم : لا .
الزبون٧ : لو سمعت ما يقال فى هايد بارك لدهشت . . واحد يصيح مطالباً بفصل أسكتلندة عن إنجلترا . وواحد يطالب بطرد الأسرة المالكة . وواحد يطالب بتصفية المستعمرات . وواحد يريد تأميم الممتلكات . وواحد يشيد بالإمبراطورية . وآخر يريد تدمير الأسلحة الذرية . . وهلم جراً . .
أدهم : مثل هذه الحديقة لا يمكن أن توجد إلا فى إنجلترا ، لأن الله أنعم على الإنجليز بنعمتين : الأولى البرود الإنجليزى

والثانية أنهم يقولون ما لا يفعلون !

الزبون٧ : ربما . . لكن . .

أدهم : لكن ماذا ؟ . .

الزبون٧ : لكن اعترف معى أن فكرة إيجاد مكان للتنفيس . .

أدهم : منطقة حرة للصياح ؟

الزبون٧ : إذا شئت .

أدهم : رئة يخرج منها الزفير الفاسد !

الزبون٧ : خير من أن يكتم .

أدهم : هذه هى جوهر فكرة هذا البنك .

الزبون٧ : نعم . ولكنى أقصد . . شيئاً على نطاق أوسع . .

أدهم : تقصد . . .

الزبون٧ : نعم .

أدهم : تقصد ماذا ؟

الزبون٧ : أظنك فهمت . .

أدهم : أنا ! لا . لا . لم أفهم شيئاً . .

( جرس التليفون يرن . . )

أدهم : (يسرع إلى رفع السماعة) آلو . . نعم . . آه . . تريد إرساله حالاً . . حاضر . . سأرسله فى الحال . . ( يضع السماعة ويلتفت إلى الزبون السابع ) تسمح تمر على الحجرة رقم ثلاثة !

الزبون٧ : الحجرة رقم ثلاثة ؟ . .

أدهم : نعم . الحجرة الثالثة . . موضوعك يظهر أنه يهمهم هناك . .

الزبون٧ : ( ينهض) شكراً !

أدهم : مع السلامة !

(ويشيعه إلى الباب . . ويعود ليضع رأسه بين كفيه . . )

# الفصل الثامن

لم يلاحظ أحد التغير الطفيف الذى طرأ على فاطمة هانم . ولم يعر أحد التفاتاً إلى التليفون الذى يطلبها الآن باستمرار فى كل يوم تقريباً ! . . وفى عصر ذات يوم خرجت فاطمة وركبت سيارة أجرة أوصلتها إلى مقهى « الجميزة » على شاطئ النيل ، دخلت ووقفت لحظة بالعتبة . وإذا شعبان الجالس إلى إحدى الموائد قد نهض وأشار إليها فأقبلت نحوه وجلست . وأمر لها بعصير الليمون الذى طلبته . ثم أخذ يرحب بها بعبارات ناعمة مهذبة . . كان فى مكالماته التليفونية المتلاحقة يحاول إظهار اهتمامه بأمرها وصحتها ومزاجها ، ثم يدس بضع كلمات متحفظة توحى بالإعجاب وهى لا تظهر له أنها فهمت . وأخيراً رجا منها أن تسمح له بلقاء على انفراد فى مكان آخر غير المكتب . وصدته فى أول الأمر بلطف . لكنها مع إلحاحه قبلت . لا لشىء إلا لتطلعه على ما قد يجهل من وضعها .

وكان هذا اللقاء الذى اتفق عليه فى هذا المقهى المنعزل . . رشفت رشفة من عصير الليمون . وتشاغلت بالنظر إلى قارب صيد يقترب من الشط ، حتى لا تقابل عينها عينه التى أحست أنها مصوبة إلى وجهها وشعرها ونحرها . وتدافعت فى رأسها الأفكار ، وتماسكت وتحفزت كالمقبل على هجوم . ثم التفتت إليه فجأة ، وقالت بلهجة حاسمة : « اسمع يا أستاذ شعبان . لا تحاول أن تقنعنى أن شخصى وحده هو الذى يهمك . أنا لست صغيرة ولا ساذجة حتى أصدق ذلك ، وأنا ما جئت هنا اليوم إلا لأوضح لك كل شىء حتى تكون

على علم تام » . . لقد كانت طول الأيام الماضية تقاب الأمر على وجوهه . وتسأل نفسها فى حيدة دقيقة عما يدفع هذا الرجل الذى يصغرها بسنوات إلى أن يهتم بها هذا الاهتمام ويلاحقها هذه الملاحقة ؟ ما من سبب فى نظرها إلا اعتقاده أنها غنية . وأنها فرصة سانحة لمثله أن يتزوج امرأة ثرية ، ولكن أكبر منه سناً . أو على الأقل إن لم يكن فى نيته زواج أن يغريها ويبتز منها الأموال . ما من باعث غير هذا . فإذا عرف الحقيقة . . إذا عرف أنها لا تملك شيئاً ، إلا مصروف يد ، لا يعدو جنيهات قليلة . . تتقاضاه من مرفت لحوائجها العادية ، علاوة على الكسوة السنوية البسيطة التى تتكفل بها مرفت أيضاً — وهى لا تتعدى بضعة فساتين تفصل لها على هامش فساتين مرفت العديدة عند خياطتها — إذا عرف أنها ليست أكثر من شبه مربية وحاضنة ممتازة لبنت شقيقتها ، وأنه ليس لها مركز فى الحياة غير هذا . . إذا عرف ذلك عنها فما هو الشيء المغرى فيها ؟ . . .

واجهته بصراحة بكل هذه المعلومات . وأطلعته على تاريخ أسرتها المتواضعة فى الريف . وأكدت له أن ما تملكه هى من نقود ربما كان أقل مما يملكه هو . . كان يصغى إلى كل هذا وهو يبتسم . ولم يحدث أى تغيير فى أساريره . وظلت نظراته إليها نفس النظرات . وعندما أرادت أن تنهض وتنصرف بعد أن ألقت إليه بكل ما عندها استبقاها . وتوسل إليها أن تجلس ، وقال لها بصوت يسيل عذوبة : « كل ما قلت لى لا دخل له فى الموضوع » . . فبدا عليها شيء من الدهشة وقالت له : « ما هو دافعك الآن إذن ؟ » فاستجمع شعبان كل شجاعته وكل قوة تجاريبه المختزنة ، وهجم عليها بكلمة صريحة واحدة ، كأنها طلقة مسدس واحدة فى الصميم : « السكس ، الجنس ! » . . فبهتت لحظة . ثم حملقت فيه ، وقد تورد وجهها . ثم انتفضت ونهضت

وتركته وخرجت من المقهى مسرعة دون أن تلفظ حرفًا . .

ولبث شعبان وحده لحظة . وقد أشعل سيجارة وأخذ منها نفسًا بمنتهى الارتياح . شخص آخر غيره لا تجربة له كان يتملكه اليأس . ولكنه الصياد الماهر الذى لا يفزعه هرب السمكة ، إنها إنما هربت والطعم فى جوفها . فليترك لها الوقت الكافى قبل أن يحرك طرف الخيط الذى فى أصبعه . . وكان قارب الصيد فى النيل قد دنا وأصبح من فيه على مرمى بصره . . قارب لا يبلغ طوله مترين يعيش داخله سبعة أشخاص ، حول حلة صغيرة فوق موقد نار : الصياد وامرأته وأربعة أطفال وخامس رضيع متعلق بثديها ، فضلاً عن سادس فى الطريق يبشر به بطنها المملوء . . أسرة على سطح الماء ذات عدد عديد . دود على عود . هى فى واد وراديو ترانزستور فى واد آخر فوق مائدة قريبة يجلس إليها رجل منفرد يقرأ رواية بوليسية تاركًا الراديو مفتوحًا يدش ويدش بكلام كثير عن النسل وتنظيم الحمل ! . .

وقد يكون لهؤلاء عذرهم . لكن ما عذر تلك الأسرة الأخرى المشابهة فى العدد المرتفعة فى المستوى المجتمعة حول مائدة أخرى بقربه : سيدة بدينة حبلى هى الأخرى وحولها أطفال عديدون فى يد كل منهم كعكة سميط وأمامهم زجاجات كوكا كولا ، وهم يتصايحون فى طلب بائع اللب والفول السودانى . وهذه الأم الأرنبة قد صدع دماغها فيما يظهر حديث النسل والحمل وزيادة الاستهلاك ، فأدارت مفتاح الراديو الذى فى يدها على موجة أخرى ، وجعلت تهز رأسها طربًا على نغمة : « حبك نار . . نار يا حبيبى نار » . .

ولم يجد شعبان ما يفعله بعد ذلك فدفع الحساب ونهض منصرفًا ، وهو يتخيل ما يمكن أن يقع الآن فى نفس فاطمة . لقد بدا عليها فعلاً أنها فوجئت بصدمة . لقد انصرفت وهى أقرب إلى أن تكون غاضبة

غضبًا لا يمكن إصلاحه . والواقع أنها خرجت من المقهى وهى فى شبه ذهول.. لم تشعر إلا وهى تقفز إلى سيارة تاكسى وتعود إلى البيت .. ودخلت توًا إلى حجرتها وارتمت على مقعد وهى تردد هامسة : « قلة أدب ، وقاحة ! » . ثم هدأت قليلاً وقامت تخلع ملابسها . وعند ما انكشف بعض جسمها عاريًا ، تطلعت على الرغم منها فى شبه حركة غريزية إلى المرآة أمامها ، وتفحصت أعضاءها بنظرة لم تحدث منها قبل ذلك . ثم فطنت سريعًا إلى نفسها ، وابتعدت عن المرآة ، وبادرت تغطى جسمها وترتدى ثيابها المنزلية .

وتركت حجرتها وذهبت إلى مرفت . فوجدتها مشغولة بصبغ أظافرها بأحدث لون . ولم تسألها مرفت أين كانت ولا متى عادت . لم يكن من عادة إحداهما سؤال الأخرى مثل هذه الأسئلة . . فقد لاحظت مرفت منذ وفاة أمها أن خالتها تتغيب أحيانًا ليلة من ليالى الأسبوع . على الأخص من مساء الخميس إلى مساء الجمعة . ولا تدرى سر ذلك . سألتها ذات مرة فأجابتها إجابة غامضة أنها تزور إحدى قريباتها . ولم تسألها بعد ذلك أبداً ، فى أى شأن من شئونها الخاصة . واكتفت مرفت فى ذلك اليوم بأن مدت أصابعها إلى خالتها قائلة : « ما رأيك فى هذا اللون ؟ » . . فأجابتها وهى ساهمة : « حلو » . ورن جرس التليفون ، فبادرت فاطمة إلى السماعة باهتمام ظاهر . لكنها وجدت غير ما توقعت . صوت آخر لرجل يطلب مرفت . ولم تتحرك مرفت . قالت لها بغير مبالاة وهى تنظر إلى أصابعها التى ما زالت رطبة من الصبغة : « قولى له يطلبنى بعد ساعة » . ثم استطردت قائلة : « شاب لطيف عرفناه أخيراً فى الشلة » .

وأرادت فاطمة أن تقول لها : « هل هذا حب جديد . . علاقة جديدة . . وإلى متى » . لكن السؤال انحبس فى ذهنها ، ثم انقلب

سؤالاً موجهاً إليها هى ذاتها : « لماذا القلق على مرفت ؟ ولماذا أسمى هذا ضياعاً ؟ ! وما الضرر أن تستمتع بحياتها كما تشاء ، ما دامت فرصة الاستمتاع قد واتتها .! أكان يجب عليها أن ترفض ؟ . . وماذا بعد الرفض ؟ ! » . .

مر يومان ، وهى تهرع إلى كل رنة تليفون . وفى اليوم الثالث كان المتكلم شعبان . تحدث بصوت أتقن تمثيل تهدجه واضطرابه . قال إنه يأسف ويعتذر . ويتوسل إليها أن تتيح له فرصة لقائها مرة أخرى فى نفس المكان والموعد ، ليشرح لها حقيقة موقفه . وأجابته بصوت حاولت هى أيضاً أن تتقن فيه الاتزان : إنها لا ترى ضرورة لأسف أو اعتذار ، وكذلك لا ترى نفس الضرورة للقاء آخر . لكنه أخذ يلح . وكانت فى قرارة نفسها تنتظر منه هذا الإلحاح ، لتزداد اقتناعاً . أكد لها أنه لم ينم منذ ذلك اليوم ، لاعتقاده أنه جرح شعورها . وهو لن يستريح حتى يطالع الصلح بنفسه على محياها . . وأخيراً قبلت ووعدت .

وفى الموعد المحدد ذهبت . لكن بفستانها الجديد ، وبشىء من أحمر خفيف على الشفتين ، وتوضيبة شعر أجهدتها أمام المرآة لتبدو فيها كما تشتهى . . وإلى نفس المائدة جلسا معاً . وهو يزحزح مقعده قليلا قليلا ليقترب منها . ولاحظت هى ولم تمانع . وقد أراد أن يسحب كلمته التى صدمتها ، وأن يفسرها تفسيراً مهذباً بريئاً ـــ لكنها فى أعماقها كانت تريد العكس . كانت تريد منه تفسيراً يزيدها اقتناعاً . هل الجنس أو « السكس » وصف لعلاقة يمكن حقاً أن تقوم بينهما ؟ أما زال فيها شىء يشتهى ؟ . . ولم يفته بإحساسه المدرب مرماها الخفى . فقال لها : ليس هناك أصفى لحباً ولا أشهى منظراً من خفقة شمعة يظنون أنها ذبلت ! . . وأنه لا بد من خبير أو بصير ليقتنص هذه اللحظة الفريدة

ويستمتع بها . . لكن ليس من السهل على امرأة عاشت حياة طويلة بهذه الصرامة أن تتبذل دفعة واحدة . حتى وإن اشتهت .

وأدرك شعبان هذه العقبة . فطن تماماً إلى موقفها وإلى ما يعتمل في نفسها . إنها تريد ولا تجرؤ . يجب أن يعالج الأمور بدقة وحذر مع مثل هذه السيدة المحترمة . لقد فهم الآن كل منهما الآخر ، وما يريده الآخر . بقيت الخطوة التالية . وهل يقترح عليها كأساً تفرفشها وتحل عقدة وقارها ؟ فليحاول . . وهم بأن يصفق للجرسون . لكنها منعته . قالت إنها فهمت مراده . ولا حاجة معها لمثل هذه الوسائل . إنها الآن ليست طفلة . وعندما تقتنع بشيء فإنها تفعله . على أن هذا المكان ليس بالمكان المناسب للقائهما .

وأدرك شعبان صواب الملاحظة . حقاً أين يجتمع بها إذا أرادا الخلوة ؟ . . لا بد إذن من البحث عن مكان لائق . . ولعنة الله على معارفه الحثالة ، ومستواهم الواطي . ليس فيهم واحد من أولئك الذين يملكون السيارة والجارسونييرة . وتلفتت فاطمة حولها كمن أزعجه تيار بارد في الظهر ، من نظرات الجالسين على الموائد . . وفهم شعبان فقال مؤيداً لما لم تقله : « فعلا . . مكان مكشوف غير مناسب » . . فهزت رأسها بالإيجاب . وتحركت للانصراف وهي تقول له بابتسامة مشجعة : « اتصل بي غداً بالتليفون ! » .

# المنظر الثامن

(شعبان يدخل على أدهم فى مكتبه
دخول الظافرين)

شعبان : (هاتفاً) وصلنا . .
أدهم : وصلنا ! ! وصلنا إلى ماذا ؟
شعبان : إلى الهدف .
أدهم : أى هدف ؟
شعبان : فاطمة هانم . . . خالتها . . . أنا الآن على عتبة النجاح . غداً بإذن الله يبدأ الهجوم الكبير .
أدهم : لعنة الله عليك !
شعبان : الله يسامحك ! . . كنت أنتظر منك التهنئة ! . .
أدهم : اسمح لى أقول لك . . أنت مقرف !
شعبان : أنا ؟ !
أدهم : أهدافك فى الحياة صغيرة وحقيرة ! . .
شعبان : لا أرجوك . . . إهانات لا . . . لا أقبل أبداً . . . ومع ذلك قل لى . . . ما هى أهداف سيادتك العظيمة النبيلة ؟ !
أدهم : مع الأسف .
شعبان : إذن اسكت . . . واتلهى . الحال من بعضه ! . . أنا على الأقل عندى هدف . . . صغير حقير . . . هدف والسلام . . . لكن أنت ؟ . .
أدهم : أنا فى الحقيقة . . .

شعبان : أنت فى الحقيقة غير مفهوم . . . أنا عاشرتك هذه المدة ولا أعرف ماذا تريد ؟ . .

أدهم : أريد أن أعمل أى شىء نافع .

شعبان : نافع لمن ؟ . .

أدهم : للناس جميعاً . وللأمة كلها .

شعبان : للأمة كلها ؟ ! . وهل أنت مسئول عن الأمة كلها ؟

أدهم : بالتأكيد . . . مسئول .

شعبان : ومن الذى سألك وكلفك ؟

أدهم : لا أحد . . . أنا نفسى .

شعبان : ولماذا تتعب نفسك ؟

أدهم : أنا حر يا أخى .

شعبان : أصحاب العقول فى راحة ! . .

أدهم : بالعكس ، أصحاب السخافة فى راحة ! . .

شعبان : إياك تشتم . . . أو تطيل لسانك . . . أحذرك ! . . .

أدهم : وما شأنك أنت ؟ . . هل أنت سخيف ؟ . . أنا أشتم السخفاء . . أصحاب الحياة السخيفة . . . ومع ذلك حتى هؤلاء ليسوا فى راحة . حتى السخافة أصبحت لها متاعبها ومطالبها .

شعبان : متاعبها ومطالبها ؟ . . السخافة ؟ !

أدهم : ككل شىء آخر .

شعبان : ما هذا الهذيان ؟ ! أنا ألاحظ عليك هذه الأيام حالات غريبة . . . ربما كانت أعراض مرض غير معروف ! . . .

أدهم : ربما .

شعبان : فتحنا البنك لنعالج الناس فإذا أنت أول من يستعصى

علاجه ! . . كمدير مستشفى المجاذيب الذى انقلب مجنونًا بحق وحقيق ! . . . .

أدهم : نحن كنا مرضى قبل أن نفتح المستشفى أو البنك . . . ولم نزل مرضى مثل غيرنا . . .

شعبان : تكلم عن نفسك وحدك من فضلك . . . أنا لم أكن مريضًا فى يوم من الأيام . . . ولله الحمد ! . . .

أدهم : بالطبع أنا أتكلم عن نفسى وحدى . . . لأنى أستطيع أن أدرك العلة .

شعبان : وما هى العلة ؟ !

أدهم : هذا شىء لا يمكن أن تفهمه أنت . . . إلا عند ما تفيق .

شعبان : أفيق ؟ !

أدهم : أنت وأمثالك .

شعبان : أمثالى ؟ ! . . .

أدهم : نعم وربما لا يحدث ذلك قريبًا .

شعبان : حضرتك خرفت ! . . . والكلام معك مضيعة للوقت . . . سلام عليكم ! . (ويتحرك للانصراف ثم يقف فجأة) أنت يلزمك علاج سريع . . . أتعرف ما هو ؟

أدهم : لا .

شعبان : هو أن تذهب فى الحال وتلقى بنفسك فى النيل . . . وهناك صياد فى قارب صغير يمكن أن ينتشلك . . . فإذا انتشلك تبدأ حياتك من جديد .

أدهم : وإذا لم ينتشلنى ؟ . . .

شعبان : تغرق . ويكون هذا من حظ البشرية ! . . .

أدهم : صدقت .

شعبان : اعمل بنصيحتى ! . . . سلام عليكم ( ينصرف ) .

( يظهر بالباب الزبون الثامن أو على الأصح الزبونة ، لأنها سيدة فوق الخمسين . . )

أدهم : أهلاً وسهلاً . . . تفضلى .

الزبونة٨ : هنا البنك ؟ . . . أنا قرأت على الباب . . .

أدهم : تفضلى . . . ( . . يشير إلى المقعد ) استريحى ! . . .

الزبونة٨ : أنا متأسفة . . . أنا فى حالة . . . أنا فى شدة الحيرة والقلق ، كنت هنا فى العمارة . . . وأنا خارجة قرأت اللافتة ، وكلمة القلق . . . وبدون أن أشعر أو أفكر دخلت عندكم . . . والله بدون شعور . . .

أدهم : هدئى نفسك . . . كلنا فى خدمتك . . . ما هو الموضوع ؟

الزبونة٨ : كنت هنا فى العمارة ... أنا وبنتى وخطيبها . . . قالوا لنا هنا شقة بخلو رجل . . . تعرف حضرتك كم الخلو ؟ . . . ألف جنيه ! . . تصدق ؟ أربع حجرات وصالة . . . بنتى مخطوبة ونحن نجهز لها . وقبل الجهاز لا بد طبعاً من إيجاد الشقة . والجهاز نفسه يا سيدى يلزم له الآن مبلغ وقدره . حجرة النوم التى كانت من سنة بمائتى جنيه الآن بستمائة . قل لى وحياتك ماذا أعمل ؟ . . كل المبلغ الذى قعدنا ندخره لزواج البنت حوالى ألف وخمسمائة جنيه . . .

أدهم : نعمة من الله ! .

الزبونة٨ : ما هى النعمة يا سيدى ؟

أدهم : ألف وخمسمائة جنيه لفرش مسكن . . . أهذا لا يكفى ؟

الزبونة٨ : يكفى ؟ . . هذا لا يكفى لفرش حجرتين . . . انزل السوق وأنت تعرف ! . . .

أدهم : ربما كنت حضرتك تطالبين بمستوى فرش معين .

الزبونة٨ : المستوى الذى يليق بنا . . . هل تدخل بنتى بجهاز أقل من جهاز بنات خالتها وبنات عمتها ؟ ؟ !

أدهم : لا طبعاً .

الزبونة٨ : كيف أحل هذا المشكل ؟ دماغى سينفجر ! . . .

أدهم : والآنسة بنتك ، المخطوبة . . . ما رأيها ؟ . . .

الزبونة٨ : ماذا تعمل المسكينة ؟ يكفى أنها تكد وتتعب وتوفر من مرتبها لتساعد فى الجهاز . . .

أدهم : أهى تشتغل ؟ . . .

الزبونة٨ : طبعاً . هى بسلامتها خريجة تجارة وتعمل فى شركة . . .

أدهم : وخطيبها ؟ . . .

الزبونة٨ : موظف معها فى الشركة يبقى رئيسها . . . عنده دكتوراه . . .

أدهم : ما شاء الله ! . . . شىء عظيم .

الزبونة٨ : وعنده سيارته . . . اسم الله عليه ! . . . سبقنى هو وبنتى إلى السيارة ... وخطفت أنا رجلى ودخلت عندكم هنا . . . قولوا كيف أتصرف ؟

أدهم : إذا اتفق الخطيبان على جهاز فى حدود المبلغ الموجود . . .

الزبونة٨ : المبلغ الموجود لا يأتى بجهاز عليه القيمة .

أدهم : وماذا يهم ؟ . . . ما دام الخطيبان سعيدين ! . . .

الزبونة٨ : وكلام الناس يا حضرة ؟ ! . . . كيف تستطيع بنتى أن تواجه صديقاتها وبنات خالتها وعمتها ؟ ! . كل واحدة دخلت بجهاز فخم . . . فكيف تنزل بنتى إلى المستوى الذى لا يليق بها ؟ !

أدهم : نحن الآن فى مجتمع اشتراكى .

الزبونة٨ : مجتمع إيه ؟ !

( تظهر بالباب الخطيبة وخلفها الخطيب . . . )

الخطيبة : أنت هنا يا ماما ؟

الزبونة٨ : تعالى يا بنتى . . . تعال يا دكتور ! . . .

أدهم : تفضلوا . . . أهلا وسهلا ! ( يشير إلى مقعدين ) .

الخطيبة : التفتنا فلم نجدك خلفنا . سألنا البواب قال إنه رآك تدخلين هنا . . .

الزبونة٨ : هنا يا بنتى يعالجون القلق ... وأنت عارفة أنا دماغى انفجر . .

الخطيبة : لكن هذه مسائل خاصة يا ماما . . .

الزبونة٨ : إنهم لا يعرفون من نكون . . . لم أذكر أسماء . . . نحن مجرد ناس نشكو من الحالة . . . وربما كان غيرنا كثيرين مثلنا . . .

أدهم : اطمئنوا . . . نحن هنا لا نتدخل فى خصوصيات . . . ولكننا بقدر الإمكان نحاول التخفيف عن متاعب الناس .

الخطيب : اسمح لى أسأل . . . ما هى طريقتكم فى ذلك ؟

أدهم : ليس لنا طريقة . . . هذا مكان يأتى إليه من يريد أن يتكلم . . . مجرد الكلام فيه أحيانًا راحة وتفريج . . .

الخطيب : ( للسيدة ) ولكنك يا تيزة كنت تستطيعين الكلام معنا نحن فى البيت ! . . .

الزبونة٨ : هذا ما حصل . وجدت أمامى لافتة عليها كلمة القلق رحت داخلة . . .

أدهم : حصل خير على كل حال . ولنعتبر أنفسنا هنا الآن جميعًا أفراد أسرة واحدة . . . ما هو الضرر فى أن نتحدث عن متاعبنا ؟ . . .

الخطيب : لا توجد متاعب بالمرة . خلاف غلاء الأسعار المطرد . . .
وهذه ظاهرة عامة فى الدنيا كلها . وتعليلها معروف .

أدهم : طبعًا سيادتك أدرى منا . . . الست قالت إنك تحمل
دكتوراه .

الخطيب : نعم . فى الاقتصاد .

أدهم : وفى الاقتصاد بالذات .

الخطيبة : وله مؤلفات فى الاشتراكية .

أدهم : أيضًا ؟! . . الدكتور إذن اشتراكى صميم .

الخطيبة : طبعًا . وأنا مثله . أليس كذلك يا شكرى ؟

الخطيب : بالفعل .

أدهم : عظيم . . . عظيم . . .

الزبونة٨ : كان كل أملى أراهما فى عش الزوجية هذا الشهر . . . لكن
الشقة والجهاز . . .

أدهم : يظهر أن الست الكبيرة تريد الشقة والجهاز من مستوى لائق .

الزبونة٨ : طبعًا يا سيدى . . . أنا قلت لك الظروف .

الخطيبة : أى ظروف يا ماما ؟ . . .

الزبونة٨ : مستواك العائلى يا سميرة . . . بنت خالتك تحية . . . أنت
عارفة بأى جهاز دخلت السنة الماضية . . . أول شىء ستفعله
عندما تزورك فى مسكن الزوجية هو أن تنظر إلى جهازك
حجرة حجرة وتقارن . . .

الخطيبة : فعلا . هذا أول شىء ستفعله تحية .

الزبونة٨ : ليست تحية وحدها . الجميع .

أدهم : الجميع ؟ ؟! لا . . . أنا أظن الدكتور لا يهمه مستوى
الجهاز .

الزبونة ٨ : كيف لا يهمه ؟ . . . الدكتور قام بدفع مهر محترم . . . علاوة على علب الملبس التى سيقدمها . . . من أفخر نوع حسب المتفق عليه .

أدهم : وهل من الضرورى علب الملبس ؟

الزبونة٨ : ما هذا الكلام الذى تقوله يا حضرة ؟ ! . . هذا أهم شيء ! علب الملبس . . . لأنها هى التى فى عيون الناس . . . بعد الشبكة . . . والشبكة والحمد لله كانت تشرف .

أدهم : ورأى الآنسة ؟ . . .

الخطيبة : رأيى أن خطيبى قام ويقوم بكل الواجب .

أدهم : ورأى الدكتور أن علب الملبس والشبكة حاجات ضرورية الآن ؟ ! . . . فى هذا المجتمع الجديد ؟ ! !

الخطيب : والله هذه . . . عادات .

أدهم : عادات برجوازية ! . . . .

الزبونة٨ : ماذا تقول حضرتك ؟ طبعاً ضرورية . . . حضرتك غرضك تحرض الدكتور على عدم إحضار علب الملبس ؟ !

أدهم : أستغفر الله . . . أنا حرضته ؟ !

الزبونة٨ : اسمع يا حضرة أنت ! . . علب الملبس أهم شيء . . . ولا بد تكون من أحسن صنف . . . عيب نضحك علينا الناس على الأواخر . . . أنت لا تعرف من حولنا . . . ولسانهم الطويل . . .

أدهم : أنا سحبت كلامى . . . أرجوك يا دكتور أحضر الملبس من أحسن وأفخر صنف ! . . . هذا مجتمع برجوازى داخل قماط اشتراكى ! اشتراكية قوانين ولوائح . ولسيست بعد اشتراكية روح ! . . . أحضر الملبس والعلب من أغلى نوع !

الزبونة٨: هذا ما كان سيفعله بالطبع . أليس كذلك يا دكتور ؟ . . .
الخطيب : طبعًا . طبعًا يا تيزة . لكن . . .
الزبونة٨ : لكن إيه ؟ . . . ! أنت نويت ترجع فى كلامك ؟ !
الخطيب : لا أبداً يا تيزة . . . أنا فقط أردت أن أقول إن هذه تفصيلات لا تثار هنا . . .
الزبونة٨ : لك حق . . . أنا غلطانة ألف مرة غلطانة أنى دخلت هنا . . . أنا حضرت أبحث عن واحد يحل لى إشكالى . . . أو على الأقل من يسمعنى الكلام الذى يريح أعصابى . . . وإذا بحضرته لا حل ولا ربط . . . وأسمعنا الكلام الماسخ الذى كنا فى غنى عنه . . . قوموا بنا !

( تنهض منصرفة بدون سلام ، ويتبعها الخطيب والخطيبة بعد أن يحييا برأسيهما . . . )

أدهم : سبحان الله ! . . .

( يظهر بالباب الزبون التاسع ، وهو كهل فى الخامسة والخمسين . . )

الزبون٩ : تسمح لى أدخل .
أدهم : تفضل ! . . .
الزبون٩ : ( يجلس على مقعد ) أنا فى الواقع . . .
أدهم : أفندم ؟ . . .
الزبون٩ : المسألة تتعلق بأولادى .
أدهم : خير إن شاء الله ! . . .
الزبون٩ : بالعكس لا يوجد خير بالمرة . أنا لا أريد أن أطيل عليك. . .
أدهم : تفضل تكلم على راحتك .
الزبون٩ : أنا يا سيدى الفاضل عندى ثلاثة أولاد . . . سببوا لى وجع الدماغ ، الأصغر فى التاسعة عشرة يظهر أنه انحرف .

ليس عنده غير السجاير والمكيفات والبنات والسينمات وحب المغامرات أيًّا كانت . يظهر أنه يريد أن يعيش حياة أبطال الأفلام السينمائية المنحطة . أما الولدان الكبيران فقد تخرجا بنجاح وتوظفا . لكن الخناقة بينهما لا تنتهى : أولهما يقول عن الثانى إنه يسارى . والثانى يقول عن الأول إنه يمينى . وأنا بينهم جميعًا لا أدرى ماذا أفعل ولا كيف أتصرف ؟ . .

أدهم : وأنت ما الذى حشرك بينهم ؟

الزبون٩ : أنا معهم فى معيشة واحدة . أنا وأمهم طبعًا . وهى أشد منى انزعاجًا . ولا يمكن أن تتصور هذا الجحيم الذى نعيش فيه كل يوم .

أدهم : ما الذى يحدث منهم بالضبط ؟

الزبون٩ : الولد الأصغر نكاد لا نراه . . . يرجع لنا كل يوم مع الفجر . أين كان طول الليل ؟ . . . مع من كان ؟ . ماذا كان يفعل ؟ . . . لا ندرى . وكلما سألناه أو نصحناه أو حاولنا التفاهم معه شوح لنا بذراعيه ورفع صوته علينا بألفاظ نابية وتركنا وانصرف . . . هل أطرده ؟ . . . والدته تبكى وتستعطفنى بقلب الأم ، وتقول اصبر عليه ربما يعقل . . .

أدهم : هذا واحد . . . والثانى ؟

الزبون٩ : الثانى والثالث ، كما قلت لك ، موظفان ولا بأس بهما فى عملهما الخارجى . لكنهما متى عادا من العمل قلبا علينا البيت بمناقشات تصل إلى حد الخناق والتراشق بعبارات واتهامات خطيرة . . . وأنا وأمهما فى حيرة . . . هل نتركهما يقطع أحدهما الآخر تقطيعًا كل ساعة بهذه الصورة ؟ !

أدهم : هل استعملت مسدسات أو سكاكين ؟

الزبون٩ : ما هذا الكلام ؟ !

أدهم : هذا فقط لمجرد المباسطة ! . . . الظاهر أن الشجار بينهما عبارة عن خلافات فى الرأى . . . ليس إلا ! . . .

الزبون٩ : أكثر من هذا بكثير . إنها اتهامات متبادلة . . . لا أحب أن أذكرها . . . تصور حضرتك . . . والد فى مثل سنى يريد الهدوء فيجد ولديه من حوله يصيحان طول الوقت ويقول كل منهما عن الآخر إنه كارثة على البلد ؟ !

أدهم : وأنت . . . ماذا قلت لهما ؟

الزبون٩ : قلت لهما إنى لا أستطيع أن أنام طول الليل على جنب واحد . وإنى أحياناً أنام على جنبى الأيمن وأحياناً أنام على جنبى الأيسر .

أدهم : وماذا كان جوابهما ؟

الزبون٩ : سخر الاثنان منى وقالا لى : هذا فى النوم .

أدهم : طبعاً . هذا فى النوم .

الزبون٩ : أنت أيضاً تقول ذلك ؟

أدهم : أنا أقرر الواقع . أنت تقول إنك تتقلب فى النوم . . . طبعاً فى اليقظة أنت لا تلازم الفراش . . . وإذن لا تنام ولا تتقلب .

الزبون٩ : فى اليقظة . . . أقعد على كرسى مريح . . .

أدهم : هذا إذا قعدت . لكن عندما تسير . . . فى الشارع ؟ !

الزبون٩ : عندى سيارة صغيرة . . . أقودها بنفسى . . . طبعاً عندما أجدها لأنها فى أغلب الأحيان يكون قد لطشها الولد الأصغر وذهب بها إلى حيث لا ندرى . . .

أدهم : تقود سيارتك بنفسك . . . هذا جميل ! . . .
الزبون٩ : وشيء متعب ومزعج . خصوصًا فى الشوارع المزدحمة .
أدهم : حقًا . . . الشوارع المزدحمة . أصبحت شيئًا مزعجًا ! . .
الزبون٩ : هذا إلى جانب مخالفات المرور .
أدهم : كان الله فى عون من عنده سيارة ! . . .
الزبون٩ : حقًا . إن لم يكن الإنسان عنده نظر سليم وأعصاب متينة فيحسن به أن لا يقود سيارة . خصوصًا الأعصاب . أى أعصاب لا تهتز وأنت أمامك فى كل خطوة شوارع فى اتجاه واحد . . . وشوارع عليها لافتات : ممنوع الدخول وشوارع تأخذ فيها اليمين فقط . وشوارع تأخذ فيها يمينك ويسارك حسب ما تريد . وشوارع ممنوع فيها الوقوف . وشوارع يمكن أن تقف فيها على اليمين فقط ، أو على اليسار فقط . . . شيء يلخبط العقل يا أستاذ ! . . .
أدهم : وسيارتك لا تزال عندك ؟ . . .
الزبون٩ : عندى . وهى معى تحت فى الشارع منتظرة . . . وعلى الله لا يأتى عسكرى المرور ويحرر لى مخالفة انتظار !
أدهم : من ضمن المتاعب ! . . .
الزبون٩ : ماذا أفعل ؟ . . . شىء لا بد منه ! . . . محتاج لها فى تنقلاتى وتحركاتى . . . المهم أن تسير . . . ولا تقف وأن لا أدوس بها أحداً . . .
أدهم : ربنا يستر ! . . .
الزبون٩ : وأنت يا أستاذ ؟ . . .
أدهم : أنا يا سيدى ليس عندى سيارة .
الزبون٩ : دعنا الآن من السيارة والسيارات . . . أنت لم تقل لى رأيك ؟

نحن خرجنا عن الموضوع . . . فلنعد إلى مسألة الأولاد .

أدهم : وليس عندى أولاد .

الزبون٩ : أنت لم تحل لى مشكلتى حتى الآن . . .

أدهم : والله . . . فى الواقع . . . مشكلتك هذه . . .

( جرس التليفون يرن يرن . . )

أدهم : ( يرفع السماعة ) آلو . . . نعم ؟ . . . تريد أولاده ؟ . . . سأقول له . تحب أرسله إليك ؟ . . . وهو كذلك ؟ . . .

( يضع السماعة ويلتفت إلى الزبون )

مشكلتك من اختصاص الحجرة رقم ثلاثة .

الزبون٩ : الحجرة رقم ثلاثة ؟ . . .

أدهم : نعم . الحجرة الثالثة هناك وسيطلب منك إحضار أولادك . . . أو على الأقل إحضار الاثنين الموظفين اليمينى واليسارى . . .

الزبون٩ : فى وقت واحد ؟

أدهم : إذا أمكن .

الزبون٩ : أعتقد من الصعب إقناعهما بالحضور معًا .

أدهم : إذن أحضر كل واحد على انفراد .

الزبون٩ : هذا أسهل .

أدهم : على كل حال هذه مسألة تفصيلية يمكنك الاتفاق عليها مع الحجرة ثلاثة . . . والآن تسمح تشرف هناك !

الزبون٩ : ( ينهض ) وهو كذلك . . . شكراً . . . ( يخرج )

أدهم : أف ! . . .

# الفصل التاسع

ما وافى عصر الغد حتى كانت يد شعبان قد امتدت إلى سماعة التليفون طالباً فاطمة هانم . وسمع صوتها يقول له : « آسفة . . . اتصل بى عصر الخميس » ، وأنهت المكالمة . لكن لهجتها كانت لطيفة . لولا هذا لخامرته الظنون . كان اليوم الاثنين . فأجلت الموعد يومين . لا يمكن أن تكون قد رجعت إلى عقلها وأرادت التنصل من وعدها والمماطلة . مثلها كان يتخذ الطريق القاطع الحاسم ويجزم الأمر بالرفض فوراً . لكن هذا التأجيل لعصر الخميس لا بد له من سبب . فلينتظر إذن . وجاء عصر الخميس ورفع شعبان السماعة وطلبها وترقب إجابتها هذه المرة ، فإذا هي تقول له بصوت هامس : « انتظرنى الساعة السادسة على محطة المعادى » .

كانت الساعة وقتئذ حوالى الخامسة . فرأى الأفضل أن يبادر هو ويكون فى انتظارها ، قطعاً للحجج . وركب القطار إلى ضاحية المعادى وانتظر بالمحطة . وجاوزت عقارب ساعة المحطة السادسة وهو منتظر يقول فى نفسه : « أما إذا اتضح أنه مقلب ! » . لكن القطار التالى الآتى من القاهرة لم يلبث أن ظهر ووقف ، ونزلت منه فاطمة هانم فاطمأن !...اقترب منها مرحباً ، فقالت له : « تعال معى » . . . وسارا معاً فى طرقات المعادى إلى أن بلغا فيللا صغيرة من طابقين تكاد تختفى بين أشجار حديقة كبيرة محيطة بها . فتركته على بعد خطوات من باب الفيللا قائلة له : « أرجوك . . . انتظر هنا لحظة حتى أعود فأدعوك » ومضت هى وحدها ودخلت ، وبعد نحو عشر دقائق لمح امرأة تخرج

من الفيللا وتسير متجهة إلى المحطة . امرأة مسنة يبدو من هيئتها أنها خادمة قديمة أو مربية . وما إن اختفت عن الأنظار حتى ظهرت فاطمة بالباب وأشارت إليه أن يدخل .

ودخل سائراً خلف فاطمة التى قادته إلى داخل الطابق الأول . ونظر فوجد نفسه فى صالة مفروشة فرشاً بسيطاً لكنه مريح . ووجد بابين مقفلين لحجرتين متقابلتين ، وسلماً خشبياً يؤدى إلى الطابق الأعلى . ثم باباً صغيراً تحته يؤدى إلى حمام ومطبخ وأوفيس . . . دعته إلى الجلوس فجلس على مقعد وهو يسألها : « أنحن وحدنا فى هذا المنزل ؟ » ، فأجابته بالإيجاب . ثم تركته واتجهت إلى الباب الصغير قائلة : « انتظر حتى أعمل لك فنجان شاى » . وقعد قعدة مريحة مسنداً رأسه إلى ظهر الفوتيل ومادّاً ساقيه إلى الأمام كأنه فى بيته ، وجعل يدندن بصوت خافت .

وفجأة اعتدل وأصاخ بأذنيه . فقد خيل إليه أنه سمع صوتاً يأتى من الطابق الأعلى . كأنه صوت نشيج بكاء انتهى بضحكة . صوت نسائى على كل حال . لكنه غريب وخافت جداً إلى درجة ظن معها أنه مجرد وهم توهمه . وظل لحظة مترقباً لعله يسمعه مرة أخرى . لكنه لم يتكرر . وعادت فاطمة بفنجان الشاى وقدمته إليه . فرشف منه رشفة ثم سألها مرة أخرى عمن بالمنزل ، فقالت : « لا أحد غيرنا » فلما أخبرها عما توهم أنه سمع حملقت فيه قليلا . ثم بادرت تقول له إنه مجرد وهم ، ثم فتحت باب إحدى الحجرتين ودعته إلى الدخول . هذا فى رأيها خير من الجلوس فى الصالة . وفيها لن يسمع شيئاً إلا صوت طيور المساء وهى عائدة إلى أعشاشها ، يسمع تغريدها من الشباك المفتوح على الحديقة . إنها حجرة نوم . وفيها بالفعل شباك ترى منه أشجار ضخمة كردة الجن . وأشارت له إلى مقعد بجوار السرير ، فجلس .



وجعل يفكر فيما ينبغي أن يفعل بعد ذلك . يجب أن يقيس تصرفاته بدقة . فإن أى خطأ فى التقدير يمكن مع مثل هذه السيدة أن يؤدى إلى نتيجة سيئة . والأصوب أن يرقب تصرفاتها هى ويتحين الفرصة المناسبة فلتكن هى البادئة .

لكنها حتى الآن لم تبد منها أى حركة فى غير محلها . فهى قد اتخذت مجلسها على كنبة وثيرة . وكلامها كله يدور حول ضاحية المعادى وهدوئها . وأن هذا المنزل هو لإحدى قريباتها ، وهى مسافرة بضعة أيام ، لم تترك فيه غير الخادمة العجوز التى خرجت منذ قليل فى إجازة تبيت عند ذويها . كل هذا كلام معقول . لكن لماذا جاءت به إلى هذا المنزل المقفر ؟ . . . ولماذا هو الآن فى حجرة نوم معها ؟ . . . إنها دبرت كل ذلك بعناية . وعليه هو إذن الباقى . . .

وأسرع عندئذ يقول لها : « لماذا نجلس متباعدين هكذا » ونهض وقعد إلى جانبها على الكنبة . . . ثم جعل يشمها ويطرى بإعجاب العطر المتضوع من شعرها وهو يغمض عينيه ويأخذ نفساً عميقاً . فقالت : « أأعجبك ؟ ! » وكان لصوتها وهى تلفظ هذه الكلمة نعومة لم تظهر عليها من قبل ، أدرك معها أنه فى طريقه إلى هدفه . وبالفعل سار كل شىء بعد ذلك سيراً طبيعياً سريعاً . وتوالت تفصيلات يكاد كل منهما لا يذكر منها شيئاً ، وتم الانتقال من الكنبة إلى السرير دون أن يشعر أحدهما كيف تم . . . وقد راعى شعبان رغبتها فلم يتركها إلا بعد أن تراخت قبضتها عليه . فانفلت منها بلطف وعاد إلى الكنبة وارتدى ملابسه وأخذ يدخن سيجارة . وهى ما تزال فوق الفراش فى شبه غيبوبة . . .

إنها ليست عانساً بالمعنى الحقيقى . فهى ليست بكراً . ويبدو أنها لم تتصل برجل منذ زمن طويل : رأى ذلك فى نظراتها وفى تشبثها

بكتفيه . كأنها لا تصدق ما هي فيه . تملكها شعور المرأة التى ذبلت ففقدت الأمل فى المتعة مع رجل . ونفث الدخان من سيجارته ونظر إلى ذلك الجسد الممدد الغائب فى نشوته . وأدرك حجم تلك المتعة التى تلقى إلى محروم . . . العجيب أنه وجد فى ذلك متعة له هو أيضاً . إن السعادة معدية كالمرض . وهذا الامتنان الصامت الذى يتلقاه من هذه المرأة يملؤه غبطة . إنه أراد التوسل بها إلى أخرى . لكنها هى أيضاً لها مذاقها . وهو من نوع آخر . إنها لفرط تقديرها لما نالت تشعرك بلذة الكرم . إنه الآن أدرك أن زير النساء الحقيقى هو قبل كل شىء رجل كريم . إنه يحب كل النساء . ولا يفرق بين سن وسن . يحبهن أحياناً لأنفسهن . متعته أن يمتعهن .

وتذكر صديقه أدهم . ذلك الذى لا يستطيع فهم الأمر على هذا الوجه . لا يستطيع أن يرى غير المرأة التى يتعلق بها قلبه وفكره . هى وحدها التى يمنحها كل شىء . وعندئذ تصبح فى عينه كل نساء الأرض ما عداها كالعدم . إنه قلب أنانى وجسد معطل موقوف على امرأة واحدة . قلما يجدها . وأغلب الظن أنه لن يجدها ، لأنه يصنعها بخياله صورة هائمة ، ليس من السهل أن تصب فى كيان ملموس ؛ أدهم هذا غير قدير على أن يضع شيئاً فى كيان ملموس . ومع ذلك يسخر منه ومن اهتمامه بالنساء . من اهتمامه بأن يكون سخياً بقلبه وجسده مع كل من تصادفه . حتى مع تلك التى ضاعت منها الفرص . تلك رسالة زير النساء الخالدة فى تاريخ البشرية .! والأحمق أدهم لا يريد أن يفهمها . . .

ونفخ مرة أخرى الدخان من سيجارته ونظر بزهو ورضا إلى جسد فاطمة نصف العارى فوق السرير وهى تتنهد . ثم راقبها وقد أفاقت وحركت أعضاءها ، ثم فتحت عينيها والتفتت حولها . فلما وقع نظرها

عليه : أسرعت بلم أطراف ثوبها فى حياء . وابتسمت . ثم نهضت واستوت على قدميها وقالت له برقة : « تحب تأكل شيئاً ! . . . أحضر لك فاكهة ؟ . . انتظر لأرى ماذا يوجد فى المطبخ ! » . وخرجت مسرعة ثم عادت بعد قليل بطبق بطيخ مثلج وشوكتين . وجلسا يأكلان معاً ويضحكان . وهى تقول إنها لم تضحك هكذا منذ أعوام طويلة . . . منذ شبابها الأول . وعند لفظها لشبابها الأول مرت سحابة فى ذاكرتها . فتجهم وجهها فجأة . ولم يفطن شعبان لذلك . فقد كان التفاته فى تلك اللحظة إلى الحديقة وأشجارها التى يلعب بأغصانها وأوراقها نسيم المساء . فاقترح عليها أن يخرجا ويمشيا بين هذه الأشجار . فراقت لها الفكرة . وعند الباب رجته أن يسبقها ريثما تأتى بالإشارب لتلفه حول عنقها وشعرها . لكنها بدلا من أن تتجه إلى الحجرة التى كانا فيها ، صعدت إلى الطابق الأعلى . وخرج هو يتمشى فى ممرات الحديقة . ووجد مقعداً من جذوع الشجر فى خميلة من زهر أحمر فجلس ينتظرها .

وساءل نفسه بعد قليل لماذا ينتظر ؟ . . . أما كان الأجدر أن يستأذن وينصرف ؟ . . . لكن لا . . . إن الانصراف السريع هكذا معناه أنه جاء لقضاء حاجة ومضى . وهذا ما لا ينبغى أن يستقر فى ذهنها . إنه يسعى إلى توثيق الصلة بينه وبينها . وأن يكتسب ثقتها ليعرف أشياء ويصل إلى أشياء . . . لكنها تأخرت داخل المنزل أكثر مما ينبغى . لا يمكن أن يكون كل هذا بحثاً عن غلالتها الحريرية . . .

# المنظر التاسع

( فاطمة تقبل على شعبان وتجلس إلى جواره على المقعد الخشبي . . )

فاطمة : أبطأت عليك ؟ . . .

شعبان : قليلا . أنت صعدت إلى الطابق الأعلى ؟

فاطمة : ( فى اختلاجة ) كيف عرفت ؟ رأيتنى ؟

شعبان : طبعاً . كان هذا أمامى قبل أن أخرج .

فاطمة : آه . . . لم آخذ بالى . كنت مستعجلة و . . .

شعبان : ومع ذلك لم تأت بالإشارب الذى ذهبت تبحثين عنه . . .

فاطمة : لم أجده . يظهر أنى نسيته فى . . . منزلنا بالدقى .

شعبان : على كل حال أنت هكذا أحسن . . . بدون إشارب ! . . .

فاطمة : لا تبالغ يا شعبان ! أنا أعرف نفسى جيداً .

شعبان : ما هو الذى تعرفينه عن نفسك ؟

فاطمة : على الأقل ما يعرفه الناس وما تعرفه أنت . إنى لست فى سن الشباب .

شعبان : وماذا يهم ؟

فاطمة : يعجبك هذا الشعر الأبيض ؟ !

شعبان : خصلات بيضاء وسط الشعر الأسود . . . جنان ! . . .

فاطمة : فكرت أمس قبل أن ألقاك أن أقول للكوافير يصبغها .

شعبان : إياك أن تفعليها ! . . .

فاطمة : ما دمت تريد ذلك . . . فسأمتثل .

شعبان : أنا أريدك كما أنت . لا تحاولى تغيير شىء .

فاطمة : أحقًّا أنت جاد فى هذا الكلام ؟

شعبان : وما مصلحتى فى الكذب ؟

فاطمة : حقًّا . . . وهذا ما يدهشنى .

شعبان : ما الذى يدهشك ؟

فاطمة : هذا الإعجاب بى ؟ . . . إنى أكبر منك سنًّا !

شعبان : ليس بشىء كثير .

فاطمة : نت طيب القلب . . . : إنى مدينة لك بهذا السرور الذى تدخله على قلبى .

شعبان : أتساءل لماذا لم تتزوجى حتى الآن ؟

فاطمة : ظروف .

شعبان : أهى مرفت ؟

فاطمة : نعم .

شعبان : ولكنها هى تزوجت مرتين .

فاطمة : إنها دائمًا كانت فى حاجة إلى وجودى بجانبها .

شعبان : لكن . . . لا بد أنه كان فى حياتك رجل .

فاطمة : ( مرتجفة ) كيف عرفت ؟

شعبان : طبعًا . هذا . . .

فاطمة : ( تفهم ) آه طبعًا عرفت . . .

شعبان : كان اتصالا بغير زواج . أقصد . . . كان حبًّا . . .

فاطمة : نعم .

شعبان : لا بد كان ذلك من سنوات .

فاطمة : ( فى تنهد وهى مطرقة ) نعم .

شعبان : أنا متأسف . يظهر أنى دخلت فى موضوعات شخصية لا يصح لى الكلام فيها . كل ما أردته هو أن أقول إنك جديرة أن يكون إلى جانبك رجل . . . يعزك و . . .

فاطمة : أنا متشكرة يا شعبان . وأحب أن أقول لك إنك أول رجل أتصل به . . . منذ . . . منذ تلك الأعوام الطويلة . . . منذ أيام شبابى .

شعبان : لا شك أنك فى شبابك . . . أقصد شبابك الأول . . . كنت رائعة !

فاطمة : أظن .

شعبان : وكيف استطاع ذلك الرجل الذى عرفك تلك الأيام . . . أن يتركك دون أن يتزوجك ؟ !

فاطمة : كان ذلك مستحيلا .

شعبان : وأين هو الآن ؟

فاطمة : مات . . . منذ زمن طويل . شعبان . . . أرجوك ! . . .

اترك هذا الموضوع ! . . .

شعبان : اعذريني . . . أنا قليل الذوق ! . . .

فاطمة : بالعكس . أنت مهتم بي . وأنا مقدرة هذا الاهتمام . لكن . . . فلنتحدث في شيء آخر . . . حدثني عن نفسك أنت . . . أنت متزوج ؟

شعبان : كنت .

فاطمة : عندك أولاد ؟

شعبان : لا . . . يظهر أني لا أنجب ، على الرغم من أني تزوجت وطلقت أكثر من مرة .

فاطمة : أنت أيضاً ؟ . . .

شعبان : نعم . مثل مرفت ! . . .

فاطمة : عرفت إذن نساء كثيرات . كلهن بالطبع صغيرات السن ! . .

شعبان : ولكنك أنت شيء آخر .

فاطمة : من أي جهة ؟ . . .

شعبان : أنت ممتعة .

فاطمة : أنا التي كان يجب أن أقول لك ذلك . لكنني . . . أخشى أن تكون في نفسك تحتقرني ! . . .

شعبان : أحتقرك ؟ ! . . . لماذا ؟ ! . . .

فاطمة : ثق أني امرأة ذات مبادئ . ولا أدري لماذا أنا فعلت هذا ! . .

شعبان : أنت لم تفعلي شيئاً يستوجب . . .

فاطمة : إني أكرر أخطائي . . . وإن كنت في هذه المرة لم

أسيء إلى أحد . . .

شعبان : أو كنت قد أسأت إلى أحد ؟ ! . . .

فاطمة : أرجوك . . . لا تحاول أن تعرف شيئًا عن حياتى ! . . .

شعبان : حياتك لا غبار عليها .

فاطمة : فى الحاضر . . . ربما . . . إلى ما قبل هذا المساء .

شعبان : وما الذى حدث هذا المساء ؟

فاطمة : هذا الذى وقع بيننا . . .

شعبان : شىء طبيعى .

فاطمة : ليس بالنسبة إلى . . . إلى امرأة فى سنى وتفكيرى . . . ألم تسائل نفسك ما هذه السيدة التى قادتك إلى هذا المنزل المنفرد بالمعادى لتلقى بجسدها فى أحضانك . . . وتنهار هذا الانهيار . . . المخجل ! . . .

شعبان : ليس بالمخجل . . . إنه ممتع ! . . .

فاطمة : اسمع يا شعبان . . .

شعبان : اسمعى أنت يا فاطمة هانم أريد أن أؤكد لك . . .

فاطمة : أرجوك أولا . . . لا تقل فاطمة هانم . . . لأن هذا مضحك ! نادنى بفاطمة فقط . نعم . . . بعد الذى حدث بيننا فى الفراش ، أظن من المناسب أن تنادينى باسمى المجرد ! . . .

شعبان : هل تظنين أن ما حدث بيننا يمكن أن يقلل من احترامى لك ؟

فاطمة : هذا ما أرجوه .

شعبان : تأكدى أنى أعرف تمامًا من أنت .

فاطمة : أنا نشأت فى أسرة فقيرة بسيطة . . . كما قلت لك . . . أبى كان معاون إدارة مركز فى الريف . لم يكن فى بيتنا الصغير حنفيات ماء . كنا نشرب من الزير . وكنا نطحن قمحنا ونقوم من الفجر نعجن ونخبز خبزنا بأيدينا . ومع ذلك علمنا والدنا أنا وأختى فى المدارس . وكان كل ما يطمع فيه أن يرانى يومًا مدرسة بنات بالأقاليم .

شعبان : أنت سيدة تستحقين كل تقدير .

فاطمة : او أن القدر أراد لى أن أكون مدرسة كما كنا نطمع . . . لكن مع الأسف حدث التحول الخطير فى حياتنا أنا وأختى ، ودخلنا أسرة عاطف . . . وبعدها توالت علينا المصائب . . .

شعبان : أى مصائب ؟ ! . ألم تكن أختك سعيدة بهذا الزواج ؟ .

فاطمة : كانت سعيدة فعلا . . . فى مبدأ الأمر . . . أحبت زوجها بعد الزواج حب عبادة . . . كان عادل حقًا رجلا يحب . . . كانت فى عينيه نظرات لا تقاوم . . . لكن . . . لماذا فتحنا هذا الموضوع ؟ أرجوك يا شعبان تكلم فى شىء آخر ! . . .

شعبان : ( ناظراً جهة المنزل صائحاً ) انظرى . . . انظرى ! . . .

فاطمة : ماذا ؟ . . .

شعبان : ( يشير بأصبعه ) هناك فى الطابق الأعلى . . . خلف هذه النافذة . لمحت شيئاً . . .

فاطمة : ماذا لمحت ؟ ! . .

شعبان : خيل لى أنى لمحت شبح امرأة يمر ويختفى ! . . .

فاطمة : امرأة ؟ !

شعبان : نعم . امرأة بيضاء الشعر . . .

فاطمة : دعك من هذا . . . أرجوك !

شعبان : ربما كان هذا المنزل مسكونًا بالأشباح ! . . .

فاطمة : هل تؤمن بالأشباح ؟

شعبان : ولم لا ؟ ! . . .

فاطمة : إذن ستخاف أن تأتى هنا مرة أخرى ؟ !

شعبان : أتريدين أن آتى هنا مرة أخرى ؟

فاطمة : أيسوؤك هذا ؟

شعبان : بالعكس . هذا يسرنى .

فاطمة : يسرك حقًا ؟ .

شعبان : بكل تأكيد .

فاطمة : أما أنا فإنى . . . خائفة . . .

شعبان : خائفة ؟ . . . خائفة من ماذا ؟ من الأشباح ؟

فاطمة : أن . . . أن أضعف مرة أخرى . . .

شعبان : أوكنت تظنين أن ينتهى ما بيننا هكذا سريعًا ؟ ! . . .

فاطمة : قل لى يا شعبان . . . متى ينتهى هذا العمل الذى تشتركون فيه مع منير ؟ . . .

شعبان : والله هذا . . . شىء فى علم الغيب .

فاطمة : أنا لا أثق أبداً فى منير عاطف . . . كلام بينى و بينك .

شعبان : أليس هو المتولى شئونكم ؟ .

فاطمة : نعم هو الذى يدير ميراث مرفت . . . طبعاً هى لا تحاسبه . لكنى لا أقصد من هذه الجهة . . .

شعبان : مرفت هى العقبة فى سبيلك .

فاطمة : أى سبيل ؟

شعبان : استقرارك فى بيتك الخاص . لم يكن من المتعذر قطعاً أن تجدى الزوج المناسب . كل مرحلة من العمر ولها ما يناسبها .

فاطمة : تقدم لى بالفعل رجل محترم أرمل فى الخمسين . لكن . . . كيف أتزوج وأترك مرفت تعيش بمفردها بلا زوج ؟ !

شعبان : أليس فى نيتها الزواج مرة ثالثة ؟

فاطمة : لا .

شعبان : لماذا لا تجرب ؟ . . . ربما كانت الثالثة ثابتة ! . . .

فاطمة : لا تريد .

شعبان : كيف تعيش إذن ؟

فاطمة : أسخف وأتفه حياة يمكن تصورها . ألم أقل لك ذلك عند ما قابلتك فى مكتبك أول مرة ؟

شعبان : نعم ، وحدثتنى عن قلقك عليها .

فاطمة : أتعرف ما حقيقة قلقى عليها ؟ هو أنها مجردة من القلق . إنها لا تدرك أن حياتها فى حاجة إلى إصلاح أو تغيير ، وعند ما يصل إنسان إلى هذه الدرجة . عند ما يفقد الحاجة إلى نقد نفسه ، أو القلق عليها ، فإنه يصبح فى حالة غير طبيعية ! . . .

شعبان : أليست هى راضية عن حياتها هذه ؟ . . .

فاطمة : راضية . . . كلمة مريحة . . . قل إنها عابثة بحياتها .

شعبان : العبث بالحياة فيه أحيانًا متعة . . . دعيها تعبث بالحياة ، تلهو كيفما شاءت . . . مع من تشاء . . . اتركيها يا ستى تتمتع بشبابها . . .

فاطمة : لن أمنعها . . . خصوصًا الآن . . . بعد هذه الليلة ! . . .

شعبان : اتفقنا إذن .

فاطمة : اتفقنا على ماذا ؟ . . .

شعبان : على هذا الرأى طبعًا . . . العبث والمتعة ليس فيهما دائمًا عيب !

فاطمة : أنت يا شعبان لم تفهم قصدى . أنا لا أقلق على مرفت لكونها تريد أن تلهو مرة مع شخص ما . . .

شعبان : أنت إذن لا تمانعين فى أن تلهو أحيانًا مع شخص ما ؟

فاطمة : ليس هنا جوهر المسألة .

شعبان : بل هذا هو جوهر المسألة عندى .

فاطمة : عندك ؟ !

شعبان : أقصد . . . باعتبارى أعالج الموضوع . . . بناء على استشارتك السابقة . . . طبعًا . . .

فاطمة : افهمنى يا شعبان . . . خوفى على مرفت هو لظاهرة أعتبرها خطيرة . ربما كان لقراءاتى دخل . . . ولكنى أعتبر الشخص الذى لا يضيق بحالته ولا يحلل نفسه ، ولا يريد أن يعرف

أخطاءه هو إنسان فى حالة غيبوبة . . .

شعبان : وهل مرفت فى حالة غيبوبة ؟ .

فاطمة : ألم أقل لك إنها لا تعرف شيئاً مما يجرى حولها ؟ . . . تأكد أنها لا تشعر ولا تبالى بما يقع من أحداث . لا تشعر إذا كانت فى عهد ملوكية أو جمهورية ! . . . لا ترى أى فرق ! لا تقرأ أبداً . . . حتى ولا الجرائد . . . كل معلوماتها تصل إليها فى قالب إشاعة أو نكتة أو قفشة . فتضحك بلا مبالاة . وتهز كتفيها . . . لكل شىء ، ولأى شىء . . . حاولت كثيراً أن أغيرها فلم أستطع . . .

شعبان : قلت لك ونحن فى المكتب ، لا تحاولى . . . ودعيها وشأنها ! . . .

فاطمة : كيف أدعها وشأنها . أنا المسئولة عنها .

شعبان : من قال إنك المسئولة ؟ . . . هل أنت التى صنعت طبعها ؟ . إنها خلقت هكذا . . .

فاطمة : يجوز . . . ربما ورثت عن أبيها . . . أبوها أيضاً كان فيه هذه اللامبالاة . . . لكن أنا التى توليت تنشئتها بعد ذلك . لماذا فشلت فى تربيتها ؟ . . . أترانى بالغت فى تدليلها ؟ . . إنها كانت تكره الدراسة . وكلما هربت من المدرسة كنت أتسامح ولا أجرؤ على إرغامها . وكلما طرحت الكتاب أو مزقته تركتها تفعل . . . كلنا فى خدمتها . . . لم تخدم نفسها مرة . . . لقد أتلفتها . . . أتلفت حياتها . . .

شعبان : لا تعذبى نفسك بهذه الأفكار ، أرجوك . . . ما من أحد

يتلف حياة أحد . . . كل إنسان مسئول عن حياته .

فاطمة : نتركها هكذا فى هذا الضياع ؟ !

شعبان : إنها ليست أول ضائعة ولا آخر ضائعة ! . . .

فاطمة : ماذا يمكن أن تصنع مثل هذه فى الدنيا لو فرض وانقطع إيرادها ؟ ! أى عمل تحسنه ؟ . . . إن فكرة العمل نفسها لا تعرف لها وجوداً ولا معنى . أنا وأنت مثلا نستطيع أن نقوم بأى شىء لكسب لقمتنا . . .

شعبان : ثقى أنها ستأكل . . . وستجد دائمًا من يؤكلها ! . . . اطمئنى ! الدنيا ما زالت زاخرة والحمد لله بالعاطلين والفارغين والعابثين يعمرون البلاجات واليخوت والكباريهات هنا وفى بقاع كثيرة من العالم ! . . .

فاطمة : آه . . . ليس أشق من حمل مسئولية الأولاد ! . . . خصوصاً فى حالتى . . .

شعبان : حالتك ؟ . . . مالها حالتك ؟ !

فاطمة : أنت لا تعرف . . . لو عرفت لعذرت ! . . .

شعبان : أعرف ماذا ؟

فاطمة : حقيقة حالى . . .

شعبان : قولى لى إذن . . . أرجوك !

فاطمة : لا . . . لا أستطيع . . .

شعبان : ما هو المانع ؟ . . . ماذا يمنعك من أن تقولى لى ؟ . . .

فاطمة : لم يحن الأوان بعد .

شعبان : أنا إذن . . . لست بعد محل ثقتك .

فاطمة : ليست مسألة ثقة .

شعبان : اسمعي يا فاطمة هانم . . . اسمحي لى الآن أقول لك يا فاطمة وأرجوك أن تعتبريني صديقاً . . . إنى أراك فى حاجة إلى صديق .

فاطمة : هذا صحيح .

شعبان : لا تخفى إذن عنى شيئاً . . . واعتمدى على إخلاصى . سأكون فى خدمتك . ثقى من ذلك . . .

فاطمة : إنى واثقة . لكننى . . . لست فى حل . . .

شعبان : لست فى حل!من ماذا ؟ تكلمى يا فاطمة . . . كل ما أريد هو راحتك والتخفيف عنك . . . هذا واجبى . . . لا يصح أن أتركك هكذا معذبة بأشياء أجهلها . . .

فاطمة : دعنى أفكر . . .

شعبان : أمرك . . . ( ينهض ) .

فاطمة : أتنصرف ؟

شعبان : بعد إذنك .

فاطمة : أرجوك يا شعبان لا تغضب منى .

شعبان : أنا أغضب منك ؟ ! . لماذا ؟

فاطمة : قد تظن أنى غير واثقة فيك . إنى على قصر المدة التى تعارفنا فيها أشعر أنك صديق يمكن الاعتماد عليه .

شعبان : وسأكون دائماً عند حسن ظنك .

فاطمة : وسأكون لك بدورى مخلصة ، تأكد ! . . .

شعبان : أنا متأكد .

فاطمة : اسمع يا شعبان . . . خذوا بالكم من منير . . . أنا غير مرتاحة !

شعبان : غير مرتاحة ؟ !

فاطمة : لست أدرى ما الذى حشره معكم ؟ . . . إنه لا يدخل فى عمل إلا ليكسب من ورائه شيئاً .

شعبان : ونحن أيضا نكسب .

فاطمة : ليس نفس الشيء . على كل حال فتحوا عيونكم ! . . .

شعبان : عيوننا بخير . . . والظاهر لنا أنه هو الخسران فى الشغلة .

فاطمة : أتظن ذلك ؟

شعبان : حتى الآن هذا مؤكد .

فاطمة : أنا غير متأكدة .

شعبان : لا تخافى علينا ! . . . كونى أنت فى نفسك . . . وهدئى بالك . . . وأريحى أعصابك وارفعى معنوياتك وانظرى إلى الدنيا بروح طيبة مرحة متفائلة . . .

فاطمة : اليوم أشعر بذلك فعلا . . . بفضلك يا شعبان . . .

شعبان : العفو يا فاطمة . . . متى سنتقابل ! . . .

فاطمة : اتصل بى بالتليفون . . . مساء الخميس القادم . . . مثل اليوم . . .

شعبان : بعد أسبوع بطوله ؟ !

فاطمة : هذا هو اليوم الذى يناسبنى .

شعبان : أمرك . . . والآن . . .

فاطمة : ( تمد يدها إليه ) إلى اللقاء يا شعبان . . .

شعبان : ألا تنصرفين معى ؟

فاطمة : لا . . . سأبقى هنا .

شعبان : وحدك ؟ . . . فى هذا المنزل ؟ !

فاطمة : نعم . قليلا . . .

شعبان : مع الأشباح ؟ !

فاطمة : نعم . . . مع الأشباح . . .

شعبان : وهو كذلك . . . أذهب أنا إذن . . .

فاطمة : مع ألف سلامة ! . . .

شعبان : ( قبل أن ينصرف ) تسمحين يا فاطمة ؟ . . . ( يقبلها )

فاطمة : ( بتأثر وامتنان ) متشكرة يا شعبان ! . . .

( ينصرف وهى تشيعه بعينيها . . )

# الفصل العاشر

نفذ شعبان الاتفاق واتصل بفاطمة عصر الخميس كما أرادت . قالت له إنها ستكون فى انتظاره فى ذلك المنزل بالمعادى حوالى الثامنة . بمفردها . لأن الخادمة تكون قد انصرفت فى إجازتها الأسبوعية . كانت تكلمه بالتليفون وعينها تراقب المكان خشية من مفاجئ . كأنها مراهقة تخاطب أول حبيب . وما إن وضعت السماعة حتى أسرعت إلى الحمام ومعها ملابس داخلية شفافة اشترتها أخيراً وتأنقت فى اختيار ألوانها . كان مجرد اهتمامها بنفسها الآن يمنحها فرحة الحياة الجديدة . ومهما يكن تفكيرها فى صواب ما تفعل فإنه لم يكن من السهل عليها الآن رفض هذه الفرصة . وانتهت من زينتها وارتداء ثيابها وخرجت توا إلى منزل المعادى .

كانت الخادم فى انتظار قدومها فصرفتها . وصعدت إلى الطابق الأعلى . وما إن اقتربت الساعة من الثامنة حتى هبطت إلى الصالة ، وفتحت الباب ووقفت تترقب . وأقبل شعبان فى الموعد . وكان لقاء مما يحدث بين عاشقين . وقادته إلى نفس الحجرة . وتخفف كل منهما من بعض ثيابه . وكاد يقع بينهما ما وقع فى المرة السابقة ، لولا صوت صرخة انتفضت لها فاطمة ، وقفزت من مضجعها ، وخرجت فى الحال وصعدت إلى الطابق الأعلى . ومن لهفتها نسيت أن تستأذن من شعبان أو حتى أن تضع شيئاً فوق كتفها العارية . وذهل شعبان لحظة . ثم تمالك وارتدى سترته وانطلق فى أثرها يستطلع الخبر . صعد

إلى الطابق الأعلى فوجد أمامه بابًا مفتوحًا فأطل منه ، فإذا هو يجد امرأة بيضاء الشعر . تلك التى لمح خيالها فى الشباك من الحديقة وقال إنها شبح . كانت تنشج وتبكى وتضحك فى حركات عصبية . وفاطمة آخذة برأسها فى رفق تهدئها . ثم أحضرت لها دواء فى كوب وجرعتها . ثم أسندتها إلى ظهر مقعد كبير وجعلت تمسح جبينها بحنان إلى أن استرخت وأغمضت عينيها وراحت فى سبات . فتركتها وسارت على أطراف القدمين إلى الباب ، فوجدت فى وجهها شعبان واقفًا ينظر إلى ما حدث . فبهتت قليلا ، ثم سحبته من يده ونزلت به إلى حيث كانا من الحجرة .

وقرأت فى عينيه تساؤلا . فترددت . أتقول له الحقيقة ؟ أم تخترع له حكاية ؟ .. ولحظ ترددها فعاجلها قائلا : « إذا لم أكن جديراً بثقتك فلا تقولى شيئًا » . . . فأجابته : « سأقول ، على أن يكون هذا سرًا بيننا . هذه أختى » . وانطلقت تخبره أن هذه هى أختها الكبرى خديجة . لم تمت . أصيبت بالجنون . ولم يكن من الصواب ترك مرفت تعتقد أن أمها حية . فتعيش صباها وشبابها وهى تعلم أن أمها مجنونة . أمامها حياة . . . أمامها المدرسة وزميلاتها . . . ثم بعد ذلك فرص الزواج . . . كيف يمكن مواجهتها لكل هذا والناس تعلم بحالة أمها ؟ ! .. أخفيت عنها الحقيقة بإحكام . ونقلت الأم منذ أعوام إلى هذا المنزل المنعزل . وأقيمت على خدمتها هذه المربية القديمة لمرفت . تظل معها طوال الأسبوع لا تتركها إلا ليلة الجمعة ، فى إجازة تمضيها مع ذويها . وتحل محلها فاطمة منتحلة لمرفت العذر بأنها فى زيارة إحدى القريبات . وجنون أختها هذا هو كل الحقيقة ، التى لا يعرفها غيرها هى والمربية القديمة ومنير عاطف بالطبع ، لأنه هو المتولى الإنفاق على احتياجات

هذا المنزل ، من حساب التركة التى خلفها أخوه عادل ويديرها هو . لكن . . . أكانت هذه حقًا هى كل الحقيقة ؟

. . . هنالك سؤال لم يخطر على بال شعبان أن يسأله ، أو خطر له وأحجم : ما سبب هذا الجنون ؟ . هنا يكمن سر المأساة . لكنه على كل حال ما كان سيتلقى عنه جوابًا صريحًا . فما من أحد يعرف غير فاطمة وحدها ، وهى لا يمكن أن تفضى به . حتى منير عاطف يجهله . ولو أنه عرفه لأذلها وصير حياتها جحيمًا . بل إنها هى نفسها طالما حاولت خنقه فى صدرها وكتمان همسه . واقتضاها ذلك سنوات . استحال فيها الهمس الخانق إلى صدى بارد . . . ومع ذلك فقد مس شعبان حافة سرها يوم اكتشف أنها ليست بكراً . أما من هو صاحب تلك الفعلة . وما ترتب عليها ، فإن الصمت الدائم قد ختم على شفتيها . . . إلا من رعشة عين ورجفة صوت لم يلاحظهما شعبان ، وهى تنطق باسم عادل عاطف زوج أختها ، الذى وصفت نظراته بأنها لا تقاوم !

إنها فعلا لم تقاومها طويلا يوم كانت فتاة فى التاسعة عشرة تدرس فى الجامعة ، وتعيش بينهما بقوامها الرشيق ونهديها البارزين . لا تريد أن تتذكر غوايتها وسقطتها . فإن مر الزمن لم يمح تمامًا آثار ذلك الخزى وآلامه . لكن كيف استطاع ذلك الرجل أن يسيطر عليها ويجعلها عشيقته ، أكثر من عام ، فى غفلة من زوجته ؟ ! إن أختها لم تكن تشك لحظة فيما نشأ بين زوجها وأختها الصغرى من علاقة آثمة . فقد كان زوجها مثلها الأعلى فى الرجولة والشهامة ، بعد أن وقف وقفته المتحدية أمام أسرته من أجلها . كانت تعبده . وربما كانت هذه العبادة هى التى أعمت بصرها . إن العبادة رفض للنظر . وظل الحجاب مسدولا وكثيفًا بينها وبين ما يجرى حولها . حتى وقعت الواقعة ذات ليلة . فطنت

إلى زوجها وهو ينسل من جانبها فى الفراش ويخرج من الحجرة . ظنته ذهب يقضى حاجة . لكن غيبته طالت . وخافت عليه ونهضت تتحرى الخبر . وعند اقترابها من حجرة أختها فاطمة سمعت أصواتًا غريبة . فوضعت عينها على ثقب الباب فأبصرت الكارثة ! . . . زوجها وأختها متعانقان فى فراش واحد . تماسكت حتى لا تقع على الأرض . وكتمت فمها بيدها حتى لا تنطلق منها صيحة . وارتمت فى فراشها ودست وجهها فى الوسادة وغابت عن الوعى .

مضت ساعات وأفاقت فوجدت زوجها إلى جوارها نائمًا يغط . كان قد عاد ولم يفطن إلى ما بها . إلى الصدمة التى زلزلتها . نظرت إليه وهو راقد فى نوم عميق لذيذ . وأيقنت أن حياتها معه قد غدت مستحيلة . بل مجرد حياتها لم تعد فى الإمكان . انهار مثلها الأعلى . وانهار هيكل عبادتها . وأصبح الممدد بجوارها جثة أمل وجيفة حلم . وما قيمة حياة لن يخرج منها بعد الليلة إلا رائحة العفن . . . ولم تشعر بنفسها وهى تخرج من الحجرة إلى المطبخ . وتحضر كوزاً مملوءاً بالبترول ، تصبه على زوجها النائم وتشعل فيه النار ، ثم تطرح جسمها بجواره معانقة إياه ليشتعلا معًا . ميتة بالنار قد يكون فيها أيضًا معنى التطهير .

وهب زوجها واللهب يلفه ويلفها . فدفعها عنه بعيداً وألقى عليها أغطية الفراش فأنقذها من الموت . أما هو فظل يجرى هنا وهناك بلهبه وهو يصيح طالبًا النجدة . ودخل الحمام محاولا إطفاء النار بإلقاء جسمه فى الحوض . لكن امتلاء الحوض احتاج إلى وقت . كانت النار قد تمكنت منه . وعندما خف الجميع لإسعافه كان إنقاذه قد فات أوانه . وتم إسعاف زوجته . لكن الهزة العصبية التى أصابتها من الحروق الخطيرة ومن مأساة الليلة ومما فعلته بزوجها . . . كل ذلك أدى إلى جنونها .

ولم يعلم أحد شيئاً من تفصيلات ما حدث . ولم يكن هناك بالطبع بالنسبة إلى مثل هذه الأسرة المحترمة أى تحقيق جدى . . . وما كان يسمح لأى خاطر أن يتجه إلى سبب يؤذى سمعة الأسرة .

ومسح كل شيء كالعادة فى القضاء والقدر ، وفى سيجارة افترض أنها تركت مشتعلة فى الفراش . وأسدل الستار على المأساة . . .

شخص واحد فقط شم رائحة الحقيقة . هى فاطمة . أدركت أن أختها اكتشفت كل شيء وأقدمت على هذا الذى حدث . لكن من المنبع الحقيقى للمأساة ؟ ! إنها هى فاطمة . . . الشعلة الأولى لهذه النار التى شبت فى هذا البيت . لا يمكن أن تنسى وجه الصغيرة مرفت . . . الطفلة بنت السادسة وقتئذ . . . وقد تجمد من الرعب لمنظر أبيها المتدثر باللهب ، وهو يصيح وكل من فى البيت قد هب لصياحه . . . لبثت مرفت فترات طويلة من حياتها تفزع لمرآى النيران . وبموت الأب وجنون الأم أصبحت مرفت وحيدة لا عائل لها إلا خالتها فاطمة . . . وطوت فاطمة كتاب حياتها الخاصة وكرست نفسها لبنت شقيقتها البريئة . ربما كان فى هذا بعض التكفير .

توالت هذه الصور سريعاً فى ذهن فاطمة وهى جالسة بجوار شعبان على الكنبة . ربما خطرت فى بال شعبان أسئلة ، وأهمها ما يتعلق بمرفت . ربما آن الأوان ليقترب من مدارها . وربما لم يكن الوقت قد حان . لا بد أن يبدو طبيعياً . وليترك الظروف تقرر . وليكتف الآن بمواصلة ما هو فيه من توثيق علاقته بفاطمة . إنه كلما التصق بها اقترب من بنت أختها . ومد ذراعه وطوقها برقة . . . وإذا صوت كأنه صوت سقوط شيء على الأرض فى الطابق الأعلى . . . فنهضت فاطمة مرة أخرى لتصعد مسرعة ، وشعبان فى أثرها . لكنها استوقفته ، ورجته أن

يبقى فى مكانه وينتظرها . إن أختها لا شك صدمت شيئاً أوقعته على الأرض . وهى غير معتادة رؤية أحد غيرها وغير المربية . وربما أفزعها وجود شعبان . . .

وامتثل شعبان ووقف ينتظر فى الصالة . وأشعل سيجارة وأخذ يتمشى . ثم أدار عينيه يتفحص ما حوله شغلا للوقت . فوقع بصره على باب الحجرة المقابلة . فاتجه إليه بدافع الفضول وفتحه ونظر . . . إنها حجرة مكتب مهملة . فدخلها . وجعل يعبث بأدراج المكتب . وإذا هو يعثر فى أحدها على علب تسجيل فارغة مما يستعمل فى جهاز « الركوردر » . وفى قاع الدرج عثر على ورقة كتب فيها بقلم جاف عبارة : « العلب من رقم ١ إلى رقم خمسة سلمت إلى م . ى . ع . وتم قبض أول دفعة والدفعة الثانية مع تسليم الأرقام التالية » . ثم عبارة أخرى أو تأشيرة بخط آخر ولون قلم آخر : « ويلاحظ توضيح عناوين المهتم بأمرهم من الفئة أ » . . .

وسمع شعبان صوت فاطمة تنزل السلم فأغلق الدرج ، وخرج من حجرة المكتب . . . واستقبلها وقد آثر ألا يخفى عنها ما اكتشف . بادرها بالسؤال عن هذه الحجرة ، فقالت إنها حجرة مكتب قديمة لمنير عاطف . أتى بأثاثها هنا ضمن أثاث قديم آخر لم يعد فى حاجة إليه ، بعد أن ترك منزله الكبير عقب وفاة زوجته ، وانتقل إلى شقة الزمالك . سألها أهو يأتى إلى هنا ؟ . . .

أجابت بالطبع من حين إلى حين ليعطى المربية مرتبها ولوازم المنزل . فقادها من يدها إلى الحجرة وفتح الدرج وأطلعها على العلب الفارغة والورقة والرموز . وأفهمها ما استنتجه . فارتاعت . وقالت إنها لا تستبعد على منير عاطف أى شىء .

ولم يستطع شعبان أن يمكث لحظة . وكان من الضرورى أن يقابل صديقه وزميله أدهم فى أسرع وقت . فاستأذن من فاطمة وقبلها وانطلق خارجًا . . .

## المنظر العاشر

( شعبان يدخل على أدهم فى مكتبه وهو يلهث )

شعبان : اسمع الخبر المزعج ! . . . رحنا فى داهية ! . . .

أدهم : يا ساتر ! . . .

شعبان : قل لى أولا . . . منير بك هنا ؟

أدهم : كان هنا وخرج .

شعبان : الحمد لله . . . أقدر أتكلم براحتى . . . لكن انتظر حتى ألقى نظرة فى حجرته . . . ربما يكون ترك جهاز التسجيل عنده يدور ويسجل فى غيبته . . . لحظة واحدة ! . . . ( يخرج بسرعة )

أدهم : اللهم اجعله خير . . .

شعبان : (يعود) لا . . . الجهاز مقفول . . . نتكلم إذن باطمئنان . . انتظر نقفل الباب علينا أحسن . . . ( يغلق الباب )

أدهم : كركبت بطنى يا أخى . . . تكلم ! . . .

شعبان : قل لى يا أدهم . . . تذكر أننا تكلمنا فى مسألة المرتبات

التى يجريها علينا . وتحمله مصروفات لا تدر عليه أى مكسب ؟ . . .

أدهم : طبعًا تكلمنا فى ذلك .

شعبان : وماذا قلنا عنه ؟

أدهم : قلنا إنه مغفل .

شعبان : لا يا حضرة . . . المغفل هو أنت . . . ولا مؤاخذة . . . أنا وأنت . . . نحن الاثنين أكبر مغفلين ! . . .

أدهم : ما هذا الكلام ؟ !

شعبان : الحاصل . . . إنه يجرى فى الخفاء عمليات مربحة من هذا البنك . بالنسبة إليه هو بنك حقيقى ؟ . . .

أدهم : أهو يقبض من الزباين ؟ . . .

شعبان : لا . . . ليس من الزباين .

أدهم : ممن إذن ؟ !

شعبان : من جهات أخرى .

أدهم : جهات أخرى ؟ !

شعبان : نعم . وهنا المسألة . . . هنا الخطورة . . .

أدهم : الخطورة على من ؟

شعبان : علينا طبعًا . لأننا لا نعرف حقيقة هذه الجهات التى يتعامل معها !

أدهم : من أعطاك هذه المعلومات ؟

شعبان : أنا نفسى . اكتشفتها بنفسى . . . بمحض المصادفة . . . ألم أقل لك إنى أقابل فاطمة ؟ . . . أتعرف أين تم المقابلة ؟ فى منزل بالمعادى . منزل منفرد يضع فيه منير بك بعض أثاثات قديمة له . . . اليوم دخلت حجرة مكتب مقفلة وعثرت فى أحد أدراجه . . . تعرف على أى شىء عثرت ؟ . . .

أدهم : تكلم . . . انطق ! . . .

شعبان : عثرت على علب فارغة لأشرطة تسجيل . . . هى بالطبع تسجيلات الركوردر الموضوع هنا فى حجرته . . . وإذا بهذه التسجيلات تباع ويقبض ثمنها على دفعات . . . تسلم لشخص حروف اسمه م . ى . ع ، كما هو مدون فى ورقة وجدتها بجوار العلب . فى هذه الورقة أيضاً مطالبة بإثبات عناوين الأشخاص المهتم بأمرهم . . .

أدهم : المهتم بأمرهم ؟ !

شعبان : هذا هو نص المكتوب فى الورقة ... ولا بد أن نعرف ما هو المقصود من عبارة « المهتم بأمرهم » . . . المهتم بأمرهم من أى جهة ؟ !

أدهم : أنا متذكر الآن . . . هناك نوع من الزباين يهتم منير بك بأمرهم بشكل خاص . . . ويطلب من هذا التليفون إرسالهم إليه . . .

شعبان : أى نوع ؟ !

أدهم : تذكر جيداً وأنت تعرف . . . أنا أذكر أنه النوع الذى

يبدو عليه التذمر . . .

شعبان : آه التذمر ! . . .

أدهم : هذه الكلمة بالذات قالها لى اليوم ولم ألتفت إلى مدلولها .

شعبان : بأى مناسبة قالها لك ؟

أدهم : دخل على هنا قبل أن يخرج وأخبرنى بمشروع يقترح علينا تنفيذه . هو أن نمد نشاطنا إلى الأقاليم . قال إن من مهام البنوك أن يكون لها فروع فى كل مكان . وبنك القلق هذا يجب أن يكون مثل غيره من البنوك . . . لكن إنشاء فروع ثابتة فكرة سابقة لأوانها . ويحسن البدء بفرع متنقل . أى أن واحداً منا يحمل معه جهاز تسجيل وينتقل به فى الريف يسجل قلق الناس . خصوصاً تذمرهم . . .

شعبان : قال لك ذلك ؟ !

أدهم : وعرض على أنا القيام بالمهمة . ووعد بإحضار جهاز تسجيل صغير أحمله وأتجول به . على أن تبقى أنت هنا فى المركز الرئيسى .

شعبان : المسألة فى غاية الخطورة يا أدهم ! . . .

أدهم : يظهر .

شعبان : نعم . يظهر أننا اشتركنا فى نشاط مريب . . .

أدهم : وموقفى أنا أخطر ! . . . لأن لى سابقة اعتقال . . . ولن يصدق أحد حسن نيتى ! . . .

شعبان : لكن . . . من هو صاحب المصلحة فى هذا النشاط ؟ . .

من الذى يهمه الحصول على أشرطة التسجيل هذه ؟ ويهمه معرفة المتذمرين وعناوينهم ؟ !

أدهم : الجهات كثيرة ! . . .

شعبان : حقاً . ومختلفة ؟ . . . منها المشروع وغير المشروع ! . . . لكن مهما اختلفت فإن منير عاطف قدير على التعامل معها فى نفس الوقت ! . . .

أدهم : فى هذه الحالة . . . ماذا يجب علينا أنا وأنت أن نفعل ؟

شعبان : من الصعب علينا طبعاً أن نستمر . . . ونحن نجهل على أى أرض نقف وفى أى طريق نسير ! . . . فلنأخذها من قصيرها ونهرب بجلدنا ! . . .

أدهم : هكذا بكل بساطة ؟ ! . . غير ممكن . هربنا لا يخلينا من المسئولية . بالعكس . . . نسيت أن عقد هذه الشقة باسمنا ؟ !

شعبان : آه صحيح ! . . .

أدهم : حبكها حبكة جهنمية ! . . . منير عاطف هو الذى يستطيع أن يهرب وقت اللزوم ... ويتركنا هنا فى الشقة غارقين فى شر أعماله ! . . .

شعبان : يا مغيث ! . . .

أدهم : ما الذى أوقعنا هذه الوقعة ؟ !

شعبان : أنت . . . من غيرك ؟ . . . أفكارك ؟ ! . أهذه فكرة تخطر فى بال عاقل ؟ ! . بنك . . . وإنشاء بنك . . . وأى

بنك ؟ . . . بنك القلق ! . . . كلمة القلق وحدها كافية الآن أن تؤدى بالإنسان فى داهية ! . . .

أدهم : الآن تقول ذلك ؟ ! ألم تعجبك الفكرة وتوافق عليها ؟ ! . . أتنكر أنها كانت فى ذاتها فكرة طيبة ، وكنا نريد من ورائها الخير ؟ . . .

شعبان : لكن ها هى قد انقلبت بغم ! . . .

أدهم : ليس بفعلنا ! . . . من ساعة أن دخل فيها منير عاطف هذا . . . ومع ذلك كيف كان يمكننا أن نكتشف . . .

شعبان : اكتشفت حضرتك أنه عبيط ومجنون ومغفل . . . وأنه هبط علينا من السما لينفق علينا لوجه الله !

أدهم : هذا أيضاً كان رأيك ! . . .

شعبان : كنت أجاريك . . . عيبى أنى أجارى الناس . . . لا أحب أكسر نفس أحد . . .

أدهم : دعنا من هذا الجدل العقيم ولنفكر فى المخرج ! . . .

شعبان : فكر يا سيدى أنت . . . أنت الذى أدخلتنا . . . وكما أدخلتنا أخرجنا !

أدهم : ليس هناك غير حل واحد .

شعبان : ما هو .

أدهم : نبلغ البوليس .

شعبان : البوليس ؟ !

أدهم : جهات الأمن .

شعبان : ماذا نقول لهم ؟

أدهم : نقول لهم عن الموضوع .

شعبان : لا بد من تقديم دليل . . . وإلا اتهمونا بالبلاغ الكاذب .

أدهم : الدليل عندك يا أخى ؟ . . .

شعبان : أين هو ؟ . . .

أدهم : عجيبة ! . . . ألم تقل الآن إنك عثرت على ورقة فى مكتبه القديم بمنزل المعادى ؟ !

شعبان : آه منزل المعادى ! . . . أتريد أن ندخل البوليس فى منزل المعادى ؟ !

أدهم : ولم لا ؟ . . .

شعبان : مستحيل .

أدهم : لماذا مستحيل ؟ !

شعبان : لا يصح هتك أسرار العائلات . فاطمة هانم استأمنتنى وأدخلتنى هذا المنزل . . . أتريد منى أن أدخل لها فيه البوليس يحقق ويفتش وينبش ؟ ! .

أدهم : يعنى نسكت ؟ !

شعبان : كيف نسكت على شىء كهذا ؟ !

أدهم : حيرتنى ! . . .

شعبان : دعك من حكاية البوليس والأمن ! . . . أنت ضامن ماذا قلت حضرتك فى الشريط ؟ !

أدهم : ماذا تقصد ؟

شعبان : ألا يحتمل أنك تكون لبخت ؟ ! هل أنت متذكر تماماً كل كلمة قلتها مع الزباين وسجلت عليك فى الأشرطة ؟ ! .

أدهم : اسمع ! . . . لا تجعل الفار يلعب فى عبى ! . . .

شعبان : أليس هذا من ضمن المحسوب حسابه عند منير بك ؟ ! . . . أن يمسك علينا عبارات معينة مسجلة بصوتنا عنده ؟ !

أدهم : أنا متذكر تماماً أنى كنت فى منتهى الحرص والاحتياط . . . راجع نفسك أنت ! أنت لسانك مفلوت ! . . .

شعبان : لا يا سيدى . . . أنا أعرف كل كلمة قلتها . . . أولا . . . أنا اشتراكى مية فى المية ! . . . وإن كنت بينى وبينك لا أعرف ما هى الاشتراكية ؟ ! .

أدهم : وأنا اشتراكى من ساسى إلى راسى . أكثر منك . وأعرف جميع المذاهب . . .

شعبان : أنا كل ما أعرفه أنى لا يمكن بالسليقة والفطرة أن أكون رأسمالياً ، وأنت كذلك مثلى . . . لأن اليوم الذى أردنا فيه تأسيس بنك . . . ما شعرنا إلا وقد وجدنا أنفسنا انقلبنا إلى مجرد . . .

أدهم : اسمع يا شعبان . . . أنا عندى حل . . .

شعبان : قل . . . ما هو ؟

أدهم : نروح للبوليس . . .

شعبان : البوليس ؟ ! . تانى ؟ !

أدهم : لا . . . اطمئن . . . لن نبلغ عن شىء بالذات . . . فقط

سنقول لهم أن يضعوا منير عاطف تحت المراقبة ونطلب من جهات الأمن إخلاء طرفنا من أى مسئولية جنائية عما يمكن أن يحدث أو يكون قد حدث بدون علمنا . بذلك نحفظ لأنفسنا خط الرجعة . فلا نتهم بأننا كنا فى يوم ما شركاء فى عمل غير مشروع . . .

شعبان : معقول .

أدهم : إذا اتضح لجهات الأمن أن نشاط منير عاطف موافق عليه أو متفق عليه كان بها . وإذا كان يقوم بنشاط مريب فنحن غير مسئولين ! . . .

شعبان : كلام طيب .

( نقر على الباب ، فيذهب شعبان ويفتح ويظهر منير عاطف يحمل جهاز تسجيل صغيراً . . . )

منير : ( لأدهم ) أحضرت لك جهاز التسجيل . . . حسب الاتفاق .

أدهم : آه . . . جميل جداً ! . . .

منير : ( يلتفت إلى شعبان ) أنت يا أستاذ شعبان تركت مكتبك وتغيبت أكثر من ساعتين ! . . .

شعبان : كنت فى زيارة . . . قريب مريض . . .

منير : من الغد أرجوك ملازمة مكتبك باستمرار . لأنك ستكون أنت الوحيد هنا . . .

شعبان : فى المركز الرئيسى ؟ . . . مفهوم ! . . . زميلى أدهم بلغنى بالنشاط الجديد ! .

منير : ( لأدهم ) بلغته التفصيلات ؟

شعبان : بلغنى . لكن . . . أنا لى ملحوظة يا منير بك . . . هذا النشاط هو عمل جديد غير متفق عليه بيننا فى الأصل ! . . .

منير : وهل ضرورى من اتفاق جديد ؟

شعبان : ضرورى . لأنه من حقنا نرفض أى تغيير فى الوضع .

منير : ولكنه لم يحصل أى تغيير . كل ما فى الأمر أننا ضاعفنا النشاط . وكل شىء بثمنه .

شعبان : بثمنه ؟ ! . بالنسبة لمن ؟ !

منير : (يحلمق فيه) ماذا تقصد ؟ !

شعبان : أقصد . . . طبعاً أنت فاهم . . .

منير : آه . . . تقصد أجركم ؟ !. طبعاً الأستاذ أدهم سيحصل على مصاريف انتقال . أما أنت فعملك هنا هو نفس عملك . . .

شعبان : ولكنى سأقوم هنا بعمل اثنين .

منير : سأعطيك يا سيدى . . . حق الدخان ! . . .

شعبان : وما هى ضرورة توسيع النشاط الآن ؟ !

منير : الأقاليم . . . لا نعرف عنها شيئاً .

شعبان : ومن الذى يريد أن يعرف ما فى الأقاليم ؟ !

منير : ماذا تقول ؟ . . . ماذا تقصد ؟ !

أدهم : زميلى شعبان مفاوت العيار لا تؤاخذه ! . . . دائماً يسأل

أسئلة بديهية . اسكت يا شعبان . . . دعنا نشتغل بهدوء . اترك لى أنا يا منير بلك هذا الجهاز . . . وعلى الباقى . . .

منير : وهو كذلك . . . من باكر السفر . . . سأعد لك خط سيرك . . . جهز نفسك ! . . . (يخرج . . .)

أدهم : (لشعبان) ماذا جرى لعقلك ! . . . إياك تجعل الرجل يفهم أننا كشفناه ! . . . كل شىء يجب أن يتم فى السر . . .

شعبان : اللهم أخرجنا من هذا البنك على خير ! . . .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٣٤٣ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١



اقرأ

محمد زكي عبد القادر

مختارات من

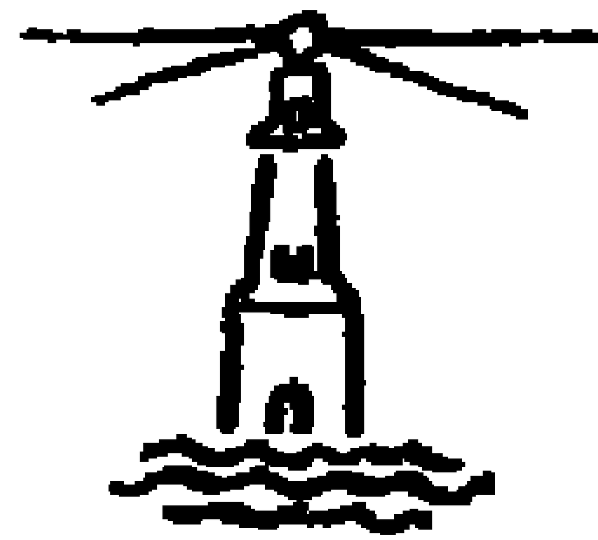
# نحو النور






تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

محمد زكي عبد القادر

مختارات من

# نحو النور

اقرأ ٣٤٨
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٨ – ديسمبر سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

## مقدمة المؤلف

هذه مختارات من « نحو النور » وهو العمود الذى اعتدت كتابته يومياً منذ سنوات كثيرة ، تحريت فى اختيارها أن تكون ذات قيمة دائمة لا يغض منها الزمن ، ولا تتعلق بمناسبة من المناسبات ، لأنها ترجع إلى طبيعة الإنسان : نفسه وروحه ووجدانه ، وليس فى طبيعة الإنسان ما يتغير تغيراً جذرياً ، قد يتطور الإنسان ، قد يتغلب ، قد يتوهج أو يخمد ، ولكنه فى كل الأحوال مرتد إلى نواميس ثابتة تتعدد فيها الصور والوجوه والانفعالات ، ولكن الجذور التى تصدر عنها واحدة فى كل زمان ومجال ومكان .

وفى هذه المختارات لمحات عن الحرب والسياسة والاقتصاد ونظم الحكم ، كما أن فيها لمحات عن الحب والكراهية والحقد والطمع والتظاهر والغرور والنفاق والكذب ، وفيها لمحات عن الدين والإيمان ووحدة الكون وسلطان الطبيعة . . . فيها صور رقيقة أو عنيفة لشخصيات نراها ونعرفها ونعايشها ، وفيها أيضاً لمحات عن المعوج من أمورنا وما نرجو لها من صلاح .

ومنذ أمد طويل أشار علىّ الكثيرون أن أجمع من « نحو النور » ما لا صلة له بالحوادث والمناسبات والشئون الجارية ، أضمها فى كتاب أو أكثر مما يجلوها ويجعل لها طعماً جديداً ومتجدداً على الأيام .

وهأنذا أبذل المحاولة الأولى ، لعل التوفيق يصاحبها .

محمد زكى عبد القادر

## الله

هذا الليل فى رخاء حنانه . نجومه اللوامع الغوامض .

خرجت إليها بالأمس أستجليها السر ، وأسألها الضياء . كان الكون شبه نائم ، والنسيم يهفو تارة ويصمت أخرى كأنه الأمل فى صدر عاشق .

أفى سر هذه الطبيعة يكون سر الوجود ؟ أأجد فى أحضانها ما يطامن الحيرة ويقطع الشكوك ؟ وجلست إليها . أنا وهى ونفسى . أنا والأزل والأبد . وهذه النجوم التى تظل ساهرة لا تنام . الغفوة حرام عليها ، والهجعة بعض وساوس الشيطان . تجرى فى أفلاكها تعد الأخطاء والخطايا ، وتطوى فى صدرها الأحزان والأسرار . حتى إذا خلونا إلى عيونها المسهدة ، ألفينا فى نجواها الهناءة والعزاء .

إنى لأهتف بك أيتها الصواحب فى هجعة الليل أبثك شجنى ، فإذا بيدك الرضية تمسح عن صدرى وقلبى . وإنى لأسألك سر الوجود الذى حيرنى فتصمتين ، ولكننى أراك فى صمتك أبلغ منك مقالا .

تبارك الله العلىّ العظيم الذى منحك هذه الأسلاك والأفلاك ، تجرين فيها بقدر معلوم ، ومنحك الليل يطوى عليك ضلوعه الحانية ، ونلقى نحن فى غموضه النور ، وفى وحشته السلام . يودعه الناس أسرارهم وأخطاءهم ودموعهم ، فيكون لها خير الحافظين . ويستردونها منه هناء وسلاماً وعزاء فيعطيهم منها فوق ما يريدون .

هذه الهواتف الغامضة التى تبدو فيه وكأنها تناجينا . هذه الأرواح التى تحوم فى الأفق وكأنها تمسح أخطاءنا وخطايانا . المذنب كأنه يكفر عن ذنوبه . تسكت فى صدره كل النزوات والشهوات .

٧

لكأن فى الليل قوة خفية تمنح الصالح السرور والسلام ، وتطهر المذنب من وساوس الشيطان ، وتأخذ ثمن الذنب توبة أو ندماً .

هذه القوة الخفية هى الله . .

هى سر الوجود !



# ذكريات العيد

أحب ما فى العيد إلى نفسى أنه يعيد إلى خاطرى ذكريات عزيزة . . . أنه يجعلنى أعيش فى الماضى لحظات هى أسعد ما فى الحياة ! أحب ما فيه إلى أن أخلو إلى نفسى فأعود بها وتعود بى إلى الأعزاء الذين فقدت ، والذين كانوا فى مثل هذا اليوم من كل عام نعمة القلب ، أسكن إليهم ويسكنون ، أفرح بهم ويفرحون ، أحس وإياهم نعمة الحياة ويحسون ، أما الآن فما هو العيد — وقد حرمت هناءة القلب فى بكور العمر — إلا أن أعود إلى هؤلاء الذين يثوون فى القبور !إن الموت ليجردهم أمامى من كل أطماعهم وأوزارهم وشهواتهم ، إنه ليسمو بهم إلى الملأ الأعلى فأحسبهم كالملائكة طهراً ونوراً ، وأحس وأنا على هذه القبور ضآلة كل ما يشغل الناس ويؤودهم ويحزنهم ويصرعهم من الشهوات والأحقاد والآمال والآلام . . . ما لهم لا يزورون القبور ؟ . . . ما لهم لا يزورونها فى يوم عيد ؟

إن من القبر — كما يقول واشنجطون إرفنج — ينبعث صوت أحلى من النغم ، وإن مع الموتى من الذكريات ما تطيب له النفس أكثر مما تطيب مع الأحياء .

وأخيراً ما هى الأعياد ؟ إنها وقفات فى صحراء الحياة ، ولفتات إلى الوراء وإلى الأمام ، أما الموكب الأكبر الحافل الزاخر الصاخب ، موكب الحياة ، فإنه يسير . . يسير حتماً إلى غايته ، يتخلف عنه من يتخلف ، ويلحق به من يستطيع اللحاق !

# اختيار

أعظم شيء يتردد أمامه الرجل هو اختيار المرأة التى تشاركه الحياة . وهو قد يجازف بكل شيء حتى بثروته، بل قد يجازف أحياناً باسمه وسمعته . قد ينسى كل النصائح التى وعاها وتعلمها ، وهو يلتمس الثروة أو الجاه أو النفوذ ، ولكنه قلما يفعل ذلك وهو يلتمس شريكة حياته . . إنه يعرف أن فى رؤوس النساء شيئاً ناقصاً ، وفى قلوبهن شيئاً زائداً . يعرف أن البيت الذى يفقد المرأة الصالحة يصبح كالقبر . . . وهو حين يختار ، يخبط بقدمه فى الظلام . يشك فى كل الأشياء والأشباح . يسأل ويسمع . . . ولكنه قلما يصدق .

وبعض الناس يجرون وراء الخيال فيطلبون الأغنى والأعلم والأجمل ، وبعضهم الآخر يطلب الأغنى . . . وكلهم ، أو أكثرهم يطلبون واحدة أفضل منهم . . . قليلون هم الذين يفهمون أن الشركة فى الحياة كالشركة فى أى شيء آخر ، وأن الكمال المطلق لاوجود له . . فهم يأخذون أقل ما يمكن من العيوب ، وأكثر ما يمكن من الفضائل . وقلما يجتمع العلم والجمال والمال والخلق . . . فإن أحدها يطرد الآخر . . قد يطرد المال الخلق ، وقد يطرد الجمال التواضع والقناعة .

وقد ينفق الشاب عشر سنوات يبحث عن زوجة ثم يقع آخر الأمر فى مصيبة . . . لأنه لم يفهم جيداً قيمة نفسه . أراد دائماً أكثر مما يمكن أن تعطيه ظروفه وعيشته ودخله . فأول شرط للاختيار الحسن هو أن تضع نفسك موضعها . أن تزن كل مؤهلاتك : دخلك ، مركزك ، سنك ، أخلاقك ، الوسط الذى نشأت فيه ، الأسرة التى تنتمى إليها.

وبعد ذلك تفكر فى الفتاة التى تكون لك . تزنها بالمقاييس نفسها . يجب ألا تطلب من هى أعلى منك . يجب أن تفكر فى أن ترتفع زوجك باسمك ، لا أن ترتفع أنت باسمها . يجب أن تكون هى ظلاً لك ، ولست أنت ظلاً لها . . . يجب أن تشعر دائماً بأنها أضعف منك : أضعف فى كل شىء . . .

ولست أجد هنا أفضل مما أجاب به فيلسوف حينما سئل كيف تريد امرأتك فقال : « أريدها لا بالجميلة فيطمع فيها غيرى ، ولا بالقبيحة فتشمئز منها نفسى ، ولا بالطويلة فأرفع إليها هامتى ، ولا بالقصيرة فأطاطئ لها رأسى ، ولا بالسمينة فتسد على منافذ النسيم ، ولا بالهزيلة فأحسبها خيالى ، ولا بالبيضاء فتكون كالشمع ، ولا بالسوداء فتكون كالشبح ، ولا بالجاهلة فلا تفهمنى ، ولا بالفيلسوفة فتناقشنى الحساب ، ولا بالغنية فتقول مالى ودخلى ، ولا بالفقيرة فيشقى من بعدها ولدى » .



## كنوز مخبوءة

فكرت وأنا أنظر إلى هذا البيت الوسيع الذى صمتت فيه الحركة وسكنته الأشباح والذكريات ، أنه إذا كانت المرأة التى لابيت لها تعيسة فإن أتعس منها البيت الذى لا امرأة فيه .

يقول مدلتون : إنى لأحس نفحات النعمة حينما أقترب من البيت الذى تسكنه امرأة صالحة .

ما أسعد الأنفاس التى تتردد فيه حينئذ!

إن تفتح الزهرة فى أكمامها ليس أحلى . . .

إن كنوز الأرض المخبوءة فى أبعد أعماقها ليست أثمن من كنوز الهناءة المتفجرة من قلب المرأة المحبة ، إن فى عينيها لشعاعاً من السماء يظل خفيًّا لايراه أحد ، مطويًّا — كالنجوم — لايبدو فى ضوء النهار ، ولكن يلمع ويومض فى ساعات المحنة .

وإن أى إنسان — كما يقول واشنجطون إرفنج — لا يعرف حقيقة المرأة التى تشاطره الحياة مالم تضغط عليه الحياة ، فتصهرها وتطهرها وتظهر كنوز الحب الدفينة فى فؤادها .

إنها حينئذ تكون له الصدر الذى يحنو حين تجمد كل الصدور ، والعين التى تجود وقد جفت كل العيون ، والقلب الذى يحب إذا أبغضت كل القلوب .

إنها حينئذ تكون له المال والشهرة والمجد والصيت والذكر ، بل إنها لتكون أكرم عليه من هذا كله لأنها تمنحه — فوق هذا كله — الهناءة والسلام .

ويا ويل من لقى هذا الكنز مرة ثم أضاعه !

## مساء

لم يكن هذا الطفل أعز على أبيه مما كان أمس . كانا يسيران فى المساء والشمس توشك أن تغيب ، والطفل يسأل فيم مسيرنا بين القبور يا أبى ؟ والأب يقول : أولا تراها خيراً من الشوارع المكتظة بالناس ؟

ولم يفهم الطفل شيئاً ، ولكن رفع إلى أبيه عينين فيهما إشراقة كلها هناءة وقال : قف أنت يا أبى هنا فى قمة الجبل ودعنى أطلع إليك وأنحدر . انظر كيف أستطيع أن أفعل هذا الآن ! ألا تذكر منذ سنة حينما كنا نجيء هنا وكنت لا أستطيع أن أطلع الجبل أو أنحدر عنه ؟ . . . أنا كبرت يا بابا ! . . .

ولمعت فى عين الطفل بسمة ، واغرورقت عين الأب بدمعة . كانت الشمس قد غابت ، ورسمت على الأفق خيوط الشفق ، كأنها خيوط الأمل . . . وكانت المدينة عند أقدامهما تدوّى كخلية النحل ، ومدينة الصمت الغارق إلى الأبد تبدو وكأنها أرض الحكمة والعقل .

قال الأب : ضع يدك فى يدى يا بنى . إنى أخشى عليك أن تنحدر هنا أو هناك .

قال الطفل وفى عينه شبه عتب : أتراني صغيراً كما كنت بالأمس يا أبى ؟ وفيم خوفك على ؟ وليس هنا تراموايات ولا أوتومبيلات . أنا مش قلت لك إنى كبرت ؟ . . .

وحينما وقفا عند هذا القبر العزيز ، سأل الطفل : فيم هذه الأزهار

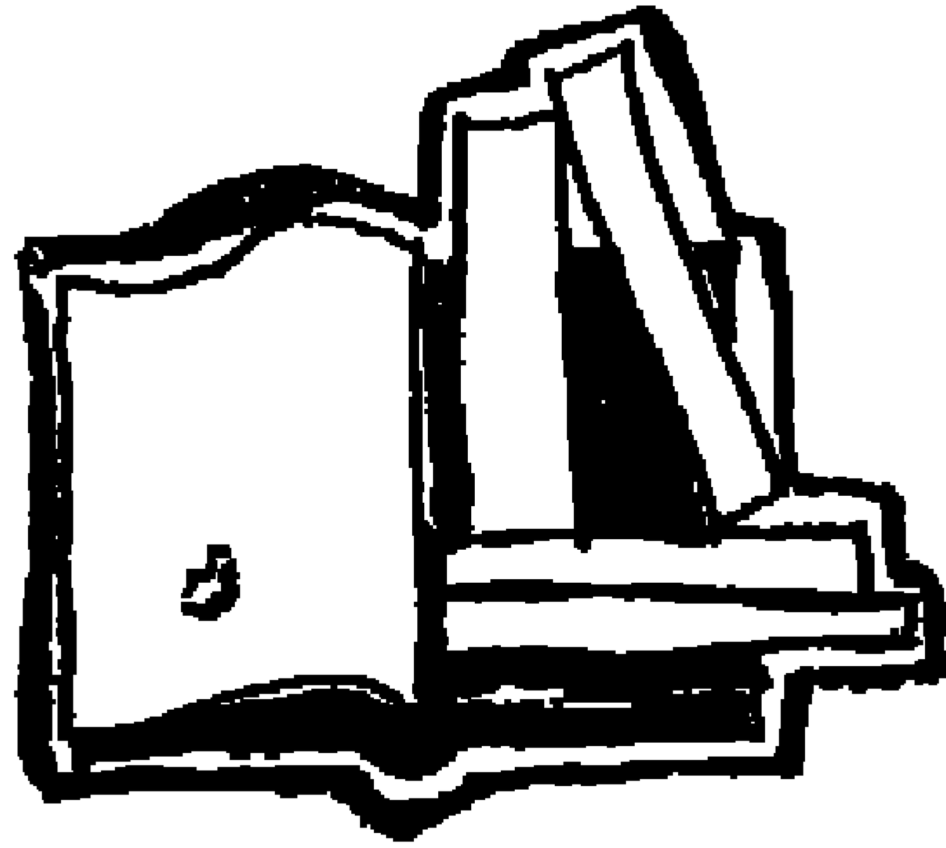
التى تنثرها يا أبى ، إننا حينما نتركها ستجف حتماً . قال الأب وكأنما يخاطب نفسه : بل ستظل مخضرة مزهرة ما ظل القلب ينبض . . .

ولم يفهم الطفل شيئاً ، فعاد يسأل ، فقال له أبوه : دعك يا بنى . . . هيا . . ضع يدك فى يدى .

وحينما انحدرا راجعين ، شعر الأب كأنما يرتد إلى الحياة ، وكأنما يجد نفسه شيئاً فشيئاً . لقد أدى واجب الوفاء للعزيزة الراقدة ، التى ذوت فى عمر الزهور . .

وبينما كانت أصوات الأوتومبيلات والترامويات تضج من حوله كان صوت الطفل يرن فى أذنه « قف أنت يا أبى على قمة الجبل . . أنا كبرت يا بابا ! . . . . »

— نعم كبرت يا بنى . . أنت . . . أنت نعمة الحياة كلها .



# مستقبل الزواج

هل يتقدم العلم لحل مشكلات الزواج والعائلة ، أعنى هل يتقدم لتنظيم الأحوال الشخصية للفرد بعد أن تدخل فى تنظيم كثير من حاجاته المادية ؟

إننا نلمح أثر العلم فى الأكل واللباس ، قلما نخطئه فى المدرسة والبيت والمكتب والشارع والجريدة والترام ، آياته ظاهرة فى كل مكان ، فى كل لحظة ، ولكننا حين نفكر فى حياتنا الشخصية ، حين نفكر فى مشكلات الزواج والطلاق ، والسعادة والشقاء، ونتلفت وراءنا وحولنا لانجد العلم ، ولكن نجد التقاليد والوراثات والأفكار الخاطئة حيناً والظالمة حيناً آخر .

والزواج فى نطاقه الحالى يحمل طابعاً من أنانية الرجل ، ومرجعها أنه كان فيما مضى سيد الأسرة ثم سيد القبيلة ثم سيد العشيرة ، وتحولت هذه السيادة أخيراً إلى أنواع جديدة من السلطان ، كالملكية والجمهورية والديمقراطية والديكتاتورية. ونظام المحظيات وتعدد الزوجات والحريم والإماء كلها ميراث من أنانية الرجل ، وهى تتلاشى فى البيئات التى تقرر للمرأة حريتها .

تحت سلطان هذه التقاليد وضع نظام الزواج وشرعت قوانينه ، وقد جاءت الأديان فخففت كثيراً من أنانية الرجل ، ولكن آثارها لاتزال واضحة ، والمرأة تحاول أن تتخلص منها الآن ، فيمكن القول إن الزواج كنظام يعانى دوراً من أدوار التطور ، والشقاء الذى نلمحه فى الحياة الزوجية مرجعه فى بعض الأحيان أن الرجل يريد أن يحتفظ بسلطان قديم ،

والمرأة تلمح فى الأفق بوادر حرية أو حق أو مساواة .

وقد ألقت مباحث « فرويد » فى علم النفس الضوء على بعض أسباب الشقاء الزوجى . والبحث العلمى مقدمة للتشريع أو هو طليعة التطور ، ولا بد أن يتدخل الطب فى الزواج ، بل إن حقه فى التدخل قد تقرر فى بعض القوانين .وقد انتحلت الدولة لنفسها هى الأخرى حق التدخل . وقوانين التعقيم التى صدرت فى ألمانيا النازية تدل على هذا الاتجاه .

كانت الفروسية فيما مضى والحب الشعرى فى ظلال الغاب أو الشجر يكفى للزواج ويكفى للسعادة ، كما كان يفهمها الناس وتفهمها الدولة حينئذ ، أما الآن فلا يكفى هذا ولا ذاك ، بل لا بد ، قبل الزواج ، أن نسأل الطبيب وأن نسأل « الدولة » أعنى القوانين التى وضعتها .



## من رجموها

الليل بهيج حنون ، القمر ساحر ساهر ، الأنسام فى أرج وعطر ، الأفق يشملنا فى هناءة ، الضوء ينشر على الحقول السلام ، ظلام شجرة الصفصاف يهفو مع النسيم ذات اليمين وذات اليسار ، ينزل تارة إلى الماء ويخرج أخرى إلى التراب كأنه يلائم بين عناصر الحياة .

كان ذلك منذ سنوات حين تناقلت القرية النبأ العظيم ، « صبحة » قتلها أخوها . أثمت . أحبت . زلت .

هذا الريف العزيز الذى يوحى — كما يقول كوبر — بالفكر والفضيلة والسلام . . قد انتابته عاصفة ، هبت عليه زوبعة . استبدل بإيمانه الكفر ، وبفضيلته الرذيلة . ووجم الكل كأنما الفضيحة قد لبست الكل .

وأخذت العجائز أصل البلاء — كما يقول شكسبير — يصغن الحكايات وينسجن الأباطيل . لقد ماتت المتهمة ، إن أحداً لايسمع دفاعها ، كل الألسن تأكل فى عرضها ، كل الكلاب تلغ فى دمها .

ومرت أشهر .

أطبق الموج على الحادث ، أضحت « صبحة » من الذكريات ، كل من يمر على قبرها يتمتم باللعنات ، كل من يمر على بيتها يشيح بوجهه عنه ، كل من يمر بأخيها لايقرئه السلام .

هل كل هؤلاء أشراف أطهار ، أمن حديد بيوتهم أم من زجاج ؟

هل كانت « صبحة » مجرمة حقًا ؟ هل تستحق أن تلعن ، تستحق أن ينبت العشب على قبرها فلا تلقى من يرفعه ، لاتلقى من يضع بدله زهرة أو يسكب من أجلها دمعة .

## ١٧

وبعد سنوات ، وأنا أقف على قبر هذه المسكينة ، ذكرت كلمة السيد المسيح : « من كان منكم من غير خطيئة فليرجم هذه الزانية » .

وفكرت هل كل من رجموا « صبحة » كانوا مبرئين من الخطايا ؟



## حضارة جاحدة

قال صاحبي : مالك تجهد نفسك وتؤودها بالتفكير فى شئون الناس؟ دعك منهم وفكر فى شئونك وحدك ، ابحث عن مصلحتك الخاصة ، إنك مهما تجهد نفسك فلن تلقى من أحد شكراناً .

قلت : إنى لا أستطيع أن أرى الفقير والمحروم والجائع ولا أتأذى ، وأرى الضعيف يفتك به القوى بدون أن أعيد إلى خاطرى قول « جودوين » : « إن فى العالم من الخيرات ما يكفى الجميع ، ولذلك أعجب لماذا هذا الفقر الشنيع ؟ » ، وقول « جون ستيوارت ميل » عن هؤلاء الذين لايؤدون عملا من الأعمال ، وإنما يكتفون بأن ينفقوا ثروات طائلة لافضل لهم فيها « إنهم عيال على المجتمع ، إن العمل ينبغى أن يكون وحده أساس الثروة » .

قال : وماذا أنت صانع ؟ هذه هى الحياة منذ وجدت وستبقى هكذا إلى أن تنتهى .

قلت : هل رأيت رواية « مستر ديدز » ؟ هل رأيت كيف اتهمه الناس بالجنون لأنه رأى أن يوزع ثروته على الفقراء ؟ وكيف وقف المحامى يترافع ضده متحمساً قائلا إن مستر « ديدز » يضرب بذلك أسوأ الأمثلة ويوجه طعنة قاتلة إلى النظام القائم كله ؟

أرأيت كيف رد عليه مستر « ديدز » وقال إنك أنت ياحضرة المحامى كنت مستعداً لكى تترافع عنى ، لو قبلت أن أنقدك الأجر الذى طلبته . ولكنى رفضت فانحزت إلى خصومى ، وأنت لست فى حاجة إلى المال الذى ستأخذه منى ، ومع ذلك فلو أنى قبلت أن أعطيك إياه

لعددتنى عاقلا ، بل لجعلتنى سيد العقلاء ، أما لأنى أعطيته هؤلاء المساكين الجياع ، وآثرتهم لفقرهم عليك لغناك ، فقد أضحيت فى شريعتك مجنوناً تطلب إرسالى إلى مستشفى الأمراض العقلية !

أرأيت كيف حكم القاضى لمستر « ديلز » ولم يعده عاقلا فحسب ، بل قال إنه أعقل من وطئت قدماه أرض هذه المحكمة .

قال صاحبى : ولكن كم يوجد من أمثال مستر ديلزفى العالم ؟!

قلت : يجب أن نتحدث دائماً عن الإصلاح ، أن ندعو إليه ، وأن نحض عليه ، من العار أن يعيش الفقير على هذه الصورة البشعة وسط مدينة تتلألأ نوراً وجمالا ، إن وجوده عار وسبة كبيرتان بجيل يزعم أنه جيل الحضارة والتقدم والعلم . يجب أن نؤكد فى الأذهان — أذهان الأغنياء على الأخص — نظرية « فون ليست » فى الجماعة ، فالفرد عنده ذرة لاقيمة لها ، ينبغى أن يتنازل عن الكثير فى سبيل بقاء الجماعة واستمرار كيانها سليماً ، ولايعد كيان الأمة سليماً فى الوقت الذى لايجد فيه بعض أفرادها الكساء الكافى ، ولاالطعام الكافى ،ولا الدفء الكافى فى ليالى هذا الشتاء الطويل . إنه الإصلاح وحده ، نحن فى حاجة إليه لننقى من الحياة هذه القسوة التى تحيط بها .

## سبب الطلاق

رفع نمسوى يدعى « الهر أريكش » دعوى طلب فيها الطلاق من زوجته الشابة ، لأنها تزوجت طمعاً فى ماله . وقد أصدرت المحكمة قرارها بالتفريق بين الزوجين مقررة أن التظاهر بالحب دون أن يكون موجوداً يعد سبباً صحيحاً للطلاق ، ما دام القصد من الزواج لم يكن غير الرغبة فى الحصول على المال .

وقد فكرت حين قرأت هذا الخبر : ترى لو أخذت محاكمنا بهذا المبدأ فكم من الزيجات تنتهى ، وكم من البيوت القائمة على الخداع والنفاق تهدم ، وكم من الحقائق القاسية ينبغى أن تعرف ، وكم من الزوجات اللاتى سيقرأن هذا الخبر سيشعرن أن عقود زواجهن تعد فى نظر القاضى النمسوى عقوداً باطلة ، وكم من الأزواج سيشعرون أن عقود الزواج التى تربطهم بزوجاتهم ليست إلا عقوداً باطلة ؟!

وقد فكرت أيضاً فى هؤلاء الآباء الذين يبحثون لبناتهم عن شيوخ أغنياء ، وعن هؤلاء الشبان الذين يبحثون عن عجائز غنيات ، وتساءلت : أليس هذا القاضى النمسوى على حق فى أنه عد أمثال هذه العقود باطلة ، لأنها لاتؤلف بين قلوب ، ولكن تؤلف بين جيب فارغ وجيب ملآن . ؟! أليس صاحب الجيب الفارغ معذوراً إذا استعجل الأجل لصيد الغنى السمين الذى وقع فى شباكه ، وبدت الأيام أمامه ثقيلة بطيئة وهو يملؤها نفاقاً وخداعاً ، وهو يبتسم فى حين يكون قلبه يغلى غيظاً وحنقاً ، وهو يكذب كل يوم عشرات المرات حين يؤكد مواثيق الحب والوفاء ؟

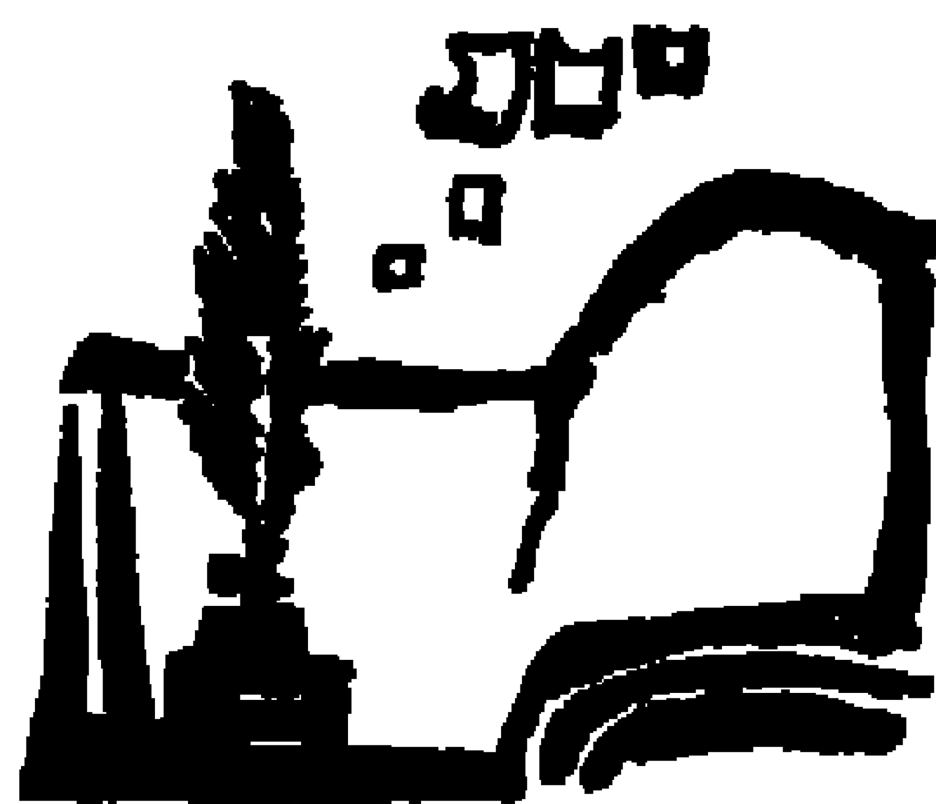
كم من الأوزار يرتكب مثل هذا الممثل المسكين ؟

٢١

أليس مبدأ القاضي النمسوى كفيلا أن ينقى الحياة من كثير من الخداع والنفاق والشقاء أيضاً ، فلا يكون زواج إلا حيث يكون حب ؟ !

أما المال فليأخذه الشيطان فإنه لا يريح من يملكونه ولا من يتمنونه !

لعنه الله !



## مساء فى الريف

كانت غارقة فى أحلام الشباب ومناه ، تشع عيناها بنظرات فيها صفاء السماء التى تعلوها ، ورقة الماء الذى ينساب إلى جوارها ، كانت تغنى وهى تجمع الحشائش من هنا وهناك ، وتحدج بنظراتها هذا الفتى الذى يعزق إلى جوارها فى حقله الصغير ، وكانت تحوم حوله لا يرتد بصرها عنه ، كأنما الحشائش لاتنبت إلا عند قدميه .

قصة آدم وحواء ، الثمرة المحرمة ، روميو وجوليت كما صورهما شكسبير ، كيوبيد يرمى سهمه ، نظرات الفتنة والشباب التى تحملها أصوات الموسيقى فى المراقص المفعمة بالدخان ، هى بعينها النظرات التى كانت « أم الخير » تحدج بها « عبد النبى » وهو يضرب بفأسه نبات النجيل .

وخيل إلى أنهما أسعد بهذه اللفتات من كل ما منحت الحضارة بنيها . كانت نظرات الفتاة حلوة متكسرة متعثرة فيها الخجل والحياء ، فيها الصفاء والنقاء ، فيها لوعة العاطفة التى تطرق قلبها فى أمل عذب . . وكان هو فتى قويا جمع إلى نضرة الشباب سيماء الرجولة ، أشعث أغبر ، شققت الفأس يديه ، ولفحت الشمس وجهه .

ومرت صاحبته به تتثنى فى دلال وقالت : « العواف يا عبد النبى » .

— عوافى عليك يا أم الخير .

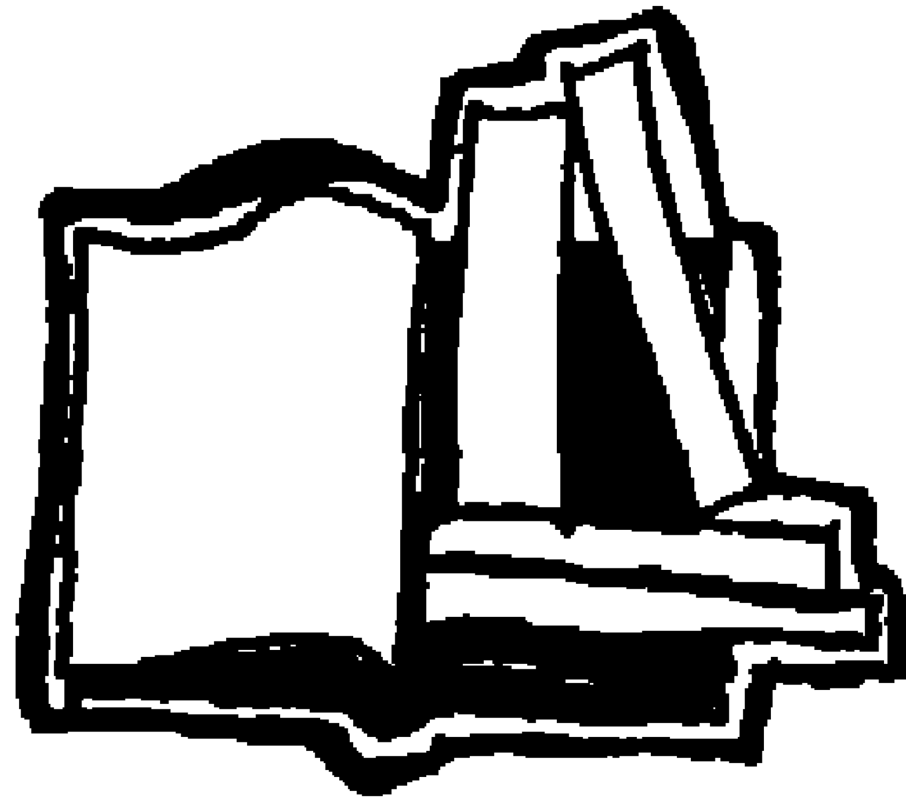
ورمى الفتى فأسه والعرق يتصبب من جبينه ، وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب ، والهواء يسرى فى الجو مسرى الأمل . والصفصافة الوارفة الظلال إلى جوارهما تهتز ذات اليمين وذات اليسار ، يختلط حفيف أوراقها مع همسات النسيم .

لاح لى كأن الريف العزيز يبارك هذه اللمحات من هناءة الشباب .

وشعرت بشيء من الحرج أن أمر بعبد النبي وأم الخير ، فانثنيت إلى طريق أخرى واختفيت بين دوحة من الأشجار ، على حين كان شبح الشابين يبعد ويتضاءل بين الظلال .

وحينما أخذت القطار إلى القاهرة ، وجلست قبالة تلك الفتاة الأنيقة المصفوفة الشعر المزججة الحاجبين ، وإلى جوارها هذا الشاب المتأنق المتعطر ، ذكرت أم الخير والحشائش التى كانت تجمعها وعبد النبي وضربات فأسه .

ورن فى أذنى حينئذ صوت الفتاة المفعم بالحياء : العواف يا عبد النبي ولاح لى أنه أحلى نغماً !



# متاعب الأزواج

قام بعض المعاهد الأمريكية باستفتاء واسع النطاق بين الأزواج الأمريكيين حول الحياة الزوجية ومتاعبهم فيها ، وكان من الأسئلة التى وجهها إلى كل منهم السؤال التالى: هل لزوجتك عادات سيئة ؟

وقد أجاب ٤٥ زوجاً فقط بالنفى ، فى حين أثبت الباقون ، وهم ألوف ، كثيراً من الشكاوى .

فشكا عشرون من عادة الغطيط فى النوم عند زوجاتهم .

وشكا آخرون من عادة قضم الأنامل فى حالة الغضب والهياج .

وقال زوج إنه لايطيق زوجته لأنها لاتفتأ تتحسس شعرها لتطمئن إلى أنه منظم .

وقال كثيرون إن زوجاتهم يشغلنهم دائماً بالتوافه من الأمور ، فالبيت عندهم عمل آخر يضاف إلى مشاق الحياة .

وشكا زوج من ذاكرة زوجته القوية ، فهى قلما تنسى شيئاً ، وهى تعيد إليه مسائل قديمة عفى عليها الزمن ، ولن تخرب الدنيا إذا ظلت فى طى النسيان ، بل لعل فى تذكرها إيقاظاً لأحزان ماتت .

وشكا آخر لأن زوجته تدفع الباب بكلتا يديها ، وقال إنه يفضل أن ينهض ليغلق الباب وراءها ويريح أذنيه من صوته المزعج .

هذا فى أمريكا . . .

أما هنا فلو خطر لأحد الباحثين أن يسأل ألوف الأزواج المصريين الذين يملأون المقاهى والمراقص والصالات لماذا يهجرون بيوتهم وزوجاتهم ؟ وأن يسأل ألوف الزوجات ماذا يحزن أفئدتهن ، وماذا يشقيهن فى حياة الزواج وهى الحياة التى تتطلع إليها كل عذراء وتنشدها على أنها حياة الأحلام والصفاء ؟ فأى أجوبة يمكن أن يتلقى من هؤلاء وهؤلاء .

## حزن عذراء

لم تكن تشارك هذا الجمع الصاخب فى عبثه ولهوه ، كانت منزوية تقرأ « موباسان » وعلى وجهها مسحة تشبه أن تكون مقدسة ، وكأنها نور السماء .

وقادتنى صاحبتى إليها وقالت : إنها مسكينة ، فقدت منذ ثلاث سنوات خطيبها الشاب ، ولكنها ما تزال فى أساها وحزنها عليه كأنها دفنته أمس القريب ، مرض بصدره ، وكان قد حصل على بكالوريوس الهندسة ، وأعد نفسه للسفر إلى أوربا فى بعثة ، ولكن المرض لم يرحم شبابه ، ولم يرحم دموعها .

ونهضت الفتاة تحيينا وقالت : ألا أستطيع أن أنساه؟إنى أموت ، أحترق .

قلت : إن النسيان المطلق عبث ، اقرئى « واشنجطون إرفنج » اقرئى قوله : « حين ينقلب الحزن الصاخب مع مرور الأيام إلى دموع الذكرى الهادئة الوادعة ، حين يتحول البكاء والنحيب إلى التفكير العميق السعيد فى أيام الصفاء التى عفى عليها الزمن . من يرضى أن يقتلع هذه الذكريات من قلبه ؟ من ؟ » . لقد دفنت مثلك عزيزاً ، لا ، بل أكثر من عزيز . أترينى أحب أن أنساهم ؟ كلا ، إنى لأعيش بذكرياتهم ولذكرياتهم ، وإنى لأرتد إلى الماضى راجعاً ، أتحسس فى ثناياه أشباحهم وإنه لتمر علىّ لحظات أكاد أشعر فيها كأنهم بعثوا إلى الحياة ، وكأننى أتحدث إليهم لا بالروح فحسب ، ولكن بالجسد أيضاً ، فحين يهدأ الحزن ويتحول إلى مثل هذه الذكريات نستطيع أن تحيا سعداء .

وحينئذ طافت بوجهها سحابة قاتمة وتمتمت : سعداء ؟ كلا .

كلا . لقد كنت أعبده ، ومات . . . مات .

وأشاحت بوجهها عنا وبكت . ثم عادت إلى « موباسان » تقرؤه .

وفكرت وأنا أنصرف عنها : ترى ؟ أتظل هذه العذراء على حزنها ودموعها أم تستطيع الأيام أن تأسوا جراحها ؟ من يدرى ؟

ولكن الذى أدريه تماماً أن الحياة أقوى من الموت !



# الظلال الباقية

فى الحياة لحظات ، تنسى فيها الحياة . . .

مرت بى بعض هذه اللحظات أمس . . . ارتفعت عن الحقد والغضب ، عن اليأس والأمل ، عن كل الصغائر التى تعبث بنا فتجعلنا عبيداً لها .

عشت لذكرياتى وهناءتى . . .

وكان النهار يتولى فى بطء ، والمساء ينشر ظلاله فى خفوت وحنان ، ولاح لى أن حجاباً يفصلنى عن الحياة ويرفعنى إلى ما هو أسمى ، وراح الخاطر يهنأ ويسعد ، وراحت النفس تنضو أحزانها ، وخيل لى أنى أجنى ثمار الألم الذى عانيت والهناءة التى وهبت . أحسست الماضى كأنه أشباح تتحرك وتتكلم وكأننى أندمج فيها ، فأصبح منها وتصبح منى ، وكأنى أهتف معها بدعاء الحياة والسلام .

أى نعمة تلك التى شملتنى فى هذه اللحظات ؟ أى يد أرحم وأرفق منها ؟ ! لقد خيل لى أنها تلفنى بين ذراعيها وأنى أرتد فى أحضانها طفلا لا يعرف من الحياة إلا الأفراح والأحلام .

مباركة هذه الظلال السعيدة الباقية من الماضى ، هذه الأنوار الخافتة التى تظل فى أفق بعيد مثار الذكرى والحنين ، نلجأ إليها فى لحظات اليأس والحقد والغضب فتشملنا بالهناءة والغفران ، وتمنح أرواحنا العزاء والسلام .

## وعد بين طفل وأبيه

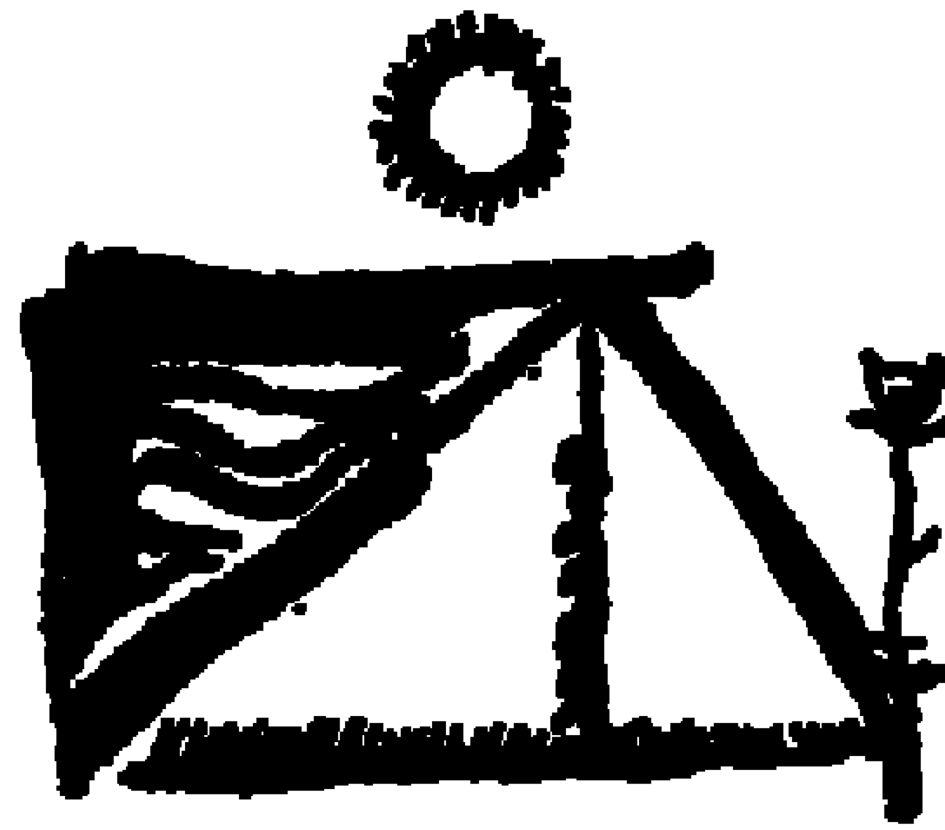
وفى هذا العيد يحل وعد بين طفل وأبيه، فالطفل يستنجز أباه ما وعد، والأب يراوغ ابنه ويحيله على عيد جديد ، والابن ينمو ويكبر وتنفتح عيناه على دنيا فيها أمهات ، ويسأل أباه : أين أمى ؟ فيزعم الأب أنها على سفر ، وأنها ستعود . ويصدق الطفل ويسأل :متى يكون العيد الجديد ؟ فيقول الأب عدّ شهراً ، شهرين ، ثلاثة أشهر ، ويرفع إليه الطفل عينين فيهما البراءة والصفاء ويقول : « بس تكون دى آخر مرة » ! ولا يتمالك أبوه أن يظل جامداً أكثر من هذا ، فيأخذه بين ذراعيه ويدفن رأسه فى صدره ويسأل : ما الذى يؤلمه ؟ أفى الدنيا ما يسوؤه أليس عنده كل ما يريد : وابوره، بندقيته ، صوره ، هداياه ، أحلامه ؟ فيقول الطفل : « ولكن ماما . . » ويصمت قليلا كأنه يفكر ثم يتابع كلامه : « أنا عارف إن هى مش جايه » !

ويرتاع الأب ويخيل إليه أن قد تسرب إلى ذهن الطفل شىء، وأن الظلام الذى أحاطه به قد أخذ ينجلى رويداً ، فيأخذه من يده ويخفى وجهه عنه لأنه يريد أن يخفى دموعاً تنحدر من عينيه ، ويقول للطفل : ألا تريد أن تذهب إلى السينما ؟ هيا يا بنى . . . انظر إلى ما فى السماء : قمر ، نجوم .

وتروح عينا الطفل تائهتين فى صفحة هذا الوجود الجميل ويسأل : القمر بيبات فين يا بابا ؟

وقد يحاول هذا الأب أن يعوض طفله عما فقد ، ولكن أنى له أن يفعل وهو يغضب أحياناً ويقسو أحياناً . وهل يستطيع أن يكون له حنان أم ، وهو ما لا يودعه الله إلا صدر أم ؟

فليكن الله إذن لهذا الطفل ، ولكل الأطفال مثله ، وليجعل أحلامهم لشدو الملائكة ، ولترف على عيونهم أنوار السلام والرحمة كلما ذكروا لهم أمهات ، وأن هؤلاء الأمهات يثوين اليوم فى القبور .



## هل الفرد حر فى صرف ماله

أعرف شخصاً مرتبه لايكاد يكفيه هو وعائلته . ذهب معهم لمشاهدة أحد الأفلام فدفع كل فرد منهم ١٦ قرشاً أجر الكرسى . وأعرف آخر يقتّر على نفسه فى شراء الضروريات لكى يراهن فى السباق فيخسر كل أسبوع بضعة قروش . هنا خطر لى هذا السؤال : هل الفرد حر فى أن يصرف ما له كما يشاء ؟ أم أن الحكومة ، وهى المسئولة عن حياة الأفراد وطرق معيشتهم ، عليها أن تتدخل فى ذلك ، كما تدخلت من قبل فى تعليم الشعب عن طريق التعليم الإلزامى ، فتنظم للفرد طريقة التصرف فى دخله بشكل يحقق له السعادة والاستقرار ، فإذا كان لها ذلك فبأى شكل يكون تدخلها ؟!

(ر — ا)

* * *

أمثال هؤلاء من يسهر طول الليل فى البارات والحانات ، ويترك بيته بغير خبز وبغير إدام . أو من ينفق على ملاذه وشهواته عشرين ويعطى أولاده لطعامهم وتعليمهم وكسوتهم خمسة أو أقل من خمسة . أو من يشترى كرافات بخمسين قرشاً ومرتبه كله ٣٥٠ قرشاً . أو من يسكن فى شقة بعشرة جنيهات ومرتبه لايزيد على عشرين . والأمثلة التى من هذا النوع كثيرة ، وأنت تلتقى بها فى كل مكان ، فى كل بيئة ، فى كل جماعة .

هل من حق الحكومة أن تتدخل فتجبر كل واحد أن يمد رجليه على قدر لحافه ؟ هل من حقها أن تجبر الفرد على أن يضع القرش فى مكانه الصحيح ويصرف القرش فى وجهه الصحيح ؟

منذ أيام أن شكت بعض الزوجات أزواجهن إلى «البوليس» وطلبن إليه أن يمنعهم من السهر ولعب القمار. ولست أحسب «البوليس» مستطيعاً أن يفعل شيئاً . ليس فى سلطته أن يجبر زوجاً على عدم السهر ، ولا أن يجبر رجلا على الابتعاد عن القمار . . . كل ما له طبقاً للوائح والقوانين أن يمنع المحال العامة من مجاوزة المواعيد المحددة للسهر ، وأن يضبط أدوات القمار ويقدم أصحابها للمحاكمة . . ولكنى ما أحسب رجلا راغباً فى السهر ، أعياه أن يجد مكاناً للسهر ، أو راغباً فى القمار أعياه أن يجد مكاناً للقمار ، إن لم يكن فى المحال العامة ففى الأندية الخاصة ، وإن لم يكن فى الأندية الخاصة ففى بيوت الأصدقاء والصديقات . . .

إن النظرية التى سادت خلال القرن التاسع عشر حول وظائف الحكومة لا تزال مرعية فى كثير من الدول حتى الآن ، وهى قائمة على فكرة احترام الحرية الشخصية . فالفرد حر فى حياته الخاصة، حر فى كسبه، حر فى زواجه وطلاقه ، حر فى لهوه وعبثه ، حر فى نوع العمل الذى يزاوله . وحريته فى هذا كله لا حد لها إلا عدم الاعتداء على حرية الآخرين، وإلا التقيد بطائفة من القوانين واللوائح قصد بها إلى التنظيم ، ورد الجشع ومجانبة الإسراف ، أكثر منها إلى الرغبة فى أن يحسن الفرد التصرف فى ماله ووقته وجهده وصحته . فهو قادر مثلا أن يشرب الخمر حتى يموت إذا أراد ، ما دام لا يسرق هذه الخمر ولا يعتدى على أحد . وهو قادر أن ينفق ماله كله على رفيقة أو صديقة فى حين يهمل طعامه وشرابه ، بل يهمل صحته وأولاده فى بعض الأحيان . وهو قادر أن يشترى سيارة وأن يجرى بها على هواه ، ويترك ابنه المحتاج إلى العلاج أو زوجه المحتاجة إلى فستان . والدولة لا تتدخل إلا إذا داس أحداً بهذه السيارة أو انحرف فى السير بها من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين بحسب

الأحوال . وهو حر أن يتزوج بمن يشاء طبقاً لشريعته أو قانون أحواله الشخصية ، وهو حر أن يطلق زوجته فى حدود هذه الشريعة أو هذا القانون . .

وأساس هذه الحرية ، كما قدمت ، هو حق الفرد فى أن يعيش حياته الخاصة كما يشاء ، فليس للدولة أن تتدخل فى شئونه إلا بقدر ما يكفل بقاء النظام الاجتماعى سليماً ، ويكفل دوامه فى مأمن من الانهيار فى الداخل أو الغزو من الخارج . وقد اضطرت الحكومات فى السنوات الأخيرة إلى إصدار كثير من القوانين التى تعد تدخلاً فى الحرية الشخصية والحياة الخاصة للأفراد ، وكان المقصود بها صيانة نظام الأسرة أو التشجيع على الزواج أو مكافحة الفساد أو حماية الأحداث من شرور الرذيلة إلخ . . . ويمكن أن نجد فى مصر قوانين كثيرة من هذا النوع . ومع ذلك فإن أحداً منها لم يفكر فى إجبار زوج على ألا يشهد فلماً سينمائيًّا ، أو أن يشترى بنقوده فستاناً لزوجته أو بذلة لابنه .

إن القوانين لا يمكن أن تنظم كل شيء . ولا ينبغى أن نطلب منها تنظيم كل شيء . . لأن الحياة مملوءة بالشرور . وكل شر ينطوى على جزائه . وللإنسان عقل يفكر به . وهذا العقل خير من القوانين واللوائح ، هو الذى يقوده إلى الخير ، ويبعد به عن الشر . ومن أجل ذلك كان على الدولة أن تعلم كل أبنائها ، أعنى كان عليها أن تساعدهم على تقويم هذا العقل ، ثم تتركهم بعد ذلك أحراراً فى حياتهم حرية لا حد لها إلا هذا العقل ، ولا رقيب عليها إلا هذا العقل . .



خضوع ! ( ص ٣٨٠)

## القلب وأوراق الشجر

فى مطلع هذا الربيع ، والأوراق توشك أن تزهر ، والأزهار توشك أن تبسم ، لابد أن نذكر الأزهار التى ذوت . والأوراق التى تناثرت ، والآمال التى كانت غضة كالصبح الباسم ، ثم أضحت أشد سواداً من الليل الداكن .

وا أسفاه ! هل يمكن أن يغير القلب ، كالشجر ، أوراقه ؟ أترى يمسح عنه الندى وترف عليه الأنسام ، أم يظل العمر يقتات بالذكرى ويحرق البخور للماضى ؟ ! . . أتراه يسرى فى الحياة كالنجم الضال ، لاهدى ولاهداية ، أم يلفه الربيع فى أعطافه فينشر عليه ظلاله ويرفع أعلامه ؟

حسدت الشجر أمس ، حسدت الزهر ، حسدت الطير ؛ لاح لى أنى غريب بينها . كانت على شفاهها جميعاً بسمة ، وفى وجوهها نور . شملها الشتاء بالكآبة ، جعلها تنكمش وتذوى ، ولكنها لم تفقد الحياة ولم تفقد الأمل . ظلت فى ليالى الشتاء تعيش به . ظل نوراً يحجب عنها الظلام ، وهدى يرحمها من الضلال . لم يخمد قط فى صدرها . احتملت به العواصف إلى أن طلع عليها الربيع ، فنشرت له جناحيها ، ومدت ذراعيها ، وملأت بأنسامه رئتيها . .

هذا موكبه يجىء . . يالفرحة السماء ! . . إنه ينشر الدفء على الكائنات ، تزهر فيه القلوب والنفوس والصدور . ها هى ذى أعلامه ترفرف ، ونواقيسه تدق ، فتملأ الفضاء أحلاماً ومنى .

مادمنا فى الحياة فلابد أن يكون فيها أمل. وما دام فيها أمل فلا بد أن يكون فيها ربيع .

تبارك الله العلى . من منا يرى الورق الجاف يزهر والزهر القاتم يضحك ، والشجر العارى يكتسى ، ثم يجحد فضل الله أو يحسب داءه لا دواء له ، وجرحه لا برء منه ، ويأسه لا أمل فيه ؟ !

كلا . . كلا . . إن الربيع الذى يجىء بالمعجزة فى الشجر الذى مات ، والزهر الذى جف ، قادر أن يجىء بمثلها فى القلوب التى انكسرت والأفئدة التى انجرحت !



## يتيم

قالوا أمس إن هذا الطفل مات . . . ولم أكن أراه كثيراً . . ربما مرة فى كل سنة أو كل سنتين . ولم أكن حينما أراه أطيق النظر إلى وجهه . . كان الإنعام فى عينيه يملؤنى رعباً ، بمقدار ما كان فيهما من انكسار . . ماتت أمه غداة مولده . . وحينما لمحت جبينه لأول مرة، أدركت أى حياة تنتظره ، ولبثت سبع سنوات كاملة أتجنب النظر إليه . كانت تشملنى رعشة ، وتطوف بوجهى سحابة ، وتطفر من عينى دموع . . . كان الطفل يبدو أبداً ساكناً كأنه يفكر . حائراً كأنه يبحث عن شيء، فى عينيه تلك اللمحات الهادئة التى كلها عتب وصفاء ، ورحمة وعذاب . ولم يكن يتكلم كثيراً . كان كأنه يحلم ، يعيش مع الملائكة . . .

وحينما سمعت أمس أنه مات ، قلت : ارتفع إلى السماء . ستمسح على صدره يد أمه المنتظرة فى الملكوت من أجله . تركته على الأرض وفى عينيها ألم مر ، وهاهى ذى تستقبله فى السماء وفى عينيها فرحة الخلود ! . .

وكان الليل هادئاً ، والسماء صافية ، والنسيم يلعب بأوراق الشجر . ولم يكن معى أحد ، فظللت أنظر إلى السماء وتخيلت أى نعمة ، فى بعض الأحيان، أن يموت اليتيم . إنه يترك الأرض التى ليس فيها غير الظلام ، إلى السماء التى فيها كل النور . . فيها أمه ، تنتظره !

وقلت فى نفسى ويل لمن ينهر يتيماً . ويل لمن لا يؤويه ولايرحمه ولايمسح دموعه . لينظر مثل هذا الإنسان إلى السماء لحظة . ولينظر إليها فى هدوء الليل وبسمة الفجر ، وليغمض عينيه وليفكر ، كيف تعيش الأمومة على الأرض وفى السماء ! . . نعمة تحرس الناس من الشقاء ، تبسم على الأرض مع الزهر ، وتلمع فى السماء مع الفجر ، تعطى الضال

نعمة الهدى . وتمسح على صدر الحزين بالسلوان ، فإذا حرم منها إنسان . . يالله ! فإذا حرم منها طفل ، شدا مع الملائك فى علاهم ، وطابت روحه فى مثواهم ؛ وظل على الأرض ، كما فى السماء ، شعاعاً من الله .



# خضوع

فى رواية قصيرة اسمها « الموقعة » لكلود فارير أذيعت بالراديو ، سمعت هذه الجملة التى جرت على لسان بطل الرواية — وهو يابانى يتحدث عن النساء اليابانيات — « نحن اليابانيين نشرف نساءنا ونحتقر مزاياهن » !

وسمعت هذه الجملة أيضاً ، قالتها زوجة اليابانى تخاطبه : « اذكر يا مولاى أن هذه أول مرة يقبل فيها رجل من بيئتنا أن يناقش امرأة » .

ومرت بخاطرى عشرات الصور والحوادث التى عرفتها أو سمعت عنها ، وصوت هذه اليابانية الواصل إلينا من أرض الشمس المشرقة يرن فى أذنى وهى تقول لزوجها : « أنا يامولاى لم أتعلم إلا الخضوع ، ولكنك أنت الذى علمتنى أن أناقش » !

وذكرت أيضاً مثلا هندياً يقول : « المرأة الشريفة شريفة بنفسها ، لا تضربها حتى بزهرة » .

وسألت نفسى : أيسعد المرأة الخضوع أم يسعدها التحرر ؟ وتأملت فى الحرية يصاحبها الشقاء أحياناً ، وفى الخضوع تصاحبه السعادة أحياناً . . . وعجبت أن تكون الحرية سبباً فى الشقاء وأن تكون الذلة سبباً فى المناعة !

حقاً إن السعادة ليست هى سعادة الخضوع ، أو سعادة التحرر ، ليست هى فى أن تكون المرأة خاضعة أو متمردة . ولكن فى أن تكون إنساناً يخلص فيخضع ، ويحب فيكره أن يتمرد .

وقد لاحظت دائماً أن المرأة السعيدة هى المرأة المطيعة . وأن الرجل السعيد هو الذى لايقسو ولايأمر . ولكن يومئ ويتلطف ، فيجد لإيماءته مثل سحر الأمر ، ويروح تلطفه كأنه وحى من السماء !

# تعويض

أمس رأيت هذا الفلم . ليس فيه شيء غير عادى إنه يصور حياة مدرس التقى بامرأة ، أحبها وأحبته ، فتزوجها . وفى اليوم الذى أشرق فيه نجم طفلها ، انطفأت حياتها وحياة هذا النجم . كانت الصدمة قاسية على الرجل . زرع الزمن فى طريقه الشوك . أخذ كل المصابيح وحطمها . أطفأ فى نفسه سراج الأمل والحب . ولكن الرجل عرف كيف يجعل الشوك ورداً . كيف يعود إلى هذه المصابيح فيشعلها واحداً واحداً . لم ينس المرأة التى عاشت وماتت له . ولم ينس الطفل الذى ما كاد يرى نور الحياة حتى ودع الحياة . ولكنه أحب تلاميذه . أحبهم حتى العبادة . ظل يرعاهم فى فصولهم إلى أن يتخرجوا ، ويرعاهم فى الحياة بعد أن يتخرجوا . .

قال لهم مرة : « اذكروا أننى قد أخطئ فى أسمائكم بعد أن أكبر وأشيخ ، ولكننى لن أخطئ وجوهكم . سأظل أعرفكم كما أعرف أولادى » .

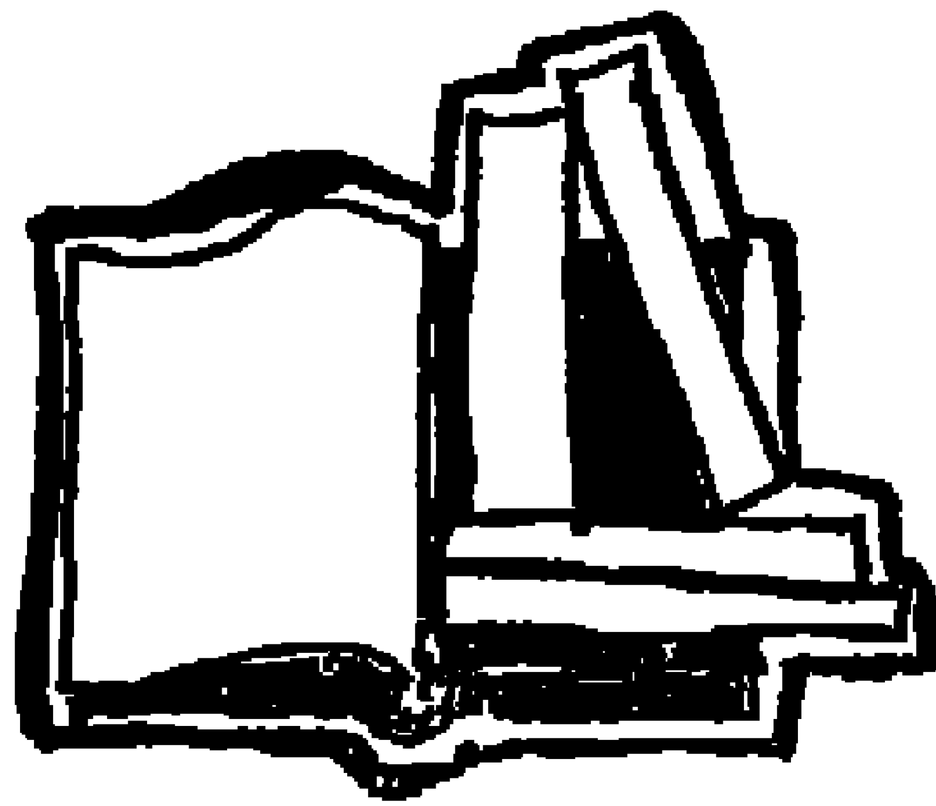
وأخذت سنوات العمر تتقدم بالرجل . مر بالشباب إلى الكهولة ، إلى الشيخوخة . ثم اعتزل العمل فى المدرسة . وفى الحفلة التى أقيمت لتكريمه قال لتلاميذه : إننى لن أنساكم . سأقيم فى البيت المجاور للمدرسة . زورونى دائماً » .

وقد ظلوا يزورونه . وظل يرعاهم كما لو كان ما يزال أستاذهم . واشتعلت نار الحرب العالمية الماضية . فكان الرجل يقرأ سجل الشرف . يسارع إليه فى لهفه ليرى مصير أولاده . فيعرف مَن مِن تلاميذه مات

فى الميدان ، ومن منهم حلت صدره الأوسمة والشارات . ظل يحب المدرسة كما لو كانت بيته . وظل يحب تلاميذه كما لو كانوا أولاده . ظل وفيًّا لهم وفاءه للبيت الذى فقد ، وللمرأة التى دفن ، وللطفل الذى احتسب .

وأصابه المرض ، مرض الشيخوخة . آذنت حياته بالمغيب . ووقف الطبيب إلى سريره يفحصه ، وأخذ بعض الناس يتحدثون إليه . قالوا : « إن هذا المدرس تعس ، قضى حياته لازوج له ولاولد » . وكانوا يحسبونه نائماً لايسمعهم . فإذا به يحرك شفتيه فى عتب وألم ، ويقول لهم : كلا . . كلا . لم أكن بغير أولاد . إن لى ألف ولد . أجيالا كثيرة !

وأغمض الرجل عينيه وقضى .



## غفران

إنها فى مفترق الطرق . أما هو فيسكب أمامها دموعه كل يوم ، يسألها أن تسامحه . ولكنها تقفل مخدعها فى وجهه ، تطرده ، لا تطيق النظر إليه . وهو يقول لها : « إن كانت خطيئتى غير قابلة للغفران ، فاغفرى من أجل أولادك وأولادى » . وهى تسأل ماذا تصنع ؟ هل تغفر إثمه ؟ أتستأنف الحياة مع رجل خائن ، أم تثور لكرامتها وتحطم قلبها ؟ وأنا أقول لها اغفرى وسامحى ياسيدتى . انشرى نور فؤادك الطاهر على رجس فؤاده الآثم . ارفعيه من الأرض التى انحدر إليها إلى السماء التى تحلقين فيها . اقبلى توبته وندمه . يكفى أنه يبكى . يكفى أنه يجثو أمامك .. إنها تجربة قاسية تمر به . مثل هذا الرجل الذى يندم ويبكى ويفكر فيك وفى أولادك فيه خير كثير . إن خطيئته عارض من العوارض . أما قلبه ففيه جوهر من الجواهر . لاتكسريه . أنقذى القليل الباقى منه يسلم لك كله ، يعد لك أصفى مما فقدته . أما كرامتك ياسيدتى . . كرامتك ماذا يجرحها ؟ أيجرحها أنك تغفرين ؟ أيجرحها أن قلبك الطاهر يمسح إثم الآثمين .

إنك إذا انفصلت عن زوجك فأى شقاء ستنشرينه . . ستزرعين الشوك فى طريقه وطريقك وطريق أولادكما . فإذا غفرت، فستبقى الشقوة لك وحدك . وهذه الشقوة قد يمسح الزمن عليها بيد النسيان . ولكنك إذا جحدت وأنكرت وفضلت أن تنفصلى عنه ، فإنك ستفتحين أمامه بيدك باب الإثم إلى آخره . أما أولادك فوا أسفاه . . سيرثون الفضيحة حينما يكبرون . ستظلل حياتهم سحابة كئيبة من العار والذل والتشريد . . ثم أنت . . أنت بعد أن تعودى إلى بيت أبيك ، ستجدين من حولك

الوحدة ، ومن أمامك الوحدة ، وبين جنبيك قلب كسير . أتحسبين أنك ستنتفعين بالحياة بعد اليوم ؟ كلا.. ضحى بنفسك، ضحى بكبريائك، ضحى بهذه الغيرة المجنونة . انشرى رحمتك على آثام الآخرين .

قالوا إن حواء أخطأت إذ أغوت آدم فطردهما الله من الجنة . فاحفظى أنت ياسيدتى جنتك . ظلى فى فردوسك . ظلى فيه على شدوك بالإخلاص والوفاء . . . و . . . الغفران .



## يوم مطير

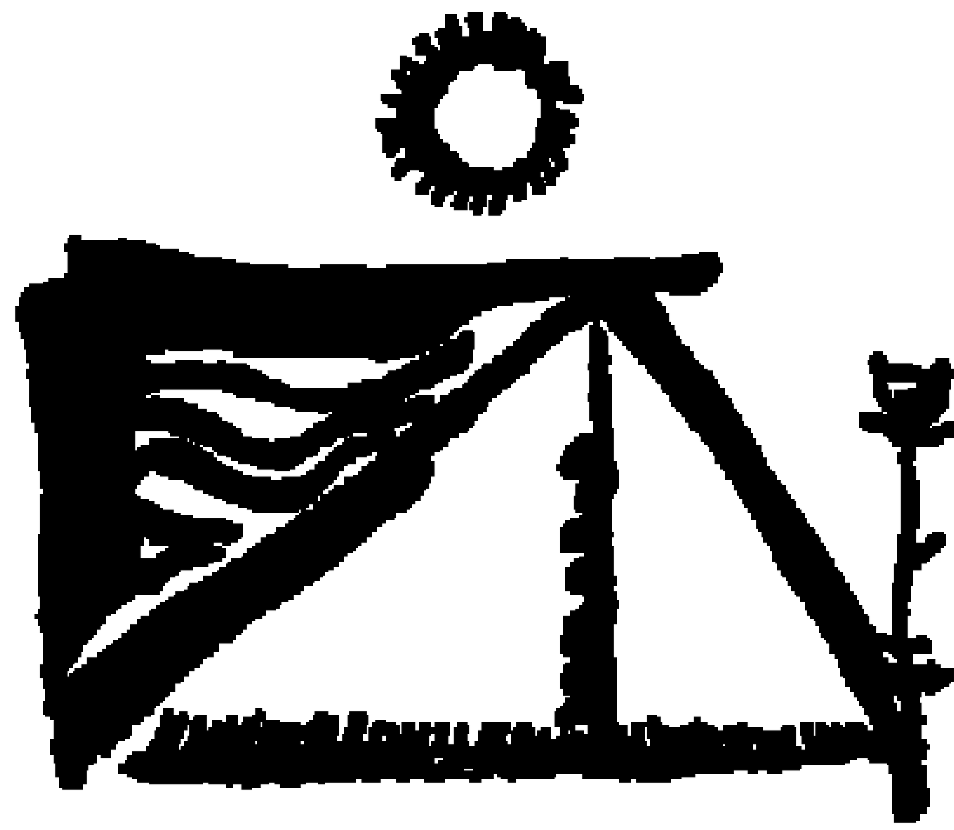
جادت دموع السماء أمس بعد أن ظلت أياماً لا تبكى . . . من يستطيع أن يعيش عمره فى فرح دائم ، لا تغيم فى سمائه سحابة من الحزن .. من ؟ لا أحد ! هذا ناموس الكون . . هو للإنسان كما هو للحيوان والنبات والأرض والسماء . . ومع ذلك فما كان أجمل السماء أمس وهى تبكى ! كانت كمن يغسل الذنوب ويقدم الكفارة عن الآثام .. كانت كمن يبكى من أجل البشر ، تسأل الله أن يرحم ويعفو .

كانت شوارع القاهرة ندية بالمطر ، وسطوح العربات والسيارات لامعة تحت هذا الغيث المنهمر . . وكل واحد يهرول يريد أن يبلغ مأربه قبل أن يشتد المطر ، أتراه فعل ؟ السباق من أجل الحياة هو فى الصحو كما فى الغيم . أترى الناس يهدءون ؟ أتراهم يسلمون السلاح ويقولون هنا آخر المطاف ؟ كلا . . . لايزالون فى سعى تلهب ظهورهم سياط الشهوات والرغبات والآمال والأحقاد . . لايزالون فى هذا السعى ، لاتخمد السن نشاطهم ، ولا يحول الإخفاق دونهم ودون النهوض من جديد .

رأيت فيمن رأيت أمس رجلا كاد يوفى على السبعين . ماذا يهم عمره؟! إنه حىّ ولا بد أن يعيش . رأيته يجرّ قدميه جرًّا والسماء تفتح أفواهاً كالقرب ، والرجل ثابت لايضطرب . . نظر حوله فألفى الشباب يهرولون ، وفى لحظات كان كل منهم قد آوى إلى سكن يعصمه . . أما هو فكان الوهن يثقل رجليه ، والنفس التى كسرها الدهر كأنما تقول له : لم يعد لك فى الدنيا مكان ، وكأنه يقول لها : كلا . . . بل سأعيش!

وسكت المطر قليلا . . . ثم كفت السماء عن البكاء ، لعل مآقيها جفت ، أو لعل حزنها قد مسحت عليه يد الأساة ، أو لعلها صدعت بما تؤمر . أخذت الخلائق تدب من جديد ، والحياة تعود رويداً رويداً ، ولكن الشمس لا تزال فى خدرها المصون . أتراها تطل على رعاياها ؟ أترى حجابها من الغيم والسحب يفتحون أبواب عرشها البهيج ؟

كلا ، آثرت الشمس أمس أن تخلو إلى نفسها فى قدس السر الأعظم ، آثرت أن تحجب عن الناس نورها ليزدادوا لها محبة وإعزازاً . أتراها تطالعهم مع هذا الصباح ، أم تؤثر أن تظل حيث كانت أمس ؟ .. سينظر كل منا وهو فى فراشه الوثير أو الخشن من وراء ستائر نافذته حتى إذا وجد أسلاكاً رفيعة من الذهب تطالعه مع نور الصبح ، فتح عينيه نحو المشرق ، فإذا لم يجد هذه الرسل آذن بيوم مطير أو مكفهر ، وعرف أن الملكة آثرت أن تحتجب عن رعاياها يوماً آخر !



# العودة إلى الدار

ذهبت أتأمل هذا الرجل . . وكان ذلك مساء العيد . كان يسير مطأطئ الرأس يمسح دموعه بمنديل . . وأمامه على بضع خطوات نعش صغير وراءه بضعة أشخاص رقاق الحال . لم تكن الجنازة تنبئ عن ثروة ولا عن جاه . ولاح أن كل السائرين فيها هم أهل الميت ولا أحد غيرهم . . . ما حاجتهم إلى الباكين كذباً والمنافقين تزلفاً . . . وليس فيهم صاحب جاه يرتجى ولا صاحب ثروة يلتمس عنده الجزاء ؟!

أثر فى منظر الفقر أكثر مما يؤثر منظر الثروة المزجاة . لمحت هنا الحزن الصحيح والدمع ينبع من القلب ، ويسقط كأنه يستلب الحياة فى أثر العزيز الراحل ... وكان الرجل الذى أشرت إليه أكثر الباكين حزناً وأشد المحزونين تفجعاً . من يدرى لعله أب الميت فقده غصناً رطيباً كان يدخره لشيخوخة مقبلة وعظم واهن ورأس مشتعل شيباً ؟ من يدرى ، لعله ابنه الوحيد ، أدركته العلة وقصرت يد الفقر أن تدركه بالطب الناجع . . . أى أسى يخترم قلب هذا الرجل وهو يرى كبده ينتزع منه انتزاعاً ولا يستطيع لقضاء الله دفعاً ؟ ! . . أى الخواطر السود تملأ رأسه وأى الأحزان تضغط على صدره .

كان يلوح كأنه يشفق على النعش العزيز من رجة اليد وهزة الأرجل . كان ينظر إليه فى انكسار ولهفة وحنان . أى عيد هذا الذى يستقبله وقد خلت الدار من الشادى الصادح والأمل المبتسم فى زهر العمر .

تصورت الرجل وقد عاد بعد دفن ابنه إلى داره . . تصورته ينظر إلى فراش الراحل وكرسيه وزجاجات الدواء الفارغة . . . تصورته يسير هنا

وهناك يسأل الجماد لعله يتكلم ، ويناجى ابنه لعله يجيب . . . والناس من حوله فى فرح بالعيد ، يرى الصبيان والفتيان فى مثل سن ابنه وقد خرجوا فى زينتهم ، والبسمات على وجوههم ، والنور فى قلوبهم وحنان الأم والأب يحيط بهم أينما ساروا . . . تصورته ينظر إليهم وفى قلبه حسرة . . . ما أشقاه لو لم يعصمه الإيمان من الكفر ؟

أجل . . . ما أكثر ما نحار فى الدنيا ونقف مبهوتين أمام الفواجع والنكبات ، ولا نجد ملجأ إلا أن نركن إلى الله ، نسأله فى الفاجعة الصبر وفى النكبة العزاء ! منذ شهر أو أكثر قليلا ذهبت أعزى رجلا كريماً فقد ابنته وكانت عروساً ما كادت تنزع ثياب العرس وتفرغ إلى زوجها الحبيب شهراً أو بعض شهر حتى عدا عليها الموت . بماذا كنت مستطيعاً أن أعزى الرجل ؟ بدا لى كل كلام ، مهما يكن ، أقل من مستوى المصيبة ، فلم أستطع إلا أن أسأله الإيمان والتسليم .

هناك لحظات فى الحياة لاينفع فيها العلم ولا العقل ولا الحكمة . هناك لحظات تنهار فيها قوة الأقوياء وفلسفة الفلاسفة وحكمة الحكماء وصبر الصابرين . فى مثل هذه اللحظات لا يكون العزاء فى شىء آخر غير الله ، غير أن نفنى فيه محبة ورهبة وحكمة وأملا !

## حياة بلا أخطاء

ترى لو خيرّ هذا الذى أوشك أن يختم صفحة حياته أن يعود ليبدأها من جديد أيرضى ، أيتمنى ، أم يهز رأسه ويقول دعونى إلى المصير المجهول ؟

جال هذا بخاطرى وأنا أشهد أمس رجلا طحنت عظامه الأيام ، بلغ الثمانين أو التسعين ، من يدرى ؟ ! كانت عيناه تبرقان بفيض من المنى المكبوتة والآلام التى رانت عليها السنوات ، فأضحت بعض الذكريات التى لا تثير الدمع ، وقد لاتثير حتى الزفرات . إن الأيام تطوى كل شىء ، ترقأ الدمع وتطامن الحزن ، وتمسح عن الصدر كل النكبات ، وما من شىء يتضاءل مع الأيام مثل الحزن والألم والمصيبة الفادحة .

بدا الرجل أمامى محارباً أسلم سلاحه . لا ريب أنه قضى حياته كلها كفاحاً . قرأت قصته فى أخاديد وجهه ونظرته الصارمة التى أخذت تلين مع وهن عظامه واشتعال رأسه شيباً . لوردت إليه قوته ماذا يصنع ؟ أتراه يعفّ عن ارتكاب أغلاطه ؟ أتراه يتعلم من الدروس التى مرت به ؟ أتكون حياته المقبلة خيراً من حياته الذاهبة ؟ إذا كان قد أدمن الخمر والميسر وأخطأ فى حق نفسه فأرهقها بالشهوات ، وناء جسمه عن حمله الثقيل أفتراه يتصرف فى شبابه إذا عاد إليه بالحكمة التى تملأ رأسه الآن ؟ أم سيعود إليه مع الشباب جنون الشباب ؟ وهل يطاق الشباب مع حكمة الشيوخ ؟ أليس للنزوات سحر شبيه بضوء الحكمة ونور العقل الرصين ؟ أليست بعض ما وجد فى الحياة لتكون درساً وفناً وهوى وأملا وألماً ؟

بل أترى الحياة تطاق من غير أغلاط ؟ أتراها تكون حلوة المذاق إذا

خلت من الألم والندم ولم تبللها دموع الحسرات ؟ ليتنى أسأله وليته يجيب ! وقفت لحظة أتأمله . كم من الأغلاط ارتكب هذا الرجل فى حياته الطويلة ، وأية حسرات تنتابه الآن ؟!

تصورت أيامه الباقية وهو يقضيها مسائلا نفسه لو لم أفعل هذا لاسترحت ، لو لم أتزوج هذه المرأة التى نغصت حياتى وتزوجت تلك التى طردتها لقضيت العمر فى سعادة وصفاء ! آه . . . لو لم أقامر فى البورصة ما فقدت مالى ؟ لو انحرفت عن الطب إلى الهندسة لكنت اليوم شخصاً آخر . . . آه . . بل لو درست القانون ما ذا كان يحول بينى وبين أن أبلغ رياسة الحكومة أو مقعد الوزارة كما كان حظ فلان وفلان ؟

تمنيت أن أحادثه وأسائله . . . ولكنى لم أشأ أن أكون فضوليًّا . . . فاكتفيت بأن أقرأ أفكاره . وعدت أسائل نفسى : لورد هذا الرجل شابًّا وتصرف فى حياته بالحكمة التى يلوح أنها تومض فى بريق عينيه أفتحلو الحياة له لو عصمته التجربة من الأغلاط ، فسار فى الحياة على خط مستقيم لايخطئ ، ومن ثم لايلقى جزاء الخطأ . لا يسيء التدبير ، ومن ثم لا يلقى الإخفاق لو سارت حياته من نجاح إلى نجاح أفتراه يسعد بها ؟

مر هذا كله على خاطرى وألفيتنى أجيب نفسى : كلا ، سيضيق بالحياة والشباب ولن يحس للنجاح لذة ، فإنما سرّ الحياة فى هذا التناقض العجيب . سرها فى الإخفاق والنجاح ، سرها فى الخطر والنجاة ، سرها فى النزوة الطارئة والحكمة الدافعة ، سرها فى الخطأ حتى نتبين الصواب ، سرها فى الموت حتى نعرف الحياة .

## الحظ والعمل

عدت من الريف أمس ، ما أحلى أن يسكن الإنسان بعد جهد شاق إلى الهدوء ! إنه يشعر براحة يستحقها . إن الكسلان لامجال له فى هذا العصر ، فالأمم تتسابق ، والأفراد لاينى بينهم الكفاح ، والدنيا لا ترحم ، واللقمة تجىء مبللة بالعرق ، وما من أحد يرتفع إلى القمة إلا كان العمل والجهد والجد فى السفح يرفع مجده ويزيد سناه .

وما أصدق قول لورد بيفر بروك : « إن الحظ لعبة الكسالى ، إنه خرافة من الخرافات » ! وما أحوجنا فى مصر أن نؤمن بالعمل ونرفض خرافة الحظ ! انظر إلى هؤلاء الكسالى والواقفين فى آخر الصف . لاحديث لهم إلا التهوين من نجاح الناجحين . استمعت إلى واحد منهم . مر بكل الأسماء اللامعة فى مصر : هذا بلغ منصبه لأنه قريب محظوظ ، وذاك جمع ثروته لأنه أتقن فن المآدب ومرن على السهرات وعقد بين ضرب الكئوس الصفقات ! كل منهم له قصة ، فلم يسلم من لسانه ! ما أشبهه وأمثاله بعجائز الفرح ليس لهم فى الموكب السائر الزاخر إلا الغمز والتهامس .

وما أكثر ما تنعقد فى مصر الحلقات ! وما أكثر ما يوقفك صديقك فى الطريق أو يدعوك إلى النادى أو البيت ، فإذا الحديث بينكما لا يخرج عن الحظ ودوره الخطير فى الحياة ! قلما تؤمن أو يؤمن صديقك أن أحداً من الناس فى مصر بلغ ما بلغ لأنه مجد مثابر مستقيم . . . كلا إن الحظ فتح له ذراعيه وحمله على جناحيه السحريين فإذا هو فى أعلى مكان !

إن الحظ فى الشرق معقود له اللواء ، ولكنهم فى الغرب لايعرفون

إلا العمل . نحن نؤمن بالحظ والقدر والنصيب، وهم يؤمنون بالعرق المتصبب والعقل المحكم التدبير والنظام الذى لا يفهم المجاملة ولكن يفهم الحق والواجب. ومن أجل ذلك كنا حيث نحن ، وكانوا حيث هم .

إن أوربا طحنتها الحرب . وخرجت منها مثخنة بالجراح . ولكن العمل المتواصل شفاها من جراحها . فعادت إلى مكانتها الأولى فى السباق . . لم تتأخر إلا ريثما تنهض . هذه آية العصر وإنجيله : ليس من سبيل إلى التفوق إلا بالعمل !



# هذا الإنسان

حقًّا ما أتفه الإنسان ! وما أشد تجبره ! إن رواية حياته من أعجب الروايات التى لم تتم بعد فصولها ! ينشر فى الدنيا الذعر والقلق لا ليخضع الجو لسلطانه ويجعل منه مطية ذلولا لأسفاره ، ولكن ليلقى القنابل على الآمنين ، ويأتى عملا هو الغدر والجبن والقسوة جميعاً .

اكتشف القُوَى الذرية لا ليفيد منها متاعاً وراحة وأمناً ، ولكن ليدمر أعداءه . وينشر فى الأرض الخراب والدمار . . . إن ميزانيات الشعوب لاتعنى براحتها وطمأنينتها بمقدار ما تعنى برصد الأموال لصنع المدافع والطائرات ، ولماذا ؟ لكى تغير إحداها على الأخرى . وهكذا تعطى الشعوب عرق جبينها لكى يتحول سوط عذاب يلهب ظهورها ، وروح قلق تشيع بين بنيها . ينامون خائفين ، ويصحون مذعورين ، لا لشىء إلا لأن قوة العلم أضحت فى أيد مجنونة ، يأكلها الحقد والطمع فتنسى كل شىء إلا أن يكون لها السلطان . تستعبد الشعوب التى منحها الله الحرية ، وتسلب الأحياء ما منحهم الله من حياة .

ما أعجب هذا الإنسان المتحضر ! تلقاه فى المجتمعات رقيقاً أنيقاً ، إذا مس ثوب فتاة اعتذر فى رقة وخجل . وإذا صدرت منه كلمة نابية انحنى آسفاً يطلب الصفح . يذوب رحمة وإشفاقاً على اليتامى والأرامل وأبناء السبيل ، يجود عليهم بما معه وأكثر مما معه . ينشئ المستشفيات للمرضى من بنى الإنسان ، لا ، بل ينشئ المستشفيات للرفق بالحيوان ، يداوى المجروح منه ويعنى بالعليل . . .

هذا الإنسان نفسه يمارس القتل فى الحروب كأنه حرفة ، ويفخر بالنصر ، ويزهو بالمعركة التى تخضبت أكثر من غيرها بالدماء . يبحث

وراء المغامرات ويجرى فى التيه ويملأ السموات والأرضين رعباً وفزعاً ، فإذا سألته أو سألت قواده وساسته ماذا يبغون بما يصنعون ؟ قالوا : السلام والرخاء والديمقراطية ناشرة ظلالها وأمانها !

وتحار فى الغرض والوسيلة وتعجب كيف يطلب السلام بالحرب ، وكيف يكون الرخاء فى وسط البؤس والفزع . إن كل إنسان فى العالم يعيش اليوم وفى ظهره حربة مشرعة لايكاد يأمن يوماً حتى يأتيه الفزع فى المساء وأنت مع ذلك لا تسمع من أركان الدنيا إلا أنشودة السلام والحرية والخير والمحبة .

* * *

لمحت هذه الفتاة تواسى جريحاً ، كانت ملاكاً من نور وإيمان . وكان الجريح بين يديها أشبه بطفل . وراح الخاطر إلى المعركة التى أثخنت هذا المسكين بالجراح، وتصورت الفزع والهول يشمل المتحاربين وكل منهم يطلب دم أخيه : وحوش كاسرة لا ترتوى إلا بالدماء ! وسألت نفسى : أيهما هو الإنسان ؟ أذلك الوحش طالب الدماء أم هذا المثخن بالجراح يطلب الرحمة من ملاك فى صورة إنسان ؟

# فى ظلال الريف

ما زرت الريف مرة إلا أحببت أن أبقى فيه أبداً . إن سحره ليشملنى ، وإن جماله ليروعنى ، وإنى لأهيم بلياليه حباً : لياليه المظلمة القاتمة ، ولياليه المنيرة الباسمة ، غدرانه التى تنساب فى سكون وبطء كأنها تجرى بقدر مقدور .

نساؤه الشريفات النبيلات المجاهدات خير عندى من هؤلاء المتأنقات المتجملات الكاذبات المخادعات اللاتى تبدو وجوههن فى الصباح غيرها فى المساء ، وفى البيت غيرها فى الشارع .

ورجاله المتشققة أيديهم ، الملوثة ثيابهم ، المسمرة بلفح الشمس ولفح العمل خير عندى من هؤلاء الشبان الذين يكوون شعورهم ويزججون حواجبهم ويقضون الساعات أمام المرآة ثم ينطلقون إلى الشوارع يتثنون كالنساء : هؤلاء الكسالى فاقدو الهمة ، عار الرجولة وعار الوطن .

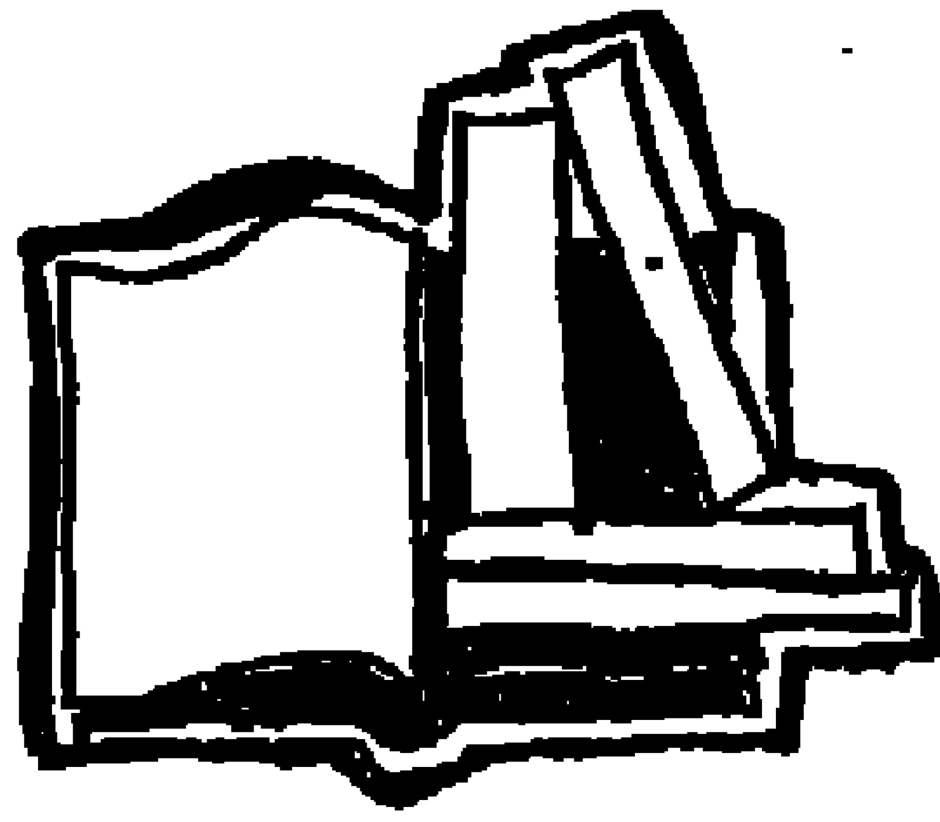
فى الريف أقضى أحلى ساعات العمر ، أشهى أيامه ولياليه ، فيه العشيرة والأهل والصحاب والذكريات ، فيه الذين أحبهم ويحبوننى ، وأذكرهم ويذكروننى .

يا لنخيله وأشجاره وسنابل قمحه وشجيرات قطنه ! يا لأفراحه وليالى هناءته! يا لأعياده ومباهجه ! يالسكونه الذى يهزأ بضجة الناس! وقناعته التى تهزأ بجشعهم ، وإيمانه الذى يهزأ بجحودهم ، وفقره الذى يهزأ بغناهم !

ولقد ملأ شكسبير آفاق الدنيا نوراً وذكراً ، وطوف اسمه آفاق الأرض . وملأ وهادها وبطاحها ومدائنها وقراها سناً ومجداً ، وكان جديراً

أن يدفن مع الخالدين فى كنيسة « وستمنستر » فى قلب لندن حيث العظمة والفخامة والروعة ، ولكنه آثر على هذا كله ركناً . منعزلا فى « ستراتفورد أون آفون » فى قريته المتواضعة ، حيث قضى طفولة العمر ، حيث عاش وكافح حتى انتصر .

مبارك هذا الريف ألف مرة ، ومباركة رياضه وغدرانه ونجومه وأزهاره ألف ألف مرة !



## قيود من ذهب

كان هذا الكاتب حرًّا من كل قيد ، لم تكن له صداقات يرعاها ، ولا مصالح يخشى عليها الأذى . كان من هذا النوع المثالى الذى نذر قلمه للحق أو ما يعتقده حقًّا . كان رزقه يأتيه ضيقاً ولكن سمحاً ، قليلا ولكن فيه هذا المتاع الذى لايخالطه مَنٌّ ولا حسد ولا طمع . وكان مع ذلك يحظى فى الناس بسمعة طيبة عوضت عليه قلة المال . لم يكن يرهب الكبراء ولا ذوى السلطان ، لأنه كان قد شمل نفسه فى هذا المنطق العادل الزاهد .

سارت حياته هكذا حيناً من الدهر . كان يجد وقتاً للقراءة والتأمل . لم تكن الحياة المادية قد أخذته فى دوامتها . كانت له لحظات تأمل وتدبر وتفكير جعلت فيه هذه الصوفية التى ترتفع بقلمه إلى أعلى السموات. وحسب أنه سيعيش هكذا أبد الدهر . حسب أنه سيظل محرراً من قيود الحياة منطلقاً فى آفاق الفكر والرأى ، يقول ما يحلو له ويدعو إلى ما يشاء، ينقد من يريد وما يريد ، فلم يكن لأحد عليه يد، ولم يصنع مجده إنسان .

ولم يكن يفكر فى أن يغير شيئاً من هذه المثل التى ارتضاها . كانت أشبه ما تكون فى دمه ، فقد نشأ فى جو مطلق من القيود . انفتحت عينه أول ماانفتحت على فضاء لاحدله ، زرقة شاملة فى السماء ، وشجر متماوج منطلق ، وأعشاب وأعناب ونخيل . حدا الرعاة وجاوب أغانى البرية . ثم تعلم : قرأ وقرأ وأعانته على القراءة بصيرة نافذة وعين صائبة وقلب واع . حاز من الإجازات الدراسية أعلاها ، وأخذ الحظ والمجد والأفق كله يتبسم له .

حسب الكاتب المفكر أنه سيظل أبد الدهر عبداً لشيء واحد هو فكره وقلبه . ولكن اسمه اللامع جذب إليه صداقات الكبراء والعظماء وأصحاب النفوذ . لم يسع إليهم ولكن سعوا إليه . استهواهم بقوته ، عف عنهم فتهاووا عليه كالفراش . لم يدفعهم عنه بل أخذ هو يقابل صداقتهم بمثلها وسعيهم بمثله. وتسرب إليه شيئاً فشيئاً بعض الزهو بهذه الصداقات، ولم يكن يعرف أنه بدا يضع قيداً من ذهب في رجله ؛ وكان القيد رقيقاً في أول الأمر حتى إنه لم يحسه . ولكن القيد أخذ يشتد ويثقل مع كثرة هذه الصداقات والمجاملات إلى أن أضحى ثقيلا بغيضاً .

كان الكاتب فى أول أمره يجد المجال أمامه فسيحاً حينما يريد أن يكتب . لم يكن فى أفقه ما يخشاه أو ما يرجوه . لم يكن إلا قلبه وعقله ولسانه . وهو الآن يعود إلى قلمه يسأله أن يكتب ، وإلى قلبه يسأله أن يوحى ، وإلى عقله يسأله أن يفكر ، فيهوله أن قلمه بدأ يجف ، وقلبه بدأ يميل ، وعقله بدأ يتوقف .

رأى قيود الصداقات والمجاملات والمصالح منثورة من حوله هنا وهناك . احتار الكاتب المفكر فى أمره ، وسأل نفسه : ماذا دهاه حتى خرج من صومعته إلى الدنيا ؟ وذكر قول سير فيليب سدنى : « انظر فى قلبك واكتب » . وأخذ المسكين ينظر فى قلبه ، ولكنه لم يجد غير ضباب من بقايا الحرية الذاهبة . نظر الكاتب فيما حوله فألفى المال يأتيه من كل صوب رزقاً واسعاً . وسأل نفسه ألم يكن خيراً منه الرزق المحدود والحرية المطلقة ؟ وأعاد قول سير فيليب سدنى : « انظر فى قلبك واكتب» ، وطفرت من عينه دمعة لأن القيود التى فى رجليه من ذهب !

# المصلح الكبير

ما حسبت أن ألقاه بعد كل هذه السنين الطوال . قذفت بنا الحياة كلا فى مصير . درسنا معاً وجلسنا معاً منذ كنا نقرأ فى صفحات الكتاب ، كتاب العمر الذى وهبناه ، دون أن ندرى أيطول أم يقصر ، أيصاحبه التوفيق أم يكون النحس خاتمة المطاف . كان طروباً فيه ابتسامة الطفل وانبثاق الفجر . لم يكن يدرى أن العواصف ترصد أمامه الطريق . حسب الدنيا ستجرى به فى موكبها رخاء يظلها السلام بالصفاء .

رسم فى خياله الأمانى ، وحسب أنه يملى على القدر. وبدأ رحلة الحياة محمولا على أجنحة رقيقة . كان يحب بلاده أعظم مما يحب أى إنسان . كان مفعماً أملا فى مستقبلها . وبدأ يجاهد . عرف أنها فى حاجة إلى سواعد بنيها فمنحها ساعده . تعلم وتثقف ووضع علمه وثقافته فى خدمتها . لم يسألها الجزاء ولكنه سألها أن يكون جندياً لا تستهويه الألقاب ولا الأمجاد .

ومشى الشاب فى آخر الصف مؤمناً بمثله وأخلاقه وأمله . كان صادقاً أميناً ، مجداً عارفاً بواجبه . علموه فى المدرسة أن هذه أخلاق النجاح . حذروه أن يكون ملتوياً ، أن يكذب أو ينافق أو يخادع . بدأ حياته موظفاً فى الحكومة .

كان يصل إلى مكتبه فى الميعاد وينصرف فى الميعاد . يسأله رئيسه عملا فيؤديه ، ويتلقى المدح والثناء . حتى إذا مضى عام وبعض عام راجع سجل عمله ، فألقاه نظيفاً . ومضى عام ثالث ورابع وخامس وسادس وأخذت عجلة الأيام تدور ، وأخذت المثل والأخلاق تضطرب

فى ذهنه . أحس أن الصدق يبعده عن رئيسه ، على حين يدنى النفاق زملاءه إليه . أحس أنه بغيض فى الجو الذى يعيش فيه . رأى أنه بعد ست سنوات لايزال كما كان ، وتقدم عليه الكاذبون والمنافقون . كان عليه أن يختار . إما أن يكذب وينافق أو يترك عمله . وآثر أن يظل أميناً لأخلاقه . لم يتزعزع إيمانه فيما تلقى فى المدرسة والجامعة ، ولكن تزعزع إيمانه فى وظائف الحكومة . فتركها ليجرب حظه فى العمل الحر

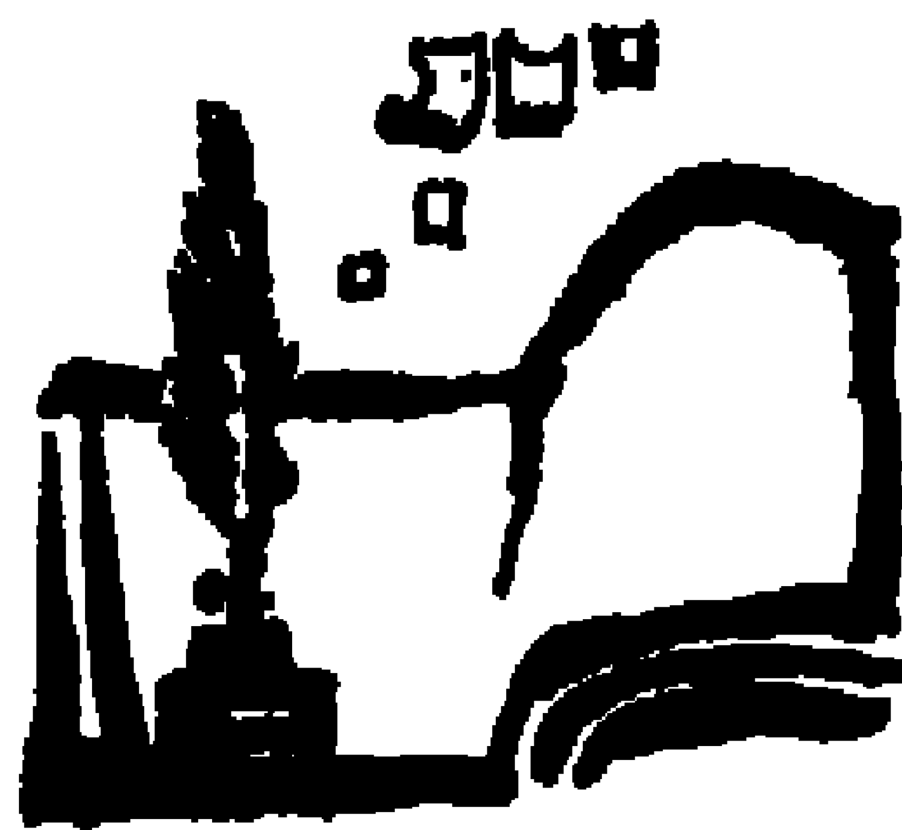
أحس بانطلاق جديد ، وشعر كأنه يلقى عن كاهله عبئاً ثقيلا . وتولاه شبه تصميم على أن يصلح هذا الفساد .

كان كل واحد يؤكد له أنه على حق ، وكان كل واحد يؤكد له أنه أخطأ لأنه ترك وظيفة الحكومة . فعجب فى نفسه من هذا التناقض ، وسأل عن تأويله فعلم أن كل إنسان يشعر بالحاجة إلى الإصلاح ولكن كل إنسان أيضاً يرى أنه من الخير أن يكف عن هذا الجهاد الشاق .

قالوا له إن مالقيته فى الحكومة ستلقاه خارج الحكومة . وأنه من الخير له أن يرضى بالأمر الواقع . وهداه تفكيره الناضج إلى خطة حسب أنها مؤدية إلى الإصلاح المنشود . قال إن الاشتغال بالسياسة أحسن ما يجدر به أن يفعله . فعن طريقها قد يبلغ مناصب الإدارة والتوجيه . ودخل الميدان . كان عالى الثقافة واضح التفكير خطيباً سلس العبارة ، ضليعاً فى كثير من الفنون والعلوم . وانضم إلى أحد الأحزاب ومعه أخلاقه ومثله وكتبه ودراساته . وبدأ يخطو إلى المجد المنشود . ورحب به الحزب أجمل ترحيب ، فاغتبط بهذه البداية ، وانبثقت فى قلبه شعلة من نور كانت قد خبت . ومرت الأيام وتلتها الأشهر وبدأ يدعو إلى مبادئه ، فأسعده أن يجد لها تأييداً ضاعف من سروره ومن أمله . فلما كانت

الترشيحات لمجلس النواب . تخطاه حزبه إلى آخرين أقل منه كفاية وعلماً وخلقاً وتحمساً .

وذكر المصلح الكبير ما كان فى وظيفته الحكومية إذ آثروا عليه فى الترقية من كانوا أقل منه علماً وخلقاً ونشاطاً . وعجب فى نفسه من هذه المصادفات السيئة . وهمس له صديق بما ألقى الضوء على كل ما لم يحط به علماً . فهم أن كل الترشيحات ترجع إلى أسباب .فهذا لأنه أمد الحزب بمال . وذاك لأنه صديق الرئيس ، وثالث لأن الدائرة كانت لأبيه ، ورابع لأن فلاناً صاحب النفوذ أوصى به خيراً . وغاظه أكثر من كل شىء أن كل إنسان اعترف بفضله وعلمه وخلقه اعترافاً أشبه بشهادات الثناء والمديح التى كان يتلقاها من رئيسه حينما كان موظفاً ، ومع ذلك يرقى غيره .



# نقاب على وجه السماء

غامت السماء أمس ، أسدلت نقاباً على وجهها الصبوح . طال بها التبذل فآثرت الحجاب . وأخذت الشمس تبدو من حين إلى حين بخيوطها الذهبية الرقيقة ، كأنها حسناء تختلس النظرات .

حقاً ، ما أعجب ما تتجاوب النفس مع الكون ! أحسست النور في نفسي يحجبه رويداً رويداً مثل الغيم الذى حجب الشمس ، فضقت بالمكان المحدد وآثرت الخلاء المنطلق . أويت إلى الطبيعة الرقيقة الباكية وقد أخذ المطر يهطل — كما يقول الإنجيل — على الأبرار والفجار ، فيغسل الأرض كأنه يغسل الذنوب . وكفت الخلائق عن السعى بعض الشيء . التمس كل إنسان ملجأ يقيه . أسرع المبطئ وهرول المسرع ، وبقى مكانه من كان يعتزم الخروج .

ولاحت لى الحرب المشبوبة منذ الأزل بين الطبيعة والإنسان . يداورها وتداوره ، تقسو عليه حيناً وترحمه أحياناً ، ترسل عليه الصواعق كما تبعث إليه بنور الشمس الدافئ . تفتح الأرض جوفها حيناً فتبتلع المدائن والقرى ، وتنبت له أحياناً من كل زرع بهيج . . . تبارك الله تعالى جعل الخير والشر صنوين ، والموت والحياه ظلين يتتابعان ، فاجتمع فيهما سر الفناء والخلود !

وساءلت نفسى ما هو الفاصل بين الخير والشر ؟ بل ساءلت نفسى أيوجد فى الحياة شر محض أو خير محض ؟ المطر المنهمر للأعرابى الضارب فى الصحراء الذى يرعى الإبل والغنم شر ، لأنه يهز قوائم خيمته ، ويدخل عليه مأمنه ، وقد يطيح به فيدعه فى العراء يلتمس الملجأ ، فلا يبلغ ما يريد ، وخير لأنه قد يسقى زرعه ، وينعش نبته ، ويملأ

جوف الأرض ، فتتفجر عيوناً منها العذب الفرات ... والمطر للساكن فى المدينة شر ، لأنه يحجبه عن مجتمعاته وسهراته ونزهاته ، ويحجزه فى بيته سجيناً أو كالسجين . . . وهو للقروى الذى يزرع الأرض خير إذا كان زرعه قد جف أو عز عليه الماء ، وهو شر إذا كان زرعه ريّان لاحاجة به إلى الماء .

اختلفت بين الناس المذاهب والسبل والأغراض والغايات . فالخير فى ناحية شر فى ناحية ، وما ينفعنى قد يؤذيك ، وما يؤذيك قد ينفعنى . . ولكن الطبيعة لا تحفل بالأفراد ، إنما تحفل بالمجموع . لا تعنيها الذرات ، ولكن يعنيها البناء المتكامل . . .

مرت هذه الخواطر بنفسى وأنا أرقب قطرات المطر تشتد وتتراخى ، تنزل رذاذاً ثم تهطل مدراراً . والشمس تجاهد الغيم المتكاثف تلتمس أسباب الحياة . . . عبرة الكون جميعاً ألفيتها فى هذه القطرات ، تولد فى الغيم وتدفن فى الأرض ، وفى هذه السحب تتجمع فتضحى قوة حتى إذا ذابت ماء تبددت . . وفى هذه الشمس تزهو فى سمت الأفق حتى إذا حان الغروب أفلت وأضحت كما بدأت خيوطاً متلاشية يطويها الظلام . . الموت والحياة ظلان متتابعان !

# زيارة

كان لا بد أن أذهب لكى أؤدى واجب الوفاء للعزيز الراقد فى ثرى الريف . أتراه عزيزاً واحداً ؟ كلا . ما أكثر من أودعنا هذا الثرى العزيز ! . .

كان الجو رخاء ، الأنسام تهب منعشة ندية ، والشمس قد مالت إلى المغيب أو أوشكت ، والشفق الرقيق الذى طالما سمع بثى ونجواى ، يتناثر حولها لكى يتجمع فى هالة موكبها عند الرحيل .

لم يكن فى المقبرة أحد ، كانت فى وحشتها الخالدة وصدى الأنسام البعيد يصل إليها ، كأنه يطرق باباً موصداً . . أتراهم ، هؤلاء الأعزاء ، يسمعون وقع أقدامى ؟ ولكن ما لهم لايهشون للقائى كالعهد بهم . كلا . إنهم لايسمعون . . بل من يدرى ، لعلهم يسمعون ولكن هذا الحاجز الرقيق السميك بين الأحياء والأموات يحول بينهم وبين ما يريدون !

وقفت خاشعاً أسألهم فلا يجيبون ، أتحدث فلا أسمع غير رجع الصدى . وكأن حديثى لهم ، إذا تحدثت ، يسمع ولو كان الهمس . وا أسفاه إنى لأجيل البصر فيما حولى فلا ألقى إلا صمتاً مقبضاً ، وحشائش نبتت هنا وهناك ، وتماوج الأشجار المحيطة يملأ النفس رهبة وخشوعاً . وهاهو ذا المساء ينشر ظله الرقيق والنور يزحف عليه الظلام ، كأنه الحياة يدركها الموت !

أأعود مع الليل أم أظل هنا إلى أن يأذن الله . هنا حيث أخذت صور الماضى تتتابع على خاطرى فى شريط متناسق . . لكم آثرت أن أعيش معه . كان أحلى من كل ماحفل به الحاضر . . كانت فيه الطفولة المبتسمة والأب الرحيم ، كانت فيه اليد الكريمة تأسو الجراح

وتمسح الدموع والصدر الذى آوى إليه كلما أثقلتنى الحياة . أترانا حينما نكبر لانعود فى حاجة إلى صدر نأوى إليه . . كلا ما أشد حاجتنا ، مهما نبلغ من المجد والثروة والسلطان ، إلى القلب الأول الذى نبض لمقدمنا ، والعين التى تبللت بالدمع إشفاقاً وحباً ، والصدر الذى اشتعل فيه الهم حيناً ، ونبض بالفخر والزهو حيناً ! . . ما أشد حاجتنا إلى الراعى الذى يسهر ونحن نيام ، والعين التى ترصد خطواتنا ، والقلب الذى يتفتح لمجدنا و يستر كل شىء حتى عارنا !

الليل يتقدم ولابد أن أعود . . إن الحاجز الرقيق السميك الذى يفصل بين الأحياء والأموات لايجعلنا حيث هم ولا يجعلهم حيث نحن . ذهبوا بمسراتهم وآلامهم ومضينا بمسراتنا وآلامنا . اجتازوا العتبة الكبرى وبقى علينا أن نسير إليها مجهدين تارة راضين تارة ، ولكن الطريق واحد .

* * *

ما أسرع ما تنتقل الحياة بالأحياء ! بعد ساعات كنت فى القاهرة حيث الزحمة والبهرج والضياء ، حيث الحياة تقتضى الأحياء عصارة العقل والقلب والجسم ، حيث اللذات تستعبد طلابها ، والمجد يستعبد طلابه ، والفكر يستعبد طلابه .

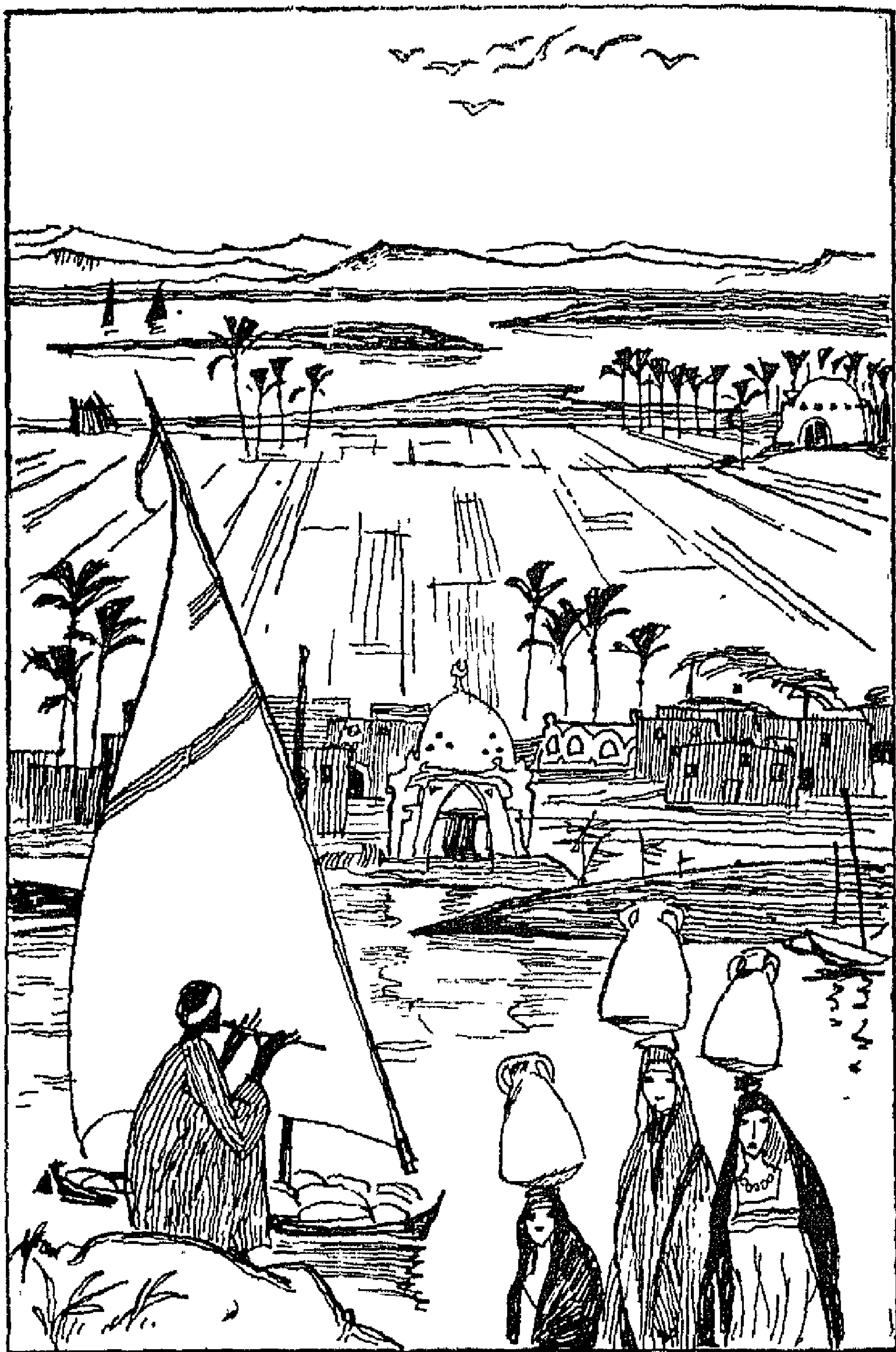
هنا الحياة بكل شرها وخيرها ومجدها وعارها ، بحربها وسلامها . وأغمضت عينى وجمعت الصورتين فى خاطرى . هناك مقبرة موحشة ، وهنا حياة صاخبة . ما أعظم ما بينهما من فارق ، ولكن ما أقرب مابينهما من نسب !

## الحرية

لكم تمنيت أن أعيش حياة كلها حرية لا قيود لها ، حرية الفكر والرأى لا حرية الفوضى ! لكم تمنيت أن يعطينى الناس حريتى وأعطيهم حريتهم ، وأحترم رأيهم وأمجده . لا لأنى أدين به ولا لأنه رأيى ، ولكن لأنه مظهر من الحياة المنظمة فى مجتمع منظم ، ولكن أف من الحياة ، فقد علمتنى أن أكظم الرأى والفكر . علمتنى أن أضحك بمقدار ، وأتكلم بمقدار ، وأتنفس بمقدار.

ولولا أنى أخلو إلى نفسى أتدبر أمرى وأمرها ، وأخلو إلى كتاب أقرؤه فأشعر أن الكاتب ينصرف عن الحدود والقيود ، ويعيش كيف يحلو له أن يعيش ، ويقول مايشاء أن يقول . وقد يكون لغواً وقد يكون عبثاً وقد يكون جداً ، ولكننى أشعر بالكرامة الإنسانية تنضح من تحت السطور ، تلك الكرامة التى تأبى القيود وتنفر من السلاسل ولو كانت من ذهب . لولا أنى أخلو إلى نفسى حيناً لضقت ذرعاً بهذه الحياة الملوءة كذباً ونفاقاً وزوراً .

ومن أجل ذلك أشعر بانطلاق كلما خرجت من القاهرة إلى الريف. أشعر بضوء الحرية ينبعث مع شعاع الشمس المترامية على الحقول ، أشعر بأنفاسها التى لا حدود لها كأنها بعض هذا الأفق الضارب إلى غير حد ، المنبسط إلى غير أمد . لكم أختنق فى القاهرة إذ أسمع الرأى من هذا أو ذاك فأشعر النفاق وراءه يستره والمصلحة تلقى عليه ألواناً ، فلا هو رأى ولا هو فكر ولا هو عقيدة ، ولكنه لباس يرتديه صاحبه اليوم ليخلعه غداً .



وقد سألنى بعض أصحابى لماذا تدع القاهرة إلى الريف ؟ لماذا تهرب منها كلما أخلتك الشواغل ؟

إننى إذ أخرج منها أشعر أننى ارتددت إلى الكون الجميل فى أصله . وصدق كوبر « إن الله صنع الريف ، وصنع الإنسان المدينة » ! أفترونى إلا مؤثرا ما صنع الله على ما يصنع الناس؟ إننى إذ أنطلق إلى الريف أحس أننى ألقيت عن كاهلى عبئاً . ألقيت — إلى حين — هذا النوع من الناس الذى يعجزك أن تردهم إلى الطريق السوى ، وهذا النوع من الحياة الذى يحملك على أن تكتم فى نفسك ما تريد أن تفضى به ، تارة لأنك لاتستطيع ، وتارة لأن الناس وضعوا فى رجليك قيوداً من ذهب ، رقيقة ولكنها ثقيلة ، جميلة ولكنها كريهة .

فى الريف لن تجد شيئاً من ذلك . ليست فيه مصالح ولا مآرب ولا وزارات ولا دواوين ولا أموال ولا بهارج . . . لا زينات ولا عطور ، لا فتنة تأخذ بالألباب ، ولا مجتمعات تتلاقى فيها العيون الغاويات . ومن أجل ذلك كانت فيه الحرية خالدة فى النفس ، لا رقيب عليها ولا رقباء . ومن أجل ذلك أحببته عاصماً لى حتى لا أغوى ، وعزاء لى حتى لا أيأس .

## هل أنا وحدى الضحية ؟

عرفته منافقاً من الطراز الأول ، نهاز فرص كأنه تعلم فنه وحذق أساليبه . كان موظفاً فى الحكومة فارس فيها النفاق أكثر مما مارسه فى أى عمل آخر . كان على المسكين أن ينافق فى الصباح والمساء والغداة والآصال . . . وفى سهراته نفسها ، مهما تطل ، كان عليه أن ينافق أيضاً . أصبح النفاق فى دمه ، حتى انمحت شخصيته وخسر ما كان فى عقله من لمعة ، وما فى فكره من تصور .

رثيت له إذ رأيته . وكنت أعرفه مثقفاً حريصاً على أن يكون له رأى. أراد الرجل أن يرضى كل الناس . اشتغل بالسياسة حيناً فآذته السياسة ، وصنعت له من الأعداء أكثر مما صنعت من الأصدقاء . لمح فى مصر ناساً يصادقون كل الناس ، ويكسبون من كل الناس فأراد أن يفعل مثلهم . ماذا عليه إذن لو اشتغل بالسياسة والاقتصاد والمال والأدب وكل شىء . . وبدأ الوسيلة لحياته الجديدة. بدأ ينافق فى رأيه السياسى وينافق فى رأيه الاقتصادى وينافق فى رأيه الأدبى . وعانى المسكين ألواناً من الأذى فى الصراع بينه وبين ضميره . أراد أن يسكت شخصه القديم الذى قرأ وبحث وآمن بالمثل العليا .

ومرت به فترة من الاضطراب والتناقض أضحكت منه الناس ، ولكنه ظل مواظباً على قتل رأيه وشخصه وعقله . . وقد نجح أخيراً .شيع كل ما كان فى نفسه من فضيلة الرأى الحر ، والعقل الواعى ، والشجاعة التى لاتحول دونها المصالح . . وأخذت المكاسب تأتيه من كل صوب . . امتلأت خزانته بالمال ، وفرغ قلبه من الوعى ، ورأسه من الرأى .أصبح

شبه بوق . واليوم إذ يقف الرجل يسائل نفسه : أكسب أم خسر ، تطفر من عينيه الدموع ، يحاول أن يعود إلى شخصه القديم فلا يستطيع ، على حين أضحى ينكر من نفسه كل شيء . المال بين يديه ولكن هل كل ما فى الدنيا هو المال ؟ وإنه اليوم ليرضى أن يبيع حياته كلها لكى يعود مرة أخرى طليقاً من كل قيد ، ولكنه لايستطيع . فسد فيه كل شيء. وأسأله لماذا صنع بنفسه ما صنع ، فيقول: لم أصنع بنفسى شيئاً ، ولكن الحياة فى مصر هى التى صنعت كل شيء . أترانى كنت وحدى الضحية ؟



## الفنار الصغير

قال صديقى : هذا الوحش الذى فى داخلى ، لا أعرف كيف أسوسه ، يكاد يفترسنى . إننى أضيق به . كل ما حولى يغذيه ، ولا يقف فى وجهه إلا ضميرى . . . . ولكن ماذا يفعل المسكين أمام وحش ضار ؟

قلت : وتخاف عليه ، أعنى على ضميرك ؟

قال : يلوح أنه أضحى هزيلا لكثرة ما أخذت منه وكثرة ما أكل الوحش .

قلت : ألا تزال تسوغ أمام نفسك ما ترتكب من آثام وذنوب بردها إلى مثل وأخلاق عالية ؟

قال : إنى أفعل .

قلت : لايزال ضميرك حيًا ، عليك أن تنقذه .

وسأل : ماذا أصنع ، وكل ما حولى يحكم على الضمير بالإعدام . ما كان حلالا يوماً يصبح حراماً يوماً . ما تعلمته ووعيته وأفنيت العمر أنميه وأغذيه يكاد يذهب فى المجتمع كالضباب . انقلبت الأسماء أمام عينى . الناس يسمون النفاق لباقة ، والكذب دبلوماسية ، والوصولية مهارة ، والتقلب سياسة . وهم يسخرون منى إذا جادلتهم بما أعرف وما أقرأ فى الكتب . أأطويها ؟ أأحرقها ؟ هذا أستطيعه . ولكن ماذا أفعل فى هذه الشمعة الخافتة الباقية فى نفسى هل أطفئها هى الأخرى وأستريح ؟

قلت : كانت الشمعة من قبل مصباحاً وهاجاً .

قال : كانت ! !

قلت : وماذا أطفأ وهجها ، لقمة العيش ؟

قال : كلا ، أنت تعرف أنى غنى .

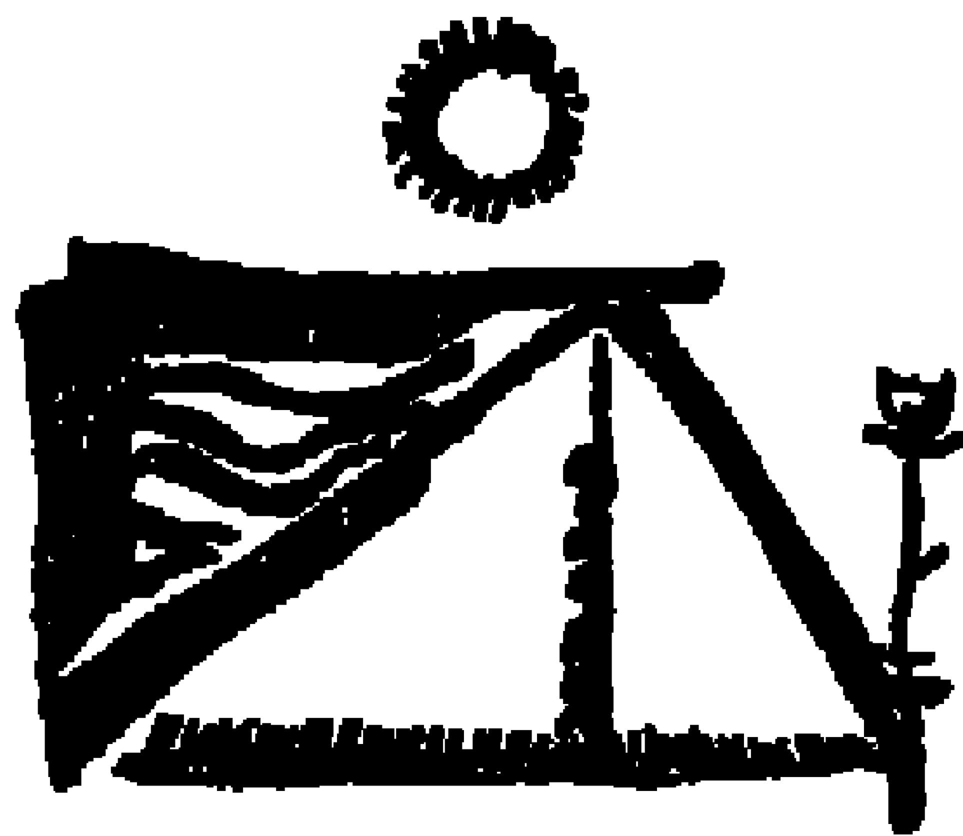
قلت : المرأة ؟

قال : كلا ، أنت تعرفنى من هذه الناحية أكثر مما أعرف نفسى .

قلت : لعله الوسط ؟ إن مصباح الضمير كما يكسب الزيت من النفس يكسبه من الوسط ، فأنت ضحية مسكينة . . ولست وحدك !

قال : ولكنك لم تحل المشكلة .

قلت : حلها ليس فى يدى ولا فى يدك . احتفظ بالبقية الباقية فى السراج . احفظها وذدْ عنها ما استطعت ، فإن ومضة الفنار الصغير تنير ظلمات المحيط .



## دين الفطرة

على كثرة ما كتب عن النبي محمد لا يزال هناك الكثير مما يجب أن يكتب، فرسالته تأخذ من كل زمن ومن كل تطور معنى جديداً أصيلا. فإذا قلت إن دعوته إنسانية عامة لم تعد الواقع، لأنها دعوة وافقت الفطرة ولم تخالف مكنون النفس ولا اتجاهها.

وهى دعوة لاتعصب فيها ولا قطع ولا حسم، لأنها دعوة تقوم على إطلاق العقل البشرى وتقديسه. وليس فى الإسلام، كما يحسب البعض، غيبيات، وأحكامه كلها أحكام عقلية.. وفيما عدا العبادات، يبدو كل حكم من أحكام الإسلام قابلا للتطور، وقابلا لأن يسع، كل رأى جديد. وفى المبدأ الشرعى المقرر: «الدين يسر لاعسر» تلخيص لأعظم قاعدة يمكن أن ينطلق منها الفكر البشرى إلى غير حد. وفى المبدأ الآخر: «الضرورات تبيح المحظورات» تلخيص لقاعدة أعظم ما تكون انسجاماً مع الفطرة وتمشياً مع أحكامها.. وإن انتشار الإسلام فى أكثر بقاع العالم هذا الانتشار السريع لأعظم دليل على أن دعوته أقرب مسايرة للعقل وأعظم تفاعلا معه. وكل المآخذ التى أخذها الكتاب الغربيون على الإسلام لم تكن إلا من أغلاط الجهال من المسلمين الذين لم يفهموا دينهم كما ينبغى أن يفهم. فحشدوا فيه الخرافات والأوهام على أنها بعض أصوله وعقائده. وليس أبعد من الإسلام عن التعصب، فهو الذى آخى بين أبناء الأديان جميعاً، ودعا إلى المحبة والسلام والمغفرة والموعظة الحسنة، والجدل الذى لا إكراه فيه، بعد أن تبين الرشد من الغى.

وقد اتهم الإسلام بأنه نشر دعوته بالسيف. وهذا اتهام لايقوم على أساس

وكم من الدول قامت على السيف وانتهت وعفى عليها الزمن ، أما الإسلام كدعوة فقد عاش بالإيمان المجرد من السيف . واليوم لايكاد الإسلام يملك من القوة المادية إلا القليل ومع ذلك تزكو دعوته ويزداد الإيمان به ويقوى الاندماج فيه على الزمن . ولئن كان الإسلام قد أوذى من أحد فإن أعظم ما أوذى به كان من بعض أتباعه الذين لم يفهموا جوهر دعوته ، فأضافوا إليه ماليس فيه ، وصوروه ديناً جامداً ، وهو فى واقع أمره أعظم ما يكون حيوية وقبولا للتطور ، وإيحاء بالمحبة والتعاون والسلام .



## سحر الضلال

هذا الشيخ الذى رأيته أمس يدب على عصاه ، فى وجهه سلام وتسليم ، وفى روحه سماحة وصفاء . . . أتراه إذ اقترب من النهاية ، اقترب من الله . كيف كان فى شبابه؟ أية أوزار أثقلت ظهره؟ هل ينظر إلى الحياة اليوم بالعين التى كان ينظر بها ، وهو عود رطب ، مشدود إلى الناس بالكفاح، وإلى الدنيا بالأمل وإلى الكون بالجبروت ؟ أتراه إذ انكسر سلاحه انكسرت نفسه ؟

وا أسفاه ! ليت الشباب يعى ويعرف .. ما أحوجه أحياناً إلى فترات من الصمت ، ينصرف فيها عن كل شىء إلا عن نفسه يسائلها ويحاسبها . . فى هذه الفترات يحيا الإنسان الذى هو قبس من الله ، يختفى الحيوان الذى هو نزوة من الشيطان ، ينسى المعترك الهائل والدنيا الدائرة الغائرة الناصبة الشباك الرافعة اللواء ، ينسى الأضواء اللامعة والأهواء الغامرة والعطور التى تملأ المدينة . . . والشباب يتهاوى عليها كالفراش دون أن يسأل الذى عب من الكأس حتى ثمل، ليته يسأل ؟

ولكن أتراه إذا سأل يعى ؟ كلا ، إنه سحر ، إنه سوط يلهب ، سباق . . وكل يتشهى الثمرات المحرمات . طردت حواء آدم من الجنة ، وتطرد أبناءه من الوعى إلى الغى ، ومن الرشد إلى الضلال . ملايين كسرت الشهوات أعوادهم ، أحسوا آخر المطاف أن الذنوب رسبت والضلال باق ...

أترى أبناءهم وحفدتهم فتح النور أعينهم على الهدى أم ظل السحر مع الضلال ، وظل الهوى مع العطر والدخان ؟ فكرت وأنا أنظر إلى هذا الشباب يعب من الكأس عشرات وعشرات أى قذى سيرسب فى كأس عمره حينما يتحطم العود النضير ؟! لكن هل يفكر هو اليوم فى غير كأسه ؟

## طوق من طمع

كل يوم تتفتح أمامى أسرار نفوس . ما أعظم هذا الذى لا تستهويه شهوة ، ولا يسعى وراء مال. ما أعظم هذا الذى تعصمه نفسه من الصغار ، فلا يسقط عليه كالذباب ، ولكن يتسامى فى الجو كالنسور . .

سألنى وفى عينيه شبه دمعه : إن قبس النور الذى اشتعل فى نفسى منذ وعيت الحياة ، هذه الومضة التى تجعلنى إنساناً أوشك الخطر أن يحدق بها ، كادت الريح تطفئها . أترانى أسقط من عش النسر إلى وكر الثعلب ؟

وشعرت أنه فى ضيق ، أحسست أن أعواد قفص لا أراه تكاد تطبق عليه ، وهو الذى كنت أعرفه منطلقاً ، متشامخاً ، رأسه فى الذروة ، وأنفه فى السماء . وسألته بدورى : ما دهاك ولست أعرف جديداً فى حياتك ؟ قال : بل الجديد فى نفسى . . . إن نور الحرية التى أحببتها موشك أن يخبو . . حريتى فى أن أقول وأعمل وأرى . قلت : وماذا يمنعك أن تقول ما تشاء ، وتعمل ما تشاء ، وترى ما تشاء ؟ قال : طوق غير منظور ! قلت : من ذهب . قال : بل من طمع . قلت : وأنت الذى وضعته راضياً . قال والدمعة فى عينيه : بل راغماً . قلت : إنك تغالط ، لا تطمع إلا النفس ولا تحب الحرية إلا النفس ، فأيهما أردت لها أرادت !

# ليرحم الله العالم

كان القمر بدراً يترقرق نوره الفضى على صفحة النيل ، والخضرة الفاتنة تجمع إلى شاطئيه أجمل الرؤى وأعذب الأحلام . . والأهرام تطل من بعد ، كأنها تتحدث عبر القرون . . . فى صمتها أبلغ العظة وأروع الكلام .

وكانت الساعة قد أوفت على الثالثة ، ونور الفجر ينبثق فى عذوبة ساحرة ، والظلمة تخلى الطريق ، وصوت المؤذن يرتفع فى الفضاء الساكن يسبح لله فى عرشه العالى .

لم يكن من صوت فى هذا السكون إلا صوت مؤمن يناجى ربه ، أوحزين مؤرق ، أو شاعر حالم ، يرقب هذه اللحظة الفاتنة الفاصلة بين الظلام والنور ، وبين الشك واليقين ، بين الليل والنهار ، أو إنسان مكافح يبدأ عمله مع النور ، أو ينتهى مع الظلام .

سألت ربى لو كان الساسة ورجال الجيوش والحروب شعراء أفكانوا يثيرون فى العالم ما يثيرون . . أتراهم لو رأوا هذا الجمال وفهموه كانوا يأمرون جيوشهم أن تهجم لكى تقتل وتدمر ، ولكى تيتم الأطفال ، وتخرب المدن ، وتفسد ما صنع الله ؟

أتراهم لو أدركوا سر الكون يجترئون عليه بمثل ما يفعلون ؟ متى يفيق العالم من جنونه ! متى تختفى هذه النغمة الثقيلة الكريهة ، نغمة الحرب ولا شىء غير الحرب ! أفيريدون أن يعودوا إلى الظلام الخانق ، وقد منحهم الله النور ؟ إلى القتل وقد منحهم الله الحياة ؟

فتن وقلاقل ومطامع متنافسة ، متعادية متقاتلة فى كل مكان فى العالم : فى كوريا وفيتنام والصين واليابان ، فى مصر والشرق وقبرص

واليونان ، فى لاوس وباكستان ، فى أوربا ، فى أمريكا . . فى كل مكان . . لاهدوء ولا أمان !

أتعصمنا الجبال من حماقة الإنسان ؟ أتعصمنا السماء نفسها ؟ أتعصمنا الأنهار والبحار ؟ . . . كلا . . . إن الوحش الآدمى قد أفسد كل شيء . بلغ شره قمم الجبال وقاع البحار ، وتطاول حتى إلى السماء منحه الله العالم نعمة وبركة فأحالها ناراً تتلظى وجحيماً لا يطاق !

من يوم خلق الله آدم ، اقتتل هابيل وقابيل . . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها سيظل فيها هابيل وقابيل !

ليرحم الله العالم !



## الحمار والجزرة

ما أعجب الإنسان ! يحسب أنه أذكى من الحمار ، بل يحاوله أن يضرب المثل بغبائه وبلادة فهمه وحسه ، مع أنه لايعدو أن يكون حماراً كبيراً وأمام عينيه جزرة !

ما هى حكاية الحمار والجزرة ؟ رواها الدكتور أحمد زكى فى كتابه « ساعات السحر » ، فقال إنه وجد ولداً من « أولاد البلد » يضحك على حمار بجزرة . كان الحمار حماره . وكانت الجزرة جزرته . وكان مع الولد عصاً طويلة وضعها على عنق الحمار ، وضعها بطوله ، ثم ربطها بعنقه ، فامتدت أمام رأسه متراً .

وربط فى طرفها أمام عين الحمار جزرة ، ورآها الحمار تتأرجح أمام عينيه فأسرع الخطى لينالها ، ولكنها لاتقترب . كلما أسرع أسرعت وكلما أبطأ أبطأت . والمسافة بين فمه وبينها دائماً واحدة ، ولكنه ظل يدأب .

سألت نفسى وأنا أقرأ هذا الفصل الممتع فى كتاب الدكتور أحمد زكى :

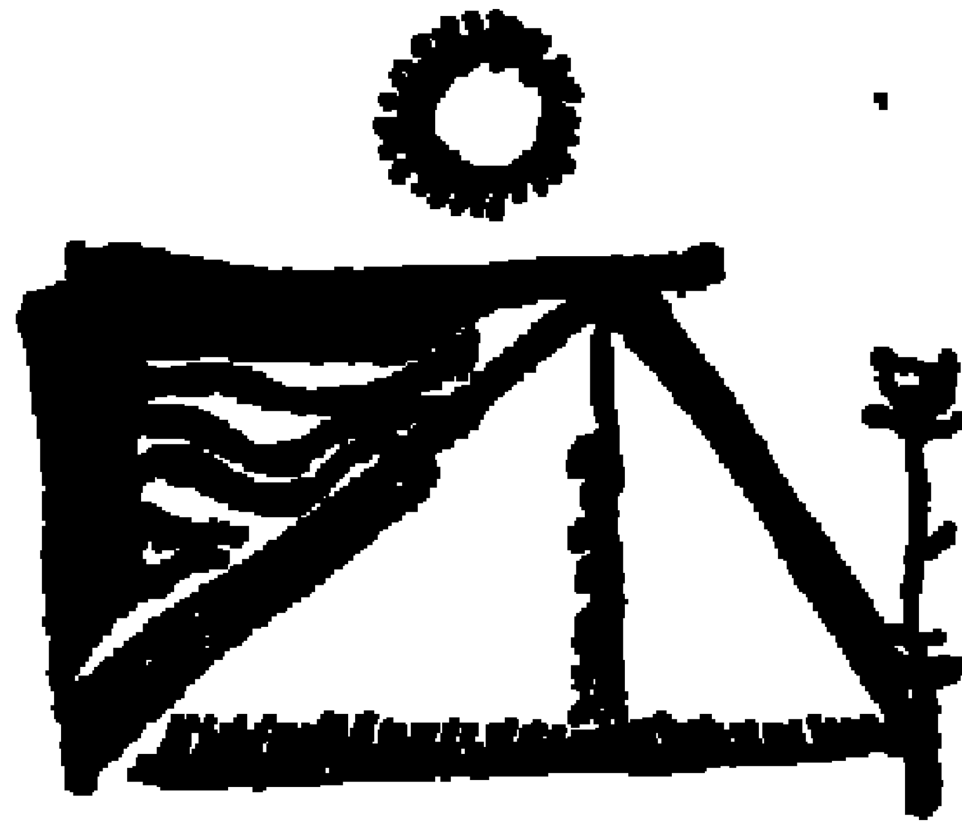
ما أعجب ما وضعت الحياة من نظم تصدق على الإنسان كما تصدق على الحمار. فلابد من هدف يتراءى ويخبو حتى نظل عبيداً له وللحياة . تشقينا ، وتكد منا الجسد والعقل والفهم ثم لاتشبع ولانشبع . من منا قال ، وهو فى رحلة الحياة : « إلى هنا يجب أن أستريح ؟ » من منا سعى إلى الثروة فنالها فقال : لم أصبح فى حاجة إلى مزيد؟ من منا تخلف عن السعى لأنه بلغ نهاية الشوط ؟

ولكن هل فى الحياة شوط له نهاية ؟ إننا كلما بلغنا ما نعده نهاية ،

بدأ الشوط جديد ، فنظل عبيداً أبداً لشهواتنا ومطامعنا وآمالنا كاذبة أم صادقة ، أمينه أم خادعة ، سعيدة أم شقية؟. إن بلغنا السعادة بحثنا عن الشقاء ، إن استراح كل منا عند نهاية الشوط ولم يبدأ شوطاً جديداً كانت نهاية الشوط نهايته ، وليس منا من يحب أن يموت .

إن آية الحياة الكبرى فى هذا البرق الخادع ، نظل نحسبه حقيقة فتمتلئ الدنيا حركة وسعياً ، إخفاقاً ونجاحاً ، دموعاً وابتساماً ، رضاً وغضباً ، حزناً وفرحاً ، أملا ويأساً .

هذه هى الدنيا لابد أن نكون فيها حميراً ، حتى تظل مملوءة بهذا الضجيج ، وإلا لو كنا أذكياء واستراح كل منا إلى ما بلغ ، فكيف تكون الحياة ؟ بل كيف تسير؟ هل تتوقف ؟ هل تنتهى ؟ كلا . ليس من سنتها أن تقف ، ولن نرضى أن نموت !



## ماذا نحن !

كان المساء عذباً رقيقاً ، تهب أنسامه كأنها المنى . . . وطريق المعادى يحف به النهر والجبل والزرع ، يصل ما بينها وبين المدينة الصاخبة اللاهثة المائجة بالخلائق كأنهم فى يوم الحشر ، سباق لا ينتهى ، ولهفة لا يردها مال ولا شهوة ولا مجد . .

ترى هل وقف أحد أو تخلف لأنه بلغ ما يريد ؟! . . كلا . . . إنه يطلب المزيد . . يأتيه المال فيسأل عن الشهرة ، وتأتيه الشهرة فيسأل عن الهناءة ، وتأتيه الهناءة فيسأل عن الشقاء . . . ما أعجب الإنسان ! يكون فى دفء الحنان فيخرج إلى زمهرير الشتاء . . يكون فى أمن فيسأل عن المخاوف بل يسعى إليها . هذه هى الحياة ، لابد أن تختلط فيها قطرات الدمع ببسمات الهناء ، لا بد أن يسيل نهر الشقاء جنباً إلى جنب فى أرض المودة والصفاء .

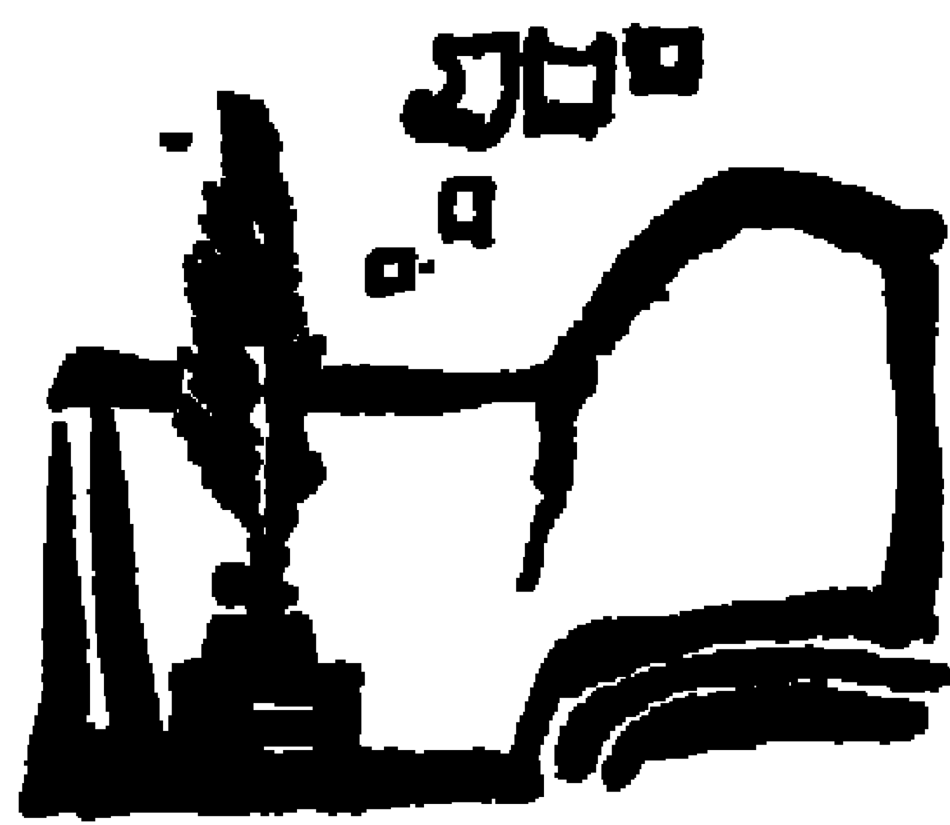
ونحن ، ما أشد حيرتنا ! إذا سرنا فى الشقة الحرام بين الهناء والشقاء كانت حياتنا بغير طعم ، وأيامنا بلا أمل ، ودفؤنا بلا حنان . . فإذا أردنا أن نذوق ما فى الدنيا من هناء كأنه الخلد ، كان لا بد أن نذوق ما فيها من حرمان كأنه العلقم . قسمة عادلة ، بقدر ما تسرى فى قلوبنا أمواج الهناء ، تفرى أكبادنا مرارة الحرمان !

تباركت ربى ! . . . ما أعظم ما صنعت ! . . . فى دقائق كنت فى المعادى فى هذه البقعة الهادئة الهانئة ، والنهر العظيم الجميل يبسط صفحته الرائعة الوادعة . . . وأهرام خوفو وخفرع تبدو فى الأفق قباباً هائلة تجمع التاريخ وتطوى السنين كأن لم تتحرك الدنيا . ماذا تروى هذه الشواهد الخالدة خلود الدهر ؟ ما الزمن ؟ ما الأمل ؟ ما المجد ؟

ما المال ؟ ما الهناء ؟ ما الدنيا كلها ؟ ما هذه الأباطيل التى نسعى إليها ونفنى أيامنا فى سبيلها ، ونذرف دموعنا لوعة وراءها ؟ أعمارنا التى ذهبت ماذا تركت لنا ؟ هناءتنا التى ولت ماذا بقى منها ؟ شقاؤنا الذى شربنا كأسه ألم تطو صفحته الأيام ؟ . . . ثم ماذا نحن فى آخر المطاف ؟ . . . لعب صغيرة يتلهى بها القدر ، يملؤنا غروراً حتى إذا حسبنا المجد فى أيدينا تركنا نهوى إلى غير قرار .

سراب نتبعه لاهثين مجهدين مكدودين ، كلما بلغنا غاية واسترحنا لحظة ، ضاقت بنا الآمال ، وحملنا عصانا واستأنفنا المسير . . .

المسير . . . المسير . . . إلى أية غاية ؟ لن نبلغ شيئاً ! . . إن لغز الحياة أن تظل أبداً تغرينا لنظل أبداً عبيداً لها ، فتعمر وتقوى وتمتلئ علماً وحضارة وفناً ومتعة ولهواً . . أما نحن ! ماذا نحن ؟ . . أدوات هذا كله . . وا أسفاه . أى مصير لنا ؟



# الطول أم العرض ؟

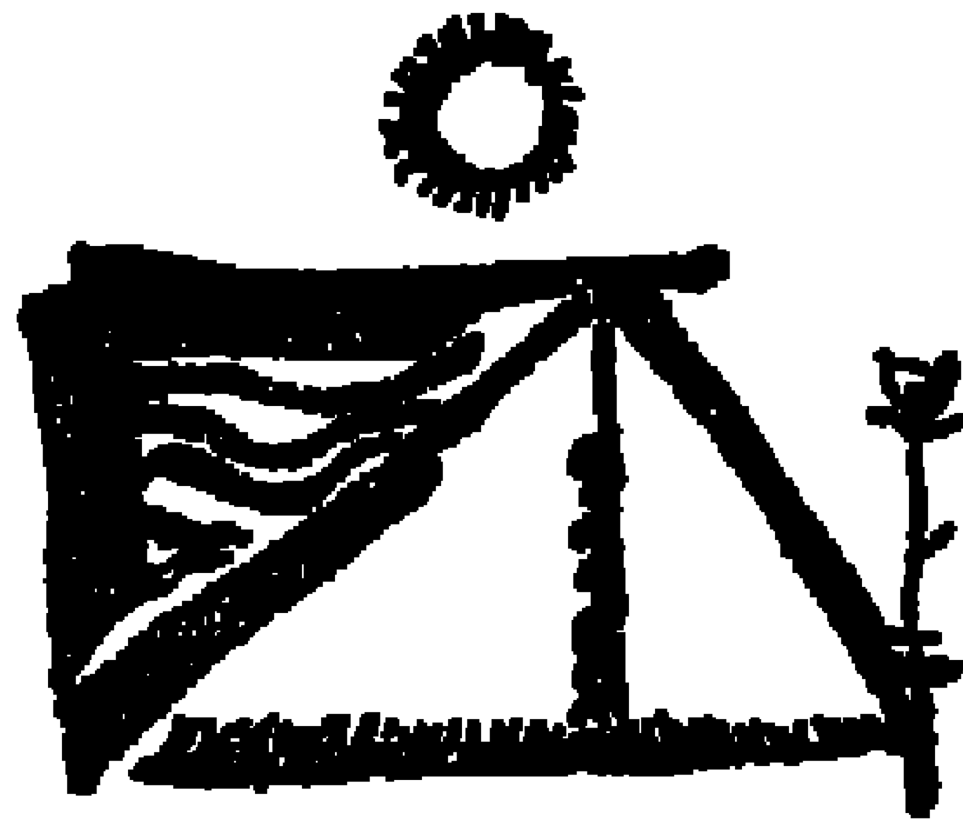
أبعدد السنوات التى عشتها تقاس الحياة أم بالآمال التى حققتها؟ . . . أتقاس بالحرمان الذى فرضته الظروف عليك . أم تقاس بالانطلاق من القيود والاندفاع فى الشهوات ؟ وهل الحياة التى تمر رتيبة هادئة ليس فيها هزات أفضل،أو الحياة المملوءة بالمخاطر التى ترتفع معها وتنخفض؟.. وفى عبارة موجزة ، أمن الخير لك أن تعيش عمراً طويلا ، أيامه متكررة ، سقيمة ، هادئة لاتحمل إليك جديداً من سلام أو قلق ، أم الخير أن تعيش فى موج مصطخب ، تصارع الحوادث وتصارعك الحوادث ، تنتصر مرة فإذا أنت فى القمة ، وتخفق مرة فإذا أنت فى القاع ؟

بعض الناس يؤثر السلامة والهدوء . يقنع بعمل منتظم مضمون ، أو قل أكثر الناس يفعلون ذلك ؛ تستطيع أن تمر بماضيهم فى لمحة ، لأنه ليس إلا يوماً واحداً تكرر عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة ، لايكاد يتغير برنامجهم . يخافون البرد والحر والمرض ، ويحسون الخطر على بعد أميال فيغيرون طريقهم ويجعلونه أبعد عن الخطر بعشرات الأميال . . يمسكون ورقة ويكادون يحسبون مستقبلهم حساباً دقيقاً . لأنه سيمر حتماً على نسق ماضيهم ، بعد سنة هناك علاوة ، بعد سنتين سيتخرج ابنه ويوظف . بعد ثلاث سنوات ستتزوج ابنته شابًّا ابن حلال . . سيكون معاشه عشرين أو ثلاثين أوخمسين جنيهاً مضافاً إليها إيراد قطعة أرض أوعمارة سكن ، يستطيع أن يأوى فى شيخوخته إلى هدوء أكثر ، ويقبل يده ظهراً لبطن ، ويشكر لله أن منحه العمر الطويل ، أو يرجوه أن يمنحه العمرالطويل .

وبعض الناس يؤثر حياة المخاطرة ، يحس الطمأنينة فيهرب منها

إلى القلق . . . ويجد عملا منظماً فيه عشرون جنيهاً كل شهر ، فيضيق به ويتركه إلى عمل كله مخاطر ، ولكنه إذا نجح منحه مائة ومائتين وربما ألفاً . . . إنه يفكر بعقلية الموج الذى يصطدم بصخور الشاطئ لكي يفتتها ، إنه يبحث عن المخاطر وعن المجهول الذى لايعرفه أحد ، ويترك الحياة المنظمة الرتيبة للملايين ، لعشرات الملايين ، ويعيش مع القلائل أمثاله ممن يحبون المخاطر ويخلقونها خلقاً . الذين يؤثرون أن يعيشوا عمراً قصيراً عريضاً بدل أن يعيشوا عمراً طويلا لاعرض له .

هذا الفريق القليل الصغير هو الفريق الذى يدفع الحياة إلى الأمام ويثير فيها الحركة والنبض ، هو الذى يخلق ويبدع وينشئ الثروة . ويخترع ويسعى إلى المجهول كي يعرفه ، ثم يجعل الآخرين ، الملايين المتكررين ، يعرفونه . . . العالم كله يعيش على جهدهم ومع ذلك فما أقل الثمن الذى يدفعه لهم .



# خليها على الله !

« خليها على الله » ! . . أحب أن تلغى هذه الكلمة من قاموس حياتنا ، إنها دليل العجز والتواكل والفهم الخاطئ للإيمان . نحن شعب صغير فقير متواكل . والصفة الأخيرة هي الكارثة التي تفتت قوانا وتضعف بصيرتنا ، وتجعل حياتنا سلسلة من الأخطاء والفشل والإخفاق .

أعجبني عالم من الجزائر ، رجل من رجال الدين هناك ، بل كبير رجال الدين ، قال إن الله ليس مستعداً أن يغير نواميس الكون من أجلنا ونحن — وهو يعني الشعوب الإسلامية — شعوب متواكلة متكاسلة ، ونعتقد أن مجرد ترداد عبارات العبادة والصلاة على النبي كفيلة بقضاء الحاجات .

وهذا الكلام صحيح ، يجب أن نكف عن الخرافة التي تقول لنا إن الدعاء بغير عمل يمكن أن يؤدى إلى تقدم فى حياتنا كأفراد أوشعوب أو دول . . إن هناك عشرات الألوف ، بل عشرات الملايين فى الشعوب الإسلامية لا تزال تعتقد فى الأحجبة والآيات القرآنية التى تكتب عشرات أو مئات المرات على ورق أصفر كريه أو فى دائرة أو مستطيل يكفى حملها لكى يقى من المكروه أو يجلب الخير .

إننا شعوب تعيش فى خرافات وتعتمد على خرافات ، وتنسى حقيقة الدين الذى ندعى أننا أتباعه وحماته . هذا الدين الذى يجعل العمل قاعدة الحياة وأساس العبادة ، فنترك الحياة وأساسها لنتعلق بأوهام ونعتقد أن مجرد تلاوة أدعية أو أوراد أو عبارات ملفقة من هنا وهناك كفيل بإبادة الكفار ، وقضاء الحاجات ، وتحويل التراب إلى ذهب!

أجل ؛ فقد عرفت بعض العلماء من المسلمين يزعمون للناس أنهم مستطيعون أن يحولوا النحاس إلى ذهب بأدعية من القرآن . . والقرآن برىء منهم إلى يوم الدين !

# أعياد واحدة للعالم

تصورت الحياة من غير أعياد ، عملا متصلا بالليل والنهار ، خيطاً غير منقطع ، كداً ونصباً ليس فيها نفس هادئ ولاقلب ساكن ، ولاعين وادعة ، وأحسست كم تصبح ثقيلة ، سقيمة ، أشبه بالصحراء التى لا واحة فيها .

وقبل أن تفرض الأديان السماوية الأعياد فرضتها العبادات الوثنية ، وفرضتها جماعات الإنسان الأولى فى عهد الغابة والقبيلة ، ولو لم تفرضها الأديان والوثنيات لفرضتها طبيعة الحياة . وليس يوم العيد فى ذاته يوماً يمتاز عن بقية الأيام من حيث إنه شمس تطلع وتغيب ، وليل يجئ ويذهب : فامتيازه يجئ من النفسية التى تستقبله بها فإذا شمسه غير شمس بقية الأيام ، وإذا ليله فيه بهاء وسناء ليس لبقية الليالى مثلها .

ومن هنا كانت النفس الإنسانية أقوى ما فى تركيبنا ، وكانت قلوبنا إشعاع السعادة والشقاء ، ومصدر الهدوء والقلق . وربما كان العيد بتجاوبه مع نفوسنا وقلوبنا يفسر ما يقوله البعض من أنه كان عيداً تعساً أو سعيداً بالنسبة لهم . وقد حلم الكثيرون من الإنسانيين بأن تكون للشعوب والأجناس والأقوام أعياد واحدة ، وهذا يبدو حتى الآن حلماً بعيداً ، فلا تزال لكل طائفة ، ولكل جنس وشعب وإقليم وقرية ومنطقة أعيادها الخاصة بها ، وقد تكون رمزاً لاختصاصها دون الآخرين بميزات أو صفات ، وقد تكون رمزاً للعداء أو الاستعلاء أو الانعزال عن بقية الشعوب والأجناس بعقيدة معينة أو انطباعات خاصة . ومهما يكن الرأى فى الأعياد ، فإنها بصفة عامة تقلل من ضراوة الإنسان وترده إلى سلوك من المحبة والخير ، إن لم يكن بالنسبة للجنس

البشرى عامة فعلى الأقل بالنسبة لجزء من هذا الجنس محدود بإقليم أوعقيدة أواشتراك فى تاريخ أو أمل أو ألم .

وتعد الأعياد الإسلامية أعياداً من الإخاء والمحبة والتعاون بالنسبة لجميع المسلمين أيًّا كانت بلادهم التى يسكنونها وجنسياتهم التى ينتمون إليها . ومن هنا كان المبدأ الذى قررته الشريعة الإسلامية عن « دار الإسلام » بحسبانها قومية وجنسية وأرضاً تعاوفيها أحكامها ويتعاطف أهلها ويتعاونون . وموسم الحج حيث يجتمع المسلمون من كل بلد قصد، فيما قصد من حكمته ، أن يكون مناسبة لهذا التعاون والتعاطف.



## من كان يعرف ؟

من كان يعرف مصير الدعوة المحمدية ، والنبي الكريم وصاحبه يسعيان من مكة إلى المدينة يلتمسان وجه الله وفتحه المبين ؟ . .

من كان يعرف أن هذا الحادث الجديد سيصبح فى تاريخ البشرية أحد معالم الطريق ، بل أعظم معالمه ، يهدى إلى الخير والنور والمحبة والإيثار؟ . .

إن كل الكتاب الأجانب الذين أرخوا للدعوة المحمدية، أوتناولوها بالبحث والتعليق ، قد أجمعوا على أن الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة كانت نقطة تحول خطيرة فى مصير الدعوة ، وأنها دفعت بها دفعاً إلى الذيوع والانتشار .

ومع استثناء فريق من المتعصبين أو المغرضين ، أجمع المفكرون الأجانب على أن الإسلام بث فى العالم أعظم دعوة للتحرر ، وأطلق الفكر الإنسانى من قيود الخرافات والتضليل التى كبله بها الحكام المستبدون وبطانتهم خلال القرون الوسطى .

وقد أخطأ بعض من كتبوا عن الدعوة الإسلامية ، فقالوا إنها لم تنتشر بالإيمان ولكن انتشرت بالسيف . ومفاد هذا الادعاء ، لو كان صحيحاً ، أن يرتد عنها الناس متى زالت عن الإسلام قوة السيف . وقد تدهورت الدول الإسلامية منذ أمد طويل ، وأضحت من هذه الناحية أضعف من كل ماجاورها من دول وقوات وأصحاب سلطان ، فهل ترك أحد ممن آمن بالإسلام عقيدته ، أو استمسك بها وذاد عنها شر القوة والعدوان ؟ . .

ندع للحوادث والتاريخ الجواب ، وحوادث التاريخ القديم والحديث

تؤكد أن المسلمين فى كل قطر ومصر صمدوا للدفاع عن عقيدتهم بما لم يصمد أحد فى الدفاع عن عقيدته . وقد ارتدت عن الإسلام كل الموجات العاتية ، وكان إيمان أهله به أشد من كل ماتعرضوا له من ضعف وهوان .

وأكثر الكتاب الغربيين يشهدون أن الحركات القومية للتحرر وطلب الاستقلال التى سادت الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث إنما تستند فى أعمق أعماقها إلى الإيمان الدينى أكثر مما تستند إلى الفهم السياسى . وأن أية حركة فى أية بقعة من بقاع العالم الإسلامى سرعان ما يتجاوب صداها فى كل بقاع هذا العالم ، وأن الإسلام رابطة أشد تأثيراً فى نفوس أهله من رابطة الدم والجوار والوطن واتحاد المصالح .

والواقع أن الإسلام قضى على العصبيات القبلية والعائلية والوطنية ، وأحل محلها عصبية الدين نفسه بحسبانه قواعد للسلوك والخلق والحكم القائم على الشورى ورعاية الحرية للأفراد . وإذا كانت هذه القواعد قد ضعفت فى بعض مراحل التاريخ الإسلامى فإنها لم تفقد جذورها قط ولا تزال وستظل أبداً ، تطبع تاريخ هذه الدعوة التى نقلت البشرية من حال إلى حال .

# كل شيء بمقياس

أيهما تطيع ؟ قلبك أم عقلك ؟ وهل فكرت فى الصراع المستمر القائم بينهما ؟ إنه صراع موجود فى كل وقت وفى كل لحظة ، وهو موجود فى كل إنسان . وإقامة التوازن بينهما هو سر السعادة ، والانحراف إلى واحد دون الآخر هو سر الشقاء .

عرفت صديقاً آمن بأن الحياة هى حياة العاطفة ، وانساق معها دون وعى أو تفكير . أحب وأبغض ، امتلأ بالحقد ، وساير شهواته ، فأنفق سنوات من عمره يدبر للكيد والانتقام. لم يعرف طريق العقل . وانساق وراء نزواته ، فبدد بعض ثروته وخسر أصدقاءه ؛ وأصبح يقضى عمره فى حسرة العاطفة دون رضاء العقل واتزانه . وهو حتى اليوم يرفض أن يسمع لهدوء التفكير ، ويؤثر عليه ضجيج العاطفة . وهو يقول إن العقل موت والعاطفة انطلاق . وأنا أكره أن أموت قبل الأوان ، فما دام الجسد ينبض ، فإن نبضه عندى اختلاج العاطفة ولا شىء غيرها !

وعرفت صديقاً آخر ، كل شىء عنده بمقياس . الحب ليس إلا علم التشريح . يبدأ نزوة وينتهى كارثة . العقل يقول إنه لا يوجد . علماء النفس يحددون موجاته واندفاعاته .القلب عنده وعاء . انفعالاته تقاس ، ونبضاته كل منها بميزان . والإسراف فى النبض يضعفه .

ويريك رسماً تشريحيًّا للقلب ، ويقول : انظر ، إذا غضبت كيف يستجيب القلب ، وإذا خنت كيف يستجيب ، وإذا حقدت وكتمت كيف ينقبض وينبسط ؟ . . . من الخير ألا تفعل شيئاً من هذا كله ، لأنه يحسب من عمر قلبك ، أعنى من عمرك !

٨٩

كلاهما مخطئ . كلاهما يعيش من الحياة نصفها . فلا جفاف العقل يمنح السعادة ، ولا اندفاع العاطفة يمنح السعادة . إنما تسير الحياة متوازنة إذا رَطَّبت العاطفة جفاف العقل ، ووزن العقل اندفاع العاطفة .



## هل هي موهبة !

القراءة متعة لن يغني عنها شيء ، والذين يهتدون إليها لايشبعون منها . وقد عرفت من الناس من لايطيق فتح كتاب ، وعرفت منهم من لايطيق ترك الكتاب حتى يأتي على آخره .

الأول أصم ذو سطح أملس لايتجاوب مع الحياة ، ولا تتجاوب معه الحياة ، يمر به العمر وهو لايتقدم ولايتطور . والثاني متوهج متفتح ، يثري حياته بالمعرفة ، ويدرك معنى التطور ، ويسير مع الحياة في سباق ، لايتخلف عنها وقد يسبقها بالفهم والتنبؤ بما سيكون .

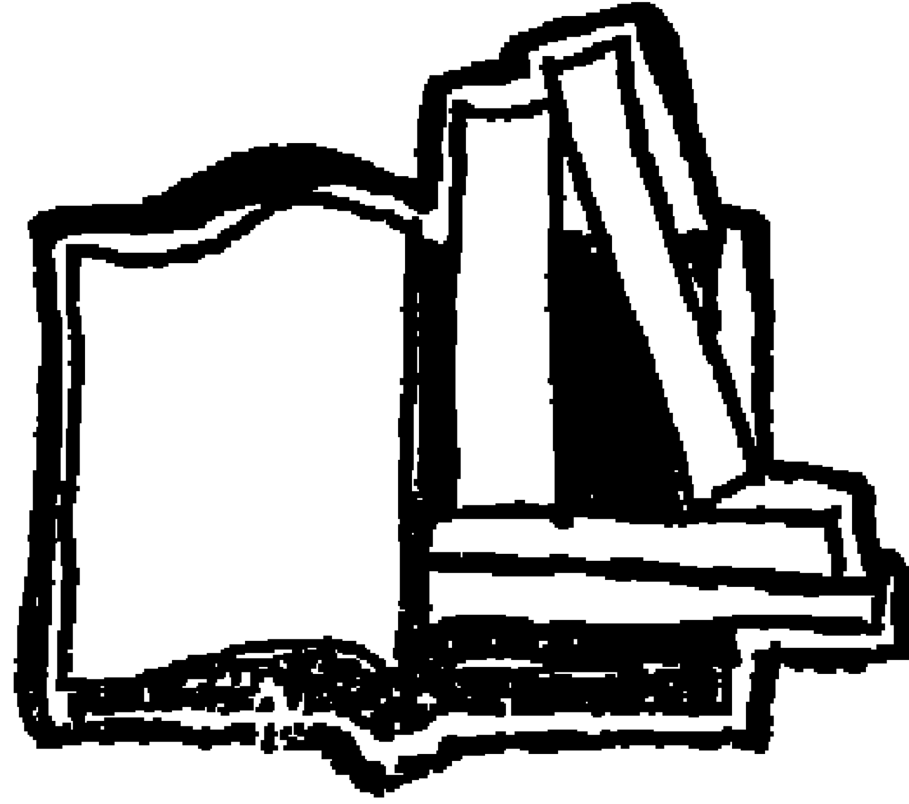
وقد سألني بعض الناس تفسير هذا التناقض بين اثنين كل منهما قادر على القراءة ، أحدهما يلتهمها والثاني لايطيقها . هل هي هبة طبيعية أو مقدرة مكتسبة ، وإذا كانت هبة طبيعية فلا ذنب لمن ينفر من القراءة ، وإذا كانت مقدرة مكتسبة فما هي الطريقة لتنميتها واكتسابها ؟

أما أن حب القراءة هبة طبيعية فلا شك فيه ، فإن من الناس من يهيمون بالقراءة وحب المعرفة منذ الصبا الباكر جداً ، ولا يكادون يتخاون عنها ، فيزيدهم العمر رغبة في الاقتحام والمعرفة . وقد قلت الاقتحام لأن المعرفة تتطلب في بعض الأحيان الاقتحام لما هو صعب من أنواعها ، وتحتاج إلى جهد ثقيل لايقبل عليه إلا ذوو الاستعداد الطبيعي .

أما أنه مقدرة يمكن أن تكتسب وتنمى فصحيح أيضاً . واكتسابها يكون بتغذية الرغبة في المعرفة والتشويق والتيسير . وشأنها شأن أي مقدرة مكتسبة ، ينبغي أن نبدأ بقراءة اليسير المسلي من الكتب والهين الخفيف

منها ، ثم نتدرج إلى ما هو أرق وأعمق ، وهكذا حتى تثبت العادة ، فإن القراءة عادة ، ومتى أدرك الإنسان لذتها وأحس بها لزمها طول عمره .

وما أحوجنا إلى القراءة ، أعنى إلى المعرفة ! وحينما أقول القراءة لا أعنى السطحى والهش منها الذى لايثبت ولايثير فى الذهن قضية أو فكرة ، ولكننى أعنى الجادّ منها الذى يحتاج إلى كد ومعاناة وتحريك مستمر للعقل .



## تغير الآراء

كنت أقلب أمس فى أوراقى القديمة . رجعت إلى آراء أبديتها منذ ١٥ سنة وقارنتها بما أعتنقه اليوم من آراء ، فلم أجد أنى تغيرت فى قليل أو كثير من حيث جوهر الآراء . قد يكون هناك تغير فى التفاصيل ، فى أساوب المحاجة والتدليل ، وربما كان ذلك راجعاً إلى نضج التجربة وطول الممارسة .

وساءلت نفسي : هل من الخير أن يثبت الإنسان على ما اعتنق من آراء وأفكار أولا بد أن يتطور بتطور الحوادث ووضوح عوامل جديدة ؟ وظاهر أنى لا أعنى هؤلاء الذين يبدلون الآراء كما يفعلون مع الملابس ، ولا هؤلاء المنافقين الذين يدورون مع الريح أينما دارت ، ولكننى أعنى الآراء التى ينفعل بها الإنسان ، ويصل إليها بعد دراسة وإنعام نظر . هل من الخير أن تتغير أو لابد لها من ثبات طويل ؟

والعدول عن الآراء ليس عيباً إذا جاء نتيجة الاهتداء إلى حجج جديدة يقتنع بها الإنسان ، وكانت خافية عليه . وقد يكون العدول نتيجة تغير المجتمع نفسه والإحساس بأن الرأى القديم بظروفه القديمة إن صح فيما مضى ، فإنه لم يعد صحيحاً مع التطور الحاصل .

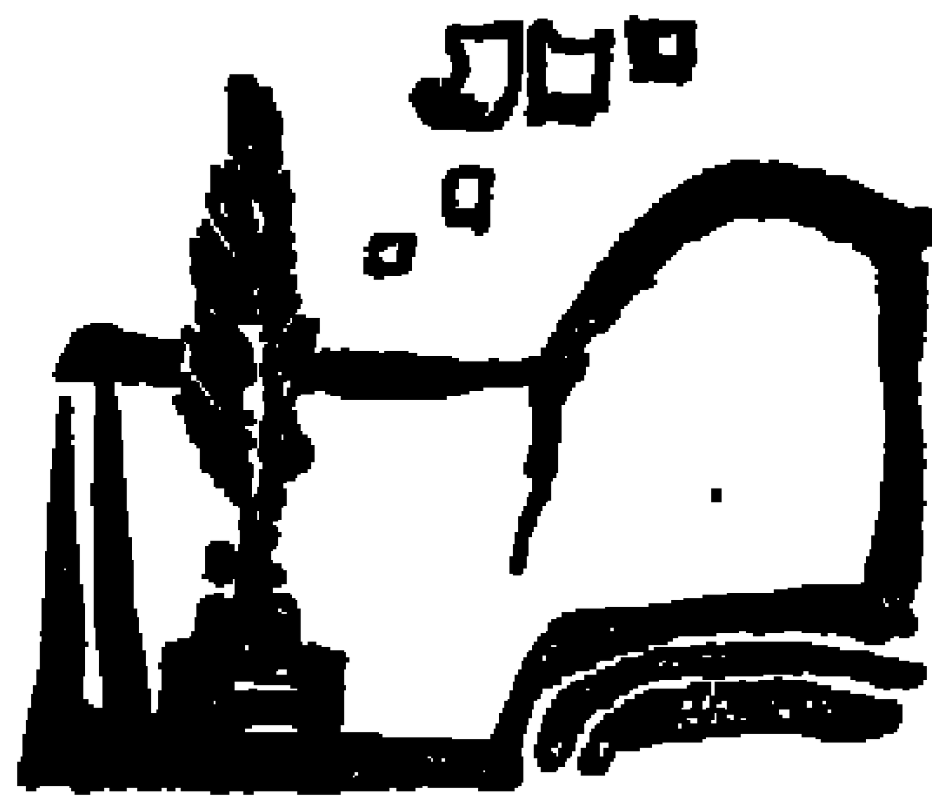
والنظريات الخلقية والاجتماعية والسياسية تتغير باستمرار ، لأنها دائبة الحركة . والثبات فيها — أعنى فى الجماعة والنظريات — غير متصور . ونحن نعرف أن لكل عصر من العصور مثلا وأفكاراً وتقاليد وانفعالات .

وقد ذاعت فى القرن التاسع عشر نظرية الحرية الفردية إلى حد أن الدولة كانت تذاد عن التدخل فى كل ما يخرج عن واجباتها

الرئيسية الثلاثة ، وهى رعاية العدل . وحفظ الأمن فى الداخل ، ودفع الغزو من الخارج . وكانت قاعدة النظرية أن النشاط الفردى هو أساس العمران ، وأن الفرد فى سعيه لتحقيق مصلحته الخاصة يسعى ضمناً لتحقيق مصلحة الجماعة .

واليوم يعد المتمسكون بهذا النظر متخلفين ، فالدولة فى مختلف بقاع العالم تتدخل فى كل شىء تقريباً ، وهى تدعى له . وتدفع عليه ، سواء من جانب الشعوب أو من جانب الجمهرة الغالبة من المفكرين .

وليس هذا إلا مثلا واحداً ، يمكن أن تساق إلى جانبه عشرات الأمثلة .



# الخيال والواقع

يؤكد الخبراء فى « مسائل العلاقات والمشاكل الزوجية » أن الخيالات التى يضفيها كل من العروسين على الزواج فى الفترة السابقة عليه ، هى السبب الأكبر فيما يحدث بعد ذلك من تعاسة ومتاعب ، تؤدى فى كثير من الأحيان إلى الطلاق .

ويحسب كثير من الشباب أن الحب عصاً سحرية تستطيع أن تتخطى العقبات ، فالفوارق فى السن والثروة والثقافة والعقلية لاقيمة لها ، ما دام الحب ينشر جناحين الرقيقين .

ولكن واقع الحياة شيء آخر غيرخيالات الحب . والزواج واقع ، وواقع مر فى كثير من الأحيان ، لأنه تعاون على مواجهة الحياة . وليس القدر خادماً لنا فى كل الأوقات .

والحب ينبوع للقوة والسعادة . ولكنه فى الزواج ينبغى أن يكتسى شيئاً كثيراً من الواقع ، وإلا أضحى عبثاً . لأن مقارنة الخيال الجميل بالواقع ، أو محاولة نقل الواقع إلى عالم الخيال ، كلاهما مطلب مستحيل .

والواقع أن الحب الخيالى يفسد الزواج فى كثير من الأحيان إن لم يكن فى كل الأحيان . والزواج يتطلب حباً واعياً ، أعمق من الخيال ، وأكثر اتصالا بالعقل . والحب الخيالى امتلاك ولهفة ، وتكريس وتضحية ، وافتراق ولقاء ، وفيض من السعادة وجحيم من العذاب ، وتطبيقه فى الزواج متعذر . فالامتلاك مع العشرة الطويلة المستمرة عبودية . واللهفة تخمد مع طول الوقت . وعبارات الحب تنضب أو تفقد بهاءها مع التكرار الممل . والعيوب تظهر ، والأولاد والبيت والمعيشة سبب للخلاف حول



أشياء مادية صغيرة تافهة ، أو سبب للاتفاق ، فالأمران سيان ، وكلاهما بعيد عن خيال الهناءة والضنى وأغاريد القلب النابض المتوله .

وربما كان الرجل أكثر واقعية من المرأة . فقلبها يأسرها وعواطفها تسيطر عليها ، وأحلام اليقظة تكاد تكون خبزها اليومى . والرجل تشغله أعماله وجهاده من أجل الرزق ، والزوجان الفاهمان هما اللذان يستطيعان أن يقترب كل منهما من صاحبه ، فالرجل الواقعى ينبغى أن يكون خيالياً فى بعض الأوقات ، والمرأة الخيالية يجب أن تكون واقعية فى بعض الأوقات .

والخيال إذا طال أضحى ثقيلا ، والواقعية إذا طالت أضحت مرة ، والطبيعة تعطينا المثل على ما ينبغى أن يكون ؛ فما أجملها فى الليل الساكن الموحى بأعذب الأحلام ، وكم هى واقعية إذا ارتفع النهار ، وانطلقت العصافير من أوكارها تسأل ربها رزقها !



## سر الشرارة

ما هى الشرارة التى تقدح الفكر فتلهمه ؟ هل هى الحب ؟ هل هى التجربة ؟ هل هى النظر الصافى العميق ؟ هل هى الدراسة والقراءة ؟ هل هى لمسة علوية من قوة غير منظورة تصطفى من تصطفى لكى يحمل رسالتها ؟

إنها شرارة من القلب والعقل والوجدان تلك التى أضاءت فى كل مكان من العالم ، شرارة صغيرة هبطت على قلب أو عقل أو وجدان ، فإذا به يخلق فنًّا أو علماً أو اختراعاً أو رسالة علوية للإيمان والدين .

ما سر هذه الشرارة ؟ هل تختار أنبياءها ورسلها ، أو أنها تنطلق دون اختيار ، يلتقطها من يلتقطها ، وتستجيب للقلب المتفتح ، أو للعقل الواعى ، أو للوجدان الذى وهب السعة والعمق ؟

ليس العلم شرطاً ، وليس الحب ولا غيره من العواطف هو الذى يلهم ويستجيب ، ولكنه الصفاء المطلق والنظر الذى لا تحده حدود ، ولا تقف دونه سدود . ومن هنا جاءت أعظم الرسالات فى الأدب والفن والدين ، وربما فى العلم والاختراع ، حيث كانت أصفى العقول والقلوب والوجدانات ، دون أن تكون أغناها أو أكثرها علماً وسلطاناً .

وما من إنسان هبطت عليه رسالة من هذه الرسالات إلا كان إنساناً بخلقه وطبعه ووجدانه . فإن الطبيعة لا تمنح أسرارها إلا من كان كفاءها طيبة وحبًّا وإيماناً .

فإذا رأيت إنساناً لا يصفو فى عواطفه وملكاته وما حصل من علم ومعرفة ، فاعلم أنه أبعد ما يكون عن الشرارة التى تجعله خالقاً مبدعاً . قد يغتنى ، قد يجمع مالاً ، قد يصبح له فى الدنيا سلطان ومجد ، ولكنه لن يبلغ

مرتبة الخالدين.. لن يبلغ من قلوب الناس ما فيها من حب وخير وانعطاف .

والزعماء الذين كسبوا الحب ، وألهبوا عواطف شعوبهم ، وعاشوا فيها عبر السنين والقرون ، لم يوهبوا هذا كله إلا لأنهم أحبوا شعوبهم حقًّا ، وسرى من قلوبهم تيار التقى بالملايين ، فإذا بهم يأخذون ويعطون . وإذا الشرارة التى جمعت القلوب على حبهم تنبع من قلب عرف الصفاء والحب .

هذا هو سر الزعامة وهذا هو سر الحب . إنه شيء غير منظور ولا مفهوم ولكنه موجود .



# أحسن وقت للقراءة

ما هو أحسن وقت للقراءة ؟ هل هو الوقت الذى تخلو فيه من المشاغل والهموم؟ أو أنك تستعين بالقراءة على الهروب من المشاغل والهموم؟

بعض الناس يقرءون لكى يجلبوا النوم . وبعضهم يقرءون لكى يستزيدوا من المعرفة ، وبعضهم لكى يتسلوا . وبعضهم لايقرأ أبداً . ولا أعنى بالقراءة قراءة الصحف ولكن قراءة الكتب .

والقراءة الصحيحة هى قراءة التأمل والوعى . وقد اعتدت أن أسمع من أحد معارفى قوله فى وصف نفسه إنه يقرأ حتى لايستطيع أن يرفع يده أويفتح جفنه . وأكد لى أنه قرأ كل شىء تقريباً . ما من كتاب وقع فى يده إلا أتى على آخره وهو يقرأ فى كل الفروع والعلوم ، فى الأدب السياسة والاقتصاد والميكانيكا وقيادة السيارات وتربية الدواجن .

ويسألنى : ماذا أفدت من كل هذا الجهد ؟

وأجيبه : أى فائدة تقصد ؟

فيقول : أعنى الفائدة المادية ، ألا يؤكد كل الناس أن من تزيد معلوماته يزيد كسبه ؟

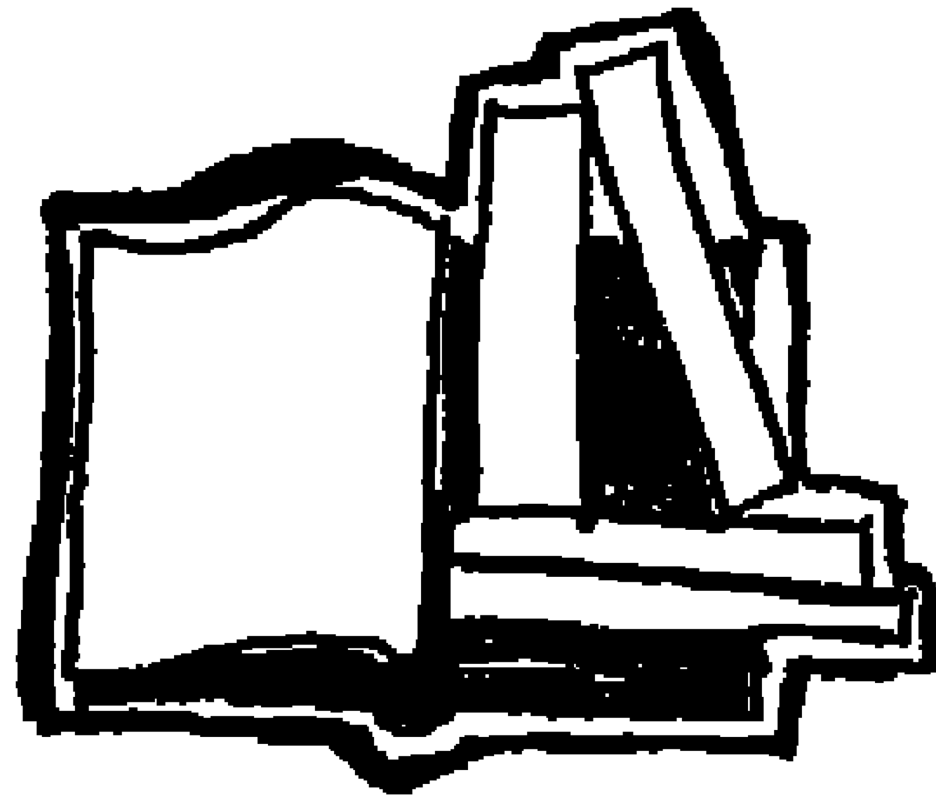
ترى هل يخطر ببال كل إنسان مثل هذا الخاطر ؟ وهل يضع نصب عينيه وهو يختار الكتاب الذى يقرؤه الفائدة التى تعود عليه فى عمله من قراءته ؟

إن هناك فرقاً بين القراءة للدراسة والقراءة للمتعة الذهنية والعاطفية . والنوع الثانى هو الذى يصنع الإنسان الذى لا يعنى بالمادة ولكن يعنى بالقلب والروح والعاطفة . أما النوع الأول فيصنع العالم الدارس الباحث وراء المادة .

وقد قال لى أحد الناس إنه يقرأ جرياً وراء الحقيقة . واستوضحته أى حقيقة يعنى ؟ فيقول حقيقة الكون ، حقيقة الوجود ، حقيقة الإنسان . وأقول له : ستنفق عمرك دون جدوى ؛ إن الحقيقة الوحيدة التى يجب أن نؤمن بها هى اللحظة التى نعيش فيها ، هى العمر الذى وهبناه . أنت موجود فأنت حى !

وقال لى آخر إنه يقرأ لكى يرتاح من متاعبه . وقد وجد فى القراءة لذة أنسته كل شىء . إنها أشبه بالمخدر . إنه مع الشعراء والكتاب والفنانين فى عالم من الأحلام والرؤى .

وقال ثالث : إن القراءة تسبب له الصداع . وخير أوقاته هى الأوقات التى ينام فيها . والنوم أحلام أيضاً .



# الأفكار لا تنتهى

سألنى أمس طالب فى معهد الصحافة : هل هناك بد من إيجاد فكرة كل يوم للكتابة فيها . وماذا لو عجز الكاتب عن خلق فكرة أو موضوع للكتابة ؟

قلت له : إن الأفكار لاتنتهى . والعقل . هذا الجوهر الصغير غير المنظور ، لايكف أبداً عن التدبر والتأمل . إن الحياة متجددة ونحن عنصر من عناصرها . ويوم نقف عن التفكير . نقف عن الكتابة ، بل تقف الحياة فينا — انظر ، منذ كم سنة اخترعت المطبعة ؟

قال : من أوائل القرن السادس عشر .

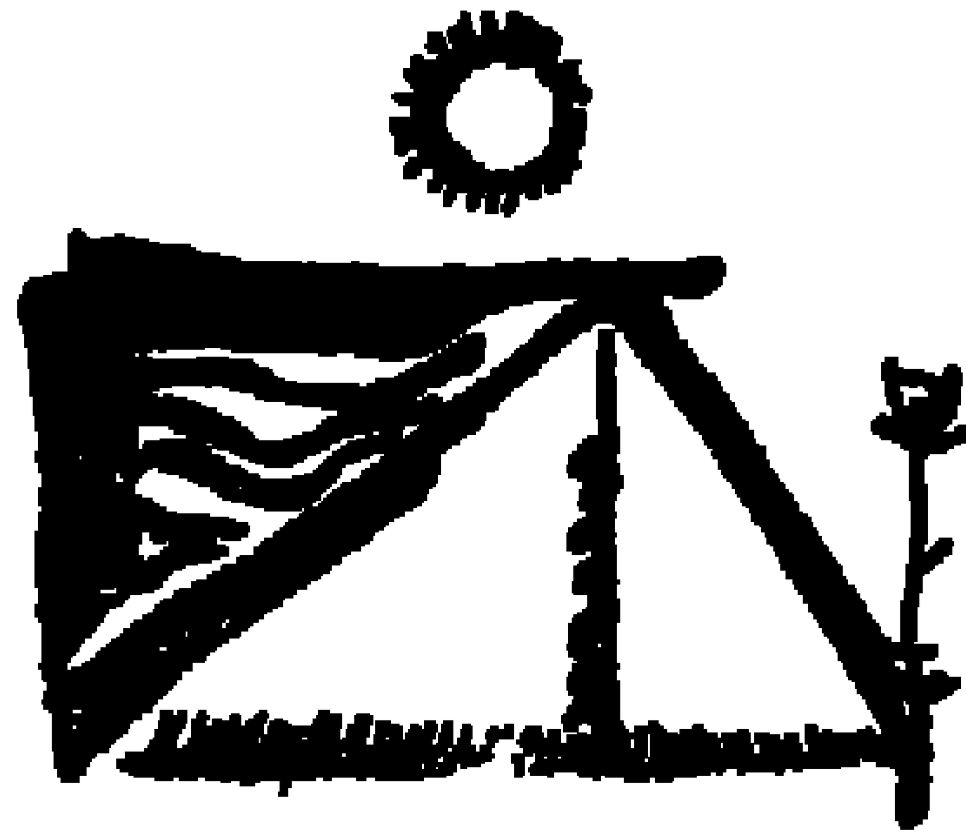
قلت : أعنى منذ نحو ٤٠٠ سنة ، فهل عرفت أن المطابع كفت يوماً عن النشر والطبع ؟ وقبل اختراع المطبعة ، كانت الكتب تنسخ بالخط وبالحروف الخشبية وبعشرات الوسائل البدائية . إن ما خلفته القرون لنا من ثروة فى الفكر والفهم والرأى لايمكن تقديره . وما تخرجه المطابع الحديثة فى سنة واحدة يزيد على ما كانت البشرية تنتجه فيما مضى فى قرن كامل من الزمان ، وإن المطبعة الحديثة ، كالصحافة الحديثة ، كل منهما تسوقنا لكى نفكر وننتج ونبدع . لا تترك لنا فرصة للراحة والسكون ، وكل هذا خير . إن الحياة حركة . وهى ليست حركة فى اليدين والقدمين والمعدة فحسب ، ولكنها أولا وقبل كل شىء حركة فى العقل والنفس والفكر والفؤاد .

هل يستطيع أحد أن يكف عن الأكل والشراب ؟ فلماذا تريده أن يكف عن التفكير وهو الحالة الأسمى للإنسان ؟

وعندما بدأت أشتغل فى الصحافة بدرت إلى خاطرى مثل هذه الفكرة .

قلت : هل يمكن أن أجد كل يوم موضوعاً ، وقد وجدت . أيقظت الفكرة فكرة ودفعت الموجة موجة ، وتحرك الذهن حتى لتتزاحم فيه عشرات الموضوعات والآراء ، كل منها تريد الظهور .

إن العقل تتفتح شهوته للتفكير ، تماماً كما تتفتح شهوة المعدة للطعام . إن التفكير غذاؤه وقوامه ، هو خبزه وحياته .



# شفاء النفاق

رأيت فى لبنان منافقين ، كنت أعرفهم بسيماهم . فإذا تحدثت إليهم ، تأكدت أن ظنى لم يخب ، وأن معرفتى أضحت يقيناً . هل هم أكثر من زملائهم فى مصر أو أقل ؟ لست أعرف . ومن يدرى لو طالت إقامتى فى لبنان واستطعت أن أحصيهم عدداً ماذا تكون النتيجة ؟

هل العلم يشفى من النفاق ؟ هل المال يعصم صاحبه منه ؟ ربما كان الجواب ، إذا احتكمنا إلى المنطق ، أن العلم والمال كلاهما ترياق ناجع ضد النفاق ، ولكن الواقع يقول غير هذا . . . وقد رأيت الصراحة والقول المبرأ من الهوى عند الجهال أو من لم يتح لهم حظ كبير من الثراء .

ما هو التفسير إذن ؟ لعل صاحب العلم يرى بذكائه أن النفاق أدنى أن يبلغ به مايشاء ، ولعل صاحب المال يرى النفاق وسيلة سهلة للاحتفاظ بما لديه من مال وللاستزادة منه إذا كان طامعاً فى مزيد ، وقلما يوجد صاحب مال لا يطمع فى مزيد .

وإذا عددنا من النفاق قول صاحب الدكان إنه يبيعك سلعته بأقل من سعرها لأنه أحس أنك أدنى إلى قلبه من كل من دخل دكانه أو لأنه شعر أنك إنسان محترم تستحق الإكرام ، فإننا نضع أصحاب الدكاكين جميعاً فى قائمة المنافقين . ولو عددنا من النفاق ترحيب الناس بعضهم بالبعض الآخر وتأكيدهم أن الشوق برح بهم ، وأن النوم طار من عيونهم إشفاقاً لما أصابك ، لما نجا أحد من مذمة النفاق .

ولكن هذا ليس نفاقاً ، إنه نوع من المجاملات التى لا بد منها .

وسواء أكان صحيحاً أم غير صحيح ، فلا ضرر منه، وقد تصدقه أولا تصدقه وهو على الحالين لن يؤذيك .

والنفاق الذى عنيته هو النفاق فى عالم الآراء ، ونفاق من عندهم قضاء الحاجات .



## إراحة العقول

هل جربت أن تتزاحم الأفكار فى خاطرك . . فلا تعرف أيها تقدم وأيها تؤخر ؟ . . هل جربت هذه الميوعة فى الذهن ، دون أن تعرف حدود فكرة من فكرة أو الخيط الفاصل بينهما ؟ . .

وهل جربت الجدب فى خواطرك وأفكارك ومعلوماتك وأمانيك ؟ . . هذه الحالة التى تكون فيها شبه يقظ وشبه نائم ، شبه إنسان يفكر وإنسان لاتفكير له ؟

إن العقل كالجسد يرهق ويركد ، ويضعف وينسى ويضطرب عليه الأمر إذا أصررت أن تكده وتقسره على أن يعمل . . خير وسيلة حينئذ أن تكفّ عن التفكير العقلى . . وتلجأ إلى التسلية الرقيقة التى لاتفكير فيها ولاتعقل . .

عرفت صديقاً اعتاد أن يريح ذهنه بعد السابعة مساء ، فلا يتخذ قراراً فى أى شىء ذى خطر ، وقد حاولت أن أصرفه عن هذه العادة فأبى أن يستمع إلى . . وكثيراً ما حاولت أن أدفعه إلى التفكير العميق بعد هذا الموعد ، فلم أفلح وغاية ما كان يقوله حينئذ : « دع هذا الموضوع إلى غد » .

وسألته : كيف يستطيع أن يكف نفسه عن التفكير العقلى بعد موعد معين ؟ . . هل العقل آلة تشتغل بالإذن والأمر ؟ . .

قال : إنى لاأكف عن التفكير لحظة ، ولكننى متى أقبل المساء وفرغت من أعمالى — وهى مرهقه كما تعرف — دفعت عن خاطرى كل تفكير أحس أنه يقتضينى جهداً عقليًّا ، واقتصرت على الأفكار

للسهلة المرحة التى لاتكلفنى عناء ، ولاتحتاج منى إلى إنعام نظر وتدبر . . فإذا عرضت لى مشكلة ولم تكن عاجلة نحيتها جانباً عن تفكيرى إلى أن يصبح الصباح ، وأكون قد استوفيت حظى من الراحة ، فأجد عقلى يجيبنى بأسرع مما أريد ، وأسلم مما أريد . . نحن نريح أجسادنا ، فلماذا لا نريح عقولنا ؟!



## الله صادق وعده

هل أحسست مرة أن الدنيا جميلة جمالا لاحد له؟ وهل أحسست مرة أخرى أنها ثقيلة لاتحتمل ، تعسة لاتطاق ؟

ما من أحد منا إلا أحس هذين الإحساسين . وما من أحد إلا غمرته السعادة حتى شعر أنها أكثر مما يطيق ، وشمله الشقاء حتى شعر أنه أكثر مما يحتمل ، ومع ذلك لاأكادأتحدث إلى أحد أو يتحدث أحد إلى ، إلا يشكو الحرمان الذى يعيش فيه ، وإلا يؤكد أن حظه أسوأ الحظوظ ، وما حمله القدر من بؤس وشقاء أضخم بكثير مما حمله لغيره من الناس! أترانا ننسى أمواج السعادة التى تمر بنا فى الحياة ، ولايرسب فى الخاطر إلا لمحات اليأس والألم والشقاء ؟

أترانا نعد السعادة حقًّا ونعد العناء الشذوذ ؟

أم ترانا لانعرف الشكوى إلا حين تظلم الأيام ، وينحرف القدر السعيد عن طريقنا ، فإذا أضاءت البهجة أيامنا لم نر أن نعترف بها أو نذكرها أو نحمد الله من أجلها ، لأننا نراها حقًّا نستمتع به ، ونراها القاعدة التى لاتحتاج إلى ذكر أو تعريف .

مرت هذه الخواطر بنفسى ، وأنا ألتقى فى إحدى ضواحى القاهرة برجل فقير ، بل معدم ، مشوه الخلقة ، ثقيل السمع ، ومع ذلك كان يتبسم ويبدو سعيداً ، قلت له :

إلى أين ؟

قال : أسعى وراء رزقى ، أولاد الحلال كثيرون

قلت : من غير وجهة ؟

قال : وهل يكون لمثلى وجهة ؟ هل لى عمل ؟ كلا . هل هناك أحد

ينتظرنى؟ كلا . هل لى أقارب ، زوجة وأولاد ؟ كلا . إننى أصلى باستمرار ، أسبح الله مالك الملك ، مانح الخير والشر القادر على كل شيء .

قلت : وأنت سعيد؟

قال : ولم لا أكون ؟ لقمة عيش صغيرة تكفينى . ركن فى شارع ، فى منعطف حارة ، فى مسجد ، فى زاوية ، فى بيت رجل كريم يؤوينى . . . وإنى لأنتظر أجلى قرير العين ، راضياً . أنا لست من أبناء الدنيا ، جزائى فى جنات الله وملكوته .

قلت : وهل للدنيا أبناء وللآخرة أبناء ؟

قال : انظر حولك . إن المحرومين فى هذه الدنيا هم عيال الله . إنه يمتحنهم بالصبر والحرمان ليفتح لهم يوم الدين ملكوت السموات . أليست قسمة عادلة ؟

قلت : عادلة ، ولكننى أراك سعيداً فى الدنيا وسعيداً بالآخرة .

قال : هكذا وعد الله عباده الصالحين ، والله صادق وعده !

# فى عقلك قوة جبارة

١٠ أصدق قول الفيلسوف الكندى « روبرت بيرنز » إن أكثر تعاسات الناس لايجىء من روح الشر والأذى أو من الحكومات الرديئة ، بقدر ما يجىء من حوادث المضايقات الصغيرة لسوء التفاهم البرىء الذى يقع بين بنى البشر .

. انظر إلى نفسك . تخرج من بيتك مبتهجاً راضياً ، على وفاق مع الناس ورغبة فى مصاحبتهم ومعاونتهم ، فإذا بحادث صغير يقلب تفكيرك وعقلك ويجعل منك إنساناً كارهاً الناس شديد الضيق بهم .

وقد يكون هذا الحادث الصغير مجرد كلمة آذت شعورك من أحد زملائك أو من رئيسك أو من مدير العمل الذى تشتغل فيه . وقد يكون حركة تافهة فيها معنى الاحتقار أو الاستهزاء أو التحدى ، وقد لايكون فيها شىء من هذا ، ولكنك فسرتها به .

إن هذه المضايقات الصغيرة تقلب حياتنا ، وتؤخر نجاحنا ، وتجعلنا نستنفد أعصابنا فى جهد لاطائل من ورائه . وقد نرد الحركة بمثلها ؛ والإيذاء بإيذاء مثله ، فنخرج من الصداقة الطبيعية إلى حيز جديد من الكراهة والبغضاء ، ثم من الانتقام والدس والوقيعة .

وإذا كنت لاتريد أن يؤذى أحد شعورك بكلمة أو حركة ، وأدركت ما يترتب عليها مما يفسد الحياة ويؤخر النجاح فيها ؛ فحاذر أنت أن تفعل شيئاً يؤذى شعور الآخرين .

إن الحياة أخذ وعطاء ، والنجاح مشاركة ، والعقل لا قيمة له ولو كان لامعاً عميقاً أصيلا ؛ إلا إذا اشترك مع عقول الآخرين وتعاون معهم . وامتياز العقل لايعنى أنه يستطيع أن يعمل منفرداً ، ولكن معناه أنه يستطيع أن يقود ، ولاتوجد قيادة إلا إذا وجد أتباع وأنصار .

وفى مثل الحياة المعقدة التى نعيشها . لانكاد نعدم فى كل وقت سبباً للإثارة والمضايقة . والذى ينجح بين هؤلاء الملايين ، عشرات ومئات الملايين من البشر ، هو الذى يستطيع أكثر من غيره أن يضبط شعوره ، ويحتفظ فى كل وقت بالسيطرة على ملكاته العقلية . سيحتاج إلى مجهود كبير قاس . ولكنه سيجنى ثمرة عظيمة . سيعيش أسعد وأصح وأطول عمراً وأعم فائدة لمن حوله من الناس .

ونحن نلتمس دائماً الأعذار لثوراتنا وحماقاتنا فنقول إنها الكرامة المجروحة أو الزراية لكفاياتنا أو تعمد الإهانة والتحقير لأشخاصنا ، وهى دفاع عن معان جميلة رائعة ، ولكن أجمل منها أن نحتفظ بالهدوء ونحن نواجهها . فلا ندعها تفسد تقديرنا السليم .



## صناعة الحياة

المصاعب هى الأشواك التى تنبت على جانبى النجاح . وأكثر الناس يحسبون أن الناجحين يشقون طريقهم بين الزهر والورود .

إن بريق النجاح يطرف عيونهم ، فلا تمتد إلى ما وراءه وإلى ما كان قبله من جهد ودمع وألم ؛ وإلى ما ينتظره أيضاً من جهد ودمع وألم .

إن الاحتفاظ بالنجاح أصعب ألف مرة من الارتقاء إليه . وكثيرون أغراهم النجاح فاستهتروا ، وظنوا أنه يكفى حينئذ أن يركنوا إلى الراحة والدعة ، ولكنهم سرعان ما انغمروا وارتفع عليهم آخرون لم يسكتوا ولم تسكرهم خمرة النجاح .

إن المصاعب تصنع الدرجات التى يضع عليها الرجل الواثق أقدامه . ووجودها ليس سبباً للتسليم والسكوت ، فلا يفعل ذلك إلا الذين لا يفهمون ما هى الحياة . إنها ليست أن تجنى وأنت قاعد . ولكن أن تدور حول الصخرة الواقفة فى الطريق تحاول أن تنفذ فى داخلها أو تفتتها أو تنحيها.

هذه هى صناعة الحياة ، صناعة الأحياء . ولولاها لكنا الآن نعيش فى الكهوف ، ونقتات بالعشب ؛ ونستعمل الحجر آنية للطعام !

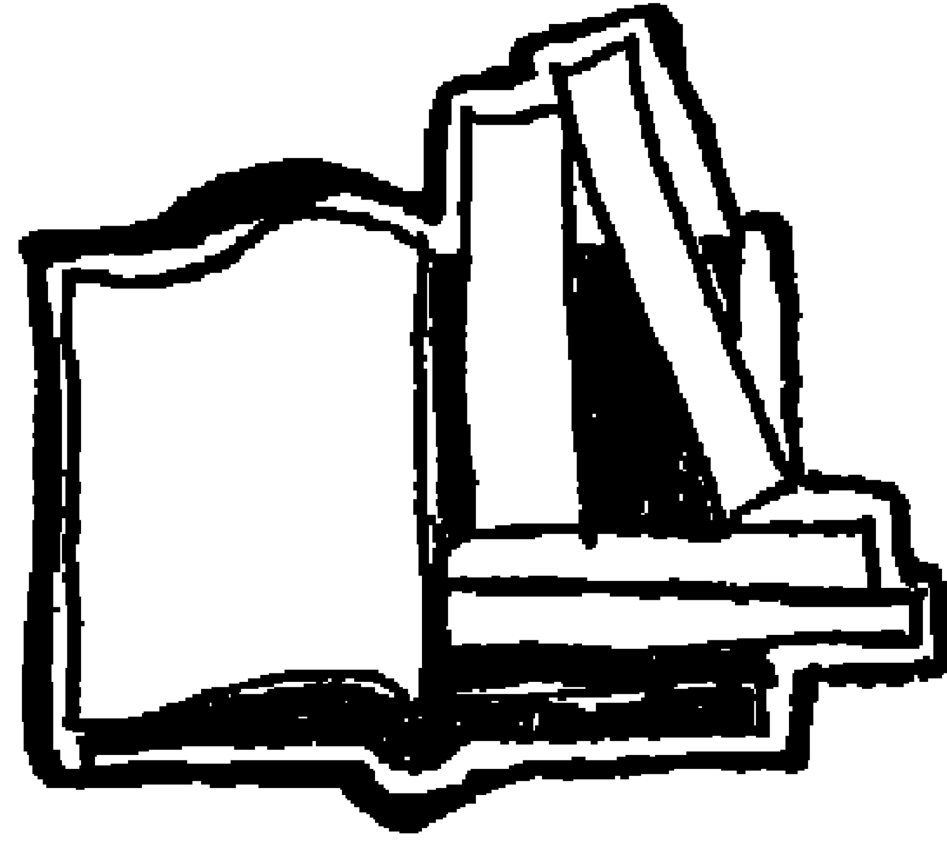
# الولاء

كل إنسان سليم التفكير يبحث عن النجاح ، ويحاول أن يخرج من الغمار إلى القمة . ولكن ما أكثر ما يخطىء بعض الناس فهم أسلحة النجاح ؛ إن الولاء أحد هذه الأسلحة ، الولاء للعمل الذى تزاوله ، وللأشخاص الذين تعمل معهم ، وللمؤسسة التى تنتمى إليها . وبعض الناس لايفهم هذا ، ويحس أنه من الشجاعة أن يطعن فى الأشخاص الذين يعمل معهم ، ويغض من أقدارهم ، وينتقص من نظام المؤسسة التى يعمل فيها ؛ سواء كانت مصلحة أو شركة أو محلا تجارياً أو فندقاً أو ورشة .

والانتقاد شىء محبوب وجميل ومطاوب لأنه عمل للبناء ، وهو شىء آخر غير التشهير والانتقاص . والولاء شبيه بالاحترام ، شعور يجب أن يعمق الإحساس به . وهو سلوك عقلى ، لايمكنك أن تشتريه أوتستعيره أو تدعيه . وكما يقول « روى كيتوى » : إنه إذا فرض عليك فرضاً جعلك تثور فى داخل نفسك . وأسوأ من هذا الذى ينتقص من قدر الذين يعمل معهم ، من يمتدحهم ما دام معهم ، فإذا تركهم ، أطلق فيهم لسانه . إنه بذلك يدل على طبع لئيم وشخصية مريضة ورجولة ينقصها الصقل . والولاء طريق ذو شعبتين ، وأنت مطالب بأن تكون على ولاء لأهلك وولدك ، لأصدقائك ومعارفك ، لزملائك فى العمل ، لمواطنيك ووطنك .

ولعلك تلتقى فى بعض مسالك الحياة بأشخاص قلما يمدحون إنساناً أو شيئاً . قلما يرضون عن رئيس أو زميل أو صديق ، عن أب أو أم أورجل عام . إنهم نهاشون للأعراض والكرامات ، لايحسون بالولاء لشىء ،

حتى أنفسهم وأقربائهم وذويهم . إنهم يعيشون فى عزلة عن المجتمع ، والمجتمع لايعطيهم الولاء لأنهم لايمنحونه إياه . والولاء — كما قلت — ذو شعبتين أخذ وعطاء . وكثيرون من ضعاف الكفاية والذكاء مرقوا فى المجتمع إلى أعلى مراتبه ، لأنهم تحلوا بصفة الولاء . فبثوا ، فى المكان الذى هم فيه، نوعاً من الصداقة والألفة والحب . ورفعهم هذا الولاء إلى أعلى المراكز ، لأنه صفة أساسية من صفات النجاح ، ترجح الذكاء والعبقرية . . بل إنه أحياناً كاف لكى يكسو صاحبه رداء العبقرية والذكاء .



# علم النفاق

هناك عباقرة فى فن النفاق ، كالعباقرة فى الطب أو القانون أو السياسة أو الاقتصاد . والعبقرية فى النفاق قد تكون موروثة وقد تكون مكتسبة . ولكنك فى الواقع قلما تستطيع التفريق بين الموروث منها والمكتسب ، فأصحاب النوعين يختلطان فى السمات واللمحات اختلاط الماء والخمر ، لاتعرف أحدهما من الآخر .

وبعض المعاهد تعلم النفاق . وبعض التربية يعلم النفاق ، وبعض مصاعب الحياة يعلم النفاق . وأعظمه ما اشترك فيه المعهد والتربية ومصاعب الحياة .

قال صاحبى : أتعرف فلاناً ؟ قلت : نعم . قال : إنه كالثعبان يلدغ وهو لين الملمس . ماعرفته مرة واقفاً عند رأى . إنه كالزئبق لاتعرف أين مبدؤه ولامنتهاه !

قلت : لعل نشأته . لعل معهده الذى تلقى فيه التعليم واتاه حظاً من النفاق لم يتح لغيره .

قال : كلا ، إنها الوظيفة توجت كل ما تلقى من مبادئ علم النفاق ، فجعلته حيث هو اليوم . رجل يعرف كيف يصل إلى غايته .

قلت : هل الوظيفة تعلم النفاق ؟

قال : عند أصحاب الاستعداد . إنها تصقله وتنميه ، وتجعله فناً فيه ذوق وعراقة ، له قواعد مفهومة وأصول مدروسة .

قلت : وله أساتذة ؟

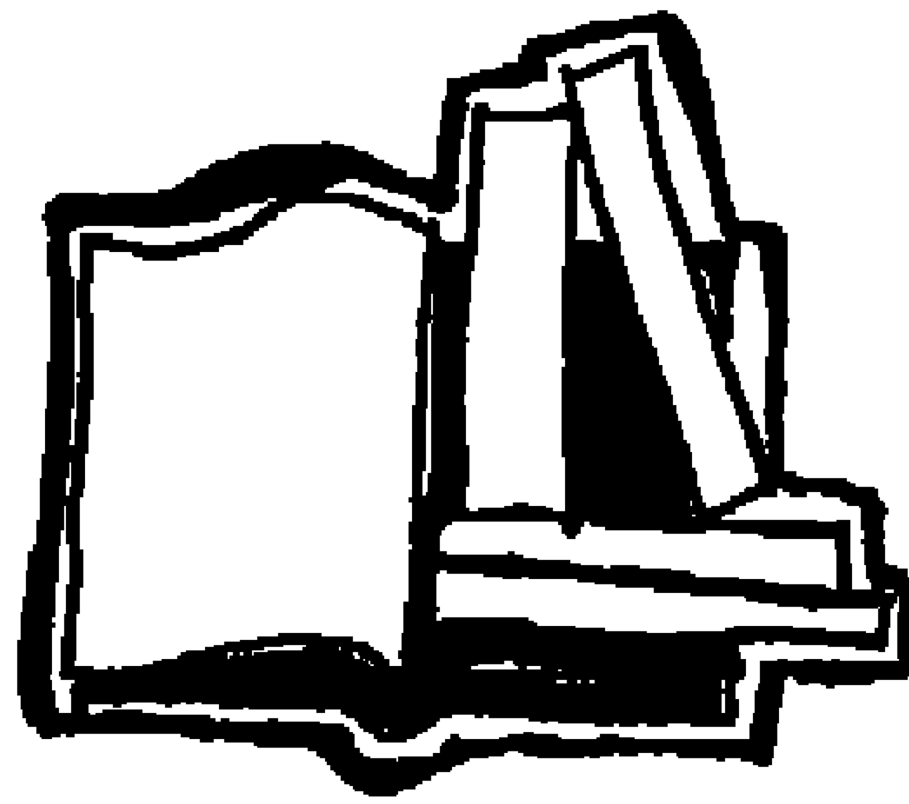
قال : ولهم تلاميذ .

قلت : وهل يرضى الأساتذة أن يفضوا بأسرار حرفتهم وفنهم ؟

قال : إنهم لا يفضون بها عادة ، ولكن التلاميذ يلتقطونها التقاطاً ، ويستنبطونها استنباطاً . إنها موهبة ومجاراة وتقليد ، والفن كل يوم فى تجديد وتجديد .

قلت : أفادك الله أأستاذ أنت أم تلميذ ؟

قال : لاهذا ولاذاك ، بل متفرج يسجل ويرقب ، ويسأل الله السلامة من الأستاذ والتلميذ !



# احترام القضاء

كنت ، ومازلت ، أقيس حضارة بلد من البلاد بميزانين : أولهما مدى احترامها للقضاء ، وثانيهما مدى احترامها للجامعات واستقلالها . فاحترام القضاء يشعر بالإيمان بالعدالة وسيادة القانون . واحترام الجامعات يشعر باحترام الفكر الإنسانى . وكنت أتحدث فى هذا الشأن إلى أستاذ يشغل منصب رئيس للنيابة فقال : اسمع الحكاية الآتية :

فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، أحس أحد القضاة البريطانيين بضجة شديدة تصل إلى قاعة الجلسة ، مبعثها قرب مبنى المحكمة من مطار حربى . وكان المطار فى هذا اليوم دائب الحركة . فالحرب قائمة والمجهود الحربى فى أوجه . واستحال على القاضى أداء عمله ، فأصدر أمراً إدارياً — وهذا من حقه طبقاً للنظام الإنجليزى — للمشرفين على المطار بأن يكفوا عن الضجة ريثما ينتهى من نظر القضايا المعروضة عليه . وتلقى رجال المطار أمر القاضى فى دهشة بالغة ، ولاحظوا أن تنفيذه معناه تعويق المجهود الحربى ، فاستمروا فى عملهم ، ولكنهم أبلغوا الأمر إلى وزير الحرب وإلى رئيس الوزارة . فقال تشرشل : بل يجب أن ينفذ أمر القاضى حتى لا يقال إن قاضياً فى بريطانيا أصدر أمراً وأهمل تنفيذه !

وفى الوقت نفسه ، اتخذت الإجراءات السريعة لإخلاء بيت حاكم المقاطعة ، فانتقل إليه القاضى حيث استأنف عمله فى هدوء ، وعاد المطار إلى الحركة التى كان قد توقف عنها . ولم تستغرق هذه الإجراءات أكثر من ساعة .

وهكذا أمكن التوفيق بين الاحترام الواجب للقضاء ، واستئناف المجهود الحربى . ودل التصرف الذى اتخذ على مدى ما يحسه الشعب والحكومة وكل السلطات من احترام بعيد المدى للقضاء .

# أنبياء من الأرض !

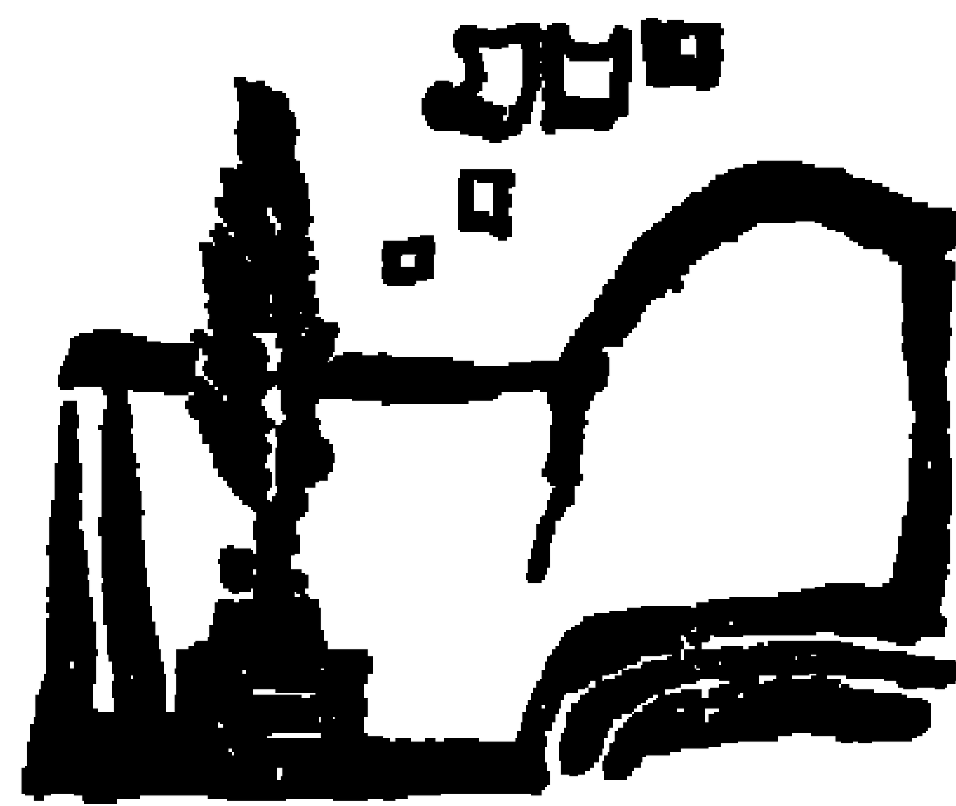
على الرغم من كل ما بلغته أمريكا من حضارة، فإن جبينها لا يزال ملطخاً بعار التمييز العنصرى ، فإن تبرئة قاتلى الصبى الزنجى الذى نسب إليه أنه أبدى الإعجاب بامرأة بيضاء حادث هزّ ضمير العالم المتحضر هزًّا عنيفاً .

ومن حسن الحظ أن عدداً كبيراً من الأمريكيين أنفسهم ينقمون على مواطنيهم هذه النظرة الهمجية ، ويشعرون بخجل شديد لكل عمل من الأعمال التى تعد اعتداء صارخاً على حقوق الإنسان . وإنه لشىء مؤلم أن يقع فى النصف الثانى من القرن العشرين ما يقع فى الولايات الجنوبية الأمريكية ، حيث يحرم على الزنوج أن يجلسوا أو يأكلوا أو يسافروا كما يفعل البيض . ومالم تتخلص أمريكا من هذا العار ، فإن حضارتها ستظل مشوبة ، ودعوتها للحرية ستظل دعوة تنقصها الأصالة والإخلاص . وفى أمريكا أتباع للمسيح ، عليه السلام ، فلماذا لايسمعون قوله : « ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده . يكفى التلميذ أن يكون كمعلمه ، والعبد كسيده » وماذا جنى السود حتى يساموا ما يسامون وحتى ينظر إليهم وكأن دمهم حلال لمن يسومه عذاباً ؟ !

إن كثيرين من الأمريكيين متدينون ، وهم يموّلون بعثات للتبشير تجوب أواسط أفريقيا وآسيا . . خير من التبشير بين السود ، أن يحموا السود فى أمريكا ، وأن يذودوا عنهم هذا الشر العظيم . لقد تحرك ضمير نواب وشيوخ أمريكيين، وذهبوا يطالبون النائب العام بالتحقيق فى هذا الحادث الأليم ، وقالوا إن العدالة الأمريكية أصبحت فى خطر ، وأى خطر أعظم من أن يتغير الحكم تبعاً لنوع الضحية ، ونوع المتهم . . .

هل هذه عدالة أو أنها نوع من الإبادة ؟ !

فى أواخر الحرب العالمية الأولى نادى « وودروويلسون » بحق تقرير المصير ، وفى أواخر الحرب العالمية الثانية وضع فرانكلين روزفلت قواعد الحريات الأربع . . لهم أنبياء من السماء ، وأنبياء من الأرض من مواطنيهم ، فلماذا إذن لايعطون مواطنيهم الحرية قبل أن يطلبوها للآخرين ؟



## النظام والفوضى

تعبت فى تنظيم وقتى ، ولابد أن الناس جميعاً يتعبون فى التنظيم . ويظهر أن فى الإنسان ميلا غريزيًّا إلى التصرف حسب هواه ، لولا أن تشابك المصالح وكثرة الأعمال توجب التنظيم . فهو حاجة وليس متعة . وهو فرض من الفروض التى تلزمنا بها الحياة الحديثة . ومن المؤكد أن الإنسان فى الغابة لم يكن منظماً . ولعل فكرة النظام نفسها لم تكن قد نبتت فى دماغه .

على أن النظام يتعب فى أول ممارسته ، ثم يصبح بالعادة شيئاً ثابتاً فى التصرف والتفكير ، والذين يعرفوننى يبدو إلى أذهانهم أننى منظم ، ولكننى لا أرى أنى كذلك ، ولست أعرف أيهما أصدق : رأيك فى نفسك أم رأى الناس فيك !؟

وقد عرفت أشخاصاً منظمين جدًّا فى تفكيرهم ، ولكنهم يعيشون حياتهم اليومية فى فوضى لامثيل لها . وكنت أميل إلى الاعتقاد بأن الإنسان المنظم فى تفكيره لابد أن يكون منظماً فى تصرفه ، ولكن الأمثلة التى أعرفها بدأت تهز هذا الاعتقاد فى نفسى .

وكثيراً ما تساءلت : هل النظام هو الجميل أو الفوضى ؟ وكثيراً ما رأيت الجمال فى النظام كما رأيته فى الفوضى !

# الثقافة لاوطن لها

هل للثقافة وطن ؟ وهل ينبغى أن ينشب بين الثقافات المتعددة ما ينشب بين القوميات من خلاف وتناحر وتفاخر ومد وجزر ؟ !

إن الثقافة مظهر للتفكير والسلوك والنظرة للحياة ، وهى تختلف من بلد إلى بلد ، ومن شعب إلى شعب . وهى تتطور فى البلد الواحد من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر ، فلا بد من الاعتراف بأنها شيء لايكف عن التطور لأنها مظهر للجماعة وهى حتماً فى تطور مستمر .

ثم لابد من الاعتراف أيضاً بأن للثقافات جميعاً جذوراً مشتركة تصدر عن النزعات والانفعالات الإنسانية التى لاتختلف من شعب إلى شعب ولا من عصر إلى عصر ، لأنها بطبيعتها عناصر خالدة تقترن بالإنسان من حيث هو إنسان .

ولا بد من الاعتراف أخيراً بأن الثقافات تداخلت وتشاركت وأخذت بعضها عن البعض الآخر وتأثر بعضها بالبعض الآخر ، فهى فى مجموعها كل مشترك يمثل سير التطور الإنسانى ، متفق فى جذوره مختلف فى فروعه .

والاختلاف بينها ليس إلا اختلاف الثمر وليس اختلاف الأصل ، وعلى قدر تذوق الإنسان لهذا الثمر المختلف الألوان والأشكال يكون تعمقه فى فهم التطور الإنسانى وإدراكه لحقيقة التيارات التى حولته إلى هذا الجانب أو ذاك . ولو استطاع كل منا أن يتذوق هذه الثمار جميعاً ولم يفعل ، كان مقصراً أو ضيق التفكير ، وكلاهما صفة لاتجدر بالمثقفين أو كان متعصباً والتعصب قاتل للثقافة .

## صفقة إيمان

اعتاد صاحبي أن يصوم رمضان قانتاً مخلصاً ، فعنده أن شرور العام تمحوها عبادة شهر . وعبثاً تحاول أن تثنيه عن فلسفته فهو مؤمن بها. يظل طول العام كأنما هو ملحد لا يؤمن بدين ، فإذا أهلّ رمضان ، فقد استمسك منه بالعروة الوثقى .

إذا رأى المغتابين فرّ منهم ، وإذا ذكر أمامه شخص أمسك لسانه فلم يخض فيه بخير أو شر ، وهو القائل فيه بقية العام ما قاله مالك فى الخمر !

وإذا مرت به الغوانى أغمض عينيه كأنه يستعيذ بالله من الشيطان . وإذا أعطاه أحد المال الحلال استنكر أن يمد يده ، كأنه يهودى فى يوم السبت . وهو فى بقية العام يأخذ الحلال والحرام ، بل لعل شهوته للحرام أشد منها للحلال .

مسبحة أطول من ليل الشتاء، رداء فضفاض وقبقاب لاتراه إلا ساعياً بين صحن المسجد والمحراب ، يبسمل ويتمتم ويحوقل . يكاد ينكر أصدقاء العام كله ، أو قل هم ينكرونه ، فليس منهم إلا جليس الكاس والطاس ، رب الغوانى السابحات الفاتنات ، منهم اليهودى الذى يكاد يزرع القرش حتى يثمر ، والمتلاف الذى يرمى القرش ولا يدرى ، والساهر الليل حتى مطلع الفجر أمام موائد القمار كأنها العبادة والصلاة .

سبحان الله ! يالسر رمضان الباتع ! كيف يتحول عن هؤلاء الأصدقاء إلى نوع جديد ، منهم ذو العمامة التى كأن طياتها هرم ، وذو اللحية التى كأن شعراتها صنم ، والفاقه الآيات والأحاديث يتلوها فى قنوت ونغم .

صحبته من أصحاب الجنة ودعاتها ، وأخلاؤه من الواصلين المتصلين الذين بينهم وبين الآخرة أكثر من سبب . أتراه يؤمن فى هذا الشهر حقًّا ، وينسى ما يعيش فيه العام كله من ضلال وغرور ؟

لقد شاقنى أمره ، فسألته تأويل ما يصيبه فى هذا الشهر الكريم من تبتل وتهجد ؟ فقال : إن صوم يوم يمحو ذنوب شهر وصوم شهر يمحو ذنوب دهر !

قلت : أنت على هذا ضمنت الجنة ؟

قال : بشرط أن يكون الذهاب إليها فى رمضان .

قلت : وفى غير رمضان ؟

قال : أذهب بأوزارى . . . وهذه هى مشكلتى . فأنا طول العام أخشى أن يجىء الموت ، أما فى رمضان فلا أخشاه .

قلت : أتم الله عليك نعمة الإيمان ، إنها صفقة لا يخسر فيها إلا الشيطان !



## الأشياء البسيطة

الأشياء العظيمة فى الدنيا هى الأشياء البسيطة . أجمل ما فى الدنيا مؤلف من مقطع واحد ، من كلمة واحدة : الحب . الفرح ، البيت ، الطفل ، الإيمان ، الثقة ، الله .

وأجمل الصور فى الدنيا هى أبسطها . . وأقربها إليك . .

أراد فنان أن يرسم أجمل ما فى الحياة ، فسأل قسيساً فأجاب : الإيمان ، تستطيع أن تحسه فى كل كنيسة .

وسأل الفنان عروساً صغيرة فأجابت : الحب ، الحب يحول الفقر إلى ثروة ، يلطف الدموع ، يجعل من القليل ما يغنى ويفيض .

وأجاب جندى شاب : السلام أجمل ما فى الدنيا ، والحرب أقبح ما فيها . فحيث يوجد السلام ، تجد الجمال .

وسأل الفنان نفسه : الإيمان ، الحب ، السلام ، كيف أرسمها .

ودخل بيته فوجد الإيمان فى أعين أطفاله ، والحب فى عين زوجته ، وأحس بالسلام لأنه ليس إلا الإيمان والحب .

ورسم أجمل صورة فى الدنيا ، وحينما أتمها جعل اسمها « البيت » .

الحياة بسيطة ، ولكن الإنسان يعقدها ، لأنه لا يؤمن ، ولا يحب ، ولا يريد السلام ، الزيغ يجعله قلقاً . والحقد يؤرقه . ثم لا يجنى من الزيغ والحقد إلا الحرب . الحرب بينه وبين زملائه وإخوانه لا بالرصاص والسلاح ولكن بالسعى والكذب والطمع ، وهو بذلك يهيئ وطنه للحرب ضد الأوطان الأخرى .

إن السلام ينبع من شىء بسيط صغير ، من مقطع واحد ، من كلمة واحدة هى الحب . إن أعظم الأشياء فى الدنيا أبسطها ، وهى فى متناول الجميع .

## المتفائل والمتشائم

أيهما أحسن : أن تتفاءل أم أن تتشاءم ؟ بعض الناس يجعلون قاعدة حياتهم التفاؤل ، وبعضهم الآخر يؤثرون أن تكون القاعدة التشاؤم . ولكل من الفريقين فلسفته .

المتفائلون يرون أنهم لايخسرون بالتفاؤل ، لأن نظرتهم البيضاء للحياة تجعلهم يعيشون على الأقل فترة معقولة من الوقت فى هدوء أو أحلام عذبة إلى أن يقع الشر ، على حين يعيش المتشائم فى هم دائم وقلق لا آخر له .

والمتشائمون يرون أن النظرة السوداء تنقذهم من خيبة الأمل ، وتساعدهم على الاحتياط توقعاً للأسوأ . إذا كان فى جيب المتشائم مائة جنيه ، شعر أنها ليست أماناً كافياً من غدر الدهر . وإذا أصبح فى جيبه ألف زاد تشاؤمه ، وشعر أنها ليست أماناً كافياً من غدر الدهر . فإذا ارتفع الرقم إلى عشرة آلاف ارتفع معدل التشاؤم ولم يرتفع معدل الأمان . وهكذا يعيش فى هم وحذر وخوف وقلق .

نعم ، إن المتشائم قد لايحتاج إلى الاقتراض . قد يعيش مستور الحال ، وقد يقتنى عمارة أوأطياناً أوأموالا فى البنك ، ولكنه يعيش وكأنه لايملك شيئاً ، ليس فى صدره أمان ، وليس فى وجهه ابتسام ، وليس فى أحلامه سلام . وقد يضطر المتفائل إلى الاقتراض ، وقد يضطرب فى حياته لأن حسابه دائماً مختل ، وآماله قد لاتتحقق ، وما يبنيه بتفاؤله لايحققه الواقع فى كثير من الأحيان ، ولكنه — مع ذلك — يعيش ويشعر بالأمان ، ولو كاذباً ، وبالطمأنينة ولو إلى وقت ، وبالرضاء ولو إلى حين . . . والصدمة عنده قد تضايقه ، ولكنها سرعان ما تذهب لأن التفاؤل يقضى عليها .

ولست أعرف مع ذلك أيهما خير : أن تكون متفائلا أم متشائماً ، ولكنني أعرف فى نفسى أن الشىء الذى أتفاءل بنتيجته تجىء على غير ما أرجو ، والشىء الذى أتشاءم منه تجىء نتيجته خيراً بكثير مما قدرت . ولذلك اعتدت كلما شعرت بالتفاؤل الشديد أن أحوله جهد استطاعتى إلى تشاؤم ، عسى أن تحمد النتيجة .

إنها خرافة من غير شك ، ولكننا محتاجون أحياناً إلى خرافات !



# جرائم المرأة

نفذ حكم الإعدام فى مسز « روث أليس » البالغة من العمر ٢٨ عاماً لأنها قتلت صديقها فى عيد الفصح الماضى بسبب هجره إياها وتخليه عنها .

وقد حاولت الصحافة البريطانية أن تلغى تنفيذ الحكم ولكنها لم توفق . وحاول الرأى العام البريطانى ، وبخاصة النساء ، أن ينقذوا الشقراء الجميلة من حبل المشنقة ، ولكن جهودهم ذهبت عبثاً . أما هى فلم تأبه للأمر . كانت راغبة فى الموت . وقد اعترفت بجريمتها فى هدوء ، وقالت إنها قتلت الرجل عامدة وهى فى كامل وعيها وأضافت أنها ليست نادمة على ما فعلت .

وقد علق أحد الكتاب البريطانيين على تنفيذ الحكم بقوله : « إن السرية التى أحيط بها التنفيذ تدل على أننا إذا كنا قد فقدنا الرحمة فلا تزال فينا بقية من حياء » !

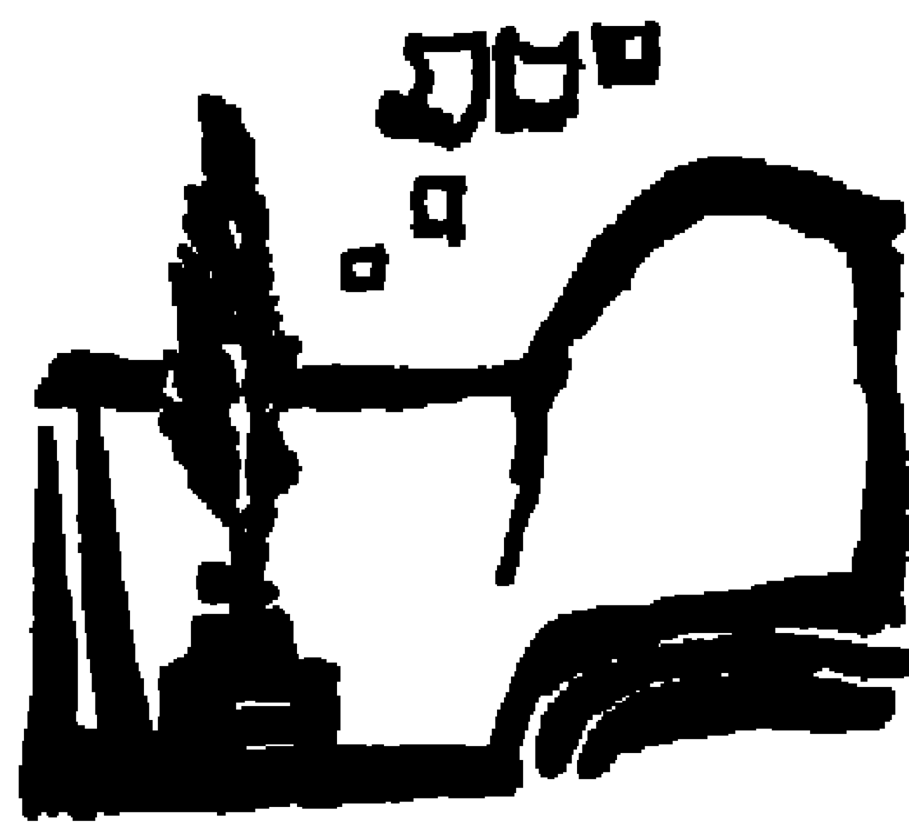
وانتهزت الصحف البريطانية الفرصة فطالبت بإلغاء عقوبة الإعدام وقالت إنها عقوبة موصومة بالوحشية . وتصحيح الخطأ فيها غير ممكن . ثم هى قضاء على النفس الإنسانية دون مسوّغ . وإذا كان المجرم لا يرجى إصلاحه فينبغى عزله عن المجتمع . أما ممارسة القسوة على هذه الصورة ففضلا عن أنها عمل وحشى ، فإنها دليل على عجز المجتمع عن إصلاح المجرم .

ولم يبحث أحد فى الجانب الآخر من الموضوع ، وهو إقدام النساء على ارتكاب أفظع الجرائم بأعصاب هادئة . ونحن فى مصر نكاد نلمح هذه الظاهرة فيما تنشره الصحف أحياناً من حوادث . . . ما تفسيرها

إذن ؟ . . . تفسيرها أن المرأة مخلوق عاطفى . وهى تعيش فى قلبها أكثر مما تعيش فى عقلها . والحياة بالنسبة لها نبض قلب وليست وعى عقل .

وأكثر الجرائم التى تقدم عليها هى الجرائم المتعلقة بالعاطفة والأنوثة والهجر والحقد على منافستها فى الرجل الذى تحبه . وحيث تكون المتهمة امرأة ، ويعرض الأمر على المحلفين فى البلاد التى تأخذ بهذا النظام يؤثرون غالباً العفو عنها تقديراً لانفعالاتها . وما العطف الذى حظيت به مسزروث أليس إلا نوعاً من حكم الرأى العام لمصلحة المرأة . فهو لاينظر إلى بشاعة الجريمة بمقدار ما ينظر إلى ظروف المتهمة .

ولكن الرأى المعارض يقول إن منح المرأة العطف على هذه الصورة يجعلها أكثر استجابة لعواطفها ونزواتها . ومن ثم نادى أصحابه بكف المحلفين عن نظر هذه القضايا .



# أرض تجود بالذهب

قضيت فى الريف ليلة وبعض يوم ، ورأيت الفرق الكبير الشنيع وأنا أترك القاهرة الجميلة الأنيقة ، لكى أرى الأكواخ القديمة المهلهلة ، ميراث القرون الغابرة ، التى ظلت كما هى منذ كانت فى عهد قدماء المصريين والغزاة الفاتحين من الفرس والرومان والأتراك ، كأنها بعض الزمن ، أو جزء منه لايتغير ولايتحرك ، وإن كان الزمن نفسه يتغير ويتحرك .

لقد أخذ الوعى فى الريف ينتشر ، ولكن الجهد المطلوب لايزال ضخماً . ونحن لانستطيع أن نزعم أننا شعب راق متحضر ، وثلاثة أرباع المصريين يعيشون فى بيوت كأوجار الكلاب . إننا فى حاجة إلى قوة العمالقة ، كى ننقذ مواطنينا من الجهل والفقر والقذارة والخرافات .

وكنت وأنا أتعثر فى طرقات الريف بين مطبات ترتفع وتنخفض ومسالك تضيق وتتسع ، وقرى على الجانبين تعلن عن فقرها وبؤسها ، بعشرات الأطفال أشباه العرايا يستقبلون كل قادم ويودعون كل ذاهب . كنت وأنا أرى الريف الجميل بخضرته اليانعة وكنوزه المخبوءة ، وأرضه التى كأنها الذهب ، أقارن بينه وبين الريف فى فرنسا ، وقد جبت قراه فى الجنوب ورأيت جمال الطبيعة كيف تزيده جمالا صنعة الإنسان ، أسائل نفسى متى نبلغ بريفنا هذا المبلغ ؟ متى نشعر ونحن نترك المدينة إلى الريف ، أننا لانترك جزءاً من وطن لاصلة له بالجزء الآخر . . فمن يستطيع أن يقول إن القاهرة الرقيقة الجميلة العظيمة بقصورها وشوارعها وأضوائها هى عاصمة لهذه المجموعة المتنافرة الفقيرة التعسة من القرى !

ومن حسن الحظ أن الزمن الذى كان كل جهدنا فيه منصرفاً إلى المدينة قد انتهى ، وأخذنا نلتفت إلى القرى والريف والفلاحين والمزارعين والمؤجرين والملاك ، إلى كل من يشترك بجهد قليل أو كثير فى إنبات الذهب فى أرض تجود بخير ما فيها ، وكم فيها من خير !



# الجنة

قال له صاحبه : طويت آلاف الأميال فى الدنيا طولا وعرضاً ، فلم أر أن الإنسان يختلف من مكان إلى مكان . . صراع لايتوقف ، مشكلات ، مشاحنات ، جرائم ، دنيا تدور محلقة فى فضاء ، كل الناس يشكون ، لا شيء يعجبهم .

قال : وماذا كنت تظن أن ترى ؟ . .

ــ كنت أبحث عن الفردوس المفقود، عن جنة عدن ، طفت بالدنيا كلها تقريباً ، فلم أجد فردوساً ولاجنة . . .

ــ الفردوس والجنة فى داخلك . . .

ــ عدت إلى فلسفتك القديمة ! لا أرى الجنة إلا مكاناً !

قال : ستتعب إذن حتى تحفى منك القدمان ، ولن ترى الجنة . .

سأل : ألا يستطيع الإنسان أن يصنعها ؟ . .

ــ صنعها على الورق . . أفلاطون وتوماس مور . . خيالات كتاب وفلاسفة ! وبناها الملوك والأمراء قصوراً وحدائق وطرقات وأزهاراً ذات أريج ، ولم يعثروا على ما كانوا يرجون من سعادة وطمأنينة وراحة بال . . بعضهم انتحر فى قصره . . . وبعضهم قتل فى جنته . ليست الجنة مكاناً يا صاحبى . .

ــ وماذا تكون إذن ؟

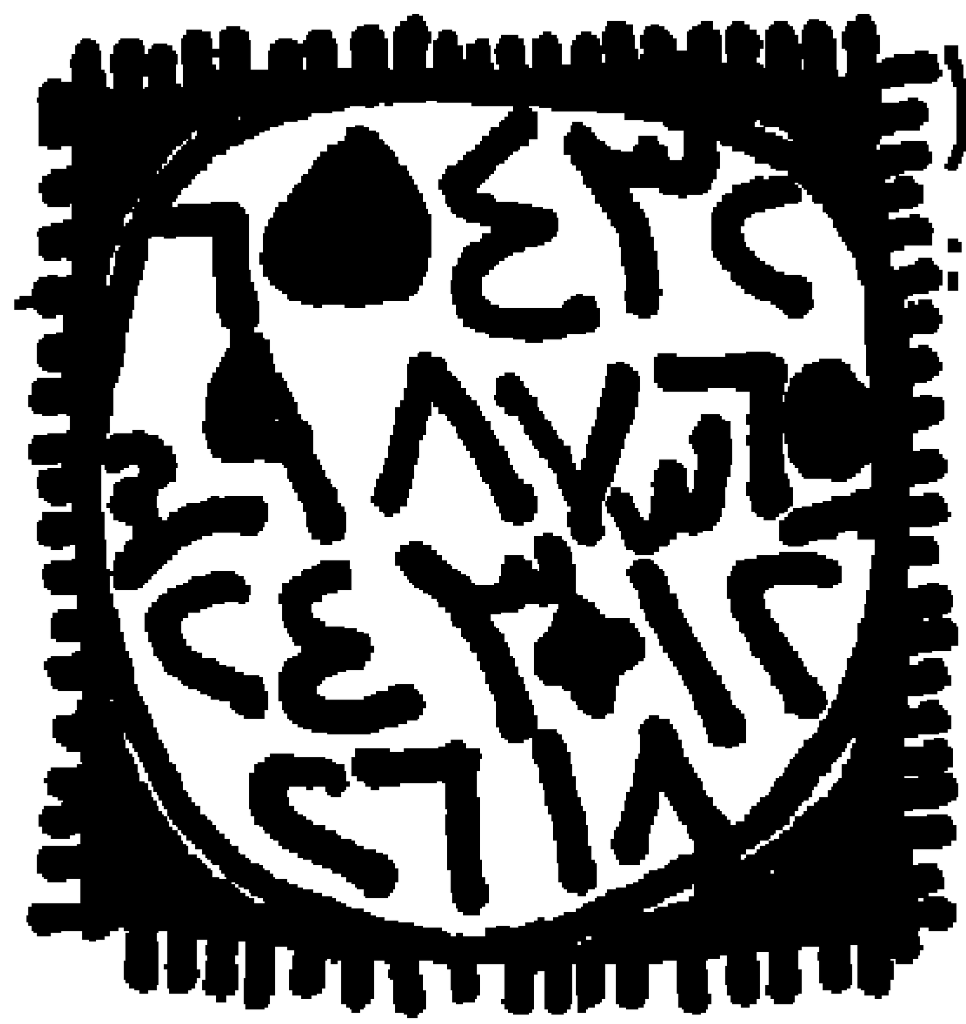
ــ أن تكون على وفاق مع نفسك ومع الناس . . أن تحبهم ويحبوك . .

ــ أحببتهم فلم أر منهم إلا الأذى والنكران . .

ــ لأنك أحببتهم وانتظرت الجزاء . .

ــ إن المعاوضة بعض نواميس الحياة .

ـ سألتنى عن الجنة ولم تسأل عن الحياة .
ـ وما هى الحياة ؟
ـ أخذ وعطاء .
ـ وما هى الجنة . . ؟
ـ عطاء مبارك من السماء !



## الفوضى والنظام

ربما لا يصدق إنسان أن بيروت مدينة ليس لشوارعها أسماء، وليس لبيوتها وعماراتها أرقام : وهى مع ذلك مدينة كبيرة يقرب عدد سكانها من ثلاثة أرباع المليون ، وتعد من مراكز التجارة المهمة فى الشرق الأوسط ، وهى ميناء ضخم مشهور ، وبها مطار دولى يستقبل الطائرات من كل جنس ومكان ، فمن الغريب أن تظل مدينة كبيرة كهذه المدينة تخبط فى ليل الفوضى . فوضى الشوارع التى تميزها عمارة قديمة أوبنك مشهور أو رجل له نفوذ واسم .

وساعى البريد هناك فدائى أو رجل « نابه زارق » إذا استطاع أن يوصل لك خطاباً ، وجب أن تمنحه منحة مناسبة للعمل المجيد الذى قام به . ولكن يعوض هذا أن أهل بيروت يعرفون مدينتهم شبراً شبراً ، وسائقوها يمرقون فى الشوراع الصغيرة والكبيرة والمنحدرة والمرتفعة ، ويلفون ويستقيمون وينحرفون ويعتدلون ، فإذا بك بعد قليل فى المكان الذى تقصده .

وقد فكروا يوماً فى وضع أرقام للمنازل والبيوت والعمارات ، ووضع أسماء للشوارع ولكنهم عدلوا عن الفكرة ووجدوا أن هذه الفوضى لم يشك منها أحد ، لماذا النظام إذن ؟ !

وعندنا فى المدن الصغيرة والكبيرة أسماء وأرقام ، ومع ذلك يتعثر الخطاب أربعة أيام ، ثم يصل إليك الخطاب الذى كان ينبغى أن يصل إلى شخص آخر فى « بين الصورين » والمسافة بينك وبينه لاتقل عن ساعتين بالسيارة واسمك يختلف عن اسمه اختلاف ما بين السماء والأرض .

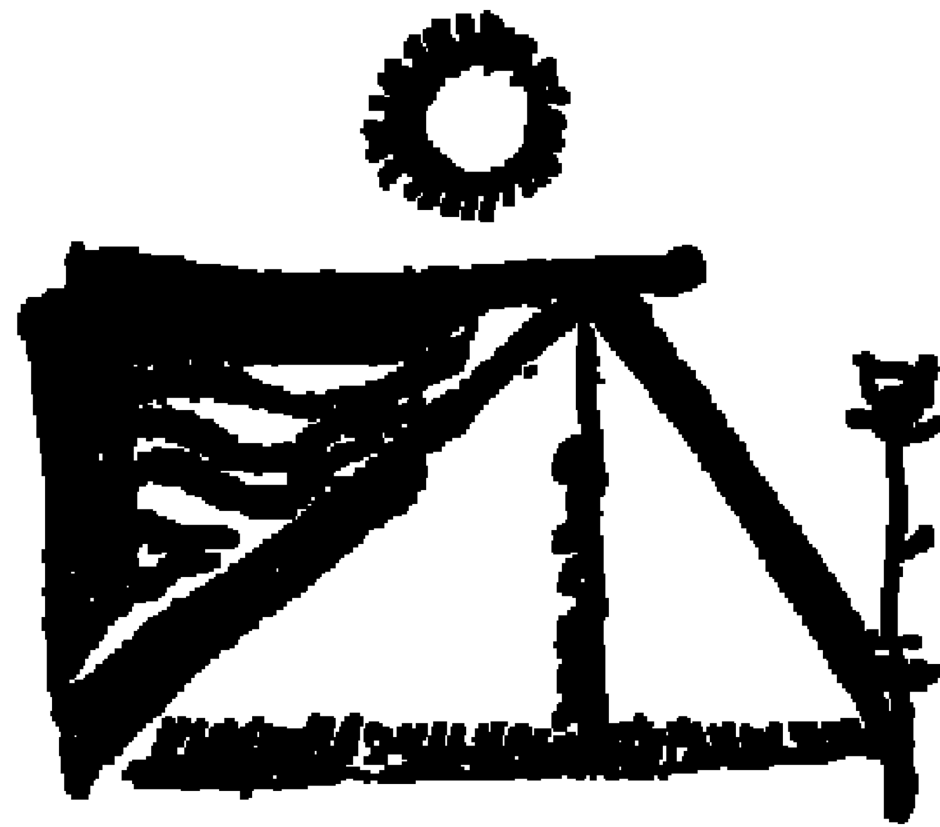
العبرة إذن ليست بالنظام ولكن بالأشخاص الذين يطبقون النظام . وكثيراً ما تقول النظم إنك حر من كل قيد ، فإذا جربتها عند التطبيق وجدت القيود تحيط بك من كل جانب . وعلى العكس من ذلك تكون النظم أحياناً قاسية فى مظهرها ، ولكن الأشخاص الذين يطبقونها يجعلونها رحيمة رقيقة هى والحرية سواء .

لقد علمتنى فوضى بيروت ، أن النظام معنى وليس رسوماً مكتوبة وقرارات مرصودة ، وأن الحرية قادرة أن تصحح نفسها بنفسها إذا عرف كل مواطن أين تنتهى حريته لكى تبدأ حرية غيره .

وقد سمعت لبنانياً يقول لسائق سيارة : لا تمش من هذا الطريق. فسأل السائق : ولماذا ؟ أجاب الرجل : الحكومة أصدرت أمراً بذلك ؟

قال السائق : هى الحكومة كل ما تطلع أمر نسمعه ؟ !

وضحكت من جواب السائق ، ولكننى تدبرته ، فقد كان له مغزاه !



# النظر والتجربة

سألنى شاب : ما هو شرط النجاح فى الحياة ؟ . .
قلت : أن تفهم الحياة . .
سأل : وكيف يكون فهم الحياة . .
قلت : بأن تخطئ وتصيب ، بالممارسة والمعاناة . .
قال : وتجربة الآخرين ؟

قلت : بعض الوسيلة لفهم الحياة، غير أنها وحدها كالكتب تعطى إشارات المرور ، ولكنك لن تفهم الطريق إلا إذا سرت فيه وأدركت وعورته أو رقته ، صلابته أو ليونته . .

سأل : شبهت تجربة الآخرين بالكتب ، فهل تعنى حقيقة المشابهة أو تعنى المجاز ؟

قلت : بل أعنى حقيقة المشابهة ، إن الكتاب ليس إلا تجربة تروى، وبمقدار الصدمة فى التجربة والرواية يكون الأثر أفعل وأنجح . .

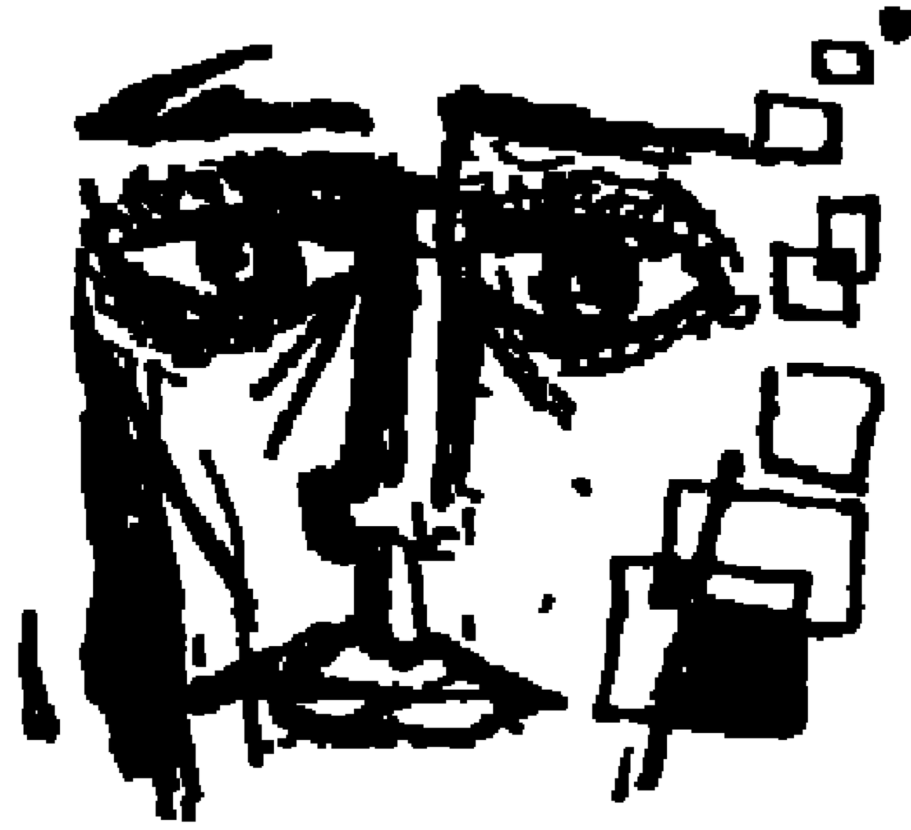
قال : خرجت من الجامعة بدرجة التفوق، وأرانى حائراً وأنا على شط الحياة ، كأنما كل ما درست كان شيئاً بعيداً عن الحياة . .

قلت : كلا ، لم يكن بعيداً عن الحياة ، إنه فى صميمها ، ولكن النظر شيء والواقع شيء آخر . . إذا تعلمت أصول العوم نظرياً ، فهل تستطيع أن تخوض البحر من غير تجربة عملية . . وكذلك العلم فى الجامعة والحياة ، وكذلك الكتب والنظريات إزاء التطبيق والممارسة .

سأل : معنى هذا أنك تفضل التجربة والممارسة على النظر والقراءة ؟

أجبت : كلا ، كلاهما لا بد منه .

النظر والقراءة يعمقان الفهم ويعطيان الدليل ، والممارسة تشق الطريق . وقد نجح البعض من غير نظر وقراءة بممارسة ذكية وتجربة نافعة ، ولكن الذين قرءوا ونظروا حققوا نجاحاً أعمق وأدوم ، وكانت التجربة والممارسة بالنسبة لهم أسخى وأشمل .



# لا شيء ثابت !

قال له صاحبه : أرأيت إلى ناس يقولون ولايفعلون ، وناس يفعلون لا يقولون، وناس لايقولون ولايفعلون ؟.. هل ترى إلى جانب هؤلاء أصنافاً أخرى من الناس ؟

قال : جمعت فشملت ، فليس الناس إلا أحد هؤلاء الثلاثة ، والعبرة بالقول أى قول ، وبالفعل أى فعل . فمن القول السخف ، ومنه الكذب ، ومنه النفاق والادعاء ، ومنه التفاخر والمباهاة والتعالى ، ومنه الصدق والإيمان والعزم . ومن الفعل الشر والدس والنميمة والتفرقة والهدم ، ومنه البناء والتعمير ، والخير والتعاون والمصالحة والسلام ، منه الإيجاب والسلب .

قال صاحبه : وسعت الدائرة وكنت أريدها ضيقة . . . إنما أردت أن أسأل أى الثلاثة ينبغي أن يكون الإنسان ؟

قال : أما الذى لايقول ولايفعل فزائد فى العدد ، لا خير منه ولا شر . . . وقديماً قيل إذا لم تستطع أن تنفع فضر .

قال صاحبه : هل ترى أن الذى يفعل ويضر خير من الذى لا ينفع ولا يضر ؟

— لم أقصد هذا ولم يقصده أصحاب المثل السائر ، ولكنهم أرادوا أن يحثوا على العمل وينفروا من الجمود ، فبالغوا حتى جعلوا الذى يعمل وفى عمله ضرر خير من القاعد الذى لا يعمل شيئاً .

قال : عرفت فلاناً هذا لاينطق بكلمة ولايفصح عن رأى ولايقوم بعمل ولاينهض بواجب ، فإذا جادلته تمثل بقول الشاعر :

ما أطيب العيش لو كان الفتى حجراً   تنبوا الحوادث عنه وهو ملموم !

— وكيف يطيب العيش لحجر ؟ أتراه يحس خيراً أو شراً ؟ أتراه يعيش . . . إن هذا الشاعر « تنبل » وقد انقضى عصر « التنابلة » . . . أعرف يا صاحبي أن لكل عصر مثله وأخلاقياته وفلسفته .

سأل : هل تعنى أن الإنسان يتغير ؟

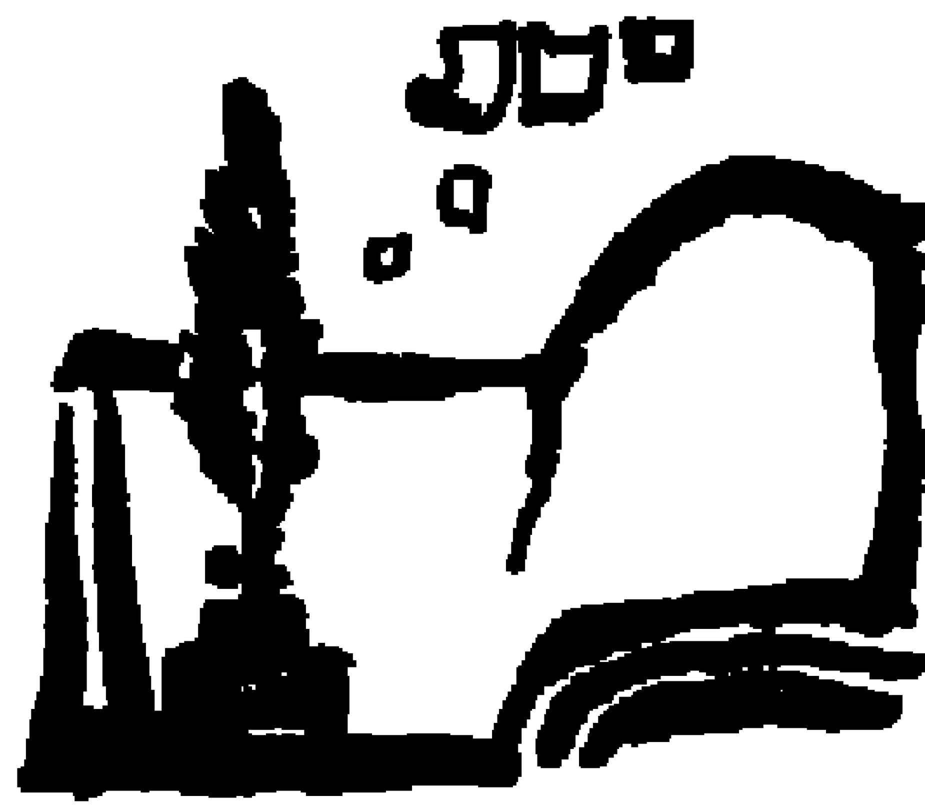
— هذه بديهية من بديهيات الحياة .

— ولكن هل تتغير المثل والأخلاقيات بتغير العصور والناس ؟

— ما دامت العصور والناس يتغيرون فلا بد من تغير مماثل فى كل شىء

— تعنى أنه لاشىء ثابت فى الحياة .

— الأرض تدور وتتحرك ، الأفلاك تدور وتتحرك . . . الكون كله فى حركة دائبة مستمرة فى كل لحظة ودقيقة . . . الإنسان الجامد يضمر ، والعقل الجامد يركد ، الروح الجامد يموت . . . حاذر أن تؤمن بشىء آخر غير التطور فإنه سنة الحياة !



# الصلاة والصمت

تخيرت لى صلاة فى هذا الشهر ، والصلاة لاتكون بالركوع والسجود فحسب ، ولكنها تكون بالكلمة خارجة من فؤاد صاف ونفس شفافة ، صاعدة إلى السماء ابتهالا أوتوسلا ، ذاهبة أصدى ومرتدة ترنماً . . وهى فى الفجر ، ونوره ينبثق من الليل ، عبادة لله والكون ، وحبًّا للناس والأشياء ، وفناء فى الوجود ، وصبراً على المكروه . . هى نوع من الشعاع الخفى ينتشر بين الأرض والسماء ، فيجمع بين التراب والنور ، بين الخطيئة والمغفرة ، بين الفناء والخلود .

ومن الصلاة ما لاتكون الكلمة فيها ولايكون الصوت ، تكون بالصمت.. أولا تصلى هذه الخلائق الصامتة وتبتهل؟..تأمل الشجر والزهر والماء والسحاب والأفق والنجوم الذابلة ! . . هى صامتة حقًّا ، ولكن فى صمتها تسمع التسبيح ، وإنه لأقرب إلى السماء من الصراخ والضجيج . . والتأمل نفسه عبادة وصلاة . المريض الذى لايقوى حتى على الكلام والحركة ، ألا يصلى بقلبه ونفسه وروحه وكل جارحة فيه ، أليست صلاته أقرب إلى السماء من كل صلاة ؟

تأمل الفجر ، تقرأ فيه حكمة الوجود وحكمة الصلاة وحكمة الصمت ، بل إنك لتحس أن الكلام يفسده ، وأن الروعة التى ينشرها حولك وفى داخلك أعظم تعبيراً من كل صوت ومن كل صلاة . . إذا أصابك الصدأ وذبل الحب وذبلت الحياة فى نفسك ، فانتظر حتى يطلع الفجر ، وأنت ترى كيف تتجدد الحياة ، وكيف ينفلق النور من الظلام وكيف يولد النهار الصاخب اللاجب من أحشاء الظلام الصامت !

# لا وجود لهما

القراءة الثانية ضرورية للأعمال الجيدة الجادة والعميقة . القراءة الأولى تفتح الباب وتشير إلى البهارج والزخارف التى تخطف البصر وتأسر القلب .. والقراءة الثانية تفتح الباب على الكنوز الخفية وراء المظهر الجميل ؛ إنها قراءة التأنى والتأمل ، قراءة العقل الذى يستوعب ما وراء اللفظ ، ويحاول أن يستشف ما يريده الكاتب ، وهى فى عبارة موجزة قراءة الاندماج فى المصدر ، فى العقل والوجدان والشعور الذى نما فيها العمل واستوى خلقاً كاملا .

وقد تكون القراءة الأولى فى سن الشباب الباكر ، وتجىء القراءة الثانية فى سن النضج . افعل هذا وسترى كم من الأشياء كانت خافية عنك ، وكم استطعت فى سن النضج أن تراها وتكشفها ، سترى كم ظلمت الكاتب فى أول قراءة ، وكم أمتعك واستحوذ عليك فى القراءة الثانية ! كم كان بعيداً عنك فى المرحلة الأولى ، وكم اقترب منك وامتزج بك فى المرحلة الثانية !

إنها ليست الكتب والكتاب والمؤلفون هم الذين تصدق عليهم القراءة الأولى العاجلة والقراءة الثانية المتأملة المتأنية ، ولكنها أيضاً الأعمال والواجبات والأخبار والأفكار والتطورات والأمانى والتطلعات وكل ما تضطرب به الدنيا من شئون . . . إنها جميعاً عرضة للنظرة الأولى المتعجلة تصل بك إلى مواقف ومواقع معينة ، فإذا أنعمت النظر مرة أخرى ، وتأملت فى تريث يجمع أشتات الشىء أو الشكل أو الموضوع فأنت فى موقف آخر وموضع آخر ، يختلف عن الأول اختلافاً كبيراً

وربما كان موقفاً أو موضعاً مغايراً تمام المغايرة لما اخترته عند النظرة الأولى .

لا تعتمد على القراءة الأولى ولا الرأى الأول لكى تحدد موقفك النهائى . لا بد من قراءة أخرى ونظرة أخرى ومراجعة للرأى ، وسترى أنك أقرب إلى الحق والصواب . . . قلت « أقرب » ولم أقل إنه الحق والصواب ، لأن كليهما نسبى ، وكلما أجهدت نفسك اقتربت شيئاً فشيئاً منهما ، ولكنك لن تبلغهما ، فهما بحكم طبيعة الأشياء متغيران من وقت إلى وقت ، ومن جيل إلى جيل ، ومن عقل إلى عقل . . . إن الحق المطلق والصواب المطلق لا وجود لهما .



# المتسلق والأصيل

من النباتات المتسلق ، ومنها الأصيل . الأول يرتفع أكثر من قامته : والثانى لايتحل غير قامته . ومن الناس المتسلق يرتفع أكثر من قامته اعتماداً على الآخرين، ومنهم الأصيل الذى لايعيش إلا بقيمته الذاتية . الأول قد ينحدر من ارتفاعه فى لمحة إذا تخلى عنه الآخرون وتركوه إلى كفايته وقدرته ، والثانى لايمكن أن ينحدر من موقعه إلا إذا قصر أو أهمل أوتغافل عن تنمية مواهبه واستعداداته . . . الأول لافضل له فى ارتفاعه وانخفاضه فهو طفيلى ، والثانى مسئول مسئولية كاملة عن ارتفاعه وانخفاضه . . . الأول لايملك نفسه ولامصيره ، والثانى مالك لنفسه ولمصيره

وسألنى : أيهما أفضل المتسلق أم الأصيل ؟

قلت : الأصيل حتماً لأنه يتقدم بثبات ، ولايغتال حق أحد ، ولا يرتفع على حساب أحد .

ــ ولكنه يشقى بالعمل والجهد ، والثانى لايشقى بعمل أو جهد ومع ذلك قد يبلغ من الرقى والدرجة والمرتب والمكانة ما لا يبلغه الأول .

قلت : لاعليك ، العبرة بالنتيجة فى المدى الطويل... أرأيت إلى الشهب والنيازك فى السماء تومض لمحة ثم تتحول إلى رماد . أوَ رأيت إلى النجوم الثابتة فى السماء أقل لمعاناً ولكنها أثبت مقاماً . . . وانظر إلى النبات المتسلق على جدار أو شجرة ، لو انهد الجدار أو قطعت الشجرة فلا مجال له إلا الأرض يسبح عليها لأنه فى مستواها . . . وانظر إلى الشجرة الثابتة ترتفع أقل مما يرتفع النبات المتسلق ، ولكنها تستند فى وجودها إلى أرض صلبة . . . لايخدعك يا أخى البرق الخالب ولا اللمعان الطارئ !

# المثقف والمتعلم

سألني السائل ما هو الفرق بين المثقف والمتعلم ، والجواب أن الثقافة أعم وأرحب من التعليم . وكل مثقف لا بد أن يكون متعلماً بصورة أو أخرى ، ولكن كل متعلم ليس من المحتم أن يكون مثقفاً .

وهناك عدد كبير من المتعلمين لايعدون مثقفين لأنهم لايعدون تفكيرهم إلى أبعد من تخصصهم أولايتفاعلون مع ما تعلموا فلا ينأى بهم عن النظرة الضيقة المتعصبة سواء كانت ديناً أو قومية أوجنساً أو لوناً .

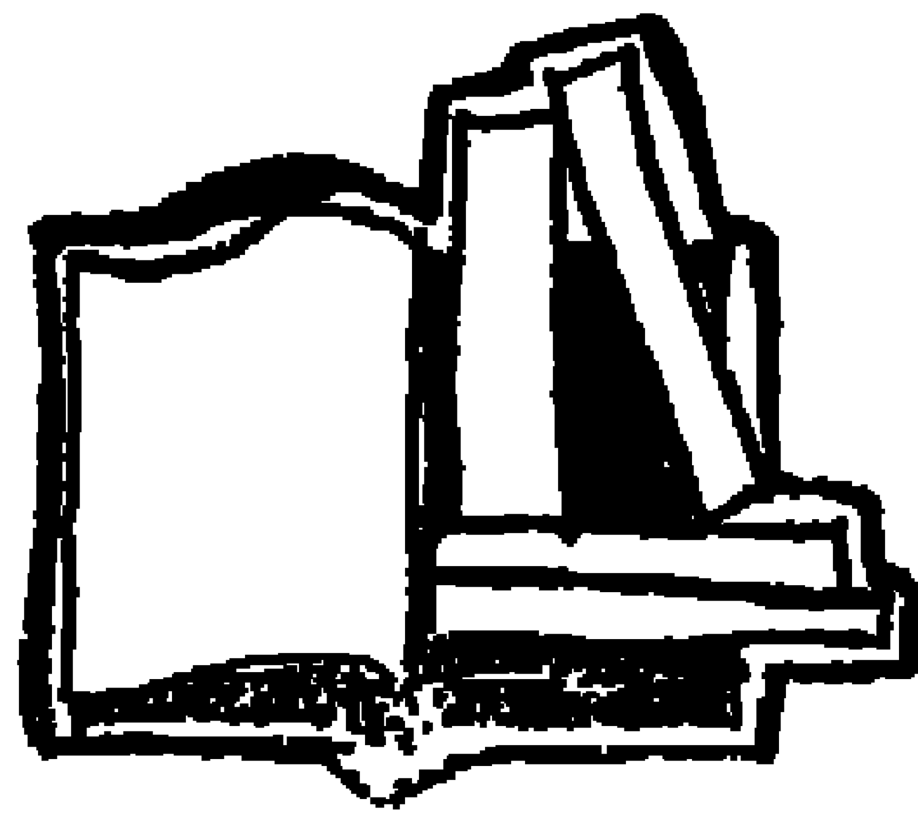
والتعليم وحده لايجعل الإنسان مثقفاً ، ولكن الذى يجعله كذلك إحساسه بالانتماء إلى الإنسانية فى أصفى منابعها الأولى ، واعتناقه مذهبها . فالمثقف ينفر بطبعه من العنف والظلم والاستغلال والاستعلاء، ويدعو إلى الإخاء والحرية والمحبة والتسامح والمساواة ، بحسبانها مطالب إنسانية طبيعية ، وأن كل ما دخل عليها إنما صنعه الناس التماساً للامتياز أو الاستغلال أو التملك والاستحواذ .

المثقف مثلا يدين المعتدين فى حرب فيتنام وحرب الشرق الأوسط ، لأنه يدين الاعتداء أيًّا كان ويقدس حرية الإنسان أيًّا كانت صلته به ، قريبة أو بعيدة ، أو لاصلة على الإطلاق ، لأن الصلة المقصودة فى ذهن المثقف هى الصلة القائمة على الانتماء إلى الجنس البشرى ، ولك أن تفسر طبقاً لهذه القاعدة لماذا طالب المثقفون فى أنحاء الأرض بإنهاء حرب فيتنام. وكثيرون منهم لايعرفونها ولا تربطهم بها أية صلة مادية من الصلات التى تحرك الناس عادة إلى اتخاذ موقف من المواقف ، وأن تفسر أيضاً لماذا يطالب المثقفون بإدانة الصهيونية ، ولماذا يتخذون منها الموقف الذى يتخذونه !

وهم على استعداد أن يدينوا أى عدوان أو أى تدخل فى حرية البشر ، سواء أكانت هذه الحرية سياسة أم اقتصادية أم اجتماعية .

وقد قلت إن المثقف لابد أن يكون متعلماً بصورة أو بأخرى ، وقصدت بهذا التعبير أنه ليس من المحتم أن يكون تعلمه منهجياً فى مدرسة أو جامعة ، بل ليس من المحتم أن يقرأ ويكتب ، يكفى أن يحصل على معلومات كافية تؤهله أن يبلغ بأفق تفكيره مرتبة المعرفة لما يجرى فى وطنه وفى العالم ، وأن يرتبط بصورة أو أخرى بالقواعد الأساسية الإنسانية التى تجعل الإنسان إنساناً . . .

وقد عرفت بعض من لايقرءون ولايكتبون أو يقرءون ويكتبون بصورة تجعلهم أقرب إلى الأميين . ومع ذلك سمعت منهم آراء ومطالب وتطلعات . وأدركت فيهم فهماً هو فهم المثقف ومنهجاً هو منهجه .



# أفلام الجنس

كثرت أفلام الجنس كثرة غير عادية . والجنس حقيقة من حقائق الحياة الإنسانية ، ولكنه ليس الحقيقة الوحيدة ، كما أنه ليس أهم الحقائق ، ثم إن الإسراف فيه غير مأمون العاقبة ، وهو مسلك يجر إلى الانحراف بالتشبه أو التأثر أو التقليد .

ولا بأس بمعالجة مشكلات الجنس فى الأفلام والمسرحيات والكتب ، ولكن المهم هو أساوب المعالجة ، فمن الأساليب ما يجعل مشكلات الجنس جديرة بالبحث والتأمل والتسامى ، ومن الأساليب ما يجعلها سبباً للإثارة وخدش الحياء وإغواء الشباب وهدم القيم وكسر الحواجز ، ودفع المجتمع إلى صورة من الانحلال والفوضى .

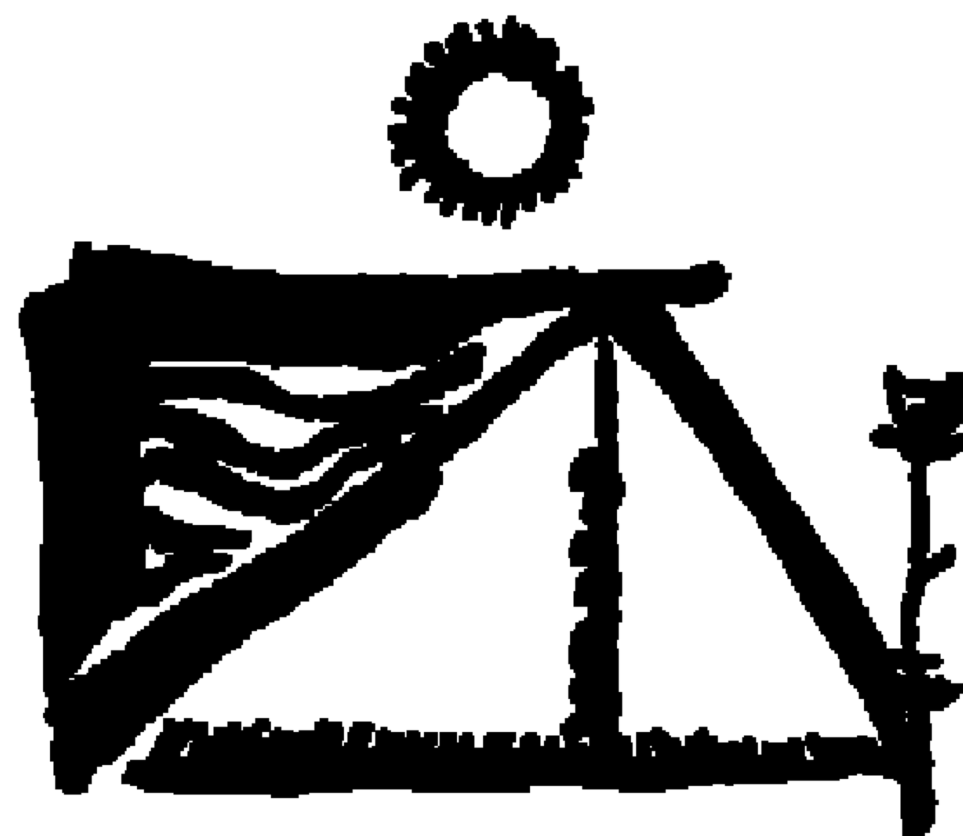
ومن حسن الحظ أن مجتمعنا لايزال سليماً قائماً على تقاليد صلبة وقيم فاضلة ، وهو على الجملة أفضل من كثير من المجتمعات ، والأسرة عندنا لاتزال متماسكة قوية مسيطرة بمثلها وقيمها ، ولاخوف عليها من الانحدار والتدهور ، ولكن الإسراف فى عرض أفلام الجنس ، وبخاصة هذه التى لايحتاج مضمونها إلى الفضائح أو ليست الفضائح عنصراً جوهرياً فيها ، يلفت نظر المشاهدين عن الموضوع — إذا كان هناك موضوع — أو عن الفكرة — إذا كانت هناك فكرة — إلى الإطار الفاضح الذى تعرض فيه ، فلا يثبت فى ذهن المشاهد سواء كان شاباً أو رجلا ناضجاً إلا هذا العرض المبالغ فيه لمباذل الجنس .

وإنى لأعرف أن فى أوربا وأمريكا موجة حادة تدعو إلى معالجة الجنس بحسبانه عنصراً هاماً من عناصر الوجود الإنسانى ، ولكننى أعرف أيضاً أن جمهرة المفكرين والمثقفين فى هذه البلاد تشكو من


MID
NIGHT
GIR
للكبار فقط

الإسراف والإسفاف . . . . لا اعتراض من أحد على معالجة جادة ، ولكن الاعتراض يرد على ادعاء المعالجة أوجعلها مدخلا للغرض الأساسى وهو ملء الفيلم بمناظر فاضحة جرياً وراء الكسب أو إغراء الناس ، وبخاصة الشباب ، على الإقبال ، ثم جمع الأموال بعد ذلك .

وما أحسب إلا أننا ، بتقاليدنا وشخصيتنا ومثلنا وعراقة فهمنا للمجتمع والقواعد التى يبنى عليها والحرص على أن تكون مصونة ومحترمة ، رافضون هذا النوع من الأفلام مهما تكن الحجج المسوّغة لعرضها .



# الواقع يسبق الخيال

قال له صاحبه : أهو الواقع أم الخيال الذى يجب أن يقود الإنسان فى الحياة . .

قال : الواقع أولا ثم الخيال .

سأل : ولماذا قدمت الواقع ؟

ـ لأنه هو وحده الذى يثبت قدمك على الأرض ويجعلك تندمج فى الناس والمجتمعات والمشكلات ، ويجعلك تعيش حياتك وعصرك ، تشارك فيه وتؤدى واجبك وتنفع نفسك والناس .

ـ ولكن الواقع فى كثير من الأحيان تشوبه تصرفات وأعمال وانتقاضات لاتتفق مع المثل العليا .

قال : المثل العليا هى الهدف الأعلى الذى يجب أن يكون السير نحوه والحرص على تحقيقه جهد المستطاع . .

ـ ولكن قلما تجد فى الناس من يؤمن بالمثل العليا .

ـ هذا نظر سطحى محض . وتأمل سير التاريخ والمجتمعات ، وتأمل ما حققته البشرية منذ وجدت حتى الآن ، تر أنها تسير على الدوام نحو الأفضل ، تحاول بلوغ المثل العليا . . تذكر عصور الاستعباد والاستغلال والإقطاع ، تصور كيف كان الإنسان فى العصور القديمة وكيف هو الآن ، وهل كان هذا ممكناً أن يقع ، لولا دوافع عامة وشاملة فى الإنسان والمجتمعات لكى يسير نحو المثل العليا . .

سأله : وهل تبلغها البشرية ويبلغها الإنسان ؟

ـ الواضح من استقراء التاريخ والمجتمعات ومن استقراء حياة الإنسان الخاصة والعامة أنه يسير نحو الأفضل . . أما هل يبلغ به هذا الأفضل المثل

العليا أو يقصر دونها فأمر لا يمكن القطع به . . حسبه أن يسير على هداها وهذا هو الخير المنتظر . ليس صحيحاً إذن أن القلة هى التى تؤمن بالمثل العليا ، الصحيح أنها الكثرة . .

— يبدو أنك متفائل !

أجاب : متفائل بأدلة وشواهد وواقع على المدى الطويل . إن ما يفسد الحكم عادة أن يقتصر النظر على نطاق ضيق وعلى وقت معين . . إن الحياة ممدودة ، والتاريخ لاحد له ولا نهاية ، وكذلك السير والتطور إلى الأفضل .



## القراءة الجادة

يتوهج التفكير بالقراءة الجادة العميقة ، ويركد بالقراءة السطحية الهشة ، ونحن فى حاجة إلى تنمية الرغبة فى القراءة الجادة والقدرة عليها ، فقد طالما أسرفنا فى القراءة السطحية الهشة فجعلت أحكامنا على الأمور وانفعالاتنا بها هشة وسطحية .والقراءة الجادة تتطلب المعاناة والفهم . ولابد لأخذ الحياة مأخذ الجد والتطور والتقدم أن تزيد حصيلتنا من القراءة الجادة ، أعنى أن تزيد حصيلتنا من التفكير المتوهج . والتفكير المتوهج هو التفكير المتطور الذى لا يربط النفس بالجمود ولكن يدفع بها إلى الحركة .

والقراءة الجادة تتطلب الكتب الجادة ، فلا فائدة إذا وجدت الرغبة ولم توجد الوسيلة . وما يقال عن القراءة يقال عن الأفلام والمسرح والأدب والفن . والذى ألمحه ويلمحه كثيرون غيرى أننا نسرف فى السطحية ونناى عن العمق والفهم والإدراك السليم . ولاعبرة بما يقال من أن الجمهور يريد السطحية أو الهش من التفكير والتصور والتعبير ، فهو قول العاجزين أو قول الذين لايريدون أن يبذلوا الجهد ويتحملوا آثار المعاناة ، ثم إنه لايطلب منا أن نعطى الجمهور ما يريد ، لكن يطلب منا أن نعطيه ما نعتقد أنه الوسيلة لرفع تفكيره وصهر ملكاته وحمله على أن يبذل بعض الجهد ، أو كل الجهد فى التذوق . . . والشعوب لا تتقدم بالكسل والحياة السهلة ، والتذوق السطحى ، ولكنها تتقدم بإعمال الفكر والمعاناة وطلب الصعب والتضحية فى سبيله — وقد انحدرت حضارات كانت مزدهرة بالتراخى والإهمال والركون إلى حياة الدعة وطلب اللذات ، وازدهرت شعوب وملكت السيادة والسلطان

بالمشقة والصبر على المكاره ومعالجة التطلع إلى المراتب الأعلى .

ولست أريد أن أخص شيئاً ، أو أشير إلى مظاهر التراخي والإهمال وإيثار السير السهل فى حياتنا ، وحسبي أن أنبه إلى ما ينبغى أن يكون ، والأمر بعد ذلك موكول إلى من بيدهم الأمر .



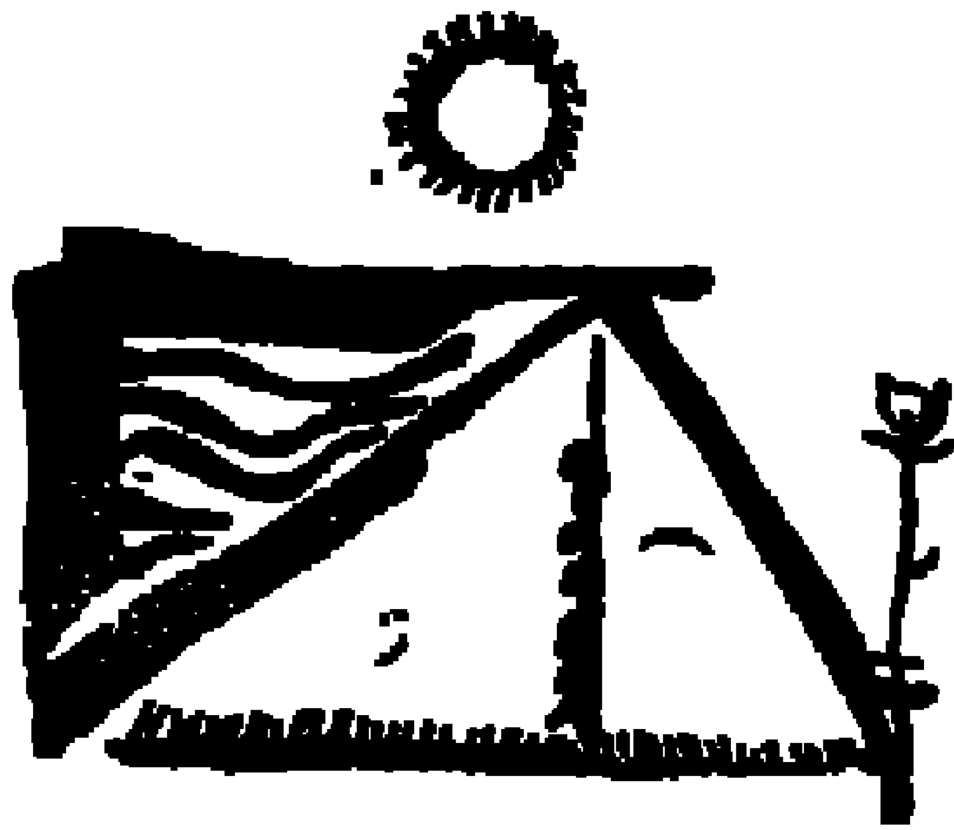
# العقل الفارغ

الفراغ فى العقل يعنى الصخب والضجيج فى الحديث والنقاش والتفكير والتصرف . فإذا رأيت إنساناً يسرف فى الحديث ويسرف فى الضجيج ويسرف فى إصدار الأحكام القطعية فاعرف أن عقله فارغ ، وإذا رأيت إنساناً آخر لايتكلم إلا بمقدار ، ولا يصدر حكماً ، قطعيًّا إلا بعد بحث ودراسة وتأمل ، بل يكف عن إصدار الأحكام القطعية إطلاقاً ، فاعرف أنه إنسان أوتى من المعرفة والتعقل والفهم قدراً كبيراً ؛ واعرف أنه إنسان يؤثر أن يعرف لقدمه قبل الخطو موقعها .

وطالما تمنيت أن يكون العقل والبحث والدرس ملاك تصرفنا ، إذا تصرفنا ، وملاك قولنا إذا قلنا ، وملاك حكمنا إذا أصدرنا حكماً من الأحكام ، وطالما تمنيت أن نخرج بذلك من مرحلة العاطفة المتأججة من غير طريق أو حل أو درس أو فهم إلى مرحلة العقل التى ترسم الطريق وتلتمس الحل .. التى تفكر كثيراً ولاتتكلم إلا قليلا .. كل شىء عندها بالتخطيط والدراسة وليس بالتهويش والضجيج والصخب .

والذى يراقب حياتنا العامة والخاصة يلاحظ أننا منذ أمد طويل نسير فى الطريق إلى مرحلة العقل ، والعقل هو العلم والمعرفة . فنحن فى حياتنا الاقتصادية نتبع التخطيط ، وفى كل فروع الإصلاح نؤثر الدراسة والفهم ، وفى حياتنا السياسية لم نعد نعتمد على التحمس والعاطفة ، بل أصبحنا نؤثر عليهما الدرس المتأنى والتفكير المنظم والإحاطة الشاملة والخطوات المتئدة ، والأمر كذلك فى حياتنا الثقافية ، لم تعد تسير خبط عشواء من غير منهج مدروس ، بل أصبحت قائمة على التخطيط والنظر إلى بعيد .

ويوم نتخلص تخلصاً تاماً من غلبة العاطفة على العقل ، يوم نثق أننا وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح للتقدم والرخاء والعزة التى لا يفكر أحد فى الاجتراء عليها ، والكرامة التى تعز على كل منال .



# الإنسان يدور حول نفسه

قراءة التاريخ متعة . إنه يلخص لك الحياة الغابرة ، ولكنك تجد فيها سمات الحياة المعاصرة . . إن الإنسان لم يتغير كثيراً على نحو ما يبدو لأول وهلة .. إنك تستطيع أن تجد نظائر لاحصر لها لكل ما يحيط بنا من أحداث وتطورات ومناسبات وشخصيات ، وقعت وعاشت ونمت وتفاعلت منذ مئات السنين ، بل منذ آلاف السنين . ولذلك خلد الفن الأصيل والأدب الأصيل الذى خلقه الإنسان منذ أجيال وأجيال ، نراه ونقرؤه الآن ، ونشهده على خشبة المسرح ، فننفعل به ونتجاوب معه ونعيش أحداثه وعواطفه وغرائزه وتصرفات أبطاله كأنهم بضعة منا وكأننا نحن الممثلون ، وكأن ما يفصل بيننا وبينهم من مئات السنين ليس إلا لمحة أو طرفة عين .

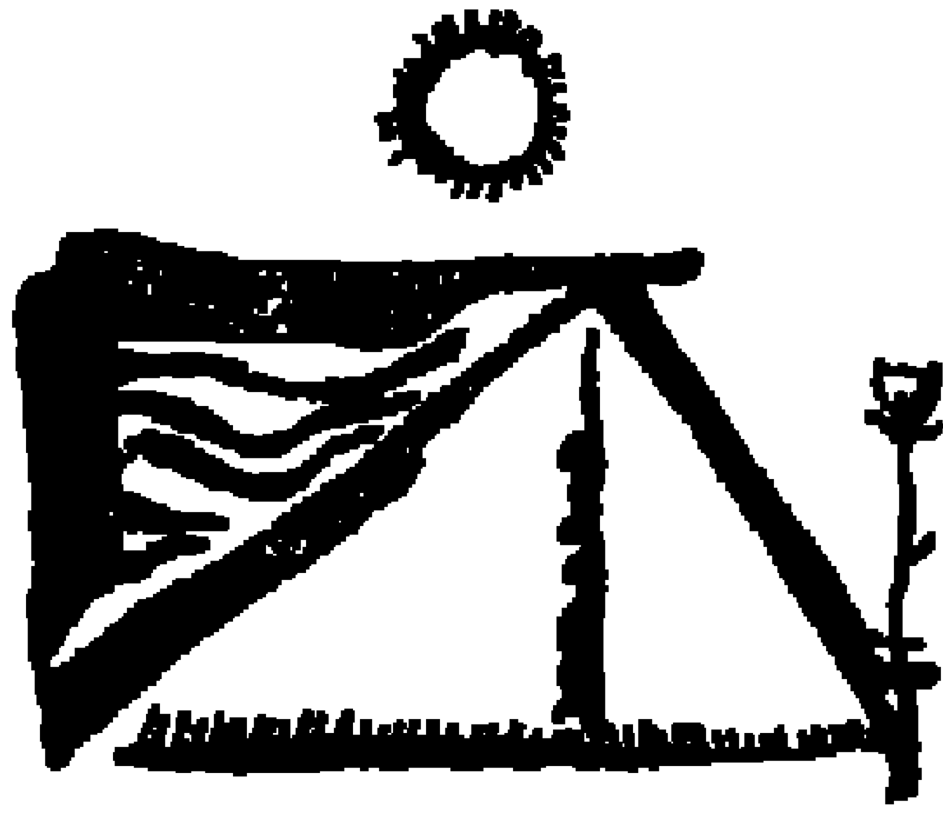
إن النفس الإنسانية فى جوهرها لم تتغير كثيراً . . ما تغير هو الصور والأشكال وفنون اللبس واللهو وأساليب العيش ورفاهية الحديث وأناقة التعبير ، أما الأعماق البعيدة فباقية كما هى لأنها موصولة بما هو أبعد من الظاهر ، وما هو أعمق من الأشكال والصور .

الزنجى من أواسط أفريقيا الذى يعيش حضارياً منذ عشرين قرناً يضع على صدره وحول عنقه الخرز والصدف ويتزين بالوشم والطواطم . . ما الفرق بينه وبين من يعيش عصره ، ويضع على صدره الأوسمة أو يلف حول عنقه سلاسل الخنافس وما أشبهها ؟

العواطف الملفوفة فى أريج الزهر وعطر البنفسج ، الملونة بالهمس الرقيق والغزل الأرق ، ما الفرق بينها وبين عواطف الإنسان منذ مئات السنين ، بل منذ آلاف السنين ، حينما كان الصخب هو وسيلة التعبير ، وقوة

الجسد هى وسيلة الفوز والوصول . . ما الفرق ؟ أليست النتيجة واحدة ، والجوهر هو المقصود . . إنها صور متغيرة وحقائق إنسانية ونفسية ثابتة .

اقرأ التاريخ وتأمل ، تجد أن الإنسان يدور حول نفسه . .



# الانعزال هو الضمور

الإنسان المرتبط بوطنه وأحداثه وتطوراته وهمومه إنسان يعيش ، وهو إنسان نافع للوطن ولنفسه ، فإنك لاتستطيع أن تعيش منعزلاً عن مجتمعك ووطنك ، لأنك بذلك تفقد الجذور التى تربطك بالحياة . والإنسان الثابت فى الحياة هو الإنسان المرتبط بأرض ومجتمع وناس ، وإلا كان يعيش فى فراغ وكأنه معلق فى الهواء .

فالذى تسأله عن شىء يتعلق بالوطن ومستقبله ومصيره فيقول لك إنه لا يعرف ، أو لا يهتم ، أو إنه لايشغل نفسه بمثل هذه الموضوعات ، إنسان يعيش على الهامش ، أو لايعيش على الإطلاق . . . يقول لك إنه لايعتنى بشىء آخر غير شئون معاشه وأسرته وأولاده، وأحياناً ، إذا لم يكن متزوجاً وذا أسرة، فإنه يقول لك إنه لايعنيه شىء إلا أن يوفر لنفسه ما هو فى حاجة إليه لمتعته وسروره ، إنه إنسان يعيش فى فراغ ، فى تيه بين نفسه وبين الناس ، وهو إنسان منقطع الجذور أو لا جذور له ، هو نبات طفيلى شيطانى ، هزة ضعيفة من ريح أو نفخة رقيقة من مسئولية ، فضلا عن كارثة ، جديرة أن تهده وتذروه مع الرياح .

وإنى لألتقى بعض هؤلاء الناس وأعجب بينى وبين نفسى ، لماذا يعيشون ؟ بل كيف يعيشون ؟ وأتساءل كيف يمكن أن يوجد إنسان يعيش لنفسه فقط ؟ ومن حسن الحظ أن عددهم قليل ، ولكن مجرد وجودهم ظاهرة تستحق النظر ... إن الحياة لم توجد مفردة ولامنعزلة ، بل وجدت وفى خاطرها ومن طبيعتها التجمع والالتقاء والتفاهم والعمل معاً . إنها وجدت لتبقى وتزدهر وتتفاعل ، ترى ذلك فى كل الكائنات الحية فى عالم النبات والحيوان ، كما فى عالم الإنسان .

وهى ، بهذه المثابة ، تقضى على المنعزل بالضمور والضعف ، وتقضى عليه جسميًّا ونفسيًّا وعقليًّا ، على حين تمنح الذى يسير على ناموسها من حيث التجمع والتآلف والمحبة والتعاون ، صحة جسدية قوية وابتسامة مشرقة تنبع من نفس راضية وإشعاعاً ينبعث من عقل يفكر وقلب ينبض من أجل الجميع .



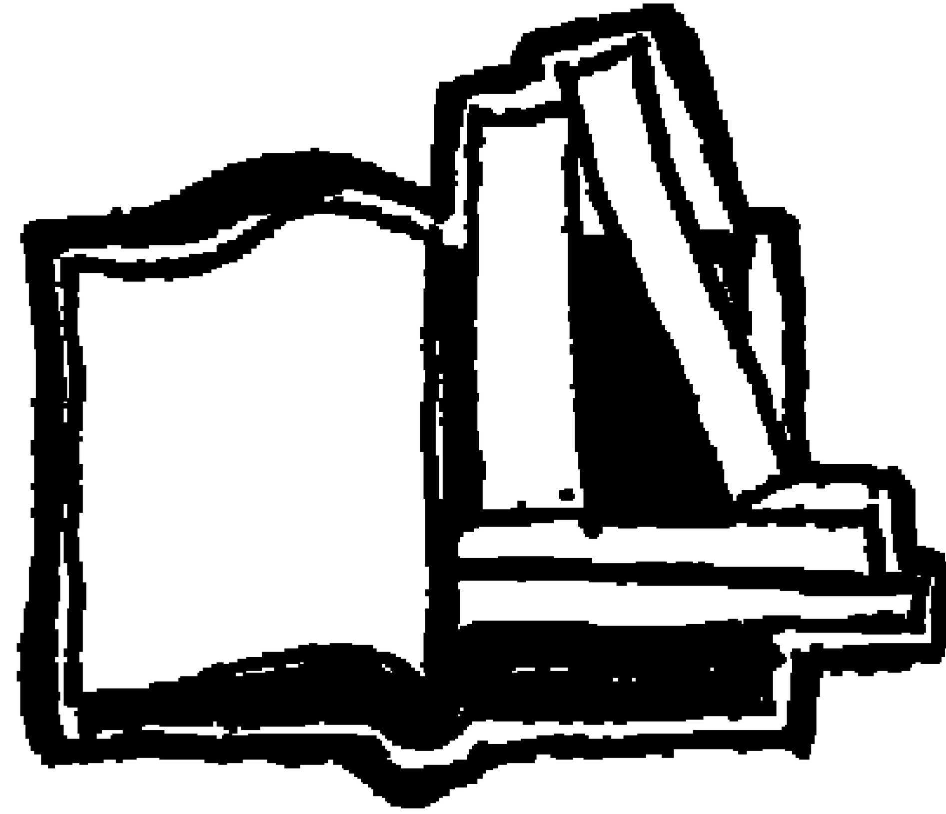
# الاختلاف والاتفاق

قال له صاحبه : علمت أن الناس أنواع وأجناس وعقليات ونفسيات ، وأنك قلما تجد إنسانين صيغا فى قالب واحد : إن تشابها فى الجسم ، اختلفا فى العقل ، وإن تشابها فى التفكير اختلفا فى التصرف ، وإن تشابها فى الجسم والعقل والتفكير اختلفا أيضاً . . وإنى لأفهم الاختلاف فى الحالتين الأوليين ، ولكننى لا أفهمه فى الحالة الثالثة ؟

قال إن المشابهة التى قررتها فى الحالتين الأوليين لايمكن أن تكون كاملة ، ومن باب أولى ما قررته فى الحالة الثالثة . . فماذا تعنى بتشابه اثنين فى الجسم ؟ . . إنه تشابه خادع فى الشكل ، فى الطول والعرض والملامح ، ولكن كيف يفعل الجسم ويتفاعل ، كيف تنمو أوتضمر الأعصاب ، المخ ، العقل ، الإدراك... انعكاس الأشياء والأفعال على الجسم ، كل أولئك مواقع اختلاف لاشك فيه . وماذا تعنى بتشابه اثنين فى العقل؟ هل تقرره لأنهما يصلان إلى نتيجة واحدة فى المشكلات والقضايا ، أو لأنهما يتفقان عادة فى الآراء والاتجاهات . . . ربما كان هذا هو السبب فيما تقول من تشابه العقلين ، ولكننى أقول لك إنه تشابه خادع أيضاً فقد تصل أنت وصاحبك إلى نتيجة واحدة فى مشكلة من المشكلات ، ولكن المسالك التى سار فيها عقلك تختلف حتماً عن المسالك التى سار فيها عقل صاحبك . واختلاف المسالك جوهرى وإن اتفقت النتيجة . . اصبر على صاحبك بعض الوقت ، وعش أنت وهو ظروفاً مختلفة ، فسترى أن النتائج بينكما اختلفت حتماً لوجود ظروف جديدة مضافاً إليها اختلال المسالك السابق على بلوغ النتيجة .

لا تتعب نفسك ياصاحبى فكما اختلفت بصمات الأصابع بين

الناس على هذه الأرض ويعدون بثلاثة آلاف مليون ، كذلك اختلفت عقلياتهم وأجسادهم ونفوسهم وقلوبهم ، والحكمة أرادت الطبيعة ذلك ، فالاتفاق التام بين الناس مستحيل . قد يتفقون فى بعض المشاعر والآمال والتطلعات ، ولكنه اتفاق جزئى أما الاتفاق الكلى فى جميع الأشياء والأفعال والاستعدادات والهيئات فأمر لم ترده الطبيعة ، وإرادة الطبيعة غالبة ، وهى إرادة خير بالإنسان ، فإن الاختلاف رحمة ودافع إلى التطور والتقدم لكى تحلو الحياة .



# عقول القطيع

قال له صاحبه: أرأيت إلى فلان هذا، مرت به تجارب كثيرة مارسها وخبر حلوها ومرها ، لماذا إذا واجهته تجربة مشابهة استقبلها وكأن لم يشهد مثلها ، وقد عرفت أن التجربة خير معلم ، فما له لا يتعلم منها ؟

قال : التجربة تمر ببعض الناس وكأنه حجر أملس تنزلق من على سطحه دون أن تترك أثراً وتمر بآخر فإذا هو يستوعبها ويستنشقها ، تدخل فى دمه ووعيه وتصبح جزءاً من خلقه وسلوكه وشخصيته .

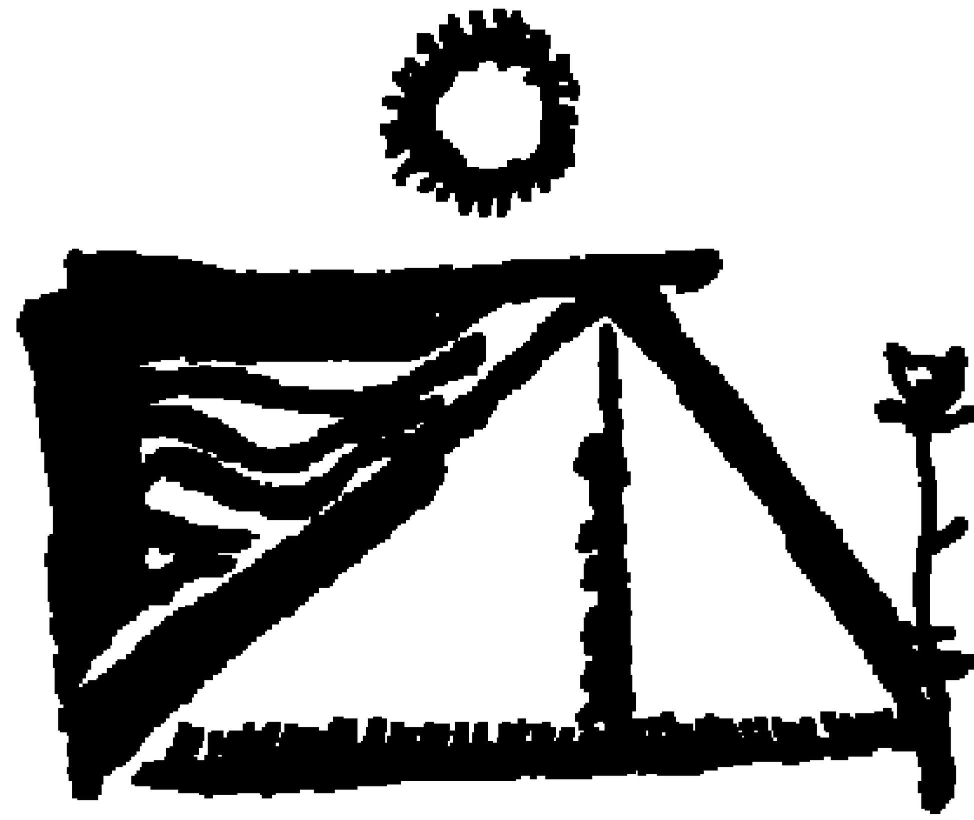
سأل : ألا توجد سبيل يتعلم بها الإنسان كيف يتعلم من التجربة ؟

قال : التجربة درس عملى . وما تتلقاه عن معلمك وأستاذك فى المدرسة والجامعة درس نظرى . ومن الناس من يحفظون عن ظهر قلب ما تلقوه فى المدرسة والجامعة ، فإذا مارسوا الحياة العملية لم يعرفوا كيف يطبقون ما تلقوه على ما يعرض لهم . . . إنهم مجرد ببغاوات يحفظون ما يلقى عليهم ولكن لا يهضمونه ولا يتمثلونه ولا يضيفون منه شيئاً إلى شخصياتهم وذواتهم ، وأمرهم كأمر هؤلاء الذى يعانون التجربة فتنحدر من سطح أملس إلى الهواء وكأنها لم تكن ولم تكن معاناة . . .

سأل : عن ضعف فى الذاكرة أو ضعف فى العقل ؟

قال : لا عن ضعف فى أيهما ، ولكن من الناس وهبوا عقولا تستوعب وتبدع ، ومنهم من وهبوا عقولا تسمع وتكرر ،

تمتص الرحيق وتفرزه كما هو بلا زيادة ولا نقصان .
الأولون أصحاب الإبداع والجديد والرأى والحركة ، والآخرون أنماط متشابهة يتبعون ولايقودون ، لهم عقول ولكنها عقول القطيع .



# الأردية فى الدنيا كثيرة

بعض الرذائل تتخلى عنا ، تهجرنا ، تتركنا لأسباب عديدة ، فقد نصبح غير قادرين على ممارستها ، أو تصبح ممارستها باهظة التكاليف بالقياس إلى قدراتنا ، وقد تكون هذه التكاليف مالية أو صحية أو جنائية . ولا ينبغى فى هذه الحالة أن ندعى لأنفسنا فضلا فى تركها أو ننتحل بطولات لا وجود لها . .

عرفت من كف عن شرب الخمر وممارسة الرذيلة لأن صحته ساءت وأمواله تسربت من بين يديه فاستبدل بها الصلاة والصوم واصطناع الفضيلة والصلاح ، وأضحى أشبه بالحمامة الوديعة بعد أن كان كالصقر الجارح ، ثم شفى من مرضه وجرى المال مرة أخرى بين يديه ، فخلع ثوبه المستعار ورجع إلى ثوبه الأصيل أشد نهماً .

وهذا الطراز من الناس تلقاه فى كل مكان . فإن من العفة ألا تجد . فصاحب الذمة الخربة قد لا يمارس السرقة والاختلاس لأنه لا يجد من يسرقه أو ما يختلسه ، أو لا يجد الوسيلة إلى أيهما ، والعفة هنا رداء زائف ، وقد يختلط أمره على الناس ، فيثقون فيه ، ويسلمون إليه شأنهم ، ثم يكون منه ما يكون من الثعلب ، ينقاد إليك ضعفاً ، فإذا واتته الفرصة شد عليك الوثاق .

الأردية فى الدنيا كثيرة ، والمظاهر المحكمة خادعة باطشة ، والفضيلة المنتحلة عن عجز أو ضعف أسوأ من الرذيلة التى يمارسها صاحبها عن قوة وبطش . . . الأولى رداء براق يخفى أنياباً كاسرة ، والبريق يعشى العيون ويبهرها فلا تميز بين الصدق والكذب ، وبين الثوب الموشى من فضيلة

أصيلة والموشى من رذيلة خفية ، والثانية واضحة معلنة تستطيع أن تواجهها وتحتميها .

ولكن كم من الناس يلبس ثوبه الأصيل ؟

والشاعر يقول :

البس لكل زمان بردة حضرت
حتى تحاك لك الأخرى من البرد



## يخدع نفسه

أرأيت إلى إنسان ذى وجهين ، يحدثك بلسان حاو ، فإذا توليت عنه سلقك بلسان حاد . .

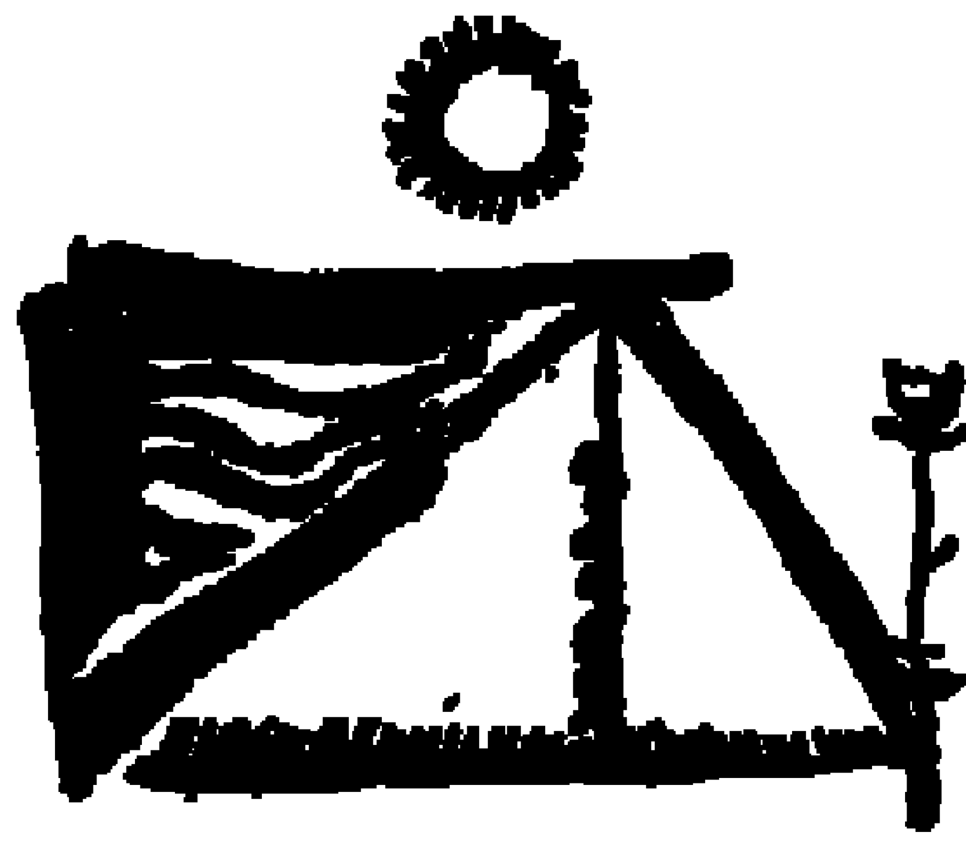
أرأيت إلى من يدخر لنفسه وجوهاً عدة يرتديها فى كل حالة طبقاً لظروفها ، فهو أشبه بالممثل على المسرح ، ليلة يرتدى ثياب أمير وغداً ثياب شحاذ ، فى ليلة رجل أمين صادق ، وفى ليلة أخرى رجل مخاتل مخادع ، وفى ليلة ثالثة مهرج مهزار ، وفى ليلة رابعة رجل وقور مهيب ، فإذا انفض التمثيل ارتدى ثيابه الحقيقية ، فلم تعد تعرف إلى أى من أدواره ينتمى ؟

أرأيت إلى إنسان قلما تراه إلا باسما باشًّا مقبلا عليك كأنك صديق صدوق ، ويصنع الشىء نفسه مع كل الناس ، حتى لكأنهم جميعاً له الأصدقاء الخلصاء ، وتعجب بينك وبين نفسك من هذا الملاك الذى ألغى من القاموس كلمة الأعداء ، وجعل كل الناس له خلصاء . وتسأل ربك وربنا أن يجزيه خير الجزاء ، وأن يجعل منه قدوة صالحة للأصدقاء والأعداء . .

أرأيت إلى هذا الإنسان ، إذا عرفت سريرته ، فطالعتك منها صفحة سوداء ، ماذا تقول عنه وبماذا يكون حكمك عليه وعلى الناس ؟ تقول إنه ماهر والناس بلهاء . . تقول إنه ساحر والناس عوام جهلاء . . تقول إنه حكيم والناس أغبياء . . أم تقول مخادع لايخدع إلا نفسه ولابد أن ينكشف عنه ذات يوم ما تستّر به من غطاء !

القول الثانى أجدر به وأصدق ، فإن فى الناس لمسة من الفطنه خافية ،

وفيهم لمحة من حبس لا يخطئ ، إذا انخدعوا مرة فلن ينخدعوا كل مرة ، وإذا غشيت عيونهم غاشية فإنها عما قريب تنجلى ، فإذا ابتسم هذا الخبيث بدت لهم وراء ابتسامته خلقة شوهاء ، وإذا ضحك برزت لهم وراء أسنانه داهية دهياء . . يحسب أنه يخدع الناس ، وما يخدع إلا نفسه .



## وحدة العالم

الأدب والفن والثقافة والعلم لا وطن لها ، فوطنها العالم كله ومصدرها الإنسانية ، بجذورها القديمة الضاربة منذ الأزل ، الذاهبة إلى الأبد . ومن هنا كان التراث الثقافى والأدبى والفنى ملكاً مشاعاً للجميع . وما استحدث من نظريات وما وصل إليه العلم من كشوف واختراعات ، شبيهة بما حققه الفن والأدب من تعبير عن النفس الإنسانية وتصويرها ، كل أولئك لايبحث الناس عن صاحبه ، وما إذا كان من هذه الجنسية أو تلك ، من هذه القومية أو تلك ، من شعب صديق أو عدو ، وإنما يستمتعون بالكشف والاختراع ، بالفن أو الأدب كتراث إنسانى حضارى.. والآثار القديمة بعض هذا التراث ، لأنها بعض حياة الإنسان وتطوره من مرحلة حضارية إلى مرحلة حضارية ، فهى ملك للجنس البشرى وإن كانت تنتمى بالمولد والمكان إلى أرض معينة وشعب معين .

كان هذا هو الشأن فى معابد أبو سمبل ، تنتمى من حيث المولد والمكان إلى الفراعنة وأرض النيل ، ولكنها من حيث القيمة الثقافية تنتمى إلى الجنس البشرى كله ، ولذلك لقيت الدعوة إلى صيانتها والاحتفاظ بها تقبلا وارتياحاً ومساهمة من كافة الأجناس والقوميات والحضارات .

ومن مفاخر وطننا أنه أعطى الحضارة بعض ركائزها العميقة العريقة ، ومن مفاخر الجنس البشرى أنه قادر فى كل الظروف وعلى الرغم من كل الظروف على الارتفاع إلى المستوى الإنسانى . وقد شعرنا بكل هذه المعانى ونحن نرى ممثلى ٤٠ دولة من دول العالم ليسوا كلهم أصدقاء ، قد اجتمعوا فى أخوة رائعة للاحتفال بالنجاح الباهر الذى صاحب

العلماء والفنانين والعمال من كافة الأرض فى إنقاذ بعض معالم الحضارة القديمة . إن نشر الثقافة والفن والعلم والأدب هو أقصر الطرق للقضاء على الفروق والحزازات والعداوات وأسباب التعصب بين بنى الإنسان ، سواء كانت ترجع إلى الجنس أو اللون أو الدين أو الدم .



## البساطة

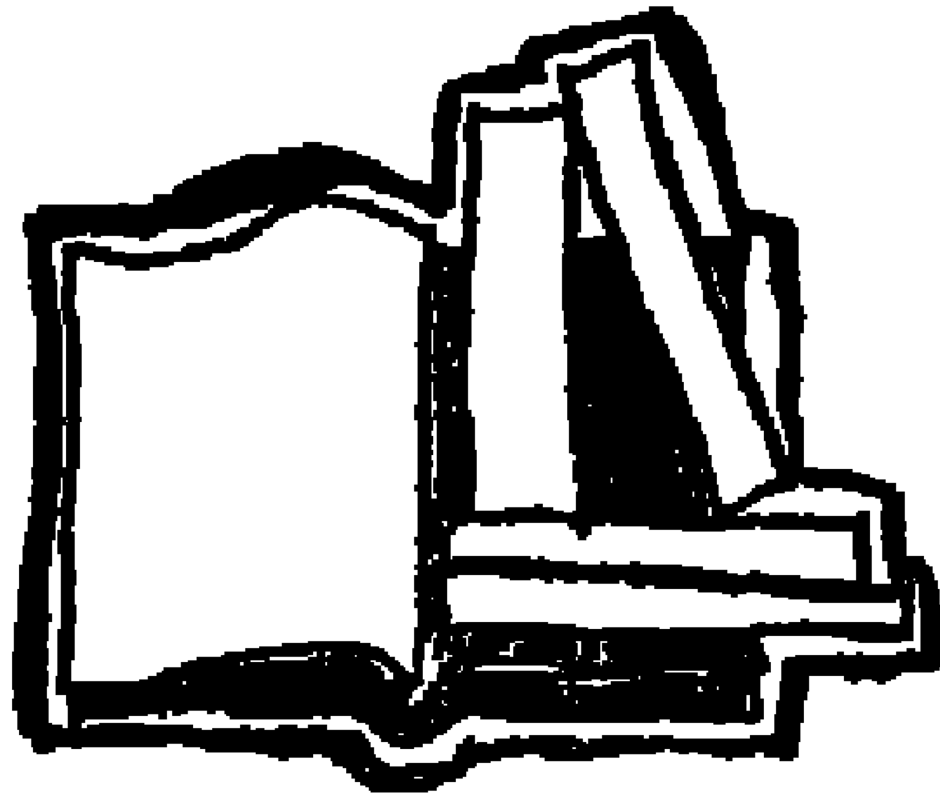
البساطة هي الجمال ، وكالبساطة الوضوح ، فالإنسان البسيط الواضح أقرب إلى العقول والقلوب من الإنسان المعقد الغامض ، وحينما أقول البساطة أعنيها فى التصرف والحديث والإشارة ، كما أعنيها فى اللباس والطعام ، وعلى الجملة أنظر إليها كسلوك فى الحياة . والبساطة تعني الصدق . والصدق لا يكون فيما تنقل من أخبار أو تعتنق من آراء فحسب ، ولكنه يكون أيضاً فيما تظهر به أمام الناس ، محبا أو كارهاً ، متعاطفاً أو ساخطاً ، راضياً أو غاضباً . والرياء لايجذب إليك القلوب ، حتى ولو كنت فى كل الأحوال المجامل المبتسم العطوف . . فنى كل هذه الأحوال ، إن لم يكن الصدق وراءها جميعاً ، فقدت هذا الشعاع الإنسانى الخنى الذى يربط بين القلب والقلب .

ومن الابتسام ما تكرهه وتنفر منه ، ومن الغضب ما يحلو لك وتتعاطف معه ، لأنك تحس فى الأول الرياء وتحس فى الثانى إشراق الصدق وبساطة الانفعال . والابتسامة الصادقة تمنحك الصحة الجيدة إلى جانب ماتمنحك من تعاطف الناس معك ، والابتسامة الصفراء لا تعطى إلا مشقة التصنع ، والتصنع يثقل على الأعصاب ويتلفها ويباعد بينك وبين الناس .

عرفت من الناس من يريح النفس النظر إلى وجهه ، وعرفت منهم من يتعبها النظر إليه . والجمال راحة للنفس والقبح إرهاق لها ، فليس الجمال تناسباً فى التقاطيع ، ولكنه قبل كل شيء ، إشراق فى النفس ، والنفس الجميلة أشد تأثيراً من الوجه الجميل ، فليس لمن لم يوهب الوسامة

أن يأسو ، فإنه قادر بنفس طيبة راضية أن يبلغ بها ما لايبلغ بالجمال . وقد كان الجمال فى أحيان كثيرة نقمة على أصحابه ، ولكن النفس الراضية المطمئنة لاتكون إلا نعمة من الأنعم المضيئة .

الجمال عارية مستردة ، والنفس الطيبة جوهر لايسترد .

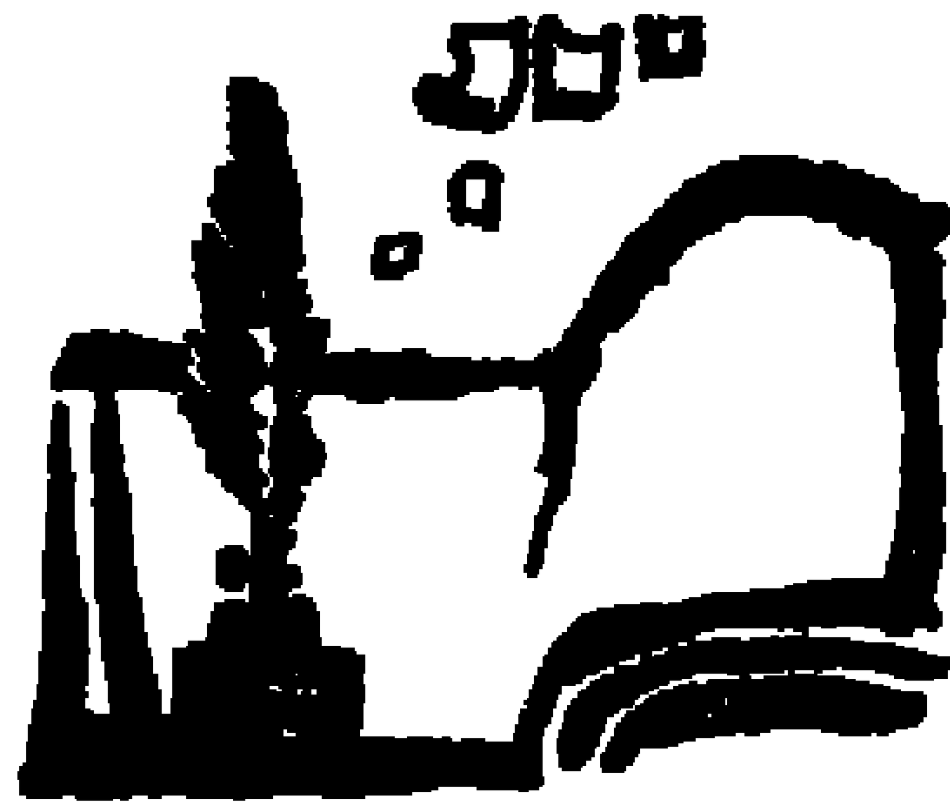


## التنظيم

هل أنت منظم فى حياتك ؟ هل تعرف مالك وما عليك ؟ أستطيع أن أجيب نيابة عنك وعنا ، نحن المصريين ، أن أكثرنا لايعرف النظام فى حياته ، لافى مواعيده ولا فى وقت راحته ووقت عمله لا فى وقت جده ولا وقت عبثه .. وأكثرنا يعتذر عن ذلك بأنه يتركها لله ... ولابأس من أن نترك كل شىء لله بل إنه فعلا له ، سواء أردنا أم لم نرد ، ولكن الذى لاينبغى أن يكون أن تصبح حياتنا بغير قيود وتنظيم . نحن لا نقل عن أعظم الشعوب رقياً فى الذكاء والمقدرة على الابتكار ، نحن لسنا شعباً نمطياً ، وأعنى بالشعب النمطى الشعب الذى يسير على وتيرة واحدة وليست لديه القدرة على الخلق والإبداع . . كل الذى ينقصنا هو النظام والتزامه والدقة فيه ، وهو نقص يجنى على الذكاء والاجتهاد والجهد فى العمل ويقلل حصيلتها إلى حد كبير ... والنظام لايحتاج إلى ذكاء أو قدرة خارقة، يحتاج فقط إلى التعود . ولو سألت أى مواطن فى الدول المتقدمة فى الحضارة والعلم والإنتاج عن برنامجه فى شهر قادم أو شهرين وربما فى سنة ، لأعطاك بياناً كافياً مدروساً . . . نفقاته ومشروعاته فى عمله ورحلاته للترفيه ، مواعيده والتزاماته القريبة والبعيدة ، متى تحل عليه أقساط الأشياء التى اشتراها بالأجل . وعلى الجملة كل ما يمكن أن يخطر على بالك بما فيه الرسم لمستقبل أولاده القريب والبعيد . من منا يفعل ذلك ؟ قلة دون شك ، وهذا سبب من أسباب تخلفنا سواء فى العمل الخاص أو العام ، سواء فى حياتنا كأفراد أو حياتنا كشعب .

ماذا عليك لو بدأت بوضع تخطيط واف لعام فى حدود إمكانياتك وظروفك مع حساب كل الطوارئ . . إنك لو فعلت هذا ، فسترى كم

أرحت نفسك من الارتباك والقلق ، وفرغت إلى عملك تؤديه على أحسن وجه ، وإلى شئون أسرتك ترعاها فى هدوء ودقة ، وإلى الشئون العامة تستوعبها وتشترك فيها بذهن صاف ، وسترى أن صلاتك بأصدقائك ومجتمعك تحسنت وتوثقت لأنك قطعاً ستفى بمواعيدك وتعهداتك ، وستؤدى واجباتك الأسرية والمهنية والتقليدية من غير عناء . إن النظام يضاعف الوقت ، ويريح العقل والجسد ، ويزيد من القدرة على الإنتاج ويجعل الإنسان متحضراً فى تفكيره وسلوكه .



## الخيط المقطوع

وأخذت الفتاة إبرتها بين يديها واسترسلت تجمع خيوطاً بعضها إلى بعض.

وسألها زوجها : ماذا تصنعين ؟

قالت : « جرسي » .

قال : لمن يكون ؟

قالت : لمن تظنه ؟

قال : لك ؟

نظرت إليه بعينين فيهماعتب واستسلام وإيمان وقالت : لى أنا؟ كلا. بل هو لك . كل شىء لك . أما أنا فدعك منى ، ولست آسفة إلا على شىء واحد . كنت أحب أن أعيش لأرى آمالك كلها قد تحققت ، ولكننى سأرتاح فى نهايتى ، إذ أشعر أنك موفق فى الحياة وأنا واثقة من ذلك فأنت تستحق كل خير . وإنسان آخر غيرك كان قد ضاق بى . ولست مستطيعة أن أجزيك شيئاً فالله يحفظك ويحميك .

قال : إن الشباب يملأ وجهك نضرة وعينيك بريقاً ، ستعيشين ستعيشين .

قالت : اسألنى ، فأنا أعرف .

ورفعت إليه عينين فيهما شعاع غريب من السلام واليأس وسألت : أتلك التى تحب إنساناً فى الحياة يكون من نصيبها بعد الموت ؟

قال : إنك تذهبين إلى تصورات بعيدة ، نحن هنا فى الدنيا ، ما لنا وللموت !

قالت : إن هواجس نفسى لاتكذب . ثلاثة أشهر أو أربعة، أتعد بأن تزور قبرى ؟ إنى لا أكلفك كثيراً ، كل شهر مرة .

ولم يكمل « الجرسى » الذى كانت تصنعه للشتاء ، انقطع الخيط . ثقل عليها المرض . صدقت النبوءة والهواجس . وبعد ثلاثة أشهر كانت تثوى فى قبرها .

وكانت أشهراً قاسية . وكان هذا الشاب قليل التجربة فى الحياة ، لم تكن قد ضغطت عليه هذا الضغط العنيف ، ولم يكن قد شهد من قبل حياة تتسرب من مريض فى مثل هذه القسوة ، فلم يكن له ملجأ إلا ربه ودموعه ، كان يخلو إليها فى سكون الليل وأنفاس هذا الطفل الصغير تتردد إلى جواره ، حتى إذا أصبح الصباح وفتح الطفل عينيه ، بسم أبوه فى وجهه وقال :

— هيا يا بنى ، انظر هذه اللعبة لك ، هذا « الأتومبيل » الكبير ، قطار « الديزل » ، سأشترى لك اليوم بندقية .

وينطلق الطفل لاهياً بأتومبيله وقطاره .

— بابا . . . بابا الديزل بيجرى عليك .

« أنا عارف إن ماما لما تيجى حتفرح بيه . ابعت لها جواب قول لها : إننى اشتريت ديزل زى ديزل حلوان » .

# عيد الميلاد

منذ أكثر من مائة سنة زار الكاتب الأمريكي « واشنجطون إرفنج » إنجلترا ، وقضى فيها أشهراً ، شهد خلالها الاحتفال بعيد الميلاد . وكتب على إثر عودته إلى أمريكا فصولا رائعة رسم فيها صوراً باهرة للحياة فى إنجلترا . تحدث عن كنيسة وستمنستر ، وستراتفورد أون آفون ، وجنازات الريف ، وجون بول ، وبريطانيا الصغيرة ، ويوم الأحد فى لندن ، وآثار لندن ، ومساء عيد الميلاد ، ويوم الميلاد ، وعشاء عيد الميلاد .

وفى كل هذه الفصول لم تتخل عن « إرفنج » دقته فى التصوير ، وبراعته فى النفوذ إلى القلب ، وإجادته التعبير عن مشاعر النفس . وإنك لتحس دائماً وأنت تقرأ « إرفنج » كأنما نفسك هى التى تتحدث ، وكيانك يهتز لكل مشاعره وانفعالاته .

والفصول التى كتبها عن عيد الميلاد ، لم يكتبها كمسيحى ، لكن كرجل تتفجر فى نفسه ينابيع المحبة ، وعواطف الرحمة والإيثار والاحتفال بكل ما هو إنسانى ، وبكل ما هو سام ونبيل . انظر إلى هذه العبارات التى كتبها مساء عيد الميلاد فى إنجلترا .

« ولرجل غريب مثلى فى هذه البلاد لم يكن هناك من قلب ينبض له ، ولا بيت يفتح بابه ، ولا صداقة حارة تستقبلنى عند عتباته ، ومع ذلك شعرت كأن روح اليوم يلتمع فى نفسى من النظرات الهنية التى كانت تحيط بى . حقاً إن السعادة كالنور النازل من السماء تنعكس من نفس إلى نفس . فقد كنت أرى كل الوجوه مشرقة بالبسمات ، غنية بالمتاع ، وكأنها مرآة تنقل إلى الآخرين أشعة هذا الخير الملتمع أبداً . من يستطيع أن ينفصل عن هذا الجو ؟ من يستطيع أن يجلس منفرداً ، مظلم الوجه ،

غارقاً فى وحدته على حين يرى كل ما حوله بساماً مضيئاً ؟ » .

ثم انظر إلى هذه العبارات : « فى هذه اللحظات يعود الحب المبكر مخضراً زاهياً وكأنه يهزأ بالسنين . . وتزكو فكرة البيت معطرة بشذاه ، توقظ الروح النائم وكأنها نسمات الصحراء فى بلاد العرب ، تهب مرطبة على الحجيج المتعب . فى هذا اليوم تجتمع مرة أخرى صلات الأسرة التى انقطعت . يعود إليها أولادها الذين فصلت بينهم أفراح الدنيا وأتراحها . وضربوا فى سهولها ووهادها ، وظلت تباعد بينهم حولا بعد حول . يعود هؤلاء جميعاً إلى صدر واحد . كل منهم إلى البيت الذى نشأ فيه ، وترعرعت فى حمى الطفولة أمانيه .

« إن الأعياد الأخرى قد تكسب بهجتها من الطبيعة الحالية والزهور الزاهرة . أما بهجة هذا العيد فترجع إلى الكنوز العميقة من المحبة والعطف والسلام التى تختفى فى صدورنا فنلجأ إليها فإذا بها تغمرنا محبة ونعمة وصفاء . أين يمكن فى غير هذا اليوم أن يشرق الوجه ببسمة أكثر رحمة ووداً وسراء ؟ وهل فى غيره تكون لمعة الحب الخجول أكثر حلاوة وإفصاحاً ؟ »

لست مسيحياً ، ولكننى حينما قرأت « إرفنج » عن عيد الميلاد ، شعرت بينبوع المحبة الإنسانية الذى يتدفق من كلمات هذا الرجل ، وسألت نفسى لماذا لا يعيش الناس إخوة ؟ لماذا يخضبون بالدم وجه الأرض ؟ !

# دورك فى الحياة

كل منا يجرد حسابه اليوم مع العام الذى يسلم أنفاسه ، مع منتصف الليل . بدأناه وفى خواطرنا آمال ، وفى عقولنا تخطيط لما نريد تحقيقه . ماذا تم منها ؟ وماذا بقى لكى ينتظر عاماً آخر أو أكثر؟ . . والمسألة ليست حساباً فقط لكن مساءلة . فلا بد أن يسأل كل منا نفسه لماذا عجز عن تحقيق ما خططه . . . هل كان العجز لأنه جاوز بالأمل حدود الممكن ، أو لأنه لم يبذل ما كان ينبغى أن يبذل من جهد ، أو لأن حوادث لم تكن فى الحسبان ولا سلطان عليها لأحد ، تدخلت فأفسدت التخطيط ؟ !

أيًّا كان السبب فالمراجعة ضرورية لالرد ما فات ، فإن مافات لا سبيل إلى رده ، لكن تأهباً لاستقبال عام جديد يمكن أن نحصل فيه مافات ، ونعالج ما وقعنا فيه من خطأ .

إن التجربة حصيلة عظيمة القيمة ، وهى ثروة لاتقدر ، وما نسكبه فيها من ألم أو نعانيه من تضحية يمكن تعويضه أضعافاً لو حاذرنا أن نقع فيما سبق من أخطاء ، وازددنا مع الأيام نضجاً وقدرة وفهماً . . إننا لا نكبر مع مرور الأيام بالعمر ، ولكننا نكبر بالتجربة والقدرة والفهم . ولو كان مرور الأيام لايزيدنا إلا ارتفاعاً فى السن لكان مرورها عبثاً ومأساة .

وسنة تمر من العمر لا قياس لها إلا بما حصلناه منها ، أما إذا كنا خرجنا منها كما دخلناها ، فكأننا نسفح العمر والأيام ويستوى أن تمر أو لاتمر ، أن تزيد أعمارنا طولا أو أن تنتهى عندما بلغته .

إن الحساب الحقيقى للإنسان عن سنة مضت هو كم زاد فى معلوماته؟...

كم قرأ وفهم وأثرى عقله بالمعرفة؟ . . ماذا استفاد من تجاربه وتجارب الآخرين ؟ .. ماذا أضاف من خير لنفسه وذويه ووطنه ؟ .. وماذا رفع من شر عنهم؟ . . إن الحياة لا تمر عبثاً ، وما يصادفنا فيها ليس مسرحية نتفرج عليها ثم يسدل الستار . نحن فى صميمها ، على خشبة المسرح . . . لا بد أن يكون لنا دور دائر وكفاح .

لابد أن نمتزج بالخير الذى فيها والشر ، ولابد أن نستنبط من كل منهما حكمة ونعيشهما طولا وعرضاً ، تزكو مع الأيام نفوسنا وترتفع قاماتنا وتستقيم خطانا صوب هدف نعرفه ونعمل من أجله . والإنسان من غير هدف إنسان ضائع فى تيه الحياة ، والضياع فراغ . والفراغ جمود ، والجمود قرين الموت . . .

لابد أن نتطور ونتقدم ونتحرك ونعمل وننجح ونخفق ونحقق ما نريد أو لا نكف عن السعى لتحقيقه !

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٦٤٢ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١



هذه مختارات من « نحو النور » وهو العمود الذى اعتاد المؤلف كتابته يومياً منذ سنوات عديدة ، وقد تحرى فى اختيارها أن تكون ذات قيمة دائمة لا يغض عنها الزمن ولا تتعلق بمناسبة من المناسبات لأنها ترجع إلى طبيعة الإنسان : نفسه وروحه ووجدانه ، وليس فى طبيعة الإنسان ما يتغير تغيراً جذريا . قد يتطور الإنسان ؛ قد يتقلب ؛ قد يتوهج أو يخمد ، ولكنه فى كل الأحوال مرتد إلى نواميس ثابتة تتعدد فيها الصور والوجوه والانفعالات ، ولكن الجذور التى تصدر منها واحدة فى كل زمان ومجال ومكان .

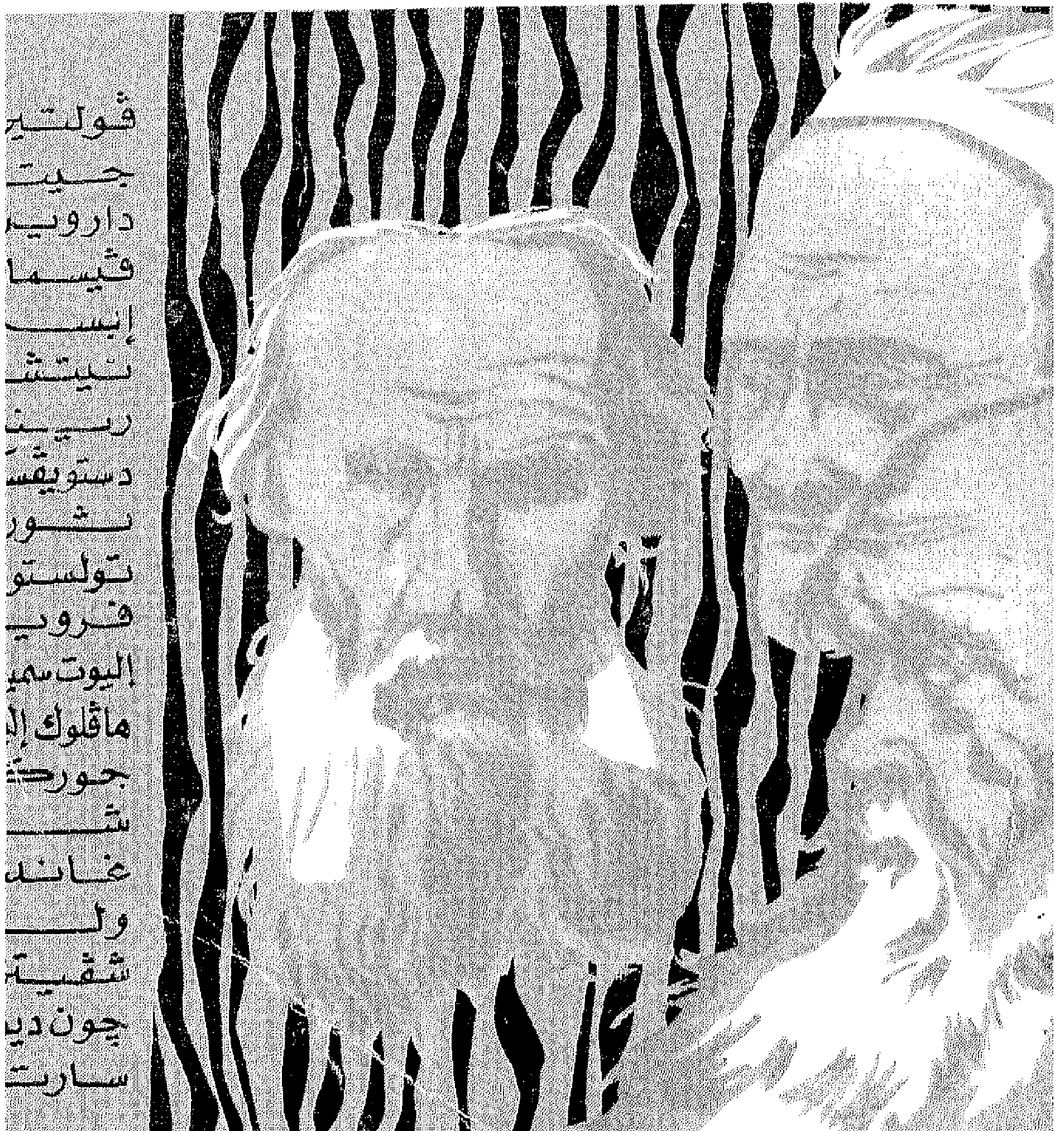
وفى هذه المختارات لمحات عن الحرب والسياسة والاقتصاد ونظم الحكم . كما أن فيها لمحات عن الحب والكراهية والحقد والطمع والتظاهر والغرور والنفاق والكذب ، وفيها لمحات عن الدين والإيمان ووحدة الكون وسلطان الطبيعة . . فيها صور رقيقة أو عنيفة لشخصيات نراها ونعرفها ونعايشها ، وفيها أيضاً لمحات عن المعوج من أمورنا وما نرجو لها من صلاح .

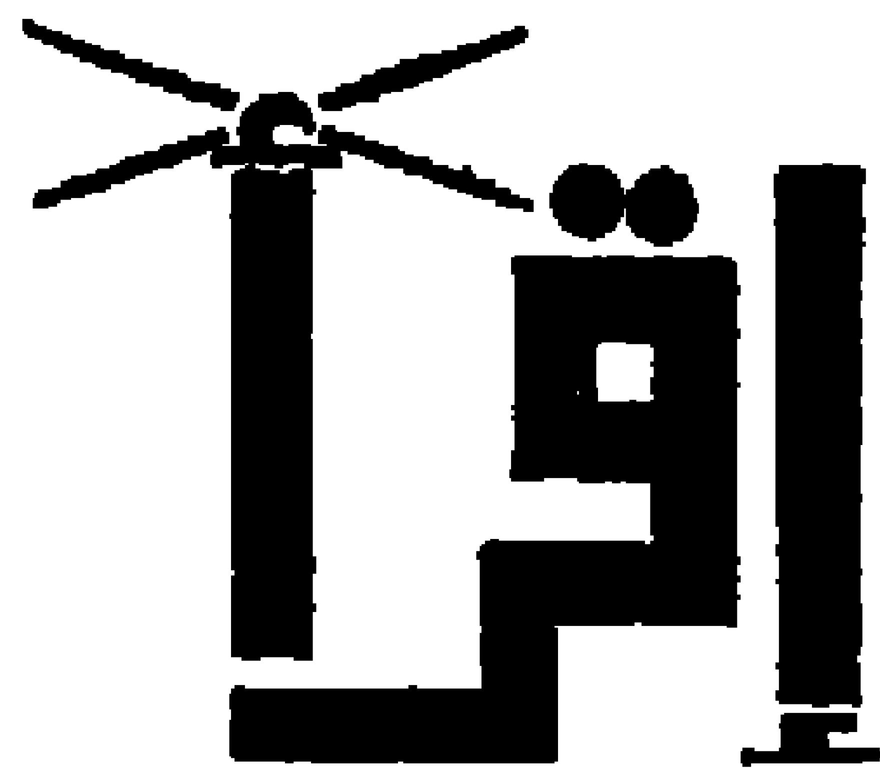
# اقرأ

عدد ممتاز

سلامة موسى

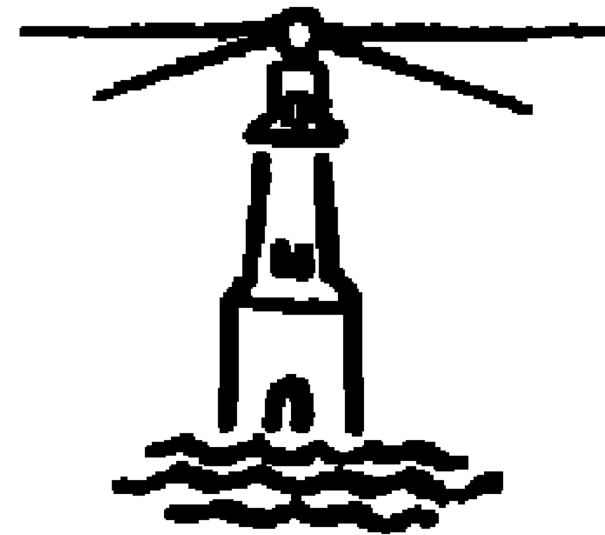
# هؤلاء علموني






تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

سلامة موسى

# هؤلاء علّمونى

« كن رجلا ولا تتبع خطواتى »

« جيته »

اقرأ ٣٤٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٩ – يناير سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

# مقدمة

المؤلف الذى نحبه ليس فقط صديقاً نأتنس بآرائه ونستفيد بأفكاره، إذ هو أكثر من ذلك .

هو بهذه الآراء والأفكار ، يتسلل إلى قلوبنا وعقولنا فيؤثر فى شخصيتنا أو يغيرها . وهو . بهذه المثابة ، نفسى فسيولوجى له دورة حيوية فى وجودنا .

ولكن المؤلف العظيم ، ليس هو الذى يجعلنا نرى الدنيا بعينيه ونشهد على الناس والأشياء بضميره . وإنما هو الذى يعلمنا الاستقلال رائين ومشاهدين معاً . وإن لم يكن فى رؤيته وشهادته قد فتح بصيرتنا .

إن كل إنسان كون نفسه . ولذلك له الحق فى أن يسأل فى استقلال، وأن يجيب فى استقلال ، عما يحس وعما يجد . وهؤلاء المؤلفون الذين تخصصوا فى الرؤية والشهادة جديرون بأن نقرأهم . ولكن يجب أن نحذرهم . وهيهات أن نحذرهم !

ذلك لأن لكل كاتب إيحاءاته التى لا طاقة لنا بالتخلص منها . وأحياناً له إيعازاته التى تندس إلى عقولنا من حيث لا ندرى .

ولكن علينا فى كل حال أن ننشد الاستقلال .

وقد تأثرت بهؤلاء الكتاب الذين ذكرتهم فى هذا الكتاب ، وأحببتهم ، وأعظمتهم ، ووجدت فيهم النور والتوجيه . ولكنى حاولت الاستقلال . وهذا ما أنصح به القارئ الذى يجب أن ينصت إلى قول أمير الأدب ، جيته إذ يقول : « كن رجلا ولا تتبع خطواتى » .

س . م

# المؤلفون يغيرون الدنيا

الحياة مشروع نضع تخطيطاته منذ نبدأ الوجدان وندرى ما نفعل . أو هى خارطة نأخذ فى رسمها مدة سبعين أو ثمانين سنة . فنحن المسئولون عن إتمام هذا المشروع أو رسم هذه الخارطة . ومع أننا نعرف من السيكلوجية الحديثة أن سلطة الأبوين ، ووسط العائلة ، وطراز المجتمع الذى نعيش فيه ، وتراثنا البيولوجى — نعرف أن لكل هذا أثره فى تكويننا وتوجيهنا ، فإن النظر إلى الحياة باعتبارها مشروعاً يخطط أو خارطة ترسم ، هذا النظر يستحق الاعتبار . ويجب أن تكون له مكانة فى الطاقة النفسية لكل إنسان . وإذا كانت « الوجودية » تجعل من الفرد ، المسئول الأول عن أعماله ، وتزعم أن هذا فلسفة ، فلا أقل من أن نسلم نحن بهذا الزعم ونهدف منه لا إلى الفلسفة ، ولكن إلى البناء الأخلاقى .

وحسن فى الأخلاق أن نقول إننا مسئولون عما نفعل . وفيما يلى بعض الخطوط التى أنقلها إلى القارئ الشاب عن مشروع حياتى أو خارطتها . فقد يكون فيها عبرة صغيرة إلى جانب الزبد الكثير .

بدأت أرسم خارطة حياتى حوالى عام ١٩٠٦ حين ساء الوسط العائلى وكان يتعقبنى بالعذاب رجل « نيوروزى » جعلنى أبيت وأصبح فى كرب لا يطاق .

ففررت إلى أوربا . وهناك انبسطت لى آفاق ، وحلمت أحلاماً ورأيت رؤى ، وشرعت أدرس اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وأختلط بعناصر جديدة فى المجتمعات والعائلات ، وأقرأ من الكتب ما يشع النور

فى عقلى ويبعث الشجاعة فى قلبى . فقررت من ذلك الوقت ، وأنا حوالى العشرين ، أن أكون متمدناً ومثقفاً . وقد مضى على نحو خمس وأربعين سنة وأنا أعانى الخصومات بسبب هذا القرار السرى !

رأيت شعوباً حرة لكل منها الكلمة العليا التى تتضح فى الانتخابات البرلمانية . ورأيت مشاكل الشعب تدرس فى البرلمان الذى له وحده حق تعيين الوزارات وإسقاطها . ورأيت جرائد تعالج المذاهب وتناقش الساسة ورأيت الاجتماعات التى يجتمع فيها الرجال والنساء ويبحثون فيها مشاكل العالم . ورأيت البيت النظيف ، والشارع النظيف . والكتب العديدة ، والمكتبات المجانية . واختلطت بكل ذلك ، وتحدثت إلى الفرنسيين والإنجليز . وشرعت عندئذ آخذ بأساليب المتمدنين ، وأهدف إلى أهدافهم ، وأدرس وأتعلم وأجول وأتأمل . . .

وعرفت ، فوق ما عرفت ، أن المرأة يمكن أن تكون إنساناً حرًّا لا يختبئ من الدنيا وينظر إليها من صير القفل ، ولكن يواجهها فى شجاعة ، تتعلم وتعمل وتتحمل المسئوليات .

ورأيت جمالا فى الحب بين الشبان والفتيات . . رأيت التمدن ! وعنيت أكبر العناية بتعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، واتصل عقلى عن سبيلهما ، بأكبر العقول القديمة والحديثة . وكثيراً ما كنت أسهر الليل كله حتى الصباح ، وأنا فى لذة الحماسة بقراءة كتاب لنيتشه أو قصة لدستوفسكى أو كتاب للعقليين أعداء القرون المظلمة .

والتحقت بالجمعية الفابية . ورأيت برنارد شو فى لحمه ودمه . وكانت هذه الجمعية تومئ فى بداية هذا القرن إلى منتصفه . وكانت دعوتها إلى الخير والبر ترافقها دعوة أخرى إلى الشرف والشجاعة . وسمعت من منبرها رجالا ونساء من الإنجليز يقولون : « يجب أن نخرج من مصر »

فأحببت الإنجليز . . وكرهت الا ستعمار .

ورأيت بين أعضائها رجالا ونساء يقبلون على الأدب الروسى ويدرسون المشاكل التى خلفها داروين ، ويبحثون « تنازع البقاء » ومعانى « العنصرية » ويتعمقون الطبيعة لاستخراج ما فيها من أخلاق، من تنازع أو تعاون .

ورشحت نظرية التطور إلى وجدانى وتشبعت بها ، فصارت مزاجى وأسلوبى . وكبرت قيمة الإنسان فى نفسى ، لأنى عرفت تاريخه الماضى فى مئات الملايين من السنين كما صرت أحس بتاريخه القادم فى المئات من السنين أيضاً . وتحملت بهذه المعرفة مسئولية وأحسست ديناً . ولم ينقص من قيمة هذا الدين أنى وقفت على مئات الخرافات التى وقع فيها الإنسان لا . . بل إن هذه الخرافات قد زادتنى احتراماً وحباً للإنسان ، إذ هى كانت محاولاته المتكررة للوصول إلى الحقائق . فقد انتقل من السحر إلى العلم ، ومن النجامة إلى الفلكيات ، ومن الكهانة إلى الضمير ، ومن ذلق الرق إلى شرف الإنتاج .

وكان أكبر جزء فى « مشروع » حياتى أنى احترفت الثقافة ، فكانت حرفة وهواية معاً ، لا أبالى ما فيها من تعب وعرق . وقد بنيت بها شخصيتى . وأنضجت بها وجدانى . واستعطت أن أنسلخ من عقائد الطفولة ، وأن أصل إلى اليقين الجديد بهداية داروين وأينشتين . وأصبح عقلى عالمياً عاماً أحس صداقتى لنهرو وخصومتى لتشرشل . وأعنى بدراسة الصحارى ، واحتمال زراعتها فى آسيا وأفريقيا . وأفكر فى مستقبل الأحياء ، وأخشى انقراض بعضها . أجل . أحس أن العالم كله قد أصبح وطنى ، ليس لى حق التفكير فى مصالحه فقط ، بل على هذا الواجب . وثقافتى لذلك ليست عربية أو إنجليزية أو فرنسية ، وإنما هى عالمية . هى فى التاريخ وعلى مستوياته ، قديمة ووسيطة وعصرية ،

مهما اختلفت لغاتها أو مؤلفوها .

ومع أن ثقافتى قد فصلت بينى وبين الكثير من الناس لاختلاف مستويينا ، فإنها بسطت لى آفاقاً شاسعة من الفرح والأمل والتأمل والعبرة. فجعلت حياتى أكثر حيوية ، وحبى للطبيعة أحر وأعمق ، وفهمى للكون أوفى وأنور .

وقد عرفت هذا الفرق بينى وبين سائر الناس حين وقفت أمام الدينصور قبل أربعة شهور فى متحف التاريخ الطبيعى فى باريس . فإنى وقفت عنده وجعلت أدور حوله وأتأمله وأتخيله أكثر من ساعة . وكنت أرى بالطبع الهيكل العظمى فقط لهذا الحيوان الذى كان يعيش على أرضنا قبل نحو مائة مليون سنة ، وكان أكبر من الفيل يزيد عليه فى الجرم نحو أربعة أضعاف . كان لا يختلف كثيراً من السحلية أو الورلة ، وكان يبيض مثلهما . وقد انقرض لأنه كان جسما بلا مخ أو بمخ صغير يفضله مخ البطة أو الكلب ألف مرة . فلما تغير مناخ الدنيا ضاقت حياته . فعجز ومات وانقرض . . .

وقد بقيت شهوراً أقرأ وأفكر فى موضوع الدينصور . ثم فى ماضى النوع البشرى ومستقبله بعد إذ دخلنا فى العصر الذرى ، هذا العصر الخطر الذى تكاد تتغير فيه وجهة التطور بإبادة الإنسان ، ثم تحيا الأرض بعد ذلك نحو مليون سنة فى الظلام ، إلى أن يكون الشمبنزى قد تهيأ للسيادة والتسلط عليها !

ومع أنى احترفت الأدب والعلم والثقافة ، فإن هذه جميعها هى عندى حياة كفاح أكثر مما هى حرفة . ولذلك أنا لا أبالى ما يقال عن أسلوب الكتابة ، ولكنى أبالى أسلوب الحياة . ولا أعبأ ببلاغة العبارة ، ولكنى أعنى بأن تكون الحياة بليغة ، بحيث نحيا متعمقين متوسعين .

ومع أنى ألفت نحو خمسة وثلاثين كتاباً فإن كتابى الأول الذى عنيت بتأليفه هو حياتى . هذا المشروع ، هذه الخارطة ، التى رسمتها والتى أعود إليها من وقت لآخر بالمحو والتنقيح والتصحيح . بل إن الكتب التى ألفتها هى فصول من كتابى الأول ، من حياتى .

وليست حياتى هذا العمر القصير الذى أحياه بدمى ولحمى . وإنما هى تعود إلى ألف مليون سنة مضت . ألم أكن سمكة فى يوم ما ؟ ألم أعش على الشجر فى وقت ما ؟ لقد حمل جسمى آثار هذه الملايين من السنين الماضية ولا يزال بعض هذه الآثار واضحاً ، أراه بعينى إلى الآن كما أرى بعينى وأسمع بأذنى كلمات مصر الفرعونية وآثارها فى العقائد العامية بل الشعبية .

وكذلك ليس هذا الماضى هو كل العمر ، فإنى أحمل من الاهتمامات بمستقبل البشر ما يعد هموماً شخصية لى . لأنى أدين بنظرة ، كدت أقول عقيدة ، التطور . ولذلك لا أطيق عبث الأطفال الذين يقيدون حرية الفكر أو يكرهون الكتب أو يؤخرون الصناعة أو يستمسكون بالخرافات والتقاليد المؤذية ، إذ هم أعداء التطور .

ومن أجمل الإحساسات التى أستمتع بها فى فترات اليأس ، والتى تحيل هذا اليأس إلى رجاء ، أن مؤلفاتى وأفكارى ، ومنهجى وكفاحى ، كل هذا لن يموت بعد موتى . إذ هو سيبقى ويؤثر ويوجه ويفتح النوافذ للنور .

وأنا بذلك أتجاوز حياتى . وأحيا بعد موتى .

وقد قرأت أكثر من ألف كتاب . وأخصبت الكتب حياتى ، وجعلتنى مثمراً مضيئاً ، ولكن الكتاب الأول الذى له فضل الصياغة والتوجيه لشخصيتى هو كتاب داروين « أصل الأنواع » فإنه زاد عمرى

من سبعين سنة إلى ألف مليون سنة . وجعلنى أحس الوجدان ، ليس على هذه الأرض فقط ، بل إزاء الكون كله بنجومه وكواكبه وشظايا ذراته وأحس أن للطبيعة أخلاقاً .

هذا هو مشروع ، خارطة حياتى . فما هو مشروعك؟ كيف رسمت ، كيف ترسم ، خارطة حياتك أيها القارئ ؟

هناك زعم أو وهم يقول بأن الساسة يغيرون الدنيا بالاستعمار والحروب والمعاهدات . وقراءتنا المتوالية للصحف تعمم هذا الزعم أو الوهم ، إذ أننا نجد الأسماء البارزة للساسة ، ونقرأ أخبار الحرب الكبرى الأولى ثم الحرب الكبرى الثانية فيتأيد هذا الزعم أو الوهم .

وليس شك فى أن الحروب والمعاهدات تغير — وقد غيرت — الجغرافية السياسية للأقطار . كما أنه ليس شك فى أن المباشرين لهذه التغييرات كانوا من السياسيين أو العسكريين ، ولكن هذه التغيرات لم تكن تصل إلى صميم النفس البشرية .

ومع ذلك عندما نتأمل ونتعمق الأسباب والبواعث لهذه الحروب نجد أنها كانت ثمرة أو نتيجة لابتكارات علمية قام بها مفكرون اخترعوا الآلات ، أو ابتكروا الأساليب ، أو ألفوا الكتب لإعلان نظريات جديدة .

اعتبر هاتين الحربين الكبريين الأخيرتين . فإننا نسمع فيهما عن رجال السياسة ورجال الحرب ، ولكن هؤلاء الرجال قد باشروا هاتين الحربين فقط ولم يكونوا السبب لإثارتها . لأن السبب يرجع إلى الآلة البخارية التى أخرجها رجل مفكر هو جيمس واط فى عام ١٧٧٦ . ذلك أن هذه الآلة قد عممت الإنتاج الكبير ، فى المصنوعات فاحتاج هذا الإنتاج الكبير إلى الحرب والاستعمار .

وما زلنا نحن فى حرب واستعمار بسبب هذه الآلة التى أحدثت ، ولا تزال تحدث ، مزاحمة دموية بين جميع الأمم الصناعية .

والمعنى والدلالة هنا أن السياسى والعسكرى قد سار كلاهما فى أثر المفكر المخترع الذى انبعث إلى التفكير بقوات اجتماعية أخرى .

وقد غيرت الحربان الأخيرتان تخوم الأقطار ، أى غيرت الجغرافية السياسية . ولكنها لم تغير الاتجاه البشرى أو الاتزان النفسى . فالأوربى الآن هو الأوربى الذى يعيش قبل سنة ١٩١٤ من حيث إيمانه أو طموحه أو تفكيره أو عاطفته .

ولكن الدنيا تغيرت بالكتب ، وعندنا على ذلك المثل الأكبر . فإن كتب الدين قد غيرت النفس البشرية إذ عينت لنشاطها اتجاهاً وأكسبتها أهدافاً لم تكن لتعرفها من قبل . وهذا الخلاف الخطير القائم ، الذى قد يؤذن بالحرب الكبرى الثالثة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، كتاب ألفه كارل ماركس . وهناك عشرات من الكتب الأخرى لها مثل هذا الأثر أو ما يقاربه .

ولكن المؤلف المبتدع لا يبنى على الهواء أو يفكر فى الخواء . ذلك لأنه يعيش فى مجتمع معين يكسب منه عواطفه ويتجه اتجاهاته . فإذا كان ذكياً تبلورت فيه بعض الاتجاهات البازغة ، فصار يمايز بينها ويختار أحسنها ، فيدفعها بتفكيره ، ويزيدها بياناً وقوة حتى تتغلب على غيرها من الاتجاهات . وهو بهذه المثابة يتفاعل مع مجتمعه ، فينشأ على أوضاعه ثم يعود فيحاول نشأة جديدة له ، أى للمجتمع .

وهناك كتب قد غيرت نفوسنا كما لو كانت ديانات جديدة . بل إن الاختلاف بشأن نظرياتها يشبه إلى حد كبير الاختلاف الدينى فإن المختلفين على كتب نيتشه فى مذهب القوة يحتدون ويتعصبون . وكتاب

داروين عن أصل الأنواع لا يزال يحدث مصادمات ذهنية بين التقليديين والابتداعيين . فهو كفر مظلم عند أولئك ، وهو رؤيا مثيرة عند هؤلاء

وإنى واحد من أولئك الذين تغيروا بنظرية داروين . . . لأن التطور عندى مذهب سام ، قدس نفسى وغيرنى ووجهنى . وهو ليس عندى تفكيراً فحسب ، وإنما هو إحساس وعاطفة وحب وروحية . فقد كان سبينوزا يقول بالوحدة الوجودية على نحو من المذاهب الصوفية الشرقية ، ولكنه فى ذلك لم يستطع سوى إيجاد الفكرة والفلسفة إذ لم يكن هناك من الأدلة المادية الحسية ما يثبت قوله . أما نظرية التطور فإنها قد غلفت عقولنا ثم استقرت فى عواطفنا ، فهى إحساس وشهوة تنبض بهما عروقنا وتخفق بهما قلوبنا .

وإنى حين أقعد تحت ظل شجرة خضراء وأستسلم للأفكار الخضراء أحس ، بدافع من هذه النظرية ، بتلك الوحدة الوجودية حتى لأقول كما كان يقول ذلك القديس المسيحى : أخى الطير وأخى الشجر وأخى الوحش . بل أحس كأنى أريد أن أنكب على الأرض كما كان يفعل « اليوشا » فى قصة « الأخوة » لدستوفسكى . . هذه الأرض الطيبة ، هذه الأم القديمة .

وهذا كتاب واحد من عشرات الكتب التى غيرتنى . ولم يقتصر التغيير على العقل إذ قد تجاوزه إلى النفس . . فتغيرت رؤياى للدنيا وتغيرت نفسى ومزاجى وعاطفتى . وهو تغيير يحسبه الجاهل كفراً وأحسبه أنا إيماناً .

وهناك كما قلت عشرات من الكتب البذرية التى تنمو وتتفرع وتتوالد فى كثرة لم يكن يتوقعها حتى مؤلفها .

اعتبر الفكرة البذرية فى أحد مؤلفات برنارد شو ، وهى أن البشر

يجب أن يهدفوا إلى استنتاج السبرمان الذى سوف يتفوق علينا ذهناً وروحاً وجسما بمقدار ما نتفوق نحن على القردة . ما أطيبها من فكرة وما أبرها من مذهب إنها مذهب من أرقى المذاهب البشرية الجديدة .

أو اعتبر الفكرة البذرية فى كتاب أينشتين . هذا الكون الدائرى، وهذه الطاقة الذرية ، وهذه المادة التى تذوب فى الطاقة ، وهذه الطاقة التى تتكاثف إلى المادة .

بل اعتبر هذه القوة الجديدة فى هذا العلم الجديد : « علم الطاقة الذرية » . فإن المفكرين الذين أحزنهم وهد ضمائرهم إلقاء القنبلة على هيروشيما يسمعون الآن فى طرب محاولة الروس نقل المياه التى تذهب عبثاً وخسارة إلى المحيط القطبى الشمالى إلى بحر قزوين المتاخم لإيران حيث تروى خمسة ملايين فدان تستحيل من صحراء قاحلة كالحة إلى أرض نضرة تبتسم بالخيرات .

وكل هذا من أثر الكتب . إنها لكتب مقدسة هذه التى تغير الدنيا وتغير اللفتة البشرية ، كتب داروين ، ولامارك ، وأينشتين ، وتولستوى ، وبرناردشو ، وغاندى وأمثالهم من الذين يرسمون لنا خطوات الفهم والشرف نحو المستقبل . والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين ، وأكل وهضم من موائدهم ، يبصق بصقة الاحتقار على دعاة الرجعية من الكتّاب التافهين . .

والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين وأمثالهم لا يستطيع أن يتسامح فى جريمة القتل أو الفسق أو البطش أو الخيانة . ولكنه يعرف أن هناك جريمة تعلو على جميع هذه الجرائم فى الخسة والنذالة والحقارة والخيانة ، هى الحجر على الذهن البشرى ومنعه من التطور بتعيين الكتب التى لا تقرأ .. هذه هى الخيانة الكبرى للإنسانية .

والحكومة التي تجترئ على مثل هذه الخيانة ، فتمنع كتاباً قيماً من الدخول إلى بلادنا ، أو من الطبع أو التداول ، هي حكومة تخون الإنسانية وتنتهك الفكر البشرى المقدس . وهي بهذا الانتهاك تقاوم الفهم والذكاء عند أبناء الشعب كأنها تحاول أن تجعلهم بالداء أغبياء .

* * *

من الأسئلة التي يضعها كاتب سخيف لقراء سخفاء هذا السؤال :

لو أنه حكم عليك بالانفراد سائر عمرك فى جزيرة أو سجن ، أى كتاب كنت ترغب فى اقتنائه حتى تأنس أو تنتفع به ؟

وسخف هذا السؤال يرجع إلى أن العقل العصرى الراقى قد أصبح عقلا مركباً يحتاج إلى التناقض والتناسق ، وإلى المنطق والإيمان ، وإلى الخيال والتعقل ، وإلى التحليل والتركيب ، وإلى الحقائق الموضوعية والأفكار الذاتية . وكل هذا لا يمكن أن يحويه كتاب واحد .

ونحن نختار الكتاب فى العادة كى نتزيد فى معارفنا ، ولكن المعارف الموضوعية هي المادة الخامة للثقافة . إذ ليست الثقافة معارف فقط ، وإنما هى موقف واتجاه وعواطف وعادات فى الحياة والممارسة الفلسفية . وصحيح أن كل هذا ينبنى على المعارف الموضوعية ، ولكن هذه المعارف هى الدرجات الأولى أو الأسس التى نبنى عليها حياتنا الفلسفية .

وهناك من الأذكياء من حظوا بمركبات نفسية تبعثهم على الاستطلاع ، فيجدون فيها الإيحاء والتوجيه دون الحاجة إلى من يرشدهم . ولكن معظم القراء يحتاجون إلى المؤلف الذى يثير الاستطلاع ويبعث إليهم بالخواطر ويوجه ويرشد ، إما لأنهم ليسوا على درجة عالية من الذكاء المتسائل ، وإما لأنهم قد خلوا من تلك المركبات النفسية التى صادفت غيرهم لاختبارات أو كوارث وقعت بهم فكانت المنبه والمحرك لنشاطهم الذهنى .

والمؤلف العظيم الذى يعلمنا هو ذلك الذى يستنبط من المعارف موقفاً فلسفياً جديداً ، أو خطة واتجاهاً جديدين ، للفكر البشرى . والكاتب هو الذى يوجهنا أو يغيرنا ، وأحياناً يتغير القارئ لأنه انساق فى موجة جديدة قد أحدثها كاتب عظيم قد لا يعرفه هذا القارئ ولكن الموجة التى مست غيره قد انتهت إليه فأثرت فيه وأحدثت وقعاً جديداً فى نفسه وعقله .

وليس كل منا ، كما قلنا ، قادراً على الاستنباط الفلسفى من المعارف. أو ليس قادراً على الاستنباط الأمثل . ولذلك نحن نحتاج إلى المؤلفين المستنبطين الذين يبسطون أمامنا آفاقاً جديدة ، أو يرشدوننا إلى دلالات أخرى غير ما تعودنا ، أو يبرزون لنا الفكرة الإيحائية من بين العشرات من الفكرات المألوفة .

وقد تغيرت الثقافة بهؤلاء الكتاب الإيحائيين من عصر لآخر . وبعض العصور يساعد على هذا التغيير ، لأنه بمركباته الاجتماعية المتغيرة ينشط الذهن بل أحياناً يلهبه . فى حين أن العصر الزراعى مثلا يعمم الركود ، فلا ينبه المؤلف . ولذلك يكثر مؤلفو التاريخ ودعاة التقاليد فى المجتمع الزراعى الراكد . أما المجتمع الصناعى أو التجارى المتغير فإنه يبعث المؤلف على بحث الأخلاق والعقائد والأفكار ، وقد يهتدى فى هذا البحث إلى ما يلائم من خطة أو فلسفة أو وجهة جديدة . وهذه هى النهضة .

وحيث تكون النهضات ، كما فى إيطاليا فى القرن السادس عشر ، أو فرنسا فى القرن الثامن عشر ، نجد التساؤل والاستطلاع . ثم الاستنباط تحليلا وتركيباً . فالمؤلف يسلط النور والحرارة معاً على المجتمع المتغير الذى يعيش فيه ، فيؤلف عن وجدان اجتماعى وإحساس روحى واختلاق فنى . وقد يحدث من ذلك أحياناً اختلاط وفوضى ، ولكنهما

ليسا أمارة الانحلال وإنما هما علامة النشاط فى مجتمع يمرح مرح الطفولة التى تزخر بالحياة .

وهذا بعكس المجتمع الزراعى حيث ركود التاريخ والتقاليد . فإن مثل هذا المجتمع لا يربى المؤلف المجدد ، بل هو قد يمنع الكتب التجديدية الأجنبية من الانتشار ، ويحظر التفكير فى ميادين دينية أو اقتصادية أو اجتماعية . إذ هو كالمريض يكره الحركة ولا يتمنى أكثر من الهدوء ، ولو كان هدوء الموت . ذلك لأنه لا يجد فى هذا التجديد ما ينبهه تنبيه الصحة ، ولكنه يجد فيه ما يزعجه بل يزلزله .

وعلى القارئ أن يختار الكتب كما يختار المعامين والأصدقاء الذين ينشد فيهم النور والنار معاً . وهذه الكتب هى التى تخرج به عن مألوفه. وكما يخرج الفقير الذى يعيش فى زقاق محدود إلى الحقول ، فينتعش ويتنفس الهواء الجديد ، كذلك يجب على القارئ أن يخرج عقله من المعارف المألوفة ، أى من الطريق الدهس ، إلى تلك الآفاق الرحبة حيث النور والهواء المنعشان . أجل ، وحيث الوعورة فى الطبيعة البكر التى تبعث على التفكير البكر الوعر .

ولكل عصر مناخه الثقافى ، ولكننا نعيش فى مصر فى مناخ لا يلائم القرن العشرين ، وإنما يلائم القرن العاشر . أجل نحن فى عقم ثقافى . ومن هنا كان تخلفنا الاجتماعى والاقتصادى . ومن هنا أيضاً تفاهة التفكير ، فى المفكر التافه ، حين يقول إن الطربوش شعار وطنى أو إن المكان الطبيعى للمرأة هو البيت ، أو حين يتحدث عن الكم الطويل والكم القصير ، كأن هذا الموضوع يرتفع فى اعتباره إلى مقام المشكلة الفلسطينية .

ومرجع هذا أن هؤلاء المساكين لم يرتقوا بكتاب توجيهى ينقلهم من الركود إلى النشاط ، ولذلك كثيراً ما أقعد إلى أحد هؤلاء فأجد أنه

قد بلغ الستين من السن الزمنية ، ولكنه لا يزيد على صبي فى العاشرة من حيث النضج السيكلوجي . .

ولا أستطيع أن أقول إن الكتب العربية ترتفع إلى مقام يتيح لها تخريج الرجل الناضج الذى يتساءل ويستطلع ، وإن كان هناك قليل من الكتب المترجمة قد يؤدى هذه الخدمة . وقد كان فى مقدورنا أن نترجم نحو مائة كتاب عالمى من تلك الكتب التى غيرت المجتمع ووجهته . ولكن مجتمعنا الزراعى الحاضر يكره هذا التغيير وهذا التوجيه . ولذلك أقول مرة أخرى إننا فى عقم ثقافى لا نلد ولا نتوالد ، ولذلك أقول أيضاً فى صراحة مؤلمة إن القارئ المصرى لن يكون متمديناً ، على ذكاء نشيط وعلى ثقافة عصرية ، إلا إذا درس لغة أوربية واستمد منها حاجته من الكتب العظيمة والمؤلفين العظماء الذين يستنبطون الفكرة الخصبة من المعارف الخامة فينعطف التاريخ ويتغير وجه الأرض . وهؤلاء هم المؤلفون الإيمائيون .

وقد قرأت فى حياتى مئات الكتب التى زادت وجودى فى الدنيا والتى نحوت وتربيت بها . وقد اخترت من مؤلفيها بضعة عشر كان لهم الأثر الأكبر فى ترتيب ذهنى وتنظيم ثقافى . ولكن اختيارى لهم لا يعنى أنى أشير على القارئ أن يقرأهم ويعرفهم ، لأنى إنما أردت أن أبسط له بعض الأسباب والنتائج فى تكوين شخصيتى ، وأن أشير إلى الأعلام البارزة فى رحلتى الثقافية عبر عمر قد تجاوز السادسة والستين. وبعض هؤلاء المؤلفين قد عرفتهم قبل أربعين سنة . وإنى بالطبع لا أذكرهم هنا إلا لأنهم كانوا اختباراً عميقاً أثر فى نفسى طوال هذه السنين . وللقارئ أن ينتقد ، وأن يعرف من إصاباتى كيف أصبت ، ومن أخطائى كيف أخطأت . ثم بعد ذلك عليه أن يستخرج العبرة ثم يستطلع ويتساءل ويختار . ثم يشق طريقه بنفسه .



# ڤولتير

## محطم الخـــرافات

يهفو الذهن إلى ذكرى ڤولتير كلما هبت على الأمة عواصف الظلام التى تقيد الحرية وتسوغ الاعتقال وتمنع الكتب وتراقب الصحف وتضع الحدود والسدود للعقول، وتنتهك النفوس البشرية بأفظع مما ينتهك الفاسق الأجسام البشرية .

ذلك لأن ڤولتير عاش من أجل الحرية . وكانت إيماءة حياته احترام الإنسان وكرامة الناس وحريتهم . ومن الحسن أن نقرأ تاريخه، ومن الأحسن أن يقرأه أولئك الذين حملوا النيابة العامة فى مصر على أن تقوم بأكثر من أربعمائة تحقيق مع الصحف فى أقل من سنتين بين سنة ١٩٤٤ و١٩٤٦ ، ثم بعد ذلك منعوا بعض الكتب الأوربية من الدخول إلى مصر ، كما منعوا بعض المؤلفين من طبع مؤلفاتهم ونشرها.

ولد ڤولتير فى عام ١٦٩٤ ومات فى عام ١٧٧٨ . وتغير تاريخ أوربا بحياته ،إذ نقل هذه القارة من التعصب إلى التسامح ومن التقييد إلى التحرير. وغرس بذلك شجرة الديمقراطية ، وحمل على العقائد والخرافات الضارة فحطمها ، كما بسط الآفاق لحكم العقول ، فظهرت الحكومات المدنية العصرية .

وقد كان ڤولتير يمثل الطبقة الجديدة البازغة ، طبقة الصناعيين والتجاريين الذين شرعوا يأخذون مكان النبلاء فى المجتمع الأوربى ، ومن هنا كان إحساسه بضرورة الحرية واحترام الكرامة البشرية عميقاً ، لأن النبلاء الإقطاعيين كانوا يستعبدون الفلاحين . وعاش ڤولتير طوال عمره وفى نفسه حزازة ، فإن أحد النبلاء استطاع أن يحبسه فى سجن الباستيل وأن يراه وهو يجلد انتقاماً منه لبضعة أبيات من الشعر ألفها عنه ڤولتير . وقد خرج من السجن وهو يبغض النبلاء ويدعو إلى إلغاء النظام الإقطاعى . وسافر إلى إنجلترا وبقى بها أربع سنوات ، فأعجب بشيئين هما الدستور الإنجليزى الذى ينص على أن الحكم للشعب ، وأيضاً العالم الرياضى نيوتن . ولما عاد إلى فرنسا دعا إلى الأخذ بقواعد الدستور الإنجليزى فى الحكم . ولو أن الحاكمين تنبهوا فى ذلك الوقت إلى قيمة هذه الدعوة لعملوا بها . وعندئذ كانوا يتفادون بلا شك من جموح الثورة الفرنسية الكبرى .

وأسوأ ما تصاب به أمة أن يتحد الدين مع الاستبداد ، وأن يتحالف الطغاة مع الكهنة ، بحيث يستند الدين إلى قوة البوليس ، ويستند الاستبداد إلى أساطير الدين . وهذا ما فشا فى فرنسا فى القرن الثامن عشر .فقد صدر قانون فى عام١٧٥٧ بإعدام المؤلفين الذين يهاجمون الدين. وصحيح أن هذا القانون لم ينفذ ، لأن الذين وضعوه أحسوا بالأخطار التى يستهدفون لها إذا جرءوا على تنفيذه ، ولكن حركة التأليف وقفت أو كادت

بسبب هذا القانون . واستمر إحراق الكتب إلى عام ١٧٨٨ أى قبل الثورة بعام واحد .

ولكن ڤولتير استطاع أن يخرج العشرات من الرسائل الحرة بأسماء مستعارة ، أى مزورة ، كى ينجو من خطر الإعدام . وكان فى هذه الرسائل يحطم الأساطير ويحمل على الطغيان الحكومى والكنسى ، وقبل كل شيء يدعو إلى التسامح ، وأن الناس إخوة ولو كانوا مؤمنين أو ملحدين ، مسيحيين أو مسلمين يهوداً ، أو بوذيين .

ولقى ڤولتير عنتا فى دعوته إلى الحرية ، وخاصة حرية العقيدة ، لأن الكنيسة الكاثوليكية كانت تحالف فى أيامه الحكومة الفرنسية ، وكانت تحمل الحكومة والشعب معاً على التعصب وإيذاء غير الكاثوليك . وقد كتب ڤولتير بقلمه وأنفق من ماله كى ينقذ العائلات التى وقع بها الاضطهاد الدينى وكى يدعو إلى التسامح وحرية العقيدة .

واحتال كى يعيش وكى يرصد حياته للكفاح فى سبيل الحرية .

وكان من احتياله أن اشترى أرضاً فى سويسرا وأرضاً أخرى فى فرنسا . وكانتا تتجاوران . وذلك ترقباً للاضطهاد من إحدى الحكومتين السويسرية أو الفرنسية بحيث يستطيع الفرار إلى فرنسا إذا وجد الحملة عليه من الأولى ، أو إلى سويسرا إذا وجد الحملة عليه من الثانية .

وعاش على هذه الحال السنين الطويلة كى يؤدى رسالته ، وهى صيانة الحرية من الوحوش الآدميين الذين كانوا يكرهون من لا يؤمن بإيمانهم .

وقد كان فى باريس شيء يسمى « برلمان » ولكنه لم يكن يمثل الشعب ، ولذلك كان أعضاؤه يسيرون وينقادون إلى دعاة الاستبداد من الحكومة والكنسية معاً . وقد عنى هذا « البرلمان » بأن يحرق قصيدة لڤولتير !

وألف ڤولتير المعجم الفلسفى ، فنعت الحكومة الفرنسية . بل معظم الحكومات الأوربية ، تداوله وحكم على مؤلفه بالكفر .

وشاعت لڤولتير أخيراً شهرة بأنه زعيم الحرية ، فكانت تصل إليه شكاوى المضطهدين من الأحرار من جميع الأقطار يطلبون منه الدفاع والإسعاف . وكان يجمع لهم المال كى ينقذهم من حكوماتهم ومن كنائسهم .

وما زلنا إلى الآن نسمع عبارة ڤولتير : « اسحقوا الخزى » . وهذا الخزى هو اضطهاد الأحرار المخالفين للكنيسة .

ومع كل ما اتهم به ڤولتير لم يكن كافراً ، فإنه كان يؤمن بالله أعظم الإيمان : ولكنه كان يعتقد أن الكنيسة يجب ألا تحتكر الدين . وأننا يجب أن نكون « إلـهيين » قبل أن نكون مسيحيين أو يهوداً أو هندوكيين . وهو يقول إن :

« كلمة الإلهى هى الوصف الوحيد الذى يجب أن يتصف به الإنسان ، والكتاب الوحيد الذى يجب أن يقرأ هو كتاب الطبيعة . والديانة الوحيدة هى أن نعبد الله ، وأن يكون لنا شرف وأمانة . وهذه الديانة الصافية الخالدة لن تكون سبباً للأذى » .

وكان ڤولتير يرى الله فى كل مخلوق ، حتى قال : « إن فى البرغوث شيئاً من الألوهية » .

وكتب عن نفسه فى المعجم الفلسفى يقول :

« إنى أجهل كيف تكونت وكيف ولدت . وقد قضيت ربع حياتى وأنا أجهل تماماً الأسباب لكل ما رأيت وسمعت وأحسست . وكنت ببغاء تلقننى ببغاوات أخرى . ولما حاولت أن أتقدم فى الطريق الذى لا نهاية له ، لم أستطع أن أجد طريقاً معبداً ولا هدفاً معيناً ، فوثبت وثبة

أتأمل الأبدية ولكننى سقطت فى هوة جهلى » .

والواقع أننا حين نتأمل حياة ڤولتير نجد أن الكنيسة الكاثوليكية قد انتفعت بعداوته لها لأنها كفت عن اضطهاد المخالفين . وكان هذا الاضطهاد أكبر ما توصم به فى القرن الثامن عشر كما كان أكبر ما يعمل لفسادها .

وكذلك انتفعت بفصلها من الدولة ، لأن اعتلاء الدين للدولة يضر الدين ويحطه ، إذ يغنيه عن القوة الروحية والأخلاق السامية بما يستمتع به من قوة بوليسية وحماية قانونية . والدين يجب أن يتجرد من أى سلطان مادى ، أى حكومى أو بوليسى ، حتى يستنبط قواه الروحية المستقلة ويصل إلى القلوب عفواً دون مساعدة خارجية .

وهذه هى مهمة ڤولتير التى عامها لأوربا ، مهمة الحرية الفكرية وفصل الدين من الدولة .

وليس لڤولتير عبرة أو دلالة واحدة لعصرنا ، وإنما له عبر ودلالات كثيرة ، فإننا نفهم منه أن حرية العقل وحرية العقيدة ، وحرية الضمير هى أثمن ما يملكه البشر .

وأن الحكومة أو الهيئة التى تنتهك هذه الحريات ترتكب أفظع الجرائم ، وهى جريمة الخيانة للروح البشرى . وعبرة أخرى نستخلصها من حياته هى أن الأديب ليس رجل القلم والحبر ، وتقليب الكتب واجترار الأقوال القديمة ، وإنما هو المكافح المبتكر الذى يشترك فى هموم البشر واهتمامات المفكرين دعاة التطور والرقى . وأن أدباء البرج العاجى الذين يقفون بعيداً عن معترك الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية لا قيمة لهم ولا منفعة منهم . بل هم بمثابة الجندى الفار من المعركة .

وعبرة ثالثة هى أن بؤرة الأديب شخصيته ، من حيث إنه يكتب عن

إحساس ووجدان بما يحس ويجد . ثم يصدر عن ذلك مفكراً للتنظيم والتوجيه . ولذلك قيل إن أسلوب الكاتب هو شخصيته أو هو أخلاقه . ومن المحال أن يقنعنا كاتب فاسق بضرورة الطهارة . أو كاتب يتعلق بالمستبدين وينتفع منهم بضرورة الديمقراطية .

ولقد عشت حياتي وهنئت أيما هناء، وتعزيت أحياناً أيما عزاء، بمرافقة ڤولتير وتأمل كلماته وتتبع حياته فى أخطائها وأخطارها وتطوراتها . وعرفت منه معرفة الإحساس والوجدان معاً أن حرية العقل هى قدس الأقداس فى النفس البشرية .

كانت حياة ڤولتير كفاحاً نجح فيه ، ورد إلى الإنسان حريته بعد أن كانت قد حرمته إياها الكنيسة والدولة . واستطاع أن يحمل جماهير أوربا على الإيمان بالطبيعيات بدلا من الغيبيات إلى حد بعيد . كما استطاع أن يرد إلى التاريخ مكانته ، وأن يجعل للتنقيب التاريخى فضل الاهتداء إلى الحق والباطل فى العقائد . ودعا إلى العقل دون العقيدة . وأكبر لذلك من شأن « بيكون » داعية التجربة و « ديكارت » داعية العقل . وكان على وجدان برسالته التاريخية من حيث إنه رائد العصر الجديد ، عصر العقل والعلم . وقد كتب فى عام ١٧٦٠ إلى « هيلڤيتيوس » يقول : « إن هذا القرن بدأ يرى انتصار العقل » .

ولقد عشت فى هذا الوطن الأسيف ، مصر ، نحو ثلاثين سنة من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٤٩ فى أسر الأحكام العرفية والرقابة القلمية، وذلك كى يعيش المستعمرون من الإنجليز ، والمستبدون من المصريين ، وهم فى تحالف لمنع الحريات عن الشعب . وقد ألفت كتابين عن الحرية هما « حرية الفكر » وهو تاريخ للأبطال الذين كافحوا التعصب والاستبداد والرجعية والجهل ، ثم « حرية العقل فى مصر » وهو دعوة إلى إلغاء إدارة المطبوعات التى تمنع إصدار الجرائد والمجلات إلا بعد تأدية غرامة

مالية ( فى صورة تأمين ) وفى كلا الكتابين أنغام تتردد من ذكرى ڤولتير .

وقد كان ڤولتير يقول : « إنى قلما أتعمق ، ولكنى واضح الفكرة على الدوام » . وهذه كلمة أستطيع أن أقولها أنا أيضاً . وإذا كنت فى حياتى الأدبية قد وصلت إلى أن أختص بأسلوب ، فإنى أعترف هنا بأنى لم أقصد قط إلى هذا الهدف . وإنما كانت غايتى أن أصل إلى التعبير الجلى الذى يوضح فكرتى . وأظن أنى نجحت فى ذلك .

وعند الفرنسيين مثل يقول : « ما ليس واضحاً ليس فرنسياً » . ولهم الحق فى ذلك . وهذا الوضوح يعزى إلى التزامهم المنطق السليم الذى تعلموه من ڤولتير وأمثاله .



## چيته . . .
## الشخصية العـــالمية

المشهور عن جيته أنه أديب عظيم . وقد نقل إلى اللغة العربية من مؤلفاته قصة « آلام ڤرتر » ، ودرامة « فاوست » ، وله أشعار رائعة تذكر أبياتاً وقصائد ، لأن كثيراً من سطورها يحوى الحكمة العالية .

وقد كان جيته يكتب يومياته . أى أنه كان يدون الحوادث التى مرت به فى أيامه يوماً بعد يوم ، كى يحاسب نفسه على ما أنجز من أعمال. ونحن ننقل هنا يومين فى حياته كما دونهما .

* * *

فى الصباح انتهيت من المقطوعة الرابعة وأرسلتها للنسخ .
قرأت « فروسشموزلر » عن أنواع الحشرات .
تجارب فى الكهربية الجلفانية .

فى المساء مع شيلر : أثر العقل والطبيعة فى سلوك البشر .

ثم فى الصباح المبكر صححت قصيدتى . . ثم قمت بتشريحات الضفدع .

استراحة فى الصباح فى حديقة شيلر الجديدة . . . تحدثنا عن تخطيطها . . . وقبل ذلك أعدت النظر فى المقطوعتين الأولى والثانية .

وفى الصباح صنعت جدولا للألوان .

* * *

والمتأمل لهذه التدوينات فى يومين من أيام جيته يحتاج إلى التساؤل : أأديباً كان جيته أم عالماً ؟ وهذا السؤال هو موضوع بحثنا هنا .

إن عبقرية جيته لم تكن فى الأدب أو العلم أو الفن ، وإنما كانت فى شخصيته . وصحيح أن له مآثر فى هذه الثلاثة ، ولكن مأثرته الأولى هى شخصيته . فقد عيب عليه ذات مرة أنه لا يعنى كثيراً بموهبته فى الشعر والأدب ، فكان جوابه : إن من حقى أن أعنى بشخصيتى ، وهى أكبر من أدبى .

إن همّ الأديب الصغير أن يصقل قصيدة أو يحسن تأليف قصة أو مقال ، ولكن هم جيته كان تأليف شخصيته وتربية نفسه .

وجمهور القراء يعرف أدب جيته ، ولكن قليلا منهم من يعرفون أبحاثه العميقة فى العلوم . فإن له مكتشفات فى الجيولوجية والبيولوجية والبصريات ، وقد سمى نوع من الصخر باسمه برهاناً على فضله فى الجيولوجية . وكان كبير الاهتمام بأصل الأنواع ، وهى المشكلة التى أرصد « داروين » بعد ذلك حياته لحلها وقد استطاع جيته أن يكشف عن أن المخ هو امتداد للنخاع الشوكى . ومما يذكر عنه عقب هزيمة نابليون أنه قدم إليه نبيل ألمانى ، فسأله عن رأيه فى الزعزعة الجديدة التى تعم

أوربا ، فأجابه النبيل بأن « الحلفاء » قد أساءوا السياسة فى مؤتمراتهم وأن نابليون . . .

ولكن لم يكد النبيل يتم جملته حتى صاح به جيته : أنا لا أسأل عن هذا . لست أبالى هذا ، إنما أسأل عن هذا الخلاف بين سانت إيلير وكوفيه ولامارك عن أصل الأنواع وتطورها .

وكان هذا الموضوع يزعزع نفس جيته ، وكان يهتم به أكثر مما كان يهتم بالسياسة الأوربية التى زلزلها نابليون . ومن هنا اهتمامه بترتيب الحشرات وتشريح الضفدع والطاقة الكهربية . . إلخ .

* * *

ومن الخطأ أن يقال إن جيته كان يهتم بالآداب والعلوم ، لأن اهتمامه الأول كان بالحياة . فكان يحب ويختبر ويسيح ويملأ المناصب الحكومية . بل إنه لم يجعل الأدب أو العلوم هدفه ، لأن الهدف الوحيد الذى سدد إليه نشاطه هو شخصيته ، وتعبيره حين كان يقول إنه يبنى « هرم » شخصيته ، يدل القارئ على أن الثقافة كانت عنده وسيلة وليست غاية .

وإذا كان لكل كاتب عظيم رسالة ، فإن رسالة جيته لم تكن الشعر أو القصة أو العلوم . وإنما كانت الشخصية باعتبارها التحفة الأولى للإنسان المثقف الذى يحيا حياة الوجدان والعقل . ومن هنا كلمة «براندیس» الأديب الدانمركى : إن حضارة الأمم تقاس بمقدار تقديرها لجيته .

والمعنى أن الأمة التى ارتقت فى ثقافتها إلى المرتقى الذى تستطيع أن تفهم فيه أن رسالة الحياة هى الحياة نفسها ، هى الأمة الراقية . أما إذا كانت تجعل الحياة وسيلة لأى نشاط أو هدف آخر ، مثل الثقافة أو الصناعة أو الثراء أو غير ذلك ، فهى غير راقية . بل إننا حين نقول إن الحياة هى الهدف إنما نستوعب بهذا التعريف جميع الألوان الأخرى

للنشاط البشرى . ونستوعبها مع ذلك فى تناسق يتفق والحياة العالية .

وستبقى قيمة جيته خالدة على هذا الأساس ، وهو أننا يجب أن نحيا حياتنا فى تعلم واختبار واستمتاع .

ولد جيته فى سنة ١٧٤٩ ومات فى سنة ١٨٣٢ . فعاصر روسو وديدرو وڤولتير ودالمبير ، هؤلاء النجوم الذين أحدثوا النهضة الأوربية الثانية . ثم رأى مخاض العصر الجديد فى الثورة الفرنسية ، وفى شهابها الساطع نابليون . ورأى — عقب هزيمة نابليون فى عام ١٨١٥ — المؤتمرات الأوربية تومئ إلى الاتحاد الأوربى . بل لقد رأى هذه الفكرة تختمر أيام نابليون .

أجل . إنه عاش فى عصر عاصف ، ولكنه لم يترك العواصف تمر به وهو جامد ، بل استجاب لها وتفاعل معها ، وقد درس القانون فى الجامعة ، وعرف دوق ڤيار الذى أحبه وعينه وزيراً لهذه الدوقية الصغيرة . ولم يقبل جيته هذا المنصب لما فيه من أبهة ، وإنما قبله لأنه وجد فيه وسيلة للتدخل فى السياسة الأوربية وفهمها . وزار إيطاليا ، فعرف فيها جمال الشمس وجمال الفن . وتزوج ، واستمتع بمسرات العائلة كما كابد همومها . ومارس الزراعة واقتنى ضيعة ، وأشرف على المسرح ، وأحب فتاة حباً كان يحمله على البكاء وهو فى السبعين .

وكان مفراحاً يحب الاجتماع . ولكن هذا المزاج الفرح كان أحياناً — كما هو الشأن فيه — يحمله على الاعتزال والاعتكاف . ولكن أوقات نشاطه وإلهامه كانت تنحصر فى أيام الفرح والاجتماع .

* * * *

من علامات النضج فى الإنسان أن يميز بين المعارف والحقائق إذ ليس كل ما نعرف حقيقياً .

وأن يجمع معارفه واختباراته فى فلسفة أو دين . أى يستخرج العبرة البشرية والسلوك الأمثل مما عرف واختبر .

وأن يعتاد استخراج الكليات من الجزئيات بحيث لا يشتغل بالشجرة قدر ما يشتغل بالغابة .

وأن يحس حركة التاريخ فى كل يوم من أيامه .

وأن يكون على إحساس واتصال بالدنيا ، هذه الدنيا ، وهذا الكون .

وأن يكون قد وصل بما لديه من حقائق وبما تربى عليه من تفكير فى الكليات إلى تفاؤل بمستقبل البشر .

فالرجل الناضج هو الرجل المتفائل . وتفاؤله يحمله على كفاح ما لمصلحة البشر .

والرجل الناضج متدين . يحترم الحياة .

وكى نحترم الحياة يجب أن نعمل لرقيها وتطورها إلى أعلى .

ومقياس العلو فى التطور هو مقياس بشرى على كل حال .

وقد كان جيته يجمع كل هذه الصفات التى يتكون منها الرجل الناضج .

* * *

ومن علامات النضج فى الإنسان أن يرتفع من همومه الشخصية إلى الاهتمامات العالمية .

ومن علامات النضج فى الأديب أن يرفع الأدب من آراء وإحساسات تكتب إلى ممارسة فى الحياة . ففن الكتابة عنده يستحيل عندئذ إلى بعض الفن فى حياته هو . ومن علامات النضج أيضاً أن يتعرف الأديب إلى قوات الخير البازغة فيؤيدها وينضم إليها ويكون من جنودها أو قوادها .

وقد حقق جيته كل هذه الأنواع الثلاثة من النضج ، فإن اهتمامه بالعالم طغى على كل اهتمام شخصى آخر : نظرية التطور . قناة السويس . اتحاد أوربا . الديانات الشرقية .

وحقق الفن والحب فى حياته ، فإن كلمة الحب لم تكن من كلمات القصص التى كان يؤلفها وإنما كانت عاطفته الغالبة التى كان يمارسها .

وقد عاش فى أيام الانتقال من حكم النبلاء والنظم الإقطاعية إلى حكم الصيارفة والصناعيين والتجاريين ، هذا الحكم الذى عمم الديمقراطية والحرية فانضم إلى هذه القوة الجديدة ودعا إلى تأييدها. بل إننا نستطيع أن نجد هذا الاتجاه فى قصته « فاوست » ، بل لعل هذا الاتجاه هو التفسير الحقيقى لهذه القصة .

وهناك بالطبع من يسأل عن مذهب جيته فى الحياة والأدب والحضارة . ولكننا نحن الذين أحببنا جيته لا نكسب منه معارف ، لأن معارفنا أكبر جداً من معارفه ، كما هى أكبر من معارف أرسطوطاليس أو أفلاطون وإنما نحن نكسب منه منهج الحياة الذى اتبعه : وهو منهج التعلم والاختبار والاستمتاع .

نكسب منه الحياة الفنية ، أو كما كان يقول حرية الروح : « إن أى إنسان عرف وفهم مؤلفاتى وشخصيتى حق الفهم يضطر إلى الاعتراف بأنى قد حققت لنفسى حرية الروح » .

* * *

كيف كان يعيش جيته ؟ وكيف كان ينظر إلى نفسه ؟ أى ما مقدار وجدانه بشخصيته ؟

كان جيته يخشى الشتاء لأن النهار يقصر والليل يطول . وكان يتعب من القراءة فى ضوء الشموع . وكان هو الذى يقص بنفسه فتيلة الشمعة .

وكانت آخر كلمة نطق بها قبل الوفاة : « النور » لأن النور كان عنده وسيلة التثقيف والتفكير والحياة الحيوية . ولذلك كان يحب الصيف ويكره الشتاء .

وكان يعيش نهاره كله ، فلا ينام ، أى لا يقيل . وكان يفطر فى الساعة الحادية عشرة بفنجان من اللبن والشكولاتة ، ثم يتغذى فى الساعة الثانية ، ثم يتنزه ، ثم يكون العشاء ، فالقراءة والدراسة .

ولما بلغ الثمانين كتب فى يومياته : هل بلغت الثمانين ؟ وهل يجب على لذلك ألا أتغير ، بل أعمل كل يوم مثل اليوم السابق ؟ إنى أحس كأنى أختلف عن سائر الناس وأبذل مجهوداً أكبر منهم كى أفكر كل يوم فى شىء جديد ، حتى أتجنب السأم . أجل! يجب أن نتغير على الدوام وأن نجدد شبابنا على الدوام ، وإلا تعفنا ! »

ومن أقواله فى شيخوخته أيضاً : « إنى أمتاز بالحظ الحسن فى شيخوختى لأنى أجد فى ذهنى أفكاراً . لو أنى شئت أن أواليها حتى تنكشف لاحتجت إلى أن أعيش حياتى مرة أخرى » .

وكان يكتب يومياته ، وكأنه يحاسب نفسه على درجات رقيه وبناء شخصيته يوماً بعد يوم .

وكانت حياته خصبة بالحب ، ولم يكن يعرف النسك أو التقشف. ولم تكن فترات اعتكافه عن رغبة فى النسك ، وإنما هى بعض المزاج العام فى الفرحين وكأنها ادخار للقوة للانتفاع بها أيام السرور .

وكانت اختباراته كثيرة واستمتاعاته الإحساسية شاملة كما كانت ثقافته موسوعية لم يحصر ذهنه فى تخصص . فقد أحس الحب الحنانى وهو فى التاسعة عشرة فألف قصة « آلام فرتر » ، ثم جحدها لأنها تحفل بالحنان واليأس والضعف . وكان يقوم إنه يخجل منها عندما أينعت شخصيته

وأخذ وجدانه وتعقله مكان إحساسه وعاطفته .

* * *

بدأ جيته حياته الذهنية بتعلم القانون وتأليف قصة اليأس والموت فى «آلام فرتر» وانتهى فى سنى نضجه وإيناعه باتجاه إيجابى بنائى للحياة البشرية فدعا إلى وحدة أوربا ، وألف قصيدة فى مدح نابليون قال فيها : « إن الذى يقدر على كل شىء ، يقدر أيضاً على السلام » . ما أبدعه هنا !

وكان يفكر فى قناة السويس وقناة بناما . ويشتهى أن يعيش خمسين سنة أخرى كى يراهما محفورتين مسلوكتين . ذلك أنه اتجه الوجهة العالمية ، فأصبح يقول ، كما كان يقول شيلر : « وطنى هو العالم » ، والملك صار يهتم بهندسة هذا العالم وتنظيمه كما لو كان مملكته الخاصة .

* * *

جيته هو واحد من أولئك الذين تعلمت منهم . ولم أتعلم فناً أو أدباً أو علماً وإنما هو منهج الحياة التى عاشها جيته كان ينبهنى من وقت لآخر كى أعيش على مستواه .

ولست أجد فى جميع مؤلفات جيته من الشعر أو القصص شيئاً عظيماً سوى القليل من اللآلئ . وهو من حيث الشعر يدمن ذلك الطراز الذى يذكر له البيت الذى يتوهج بالحكمة ، ولا تذكر له القصيدة التى تعالج موضوعاً . ولذلك نحن لا ندهش ولا نتعلم كثيراً حين نقرأ مؤلفاته ، ولكننا نتعلم ونتنبه ونحس كأننا كنا نياماً ثم استيقظنا حين نقرأ حياته .

هو منهج الحياة الذى يعيد إلينا ذكر « دافنشى » الرسام المثال الجيولوجى المهندس الفيلسوف الأديب الرياضى العاشق ، الذى تعددت اهتماماته لا لأنه تعمد هذا التعدد ، وإنما لأنه نظر إلى الطبيعة النظرة

الموضوعية الموسوعية التى تثير الاستطلاع وتهيئ المشكلات الثقافية التى يشتغل بها الذهن .

وكان جيته مثل دافنشى ينظر إلى الطبيعة ، بل إلى الفنون ، هذا النظر الموضوعى . ومن هنا زاد استطلاعه وتعددت اهتماماته ، وأصبحت ثقافته موسوعية . والحق أن الأدب لم يكن عند جيته فنياً ، وإنما كان الفن الذى اهتم به هو فن الحياة . ثم كان الأدب جزءاً من فن الحياة .

* * *

نتعلم من جيته أن غاية الحياة هى الحياة . أى ترقية الشخصية بتربيتنا ، وبسط الآفاق أمامنا للتعلم والاختبار حتى نزداد فهماً لأنفسنا وللطبيعة ، فنزداد بذلك استمتاعاً .

ونتعلم منه أننا يجب أن نؤلف شخصيتنا قبل أن نؤلف أى شىء آخر ليس هناك ما هو أهم منها عندنا . وذلك بأن نطلب الاختبارات . ولو كان الخطر فيها .

ونتعلم منه أن التخصص ضرر ، وأن الآفاق للثقافة لا حد لها . فيجب أن ندرس الأدب كما ندرس الكيمياء والقنبلة الذرية ، بل كما ندرس جنون الشيزوفرانيا وقوانين الوراثة .

ونتعلم منه أننا يجب أن نشترى الاختبارات إذا لم تصادفنا . فنقرأ ونسيح ونحب ونمارس السياسة ونختلط بالمجتمع ونشتغل بترقيته .

ونتعلم منه أننا — حتى فى الشيخوخة — يجب أن نستبقى شباب الذهن والعاطفة . ولن يكون هذا إلا بتهيئة سابقة .

وأخيراً نتعلم منه أننا أبناء هذا الوطن الكبير : العالم .

* * *

قلنا إننا لا نكسب من جيته معارف ، وإنما ننتفع به من حيث أسلوب حياته : حياة فلسفية تتغذى بالثقافة وتهدف إلى تربية الشخصية

بالنمو الذى يستحيل إلى نضج .

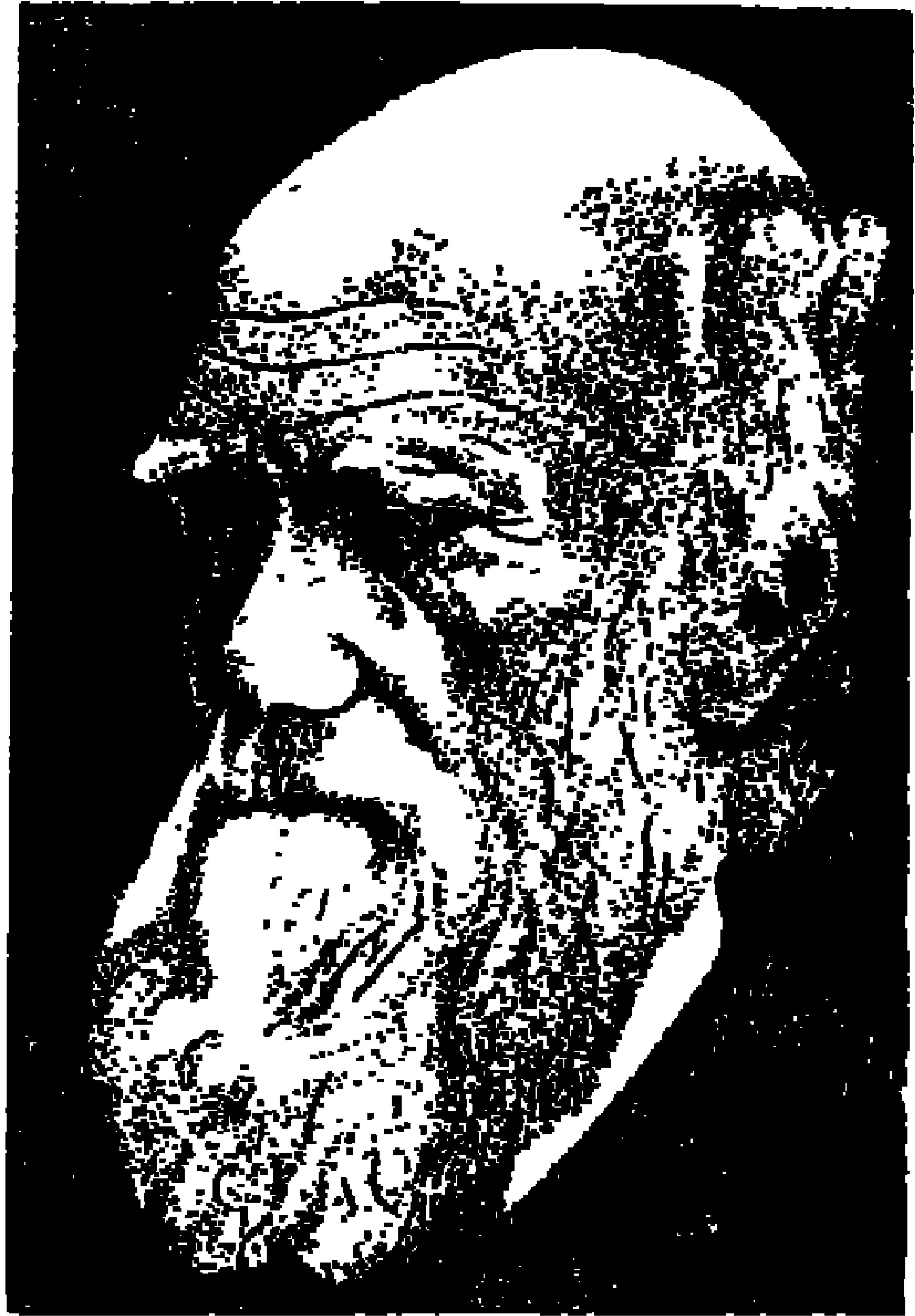
ولكننا مع ذلك نجد أن لجيته عبرته ودلالته فى الموقف الثقافى الأوربى بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٢٩ .

ذلك أن المذهب الانفصالى كان لا يزال قائماً بين النفس والجسم أو العقل والمادة . وداعية هذا المذهب الثنوى هو أفلاطون الذى فصل بين الفكرة والمادة . وقد أيدت العقائد الدينية هذا الانفصال ، ولكن جيته رأى غير ذلك. بل ربما كان هو أول أديب دعا إلى الوحدة الوجودية فى أوربا ، أى أن الجماد والنبات والحيوان والإنسان والمادة والعقل كلها شىء واحد . وأن الإنسان ليس مخلوقاً منفصلا وإنما هو تعبير خاص للطبيعة العامة التى فى الجماد والحيوان والنبات ، وأن الحقيقة الأولى فى هذا العالم هى التغير والاستحالة . فالطبيعة دائبة فى التغير والتشكل بأشكال مختلفة . وأن الفكر البشرى نفسه قد نبع من الطينة التى نبضت بالحياة الأولى .

وقد قال ذات مرة إن أعظم ما يصبو إليه أن يهتدى إلى قانون شامل عام تنتظم به التغيرات والاستحالات فى الجماد والنبات والحيوان والإنسان .

ولو كان جيته يعيش فى عصرنا لعبر عن هذه الشهوة بأنه ينشد التفسير الذرى للجماد والحياة والفكر البشرى والماء السائل .

وهذا هو ما ننشده جميعاً ونوشك أن نهتدى إليه .



## داروين . . .
## عار العائلة

« أنت لا تعنى إلا بصيد الكلاب ، واقتناص الجرذان ، وسوف تكون عاراً على نفسك وعلى عائلتك » .

هذه هى الكلمات التى تلقاها داروين من أبيه فى وقت كان يلوح لأى إنسان يتأمل داروين أنها صحيحة ، وأن هذا الشاب قد خاب الخيبة التامة . فقد تسكع فى دراسات مختلفة ، ولكنه لم يستقر على واحدة منها . فقد التحق بكلية الدين ثم تركها ، والتحق بكلية الطب ثم تركها . وفى غضون ذلك كان يلعب ، أو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب . يخرج إلى الحقول ويجمع النبات ويصيد الحشرات ويقارن بين الأحياء ، ويفكر تفكيراً سرياً كأنه يتآمر على الكون كله ، كى يغيره أو يغير البصيرة البشرية فيه .

والآن بعد أكثر من مائة سنة من هذه الكلمات القاسية التي قالها أبوه عنه لا يعد داروين عاراً على عائلته ، بل هو فخر أمته يتباهى به التاريخ الإنجليزى . وبعد نحو خمسين سنة من هذا التوبيخ الأبوى تأمل داروين حياته الماضية ، ومبلغ ما أتمه من الخدمة فى التوجيه الذهنى للعالم فقال : « أظن أن أبى قد قسا على بعض القسوة » .

ومات داروين فى عام ١٨٨٢ بعد كفاح ثقافى طويل ، ونحن الآن بعد وفاته بأكثر من نصف قرن ، نستطيع أن نقول إنه أكسبنا فهما جديداً للطبيعة والكون والإنسان . وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل . فإن كتابه « أصل الأنواع » الذى أخرجه فى عام ١٨٥٩ حمل إلى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع فى الحيوان والنبات ؛ وأنها جميعها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة . وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف فى الطبيعة . وأن الإنسان والحيوان والنبات فى تغير مستمر .

ونحن الآن لا نبالى الحقائق أو المعارف التى شرحها داروين لأننا نعرف أكثر منها . ولكننا قد اتجهنا الوجهة التى عينها لنا . ونحن هنا بهذه المثابة نفسها نحو أرسطوطاليس . فإننا نعرف أكثر منه من حيث الكم فى المعارف ، ولكنه أكسبنا المنهج . فنحن نفكر فى التطور الداروينى ونفكر متطورين . وقد أصبح التطور حقيقة علمية نقيسها بالمليمتر والمليجرام فى الحيوان والنبات ، كما أصبح أيضاً مذهباً دينيًّا ، أو مبدأ أخلاقيًّا عند المثقفين ، وانفسح به التاريخ البشرى آفاقا إلى ملايين السنين ، بل مئات الملايين خلف البشر وبعد البشر .

لقد قيل إن جاليل (جاليليو) حط الإنسان من عليائه ، حين أعلن أن الأرض ليست مركز الكون . وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس . بل الشمس أيضاً نجم صغير لا يختلف عن ملايين النجوم التى

نراها كل ليلة فى المساء . ولكن داروين رفع الإنسان إلى هذه العلياء من جديد ، وأثبت أنه لم يكن عالياً فسقط ، وإنما هو كان ساقطاً يعيش على حضيض الطبيعة ، حيواناً كسائر الحيوانات والحشرات، ثم ارتفع . وبهذه الكرامة الجديدة انتقل من أسر القدر ، وأحس أنه تاج التطور ، وأن له الحق فى تدبير هذا العالم ، وفى تعيين السلالات القادمة . بل ماذا نقول ؟ فى إيجاد البشرية الجديدة . . .

ومع ذلك لا أعتقد أن داروين نفسه ، كان يقدر الطاقة الكامنة فى نظريته . ولا ينتقص هذا من عظمته ، فإن تفكيرنا الشخصى يسير بقوات اجتماعية ، لا نكاد نبصر بها أو نتعمق أصولها . ذلك أننا نفكر بحواجز من العواطف التى نكتسبها من المجتمع . بما يفرضه علينا من القيم والأوزان ، وما يرسمه لنا من المطامع والآمال . والمجتمع يطالبنا باستجابات مختلفة تستحيل فى كياننا النفسى إلى عادات عاطفية لا نستطيع الخروج منها . فنفكر فى منهج خاص هو ثمرة هذا التوجيه الاجتماعى الذى لا نحسه لأنه لا يرتفع إلى وجداننا وتعقلنا .

ولذلك نستطيع أن نقول إن نظرية داروين وجدت الحافز الأول على التفكير فيها من المجتمع الذى عاش فيه داروين . ذلك أن داروين قضى زهرة حياته إلى نضج الشباب وإيناع الكهولة ، فيما بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٦٠ ، وكان عمره وقتئذ بين العشرين والخمسين ، وكانت إنجلترا فى تلك السنين ترغى وتزبد بالحركة الصناعية الجديدة . فالمصانع تحتشد بالعمال من الرجال والنساء والصبيان . والثروات تنمو ، والمزاحمة على أقصاها . وإنجيل النجاح يدرس بل يعبد . والسياسة تخدم الاقتصاد ، وتضرب الأمم النائية وتؤسس الأسواق والمستعمرات . وأصبحت إنجلترا سيدة البحار لأنها احتاجت إلى أكبر أسطول يحمى مستعمراتها وأسواقها التى تباع فيها مصنوعاتها الفائضة .

وعاش داروين فى تنازع البقاء هذا الذى لا يفتر فى لَنْكِشَيِر وغير لنكشير من الأقاليم الصناعية فى إنجلترا .

وفى تلك السنين أيضاً قرأ كتاباً أحبه وتعلق به لأنه وجد فى نفسه الاستجابة لنظرياته بما تكون له من عواطف أحدثها الوسط الصناعى الإنجليزى ، هو كتاب القسيس « مالتوس » عن السكان . فإن هذا القسيس كان من المحافظين الإنجليز الذين يكرهون العامة ، ولا يرون فيهم سوى غوغاء . فلما انفجرت الثورة الفرنسية واستولى بها الشعب على حقوق السادة من الملوك والعظماء ، ثم أعلن رجالها مبادئ الإخاء والمساواة والحرية ، فكر مالتوس كثيراً بحافز من عواطفه ، فأخرج كتابه عن السكان ، وكان المعنى الذى قصده إليه أن هذه الآمال الفرنسية فى الإخاء والمساواة والحرية لن تتحقق لأن الدنيا لا تكفى الناس الذين يتوالدون على نظام تضاعفى ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ إلخ فى حين أن المحصولات لا تنتج إلا على نظام حسابى ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ إلخ . فإذا عاش الناس بلا مرض أو حرمان لم تكفهم المحصولات ، وإذن فالمرض والحرب والحرمان رحمة بالناس أو ضرورة لهم . وتأمل داروين هذا الكتاب الذى ألفه مالتوس عن المجتمع البشرى فتساءل : لم لا ينطبق هذا الكلام على المجتمع النباتى والحيوانى فى الطبيعة ؟ فإن الطعام لا يكفى جميع الأحياء التى تتوالد أو تتكاثر بالألوف ، فهى يجب أن يزاحم بعضها بعضاً ، فتكون الحرب بينها ، أى تنازع البقاء ، كما فى لنكشير ومصانعها تماماً .

وفى عام ١٨٣١ أنفذت الحكومة البريطانية سفينة « البيجل » كى تطوف حول العالم وتسبر الأعماق وتدرس الشواطئ وتقيس الأبعاد ، ولكن لماذا عمدت الحكومة البريطانية وحدها دون سائر الحكومات إلى الاهتمام بهذا الموضوع ؟ ما هى العاطفة الحافزة إلى هذه الدراسة التى لم تفكر فيها ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا ؟

العاطفة الحافزة اجتماعية أيضاً . وذلك أن الحكومة البريطانية فى تلك السنين كانت تخدم الصناعات البريطانية ، لأن السياسة على الدوام تسير خلف الاقتصاد ، وكانت أسواق العالم وقفاً على المصنوعات الإنجليزية . لأن الحركة الصناعية الإنجليزية سبقت الحركات الأخرى فى جميع الأمم . فمن هنا كان الاهتمام بالبحار والملاحة والأقطار النائية ، ومن هنا أيضاً كانت الفرصة لداروين فى أن يلتحق بالسفينة « بيجل » كى يدرس الحيوان والنبات .

ولم يكن داروين جديداً فى هذا البحث : أصل الأنواع . فإن لامارك الفرنسى سبقه إليه ، وهو صاحب القول بأن عنق الزرافة قد طال لأنها ، بالمرانة التى ورثت جيلا بعد جيل ، قد اشرأبت وسعت للوصول إلى الغصون العليا فى الأشجار . فكأن ما يكسبه الحيوان بجهده من صفات يورث جيلا بعد جيل . بل إن جد داروين قد بحث هذا الموضوع ، فكانت النظرية « فى الهواء » تحتاج إلى من يرتب أصولها وفروعها ويعلل مظاهرها . بل كانت أكثر من ذلك . فإن جيته الأديب الألمانى كان يشتغل بها ويسأل عنها . وكان يتابع النقاش الحامى بين كوفييه الذى كان يقول بثبات الأحياء ، وبين سانت هيلير الذى كان يقول بتحولها .

كان داروين شاباً فى الثالثة والعشرين حين شرع فى رحلته على البيجل . فلما وصل إلى أمريكا الجنوبية ، وجد حيوانها ونباتها يختلفان عما هما فى القارات القديمة . ثم لما وصل إلى الجزر المنعزلة غرب أمريكا الجنوبية وجد أن انعزال الجزيرة يؤدى إلى انعزال الحيوان ، فتكون له أشكاله التى ينفرد بها من الأشكال العامة على القارات .

وإلى هنا يكاد يتوهم القارئ أنه ليس هناك أى فضل لداروين فى تعليل النظرية ، فقد سبقه إليها جده كما سبقه إليها لامارك الفرنسى .

ثم هناك الظروف الأخرى : مالتوس وقلة الإنتاج الغذائى إزاء تضاعف السكان ، ثم تنازع البقاء وبقاء الأصلح وفناء الضعيف فى المزاحمة العنيفة فى لانكشير حيث الحركة الصناعية فى عنفوانها .

ولكن لا ! لأننا مع التسليم بأن الوسط الاجتماعى أو البيئة الثقافية ، فى أوسع معانيها ، حين تشمل المعيشة والاتجاه أو العادات والعواطف، هى الحافز للتفكير ، فإننا مع ذلك يجب ألا نغفل الشخصية . إذ لو لم يكن داروين ذكياً لما فكر فى هذا الموضوع الخطير ، ولما جعله هدفه فى الحياة .

لقد قال داروين عن نفسه : « إن الحقائق تضطرنى إلى الاعتراف بأن عقلى لم يخلق للتفكير » .

ولكن داروين ظلم نفسه فى تواضعه بهذه الكلمات . لأن الحقيقة أنه لم يعرف نفسه . إذ أن الواقع أنه لا يقول هذه الكلمات إلا رجل مفكر قد أسرف فى التفكير وعنى العناية الكبرى بغربلة الحقائق من المعارف ، وعرف الصعوبة الكبرى فى هذا الجهد . ولو أنه لم يكن يجهد لما قال هذه الكلمات ، إذ أنها ما كانت لتخطر فى باله .

الحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه احترف التفكير . وأنه كان مريضاً أو متمرضاً ، فى نفسه حزازة قديمة هى جرح الكرامة ، هذا الجرح الذى أحدثه أبوه وعيّره به كما نرى مثلا من وصف أبيه له بأنه سوف يكون عاراً لعائلته . فقد كان لا ينام فى الليل إلا بعد أرق الساعات. وكان فى هذه الساعات يفكر ويؤلف . فإذا جاء النهار كتب كلماته القليلة . ثم يبقى سائر نهاره مريضاً ، ومرضه هو هذا المرض النفسى الذى يخترعه النيوروزى ويعيش به ويستقر عليه ، كأنه يقول : طلبتم منى النجاح والتفوق ، وكيف أستطيع هذا وأنا مريض ؟

مرض يصون الكرامة المجروحة ( أنت عار لعائلتك ) وفى الوقت

نفسه يهئ الفرصة للتفكير فى حضانة ليلية يسميها الأصحاء أرقاً . ولو أن داروين نجح وصار قسيساً أو طبيباً كما كان يشتهى أبوه لكسب العالم قسيساً أو طبيباً يمارس حرفته ويكسب منها . ولكن العالم كان يخسر عندئذ هذه العبقرية المرضية التى زعزعت الثقافة العالمية من أساسها ، بل زلزلتها ، وعينت أهدافاً جديدة للإنسان ، وأكسبته بصيرة جديدة لرؤية الماضى ورؤيا المستقبل .

لقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة وهو يفكر فى التطور ، ولكنه لا يخرج كتاباً عنه ولا يكتب مقالا . ثم حدث حادث أزعجه فانتفض منه . هو أن « وولاس » كان فى بعض الجزر التى تقع فى الجنوب الشرقى من آسيا يجمع الأزهار والحشرات ويحنطها ويبعث بها إلى الجمعيات العلمية . وكان مشغولا بالموضوع نفسه ، أى التطور . وكان يعرف أن داروين مشغول به أيضاً . فأرسل إليه رسالة علمية يشرح فيها رأيه فى هذا الموضوع . وصعق داروين إذ وجد أن وولاس قد سبقه إلى تعليل التطور بأن الطعام قليل فى الطبيعة ، وأن التوالد كثير بين أنواع الحيوان والنبات . فلا بد أن يكون هناك تزاحم أى مسابقة من أجل الطعام ، وفى هذا التزاحم أو المسابقة لا يبقى غير الأقوى الأصلح للبقاء حين يموت العاجز الضعيف وينقرض .

وسارع داروين إلى إبلاغ الهيئات العلمية فى إنجلترا عن رسالة وولاس . وشرع هو أيضاً يؤلف كتابه « أصل الأنواع » . ونستطيع أن نتخيل داروين فى حزنه ونزاهته معاً . ولكن وولاس بعد ذلك بسنين اعترف بأن العالم كسب ولم يخسر بتزعم داروين لهذه النظرية . لأنه كان أوفى منه معرفة وأنصع بياناً وأدق منطقاً .

وأخرج داروين كتابه « أصل الأنواع » فى عام ١٨٥٩ فتغيرت الرؤية والرؤيا البشريتان .

وكثير من النظريات التي غيرت التفكير البشري تبدو غاية في السهولة والبساطة ، حتى ليتساءل الناس : كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها ؟

فإن داروين يتحدث عن الحمام والكلاب وغيرهما مما يربيه الناس . وكيف استطاعوا أن يخلقوا العشرات والمئات من السلالات الجديدة وما استطاعه الإنسان في مئات السنين القايلة قد استطاعته ، وأكثر منه الطبيعة في ملايين السنين الماضية . حتى أخرجت الأنواع فضلا عن السلالات فهناك ، في الغابات والبحار والسهول ، إنتاج محدود من الطعام . ولكن هناك توالداً يتضاعف بين الحيوان والنبات . ولا يمكن أن يكفي الطعام هذه الملايين بل ملايين الملايين من النبات والحيوان . فلا بد إذن من أن تتنازع الأفراد لأجل البقاء ، أي لأجل الحصول على الطعام . وقد يكون السبب للتفوق في هذا التنازع ثم البقاء خفياً . هو كما في النفس الأخير ، في الثواني القليلة ، في صراع يدوم الساعات ، أو في القدرة على الجوع أو العطش . أو في طرق الحماية للنسل ، أو في القدرة على التطفل ، أو في الجراءة والبطش .

وما دام كل فرد يولد مختلفاً عن الآخر في الحيوان والنبات ، فإن هذا الاختلاف ينطوي بلا شك على ميزة أو عجز . فهو يساعد في الحال الأولى على البقاء والانتصار في معركة الحياة . وهو يهيئ الهزيمة في الحال الثانية . ولا نعرف الأسباب لهذا الاختلاف ، ولكننا نشاهده ونسلم به . ولذلك لا بد أن يستمر التغير جيلا بعد جيل . فإذا تراكمت التغيرات أحدثت السلالات الجديدة . وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .

وعلى هذا يجب أن نسلم بأن الأحياء ، نباتاً وحيواناً ، ليست الآن كما كانت قبل مايون أو مائة مليون سنة . لأن التغير والتطور هما طبيعتها

ونستطيع أن نستنتج أنه مادام لنا تاريخ ماض فى التطور فسوف يكون لنا تاريخ قادم أيضاً تتغير فيه الأحياء .

وهذه هى الدلالة الخطيرة التى انتهى إليها قراء داروين ، وهى أن الحياة فى بوتقة لم تتجمد قط . وأن البوتقة لا تزال تصهر وتخرج عناصرها مركباتها . وهذا هو التوجيه الجديد الذى سدد داروين عقولنا إليه ونحن فى بداية هذا ، هو التوجيه الذى يخشى كثير منا دلالته لأنه يحمل فى طياته مشروعات بشرية خطيرة . ولأنه يضع النظام المادى للإنسان والحيوان والنبات مكان النظام الغيبى .

لقد عالج داروين تطور الأحياء ، وحاول تعليل التطور ، ونجح إلى حد ما فى هذا التعليل ، ولكنه لم ينجح كل النجاح . وذلك لأن عواطفه الاجتماعية التى اكتسبها من المزاحمة الصناعية التجارية فى لنكشير ؛ ومن كفاح الإمبراطورية لخطف الأسواق وإذلال الأمم ، هذه العواطف هى التى حملته على أن يكبر من شأن التنازع ، تنازع البقاء . وحال هذا بينه وبين رؤية التعاون فى الطبيعة ، لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع .

ونحن نعرف الآن كثيراً ، أى أكثر مما كان يعرف داروين ، ولكن لداروين فضل التوجيه وتعيين الخطط للبحث . وأنه زودنا برؤيا بشرية جديدة وأطلق أذهاننا من أغلال العقيدة إلى حرية البحث والدرس . فقد نقلت نظرية التطور من الأحياء فى الطبيعة إلى الناس فى المجتمع ، وصار من المألوف أن نجد دراسات منظمة عن الأخلاق والأديان وفق النظرية التطورية ما كنا لنراها لولا داروين . وانبسطت للبشر آمال فى المستقبل ، وتغير معنى الارتقاء البشرى لأننا نقلنا هذا المعنى من وسط الإنسان إلى الإنسان نفسه . كما أصبح التطور فناً نمارسه فى إيجاد

سلالات جديدة من القطن أو القمح أو الفاكهة ، وقد اجترأ هتلر وأعوانه على أن يفكروا فى سلالات بشرية جديدة .

ويجب ألا يعمينا الاستغراض الديمقراطى عن هذا الابتكار النازى الذى دعا إليه هتلر . فإن نظرية التطور لا بد أن تخرج من التفكير إلى التطبيق . . . بل هى كذلك الآن ، ومنذ مئات السنين فى حيواناتنا ونباتاتنا ، ونقلها إلى النوع البشرى لن يعدو وثبة كبيرة .

* * *

أرانى بعد كتابة ما تقدم أنى التفت إلى شخصية داروين وتحليلها أكثر مما التفت إلى تحليل نظريته ودلالتها . ولذلك أحتاج إلى الاشارة إلى التنقيحات التى طرأت على هذه النظرية . وأولها وآخرها هو الرجوع إلى لامارك : « إن الصفات المكتسبة تورث » . وداروين نفسه لم ينكر هذه الوراثة ولكنه لم يبرزها كما أبرز « تنازع البقاء وبقاء الأصلح» .

ومع أن داروين التفت كثيراً إلى الدواجن ، وكيف أن الإنسان استطاع أن يخرج مئات السلالات من الحمام والدجاج والكلاب والخيول ، ومع أنه نقل هذا المنطق من الإنسان إلى الغابة ، باعتبار أن تنازع البقاء يحيي ويبيد ، ويقف من النبات والحيوان موقف الإنسان فى اختيار الصفات التى تعمل لبقاء الأفراد ، فإن الموقف البيولوجى ينكر هذه الأيام قيمة هذه المقارنة بين التنوع فى الدواجن والتنوع فى الأوابد . ذلك لأن المشاهدة تثبت أن التنوع فى الطبيعة قليل جداً أو يكاد يكون معدوماً . كما يثبت أن ما أحدثناه نحن البشر من التنوع فى الدواجن إنما هو عن بعيد مصلحة هذه الدواجن . وهو أشبه بالمرض منه بالصحة وقد أحدثناه بحياة غير طبيعية لهذه الدواجن .

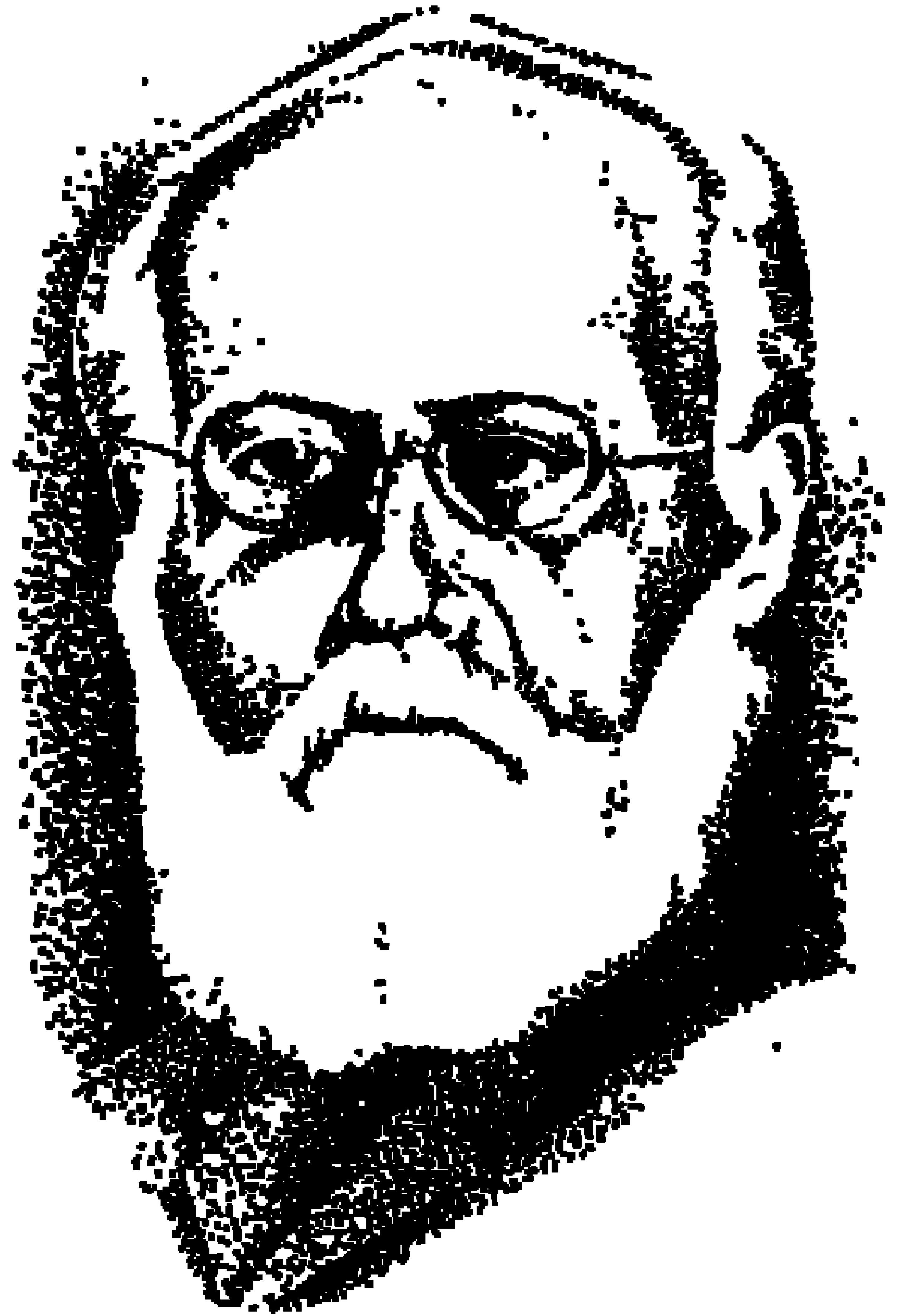
ولذلك نحن ننزع هذه الأيام إلى « داروينية جديدة » تعتمد على أن عادات الآباء يرثها الأبناء حتى إذا تراكمت أوجدت العضو الذى

يؤديها . كالجمل الذى عاش فى الصحراء وكان يحتاج إلى أن يبرك على الحصا الذى يجرح جلده . فتضخم الجلد فى أمكنة الملامسة وأصبحت هذه الخاصة وراثية . وكاللجاة (التى كانت مثل الدلاحف على اليابسة ) احتاجت إلى السمك طعاماً فنزلت إلى البحر ، ومازالت تمارس السباحة حتى استحالت يداها إلى زعنفتين . . إلخ .

* * *

ولا أعرف كاتباً تأثرت منه أكثر مما تأثرت من داروين . فإنه أعطانى القاب الذى أزن به أحياناً ، وأحياناً أهدم به التقاليد . وجعل التطور مزاجاً تفكيرياً ونفسياً عندى ، بل جعله عقيدتى البشرية التى تنأى عن الغيبيات . وقد أصبحت أقيس الأمم بمقدار تطورها ، وأقيس آمالى الاجتماعية بمقدار ما أجدُ من قدرة على التطور . ذلك أن التطور فى أساسه منطق علمى ، ولكنه قد استحال عندى إلى عقيدة قلبية .

وإذن يجب أن أعد داروين المعلم الأول الذى علمنى .



## ڤيسمان . . .
## المؤلف الذى أفسد ذهنى

أفسد ذهنى نحو أربعين سنة ، بل لعله أفسد أخلاقى أيضاً من حيث أنه غرس فى نفسى فلسفة اجتماعية خاطئة . فجفت عندى ينابيع السخاء البشرى ، وتولدت عندى نظريات بشأن تنازع البقاء ما كنت لأومن بها لولا هذا المؤلف الألمانى المدعو « ڤيسمان » . ذلك أنى كنت فى الأول من هذا القرن مشغول الذهن بنظرية داروين عن تنازع البقاء وبقاء الأصلح . وكانت هذه النظرية فى ذلك الوقت هى ، عند جميع المفكرين ، علة التطور . فإن أوربا المثقفة كانت قد سلمت بأن الأحياء تتغير وتتطور ، وأنها تعوذ كلها إلى أصل واحد ، ولكن كان هناك خلاف بشأن العلة أو السبب لهذا التطور . .

وكان لامارك ، قبل داروين ، قد علل التطور بالعادات . أى أن

الحى عندما يتغير وسطه الذى يعيش فيه ، سواء أكان ذلك بتغيير المناخ أم الطعام أم الأعداء ، هذا الحى يتعود عادات جديدة تلائم هذا الوسط الجديد . ويتغير بذلك جسمه بعض الشيء ، ثم يأتى نسله فيرث شيئاً من هذا التغير . ثم تتراكم التغيرات على مدى الأجيال المتعاقبة بالمئات والألوف فتظهر سلالات جديدة تختلف من أسلافها . ثم تتراكم هذه التغيرات فى هذه السلالات حتى تفصل ما بينها وبين الأسلاف . وتعود السلالات القريبة أنواعاً مستقلة منفصلة .

هذا ما كان يعلل به لامارك التغيرات التى تؤدى إلى التطور . وقد سلم داروين — إلى حد ما — بهذا التعليل ، ولكنه لم يقصر التغيرات التطورية عليه ، بل اعتمد على ماسماه « تنازع البقاء » . والقارئ لمؤلفاته يفهم أن التغييرات تحدث لأسباب نجهلها ، ولكنها تورث . فإذا كانت الصفة الموروثة حسنة فإنها تؤدى إلى انتصار الفرد المتصف بها من الحيوان أو النبات فى تنازع البقاء ، أى فى مباراته لغيره من نوعه أو الأنواع الأخرى ، ولكن مع كل ما قاله داروين هنا يجب أن نذكر أنه قال إن تأثير الوسط فى الحى لم يدرس الدراسة الكافية ، وبذلك ترك الباب مفتوحاً للشك والبحث شأن الباحث العلمى المنصف .

وفيما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠ كان النقاش يدور حول الصفات المكتسبة ، أى العادات ، أتورث أم لا تورث ؟ ولزيادة الإيضاح نقول : هل طال عنق الزرافة لأنها تعودت مد هذا العنق إلى الغصون العليا من الأشجار أو الأعشاب السفلى على الأرض ، ثم أورثت ذريتها هذه العادة حتى طالت أعناقها ؟ أم أن هناك سبباً أو أسباباً أخرى لهذا الطول ؟

والمعقول الذى يسلم به المفكر لأول وهلة أنه لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر لهذا التغير والتطور سوى الذى كانت تعيش فيه الزرافة . أى أنه إذا لم يتغير الوسط ، ويؤدى تغيره إلى أن يغير

الحى عاداته ، فلن يكون هناك سبب ما للتغير والتطور . ومعنى هذا أن لامارك كان مصيباً كل الإصابة في تعليله للتطور بالعادات التى يتعودها الفرد .

هذا هو المعقول . ولكن إذا لم يتفق المعقول مع الواقع ، وجب أن نسلم بالواقع ونرضى بالنزول عن هذا المعقول. لأن ماعقلناه ربما قد خفيت عنا فيه أشياء .

ووقع فى يدى حوالى سنة ١٩٠٩ كتاب يدعى « الجرثومة المنوية » للمؤلف الألمانى ڤيسمان . وكان هذا المؤلف علمى الذهن ، لا يسأل ما هو المعقول ؟ وإنما يبحث عن الواقع الذى تثبته المشاهدة والتجربة . وقد وجد بالمشاهدة المكروسكوبية أن الجراثيم المنوية ، أى التناسلية ، فى الحيوان مستقلة تمام الاستقلال عن الخلايا الجسمية . وهى تسكن فى أجسامنا وتتغذى من دمائنا ، ولكنها لا تتأثر بحياتنا أقل التأثر . ونحن نتسلم هذه الجرثومة من آبائنا ونسلمها لأبنائنا . وهؤلاء يسلمونها للأحفاد دون أن تتأثر بالأجسام التى التصقت بها وعاشت عليها .

وقد وصل ڤيسمان إلى هذه النتيجة بالمشاهدة . فإن الجنين فى أولى ساعات تكوينه يتألف من خليتين : إحداهما خلية تناسلية والأخرى خلية جسمية . والأولى تبقى راكدة لا تنمو إلا عند المراهقة ، حين تنشط وتتكاثر . أما الثانية فتتكاثر منذ الساعات الأولى لتكون الجنين . ، وهى التى يبنى منها الإنسان أو الحيوان أو النبات .

وإذن فمهما تغير الوسط من البرد إلى الحر ، أومن السهل إلى الجبل ، أو من الرطوبة إلى الجفاف ، ومهما تغير الغذاء من النبات إلى الحيوان أو العكس ، ومهما تغيرت حركات الجسم بالعمل والكفاح ، ومهما تغير نشاط العقل بالدراسة أو عدمها ، ومهما تغيرت عاداتنا السلوكية ،

فإن الجراثيم المنوية التي تسلمناها من جدودنا وأسلافنا سنسلمها لأبنائنا وأحفادنا كما هي دون أن تتأثر بما تأثرت به أجسامنا نحن . ولذلك ليس في ترقية الوسط أية ترقية للإنسان . لأن التفاوت في الكفايات لا يعود إلى تفاوت في الوسط ، وإنما إلى تفاوت في الوراثة . هذه الوراثة التي لا نعرف في زعم ڤيسمان كيف تؤثر فيها أو تغيرها .

وقد كافح هربرت سبنسر هذا القول . وكانت عباراته : « إذا لم يكن الوسط سبباً لتغير الأنواع فلا أعرف سبباً آخر للتطور » . ومع أن هذه الكلمات ينادي بل يصيح بها المنطق والتفكير السليم فإني لم أستطع إلا التسليم بما قاله ڤيسمان ، لأنه قائم على المشاهدة التي هي بينة العلم .

ثم عرفت بعد ذلك تجارب الراهب « مندل » ، التي كان قد أجراها في القرن الماضي في اللوبيا أو الفاصوليا وبعض الحبوب الأخرى ، و« أثبت» أن الوراثة صارمة . وأنها تجري على أرقام معينة كأنها لا تتأثر بالوسط بتاتاً . وانتهيت أنا إلى الايمان بهذه الوراثة الجامدة ، وبأن الوسط لا قيمة له أصلا في تغير السلالات وتطورها . ذلك لأني اعتمدت على ما كان يقوله الثقات . ولست أنا ثقة مجربا في هذه العلوم ، فيجب أن أقبل ما يقوله المجربون .

ولكن بقي التطور عندي بلا تعليل لأني أخرجت منه تأثير الوسط .

لا ، بقي شيء واحد هو تنازع البقاء أي يجب أن نسلم بأن الأفراد من الحيوان والنبات والإنسان تتفاوت في الكفايات ، ونحن — مع أننا نجهل المصدر لهذا التفاوت — مضطرون إلى التسليم به . إذ هو واقع يشاهد . وإن كان هذا التسليم يشبه التسليم بالغيبيات التي لا تعلل أو بالقدر الذي لا يحتسب .

وكان لهذه العقيدة مركبات نفسية عندى تتلوها مركبات اجتماعية . ذلك أن تنازع البقاء فى الطبيعة يجب أن يكون له صداه فى مجتمعنا ، كأن نقتل العاجز العليل أو نتركه يموت دون أن نعمل على شفائه . فهؤلاء العاجزون عن التفوق يستحقون تخلفهم ، وليس من الواجب علينا أن نساعدهم على أن يرتقوا ، لأنهم إنما ولدوا وارثين لهذا العجز الذى يصلحه الوسط . ثم لماذا يبقى هؤلاء الزنوج أحياء مادامت هناك شعوب أرقى منهم ؟ وما دام إصلاحهم بإصلاح الوسط غير ممكن لأنه غير علمى ؟ فزوالهم إذن خير من بقائهم . وفى هذا القول بالوراثة تعليل علمى ، وتسويغ اجتماعى ، للاستعمار والاستغلال ، لأن الأقوياء بالوراثة هم الذين يستعمرون ويستغلون الضعفاء بالوراثة . وقد اتهمت نيتشه اتهاماً لأنه كان يدعو إلى إبادة الضعفاء . ومضت على سنوات كنت أحس عندما أرى إنساناً يتصدق على سائل بقرش أنه جنى على المجتمع وأفسد الأجيال القادمة . لأنه بهذا الإحسان قد استبقى الضعف واستولده .

ولكن يجب أن أعترف أنى لم أسلم كل التسليم بأن الطبيعة كافرة إلى هذا الحد . ولكنى كنت أقف متردداً ، أكاد أحبس نفسى عن السخاء والحنان والرقة العطف . وكنت أظن أنى بذلك قد أصبحت « علمياً ». وذلك أنى كنت على الدوام أهجس بالهاجس الفسلفى المنطقى ، وهو أنه ليس هناك سبب لتغير الحيوان أو النبات سوى تغير الوسط ، أى أن عادات الفرد فى حياته ، وصفاته التى اكتسبها من هذه العادات ، ترثها أعقابه ثم تتراكم وتتبلور حتى تصير صفات جسمية أو غريزة جديدة .

وأخيراً التفت إلى الهورمونات الجنسية ، تلك المركبات التى تفرزها الخصيتان فى الرجل والمبيضان فى المرأة وتؤثر فى قوام الجسم وشكله بحيث

يتغير شكل الجسم حين نقطعها (كما نرى فى الخصيان) فرأيت أنه ليس من المعقول أن تؤثر هذه الجراثيم المنوية فى أجسامنا دون أن تتأثر هى بأجسامنا .

وقرأت بعد ذلك كتاباً للأستاذ «وود جونس» عنوانه «العادة والوراثة» أوضح فيه أن العادات التى يتعودها الحيوان بل الأنسان تنتهى إلى أن تكون وراثية . وقد ذكر حقيقة كبيرة القيمة جداً تنقض ما قاله ڤيسمان من أن خلايا الجسم تنفصل من خلايا الجرثومة المنوية . وهى أن الرحم قد نزعت من بعض الفيران والأرانب فعادت إلى النمو . بل ذكر أن مثل هذا قد حدث لبعض النسوة اللاتى نزعت أرحامهن. وبذلك أثبت أن نزع الجرثومة المنوية من جسم الفأر والأرنب والمرأة ، وهى الجرثومة التى ينمو فيها الرحم هذا النزع والمحو لا يمنعان الجسم من إنماء جرثومة أخرى . وإذا كان الأمر كذلك فإن تأثر الجراثيم المنوية فى الذكر والأنثى بخلايا الجسم لا يترك مجالا للشك . ومن هنا يجب أن نسلم بأن الصفات المكتسبة ، أى العادات التى يتعودها الجسم . تتأثر بها الجراثيم المنوية فتعود هذه العادات وراثية .

وقد ذكر ڤيسمان أنه قطع أذناب الفيران لعدة أجيال فلم يستطع إيجاد سلالة من الفيران خالية من الأذناب . ثم ضرب مثلا بالختان عند اليهود فقال : إنهم على الرغم من ممارسة هذه العادة أكثر من ثلاثة آلاف سنة لا يزال أطفالهم يولدون وهم غلف لم يتأثروا بالختان .

ولكن هذين المثلين لا يدلان على أن ڤيسمان كان بصيراً بمعنى التطور. فإن قطع أذناب الفيران وختان اليهود لا يزيد فى دلالته على ماننفعل نحن عندما نقص شعور رءوسنا ، إذ ليست هذه الأعمال عادات .

ذلك أن معنى العادة أكبر من هذه الأمثلة . فالحيوان يتعود العادة

لأنها تنفعه ، فهو يجد أولا متكلفاً جاهداً حتى تسهل عليه بالمرانة ، ثم تصير المرانة عادة يؤديها وهو لا يكاد يلتفت إليها . كعازف الكمان ، يبدأ متعلماً متعثراً متكلفاً ثم ينتهي بالمرانة إلى أن يعزف وهو يتحدث إليك لا يلتفت إلى الأوتار .

وهكذا الشأن في الزرافة . حين كانت قصيرة العنق تمده إلى الأغصان فتشد عضلاته ، أي تمطها . ثم تكرر هذا بالمرانة حتى صارت العضلات تطول بالوراثة . وهذا هو الشأن في ثفنات الجمل ، أي تلك الأجزاء المتجلدة الخشنة التي تلاصق الرمل عندما يبرك ، فإننا نعرف أن أقدامنا تتجلد وتخشن عندما نمشي على سطح خشن ، أو عندما يضيق علينا الحذاء . والإخشيشان في ثفة الجمل هو عادة نشأت من مقاومة الجسم للرمل الخشن ، ثم صارت بعد ذلك وراثية . بل هذا هو الشأن في عنق الجمل الذي يمده كي يصل إلى أعشاب الأرض .

فالزرافة والجمل احتاج كلاهما إلى خواص مكتسبة ، صارت بعد ذلك موروثة ، لأنها نافعة . أما قطع ذنب الفأر ، وختان اليهود ، وقص شعورنا ، فليس منها أية منفعة لنا ولسنا نجهد في تعودها . ولذلك ليس هناك ما يدعو إلى أن تكون وراثية .

* * *

ثم عدت إلى قواعد مندل في الوراثة فوجدت أنها ليست محكمة ، أي أي ليست علمية ، حتى أصبح المندليون أنفسهم يقولون إن هناك شذوذاً في بعض الصفات المورثة . وهذا كلام لا يستطيع الذهن العلمي أن يسيغه لأن القاعدة العامية لا تتسع لأقل الشذوذ .

ثم انظر إلى النبات الذي استغله الإنسان لغذائه كالقمح مثلا ، فإنه إنما نشأ في بقعة صغيرة في الأصل ، ولكنه يزرع الآن في الأقاليم

الثلجية التى تتاخم القطب الشمالى . وفى الأقاليم الحارة بأفريقيا . وليس لهذا من سبب إلا أن القمح قد تعود مختلف الأقاليم التى زرعه الإنسان فيها، وأورث عاداته ، أى صفاته المكتسبة . لسلالاته المختلفة .

وهكذا الشأن فى البقر الذى يعيش فى السودان الحار . وفى نروج الباردة . مع أن الأسد لا يعيش إلا فى أواسط أفريقية لا يتجاوزها . ولو كان الأسد مدجنا كالبقر . ينقله الإنسان معه إلى مهاجره البعيدة ، لكان قد تعود المناخ البارد وعاش فى نروج كما يعيش الآن فى أفريقيا .

وحيوان اليابسة الذى نزل إلى البحار مثل : القيطس والفقمة والدولفين يبين بوضوح كيف أن الوسط قد غيره ، وكيف أن سلائل هذا الحيوان قد ورثت التغير . بل إن هناك إمارات تدل على أن كفاح الحيوان للأمواج قد غير فى وضعه التشريحى .

مثال ذلك أننا عندما نسبح يكون همنا رفع الرأس حتى لا نختنق بالماء . وهذا الرفع يجعل العنق مشدوداً من الأمام منثنياً إلى الخلف . فتندفع فقاره إلى الأمام فى العنق . وهذا هو مانراه إلى الآن فى الفقمة ، فإن فقارها أقرب إلى نحرها منها إلى قفاها .

وقد كان « بوربانك » الأمريكى يطعم الأشجار بغصون من أشجار أخرى فكان يجد الفواكه التى تنشأ على هذه الغصون تكتسب صفات جديدة من الشجرة الظئر أى الأم ، ثم تورث سلائلها هذه الصفات . مع أن الغصن لم يأخذ من الشجرة سوى الغذاء . وهو بعض الوسط . وهذا الذى حققه بوربانك قد حققه أيضاً « ليسنكو » على أبعاد كبيرة . الغصن يؤثر فى الشجرة الظئر ، والشجرة الظئر تؤثر فى الغصن .

وهذا الفهم الجديد بشأن الوراثة والوسط قد عاد فأحدث لى مركبات نفسية واجتماعية أخرى . وأكسبنى فهما آخر للتطور . وهو أن داروين

قد أخطأ خطأ فادحاً عندما زعم أن «تنازع البقاء» هو كل شيء أو يكاد يكون كذلك . وإن كان فهمه لتنازع البقاء ليس ساذجاً أو ليس محض القوة والعداوة كما يتوهم القارئ . وشرعت أبصر أن التعاون فى الطبيعة أكبر أثراً من التنازع . بل لا يكاد يكون هناك تنازع فى عالم الحيوان بالمعنى البشرى الذى نفهمه من هذه الكلمة . فالأسد لا يقتل الأسد ، والخروف لا يقتل الخروف . وقد يكون هناك صراع دموى بشأن الأنثى ، ولكنه لا ينتهى بالموت فى كل حال . ثم هو صراع قصير الأجل . أما الإنسان فيقتل الإنسان بالملايين ، لا بمحض طبيعته ولكن باتجاه حضارته ، أو بما نشأ عليه من عواطف اجتماعية .

ونحن نخطئ خطأ كبيراً حين ننقل هذا المعنى المتوحش لتنازع البقاء من مجتمعنا إلى الحيوان فى الغابة، لأن الطبيعة ليست كما قال «هكسلى» أو غيره وهو متأثر بداروين : «حمراء بين الناب والمخلب» .

وهذا الفهم الجديد للتطور يحملنا على الإكبار من شأن الوسط البشرى وضرورة ترقيته حضارياً وثقافياً ، لأن العادات التى يتعودها الإنسان بكفاحه لمصاعب الوسط سوف تنتقل كما لو كانت غرائز إلى الأجيال القادمة . وليس ما نسميه غرائز طبيعية سوى عادات تباورت بتعاقب الأجيال .

والدلالة الأخلاقية لهذا النظر الجديد هى أننا إذا تركنا الناس أو بعض الفئات تعيش فى عادات سيئة، فإننا سوف نرى السوء لا يقتصر على الجيل القائم ، بل ينتقل إلى الأجيال القادمة بالوراثة .

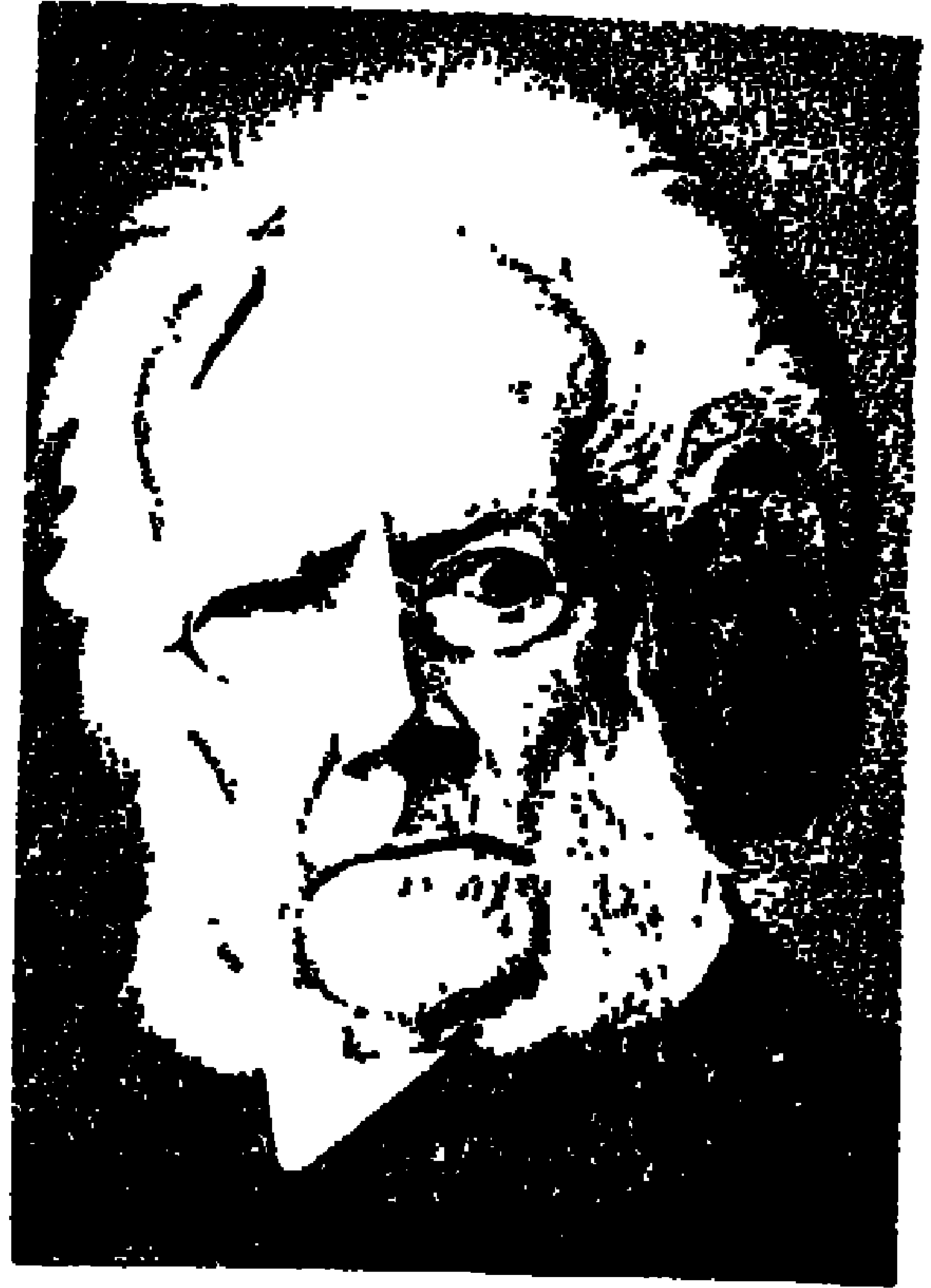
والوراثة فى جمودها الذى اعتقده فيسمان تشبه القدر ، لأننا نعجز عن تغييرها . والإيمان بها يدعو إلى التشاؤم وإلى اليأس من إصلاح الطبيعة البشرية بغير الوسائل الإنتاجية التى لا تتفق دواماً وما نفهمه من العدالة والانسانية . وقد كانت الوراثة هى المركب السيكلوجى السيئ الذى ختم

على عقل « لومبروزو » وجعله يقول إن إصلاح المجرم غير ممكن لأنه يرث النزعة الإجرامية .

وإنى عندما أقلب صفحات ذاكرتى أجد مركبات ذهنية كبيرة انتفعت بها ، ولكن المركبات التى نشأت فى ذهنى من الإيمان بالوراثة قد أفسدت تفكيرى نحو أربعين سنة ، بل أفسدت أخلاقى وجعلتنى أتشاءم كثيراً .

أما إيمانى بالوسط فقد أعاد إلى اتزانى الذهنى والأخلاقى وملأنى تفاؤلا بمستقبل البشر .

هذه هى قصة الكتاب الذى أفسد ذهنى . ولكن المناخ الذهنى فى بداية هذا القرن كان يهيئ للإيمان بالوراثة ويؤيدها .



## هنريك إبسن . . .
### داعية الشخصية

هنريك إبسن هو داعية الاستقلال الروحي للإنسان عامة وللمرأة خاصة . وقد ألف درامته « لعبة البيت » فى دعوة المرأة الأوربية إلى أن تستقل ، وتنشد الآفاق ، وتجرب التجارب . وتختبر الدنيا ، وتربى نفسها ، بدلا من أن تعيش خلف الرجل يكسب حولها ويحوطها برعايته ويدللها فى البيت ويقصر حياتها على الزواج والأمومة .

والاتجاه القديم للمرأة ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، كان ينظر إليها باعتبار أنها تابعة للرجل ، وأنها خلقت للبيت . وفى أمم الشرق القديمة بولغ فى هذا الاتجاه حتى انتهى إلى أن المرأة أنثى فقط تزود الرجل بلذاته الجنسية . وفى هذا قال شاعر عربى :

ماللنساء وللخطابة والقراءة والكتابة

هذا لنا ولهن منا . . . . . . . .

ولم يكن العرب منفردين فى هذا النظر فإن أوربا على الرغم من المظاهر الخادعة كانت تنظر أيضاً إلى المرأة هذه النظرة فى القرون الوسطى، ولكن أوربا كانت تمتاز بميزة كبرى هى أنها لم تفصل قط بين الجنسين فى المجتمع، ولم تعرف الحجاب إلا فى أيام الإغريق. ومع ذلك لم يكن هذا الحجاب الإغريقى يغلق الأبواب إغلاقاً محكماً كما كانت الحال عندنا أيام القرون الوسطى.

ولكن مظهر الحرية الأوربية كان خلابا خادعاً أكثر مما كان واقعياً حقيقياً إلى بداية القرن التاسع عشر. فإن كثيراً من الأمم الأوربية كان يحرم المرأة الميراث، كما كان يحرمها التعلم فى الجامعات. ولذلك بقيت محرومة من الاحتراف والاستقلال والكسب بممارسة الطب أو الهندسة أو سائر العلوم والفنون.

ولكن الضمير الأوربى كان فى بداية القرن التاسع عشر قد تنبه إلى وجدان جديد هو استقلال العقل البشرى وطرح التقاليد بفصل الدين من الدولة. كما أن الحركة الصناعية كانت قد جذبت آلافاً وملايين العمال الزراعيين من الريف إلى المدينة. والمناخ الذهنى فى المدن هو مناخ الحرية والاستقلال والتساؤل والشك. ولذلك وجدت الأفكار التحريرية تربة خصبة فى المصانع والمدن. وقد جذبت الصناعة أيضاً عدداً كبيراً من النساء إلى المصنع. ووجدت المرأة فى هذه المصانع جوًّا منعشاً بعث فيها الإقدام والاستقلال.

واحتاج هذا التطور إلى ألسنة تنطق وتعبر فى بلاغة الأديب وقوة المنطق ونظريات الفكر. فظهرت قصة «مدام بوفارى» للكاتب الفرنسى

جوستاف فلوبير ، كما ظهر كتاب ستورات ميل « إخضاع المرأة » ، ومدام بوفارى قصة امرأة تزوجت أحد الأطباء فى الريف ثم وجدت الحياة دون نشاطها وآمالها فحطمت ما تعلمته من أخلاق واندفعت فى تيار من الشهوات . قضى عليها فى النهاية فانتحرت . وكأن المؤلف يقول لنا إن حال المرأة الأوربية سيء ، وإننا لا نفتح لها أبواب الرقى . ولذلك تنزلق إلى مهاوى الشهوة الجنسية كى تخفف من سأم العيش المبتذل بين جدران المنزل . وكأنه يقول أيضاً : افتحوا أبواب العمل والنشاط الاجتماعيين للمرأة .

أما كتاب « ستوارت ميل » فهو تاريخ لاستبداد الرجل بالمرأة ، وأن هذا الاستبداد لا يضر المرأة وحدها ويعطل كفايتها ويحول دون رقيها باعتبارها إنساناً ، وإنما هو يعطل المجتمع كله نساء ورجالا .

وجاء إبسن حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، فتبلورت فيه هذه الآراء وأخرجها درامة موجعة سامية اهتزت منها المجتمعات الأوربية وأصبحت « نورا » بطلة هذه الدرامة قدوة المرأة الناهضة ومشعلا تهتدى بنوره .

وقد عاش إبسن فيما بين عامى ١٨٢٨ و١٩٠٦ ، وقد غير أوربا الأدبية وأحالها إلى الآراء العصرية ، إذ غرس فيها بذرة « البشرية الدينية » كما أبدل أخلاقها من تراث التقاليد إلى القيم البشرية التى توزن بميزان العقل . ودعا إلى الاستقلال النفسى ، وإلى ضرورة الجد فى الحياة ، بحيث نربى أنفسنا ونكون شخصياتنا أحراراً مفكرين مكافحين مستقلين .

وإبسن نروجى نشأ فى بيت ريفى ، ولكنه قضى صباه خادماً أو مساعداً فى صيدلية . ولم يكن شيء يفتح العين وينبه العقل إلى الأكاذيب الاجتماعية مثل الخدمة فى صيدلية وتركيب العقاقير فيما بين عامى

١٨٠٠ و ١٨٥٠ ، لأن الصيدليات فى تلك السنين كانت تعيش بما يقارب النصب ، إذ لم تكن عقاقيرها سوى مواد غريبة الأسماء معدومة النفع ولم يكن المريض ينتفع منها بأكثر من الوهم .

ولا بد أن إبسن قد تعلم تحطيم الأصنام من هذه المزانة الأولى فى الصيدليات ، ثم احترف الصحافة فى « كرستيانيا » ، والتحق بالمسرح فى « بيرجن » ، وبقى متصلا بالمسرح للإدارة وللإخراج والتأليف مدة طويلة فى كلتا هاتين المدينتين : بيرجن وكرستيانيا التى كانت وقتئذ عاصمة نروج .

وهذا الاتصال بالمسرح أكسبه بصيرة فى الفن كما أكسبه رؤيا فى التأليف . فإن دراماته غاية فى الدقة الفنية . وكثير منها يجرى على الأسس الإغريقية للفن المسرحى وهى أن الدرامة لا تزيد على أن تكون جلسة فى مكان وزمان معينين لا يتغيران من الفصل الأول إلى الفصل الأخير .

وقد نقل الدرامة الرومانتية إلى الواقعية ، وجعلها اجتماعية تعالج المشكلات التى يعانيها المجتمع . ففى إحدى الدرامات يعالج مرض السفلس وعواقبه الوخيمة ، وفى أخرى يعالج المسيحية والوثنية ، وفى أخرى يعالج استقلال الشخصية إلخ . .

ولكنه كان فى كل ذلك شاعراً ، يرى الرؤيا فتمتد نظرته إلى الآفاق البعيدة . وفيما بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٩٠ كان يعيش فى ألمانيا مستوحداً لا يكاد يعرف الأصدقاء . وكان يخرج درامة واحدة كل سنتين تقريباً . وقد أوجد مسرحاً جديداً فى أوربا ، وعندما نقرأ « برنارد شو » نجد أن إبسن مضمر فيه . فقد ألف « شو » كتيباً فى الدفاع عن إبسن وأسلوبه الواقعى . وكما أن إبسن كان يرى رؤيا الشاعر ، فإنه أيضاً كان يلتزم

الحقائق . وهذا هو شأن برنارد شو .

أما أفكاره وفلسفته فتتلخص فى قيمة الشخصية البشرية وضرورة استقلالها وتربيتها ، وأن هذا هو الواجب الأول على الرجل والمرأة . ومن هذه البؤرة تتشعع واجبات أخرى ، هى أن نأخذ أنفسنا بالجد وأن نعتمد على العقل ونحيا الحياة الشريفة الفنية الراقية . وألا نخضع لأطياف الماضى وأشباحه. وقد كتب إلى أخته خطاباً قال فيه : « أحب أن أرى كل شىء فى وضوح وصفاء ، ثم أحب بعد ذلك أن أموت » .

وهو يعنى بهذه الكلمة الإيمائية أنه يجب أن يرى المشكلات الاجتماعية مكشوفة، واضحة، خالية من المركبات التاريخية والتقليدية التى تحول دون رؤيتها على حقيقتها . أى يجب على الأديب أن يكون واقعياً، يرى الواقع الملموس ثم يبنى خياله على أساسه ، ويرى رؤياه من خلال علته .

وأبعد ما كان يبتعد عنه إبسن هو البرج العاجى الذى يعيش فيه الأديب السخيف ، يحلم ويتخيل فى عزلة عن المجتمع ومشكلاته . كأنه الأدب لذة موسيقية فقط ، وكأنه يجب أن يترفع عن معالجة الجوع والبغاء والمرض والظلم والاستبداد .

« الشخصية البشرية » هى إنجيل إبسن .

وإذن لم يكن مفر من أن يسأل عن شخصية المرأة . وهل الحضارة فى عصره كانت تهيىء لها أن تكون إنساناً راقياً مجداً ، لها أهداف شريفة تعيش من أجلها وتحس أنها تؤدى رسالتها فى الحياة ، كما أن لها أسلوباً فلسفياً تتخذه فى عيشها ، أم لا ؟

هذه هى المشكلة التى عالجها إبسن فى درامة « بيت الدمية » أو « لعبة البيت » . واللعبة هنا هى الدمية التى تلعب بها الطفلة وهو يرمى من هذه التسمية إلى أن المرأة الأوربية ( حوالى عام ١٨٧٠ ) هى لعبة الرجل عام يقومها ويقدرها بما تتسم به من سذاجة وجهل . وهى تولد فى بيت

أبويها فتعامل منهما كما لو كانت لعبة تزخرف بالملابس الزاهية وتدرب على إنكار نفسها ، فلا تتحدث عما يتحدث عنه الرجال فضلا عن أن تمارس أعمالهم . فتنشأ محدودة الفهم قليلة المعارف قد سدت فى وجهها أبواب العمل الكاسب الذى يعمله الرجال ويكسبون منه أرزاقهم كما يكونون به شخصياتهم .

و « نورا » هى هذه الفتاة ، تترك بيت أبويها إلى بيت زوجها فى جمال وبراءة وطهارة وسذاجة . لها وجه كأنه قد صنع من وريقات الورد وكأنه قد خلق للقبلات فقط . وجسم قد شيدته الطبيعة كأنه يمثل النبل والروعة . وهى تتحدث بلغة قد هذبت كلماتها ، فلا تنطق بما ينطق به الرجال . أما العقل فهو العقل الساذج الذى لم يختبر الدنيا ولم تمر به الأخطاء والأخطار فيتعلم ويتدرب . ويتلقاها زوجها فيعاملها كما كان يعاملها أبواها . فهى حتى عندما تبلغ الأربعين أو الخمسين ستبقى طفلة .

وإبسن يثور على هذا الوضع ويتساءل : لماذا تبقين طفلة ؟ أين شخصيتك وذكاؤك ؟ ولماذا تحرمين اختبارات هذه الدنيا ؟

وتجرى الدرامة فى سياق التمثيل الذى يوضح لنا أن المرأة لن تكون نحو ما نحب أن تكون المرأة عليه . لأن كل هذه الصفات تعنى فى النهاية إنساناً إلا عندما ترفع نفسها من الأنثوية . وأن هذا لن يكون إلا عندما تأخذ نفسها مأخذ الجد ، فتستقل بشخصيتها وتتعلم وتختبر . ونحن الرجال لا نتعلم ونرتفع إلى المقام الاجتماعى أو المكانة الذهنية أو الفهم المحيط . كما لا تتكون لنا شخصية ، إلا لأننا نختلط بالمجتمع ونعالج الخطأ ونقع حتى فى الخطر . وليس هناك رجل يفخر بأنه ساذج أو طاهر أو برىء على نحو ما نحب أن تكون المرأة عليه. لأن كل هذه الصفات تعنى فى النهاية أننا نحب جهل المرأة وإبقاءها طفلة أو « لعبة » كما يقول إبسن .

ونورا بعد أن تتكشف لها حالها هذه تترك بيت الزوجية ، تترك

الزوج والأطفال ، بعد أن تشرح لزوجها أنها طفلة ، وأنها لن تقبل أن تعيش سائر حياتها فى هذه الطفولة ، وأنها ستخرج إلى الدنيا كى تعامل وتختبر حتى تنجز لنفسها وعد حياتها ، وحتى تؤدى حق إنسانيتها ، بأن تبنى شخصيتها بالمعرفة والاختبار والدرس مهما ارتكبت من أخطاء أو وقعت فى أخطار . ذلك لأن رسالة الإنسان فى هذه الدنيا أن يعرف الدنيا ولا يحاط بسياج من الواجبات الاجتماعية تحول دون فهمه أو بنائه لشخصيته .

وقد أحدثت هذه الدرامة ضجة كبرى فى العالم الأوربى لأنها صدمت العقائد والتقاليد . ولكن الضجة هدأت أو انفثأت عن انتصار المرأة والتسليم بأن جمالها القديم ، جمال الوجه والصدر والقامة والفخذين ، هو جمال الأنثى .

وأما جمال المرأة الجديدة فيجب أن يعلو على ذلك ، أى يجب أن ينطوى على العقل النير والشخصية الراقية التى تدربت بالتجارب والاختبارات ، وارتقت بالثقافة واشتركت فى شئون المجتمع ، وقد كان إبسن رؤياى المنيرة حين كنت حوالى العشرين ، أتلمس المثليات الأوربية والقيم العصرية ، وأبنى شخصيتى الذهنية . وكان مركز المرأة المصرية يحز فى صدرى كأنه خزى أبدى لولا هذه المحاولات الصغيرة العظيمة فى مثل كتابى قاسم أمين ثم ، بعد نصف قرن ، فى نشاط هدى شعراوى وسيزا نبراوى ودرية شفيق وأمينة السعيد وأمثالهن .

ونحن الشرقيين قد ورثنا تراثاً سيئاً من القرون المظلمة ، هو تراث الرق والخصيان والحجاب . وأولئك الذين يدافعون عن الحجاب ينسون خصاء الزنوج كى يتممه ، أى يتمم الحجاب ، ولعلهم يخجلون حين يذكرون ذلك .

لقد تعلمت من إبسن شرفاً جديداً لم أكن أعرفه حين تركت بلادى إلى أوربا فى عام ١٩٠٧ ، هو شرف الإنسانية التى يجب ألا يحدها حجاب

المرأة . هو شرف الزواج الذى يقوم على الاخاء والمساواة ، ليس فيه سيد وعبد ، وهو شرف الأمة التى ترفع نساءها إلى مقام الوزيرات والنائبات وتفتح لهن المدارس والجامعات .

قبل خمسين سنة كنا نقعد إلى المرأة فنجد الجهل مع السذاجة ، جهل وسذاجة يبعثان الاشمئزاز الذهنى فى الرجل الناضج . ولا تزال هذه الحال باقية فى معظم أوساطنا . ولكن الدنيا تتغير ، وهى تتغير لمصلحة المرأة ورفعتها وترقيتها ، ولن ترتقى المرأة المصرية وتبلغ النضج أو الإيناع إلا عندما تختلط بمجتمعنا نحن الرجال وتمارس أعمالنا وتعب من اختباراتناوتشترك فى الصناعة والتجارة والسياسة وتواجه الأخطاء والأخطار .

وليست عبرة « لعبة البيت » مقصورة على المرأة ، فإنها تمس الرجال إلا القليل من الناضجين . ذلك أن الرجل العادى فى كثير من تصرفاته يعيش بلا استقلال ، وليس له من الشخصية سوى الاسم . يخضع للتقاليد وينساق فى تيار العرف . وصحيح أن الدنيا تربيه وتصلب عوده وتخصب شخصيته بالاختبارات والاصطدامات التى تحرم منها المرأة ، فهو يخطئ ويصيب ويتعلم ويقف على كثير من الأكاذيب الاجتماعية التى تفتح ذهنه وتنير رؤياه ، وكل هذا لانصيب المرأة منه شيئاً لأنها محبوسة بسياج أو حجاب من التقاليد .

ودعوة إبسن هنا : لتكن لكل منا شخصية وليتنظر كل منا إلى الدنيا كما لو كان هو محورها ، ليس لأحد ولا لعقيدة سلطان عليه إلا ما يرى بعد التفكير الاستقلالى أنه نافع له ولمجتمعه .

إننا نطلب الحرية من القوانين والدساتير ، ولكن كل ما تستطيع هذه أن تهبنا من حقوق هو على الدوام دون ما نهب أنفسنا . لأن قيود التقاليد واصطلاحات العرف الاجتماعى تقيدنا أكثر مما تقيدنا به مظالم المستبدين التى تحاول الدساتير والقوانين محوها أو مكافحتها .

وحتى حين يستبد بنا حاكم ظالم ويستعين بالقوة المادية على تقييد حريتنا نستطيع الاحتفاظ بكرامتنا والإحساس باستقلالنا ، لأننا نقاوم ونكافح استبداده وجبروته ونحن على وجدان بأننا أرقى منه . ولكن استبداد التقاليد ينغرس فى نفوسنا ، ويعين مزاجنا ، ويعودنا عادات ذهنية ونفسية تجعل كلا منا أسيراً . أجل ، وأسير نفسه مع ذلك . فالمرأة التى نشأت على الحجاب لا تحس هوانه كما لا تعرف جهلها ، وهى لذلك لا تقاوم ولا تكافح . وكذلك شأن الرجل الذى يعيش فى أسر التقاليد وكأنها من طبيعة الأشياء التى لا تتغير ، بل لا تحتاج إلى التغيير .

والفرق بينه وبين المرأة هو فرق الدرجة فقط إذ هو فى حجاب نفسى وذهنى . وهذه الدنيا هى ملك الإنسان وعلينا جميعاً رجالا ونساء أن نتعلم وننضج ولا نكون لعبة الأقدار أو لعبة المجتمع . وعلينا أن نستقل وندرس ونختبر الحقائق ، وليس هذا واجب « نورا » وحدها ولا واجب النساء وحدهن وإنما هو واجب الرجال أيضاً .

ونعم هذا الدرس الذى علمنا إياه إبسن ، درس حق كل إنسان فى تقرير مصيره وتربية شخصيته .

* * *

كنت قبل سنوات أصطاف بالإسكندرية ، وكنا نقعد رجالا ونساء فى اجتماعات عائلية على الشاطئ نتجاذب الحديث . وما كان أسخف ما كانت تتحدث عنه النساء .

شئون الخدم ، وزواج هذه الآنسة أو تلك الأرملة ، وهذا الخطيب الثرى المنتظر لهذه الفتاة ، وخاتم الخطبة ، ومبلغ المهر لتلك الفتاة الأخرى . والسكنى فى الزمالك والأتومبيل الجديد عند فلان « بك » وهذه الخياطة البارعة وذلك القماش الجديد إلخ . .

أحاديث تافهة من شخصيات تافهة . واهتمامات زائفة نشأت من حبسة البيت وحبسة النفس . فلم يكن بين هؤلاء النسوة من كانت تهتم ببحث العبرة والدلالة للطاقة الذرية ، أو لهيئة الأمم المتحدة ، أو لفلسفة برتراندراسل أو للمخترعات الطبية أو لمستقبل المرأة فى الهند ومصر . أو لمعنى الدين أو برامج المدارس . وكأنهن لم يكن يقرأن الجرائد فضلا عن الكتب .

ولكن كان فى هذا الوسط فتاتان لم تتزوجا وإنما احترفتا التمريض فى أحد المستشفيات بالقاهرة ، وكنت عندما أقعد إليهما وأتحدث أحس أنى إزاء شخصيتين عالميتين . فقد اكتسبت كل منهما نظرة عالمية أخرى غير المنزل والخدم والطبخ وأحمر الشفاه والفستان الجديد .

وقد استمعت إلى حديث إحداهما عن المرضى والأمراض ، واختلاف الناس فى استقبال الموت ، أو الحكم بالموت ، عندما يعرف المريض أن سرطاناً قديماً قد نبت وتفرع فى جوفه .

ووصفت لى إحداهما كيف رأت رجلا قبيل النزع وكيف خففت عنه .

وكنا فى سيدى بشر وهى تبعد عن الإسكندرية بنحو عشرة كيلومترات ، فاقترحنا على أن ننهض ذات صباح ونسير على الأقدام بحذاء الشاطئ إلى الإسكندرية .

وكنت أحس وأنا أتحدث إلى كل منهما أنى إزاء إنسان قد استحال إلى شخصية ناضجة تمتاز بجمال وكرامة وذكاء . وذلك لأن اختلاطهما بالمجتمع وخدمتهما له قد زاد ذكاءهما وكون شخصيتهما ، ولو أن كلا منهما كانت قد نشأت النشأة المألوفة عند غيرهن ، اللائى يعشن فى البيت وينتظرن الزوج ، ثم يتزوجن ويقصرن اهتماماتهن على اللباس والخدم وقصص الزواج والثراء ، لما كانت لها هذه الشخصية .

والذكاء ينهض على أساس طبيعي ولكنه يربى بالمجتمع . ونحن الرجال بما نمارس من اختبارات ونكابد من كسب أو خسارة ونصادف من أخطار ، بل بما نرتكب من أخطاء ، نتعلم وننمو ونزيد حكمة . والمرأة كذلك لن تكون إنساناً حكيما إلا إذا مارست جميع الأعمال التي يعملها الرجال واقتحمت ميادينهم وتعرضت للأخطار مثلهم .

وهذه الصورة الجديدة للمرأة قد لا تعجب بعض الرجال الذين يؤثرون جهل الزوجة على معرفتها وقصورها على نضجها . وهم يحسون سيطرة ويمارسون تسلطاً عليها في هذه الحال ، ويلتذون هذه المرتبة أو الميزة العالية لهم عليها . ولكن المرأة الرشيدة يجب أن تتنبه وترفض أن تكون لعبة الرجل كما رفضت « نورا » .

ونحن الرجال نعرف أن المدرسة والجامعة لا تربياننا وإنما الذي يربينا هو هذا المجتمع الذي نختلط به ونصطدم بمشكلاته. ونحن لا نستقطر الحكمة ، وننضج النضج الفلسفي ، إلا بعد أن نخطئ ونصيب ونخسر ونكسب ، ونتساق ساعة الهوى ، ثم نفيق عقبها سنين لأننا عرفنا الحقائق بالخبرة ومارسنا هذه الدنيا في حرية واستقلال بلا خوف من سلطة أو تقاليد .

وهذه الحكمة التي ننالها نحن الرجال من اختباراتنا لهذه الدنيا يجب أن تنالها المرأة بمثل الوسائل التي نتوسل نحن بها ، أي بالعمل والإنتاج والاختلاط والاستقلال والاختبار .

وهذه الصورة الجديدة التي رسمها لنا إبسن في نورا قد تحققت في المرأة الأمريكية إلى أبعد حد . وكذلك تحققت إلى حد ما في المرأة الانجليزية والإسكندناوية والروسية حيث تعمل المرأة إلى جنب الرجل وتستقل بما تكسب . ولم يعد الرجل يعولها ، وقد أصبحت شخصيتها قوية جلية تواجه الدنيا في شجاعة وتحترف الحرف التي ترقيها وتنبه ذكاءها

وتفتل عضلاتها . وهى فى كل ذلك لم تهمل مهمتها البيولوجية فى الزواج والحمل والولادة .

وقد جدت ظروف جعلت هذا الاتجاه نحو استقلال المرأة يسير بسرعة . ذلك أن وفرة الآلات الميكانيكية فى البيت الأمريكى أغنت المرأة عن العمل فى الطبخ والغسل . فزاد فراغها الذى احتاجت إلى أن تشغله بالعمل والكسب خارج البيت . ومعنى هذا أن التغير فى الإنتاج المنزلى قد أحدث تغيراً فى أخلاق المرأة . وحققت هذه الآلات الكهربائية دعوة إبسن من حيث لم يكن ينتظرها .

والمقارنة بين المرأة الأمريكية التى تعمل فى المصانع والمتاجر والمكاتب، وتستقل بعواطفها، وترسم بيدها خارطة حياتها، وتقرأ وتناقش وتكسب وتخسر وتصيب وتخطئ ، وقد تكونت لها شخصية رصينة بصيرة قوية من هذه الحياة ، نقول إن المقارنة بينها وبين المرأة الأوربية فى الأقطار الجنوبية مثل إسبانيا وإيطاليا ويونان حيث لايزال المطبخ يجرى على تقاليده وحيث يستأثر المطبخ والغسل بمعظم الوقت ، وحيث يسود الرجل المرأة وله عليها الكلمة العليا ، بحيث يقرر لها ، أو يكاد يقرر لها ، مصيرها — هذه المقارنة توضح لنا سمو المرأة الأمريكية الجديدة ، باعتبارها إنساناً عاقلا مستقلا ، على هذه المرأة الأوربية الجنوبية لا التى تزال مقيدة بالتقاليد .

إن العمل والكسب والاختبار والإصابة والخطأ والاختلاط بالمجتمع قد ربى المرأة الأمريكية ، فى حين أن الانزواء فى البيت قد قيد النمو الذهنى للمرأة الأوربية الجنوبية . ولا نذكر المرأة الشرقية .



## نيتشه
## أو فتنة الشباب

اثنان انخدعت بهما سنوات كثيرة . أولهما ڤيسمان الذى غرس فى ذهنى أن الصفات المكتسبة لا تورث . وإحساسى الآن نحو هذا الرجل هو البغض . أما الثانى فهو نيتشه الذى خدعنى ، فافتتنت به سنوات ، قبل أن أتخلص منه . وإحساسى نحوه هو الحب .

وقد عرفت نيتشه فى عام ١٩٠٩ وكنت منغمساً فى نظرية التطور . -

وكان « تنازع البقاء » و « بقاء الأصلح » و « الطبيعة حمراء بين الناب والمخلب » من المعانى التى أقبلها فى صمت وتسليم . وهذه المعانى جميعها تنقض الديانات التى تقول بالرحمة والتعاون والإخاء البشرى وحماية الضعيف .

وهبط على نيتشه كما لو كان وحياً أو كشفاً . نثر ساحر كأنه أبيات

من الشعر . وخيال يرتفع إلى آفاق المستقبل . وجرأة تكاد تجمد ذهن الناشئ رهبة وجزعاً أو تنفضه حماسة وطرباً . ثم إلى ذلك فلسفة تعلو على برود المنطق ، وتأخذ بحماسة الإيمان وغلواء التفاؤل . وفى كل ذلك ارتباط بالتطور .. « إنى أعلمكم علم السبرمان ، أو الإنسان الأعلى . ما هو القرد إزاء الإنسان ؟ أضحوكة أو خزى . . وكذلك يجب أن يكون الإنسان إزاء السبرمان ، أضحوكة أو خزى ؟ . . إنما الإنسان معبر أو جسر يصل بين القرد والسبرمان . سوف يكون السبرمان ازدهاراً وخيراً وتعبيراً نهائياً للأرض . أستحلفكم أن تكونوا أمناء للأرض. وأن تكفوا عن التطلع إلى النجوم تنشدون منها آلاماً ومكافآت . إن عليكم أن تضحوا بأنفسكم للأرض حتى يتاح لها أن تنجب يوماً ما السبرمان . .الإنسان شىء يعلى عليه ، فماذا فعلتم كى تعلوا عليه ؟ »

كلمات رائعة كان وقعها فى نفسى ، وأنا حوالى العشرين ، وحياً أو كشفاً ، فتعلقت به ، وكتبت عنه مقالا فى مجلة المقتطف فى عام ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الإنسان » .

وقد كانت نظرية التطور جديدة فى أوربا ، وكانت تكشف عن صورة وحشية للتطور . وقد استلهم منها أعداء المسيحية برهاناً جديداً يقيمونه لنقضها ، وكانوا قبل ذلك يقنعون بالمقارنات التاريخية بين الأناجيل يوضحون زيف الأساطير فى الدين . ولم يكن يجرؤ أحدهم على القول بأن الأخلاق المسيحية ليست هى الأخلاق المثلى أو أنها تؤخر البشرية أو أن هناك ما هو أرقى منها . ولكن نيتشه لم يبال الأساطير أو المعجزات ، إذ عمد إلى دعوة المسيحية التى امتازت بها ، وهى الرحمة وحب المساكين والضعفاء ، فحمل عليها ووجد فيها ميداناً لبحث القيم والأوزان التى يعيش بها الأوربيون المسيحيون . فقال إن هذه الأخلاق تعارض بقاء الأقوياء « الصقور » وتصدهم عن حقهم الذى تنطق به الطبيعة وهو

أن الصقر يجب أن يأكل العصفور . فإن بين البشر عصافير ضعفاء يستحقون الفناء ، كما أن بينهم صقوراً قوية تستحق البقاء . وهو فى هذا المنطق لا يذكر داروين . مع أن القارئ لمؤلفاته لا يتمالك أن يذكر نظرية التطور .

ونيتشه أديب من الطراز الأول . وهو أيضاً لغوى وفيلسوف . ومن هنا سحره الذى لا يقاوم . فإنه يفكر تفكير الفيلسوف ويكتب بلغة الأديب . وهو يرجع بحثه إلى التاريخ .

فإن الرومانيين القدماء كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية يتخذون السيف شعاراً والقوة مذهباً ، وكانت أخلاقهم تنزع إلى البطولة كما يتضح من كلمة Virtuc ومعناها الفضيلة . فإنها مشتقة من كلمة Vir ومعناها الرجولة ، فالفضية كانت عند الرومانيين صفة الرجولة أو أهم خصائصها ، ولكن المسيحية جاءت فى زعم نيتشه فاستبدلت بالرجولة والبطولة ضعفاً زرياً نرى نتائجه فى شعوب أوربا الحاضرة حيث تتفشى الأمراض وتكاد تكون خالدة لأننا نحمى كل مريض ونعنى بعلاجه .

ولد نيتشه فى عام ١٨٤٤ ومات فى عام ١٩٠٠ وكان أبوه قسيساً ، كما كانت أمه امرأة متدينة . وقد هيئ لأن يدرس فى كلية دينية كى يكون قسيساً ، ولكنه التفت إلى اللغات فبرع فيها . ومن تحليل الكلمات القديمة استطاع أن يحلل التطور الأخلاقى فى أوربا . ونستطيع أن نلخص فلسفته بأنها ترمى إلى أن تجعل غاية الحياة خدمة الأقلية من الشخصيات السامية ، وليس خدمة الأكثرية أو سواد الأمة . وهو هنا بالطبع غير ديمقراطى ، بل عدو الديموقراطية .

وهو بكلمة أخرى يطلب أخلاق السادة بدلا من أخلاق « القطيع » كما يصف سواد الشعب .

ومما ينبهنا هنا أن هتلر كان كبير الإعجاب به ، وقد أهدى مجموعة فاخرة من مؤلفاته إلى موسوليني . وكلاهما ، أى هتلر وموسوليني ، كان عدواً للديمقراطية . ولكننا لا نعني من هذا القول أن نيتشه يحمل قارئه على الاعتقاد بأن الفاشية نظام حسن، فإن فيه أحياناً من سمو الفكرة ونضج الحكمة مايجعلنا نشمئز من المقارنة بينه وبين هذين الطاغيتين .

ونحن نضحك منه حين يقول : « اللحادون والمسيحيون ، والبقر والنساء ، والإنجليز وسائر الديمقراطيين ، ينتمون إلى أصل واحد » .

ولكننا نحس بروعة أفكاره حين يقول : « الزواج هو اجتماع إرادتين لإيجاد شخص ثالث أعلى من الزوجين ».

وقوله : « لا يجب فقط أن نتناسل إنما يجب أن نتناسل إلى أعلى » .

وهذا أحسن ما قيل عن الزواج . فإنه رفعه من معاني السعادة واللذة إلى معاني التطور والتضحية ، أى يجب أن يدبر الزواج بحيث يؤدى إلى الرقى البيولوجى وإيجاد السبرمان وزيادة الذكاء والصحة والقوة .

وحملة نيتشه على المسيحية تتساوق مع فلسفته . فإنه يجد فيها دعوة إلى التواضع والخضوع والطيبة ، فى حين هو يطلب الارتفاع والكبرياء والقسوة . أو يمكن أن يقال إن المسيحية تنشد مجتمعاً أفقياً يتساوى فيه الجميع ، بل يمنع التفوق لبعض أفراده ويعيد الجميع إلى حال سواء من التوسط . ولكن نيتشه ينشد مجتمعاً عمودياً يتيح للعظماء أن يتفوقوا ويسودوا .

وعنده أن « الشرف » وثنى رومانى أرستقراطى . أما « الضمير » فسيحى يهودى ديمقراطى . وأن أوربا لهذا السبب مهددة ببوذية جديدة تنكر فيها الحياة . ومن أقواله :

« الغريزة هى أسمى أنواع الذكاء التى اكتشفت إلى الآن » .

« ونصيحتى إليكم أيها الإخوان هى : كونوا قساة صلاباً » .

« علينا أن نفر من أقرب الناس إلينا ، من جيراننا ، ونحب أبعد الناس عنا » .

« تفاوت الحقوق هو الشرط الأساسى لوجود الحقوق » .

« لصغار الناس صغار الفضائل ، ولكننى لا أعرف ما حاجتنا إلى صغار الفضائل » .

« ليس للأنانية قيمة فى الأرض أو فى السماء . وجميع المسائل العظيمة تحتاج إلى حب عظيم » .

« الانتقام الصغير أكثر إنسانية من العف عن الانتقام » .

« ما هو الشىء الحسن ؟ هو كل ما يزيد الإحساس بالقوة ، أى إرادة القوة ، أى القوة ذاتها فى الإنسان » .

« وما هو الشىء السيئ ؟ هو كل ما ينشأ من الضعف » .

« عيشوا فى خطر ، شيدوا مدنكم إلى جنب فيزوف . ابعثوا بسفنكم إلى بحار مجهولة » .

« لأنك جعلت الخطر حرفتك ، لذلك أدفنك بيدى » .

ومن هذه المختارات الموجزة نجد أن نيتشه لا يقدم لنا فلسفة ومنطقاً بمقدار ما يقدم لنا أشعاراً أو مذهباً وعقيدة خلاصتهما أن نتخلص من الضعف ونقسو على أنفسنا وعلى غيرنا . ومع أننا نحس من اتجاهاته الفكرية أنه على التصاق واعتناق لمذهب داروين فى التطور البيولوجى ، فإن الميزة واضحة فى أنه لا يطلب سبرماناً للمستقبل بمقدار ما يطلب منا أن نكون نحن على سمو وارتفاع فوق العامة ، وعلى مقاطعة للأخلاق المسيحية .

وإنسان المستقبل ( السبرمان ) الذى يرتفع فوقنا بمقدار مانرتفع

نحن فوق القردة ، لا يحتاج لإيجاده إلى القسوة الأخلاقية بمقدار ما يحتاج إلى التنظيم الاجتماعى للزواج والتناسل . وهذا يتم بالتعاون والرفق أكثر مما يتم بالتنازع والقسوة .

ومنطق المسيحية هو المنطق الإنسانى بالتعاون . ومنطق نيتشه هو المنطق الفطرى بالتنازع .

وقسوة المبادئ الإمبراطورية . والقول بأن هناك سلالات بشرية لها حق السيادة على الشعوب السوداء أو السمراء أو الصفراء ، هما أبعد ما يكونان عن تفكير نيتشه عندما نتأمل ونتعمق مؤلفاته . ولكن ليس هناك شك أن الدراسة السطحية قد عملت لتأييد هذه الاتجاهات ، كما يتضح من إكبار النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين لمؤلفاته لاعتقادهم أنه يؤيدهم .

* * *

والقارئ لنيتشه فى حملته على المسيح يحس وجاهة الرأى الذى يقول به « أندريه جيد » ، وهو أن نيتشه يغار غيرة شخصية من المسيح . فإن كلماته تحمل أحياناً بذاء أكثر مما تحمل نقداً . وهو فى كتابه « هذا ما قال زرادشت » يقحم الإنجيل ويكذب كلمات المسيح . بل نحس ، ونحن نقرأ هذا الكتاب ، أنه يقلب العبرة والدلالة من كلمات المسيح ويضع مكانها كلمات أخرى لها نقيض الأخلاق المسيحية . ثم يزيد على هذا فيحاكى أسلوب الإنجيل . فكما أن المسيح كان يجادل الفريسيين ويناقضهم ، كذلك نيتشه قد جاء كي يجادل « الطيبين العادلين . . . لأن عقولهم مقيدة فى سجون ضمائرهم » . ثم يخاطب تلاميذه بما يشابه أو يطابق خطبة الجبل حين خاطب المسيح تلاميذه ، ولكن مع الفرق فى العبرة والدلالة . إذ حيث يدعو المسيح إلى الرحمة والحنان والإخاء البشرى فى

أبوة الله» ، يدعو نيتشه إلى القسوة وضرورة التفاوت . ولنيتشه كما للمسيح خلوته واستيحاؤه وله أيضاً « العشاء الأخير » الذى يقول عنه بلسان زرادشت « هذا العشاء لتذكرونى » .

ثم تزداد الغيرة إلى حد الجنون فيقول : « ما هى أعظم الخطايا على الأرض إلى يومنا هذا ؟ أليست هى قول ذلك القائل : ويل لكم أنتم الذين تضحكون فى هذا العالم » . وهو هنا يشير إلى المسيح ثم يحاكى ويناقض بما فى قوله على لسان زرادشت :

« صحيح أنكم إذا لم تصيروا كالأطفال الصغار فإنكم لن تدخلوا ملكوت السموات ( وهنا يشير زرادشت إلى السماء ) ولكننا لا نرغب فى أن ندخل هذا الملكوت لأننا قد صرنا رجالا . ولهذا نحن ننشد ملكوت الأرض » .

بل يتحدث فى جنون ، فيأسف على أن المسيح لم يعمر طويلا . ويقول إنه لوكان قد عمر طويلا لنقض آراءه التى كان قد قال بها ، ثم يقول :

« حقاً لقد مات هذا العبرانى . .

« لم يكن قد عرف فى حياته سوى دموع العبرانى وأحزانه ، مع كراهة الطيبين والعادلين ، هذا المسيح العبرانى ، ثم إذا ببيداء الموت تطويه . . .

« ولم يعش فى البيداء بعيداً عن الطيبين والعادلين ، لعله لوكان قد فعل لكان قد عرف كيف يعيش . وكان عندئذ يحب الأرض والحياة أيضاً . .

« ثقوا يا إخوانى أنه مات دون أن يعمل ، ولو أنه كان قد عاش مثلما عشت ، وعمر مثلما عمرت ، لنقض ما كان قد قاله ، أجل : إنه كان على شرف يحمله على أن ينقد ما كان قد قاله .

« ولكنه لم ينضج ، وحبه إنما كان حب الشباب الذى ينقصه النضج . وهذا هو علة كراهته للأرض والحياة » .

* * *

إن كثيراً من أقوال نيتشه يوهم الهوس إن لم نقل الجنون . وربما مما لا شك فيه أنه قضى نحو عشرين سنة وهو فى جنون يكاد يكون مطبقاً ، إذ كان فى الدور الأخير من السفلس . ولعل هذا الجنون كان قد تسلل وئيداً قبل أن يطبق عليه . ولعل أيضا بعض هذيانه يعزى إلى هذا المرض .

على أن كثيراً من « الهذيان » لا يزيد أن يكون إسرافاً وتوتراً فى التعبير .

ولكن ليس من الصواب أن نحذف نيتشه بدعوى الهوى أو الهذيان أو الجنون ، فإنه قد عرض لقضية إنسانية واضحة يجب على كل فيلسوف أن يواجهها فى صراحة وأن ينتهى فيها إلى حكم فاصل . وليس ثم مفر من هذه المواجهة .

وهذه القضية هى أن مصلحة البشر وارتقاء الإنسان يقتضيان محاربة الضعف والمرض والنقص كما يقتضيان تشجيع وتأييد الصفات العالية كالصحة والقوة والذكاء فما دام هذا هو الهدف فهل من الخير للناس أن يؤسسوا المستشفيات لمعالجة المرضى ؟ وهل من الخير أن يباح الزواج للأبله والمغفل والأشوه ؟ ثم ما دمنا نؤمن بأننا كنا على مستوى منخفض من الذكاء قبل مليون سنة ، حين كنا والحيون سواء ، فلماذا لا نعمل فى اطراد التطور كى نزداد صحة وقوة وذكاء ؟

لقد كنا فى الغابة نعيش بالفطرة ، وكانت الطبيعة قاسية لا ترحم ولا تعرف دواء لمعالجة المرضى ، وكان الموت يفشو ويفتك بالآلاف ولا

يبقى منا غير الصالح القوى القادر على المشقات . ثم جاءت الحضارة فجمعت الضعيف إلى جنب القوى . وسادتنا أخلاق الرحمة والإخاء والتصدق ، فعاش بهذه الأخلاق ناس ما كانوا ليستطيعوا العيش فى الغابة. ثم هم مع ذلك يتزاحمون و يتناسلون فيجعلون المرض والضعف والدمامة مخلدة فى العناصر البشرية .

وصيحة نيتشه هنا : عودوا إلى شريعة الغابة ، عودوا إلى تنازع البقاء، هى صيحة تستحق النظر والتأمل . ولا يغنى فيها القول بأنه كان مريضاً بالسفلس أو أن هذا القول هذيان . إذ ليس هذا هذياناً .

لقد كان القرن التاسع عشر عصر الإيمان بالوارثة ، وهى القدر الذى يعين لنا حظنا فى الحياة بما ورثنا من كفايات من آبائنا . ومع أن القرن العشرين قد نقض كثيراً من هذا الرأى ، وأدحض بعض الأركان لهذا القدر ، فإن الوراثة لا تزال تحتل جزءاً كبيراً من التفكير البيولوجى . وكلنا يثق هذه الأيام بقيمة الوسط فى التغير والتطوير ولكن مع اختيار السلالات التى تعينت لها صفات واستقرت فيها خصائص بحيث نعود فنستغل هذه الصفات والخصائص فى الوراثة .

وقد ظهرت « اليوجنية » أى علم ترقية السلالات البشرية بناء على الإيمان بالوراثة ، وهى إلى الآن يوجنية سلبية . بمعنى أن الأمم المتمدنة تعمد إلى تعقيم الناقصين والبله حتى لا يتناسلوا . وقد عمد هتلر إلى شىء من اليوجنية الإيجابية بتشجيع المتفوقين على التناسل وخصهم بميزات لم يكن يحصل عليها سائر أفراد الشعب . وذلك أيام النازية . وهذا كله من وحى نيتشه كما هو من التعاليم التى فشت عقب نظرية التطور .

وقد كان لكتاب البيولوجى ڤيسمان « الجرثومة المنوية » أكبر الأثر فى الإسراف فى الإيمان بالوراثة ، وقد أفسد هذا الرجل ذهنى بل أخلاقى

مدة طويلة .

ولكن رويداً رويداً تغيرت النبرة فى التطور . فبدلا من القول بتنازع البقاء فى الطبيعة أثبت كوربتكين أن التعاون ، وليس التنازع ، هو شريعة الغابة . ثم انتهينا فى السنوات العشر الأخيرة إلى التسليم بأن الوسط يغير الحى ، نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، وأن هذا التغير الوسطى يعود فيثبت بالوراثة .

فى ضوء التطورات وفى تجارب الوسط لا نستطيع أن نسلم بمذهب نيتشه بأن نكون قساة لا نرحم . فالتطور يصيح بالتعاون ، والوسط يستطيع أن يغير ، ونحن البشر بما وصلنا إليه من معارف بيولوجية نستطيع أن نزيد سرعة التطور بالتنظيم الاجتماعى الذى يحقق الارتقاء البيولوجى .

* * *

كثيراً ما أعود إلى قراءة نيتشه لا لأننى مقتنع بمنطقه ، ولكن لأنى أجد سحراً على الدوام فى تعبيره وأحياناً فى تفكيره . انظر إلى ما يقوله عن الرحمة :

« إن الرحمة تناقض الشهوات الحية المنعشة التى ترفع نشاط البشر وتزيد إحساس القوة ، إذ هى تكرب وتغم . ونحن نفقد حيويتنا حين نمارس الرحمة . وما نفقده من قوة وحيوية ، بسبب الألم مثلا ، يزداد ويتضاعف بالرحمة . حتى ليصير الألم معدياً بالرحمة . وقد يؤدى فى بعض الظروف إلى أن نفقد الحياة ذاتها ، وإذا شئت برهاناً على ذلك فاذكر هذا النصرانى الذى انتهت به رحمته لأبناء البشر إلى الصليب !

« وأيضاً تفسد الرحمة شريعة التطور التى تقول ببقاء الأصلح . وهى ، أى الرحمة ، تستبقى ما كان يجب أن يموت ، كما تعمل لمصلحة

الذين حكمت عليهم الطبيعة . وهى تضفى على الحياة لوناً قاتماً بعدد الناقصين الفاسدين الذين تعولهم ، وهى تضاعف التعس كما تحافظ عليه. وهى الأداة الأولى لترويج الانحطاط . وهى تؤدى إلى الفناء ، إلى إنكار الغرائز التى تنبنى عليها الحياة . . » !

وليس شك أن فى هذا الكلام هذياناً كثيراً ، ولكنه كان هذياناً يسحرنى لأول وقعه فى نفسى ، وأنا خام أخضر فى سن العشرين . كان يسحر وينبه ، إذ كان يبعث على المراجعة والفحص عن الأخلاق العامة والتقاليد الموروثة التى كنا نعيش فيها مستسلمين غير متسائلين أو مستطلعين .

أو انظر على ما يقوله عن الحياة :

« إنما الحياة فى صميمها امتلاك واحتياز وإيذاء ، ومحق للضعفاء والعاجزين عن التلاؤم والتكيف . وهدف الحى هو إبراز شخصه والتمكن من تأدية وظائفه غير معارض أو معطل » .

وهذه المقتبسات التالية هى صورة المجتمع والحضارة كما يراهما نيتشه إذ يقول :

« إن نظام الطبقات هو السنة السائدة للطبيعة . وهى سنة لا تستطيع أية قوة بشرية أن تتغلب عليها فى كل مجتمع صحيح توجد ثلاث طبقات لكل منها أخلاقه وعمله وما يفهمه من معانى الكمال والسيادة . وتتألف الطبقة الأولى من أولئك الذين يمتازون بالتفوق الذهنى على سواد الأمة . وتتألف الثانية من أولئك الذين يمتازون بالتفوق العضلى ، أما الطبقة الثالثة فمن المتوسطين .

« وللطبقة الأولى ميزة التمثيل للجمال والسعادة والطيبة على الأرض . وأفراد هذه الطبقة يقبلون هذا العالم كما هو ويستخدمونه بما فى مستطاعهم ،

وهم يجدون سعادتهم فى تلك الشئون التى تدمر من هم دونهم فى الصعوبات والقسوة نحو أنفسهم ونحو غيرهم من الجهد ولذتهم فى حكم أنفسهم . والنسك عندهم طبيعة وضرورة وغريزة . وهم يتحملون الواجبات الشاقة كما لو كانت امتيازات يمتازون بها . وهم يرتاضون بتحمل الأعباء التى تسحق غيرهم إلى الموت . وهم زبدة الناس وأكثرهم حباً وفرحاً . وهم يحكمون عفو طبيعتهم ، كما أنهم ليسوا أحراراً فى أن ينتظموا فى الصف الثانى .

« أما الطبقة الثانية فتتألف من الأوصياء وحفظة النظام والأمن : رجال الحرب والأشراف والملك ، وفوق هؤلاء القضاء حماة القوانين . وهم أسمى طرازاً من المقاتلين الحربيين ، فإنهم ينفذون أوامر الطبقة الأولى ويريحونها من الأعمال اليدوية أو الخشنة التى يحتاج إليها الحكم .

« وفى أسفل توجد الطبقة الثالثة من أفراد الصناعات اليدوية والتجارة ومعظم الفنون والعلوم . ومن سنن الطبيعة أن يكون كل هؤلاء من المرافق العامة فى الأمة أو دواليب تدور ووظائف تؤدى . والسعادة الوحيدة التى يستطيعها أفراد هذه الطبقة هى قدرتهم على أن يكونوا آلات ذكية ، لأن الرجل المتوسط يفهم من السعادة أنها حال التوسط . والتخصص أو التفوق فى تدريب معين هو غريزتهم .

« ولا يليق بالذهن الضيق أن يعارض حال التوسط هذه ، لأن هؤلاء المتوسطين ضرورة للمجتمع البشرى . إذ يتيحون للرجل الفذ أن يوجد .

« من ْ مِنَ الناس أكرهه أكثر من غيره ؟

« أكره ذلك الاشتراكى الذى يهدم الغرائز السايمة عند العامل بأن ينزع منه إحساس القناعة بمكانه ويجعله حسوداً ويعلمه الانتقام . . .

« أجل يجب أن نعرف أنه ليس هناك ظلم فى تفاوت الحقوق » .

* * *

مات نيتشه فى عام ١٩٠٠ ، أى دفن فى هذه السنة . ولكن الواقع أنه كان ميتاً منذ حوالى عام ١٨٨٥ للمرض الذى أشرنا إليه . وهو مرض لم يقعد جسمه فقط بل أمات ذهنه . ولم يكد العالم المتمدن يحس بوجوده إلا بعدوفاته . وكان الإحساس عندئذ حاداً . فمنذ عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩٥٠ ونيتشه يعلو على جميع المفكرين الأوربيين ، بل يمثل مشكلة الضمير الأوربى مشكلة السياسة الأوربية ، سياسة التنازع إزاء سياسة التعاون.

وهو لو كان فيلسوفاً فقط ، يكتب بالرطانة الفلسفية التى لا يفهمها غير المثقفين ، لما كان خطره كبيراً . لكنه كان شاعراً يتغنى ويترنم ولذلك كان ولا يزال، يجذب إليه الشباب الذين يقودهم إلى الضلال أو يهديهم إلى الرشاد ، فهو غواية وفتنة كما هو نور ومعرفة . هو جنون وعقل .

وأكاد أقول عندما أجد شاباًّ يقرأ نيتشه : حذار ، لا تقدم . إنك على طرف هاوية . وقد تنزلق فتردى ، ولكن اقرأ دستوفسكى وغاندى وشيفتزر وبرناردشو ، فهم الترياق الذى تحتاج إليه إذا قرأت نيتشه . لا . بل يجب أن تقرأ نيتشه ، لأن أقل ما فيه أنه يحثك على التساؤل والاستطلاع ، ويحول بينك وبين التسلم المطلق للعرف والعادة . إذ هو قوة تحريرية عظمى ، ولكنه أيضاً يحملك تبعات سامية بشأن المستقبل البشرى على هذه الأرض ويكسبك العقلية الفلكية التكهنية فى الفلسفة وعندئذ ستعرف أن القيمة العظمى فى الفلسفة ليست نظاماً منطقياًّ يقول بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وإنما هى فى تعيين القيم والأوزان الأخلاقية التى تخدم رقى الإنسان، وفى التكهن بالمستقبل البشرى والاستعداد له . وميزة نيتشه هنا أنه استطاع أن يقنع أوربا بأن الأخلاق يجب أن تنبنى على أساس بيولوجى بشرى .

كتب نيتشه حوالىعام ١٨٨٠ إلى أخته يقول :

« عدينى أننى عندما أموت لن يقف حول نعشى سوى أصدقائى ولن يكون حولى أحد من الغوغاء المتسائلين . واعملى على ألا يلقى قسيس على قبرى أكاذيب وأنا عاجز عن حماية نفسى ، وودعينى إلى قبرى وأنا وثنى شريف » .

ومات فى عام ١٩٠٠ مغموراً لم ترثه جريدة ولم تذكره جامعة . ولكنه بعث بعد موته ، إذ أصبح الضجة الكبرى والصيحة العالية فى جميع الأوساط المثقفة ، ولا يزال دويه عالياً واسمه رمزاً للتساؤل .

وفى نفسى له حب وأسف وإقبال وصدود .



# إرنست رينان !

فى السنين الأولى من هذا القرن كان شاب لبنانى يدعى فرح أنطون يصدر فى مصر مجلة صغيرة تسمى « الجامعة » . وكانت الثقافة الغالبة على هذا الشاب فرنسية . وهو كان يكتب اللغة الفرنسية بكلمات عربية . وكان لذلك فهمه للثقافة والأسلوب والأدب يختلف عما كنا نفهمه من كتابنا المصريين البارزين الذين كانت تغلب عليهم الثقافة العربية القحة .

وقد عرفت عن طريق فرح أنطون كتاباً فرنسيين بعثوا فى نفسى استطلاعاً للثقافة الأوربية ، وغرسوا فى ذهنى شكاً فى العقائد والعادات الشرقية ، ووصلوا بينى وبين الآداب البشرية بصلة القربى والرحم . وحببوا إلى الطبيعة ، وفتحوا عينى إلى الأجواء والآفاق ، فلا يغرب عنى

نشاط فكرى ، ولا يفصل بينى وبين كاتب قديم أو حديث فاصل من دين أو عنصر أو لغة . وقد رأيت فى حياتى كتاباً أضلهم الاستغراق العنصرى أو الدينى أو القومى وغمرتهم موجاته . ومع أن هـذه الموجات قد مستنى بطلاوتها السطحية ، فإنى سرعان ما كنت أتخلص منها بل أتطهر منها .

ذلك أن فرح أنطون قد وجهنى نحو أوربا الجديدة ، أوربا البشرية ، أوربا التى كانت تسترشد بفولتير وروسو ورينان . وما زلت أذكر طرب الحماسة الذى غمرنى حين كنت أقرأ قصة صغيرة ترجمت إلى العربية باسم « الكوخ الهندى » لمؤلفها الفرنسى برناردن دو سان بيير . فقد كان هذا المؤلف يصف سذاجة العيش وجمال الحب وروعة الطبيعة بكلمات ساحرة تترك فى النفس إحساساً دينياً نحو المرأة والشجرة والسماء والأرض . كما تفتح الذهن لمعانى القناعة والاستغناء . وكان هذا المؤلف من أولئك الذين دعوا دعوة الطبيعة مع جان جاك روسو ، وأعطوا أوربا عيوناً جديدة رأت من خلالها وعرفت بها هيئة الجبال وروعة الأشجار ، ومعنى الاصطياف على الشواطئ ، والانغماس فى الماء : بالرجوع إلى الطفولة التى أفسدتها الحضارة ، والتى يجب ألا تفارقنا طوال أعمارنا ، فى القدرة على الاستمتاع بحيوية الحياة ولذة اللعب والنفور من تعقد العيش وارتباكات الترف المرهقة .

وهناك من لا يزالون يستصغرون قيمة الأديب العظيم فى توجيه الحضارة وتكوين الأذواق . ولهؤلاء نذكر جان جاك روسو ، فإن العالم قبله لم يكن يعرف معنى التجوال فى الحقول أو الاصطياف على الشواطئ . وهذه الحقول والشواطئ كانت مع ذلك فى مكانها كما هى الآن قبل روسو ، ولكنها كانت خالية ممن يجول فيها ويتأمل سماءها وأرضها وأشجارها أو ينغمس فى مياهها ، ولكن روسو بدعوته الحارة

إلى الطبيعة ، وتقديسه لها ، رد إلى الناس هذا الإحساس وبسط لهم ميادين جديدة للاستمتاع النفسي كانوا يجهلونها قبله .

وحين أجد شفيتزر يدعو إلى تقديس كل شيء حي ، وحين أجد ثورو يتساءل : لماذا لا تقرع النواقيس في الكنائس حين تقتلع شجرة من مكانها نعياً لها وحزناً على الطبيعة المجروحة ؟ وحين أجد غاندي يترك المدن ويقنع بأن يعيش في كوخ بين الحقول بثلاثة قروش في اليوم ، وحين أجد الطرب البشري يغمر سواحل الإسكندرية أو بور سعيد في أطفال وفتيات وشبان يمرحون و «يزأطون» في الماء والهواء وقد خلعوا مركبات المدنية وعادات العرف ، حين أجد كل هـــذا لا أتمالك أن أذكر جان جاك روسو نبي الطبيعة وأديبها ، الذي غير أذواق الناس ووجه النفوس وجهات جديدة زادت البشر سروراً واستمتاعاً وحباً .

لقد عرفت روسو ، أول ما عرفته ، بقلم فرح أنطون .

ثم عرفت أديباً آخر بقلمه أيضاً كان له أبلغ الوقع وأبعد الأثر في ثقافتي وتربيتي . . هو إرنست رينان . وهو الذي غرس في نفسي الروح البشري ، وبهذا الروح أحببت تلك الشخصية السامية التي وصفها رينان في كلمات الحب والإعزاز والتي أحاول مع العجز ، ولكن مع الأمل ، أن أرتفع إلى الأخلاق التي رسمها في شخصية المسيح .

وقد تحطم فرح أنطون بما وقع فيه من مناقشات تاريخية مع الشيخ محمد عبده بسبب إرنست رينان . وتحطم إرنست رينان بسبب كتابه عن المسيح . ومثل هذه المعارك الأدبية تحتاج إلى الشرح الذي لا يسمح له هذا الفصل ، ولكن قصارى ما أقول إن فرح أنطون نقل عن رينان اضطهاد الحكومات الإسلامية للأحرار . فرد عليه الشيخ محمد عبده بأن اضطهاد الحكومات المسيحية كان أكبر وأقسى . ودارت المساجلات

بين الاثنين ، هذا يكتب فى الجامعة وهذا يكتب فى المنار . ولم يكن الجمهور المثقف يتحمل فى ذلك الوقت الوهج اللاسع من هذه المساجلات. وانهزم فرح ورحل إلى أمريكا كى يعود بعد ذلك إلى مصر وينغمس فى الثورة الوطنية إلى جنب سعد .

أما إرنست رينان فكان تحطمه أكبر وأبلغ . فقد ولد هذا الأديب فى عام ١٨٢٣ ومات فى عام ١٨٩٢ ، وقضى من العمر نحو أربعين أو خمسين سنة وهو يخيم على أوربا ويضىء عقولها ويربى نفوسها . وأوربا بعده غير أوربا قبله . بفضل ما كتب وبفضل ما تألم . وقد تعلم كثيراً .

وما زلت أحس كأن سكيناً تمزق أحشائى حين أذكر أن هذا الأديب العظم ، بعد أن حرمته الكنيسة الكاثوليكية ومنعت رعاياها من قراءة مؤلفاته . وبعد أن حطت عليه الشيخوخة حتى كادت تقعده ، بعث بخطاب إلى ناظر المدرسة الابتدائية التى كان قد تعلم فيها قبل ستين سنة يطلب منه أن يأذن له بزيارتها كى يرى الفصل الذى تعلم فيه حروف الهجاء ، والفناء الذى لعب فيه مع أقرانه ، وكى يلمس جدرانها التى تمسح بها ، ويصلى فى إحدى غرفها على اختلاء ، صلاة الحب والذكرى لهذه الأيام الماضية والتى تنفصل عن حاضره بما يشبه قرناً من الزمان .

وتسلم ناظر المدرسة الخطاب . وكانت المدرسة دينية كاثوليكية ، كما كان ناظرها راهباً يعرف أن رينان مطرود من الكنيسة وأن مؤلفاته من المحظورات . فلما قرأ الخطاب وتأمل الإحساسات الجميلة التى يحتويها كتب إلى رينان فى رقة بالغة يشكره على أنه تذكر الرهبان الذين علموه طفولته ، وتذكر الأقران من الصبيان ، بل لعله تذكر صلاة الصبح التى كان يقولها فى ابتهال قبل ابتداء الدروس . ثم بعد ذلك يقول له إنه لا يستطيع أن يأذن له بزيارة المدرسة لأنه . . لأنه كافر ، منبوذ من الكنيسة .

ولا بد أن رينان قد تضور على فرشه من ألم هذه الصدمة ، بل لابد أنه بكى ، وانهمرت دموعه وبللت هذا الخطاب .

ولكن ليست هذه هى الدموع الأولى التى انهمرت من المؤلفين الذين علموا أوربا . ولولا هذه الدموع . ولولا هذه الآلام ، لبقيت أوربا جامدة متأخرة مثل الشرق .

نشأ رينان نشأة كنسية إذ تعلم فى مدرسة للإلهيات . ولكنه تركها وآثر دراسة اللغات والأدب . ودرس اللغات السامية وأتقن اللغة العربية ، ودرس فلسفة ابن رشد ونقلها ووضحها فى اللغة الفرنسية . وقد نقل فرح أنطون عنه هذا الكتاب تلخيصاً وترجمة تحت عنوان « ابن رشد وفلسفته ».

وأوفدت الحكومة الفرنسية فى عام ١٨٦٠ بعثة إلى فلسطين لدراسة الآثار كان هو من أعضائها ، وكانت أخته أفريت ترافقه . وعاد إلى باريس . وحاولت الحكومة الفرنسية أن تعينه أستاذاً للغات السامية ، ولكن الكنيسة اعترضت لأنه كان قد ألف كتاباً عن المسيح بعنوان «حياة يسوع» فى عام ١٨٦٣ باعتباره إنساناً لا أكثر . . .

وتتابعت مؤلفاته عن الشئون السامية ، مثل « تاريخ إسرائيل » ومثل « محاورات فلسفية » ومثل « مستقبل العلم » .

وزاره جمال الدين الأفغانى فى باريس فوصفه رينان بأنه ملحد عظيم . وهنا مجال للتفكير ومراجعة الآراء فى مصر . وقد سبق أن شرح لنا على عبد الرازق ( باشا ) هذا الموضوع .

ولم يكتب أحد فى سحر الأسلوب الذى كتب به رينان وضوحاً ويسراً وقد قيل عنه إنه كان يفكر كما لو كان امرأة ، ويعمل كما لو كان طفلا . وهذا أحسن أو من أحسن ما يقال عن كاتب أرصد عمره للتفكير

المثمر ، فإن المفكر العميق يجب أن يكون عميقاً أيضاً فى إحساسه . أما من حيث العمل فإن هذا ليس من شأنه ؛ وإنما هو شأن زوجته أو صديقه إذ ليس له وقت أو كفاءة للعمل .

وكانت ثقافته تنبسط إلى الآفاق أكثر مما تسبر الأعماق . ولذلك نجد له الاشارات والإيضاحات عن العرب والإغريق واليهود والعلم والأدب ، ولكننا نجد أنه حين يتخصص لا يتعمق .

وكتابه عن حياة المسيح الذى ترجمه فرح أنطون إلى اللغة العربية فى تلخيص غير مخل ، هو جوهرة من جواهر الأدب الفرنسى بل الأدب العالمى . ومع أنه قد جرد شخصيته من الغيبيات فإنه أبرز ميزاته الأخلاقية ودعوته الانسانية بحيث إن القارئ للكتاب سواء أكان تقليدياً أم عصرياً ينتهى بالحب والاحترام إذ يجد فى المسيح جمالا وفتنة كما يجد فى دعوته تحدياً لكل رجل فى شرفه وأسلوب حياته .

ومن هنا يعد إرنست رينان من دعاة البشرية . وهو وإن لم يكن قد دعا هذه الدعوة مباشرة ومواجهة ؛ فإنه بمؤلفاته العديدة قد دعا إليها مداورة ومواربة . إذ هو يجمع بين الأدباء والأنبياء والفلاسفة ويضعهم جميعاً فى صف لتربية الضمير البشرى . فهو مسيحى مسلم يهودى بوذى ، وهذا هو شأن الكثير ين من أدباء عصرنا الممتازين بل كذلك هذا هو إيمان الساسة المتمازين أمثال غاندى ونهرو . . بل ماذا أقول ؟

لقد كان هذا إيمان السلطان أكبر الذى حاول أن يوجد ما أسماه « الدين الإلهى » حين عقد مؤتمراً فى الهند من المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوكيين والبوذيين .

بل لقد كان هذا إيمان محى الدين بن عربى حين قال هذه الأبيات الخالدة :

لقد كنت قبلى اليوم أنكر صاحبى　　إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة　　فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف　　وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت　　ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

أجل . دين الحب . هذا هو الذى دعا إليه رينان . وهو رسالة حياته .



# دستوفسكى

## ذكاء العاطفة

كان من حظى الحسن أن هبطت على الأدباء الروس وأنا حوالى العشرين ، فارتفعت بذلك إلى مستوى من التقدير للفن القصصى جعلنى فى مستقبل عمرى أتأنق وأحجم عن قراءة تلك القصص الإنجليزية والفرنسية والأمريكية التى لا ترتفع إلى مقام المؤلفات العظيمة التى ألفها تولستوى ودستوفسكى وجوركى وجوجول وتيشهوف وترجنيف . والحق أن الانتقال من دستوفسكى الروسى إلى أرنولد بنيت الإنجليزى هو وثبة إلى الحضيض يفزع منها الإنسان . والانتقال من تولستوى إلى أى أديب آخر فى أوربا أو أمريكا هو انهيار فادح .

وأحياناً أحاول أن أعلل حبى لهؤلاء الأدباء الروس بأن الحال الاجتماعية التى وصفوها كانت تشبه حالنا فى مصر . وأن الوسط الاجتماعى

الأوربى الأمريكى كان يجرى على نظم ديمقراطية حرة لا تتيح للأوربى أن يستمرئ هذا المجتمع الروسى القديم وما حفل به من فوضى وفاقة واستسلام وركود . ولكن هذا التعليل لإحساسنا بتفوق الأدب الروسى على الآداب الغربية لا يكفى .

وقد حدث لى ما يشبه ذلك فى الموسيقا . فإنى فى مقتبل عمرى عرفت الموسيقا الأوربية الكنسية والمسرحية . فارتفع ذوقى إلى حد الكراهية ، بل العداء ، للموسيقا الشرقية الباكية الجنسية المخنثة . فلست أطيق إلى الآن أغنية أو لحناً مصريين ، بل إنى أوثر عليها « موالا » من تلك المواويل التى يغنيها فلاحونا . فإن فيه أحياناً من الصدق والرجولة ما يبعث على الاحترام . فى حين نشمئز من الأغانى والألحان المصرية الحاضرة لما فيها من التباكى والتخنث . ولعل ميزة أوربا علينا فى الموسيقا أنها أدخلتها الكنائس فأكسبتها شيئاً يقارب حرمة الدين ، وهذا فى الوقت الذى تركنا نحن فيه موسيقانا وأغانينا تعيش وترافق الرقص الذى كانت تمارسه البغايا . وقد كا رقصاً جنسياً مخنثاً فسقطت مكانة الموسيقا والأغانى فى نفوسنا .

* * *

ولد دستوفسكى فى عام ١٨٢٢ ومات فى عام ١٨٨١ . وكان مريضاً طوال حياته ، تنتابه نوبات من الصرع . وقد أخرج قصته الأولى « المساكين » فى عام ١٨٤٦ ووثب بها إلى مصاف الأدباء الأفذاذ ، وفى عام ١٨٤٩ ألقى القبض عليه بتهمة الاشتراك فى جمعية سياسية غير مشروعة وحكم عليه بالإعدام. ثم خفف الحكم إلى النفى إلى سيبريا حيث قضى أربع سنوات ألف عنها كتاباً بعد ذلك باسم « ذكريات من بيت الموتى » . وبعد سنوات أخرى فى الجندية والسياحة استقر على التأليف القصصى . فأخرج « الإخوة كرامازوف » وهى الأولى بين قصص العالم جميعها . وأخرج أيضاً قصة « الجريمة والعقاب » . وقد بعثتنى حماستى لها

أنى فى سنة ١٩١١ ترجمت منها نصفها ثم طبعت الربع بهذا الاسم ولم أتمم الترجمة .

وتتسم قصصه بحنان ورقة يشيعان فى نفوسنا إحساس الدين . وهى جميعاً دعوة إلى الخير وحب الأطفال وحماسة الأمومة ، ولذة التضحية ، وارتفاع عن الدنايا المادية ونحو ذلك . وقد كانت حياته هو نفسه مليئة بهذه العواطف .

* * *

ولنذكر شيئاً مما وقع له ، ولعله كان لهذه التجربة القاسية أثر فى فنه .

ففى يوم ٢٢ أبريل من عام ١٨٤٩ ألقى القبض فى بطرسبورج على نحو ثلاثين شاباً كان بينهم دستوفسكى ، وكانت التهمة الخطيرة التى اتهموا بها أنهم اجتمعوا واحتفلوا بميلاد الكاتب الفرنسى فورييه .

وكان فورييه مشهوراً ببرنامج يقترحه لتغيير المجتمع . وهو حين نقرأه هذه الأيام نجد فيه سخفاً عظيما . ذلك أنه ينص على تأليف جماعات لا تزيد إحداها على ١٦٠٠ شخص يعيشون معاً متعاونين مستقلين عن الجماعات الأخرى . وقيل إن هؤلاء الثلاثين المجتمعين فى بطرسبرج قد تآمروا على ترجمة كتاب فورييه هذا ، ومما زاد فى هذه « المؤامرة » الخطيرة أن أحد الحاضرين قرأ خطاباً من أديب يدعى بيلنسكى إلى القصصى جوجول يوبخه فيه لأنه عاد إلى الإيمان بعد الكفر .

وبعد أن قضى المتهمون سبعة أشهر فى السجن حكم عليهم بالإعدام ، ثم قضوا شهراً آخر قبل التنفيذ . وفى يوم التنفيذ نصبت أعمدة فى أكبر ميدان فى بطرسبرج ثم ألبس المتهمون جلاليب بيضاء وعلى رأس كل منهم طرطور وأخرجوا فى الصباح من يوم ٢٢ ديسمبر ، والثلج يغطى الأرض ، ثم حضر قسيس يحمل صليباً من الفضة ويطلب إلى كل منهم تقبيله حتى

يغفر لهم فى العالم الآخر . ووقف ستة عشر جندياً يحملون البنادق ، وربط كل منهم إلى العمود كى يتلقى الأعيرة النارية . ثم أمر الجنود بفتح الأزندة استعداداً لإطلاق النار .

وفى هذه اللحظة فقط أعلنوا جميعهم بأن القيصر قد استبدل بحكم الإعدام الحكم بالنفى إلى سيبريا أربع سنوات .

وبعد هذه المأساة أو المهزلة سافروا إلى سيبريا . وقبل السفر كتب دستوفسكى إلى شقيقه هذا الخطاب التالى :

« قلعة بطرس وبولس فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩ .

« أخى : صديقى الحبيب : كل شىء قد تم ، وحكم على بالسجن والأشغال الشاقة أربع سنوات فى القلعة ( أظنها قلعة أورنبورج ) وبعد ذلك التحق بالجيش جندياً . وفى هذا اليوم ٢١ ديسمبر نادونا إلى مكان العرض فى سميونوف وقرءوا علينا الحكم بالإعدام . ثم أمرونا بأن نلثم الصليب ، ثم كسروا سيوفنا فوق رؤوسنا ، ثم نزعوا ملابسنا وألبسونا القمصان البيض . وبعد ذلك ربطوا ثلاثة منا إلى عمود كى يضربوا بالبنادق . وكان ترتيبى السادس ، وكان النداء على ثلاثة كل مرة ، وكنت أنا بذلك فى الفرقة الثانية فلم يكن باقياً لى من الحياة سوى دقيقة ، وقد ذكرتك أيها الأخ أنت وأولادك . وفى هذه الدقيقة لم أذكر سواك يا أخى وحبيبى ، وعرفت عندئذ مقدار حبى لك . وقد تمكنت من أن أقبل بلاتسياف ودوروف . وكانا واقفين جانبى وودعتهما . وأخيراً نفتخ البوق وأعلن الأمر بالرجوع ، وحل الذين كانوا قد ربطوا إلى العمود .

« ثم قرئ علينا أمر صاحب الجلالة الإمبراطورية بمنحنا حياتنا ، والحكم علينا بالأحكام الجديدة . ولم يفرج عن أحد سوى بالم الذى أرجع إلى الجيش برتبته السابقة .

« وقد أبلغت يا أخي الحبيب بأنهم سيرسلونني اليوم أو غداً . وقد طلبت رؤيتك ، ولكنهم أخبروني بأن هذا محال وأن كل ما يستطيعونه أن يسمحوا لي بالكتابة إليك . فأسرع وابعث لي الرد . وأنا أخشى أن يكون قد بلغك الحكم علينا بالإعدام ، فقد نظرت من نافذة العربة التي حملتنا إلى ساحة الإعدام ورأيت في الطريق جمهوراً كبيراً ، وخشيت أن يكون من رأوني قد أبلغوك وآلموك بذلك . ولكن الآن يمكنك أن تهنأ بشأني . يا أخي . لا تظن أن الحكم قد هدني أو غم علي ، فالحياة في كل مكان هي الحياة . هي في داخلنا وليست فيما هو خارج عنا . وسيكون قريباً مني أناس ، وسأكون رجلا بينهم ، وأبقى كذلك إلى الأبد . ولن يهن قلبي أو تفشل عزيمتي أمام المصائب . وهذا في اعتقادي هو الحياة أو الواجب في الحياة . وقد حققت ذلك وصار هذا الخاطر جزءاً من لحمي ودمي . أجل ، هذا صحيح . فهذا الرأس الذي كان يبتكر ويعيش في أسمى الحياة الفنية ، والذي حقق أسمى الحاجات الروحية واعتقادها — هذا الرأس قد قطع من عاتقي ولم يبق عندي سوى الذكريات والخيالات التي أخترعها ولكنها لم تتجسم في بعد . وإني لأعرف أنها ستمزقني ، ولكن ما يزال باقياً لي قلبي وهذا اللحم والدم الذي ما يزال قادراً على الحب والألم والرغبة . ولا تنس أن هذه هي الحياة . أجل . ما زلت أرى الشمس . والآن وداعاً يا أخي ولا تحزن من أجلي .

« والآن هلم إلى الماديات . إن كتبي ( باستثناء الكتاب المقدس الذي ما يزال عندي ) وعدة أوراق من مخطوطاتي ، وتخطيط درامة ، وقصة ( وقصة أخرى كاملة تسمى قصة طفل ) قد أخذت كلها مني . والأرجح أنك ستتسلمها .

« وقد تركت معطفي وملابسي فيمكنك أن تأخذها . والآن يا أخي أظن أنني سأمشي مسافة طويلة وأحتاج إلى نقود . أخي الحبيب : إذا

تسلمت هذا الخطاب وكان يمكنك أن تحصل على قليل من النقود فأرسلها إلى بأسرع وقت ، فأنا أحوج الآن إلى المال منى إلى الهواء ( لغرض خاص ) . وابعث لى ببضع كلمات . ثم إذا جاءت نقود من موسكو فتذكرنى ولا تنسى . وهذا كل ما أريده ، وأنا أعرف أن على ديوناً ولكن ماذا أفعل !

« قبل زوجتك وأولادك واذكرنى عندهم كثيراً ولا تجعلهم ينسوننى فعلّنا نلتقى يوماً ما . أخى ، أوصيك بالعناية بنفسك وأولادك ، وأن تعيش فى هدوء ويقظة ، وأن تفكر فى مستقبل أولادك . عش عيشاً إيجابياً . إنى ما شعرت قط بوفرة الحياة الروحية فى شخصى كما أشعر بها الآن وأنا مريض بالاسخربوط ، ولكنى لا أبالى بذلك . أخى ، لقد كابدت من الحياة الشيء الكثير حتى ما يكاد شيء يخيفنى الآن فى العالم . فليكن ما هو كائن . وسأكتب إليك فى أول فرصة ، وابعث لأسرة مايكوف بتسليمانى وتحياتى واشكر لهم اهتمامهم بحظى ، وقل بضع كلمات حارة يملها عليك قلبك ليوچينيا بتروفنا .

« فأنا أدعو لها بالسعادة وسأذكرها على الدوام بجميلها . واضغط يد نيكولاى أبولو نوفتش أبولون مايكوف وجميع الآخرين . وابحث عن يانوفسكى واضغط يده واشكره ، وأخيراً صافح جميع أولئك الذين لم ينسونى ، وقبل أخى كوليا . واكتب خطاباً إلى أخى أندريه وأخبره بكل شيء عنى واكتب لعمى وعمتى ، وافعل ذلك باسمى . وابعث لهم تحياتى واكتب لأخواتى اللواتى أدعو لهن بالسعادة .

« وربما نلتقى يا أخى فى المستقبل . لا تهمل العناية بنفسك بل عش وابق حياً حتى نلتقى ثانياً ، فعلّنا نتعانق يوماً ونذكر شبابنا ذلك الوقت الذهبى ، ذلك الشباب وتلك الآمال التى أمزقها الآن من قلبى ودمى كى أدفنها . .

« هل يمكن حقاً أنى لن أتناول القلم بيدى مرة أخرى ؟ أظن أنى سأعود إلى الكتابة بعد هذه السنوات الأربع وسأرسل لك كل شيء أكتبه إذا كتبت شيئاً . وا رباه ! كم من خيالات عشت فيها أو اخترعتها ستموت وتنطفئ فى دماغى ، أو تتمزق وتسير فى دمى كالسهم . أجل . إذا لم يسمح لى بالكتابة فإنى سأموت . وخير لى من ذلك أن أسجن خمس عشرة سنة ويكون فى يدى قلم .

« اكتب لى كثيراً ، واكتب بالتفصيل والإسهاب واذكر لى حقائق.. حقائق كثيرة . وفى كل خطاب اكتب لى عن شئون الأسرة مع التفصيل ومع ذكر الأشياء التافهة . ولا تنس هذا فهذه الخطابات تعيد إلى الرجاء والحياة . آه لو تعرف كيف أحيتنى وأنعشتنى خطاباتك التى أرسلتها إلى وأنا فى هذه القلعة ، وقد كان الشهران والنصف شهر الماضية ، حين منعنا من كتابة الخطابات أو تسلمها ، من أشق ما كابدته . وقد كنت مريضاً .

« ولما أهملت أنت إرسال النقود إلى ساورنى القلق من أجلك لأنى فهمت من عدم إرسالك للنقود أنك أنت فى حاجة شديدة . قبل الأطفال مرة أخرى ، فإن وجوههم الحلوة الصغيرة لا تغيب عن بالى . لتكن لهم السعادة ! وأنت يا أخى كن سعيداً . كن سعيداً .

« ولكن لا تحزن ، وبحبك الله لا تحزن لأجلى ، وثق أنى لم أهن وتذكر أن الرجاء لم يهجرنى ، وبعد أربع سنوات سيخفف عنى ما فعلته الأقدار وأصير جندياً فينقضى سجنى . وتذكر أنى سأعانقك يوماً ما . لقد كنت اليوم فى قبضة الموت ثلاثة أرباع الساعة ، وعشت هذه المدة بهذا الخاطر وبلغت آخر لحظة من الحياة . وها أنا ذا حىّ مرة أخرى .

« وإذا كان أحد يتذكرنى بسوء ، أو إذا كنت قد تشاجرت مع أحد

أو أسأت إلى أحد ، فأخبره إذا لقيته بأن ينسى الإساءة وليس فى نفسى مرارة أو نقمة على أحد ، وأود لو أعانق فى هذه اللحظة كل واحد من أصدقائى السالفين . وقد شعرت اليوم بالراحة وأنا أودع أحبابى الأعزاء قبل الموت ، وخطر ببالى فى هذا الوقت أن خبر إعدامى سيقتلك. ولكن استرح الآن فإنى ما زلت حيًّا . وسأعيش راجيًا بأن أعانقك يوماً ما . وهذا كل شىء فى بالى الآن .

« ماذا تفعل ، وبماذا فكرت اليوم ، وهل عرفت شيئاً عنا ؟ وماذا كان مقدار البرد اليوم . آه ما أشوقنى إلى أن يصل خطابى هذا إليك بسرعة ، وإلا فإنه إذا تأخر فإنى سأبقى أربعة أشهر بدون خطاب منك . وقد رأيت الظروف التى أرسلت فيها النقود لى مدة الشهرين الماضيين وكان عنوانى مكتوباً عليها بخطك وسررت برؤية الخط .

« وعندما التفت إلى الماضى وأتذكر مقدار الوقت الذى ضاع عبثاً وكم منه ضاع فى الأوهام والكسل والجهل بالعيش ، وكيف أنى لم أقدر الوقت حق قدره ، وكيف جنيت على قلبى وذهنى ، أحس بأن قلبى يسيل دماً . أجل إن الحياة عطية وهى سعادة وكان من الممكن أن نجعل من كل دقيقة منها عصراً طويلا من السعادة .

« آه لو عرفت الشباب . . . !. والآن هذه حياتى تتغير وأنا أولد من جديد فى شكل آخر . أخى . أقسم لك أنى لن أفقد الأمل وسأصون روحى وقلبى فى الطهارة ، وميلادى الجديد سيكون إلى حال أحسن من حالى الماضية . وهذا كل رجا . وهذا كل عزائى .

« إن حياة السجن قد قتلت فى جسمى مطالب اللحم التى لم تكن كلها طاهرة ، ولم أكن قبل هذه الحياة أعنى بنفسى كثيراً . أما الآن فالحرمان لا قيمة له عندى ولذلك لا تخش على من المشاق المادية وتحسب

أنها ستقتلنى . كلا ، لن يحدث هذا .

« وداعاً . وداعاً يا أخى . إنى أعانقك بقوة وأقبلك بحرارة ، تذكرنى ولكن بلا ألم فى قلبك ، فأرجوك ألا تحزن . وفى الخطاب الآتى سأخبرك بما يتم لى . . وتذكر عندئذ ما أخبرتك به : لا تعش جزافاً دائماً . دبر حياتك ورتب حظك وتفكر فى أولادك ، آه لو أراك . وداعاً . إنى أنزع نفسى الآن من كل شىء أحببته . وهذا النزاع مؤلم . ومن الموجع أن أقطع نفسى نصفين وأشق قلبى شقين . وداعاً . . وداعاً . ولكنى سأراك . أنا واثق ، وإع أنا فلا تتغير ، وأحبنى ، ولا تدع ذاكرتك تبرد . . وذكرى حبك ستكون أحسن شىء فى حياتى . . ومرة أخرى وداعاً . وداعاً . وداعاً وداعاً لكم جميعاً » .

أخوك

**فيدور دستوفسكى**

« لما قبض على أخذوا منى كتباً عدة ولم يكن بينها سوى كتابين ممنوع تداولهما . فهل لك أن تطلب الباقى لنفسك . ولكن لى طلباً ، وهو أن أحد الكتب يحتوى على مؤلفات فاليريان مايكوف . وهو مقالاته الانتقادية . وهذه النسخة كنت أخذتها من أوجينيا بتروفنا . وكانت تعدها كنزاً . وقد أقرضتها لى ، ولما قبض على طلبت من الشرطى أن يرد إليها الكتاب وأعطيته عنوانها . ولا أعرف إذا كان قد رده . اسأل عن ذلك لأنى لا أحب أن أحرمها هذه الذكرى . وأخيراً وداعاً . وداعاً » .

أخوك

**ف. دستوفسكى**

« على الهامش : لا أعرف هل أمشي أو أركب فرساً . وأظن أنهم سيركبون الخيول . ربما . قبل يد إميلى فيدروفنا وقبل الصغار واذكرنى عند كريافسكى . اكتب لى عن القبض عليك وحبسك والإفراج عنك »

* * *

هذا الخطاب هو جزلة حية ترشح بالدم من نفس دستوفسكى .

تمتاز قصص دستوفسكى بأن أشخاصها يتسمون بالإحساس والذكاء معاً ، فإن بطل « الجريمة والعقاب » طالب فى الجامعة يتأمل ويتفلسف ويتساءل ! لماذا لا يقتل هذه العجوز الثرية المقترة التى لا تزيد قيمة حياتها على حياة برغوث ؟ أليس هو أولى بثرواتها ينفقها فى الخير والنفع ؟

ثم يقتلها . ثم يعود إلى التأمل والفلسفة فيسلم نفسه فى النهاية إلى البوليس حيث يحاكم ويحكم عليه بالنفى إلى سيبريا . ويرضى لنفسه هذا المصير لأنه وجد شيئاً أكبر من ذكاء العقل هو ذكاء الإحساس .

وسائر قصصه على هذا الغرار ، إحساس فوق الذكاء ، وخيال فوق العقل . وقصصه تكاد جميعها تخلو من العقدة إلا القليل جداً . وفى النهاية نجد أنه يهدف إلى خيال الشعر . فهو يتناول الواقع ثم يسير به نحو آيات من الفن والشعر . وهذا هو ما يجب أن يكون . لأن القصة هى التفسير الخيالى للحياة حيث يرتفع المؤلف بالواقع إلى المثليات فيكسب هذا الواقع دلالة جديدة . فالفتاة التى تبيع عرضها كى تنقذ إخوتها من الجوع ، والسكير الفانى الذى يتعلق بالدين ولا يزال يؤمل الآمال ، والراهب الذى يحب ولكنه لا يسقط ، والشاب الذى يملأ الشرف صدره فيذهب إلى أحد الأثرياء ويعرض عليه فى غرارة وسذاجة مشروعاً للخير فلا يجد سوى الاستهزاء ، والأبله الذى يؤمن بالعلم فيرتكب

جريمة الاغتيال استناداً إلى العلم . . . وهذا يذكرنا بالبله العلماء الذين اخترعوا القنبلة الذرية !

كل هذا يقع في قصص دستوفسكي . وهو بفرط حنانه وجمال خياله قد يناقض العقل والمنطق ، ولكن كما كان يناقضه غاندى أو تولستوى... وقد كسبت من دستوفسكي أكثر مما كسبت من غيره، وهو ذلك الإحساس الأدبى الذى لا يختلف من الإحساس الدينى أو الموسيقى... وذلك أننا إزاء الدين والأدب والموسيقا لا « نعرف » وإنما نحس . وقد قلت فى أول هذا الفصل إن هبوطى المبكر على القصصيين الروس قد جعلنى أستصغر شأن الأدباء الأوربيين والحق أنى قرأت برنارد شو ، وولز ، وديكنز ، وأناطول فرانس ، وأندريه جيد ، وكثيراً غيرهم فكان تقديرى لهم اجتماعياً أكثر مما كان أدبياً. وقد وجدت عندهم الرأى والمعرفة أكثر مما وجدت الفن والإحساس . وعندما أتأمل هؤلاء الأدباء الروس جميعهم ، حتى مكسيم جوركى ، أجد أنهم ينشدون الدين ، فإن الإحساس الدينى البشرى فى هذا الكاتب الأخير على الرغم من إلحاده كبير جداً . وقد استطاع دستوفسكي وتولستوى أن يجعلا المسيحية ديناً وأدباً معاً ، بل إنهما أبرز الميزة الأصلية لهذه الديانة وهى الحب البشرى العام أكثر مما أبرزها كهنة هذه الديانة أنفسهم .

كان دستوفسكي يكره الشبان الثائرين على القيصر ، وكثيراً ما نجد فى قصصه ثائراً أو أكثر يستهزئ بأفكارهم ويسخر من عقائدهم . ولكن كراهيته لهم لم تكن تستند إلى حبه للنظام الاستبدادى الذى كان يسود حكومة القيصر ويوجهها ، وإنما كان يكره أوربا أيضاً لهذا السبب . وقد دعا إلى مقاطعة الثقافة الأوربية فى الوقت الذى كان يدعو فيه تورجنيف إلى اعتناقها .

وعندما نتعمق أقوال دستوفسكي لا نتمالك الإحساس بأنه يكره

العلوم المادية جميعها ويكره الحركات الاجتماعية الارتقائية القائمة عليها ، وأن فى نفسه شوقاً ماحقاً إلى أن يعيش الناس فى إيمان بالله قانعين بكلمات الإنجيل التى يجب أن تكون الأساس الذى تنبنى عليه الأخلاق .

وقد عجز دستوفسكى عن أن يفطن للحقيقة الأوربية البازغة وهى أن الأوربيين قد شرعوا منذ أوائل القرن التاسع عشر فى استبدال الرؤيا البشرية للرقى والأخلاق والدين برؤيا الكنيسة . وأن الإحساس الدينى البشرى الجديد ، على الرغم من أنه لا يزال ضعيفاً ، يجد أنصاراً أقوياء يسلكون فى حماسة وحب للبشر ويخدمون ويضحون للإنسانية .

ولكنه فطن إلى أن علماً بلا دين هو دمار بشرى عام . بل نستطيع أن نقول إنه بصر بقوة العلم الطاغية فى القنبلة الذرية التى يخرج بها طيار يشرب كأساً من الكونياك فى نزق ومجانة ثم يقتل ثمانين ألف إنسان فى ثانية ويعود ضاحكاً إلى معسكره كما حدث فى هيروشيما فى أغسطس من عام ١٩٤٥ .

بعد أن قضى دستوفسكى مدة عقوبته فى سيبريا وأفرج عنه كتب إلى السيدة ڤون ويسين خطاباً جاء فيه :

« ... ومع ذلك فإن الله يمتعنى أحياناً بلحظات من الهدوء الكامل ، وفى هذه اللحظات أجد الإيمان الذى يتجلى لى فيه كل شىء فى وضوح وقداسة . وإيمانى هذا فى غاية البساطة ، وهو أنى أعتقد أنه ليس هناك ما هو أروع وأحب ، وأعقل ، وأشجع ، وأكمل ، من المسيح . وليس هذا فقط بل إنى لأقول لنفسى فى إحساس المحب الغيور إنه لا يمكن أن يكون هناك شىء . أكثر من هذا ، وهو أنه لو أن أحداً قال لى : المسيح يجافى الحق ، ولو أن هذا القول كان صحيحاً ، لآثرت البقاء مع المسيح على التزام الحق » .

وقصص دستوفسكى جميعاً تنشد الإيمان الذى يستطيع أن يستقر به الإنسان على هذه الدنيا حتى ولو كان هذا الإيمان يخالف منطق العيش وأسلوب البحث العلمى .

وقد وجد دستوفسكى حافزاً عظيماً للاعتماد على الإيمان ، هو هذا الاختبار المؤلم حين وقف أمام الجنود ينتظر إطلاق النار . فإنه بقى طوال عمره بعد ذلك ينظر إلى الحياة من موقف الموت ، وهو موقف جديد بأن يغير النظرة والنبرة للحياة معاً . وواضح أنه لم ينسه بتاتاً فى كل ما كتب .

وأكاد هنا أقول إن الدين ليس شيئاً آخر سوى النظر إلى الحياة من موقف الموت . فإن الموت أكبر حقيقة بشرية . وهو عندما نتأمله نجد أنه يغير القيم والأوزان ويحيلها من التقدير الاجتماعى إلى التقدير البشرى . فنحن فى هرولة الحياة الاجتماعية نتعب ونلهث لأجل الثراء أو الوجاهة أو ننساق فى أنانية بشعة لا نبالى مصالح الغير ولا نرحم من ندوسه فى سبيل الاقتناء أو التغلب . وكلنا على هذه الحال بدرجات متفاوتة ، ولكن فكرة الموت تنقدح فجأة فى أذهاننا فنقف فى طريق الحياة ونتساءل عن نهايته . وهذا وجدان أكبر الوجدان بالحياة التى تتخلص عندئذ من ملابساتها الاجتماعية . وعندئذ نحس كما أحس دستوفسكى ، بل كما يعلم ويكرر فى جميع قصصه ، إننا نحن بنو البشر كيان واحد قد تعددت أجزاؤه وانفصلت ، ولكن انفصالها لم يمنع بينها التراحم والحب والحنان . فكلنا عندئذ ، بعد تأمل الموت ، أب وأم وأخ لأبناء البشر جميعاً .

وهذا هو إحساس المسيح ، وغاندى ، وتولستوى ، بل ڤولتير وروسو وشڤيتزر. بل كل إنسان استطاع أن يقف عن هرولته الاجتماعية ويتأمل حقيقة الموت . أجل إن تأمل الموت هو كشف دينى . كأنى

ـ حين أوقن أنى فى إحدى اللحظات سأفارق هذا العالم فلا يبقى لى فيه جسم أو اسم أو ذكرى ـ لا أسأل عندئذ عن هذا الرجل هل هو باشا أو بك ؟ وثرى أو فقير؟ وهل يملك ضيعة أو أتومبيلا أو قصراً ؟ وإنما أسأل عن ميزاته الإنسانية . بل إنى لأهتم به وأتأمله كثيراً عندما أعرف أنه يحب الزهور ، ويحنو على الأطفال ، ويفرح لرؤية الشفق ، وتلتمع فى ذهنه أشعة الذكاء وشهوة الحرية ويحس قرابته للحيوان بل للنبات .

إن يقيننا بالانعدام بعد الموت يزيدنا وجداناً بالحياة . وهذا هو إحساسنا عندما نقرأ دستوفسكى ، فإن الحياة تصخب حولنا وتكاد تتجمع فى بركان تحتبس فيه العواطف ثم تنفجر .

ومع أن القارئ لقصصه يحس من وقت لآخر أن إيمانه بالله يتزعزع ، هنا وهناك ، فإن إصراره على الإيمان يتكرر فى لهجة التأكيد والغضب من المنطق العلمى وتفشى المادية الأوربية . فهل نستطيع أن نفسر ذلك بأن رهبة الموت حين وقف لتلقى النار قد حملته أيضاً على التشبث بالإيمان فراراً من معانى القلق والشك والخوف ، وجميعها من معانى الموت !

قد يكون ذلك ، ولكن هذا الإيمان قد جعل قصصه تذوب ، رحمة وحناناً وإخاء وبرًّا حتى لنحس ونحن نقرأها هذه الفضائل تسرى فى كياننا ، كما لو كانت بلسما ، وترفعنا فوق أنفسنا .

* * *

لا نتمالك ونحن نقرأ دستوفسكى أن نقارن بينه وبين نقيضه نيتشه . وقد عرف داعية القوة وعدو المسيحية داعية الرحمة والمسيحى الأول من إحدى قصصه . والعجب أننا على الرغم من هذا التناقض بينهما

نجد اشتراكاً فى الأسلوب الفكرى ، حتى لقد أحب نيتشه دستوفسكى وقال عنه : هو الإنسان الوحيد الذى علمنى شيئاً عن السيكلوجية .

وهما يشتركان فى الكراهة للحضارة العصرية ، ولكن لسببين متناقضين. فإن دستوفسكى يكره أوربا لأنها تركت الإنجيل والمسيح ، ونيتشه يكرهها لأنها اعتنقتهما . فالأخلاق العامة فى أوربا تحولت فى رأى دستوفسكى إلى أخلاق المادية العامية والمباراة الاقتصادية والبعد عن الإخاء والرحمة . ونيتشه يكره الأخلاق الأوربية لأنها ابتعدت عن الفطرة الحيوانية واستبقت الضعفاء والعجزة والمرضى الذين يفسدون المادة البشرية ، لأنها أخلاق مسيحية !

ولكنهما يتفقان من حيث إن لكل منهما رؤيا بشرية ، فكلاهما حالم ، ولكن حلم دستوفسكى هو المسيحية العامة ، وحلم نيتشه هو تنازع البقاء . وقد قال كلاهما : إن البطولة خير من السعادة .

ولكن البطل عند دستوفسكى هو ذلك الذى يضع إحساسه البشرى فوق عقله المنطقى . والإحساس هنا هو الرحمة والحب . وكذلك نيتشه يزدرى العقل والمنطق ، ويقول بالإحساس ولكن إحساسه هنا هو أن الصقر يجب أن يأكل العصفور ولا يرحم .

لقد انتهى رسكلنيكوف فى قصة « الجريمة والعقاب » الذى قتل العجوز كى يحصل على مالها إلى أن يجحد عقله ويعود إلى إحساسه ويرضى بالتكفير عن جريمته فى سيبريا . ولو أن نيتشه كان قد ألف هذه القصة لسخر من هذه النهاية . ولكنه ، مع سخره هذا . لم يكن ليقبل قتل العجوز لأنه لم يكن داعية للفوضى ، وإنما الأغلب أنه كان يطلب نظاماً اجتماعياً منطقياً يؤدى إلى الاستغناء عن العجزة الذين انتهى نفعهم للبشر .

. وحين نقرأ قصص دستوفسكى لا نتمالك أن نحس أنه يريد أن نفهم منه أن الإنسان مزيج من الخير والشر ، وأن فى نفس المجرم الآثم أو الشرير القارح جواهر من الشرف والبر . وهذا صحيح .

وثلاثة يمثلون العبقرية البشرية ، هم نابليون الذى يمثل عبقريه الإرادة ، وأينشتين الذى يمثل عبقرية الذهن ، وأخيراً دستوفسكى الذى يمثل عبقرية الإحساس .



# ثورو

## ونداء الطبيعة

سبق لى أن أوضحت بعض الأسباب التى تجعلنى أحب أحد المؤلفين دون الآخرين . ولكن هناك حالات من الحب تتعمق قلبى وتتغلغل فى خلايا مخى بحيث أعجز عن التحليل ، فلا أصل إلى الجذور التى تربطنى بأحد المؤلفين . وقصارى ما أقول عندئذ إنى أحبه كما أحب اللحن الموسيقى العظيم ، أو أعجب به كما أعجب بالتمثال الرائع . وأتعلق به برباط من الحنان كما لو كان هذا المؤلف أبا أو أمًّا .

فإنى أعجب بتولستوى مثلا لأنه ألف قصة خالدة رائعة تدعى « أنَّا كارنينا » هى فى الذروة من الفن . ولكن حبى له لا ينبنى على هذه القصة وحدها . بل أحرى أن تبعث هذه القصة فى نفسى إعجاباً بقدرته.. ولكنى لا أحبه لأنه قادر فقط وإنما لأنه ضعيف عاجز أيضاً ، قد ارتكب

أخطاء وتورط فى مشاكل لم يعرف كيف يتخلص منها . فإحساسى نحوه هو الحنان والرقة . هو عندى : بابا تولستوى ، لهذه الأخطاء والتورطات نفسها .

عاش تولستوى عيشة الفسق وهو شاب ، ثم حاول أن يكون شيخاً طاهراً وأسرف فى معنى الطهارة حتى قال – وحاول أن يمارس ما كان يقول به – إن الزوج يجب ألا يتصل بزوجته إلا بغية التناسل . ولكنه أخفق ، إذ كان يصارع جسده وهو فوق السبعين . ويعود من هذا الصراع خائباً .

وقضى شبابه وهو لا يكاد يدرى أن فى هذه الدنيا أدياناً يؤمن بها الناس ويجعلون منها دستور حياتهم . حتى إذا اكتهل شرع يشتغل بالدين ويحاول الإيمان ، فإذا به يتورط فى ارتباكات ذهنية وعادات سلوكية انتهت به آخر حياته إلى اثنى عشر يوماً من الضلال والدمار ، ثم الموت . .

وكان شريفاً له لقب كونت ، وعنده آلاف الأفدنة ، يستغل عشرات الفلاحين فى زراعتها . ثم انبلج له نور جديد ، فإذا به يجمع هؤلاء الفلاحين ثم يعرض عليهم أن يوزع الأرض بينهم إذ لا حق له فى استغلالهم . ويغادر الفلاحون منزله وفى نفس كل منهم شك أو شبهة فى سلامة عقله ، ثم تدرى عائلته بما جرى فى هذا الاجتماع فتكفه عن التصرف وتمنعه من التنازل عن أرضه ، وتستمر على الرغم منه فى استغلال الفلاحين .

وألف عشرات القصص الخالدة ، وكلها فن ومجد وحب . ملأت الدنيا موسيقى وأدخلت السعادة إلى قلوب الملايين من البشر . ثم يختمر فى نفسه الإيمان الجديد بأن الناس لا يحتاجون إلى الفن وإنما يحتاجون

إلى الحنان والخير والقناعة وسذاجة العيش . . . فيكف عن التأليف ويرفض أن يتناول قرشاً من أرباحه من هذه القصص .

ثم لا يكتفى بهذا بل يعمد إلى شراء الجلود ويصنع بيديه أحذية للفلاحين ، لأن صنع حذاء يدفئ قدم الفلاح خير من إخراج كتاب يجد فيه القارئ لذة فنية !

وتثور العائلة فى وجهه ، وتضرب عليه حصاراً حتى لا يتورط فى عمل أرعن جديد .

وكان له صديق طبيب من أولئك الرجال الذين يحابى القدر بهم بعض الناس ، فهم حب وإخلاص وتضحية . وهم سعادة لأصدقائهم ونور للعقل والقلب .

وكان تولستوى إذا جاءه هذا الصديق شهق شهقة الخلاص . فهو يستقبله ويدخله غرفته ويقفل الباب ، ويبقى الاثنان يتناجيان .

ولكن زوجة تولستوى لا تطيق كل هذا الحب ينحرف عنها من زوجها إلى هذا الطبيب فهى تغار وهى تحقد . ثم تنفجر ، فتكتب فى مذكراتها بأنها نظرت من صير القفل ، ولا تشك فى أن بين تولستوى وبين هذا الطبيب حباً جنسياً شاذاً . وكلا الرجلين قد أوشك على الثمانين . . . وهذا حقد الغيرة ، وعمى الغيرة ، وكفر الغيرة !

ويستقر فى ذهن تولستوى أنه قد فشل فى حياته ، فلا هو استطاع أن يوزع الأرض على فلاحيه ، ولا هو استطاع أن يؤمن بالإيمان الساذج الذى كان ينشده بإحساسه . ولا هو قادر على أن يعيش العيش الساذج الذى قال به ودعا إليه . بل إن نفسه لتهفو حتى وهو فى هذا النسك إلى أن يؤلف قصة غرامية . وأنه مع دعواه بأن التناسل هو الغاية المفردة من التعارف الجنسى ليتقدم فى ذل إلى زوجته .

والدنيا حوله فى آلام : فقر وجوع ودنس وظلم. أجل ، ليس له الحق فى أن ينعم بطعام طيب أو فراش دافئ ، وهو يحس أنه قد اقترب من الليل الطويل والنوم الأخير ، وأنه يجب أن يتنكر الإنكار العظيم لحياته الماضية وأن يفر من الدنيا إلى . . . إلى الله .

وكيف يفر إلى الله هذا الشيخ الذى بلغ الثانية والثمانين ؟

فى الساعة السادسة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر من عام ١٩١٠ تأتى إليه عربته التى ينتظرها بميعاد ، ويحرص الحوذى على الصمت والسكون حتى لا يستيقظ أحد آخر ثم تسير به العربة إلى محطة السكة الحديدية ، فينزل ويجد صديقه الطبيب فى انتظاره ، ويأتى القطار فيركبان فى إحدى عربات الدرجة الثالثة .

وينزل كلاهما فى إحدى المحطات ، ويسيران إلى دير حيث تستقبلهما الراهبات .

ولكن لا تمضى أيام حتى تعرف ابنة تولستوى ، وهى فتاة فى السادسة والعشرين ، مكانه . فتذهب إليه وتدخل الدير وتقف إلى جنب والدها . ولكنه هو يحس من هذه الزيارة أن الدنيا قد شرعت تجره إليها بعد أن تركها . فهو يستيقظ فى الرابعة من الصباح ، والثلوج تكسو روسيا بأجمعها ، فيفر مرة أخرى مع ابنته والطبيب .

ويحس قشعريرة تلجئه إلى أن يرتاح فى غرفة بإحدى محطات السكك الحديدية . وبعد أيام ، بين يدى ابنته ، يموت . . . يموت موتاً عظيماً بعد أن عاش حياة عظيمة .

لقد ألف تولستوى عشرات القصص الجميلة . ولكن قصة حياته أجمل بل أخلد .

إنها كانت جهاداً شاقاً وأخطاء متوالية فى سبيل الحق والشرف.

ونحن أعجز من أن ننهج هذا النهج فى الحياة ، ولكن هذا العجز يزيدنا حباً له . وحياته هى رؤيا دائمة ، هى دعوة إلى أن نتحرى الحق ونجرب التجارب فى العيش ، فننفض العادات ، والتقاليد ، والعرف ، إذا لم نجد أنها تلائم العيش المثمر البار .

وتجارب العيش هى فى النهاية أثمن ما نطلبه من المؤلف أو المفكر ، ونحن ننتفع ونسترشد بحياة المؤلف كما ننتفع بمؤلفاته ، بل ربما أكثر لأن حياة المؤلف هى نهج جديد للبشر .

وكثيراً ما أقارن بين حياة ڤولتير ومؤلفاته ، فأجد أن كفاحه الشخصى للتعصب الدينى قد ربى أوربا وعلمها معانى جديدة لشرف الفكر . رباها وعلمها بأكثر مما ربتها وعلمتها مؤلفاته ، وكذلك الشأن فى حياة غاندى أو شفيتزر .

ذلك لأننا لسنا واثقين بأننا نعيش فى حضارتنا الراهنة الحياة الفضلى على المستوى الأرحب . ومن الحسن أن نصدم من وقت لآخر بمن يوضحون لنا الخطأ والخطل فى عيشنا الحاضر . أو على الأقل يغرسون الشك فى نفوسنا حتى لا نسرف فى عاداتنا الاجتماعية الموروثة ونتقيد بها كما لو كانت شعائر دينية . فمجتمعنا الذى نعيش فيه مثلا هو مجتمع اقتنائى يعلمنا كيف نقتنى ، ويغرس فى نفوسنا عواطف الكسب والجمع والغيرة والحسد . وكثيراً ما نسير إلى أقصى حد مع هذه العواطف فنقع فى هموم هى سموم تأكل فى نفوسنا وأجسامنا معاً ، ونشقى بما نقتنى .

وقد رفض غاندى أن يعيش وفق المبادئ التى يدعو إليها هذا المجتمع فقنع من الدنيا بشملة وعنزة ، وعاش سعيداً إلى سن الثمانين تقريباً . ولعله كان يعيش أكثر لو لم يقتل . وكانت له مبادئ فى الخير والبر والإخاء والحب هى ثمرة هذا العيش الساذج ، أو على الأقل كانت بعض

ثمرته . . . لأننا يجب ألا ننسى أن أسلوب عيشنا « يكيف » أفكارنا ويعين أخلاقنا إلى حد بعيد ، وأسلوب الاقتناء فى العيش يبعث الطمع والحسد ، وأسلوب القناعة فى العيش يبعث الطمأنينة .

* * *

وإنى أذكر هنا رجلا جرب تجربة فى العيش كانت إلهاماً لغاندى هو هنرى ثورو الكاتب الأمريكى . الذى كسب غاندى عنه أسلوب العيش ، كما أخذ عنه شعار الثورة الهندية على الإمبراطورية البريطانية ، وهو « العصيان المدنى » .

وقد كان هنرى ثورو يقصد من هذه العبارة إلى أننا نكون أحراراً بحيث لا يربطنا المجتمع بعاداته وأهدافه وأساليبه وقيمه ، لأن لكل منا حق الاستقلال فى تنظيم عيشه وفق مبادئه الشخصية ، حتى حين يخالف العرف المألوف . وقد خرج غاندى هذه العبارة تخريجاً آخر هو أن الهنود يجب ألا يتعاونوا مع الإنجليز .

ولد ثورو فى عام ١٨١٧ ومات فى سنة ١٨٦٢ . وقد ألف كثيراً ، ولكن ميزته أنه أدخل الطبيعة فى الأدب الأمريكى ، وأثار الوجدان لجمال الريف والغابة والطير والوحش . وكان الروح التجارى والاقتنائى فى أيامه على أشده فى الولايات المتحدة . فعمد هو إلى صده ، وترك المدينة وأقام فى الغابة . وكتابه « والدين » هو أثره العظيم الذى يذكر لنا فيه تجاربه وإحساساته عن هذه الحياة الفطرية التى عاشها .

وهو يقول عن تجربته هذه : « لقد أردت أن أعيش عن قصد ، وأن أجابه ، حقاً ، عمق الحياة الأصلية فقط . كى أعرف ما يمكن أن تعلمنى هذه الحياة . حتى إذا قاربت الموت أكون واثقاً بأنى قد عشت ، ولم أكن أرغب فى أن أحيا بما لم يكن أصيلا فى الحياة ، لأن الحياة غالية ، كما أنى

لم أكن أقصد إلى الاعتكاف ما لم يكن هذا ضرورياً ، إنما أردت أن أعيش فى عمق وأن أمتص مخ الحياة ، وأن أحيا فى قوة حياة إسبرطية تبعد عنى ما ليس من الحياة . وأن أدفع الحياة إلى مأزق ، وأن أصل منها إلى أن أدون ما فيها . فإذا كانت خسيسة فإنى سوف أعلن خستها للعالم . وإذا كانت سامية فإنى أريد أن أعرف هذا السمو وأجربه وأقدم عنه حساباً » .

هذا كلام جد وعمل جد . فإننا لم نقف قط هذا الموقف من الحياة . وإنما الأنبياء وحدهم الذين وقفوه وجربوه . إذ لست تجد نبياً إلا وله فترة من الاعتزال والاعتكاف يترك فيها المجتمع ، ويبحث فيها عن مراسيه فى الدنيا . وهو فى هذا الاعتكاف « عاص مدنى » يحاول أن يتخلص من القيم والأوزان الاجتماعية كى يصل إلى ما يقابلها من القيم والأوزان البشرية التى تعلو على العادات والعرف . والأديب المخلص فى حاجة إلى مثل هذا الاعتزال والاعتكاف من وقت لآخر .

ولكن ثورو لم يكن يريد من فراره إلى الغابة أن يعتكف للتأمل فقط ، وإنما كان يريد أن يجد ويجرب طريقة أخرى للعيش لعلها تكون أفضل من عيش المتمدنين .

لقد نشأ ثورو فى مدينة صغيرة ولكنها مع صغرها كانت تحوى جميع التأنقات التى تمتاز بها المدن ، هى مدينة كونكورد فى الولايات المتحدة . وعاش ثورو فيها واحترف التعلم ، ولكنه تركه للأدب . ولم يوفق كثيراً ، بل الحق أن شهرته فى أيامنا تزيد عشرات المرات على شهرته حين كان حياً يدعو دعوته الحارة إلى الطبيعة .

وإحساس ثورو للطبيعة عميق ، يدهشنا أحياناً بعمقه . انظر إليه حين يقول :

« إن الطبقة العليا من التربة التي تحتوي جذور الأعشاب تحوي من الأدوات الميكانيكية ما هو أدق من أدوات الساعة . ومع ذلك نحن ندوسها بأقدامنا . وهذه الحركة التي تجري في التربة في الظلام ، وهذه الكيمياء التي تتخلل ألياف العشب قبل أن تظهر ورقة واحدة منه فوق الفتات البالي بالحديرتان ، لو أننا فهمناهما ، بأعظم كشف في الطبيعة » .

ولم يكن ثورو يدعونا إلى التخصص في دراسة الطبيعة وإنما كان يطالبنا بأن نعيش في الطبيعة . وهو يوضح لنا أن ارتباطنا بالمجتمع أو الحرفة أو السياسة أو الحكومة أو غير ذلك من المؤسسات الاجتماعية إنما هو شيء ثانوي إلى جانب ارتباطنا بالطبيعة ، بالأرض والجبل والنهر والشجر والحيوان والطائر . فيجب أن نعيش مع هذه الأشياء أو فيها . ثم يجب على الإنسان أن يكون قادراً على أن يعيش منفرداً متوحداً يأنس إلى الطبيعة دون الحاجة إلى مجتمع ، كما يجب أن ينشد سعادته واختبارته من الطبيعة وليس من النجاح المالي أو الاجتماعي. وهو هنا لا ينكر قيمة الصداقة بل يكبر من شأنها ، ولكنها صداقة الزمالة في الطبيعة .

إن الإنسان الاجتماعي كائن صغير إزاء الإنسان الطبيعي . . الأول يعيش في المدينة وهو محدود الاختبارات والآفاق ، له هموم صغيرة تستوعب نهاره بل بعض ليله . وهو يعمل جاداً متعباً كي يجمع ثروة أو يحقق غاية اجتماعية طول عمره . ولكن الإنسان الطبيعي لا يحتاج إلى أن يكد ويتعب إلا للحصول على طعامه وكسائه . أما سائر وقته فينقضي في الالتصاق بالطبيعة . وهنا يصدمنا ثورو بقوله : لماذا يفرض علينا العمل ستة أيام في الأسبوع ثم يوماً من الراحة ؟ أليس العكس هو الأولى ؟ . . .

وهو يعني أننا إذا عمدنا إلى ترك التكاليف الاجتماعية الباهظة

وارتضينا بساطة العيش بين أحضان الطبيعة فإن يوماً واحداً من العمل فى الأسبوع يكفل لنا جميع حاجاتنا ، أما الأيام الباقية فهى للاستمتاعات والاختبارات .

ترك ثورو مدينة كونكورد إلى بقعة نائية فى عام ١٨٤٣ . وكانت سنه وقتئذ لا تزيد على ست وعشرين سنة ، وهناك بنى بنفسه كوخاً من الخشب . وكان قريباً منه غابة يحصل منها على خشب الوقود . وكذلك بالقرب منه بركة تحوى القليل من السمك . وكان عندما يحتاج إلى أكثر مما يحصل عليه من البركة والغابة ، يؤجر نفسه للمزارعين المجاورين ويشترى بعض حاجاته بما يكسبه من أجر عمله . وقد كلفه بناء الكوخ ثمانية وعشرين دولاراً . وكان طوله ١٥ قدماً وعرضه ١٠ أقدام ، وهو يصفه بأنه يحوى من المرافق أكثر مما يحتوى المسكن العادى فى المدينة . . . . « ولم يكن له قفل على الباب أو ستار على النافذة ، وكان جزءاً من الطبيعة بقدر ما كان جزءاً من العمل البشرى » .

وهو حين يصف الطبيعة تحس كأنه قد انتشى بها كما ينتشى أحدنا بالخمر ، بل كأنه قد تزوجها ويحس فيها طرباً جنسياً قد بلغ الذروة . وهو يستخرج منها لهذا السبب الإحساسات والمعانى التى التى تخطر على بال من يعيشون فى المدن حيث معظم اللذات مصنوع . انظر إلى قوله : « الإنسان الحيوان ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخر » .

« ليست الأرض التى أدوسها هامدة ميتة . إذ هى جسم وروح . . . وليس لأمعائها الدقيقة نهاية . هنا كيان من الأنوار ، من الأكباد ، من الأمعاء . أليس لك أمعاء ؟ إن للطبيعة أمعاء ، ثم هى أم البشرية . وعندما نضع البذور فيها تتجرد ثم تنموا » .

هذا هو الانتشاء بالطبيعة . وهو مثل كل انتشاء . يحوى شيئاً من

الهذيان ولكنه هذيان ملهم يدل على حقائق . وهو يقول أيضاً :

« يجب أن تصعد فوق الجبل كي تعرف العلاقة بينك وبين المادة . أي بين جسمك وبين المادة ، لأن جسمك يجد بيته هناك » .

« انظر إلى أصابعي وكيف أتناول وأعبث بها . أجل ، إنها ، هذه الأصابع ، قد تكون جزءاً من قمة هذا الجبل الذي أصعد إلى قمته كي أرى أبناء عمومتي . إنه يحوي أصابع الأيدي والأقدام كما يحوي الأمعاء . ومن هنا اهتمامي » .

ثم يقول : « عش في كل فصل من فصول السنة . تنفس الهواء واشرب الشراب . وتذوق الفاكهة واستسلم لها جميعاً . ولتدفعك جميع الرياح . وافتح مسامك جميعاً واستحم في مد الطبيعة وفي أنهارها ومحيطاتها في جميع الفصول .

« وإذا كنت تحس أنك تستقبل النهار والليل في طرب وفرح ، وإذا كانت الحياة تنقل إليك أنفاس الزهر والعشب في أرج جميل ، فأنت موفق . والطبيعة تهنئك . ولك الحق عندئذ في أن تحس أنه قد بورك عليك » .

* * *

لم يقض هنري ثورو عمره كله في كوخه . إذ هو رجع بعد سنة وشهور إلى المدينة ، وهو بهذا يحملنا على أن نفهم أن عودة البشر إلى حياة الفطرة في الغابة لم تعد ممكنة . وإنما قصارى ما نفهمه من تجربته أنه أومأ إيماءة لنا بأن التكاليف الاجتماعية الباهظة نستطيع أن نستغني عنها . وأن في « الفقر الإداري » كما سماه قيمة يجب ألا نستهين بها . فإن حياة المدينة وما فيها من هرولة وعصبية وهموم ، كل هذا يمكن النجاة منه بأن نجعل شعارنا : كيف نستغني ؟ بدلا من كيف نقتني ؟

والولايات المتحدة بعد مائة سنة من تجربة ثورو أحوج إلى عبرته مما كانت فى عام ١٨٥١ . لأن المباراة التى يعيش فيها الأمريكيون هذه الأيام هى أقتل للنفس وأبعث للقلق والخوف مما كانت فى أيامه . والأمريكى الذى ينبعث فى عام ١٩٥٠ إلى مثل تجربة ثورو هو رجل سعيد بالمقارنة إلى المهرولين العصبيين الذين يملأون أسرة المستشفيات للأمراض العقلية .

وإنه لمن الحسن أن ينبهنا كاتب ، بإسرافه فى الحب للطبيعة ، إلى أنه ، إلى جنب الشارع والنادى وسهرات الكثول وعد النقود وشراء الأرض واقتناء الضياع أو الأسهم فى الشركات ، إلى جنب هذا توجد أرض وسماء وأشجار وزهور وأنهار وجبال ، وأن القمر يضىء فى الليل ويكسو الحقول بأشعته ، وأن النجوم تنادينا فى الظلام كى نتأملها ونتحدث إليها .

وأننا من وقت لآخر يجب أن نختلى ونستوحد ، كى نعيد النظر فى حياتنا ونسأل هل نحن نعيش مسوقين بضغط العادات الاجتماعية التى لم نفكر من قبل فى قيمتها ؟ وألا يجدر بنا أن نغير هذه العادات أو ننقحها بإلهام الطبيعة التى تردنا إلى الأصول والجذور ؟



# تولستوى

# فيلسوف الشعب

ولد تولستوى فى عام ١٨٢٨ ومات فى عام ١٩١٠ .

ومن هذين التاريخين نرى أنه عاصر القرن التاسع عشر كله تقريباً ولكنه لم يكد يعيش فى القرن العشرين ، فقد مات قبل الحرب الكبرى الأولى بأربع سنوات . وما كان أحوجنا إلى أن نسمع . صوته عن هذه المجزرة البشرية العظمى .

ولكنه فى القرن التاسع عشر رأى كثيراً واختبر كثيراً . فقد اشترك فى حرب القرم فى عام ١٨٥٤ . ورأى بعد ذلك حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا . ورأى أحد القياصرة يقتل . ورأى تحرير العبيد فى عام ١٨٦١ . واصطدم بالكنيسة وطرد منها . واصطدم بعائلته حين أراد تسليم أرضه الموروثة للفلاحين . وانهزم ، وصمت .

وكان طيلة حياته فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر ضمير اوربا ، يرتأى الرأى ويعظ الموعظة ، ولكنه قلما كان يزيد على ذلك . وهنا أكبر إهماله أو خطأه .

كان ضمير أوربا ، كما كان غاندى – منذ ١٩٢٠ إلى ١٩٤٨ – ضمير الهند والعالم . كلاهما ، تولستوى وغاندى، صورتان لشخص واحد، هما صورة الأستاذ وتلميذه ، ولكن هذا التلميذ، غاندى ، حاول أن يجعل آراء تولستوى ومواعظه أعمالا منفذة .

فى هذه الحياة الطويلة التى عاشها تولستوى رأى أهوالا من الشقاء البشرى كان أولها حرب القرم . فإنه يذكر أنه عقب هذه الحرب لم يطق إلا أن يأخذ قلمه ويكتب . وأن ينذر قلمه لمحو هذا الشقاء البشرى. أى الحرب .

ولكن حرب القرم يمكن ، بالمقارنة إلى حروبنا الجديدة التى تخيم على عالمنا العصرى ، بالذرة المنشقة والذرة الملتحمة ، يمكن أن تعد مباراة فى كرة القدم .

ولو أن تولستوى كان حيًّا فى أيامنا ، وكان يسمع أو يقرأ ما يقال عن الحرب المنتظرة ، لطالب بإرسال جميع المسئولين إلى المارستان .

إنها الحرب التى جعلته يقول فى عام ١٨٥٤ : لم أتمالك أن أتناول القلم وأكتب . وكل رجل شريف له قلم يجب أن يقول مثل هذا القول هذه الأيام .

والحرب بؤرة لمشكلات عديدة . اضطر تولستوى ، كما يضطر غيره فى مثل هذه الظروف ، إلى أن يشتبك فيها .

فاشتبك فى معنى الدين ! ودلالة الفن ، وهدف الثقافة ، وأسلوب العيش ، وعادات الحب والزواج . وكتب القصة الفنية ، والرسالة المناقشة.

وحاول أن يحس وفق ما يقول ويؤمن . ونجح قليلا وفشل كثيراً .

نجح من حيث إنه عمم الإيمان بأن المجتمع يعانى من الأسواء ويحمل من الأوضار ما يجب أن يبعثنا على إصلاحه . فكانت بذلك مؤلفاته إيحاء للثورة .

وفشل من حيث إنه كان يعتقد الاعتقاد الدينى بأن إصلاح الفرد يؤدى إلى إصلاح المجتمع . . و لم يفقه قط إلى أن الفرد مسير بعادات المجتمع وأساليب عيشه . ونظم أخلاقه وعاداته . وأنه لن يتغير إلا إذا غيره المجتمع أو هيأ له أسباب التغير .

كان تولستوى مثالياً ولم يكن مادياً .

* * *

نجد فى حياة تولستوى ظروفاً أو حوادث رسمت له خطوط حياته .

فإن حرب القوم بفظائعها جعلته كاتباً يكتب عن قهر وإلزام لأنه لا يطيق الصمت . وهذه الحال أعظم ما يهيئ التفوق والنبوغ فى الكاتب ثم رأى هول النظام الإقطاعى فى روسيا ، والرق الزراعى الذى كان يقضى بخضوع الفلاحين لصاحب الأرض ، لا يتركونها إلى غيرها . إذ هم عبيد تملكهم الأرض ولا يملكونها . وقد ألغى الرق فى عام ١٨٦١ ، ولكن تولستوى حرر عبيده تطوعاً قبل أن يسن هذا القانون .

ورأى تولستوى فى حياته الأدبية صراعاً بين المستغربين والمستشرقين . فإن دعاة الإصلاح انقسموا فريقين : أحدهما يقول بالتزام روسيا لمبادئها الشرقية . والآخر يقول بأخذها بالأساليب الغربية .

وهذا التردد أوقع بالشعب فى بلبلة كسب منها الرجعيون . أى القيصريون والكنسيون . أليست القيصرية والكنيسة مؤسستين شرقيتين وطنيتين يجب المحافظة عليهما ؟ ولذلك كان القول بتحرير العبيد من الرق

الزراعى ، وتعليم المرأة فى الجامعات ، والتفكير الاجتماعى فى معانى الدين ، بل البرلمان نفسه ، كل هذا كان من بدع المستغربين الذين يعدون خونة للمبادئ الشرقية الروسية .

وكان فى الجانب الآخر دعاة الحضارة الغربية العصرية الذين أخذوا بالمذهب الماركسى فى الاشتراكية ، والذين كانوا يطالبون بإلغاء القيصرية واحتضان الثقافة العلمية الأوربية .

وانتقلت هذه المعركة إلى الأدب الروسى واحتلت مركز المناقشة فيه .

فى ناحية نجد دستوفسكى ينعى على أوربا ماديتها ويدعو روسيا لاستيفاء شرقيتها .

ومن ناحية نجد تورجنيف يدعو إلى الغرب .

ومن هنا نشأت كلمة « العدمية : النيهلزم » التى سكها تورجنيف كى يبين البلبلة أو اليأس الذى يقع فيه شبان روسيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين كان يحملهم قنوطهم على طلب العدم ، لأن الوجود لا يطاق .

الوجود لا يطاق إزاء ناس أشرار يطلبون بقاء القيصرية والكنيسة المستبدين ، وبقاء الرق الزراعى ، وبقاء المرأة للبيت ، وبقاء الاستسلام والخضوع والرضى بالفقر .

* * *

لكل كاتب أب روحى ينتمى إليه ، أو هو يعتقد أنه ينتمى إليه .

وفى هذا الانتماء أنسة تتولد منها شجاعة وإصرار ، وإحساس بالسلامة بالبعد عن الأخطار . ولا عبرة بأن يكون الأديب المنتمى مخطئاً ، وإنما العبرة بالإيمان .

وكان الأب الروحى لتولستوى ، جان جاك روسو .

كما كان الأب الروحي بعد ذلك لغاندى ، تولستوى نفسه .

وقد صرح تولستوى بأن فى شبابه كان يعبد روسو . وأنه كان يحمل ميدالية عليها صورة هذا الأديب الفرنسى العظيم . ولقد قال فى أحد مؤلفاته : « إنى أحس ، وأنا أقرأ لبعض الصفحات من روسو ، كأنى أنا قد كتبتها » .

ونحن نجد بين الاثنين قاسماً مشتركاً . فإن كلا منهما وجد فى الرجوع إلى بساطة الحياة حلا للعقد الاجتماعية التى أوجدتها الحضارة العصرية، والتى جعلت حياتنا شاقة بالطموح المسرف ، والمباراة القاتلة ، واتخاذ القصد المخطئ فى الجهد بجمع المال ، والعيش فى البذخ .

لقد دعا روسو إلى العودة إلى الطبيعة وإلى المعيشة الساذجة . وقد عاش روسو فى هذه الطبيعة الساذجة حين آثر الريف على المدينة ، والالتصاق بالأرض والإنتاج الزراعى على مركبات الحضارة العصرية التى كثيراً ما تستحيل إلى عقد .

ونحن نجد فى اعترافات روسو ، ثم اعترافات تولستوى ، أمكنة عديدة للمشابهة . ولكن يجب أن نسأل قبل أن نلتفت إلى هذه الاعترافات .

لماذا كتبها روسو وتولستوى؟ بل لماذا كتب غاندى، تلميذ تولستوى، اعترافاته أيضاً التى سماها « تجارب فى الحياة » ؟

السبب هو القلق ، فإن هؤلاء الثلاثة الذين هدفوا إلى الطمأنينة والسلام والسعادة فى كتابتهم ، كانوا قلقين لهذا السبب نفسه . أى أن جهدهم لتحقيق الطمأنينة والسلام والسعادة قد أحالهم إلى مفكرين مكافحين مخاصمين للمجتمع الذى عاشوا فيه . وقد تألموا جميعهم . فإن روسو طورد كما لو كان مجرماً . بل إنه عاش بعض سنى حياته وهو مختبئ أو هارب.

وتولستوى طورد من الكنيسة التى كان يرفع دينها إلى أعلى مرتبة . وأما غاندى فقد ضرب وحبس . ثم أخيراً قتل .

ولسان هؤلاء الثلاثة جميعاً يقول ، كما كان يقول أرميا : « ربى ! لم جعلتنى مُشَاقًّا لأهلى ؟ » أى ربى . لم جعلتنى على شقاق مع مجتمعى ؟

ولكن أرميا كان يجهل أن كل من يطلب الإصلاح والتطور والارتقاء لن يمكنه أن يؤدى هذه الرسالة إلا بعد شقاق بينه وبين أهله . وهؤلاء الأهل، أو هذه الشعوب والمجتمعات، بعد أن تضرب النبى أو الفيلسوف والأديب ، وتحبسه ، وقد تقتله ، بعد ذلك تقيم له التمثال الذى يخلد صورته وتحتفل بذكراه وتدرس أقواله .

وعظماء الأدباء فى أيامنا هم الأنبياء وهم الفلاسفة .

* * *

لما كان تولستوى فى شبابه وجد نفسه نبيلا ممتازاً على الشعب بالثروة والمقام ، وله عبيد زراعيون يجرى عليهم حكم الرق . فأعتق عبيده هؤلاء ولكنه بعد ذلك وجد أن المباراة التجارية الجديدة ، واستخدام رأس المال الوطنى والأجنبى ، وظهور طبقة جديدة من الأثرياء الذين يطلق عليهم اسم « بورجوازيين» ، وجد أن المناخ الإقتصادى الاجتماعى الجديد، على ما يزينه من طلاء الحضارة والثقافة ــ هذا المناخ أسوأ من المناخ الزراعى القديم . فكرالحضارة الغربيةالعصرية ودعا دعوة الحياة الساذجة الفطرية، دعوى روسو قبل مائة سنة .

وهنا نحتاج إلى أن نتلبث قليلا ونبحث الموقف السيكلوجى .

فإن جان جاك روسوحين خبر المظالم الملوكية والإقطاعية فى فرنسا، وحين شاهد البذخ النجس فى الطبقات البشرية إلى جنب الفقر الساحق المهين فى عامة الشعب ، حين رأى ذلك قال إن الحضارة كلها نجاسة

يجب أن نتجنبها ونعيش فى سذاجة ، لا نشترى الذهب ولا نبنى القصور ولا نأكل على الموائد المطهمة ولا نقتنى الحرير .

وكذلك تولستوى حين رأى غزو النزعات التجارية ، والجشع ، أى الاستكثار من الثراء بالمباراة القاتلة وسحق الفقراء من العمال . ثم ما ينبنى على ذلك من مدن يحيا فيها الأثرياء مع التعطل والدعارة إلى جنب آلاف العمال الجائعين الذين يعيشون فى البدرومات — حين رأى ذلك قال أيضاً بأن حياة الريف خير من حياة المدن . وأن الصناعات الصغيرة فى القرى خير من المصانع الكبيرة فى المدن .

وقد تعلم هو صناعة الأحذية كى يحس راحة الضمير . وكان يحرث الأرض . وكان يقول إن المتمدنين الغربيين يلعبون الألعاب الرياضية لأنهم لا يؤدون أعمالا مجهدة . ولو أنهم كانوا يعيشون مثل الفلاحين على الأرض لما احتاجوا إلى الرياضة البدنية .

ثم جاء غاندى فأحب تولستوى كما كان هذا يحب روسو . وأسس مزرعة باسم « مزرعة تولستوى » حين كان فى أفريقيا الجنوبية يدرس مشروعاته فى مقاومة الشر بالخير . وكان يعمل ويجرب فى أساليب الحياة التى أصبحت مذهباً عاش به الهنود . فلبسوا الخيش وأكلوا الخضراوات وصاروا يغزلون وينسجون كى يستغنوا عن الأقمشة الإنجليزية الواردة إليهم من إنجلترا .

* * *

أرجو ألا يفهم أحد أنى أمدح هؤلاء الثلاثة على الخطط الأساسية التى زعموا أنها تصلح للحياة العالية . وإنما وجدت أنه يجب ، كى نفهم تولستوى ، أن نذكر هذا الاتجاه الذى لم يخل منه عصر . ويكفى أن نقرأ قصة « نشيد الإنشاد » فى التوراة كى نعرف أن هذا الاتجاه قديم .

إذ أن هذا السفر لا يعدوا أن يكون دعوة إلى الطبيعة والسذاجة والقناعة ضد الحضارة .

وفى قلب كل منا شىء يهفو إلى هذه الحياة . ونحن نزداد تفكيراً فيها عندما نجد أن مركبات الحياة المتمدنة قد استحالت إلى عقد يعسر علينا حلها ، وأننا نقع فى مضاعفات تقلقنا وتؤيسنا وتمرضنا .

التفكير فى العودة إلى الطبيعة ، والتفكير فى القناعة بحياة الريف ، والتفكير فى لبس الخيش وطعام النبات — كل هذا هروب من عقد الحضارة العصرية ومضاعفاتها والعجز عن حلها .

أما متى وجد الحل فإن أحداً لا يفكر كما فكر هؤلاء الأبطال الثلاثة .

* * *

تمتاز القصة الروسية ، على وجه عام ، بالواقعية . وهذا هو الأثر الذى تخلفه قراءة قصة روسية عند القارئ العربى الذى يعرف الآداب الروسية .

وتولستوى واقعى يتعمق البواعث الخفية ويكشف عنها فى صراحة كثيراً ما فزعت منها الطبقات الحاكمة فى روسيا .

وهو فى كل ما يكتب لاينسى أن ينبه إلى أن الحضارة العصرية غير إنسانية . وأشخاص قصصه فضلاء مستقيمون إذا كانو فلاحين ساذجين مثل « لفين » فى قصة « أنّا كارنينا » . وهم أرذال منحرفون إذا كانوا متدينين مثل « فردمنسكى » فى هذه القصة نفسها .

وهذا تحيز واضح له أصول فى روسو معلمه الأول .

ثم هو ، مثل روسو قبله ، ومثل غاندى بعده ، شعبى . أى مع عامة الشعب والفقراء والمسحوقين والمحرومين . ومن هنا دعوته إلى تبسيط اللغة

الروسية . بل إن كراهيته لشكسبير تعزى ، إلى حد بعيد ، إلى أن هذا الشاعر الإنجليزى يتعالى على الشعب ويسميه غوغاء لا يفهمون . وإلى أن معظم أبطاله ملوك وأمراء . بل إنه يسرف هنا حتى يقول إنه يفضل أغانى الشعب الروسى العامية على أشعار جوتيه شاعر ألمانيا العظيم .

وأسلوبه لهذا السبب شعبى . هو حديث يكاد يكون عاميًّا ، لانجد فيه تلك الكلمة المضيئة أو العبارة المزوقة التى اعتدنا أن نجدها فى كتب الأدب الأخرى . ولكنه فى كل ما يكتب سيكلوجى عميق لا يعلو عليه هنا غير دستوفسكى الذى عرف سيكلوجية فرويد قبل فرويد .

* * *

وربما يكون من المنير هنا أن نقارن بين تولستوى ودستوفسكى .

فإن كلاهما كاتب عظيم من كتاب القصة . بل لا نغالى إذا قلنا إنهما أعظم كاتبين للقصة فى العالم كله . ومع ذلك أنا أوثر عليهما جوركى . ولكن ليس ذلك لأنه يعلو عليهما فى فن القصة . وإنما لأنى أجد فيه مزاجى ونزعتى واتجاهى فى الثورة التى لا يرضى عنها تولستوى أو دستوفسكى المسيحيان .

وهناك فرق أصيل بين دستوفسكى وبين تولستوى .

ذلك أن دستوفسكى يهدف إلى إيجاد أشخاص ، بل أبطال . لكل منهم شخصيته الفذة التى يختلف بها عن سائر المجتمع فهم فلاسفة أو مجرمون أو حتى مجانين . ولكنهم عباقرة . ولكن عبقريتهم فى الإحساس أكثر مما هى فى العقل . هم أذكياء فى الإحساس . فإن « رسكلنيوف » بطل « الجريمة والعقاب » وهى القصة التى كنت أول من حاول ترجمتها فى عام ١٩١٢ ، هذا البطل يقتل امرأة عجوزاً عن تعقل منطقى . ولكنه يعترف بعد ذلك بالجريمة ، ويرضى بحكم الإعدام أو النفى المؤبد عن

إحساس إنسانى . ولهذا المؤلف أشخاص متدينون فى قصته العظيمة « الإخوة كرامازوف » تتأمل تدينهم العميق فتشك فى إيمانهم : هل هم مسيحيون أم إنسانيون ؟ وهل ينشرون النور أم الظلام ؟ نحن نقرأه ونحن نعانى لذة أليمة ، وكأننا فى قبضة محلل سيكلوجى نستجيب لأسئلته بومضات الذهن وارتجاف القلب .

جميع أبطال دستوفسكى شواذ ، مرضى ، ولكنهم عبقريون أذكياء .

أما تولستوى فن الشعب يكتب للشعب . رجاله عاديون . وهو يعبر عن أعمالهم وصفاتهم بلغة شعبية بعيدة عما يسميه الاحتيالات البلاغية .

المثل الأعلى عند دستوفسكى هو الرجل الشاذ الذكى الذى يحس أكثر مما يتعقل .

والمثل الأعلى عند تولستوى هو الرجل العادى الذى لا يشذ عن المجتمع . ولكن هذا المجتمع يجب أن يكون ساذجاً يحيا فى الطبيعة والصلاح . هو الرجل الطيب فى معنى الطبيعة الشعبية . بل أكاد أقول العامية .

البطل عند دستوفسكى هو من ينفصل من المجتمع .

والبطل عند تولستوى هو من يندمج فى المجتمع .

وأحسن أشخاص القصص عند تولستوى هو « ليفين » صاحب الأرض فى قصة « أنّا كرنينا » وهو مزارع طيب يتسم بأفكار عرفية ، أى اجتماعية ، عن الحب والزواج والعائلة والصلاح . هو تولستوى نفسه وسائر المزارعين .

وأحسن الأشخاص عند دستوفسكى هو الطالب « رسكلنيكوف » القاتل الفاجر الذى يقتل العجوز كى يسرق أموالها ، لأن حياتها « لا تزيد فى القيمة على حياة برغوث » .

أليس هذا هو المنطق ، منطق العقل وحده ؟

ولكن دستوفسكى يعود بعد ذلك فيشرح فى أكثر من مائتى صفحة أن هذا المنطق خطأ .

وأبطال دستوفسكى يختلفون فى معانى الحب من أشخاص تولستوى .

البطل عند دستوفسكى يحب المرأة البغى ، ويعبدها . لأنه يعبد آلامها . وينغمس فى دموعها . ويكرع تعاستها . وكأنه يبكى فى هذا الحب تعاسة الناس وبغاء حياتهم وجوعهم . وهو يستنبط من هذا الحب المعانى الإنسانية التى تجعلك تسمو على نفسك .

أما أبطال تولستوى فيحبون هذا الحب الأفلاطونى الذى يتوهم الناس أنه الحب السطحى . مع أن أفلاطون قصد منه إلى الحب الشامل للإنسان والحيوان والنبات ، والصدق والشرف ، والحقيقة والفن والطبيعة .

الحب عند تولستوى هو الحب للناس أولا . ثم بعد ذلك لهذا الكون بكل ما فيه من مخلوقات .

ولهذا السبب كان تولستوى يقيس كل شىء بقيمته للشعب . فالكتاب أو الصورة أو اللحن إنما هى جميعها وسائل لزيادة الاتحاد ، بل الاندغام ، بين أفراد الشعب . وعنده أننا كلما اندغمنا فى الشعب كنا أسعد ، وكلما انفصلنا كنا أتعس . ومن هنا كراهته لشكسبير الذى يكتب أحياناً فى وقاحة ، ويصف الشعب أنه غوغاء . وكذلك كراهته لجوتيه ؛ حتى قال إن الأغانى الشعبية الروسية تحوى من الفن أكثر مما تحويه أشعاره . وكذلك احتقاره لما كان يسميه « الاحتيالات البلاغية » لأن فنون البلاغة للخاصة وليست للشعب . ثم أخيراً نجده يحرث الأرض ويصنع الأحذية بيديه .

إنه يريد أن يكون من الشعب ويؤدى الأعمال الشعبية .

وهو هنا بالطبع مسرف . ولكن لهذا الموقف وجهاً يستحق أن نبحثه من ناحية المزاج النفسى والإحساس العاطفى ، وليس من ناحية الارتقاء البشرى والتقدم العلمى . بل إن لهذا الموقف مغزى لا يستهان به حين نتأمل خطط غاندى الشعبية فى الهند والنتيجة التى انتهت إليها .

* * *

تغمر إحساسات الحب حياة تولستوى .

الحب الأفلاطونى الذى يشمل الحياة والطبيعة : حب روسو .

وأكبر الظن أن روسو . هو الذى نبه ذهنه إلى الحب . أو هو الذى أيده وبعث فيه الاستطلاع والتعرف .

ولذلك لا نستغرب من تولستوى أن يلتفت إلى معانى الحب التى دعا إليها الإنجيل . ولكن التفاته هذا أدى به إلى الاصطدام بالكنيسة .

والواقع الذى يثبته تاريخ أوربا أنه كلما اقتربنا من الإنجيل ، وحاولنا أن نفهم تعاليمه منه مباشرة ، ونقرأه مثل أى كتاب آخر ، كلما فعلنا ذلك ، ابتعدنا عن الكنيسة . ونعنى بالكنيسة هنا كهنتها .

فإن لوثر ، المصلح البروتستانتى ، حين شرع يدرس الإنجيل مباشرة طردته الكنيسة الكاثوليكية . وكذلك فعلت مع رينان . وكذلك فعلت الكنيسة الأرثوذكسية مع تولستوى .

إن للكهنة تفسيرات « رسمية » للإنجيل . فمن تجرأ من المسيحيين على أن يفهم كلمات الإنجيل ، خارج هذه التفسيرات الرسمية ، فإنه عندئذ يكون عرضة للوم والحرم . وليس هذا شأن الكنيسة أو الكنائس البروتستانتية ، التى تعلمت من طرد لوثر ألا تطرد أحداً يخالفها .

وكان طرد تولستوى أو إلقاء الحرم عليه ، قائماً على أنه نظر إلى المسيح النظرة الإنسانية ، ووجد فى الأخلاق التى دعا إليها ، وعمادها

الحب، أخلاقاً لا نحتاج إلى وحى إلـهى . بل إنه يقول إنه هو نفسه، أى تولستوى ، كان يمكنه أن يقول بما قال به المسيح فى الأخلاق دون أن يحتاج إلى وحى إلـهى. لأن هذه الأخلاق هى أفضل ما نعرف وأليق ما تكون للمجتمع البشرى . هى أخلاق علية .

وهو يقول فى إحدى مذكراته حين كان يقاتل فى حرب القرم حوالى عام ١٨٥٥ : « ... خطرت بذهنى فكرة، هى تأسيس ديانة جديدة تتفق والحال الحاضرة للنوع البشرى . أعنى الديانة المسيحية التى تتطور من العقائد الجامدة ومن الغيبيات بحيث تصير ديانة عملية لا تهبنا سعادة المستقبل ( بعد الموت ) وإنما سعادة الحاضر على هذه الأرض » .

وهو يستخلص من موعظة الجبل فى الإنجيل هذه الوصايا الخمس :

١ ــ لا تغضب .
٢ ــ لا تزن .
٣ ــ لا تقسم .
٤ ــ لا تقاوم الشر .
٥ ــ لا تكن عدوًّا لأحد .

هذا هو كل ما يؤمن به من الإنجيل . وما عدا ذلك فزيادات يمكن الاستغناء عنها ، ولكن تولستوى مع ذلك لم يجابه كل الحقائق ، ولو كان قد فعل لاستقر على العلم وحده .

* * *

حقيقة الموت من أعظم الحقائق التى تواجهنا عندما نفكر فى الحياة البشرية .

لماذا نموت ؟ ولماذا نخاف الموت ؟

وقد فكر تولستوى كثيراً فى هذا الموضوع . وله قصة تسمى

« ثلاث توبات » توضح لنا رأيه فى الموت . وقد كتبها فى عام ١٨٥٨ .

والموتات الثلاث هى موت سيدة ثرية متمدنة ، وموت فلاح فقير ساذج ، ثم موت شجرة . وهو يصف تدرج الموت ، منذ بدايته حتى نهايته ، فى هذه الأحياء الثلاثة . وله نظرية فى ذلك ، هى أنا نتألم من الموت ونخشاه لأننا نحيا فى الحضارة على وعى بأن كلا منا فرد منفصل . ويزداد هذا الإحساس إذا كنا متمدنين متعلمين . ولذلك تخشى فى السيدة الموت .

أما الفلاح ، فلأنه ساذج ، يحيا مع الطبيعة ولا يحس فرديته إلا بمقدار صغير ، أى أنه ليس على وعى خاص بحياته . هذا الفلاح يتحمل الموت ويستقبله بأقل الألم وأقل الخوف .

أما الشجرة التى تخلو من الوعى ، وليس لها أى إحساس بفرديتها إذ هى جزء متم لا ينفصل من الطبيعة ، هذه الشجرة لا تحس بتاتاً بالموت . ونحن حين نقطع غصونها ونكسر ساقها لا نجد فيها ما يدل على ألم أو خوف .

والمغزى الذى يستخرجه تولستوى من هذه المقارنة بين الموتات الثلاث ، أنه كلما ازددنا ثقافة وتمدناً ومعرفة ، ازددنا أيضاً وعياً وانفصالا من المجموعة البشرية . ونحن نتألم لهذا الوعى والانفصال وقت الموت . ولكن لو كان وعينا وانفصالنا ضعيفين أو معدومين لكنا مثل الفلاح ؛ بل مثل الشجرة . لأن موتنا جزئى ، إذ نحن أحياء فى المجتمع أوالطبيعة لأننا لم ننفصل منهما . إذ يكون موتنا بمثابة من تكسر أصبعه أو يده فقط .

إن تولستوى طبعة أخرى لرسو .

إنه يمدح الحياة البدائية ، بل يمدح الطبيعة غير الواعية . ويجد فيها

الفلاح آلام الموت والشفاء من الخوف من العدم .

وهو بالطبع لا يؤمن بالغيبيات التى تلى الموت . ولا يشتهى ، ولا ينتظر أطباق الحلوى بعد الموت ، هذه الأطباق التى يعتقد بعضنا أنها تخفف من ألم الموت وتزيد الخوف منه . مع أن الواقع يثبت غير ذلك .

* * *

إن تولستوى يستحق النقد هنا .

ذلك أنه نظر إلى الموت من حيث إنه مواجهة العدم للإنسان . وإنه نهائى ليست بعده حياة أخرى . .
ولكن عبرة الموت يجب أن تنعكس على الحياة .

إذا ما دامت الحياة تنتهى بالموت انتهاء تاماً ، فيجب لذلك أن نحيا حياتنا بأقصى وأعمق ما نستطيع ، وأن نجعل من هذه الدنيا نعيماً لأبناء البشر . نحن فى سعادة وسلام وعلم وثقافة واستمتاع ، ونعم الخير والعدل ، ونتحمل نحن وحدنا المسئولية فى كل ذلك بدلا من إلقاء المسئولية على قوات غيبية .

ولكن تولستوى لم يكن يرتفع إلى هذا التفكير لأنه لم يكن ثورياً والثورة وحدها ، أى السعى لإيجاد ثورة تغير المجتمع ، هى التى نقلت الاهتمام النفسى والذهنى من التفكير فى الدين إلى التفكير فى الدنيا .

وكراهة تولستوى للثورة يعود إلى إيمانه المطلق بأن الشر يجب ألا يقاوم ، وأن الموقف السلبى من المظالم والشرور جميعها هو الموقف الذى اتخذه بعد ذلك غاندى .

وقد اتخذه غاندى نقلا عن تولستوى .

لم يكن تولستوى يؤمن بالثورة . إذ كان يقنع بالإيمان بالمسيحية ، بالإخاء المسيحى .

ولكننا مع ذلك نظلمه إذا قلنا إنه لم يعمل لتعجيل الثورة. ذلك أنه عمم السخط بين طبقات المثقفين فى روسيا لأنه أبرز مظالم المجتمع والحكومة والكنيسة. وهذا السخط كان الاختمار الذى سبق الانفجار بالثورة.

لم يكن اشتراكيًّا ، ولم يكن له برنامج ، ولم يكن له كفاح عملى مذهبى سوى تسليم الأرض للفلاحين . وقد حاول هو نفسه أن يفعل ذلك واصطدم بعائلته التى منعته من إنفاذ نيته .

لم يكن تأثيره إرشاديًّا للثورة ، ولكنه كان إيحائيًّا .

* * *

ولا نستطيع أن نقول إن غاندى قد أرشد الثورة فى الهند بالتعاليم التى أخذها عن تولستوى . وإنما قصارى ما نقول عنه إنه أوحى بها ولونها بلون الوداعة التى انتهت بالمقاطعة ، مقاطعة الإنجليز المستعمرين .

وكلاهما ، أى تولستوى وغاندى ، يجهل الأساس الوحيد الذى تنبنى عليه المجتمعات وتتغير بتغيره وتتطور بتطوره .

هذا الأساس هو الأساس الاقتصادى .

كان كلاهما « مثاليًّا » وليس « ماديًّا » .

كان كلاهما يطلب الأخلاق ثم الإصلاح .

الأخلاق عند كل من تولستوى وغاندى تؤدى إلى الإصلاح .

وهذا هو الخطأ الفادح .

لأن الأخلاق ليست شيئاً سوى الثمرة أو الثمرات ، التى يثمرها النظام الاقتصادى . فإذا كان هذا النظام حسناً عادلا فإن الأخلاق تكون حسنة عادلة .

كان كلاهما يطلب إصلاح الفرد . ثم يؤدى ذلك فى منطقه إلى إصلاح المجتمع .

ولكن العكس هو الذى نؤمن نحن به الآن ، فإننا نقول إننا نحتاج إلى مجتمع عادل لكى يتعلم أفراده بنظامه ، محض نظامه ، ويمارسون العدل فى علاقاتهم الواحد مع الآخر .

موقف غاندى وتولستوى هو الموقف المسيحى . وهو أن على الفرد واجبات إذا أداها صار المجتمع صالحاً .

ولكن هل نجحت المسيحية فى ذلك ؟

إنها لم تنجح . بل انتهت بعد ألفى سنة من تعاليمها باختراع القنابل الذرية الهيدروجينية ، أقوى أسلحة الشر فى تاريخ العالم .

إن أسوأ ما فى تولستوى وغاندى معاً إنهما لم يفهما ، ولم يدرسا التفسير الاقتصادى للتاريخ .

ولكن هل معنى هذا أنهما لم يخدما عصرهما ؟

لا . لأن الواقع أنهما ، كما قلنا ، أوجدا سخطاً أدى إلى اختمار . ثم انتهى الاختمار بالانفجار ، فكانت الثورة الاشتراكية فى روسيا . ثم ثورة الاستقلال فى الهند .

السخط جعل الناس يفكرون ويغضبون . وانتهى التفكير والغضب إلى الثورة التى شبت بعد وفاة تولستوى بسبع سنوات فى عام ١٩١٧ .

ولكن هذا السخط الذى جعل الناس يفكرون ويبتكرون جعل تولستوى نفسه يبتئس ويشقى . إذ كان هو يسخط ويتآكل ببخاره لأنه لم يكن له برنامج اجتماعى للثورة .

ولذلك أيضاً وجدناه بعد حياة بلغت ٨٢ سنة ينهض من فراشه فى الفجر ويترك بيته وأولاده ويفر إلى حيث لا يعرف . إذ لم يكن له وجهة ولم يكن له قصد .

كان يريد الفرار فقط .

فر من الحياة البائسة إلى الموت . ومات .

وبموته أثبت أن ما كان ينشده من الارتباط العضوى بالمجتمع ، على الطريقة التى رسمها ، لم يعد ممكناً . لأنه لم يعد من الممكن أن ننزل عن وعينا بالنزول عن ذكائنا وثقافتنا ، ونحيا حياة الفلاح أو حياة الشجرة . ولكن هناك ارتباطاً آخر يحسه الرجل المثقف الواعى فى أيامنا ، هو هذه الاشتراكية التى ننشدها . فنحن فى حياتنا ، بل كذلك فى موتنا . أجزاء متممة للمجتمع ، نرقى برقيه . . . فلا نشقى من الحياة ، ولا نخاف من الموت .

ومع كل ما ذكرت عن تولستوى وروسو وغاندى . ومع كل ما نجد فى حياتهم وتعاليمهم من أخطاء . فإننا نهفو إليهم كما نهفو إلى النسيم المنعش ، لما نجد فيهم من إخلاص وسذاجة وحب تفسدها علينا الحضارة . العصرية .



# فرويد
## وتشريح النفس البشرية

فى النصف الأول من القرن العشرين خطا كثير من العلوم خطوات تقرب الوثبات . فإن انتهاء الطبيعيات بالطاقة الذرية يعد وثبة وإن تكن وثبة جامحة فى الظلام . إذ ما كان أحد ينتظر أن يصل عالمنا إلى هذا الكشف العظيم قبل مئات السنين ، ولذلك فوجئنا بالقنبلة الذرية فكانت شر البدايات التى عممت الذعر .

والتقدم فى الطبيعة والكيمياء والبيولوجية كان منتظراً منذ أكثر من مائة سنة ، لأن لهذه العلوم تاريخاً يعود فى بعضها إلى أكثر من مائتى سنة . ولكن السيكلوجية كانت إلى نهاية القرن الماضي علما مغلقاً أو كالمغلق . ولعل أكبر ما عاق تقدمه ، بل ميلاده ، هو أنه نشأ نشأة زائفة فى حضن الفلسفة التى كانت تنأى عن التجربة وتقتصر على التفكير المجرد .

ثم جاء فرويد فكشف عن النفس قناعاتها بمفتاح جديد هو « العقل الكامن » أو الكامنة .

وفكرة الكامنة هى إحدى الفكرات المحورية أو البذرية . فكرة خصبة ولدت ، وتوالد أولادها ، حتى ظهر من الأولاد ما عاق الأم ، ولكنه فى عقوقه قد أثمر ونفع .

وفى العقد الأول من هذا القرن كان صوت فرويد هامساً خافتاً ، فما هو أن بلغنا العقدين الثانى والثالث حتى صخب . وعلا بل طغى وأحس العالم أنها هنا قوة فكرية توجه الثقافة توجيهاً جديداً لم نكن نعرفه من قبل .

وإذا كان النصف الثانى من القرن التاسع قد حفل بالصراع الفكرى بشأن داروين والتطور ، فإن النصف الأول من القرن العشرين قد حفل بصراع آخر بشأن فرويد والعقل الكامن . وبين الفكرتين شبه كبير ذلك أن نظرية داروين قد أثبتت لنا أن الجسم البشرى هو ثمرة التطور ، وأنه لذلك يخفى كثيراً من الأعضاء الأثرية القديمة التى ورثناها من الأرومة الحيوانية التى نشأنا منها . وكذلك الشأن فى نظرية فرويد . فإنه أثبت أن النفس البشرية قد ورثت وظائف وحشية قديمة ، وأننا نألم ونبتئس لأننا فى صراع لا ينقطع بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة وبين قيود الحضارة التى تمنعنا من ممارستها .

وقد قضيت كثيراً من سنى عمرى فى ضوضاء هذه النظرية وتأثرت بها كما يبدو من مؤلفاتى فإنى أعد منها خمسة أو ستة ألفتها فى هذا الموضوع بالذات ، أو تناولت الموضوعات الاجتماعية والثقافية بالشرح والتعليل السيكلوجيين . فإن كتبى « فن الحياة » و« كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » و« التثقيف الذاتى » و« الشخصية الناجعة » هى معالجات

سيكلوجية لهذه الموضات ، وهذا فضلا عن كتابى « أسرار النفس » و « عقلى وعقلك » و « محاولات سيكلوجية » وهى فى صميم السيكلوجية الشعبية .

وقد انتفعت كثيراً بهذا الاتجاه السيكلوجى فى ثقافتى ، ولكنى لم أنتفع به كثيراً فى حياتى اليومية ، لأنى على الرغم من السيكلوجية مازلت أعيش وفق ما نشأت وتدربت عليه أيام طفولتى إلا القليل ، بل القليل جداً الذى استطعت أن أنفضه عن نفسى من أخلاق وعادات ذهنية طفلية . وأنا هنا شاهد على صحة التعاليم الفرويدية وهو أن للسنين الأولى من العمر أكبر الأثر فى التوجيه الأخلاقى .

ولكن جمعى بين فكرة التطور وفكرة العقل الباطن قد أخصب ذهنى وحركنى إلى تفكير أخلاقى جديد . فمن ذلك مثلا أنى تجنبت الخبط الذى يرجم به الكتاب فى موضوعات مختلفة مثل السعادة . فإنى وثبت فوراً وبداهة إلى أن السعادة هى الوجدان ، أى ما يسميه عامة كتابنا « الوعى » ، وأنه بمقدار ما عندنا من وجدان ودراية نكون سعداء . وبمقدار ما يستولى علينا العقل الكامن أو الكامنة نكون تعساء . وهكذا الشأن فى موضوعات أخرى .

وقولى إن فرويد قد هدانى ووجهنى ليس معناه أنى قد سلمت له بلا قيد أو شرط . ولكنه كان البذرة التى أخصبت فى نفسى . وأخصبت أحياناً ضد ما أراده فرويد . وحسبى من ذلك أن أقول إنى أوشك أن أكون « بافلوفيا » هذه الأيام من حيث الإيمان بأن الأفكار البشرية جميعها إنما هى رجوع انعكاسية مكيفة ، أى معدولة ، عن الرجع الأصلى . ولكنى ما زلت فى شك .

وقد كانت رحلتى فى السيكلوجية وانية متعثرة ، بدأت بفرويد ثم

يونج ثم أدلر ، ثم أولئك الأمريكيين التجريبيين ، ثم كرتشمر ثم بافاوف.
ولكن فرويد هو الذى فتح لى الكوة وبسط لى الميدان وأكسبنى الحافز .

وفرويد هو بعد ذلك المفكر الأساسى بين السيكلوجيين . فإنه حط على الحقيقة الأولى وهى الكظم العام للشهوة الجنسية وما يؤدى إليه من اضطرابات شخصية . وهو حين يجعل هذه الشهوة حافزاً أولياً للنشاط البشرى لا يعدو الحقيقة فى عالم الحيوان كله . ثم هو حين يعلق مستقبلنا الأخلاقى والمزاجى والعاطفى على السنين الأولى من الطفولة إنما يوضح حقيقة بل أكبر الحقائق فى مبادئ التربية وقيمة العائلة الحاسمة فى التوجيه الاجتماعى الصحيح .

وأخيراً هو الذى جعلنا نعرف أننا نسير فى هذا العالم بقوة العواطف المستترة فى الكامنة أكثر مما نسير بقوة الوجدان اليقظ الذى ندرى به ما نفعل . فنحن نحب ونكره ، ونخاف ونشجع ، ونشمئز ونقبل . بعواطف اندست فى كامنتنا منذ الطفولة ونكاد لا ندرى بها إلا بعد التحليل الشاق .

فقد يحب أحدنا فتاة ويتزوجها على اعتقاد أنه يحبها لأنها جميلة أو وديعة ، أو أن عينيها ساحرتان أو غير ذلك . وهو إنما أحبها لسبب طفلى هو أنها تشبه أمه أيام كانت تحمله على صدرها للرضاع . أو هو قد يكون مدللا نشأ على إحساس الحاجة إلى الأم ، وقد وجد فى هذه الفتاة رعاية الأم لأنها أكبر سناً منه . فهو يستجملها لهذا السبب . أو هو وجد فيها كبرياء وتسلطاً وهو « مازوكى » يحب أن يتألم ، فهو يحبها لأنه يحس فى جانبها أنه ذليل (وأيضاً محمى) . أو قد يكون عكس ذلك . أى أنه سادى يحب إيقاع الأذى والقسوة بغيره . فهو يختارها صامتة منكسرة أو ضئيلة الجسم ، لأن انكسارها وضآلتها يشبعانه ويزيدان إحساسه

بالقوة . أو قد يكون شاذًا ، فهو يحبها لأنها تشبه الصبيان والشبان .

وقد يكره أحدنا بعض الأطعمة ، بل لعله يشمئز من رؤيتها بحيث يكاد يعتقد أن هذا الاشمئزاز « طبيعي » . وهو إنما يردد فى نفسه ظرفاً معيناً سابقاً أو أسلوباً للعيش قد تعلمه فى طفولته .

وقد نجد شخصاً له « إرادة حديدية » لا يتراجع ولا ينحرف عن هدفه مهما اعترضه من صعوبات وكأنه معجزة عجيبة فى التزامه هذا الهدف وفى توفيقه بتحقيقه . وحقيقة أمره أنه لظروف سابقة معينة قد تخيل هذا الهدف وتجسم هذا الخيال الذى ربما يكون قد نشأ أيام الطفولة . ثم صار هذا الخيال يوجهه ، من حيث لا يدرى ، إلى هذا الهدف . ولبعض المجانين مثل هذه الإرادة الحديدية .

والإيحاءات المختلفة ، من أبوينا ومن المجتمع ومما نقرأ ومما نصادف فى شبابنا ، توجهنا وتعين لنا الحسن والقبيح . بحيث نعتقد أننا نحن الذين نعين هذا الحسن وهذا القبيح ، بل قد نتأثر بوحي أحلامنا ونحن نيام ونسلك فى الصباح وفق الرجوع التى أحدثها الحلم . ثم نبرر سلوكنا أو نسوغه بالمنطق .

وكل هذا يدل على أن ما نحسبه منطقاً فى سلوكنا إنما هو رجوع واستجابات لا شأن للمنطق فيها . ثم هو ، أى « فرويد » ، حين يوضح أن كلا منا ، أى « الذات البشرية » مؤلفة من ثلاثة أقانيم : أقنوم الإيد (id) وهو طبيعتنا الحيوانية وغرائزنا البدائية الكامنة ، ثم أقنوم الإيجو وهى شخصيتنا الوجدانية الاجتماعية التى ندرى بها ، ثم أقنوم السوبر إيجو وهو ضميرنا وما نتطلع إليه من شرف وبر وفضيلة — فى كل ذلك لا نستطيع أن نخالف فرويد .

وكذلك عندما يوضح لنا أن ضميرنا إنما يرجع فى الأصل إلى مجموعة

المحظورات التي تعلمناها منذ الطفولة ، نضطر إلى التسليم بقوله :

بل كذلك أيضاً لا نستطيع أن نخالفه حين يقرر أننا فى الطفولة نحس دوافع لذية مبهمة تتفاوت بين القوة والضعف ، من الغرام الصريح إلى الحب الأفلاطونى .

كل هذا قد سلمت به وانتفعت به فى مركباتى الذهنية ، ولكنى اضطررت إلى مخالفته فى أساس نظريته وهو مركب أوديب هذا . ذلك أن فرويد يعتقد أن الطفل يحب أمه حباً جنسياً ويجد لذة جنسية فى الرضاع والتمسح بجسمها . وهو يضطر إلى كظم هذا الحب خوفاً أو حياء من أبيه . وأن هذا الكظم يدور فى دورات مختلفة بعد ذلك فى نفسه وهو يفرج عنه ، بنشاط بدلى كالتسامى ، إلى إيجاد مؤسسات الحضارة أو إلى ألوان أخرى من الثقافة أو قد يمرض منه .

ولم أستطع أن أقنع نفسى بكل هذا ، ولكنى مع ذلك أسلم بالعواطف المركبة فى الطفل نحو الأب وهى حب وكراهة واحترام وعداء . . وهى تعزى فى بعضها إلى مركب أوديب . فإن الطفل يغار على أمه من أبيه غيرة أظنها غير جنسية أو هى إذا كانت جنسية فإن الإحساس الجنسى فيها ضعيف حتى لا يكاد يؤبه به ، أى أن مركب أوديب ليس ميزان النفس البشرية وليس أساس المركبات النفسية فى الشباب .

اختلافى هنا مع فرويد فى الدرجة كما هو فى الموضوع . فأنا أسلم بأن خيال الأم أيام الطفولة يلصق بالطفل سائر حياته حتى ليختار زوجته من طراز أمه . وهو ينظر إلى رئيسه الأعلى ومن دونه من الرؤساء نظرته الطفلية إلى أبيه .

ولكن إذا سلمنا بأن هناك دوافع جنسية بين الطفل وأمه فإننا يجب ألا ننسى ما هو أهم منها ، وأحرى بأن يكون الميزان الذى توزن به

السكينة أو الاضطراب النفسى طوال العمر . ذلك أن تعلق الطفل بأمه والتصاقه بها ، أيام الطفولة ، يجعله يحس نحوها بأنها مركز أمنه وطمأنينته وهى موئله ومكان استغاثته عند الخوف . ومركب أوديب فى هذا المعنى هو مركب الاحتماء من الخوف والخطر أكثر مما هو مركب الاشتهاء الجنسى .

والأم هنا تمثل المجتمع ، فإذا كانت قد أسرفت فى حماية طفلها فإنه ينشأ عاجزاً كارهاً للاقتحام ينشد السلامة مهما كانت وضيعة . . وإذا كانت قد أسرفت فى تقييد حريته فإنه ينشأ خائفاً ضائقاً بالصعوبات والأخطار الخفية . وهو ينشد من يحميه أو ما يحميه فى شخص كالزوجة أو الرئيس ، أو فى عمل مستقر قد يكون قليل الكسب .

ولما كانت حياتنا الاجتماعية الاقتصادية حافلة على الدوام بالأخطار ، غير مطمئنة إلى المستقبل ، يكثر فيها الإفلاس والتعطل وخوف المرض والموت والقلق على الوظيفة أو الأبناء ، وخوف الهزيمة فى الحب أو المباراة الاقتصادية العامة ، فإن القلق الذى يصيبنا من جميع هذه الحالات يتخذ الأسلوب الذى نشأ عليه مع الأم أيام الطفولة .

ولكن إذا كانت علاقة الأم بطفلها أو مركب أوديب ، قائمة على التوسعة للطفل فى مجال الحرية ، بحيث يتعود الجراءة ويقدم ويخترع اختراعاته الصغيرة ، فإنه عندما يكبر يستطيع تحمل الصعوبات ، بل يضحك من الأخطار ولا يخشى عليه من نيوروز أو سيكوز ، أى من مرض عصبى أو عقلى .

ولست أجد فى كل هذا تناقضاً مع بافلوف الذى يرد عاداتنا الذهنية وعقائدنا وأفكارنا إلى تلك الرجوع الانعكاسية الأولى أيام الطفولة ثم ما ينشأ منها من رجوع مكيفة أى معدولة عن أصلها . ويكاد الفرق بين

فرويد وبافلوف يكون سياثيًّا أو لغويًّا فى اختيار الكلمة وأسلوب التعبير .

ولكنى لست فرويديًّا من حيث إيمان فرويد بأن لنا غرائز ثابتة موروثة فى الرغبة فى العدوان أو الموت أو فى هذا الاتجاه الأخلاقى أو نحو ذلك ؛ فقد وصلت بدراساتى الاقتصادية إلى أن التربية وحدها : العائلية ، والاجتماعية ، هى التى تعين لنا عواطفنا من حب وكراهية واستلطاف . أو اشمئزاز وكفر ، أو إيمان وخضوع أو تمرد . وظنى أن هذا هو الفرق الأساسى بين فرويد وبافلوف : الأول يكاد يكون غريزيًّا مائة فى المائة والثانى يكاد يكون اجتماعيًّا مائة فى المائة .

وبكلمة أخرى أقول إن المجتمع يفرض لنا أسلوباً للارتزاق ، فيعين لنا بهذا الأسلوب ووسائله العواطف التى تسود نفوسنا من غيرة وتحاسد إلى تعاون وحب ، ومن مباراة تهدف إلى التفوق وتحمل فى غضونها ما يلابسها من إحساسات القلق ، وطينة تجمعنا فى وجهة موحدة نحو خير المجموع . وعواطفنا التى تحرك نشاطنا هى جميعها ثمرة هذا النظام الارتزاقى الذى يرتب لنا معانى الضعة والشرف والخسة والسمو . ولن نستطيع أن نفهم معنى الا نتحار أو الثأر والأمانة ، أو الخيانة الزوجية ، أو قوانين الزواج أو الطلاق ، إلا إذا رجعنا إلى تلك النظم الأصلية التى يرتزق بها الناس من صناعة أو زراعة . ونحو ذلك .

وأنا أعد نفسى ممتازاً على فرويد من هذه الناحية التى أعجب من إهماله لها . وهو إهمال خطير ، لأن سيكلوجية فرويد الغريزية تعد راكدة جامدة إلا من حيث إنها تدعو إلى التفريج كى يقل الكظم . ولكن هذه السيكلوجية الاجتماعية التى تعلل العواطف بنظام المجتمع تعد متحركة ارتقائية لأنها تنشد ترقية المجتمع لإيجاد العواطف البارة السارة . بل إن العلاقات الجنسية نفسها ، على ماتنبنى عليه من أساس طبيعى ، تتكيف بالمجتمع بحيث تكون سوية أو شاذة . لأن الشذوذ الجنسى العدوانى مثلا هو

اجتماعى فى أصله ، أو إذا كان هناك أساس طبيعى له فإن هذا الأساس لا يعلل أكثر من أربعة فى المائة من الاتجاه العدوانى . وكذلك الشأن فى مركز المرأة العاطفى من الرجل ، فإنها كما أثبتت « مارجريت ميد» «ليست على الدوام مطلوبة مغرية مزدانة كما هو الشأن فى مجتمعنا ، إذ هى قد تكون عكس ذلك كله .

وقد يزدان الرجل ويطلب من المرأة أن تغازله وتحاول استرضاءه واجتذابه . ومع أن المدارس « التحليلية » قد تعددت واختلفت أساليبها فإنها جميعها ترجع إلى فرويد ، ولا يكاد يوجد فيها إلا القليل الذى أوجده أدلر بما أسماه « مركب النقص » .

فرويد يعلق النشاط الذهنى والاجتماعى والفنى والدينى إلى « اللبيد» الجنسى الذى نشأ من الكظم السابق أيام الطفولة بحب الأم وكراهة الأب ، أى بمركب أوديب .

وأدلر يعلق هذا النشاط ، أو النشاط الشخصى على الأقل ، بالنقص الكامن الذى نشأ فى الطفولة ثم حرك عواطف تحفز وتوجه سائر العمر .

و « يونج» يعلق هذا النشاط إلى الطاقة الطبيعية ، أى الغرائز الأولى، وأيضاً إلى تراث العقائد والممارسات القديمة وكلمات اللغة والعادات البدائية كالسحر القديم . وهو يرى أن هذا التراث يحيا فى الكامنة من وقت لآخر .

لنفرض أن هناك كاتباً ثائراً نحاول أن نحلل ثورته التى ينشد منها الديمقراطية أو مكافحة الاستبداد . فإن من الواضح أن الناس ليسوا سواء فى فى تحمل المظالم أو فى الرغبة الحارة فى التغيير الاجتماعى، فلماذا اختص هذا الكاتب بهذه الدعوة ؟

فعند فرويد أن مرجع ثورته « مركب أوديب » لأنه كان يكره أباه وخاصة إذا كان هذا الأب قد أساء إليه فى طفولته واستبد به ، وهو حين يكبر يضع الوزير أو الأمير المستبد مكان الأب ويوجه إليه كراهيته وكفاحه .

وعند أدلر أن هذا الكاتب كان أيام طفولته يجد نقصاً فى جسمه ، أو شوهة فى وجهه ، وكان الخجل يحز فيه ويوجهه نحو التمرد على الرؤساء الذين أخذوا مكان المجتمع الذى كان يعيره أو يقف منـــه موقف التعيير أيام طفولته .

وعند يونج أن هذا الكاتب ورث روح البطولة وإحساس العدل من الثقافة البشرية العامة منذ نشأت الحضارات الأولى . فهو يمثل فى كفاحه دعوة دينية ونهضة شعبية كثيراً ما تكررت فى التاريخ البشرى . ومن هنا قيمة الأحلام ، وهى قيمة كبيرة عند فرويد ولكنها أكبر عند يونج ، ولا تكاد تكون لها عبرة كبيرة عند أدلر . وإنما يكبر يونج من قيمة الأحلام لأنها تبرز هذه الثقافات القديمة وقت النوم . فنحن نحلم كما لو كنا نعيش قبل عشرين ألف أو عشرة آلاف سنة ، أى نعيش فى بيئة الوحوش المفترسة والغابات المظلمة والكهوف الصخرية والفزع والفرار مع الاستعانة بما يشبه قواعد السحر القديم والكيمياء المنقرضة .

والحق أن فى الأحلام شيئاً كثيراً من هذا . وليس لنا الحق فى أن نرفض وراثة الأفكار أكثر مما لنا الحق فى أن نرفض وراثة الأعضاء . فإننا فى أيامنا ننزع إلى الإيمان بوراثة العادة ، كما كان يقول لامارك ، التى تعين وظيفة للعضو فى الجسم ، كما نرى فى طول العنق عند الزرافة أو الجمل . إذ أن هذا الطول نتيجة لمد العنق كى يصل كل منهما إلى الأعشاب . وكذلك الشأن فى الأفكار . فإنها بالعادة والتكرار تورث

وتعود كما لو كانت غرائز . وهذا الحلم العام الذى لا يكاد يخلو منه طفل ، وهو السقوط ، برهان على أن خوف السقوط من الشجر ، وهو كارثة كان يجب على كل أسلافنا أن يتقوها بألا يستسلموا للنوم العميق . هذا الحلم التحذيرى يدلنا ببقائه عندنا على أننا نرث الأفكار .

لقد كانت دراسة فرويد عندى بمثابة الخميرة التى تفشت فى ذهنى ، وكانت علة العشرات بل المئات من الرجوع الذهنية . فإنه هو الذى كان يحفزنى ، من حيث أدرى أو لا أدرى ، إلى دراسة المجتمع وكيف يجب أن نتقى الإجرام أو نعين أصول التربية أو نتقى الحرب أو نفكر فى الشئون الجنسية أو نقدر الثقافة أو نصف الشخصية الحسنة أو نحدد المعنى من الذكاء أو البلادة .

وقد ألفت كتابى « أسرار النفس » فى عام ١٩٢٧ وأنا متأثر بفرويد . ولذلك لا يتجاوز موضوعه « العقل الباطن » أى الكامنة أو العقل الكامن ولكنى عندما ألفت كتابى الآخر « عقلى وعقلك » فى عام ١٩٤٧ كنت قد تجاوزت فرويد إلى غيره من السيكلوجيين ، وإلى شىء من الاستقلال الفكرى الذى لم أكن أجرؤ عليه فى عام ١٩٢٧ .

والعالم المتمدن أسعد حالا وأهنأ فى عيشه بما حظى من التوجيه السيكلوجى الجديد على يد فرويد وتلاميذه . فإن فرويد حرر الأطفال من القسوة والخوف وأبرز القيمة الكبرى للحياة الطفلية الهانئة فى مستقبل العمر أيام الشباب والكهولة ، لأنه أوضح لنا كيف تعيش المركبات وكيف تنشأ الصعوبات التى ربما تؤدى إلى خيبة الشاب أو الفتاة أو إلى انتحار أحدهما بسبب الأخطاء التى تعرضنا لها أيام طفولتيهما ماضيا من أحد الأبوين . كما أنه أوضح لنا فداحة النتائج التى تنشأ من الكظم الجنسى . وقد عاد كثيرون ممن ذهب وجدانهم واضمحل تعقلهم لتغلب العقل

الكامن عليهم ، عادوا من ظلام الجنون إلى نور العقل بفضل التحليل النفسي .

وإنه لمما يؤلم جميع الذين انتفعوا بعبقرية هذا السيكاوجي العظيم أن يعرفوا أنه لم يستمتع بشيء من الرخاء الذى كان يمكن أن يخفف عنه الشيخوخة. فإنه عقب الحرب الكبرى الأولى خسر جميع ما ادخره من المال بسبب التضخم فى النقد . وفى الحرب الكبرى الثانية طاردته النازية حتى مات فى لندن بعيداً عن بيته ومدينته .

وتراثنا من فرويد هو « التحليل النفسي » وهو لا يمكن أن يموت وقصارى ما سوف يحدث أن تتغير الأسماء والعبارات ، لأن صميم التحليل النفسي هو الانتقال من الفكرة الكامنة المتسلطة بالعاطفة إلى الوجدان ، أى إلى الدراية . وحتى مع اتجاه السيكلوجية فى أيامنا إلى التجربة ، وهو اتجاه عظيم القيمة جداً ، فإن التحليل سيبقى مفتوحاً للنفس البشرية نفهم منه خباياها ونتعمق أسسها .

وقد ولد فرويد من أبوين يهوديين فى عام ١٨٥٦ ومات فى عام ١٩٤٠ منفياً مطارداً من وطنه فينا عاصمة النمسا . فإن النازيين الذين استولوا على النمسا طاردوا اليهود ، وكان فرويد على الرغم من إلحاده معدوداً بين اليهود .

وحفلت عواصم أوربا فيما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٤٠ بالمناقشات الحامية بشأن التحليل النفسي كما حفلت بالانشقاقات والخصومات ، مما دل على أن السيكاوجية الفرويدية كانت ولا تزال فى طور المذاهب . ولا ينقص هذا من فضل فرويد .

ولما نزل فى هذا الطور لم نستقر . ولكن فرويد كان ، كما قلت ، بمثابة الخميرة التى بعثت سلسلة من الأفكار لما تنته حلقاتها ، وهذا هو أكبر فضله فى تربيتى .



# إليوت سميث
# وأصل الحضارة

حين أتأمل الشخصيات العظيمة التي أثرت في حياتي تغييراً أو توجيهاً، وأبحث القوة الجذبية التي جذبتني إليها ، أجد أنها ثلاثة طرز :

فأما الطراز الأول فهو أولئك الذين تتسم حياتهم أو مؤلفاتهم بغلواء حين يحيون أو يفكرون على القمة والذروة . فهم نيتشه في جنونه المقدس، يحيل حياته إلى مغامرة فلسفية ويدعونا إلى أن ننسلخ من رواسب الخرافات الماضية ونتولى بأنفسنا مصير مستقبلنا . وهم دستوفسكى في غلواء الحب الغامر للبشر ، والإحساس الديني الذي تتذبذب به أوتار نفسه . وهم غاندى الذي يكافح إمبراطورية سوداء بكلمات عذبة من الطهر والشرف فيخجل منه العالم ويسلم باستقلال الهند .

وأما الطراز الثاني فهو أولئك الذين أعطوني منهجاً للحياة . فهم

جيته الذى عاش طالباً مدى حياته يزيد وجدانه بالتوسع فى الثقافة والزيادة من الاختبارات ويشتغل بالسياسة والأدب والعلم والفنون . وهم برناردشو يجعل من أدبه كفاحاً للظلم والاستبداد والدناءة والقبح وهم « هـ . ج . ولز » يرفع الصحافة إلى مقام الفاسفة ، فيدرس شئون العالم إلى تدين بشرى جديد كأنه إحساس يغمر قلبه وعقله .

وأما الطراز الثالث فهم أولئك الذين أعطونى المعارف الخصبة أو الأفكار الحوامل . مثل فكرة التطور التى أحدثت لى مركبات ثقافية كأنها العقدة النفسية فى المريض تدأب فى تفرع . ولكن مع التسلل والتستر . ولقد استطاعت هذه الفكرة الداروينية أن تجعل حياتى جميعها استطلاعاً دائماً . وهم فرويد الذى حملنى على دراسة العشرات من الكتب ، وهم « إليوت سيميث» الذى فتح لى من أبواب التاريخ البشرى مالا أزال أنفذ منه إلى ميادين فسيحة من الفهم والعلم .

هؤلاء علمونى . . أكسبونى ، بالحياة الغالية التى عاشوها على القمم إيحاءات كأنها صلوات بالقلب . أو أعطونى منهجاً أعيش به عيش الخدمة والكرامة والشرف مع الرضى بالتضحية . أو غرسوا فى ذهنى غراساً صالحة تنمو وتتفرع كأنها نبت ينير خلايا المخ ويسطح أنواراً تقشع ظلام الجهل .

* * *

التاريخ هو فى صميمه درس العوامل الجغرافية والاقتصادية التى أثرت وغيرت المجتمعات البشرية التى عاشت فى بقعة معينة من الأرض . وتاريخ مصر هو جغرافيتها ، هو زراعتها التى أوجدت مجتمعاً مستقراً يثبت فى مكانه ثبات الزراعة فى الأرض .

وليس لأمة تاريخ مالم يكن هناك تفاعلات اقتصادية بين الأفراد بحيث تؤدى هذه التفاعلات إلى إيجاد مؤسسات مثل المحاكم والمعابد ونحوهما . أما مادام ليس هناك مؤسسات ، كما هى الحال بين الأسكيماويين حول القطب الشمالى ، فإنه لن يكون هناك تاريخ .

ثم مادام كل فرد يكسب لنفسه وأولاده فقط ، ولا يستطيع أن يريد ، فإن المجتمع لن يستطيع أن يدخر مقداراً من المال لإيجاد هذه المؤسسات الاجتماعية التى يحتاج إليها . ولذلك ليس عند الأسكيماويين حكومة لأنه ليس هناك فائض من كسب الأفراد يكفى لإيجاد مجموعة المؤسسات التى نسميها حكومة . ولذلك أيضاً ليس لهم تاريخ .

وقد كان الإنسان قديماً يعيش فى الغابات كما لا تزال تعيش القردة العليا . وكان يجمع طعامه ولا ينتجه . والفرق عظيم جدًّا بين الجمع وبين الإنتاج .

فإن البشر ينتجون طعامهم هذه الأيام ، ولذلك بلغوا ٢٣٠٠ مليون . فى حين أنهم كانوا لا يزيدون على أربعة أو خمسة ملايين حين كانوا يجمعون الطعام من الغابات جمعاً ، أى يلتقطون الثمرة البرية أو يقتلعون الجذور الطرية أو يصيدون الوحش أو يأكلون الحشرات والزواحف وسائر الحيوان .

ولكن ليس الفرق بين الجمع والإنتاج كميًّا فقط . لأن هذا الفرق هو فى صميمه فاصل بين الإنسان البدائى الساذج الجوال ، وبين الإنسان المتمدن المستقر الذى عرف الزراعة أى عرف الإنتاج .

وهنا قيمة إليوت سميث .

* * *

كان إليوت سميث أستاذاً للتشريح فى كلية ( مدرسة ) قصر العينى

قبل نحو أربعين أو خمسين سنة . وقد تعلم على يديه كثير من أطبائنا مثل على إبراهيم وجورجي صبحي وأحمد شفيق . وكانت له هواية إلى جنب الحرفة ، وكان ، كما هو المألوف ، يهتم بهوايته وبحرفته . بل انتهى فى أخريات حياته إلى احتراف الهواية .

وهذه الهواية هى تاريخ مصر .

ولكنه لم يكن يدرس تاريخ مصر كى يتعرف على تاريخ مصر ، وإنما كان يهدف إلى درس تاريخ الحضارة البشرية فى العالم كله عن طريق الدرس لأصول الحضارة المصرية التى انتشرت حول ضفتى النيل فى العشرة آلاف سنة الأخيرة .

واستطاع أن يثبت أن مصر هى أصل الحضارة للعالم كله ، وليس ذلك لأن أسلافنا كانوا أذكى من سائر البشر ، وإنما لأن جغرافية بمصر قد تفاعلت مع الإنسان المصرى بما لم يتفاعل أى وسط آخر مع الإنسان ، فكانت النتيجة ظهور الحضارة فى مصر .

وبهذه النظرية نقل إليوت سميث دراسة الحضارة من تعدد الأصل إلى وحدته ، كما سبق أن فعل داروين حين رد الأحياء إلى أصل واحد وأصبحنا نتتبع تطور الحضارة وتنقلها من قطر إلى آخر عن سبيل الكلمات والآثار والعادات الفرعونية .

ولهذا الرأى الجديد مدرسة يعد تلاميذها بالألوف ، ولا تقل المؤلفات فى تأييد هذا الرأى عن ثلثمائة كتاب فى لغات مختلفة .

وقد كانت مؤلفات إليوت سميث عندى انبلاجاً ذهنياً قادنى إلى دراسات مختلفة ، كما أثمر مركبات ثقافية ما زلت فى اشتباكتها . وقد ألفت كتابى : « مصر أصل الحضارة » وأنا فى غبطة الفرح بهذا الفهم الجديد للدنيا والبشر .

ولا يعدل هذه الغبطة عندى سوى اهتدائى إلى نظرية « التفسير الاقتصادى للتاريخ » . وهى النظرية التى جعلت التاريخ علماً يقاس ويوزن ، وليس روايات لذيذة أو مصادفات غير معللة . والحق أن نظرية الأصل المصرى للتاريخ البشرى كله تستند فى أساسها إلى العوامل الاقتصادية ، وأهمها هذا النيل الذى يروى الوادى فينتج الزرع .

* * *

وبؤرة البحث عند إليوت سميث تنحصر فى أن الإنسان البدائى الذى كان يجمع الطعام جمعاً من الغابات رأى فى مصر على توالى السنين أن فيضان النيل يعم الوادى فى مواعيد معينة كل عام ، حتى إذا انحسر انطلقت النباتات وكست الأرض بالخضرة النضرة التى كان يجد فيها طعاماً كما كان يجد فيها صيداً لوفرة الحياة الحيوانية . ففهم بالتكرار أن الماء هو أصل الحيوية ، وهو أصل النبات ، فشرع يحتجز الماء هنا ويطلقه هناك ، ويضبط الرى . وهذه هى الهندسة الأولى .

وظهر عندئذ التخصص : مهندسون ينظمون الرى وفلكيون يعينون الأوقات الزراعية . وهؤلاء لا يزرعون وإنما يعيشون بالفائض من المحصول . وهنا تنشأ الحكومة التى يرأسها مهندس أو فلكى تنسب إليه صفات الألوهية لأنه يدرى مالا يدريه غيره من الهندسة أو الفلك ، وهو يعيش كأنه ملك بل ملك يطاع . فإذا مات أصبح قبره معبداً ، كما نرى فى عصرنا كيف يميز العامة الممتازين بأضرحة يتبركون بها ويزورونها .

. . وأرض مزروعة تحتاج إلى حدود تحترم من الجيران ، وإلى أوصاف تعين للزراعة ، وإلى محكمة تعاقب المعتدى على الحدود أو المحصول ، وإلى صناع يصنعون الآلات الزراعية . وكل هؤلاء لا يزرعون . فنشأ من ذلك الحكومة والتجارة والفنون . وهذه هى الحضارة .

ثم يموت العظماء فتنشأ الأضرحة العظيمة التى تستحيل إلى معابد . وهذا هو الدين البدائى .

ويجب ألا ننسى هنا أن كلمات القمح والبر والحنطة هى جميعاً فرعونية وذلك لأن أسلافنا هم الذين زرعوها لأول مرة فى التاريخ وعينوا أسماءها ، ولعله كانت هناك فروق بين بذور القمح أدت إلى تعدد هذه الأسماء .

والزراعة هى الأساس الأول الذى نبتت عليه الحضارة الأولى . أما قبل الزراعة فلم يكن هناك غير التجوال للبشر ، بلا ثقافة غير المعارف القليلة الخاصة بالصيد والتقاط الثمار واقتلاع الجذور .

فالزراعة أوجدت الاستقرار بدلا من التجوال ، وبسطت الآفاق لثقافة الفنون والعلوم ونظام الحكم .

* * *

وإلى هذا نفهم كيف نشأت الحضارة الأولى فى مصر . وبقى علينا أن نعرف كيف خرجت من مصر إلى سائر العالم .

وقد استطاع إليوت سميث أن يكشف لنا عن أسرار النفس البشرية ، أو بالأحرى يهتدى إليها عن طريق البحث فى انتقال الحضارة المصرية الأولى إلى أقطار العالم المختلفة .

فهو يوضح لنا أن غاية الإنسان البدائى أن يطيل عمره وأن يتقى الموت . ونحن نعرف من التحنيط أن المصرى القديم كان يعتقد فى سذاجة أنه مادامت الجثة قد حنطت واستحالت إلى موميا متقنة فإن الحياة ستمتد بها فى العالم الآخر .

وكان التحنيط يحتاج إلى بعض المواد النباتية والمعدنية من الأقطار البعيدة ، وهذه المواد كانت تقف الفساد فى الجثة كما تكسبها عطراً حسناً.

وتنقل المصريون فى جلب هذه المواد ونقلوا معهم حضارتهم إلى أقطار بعيدة، وخاصة عندما نعرف أن بعض البعثات المصرية كان ينقطع بها الطريق فلا تعود بل تبقى فى قطر ناء بين شعب غريب بدائى لا يعرف الزراعة فتنقل هذه البعثة إلى هذا الشعب الفنون المصرية، وتعيش هناك إلى الأبد .

ومن هنا نعرف لماذا وجد تمثال الرب آمون فى روسيا بالقرب من جبال أورال . ولماذا عبد رب الشمس فى مكسيكا ، كما عبد فى مصر ، من حيث إحاطته بالثعبان . ولماذا حنطت الجثة فى أمريكا على الطريقة المصرية . ولماذا وجدت الأهرام فى إيطاليا والسودان . ولماذا توجد فى اللغة الفنلندية كلمات فرعونية . ولماذا ترجع أبجدية الخطوط فى جميع اللغات إلى الهيروغيليفية المصرية . ولماذا يعمم التقويم المصرى (الشهور والأيام ) أوربا بل العالم كله إلى الآن ، ولماذا بنيت المعابد وذكرت الأساطير على الطريقة المصرية . بل لماذا يوصف إمبراطور اليابان بوصف الفراعنة ، ابن الشمس ، أى ابن رع . وأخيراً لماذا تكون الحبوب الأولى التى يأكلها الإنسان ولا يزال يأكلها مصرية الاسم كما سبق أن ذكرتها وهى : قمح ، بر ، حنطة .

وفى مصر يسمى الأقباط أسقفهم أحياناً باسم إيسذوروس . وفى أوربا تسمى المرأة باسم إيسيدورا . ومعنى الأسمين « عبد إيسيس » أى الربة إيسيس . وكهنة مصر الآن هم ورثة الكهنة أيام الفراعنة . وكانت شارة الكاهن المصرى القديم ذلك الثعبان الذى كان يحيط بالرب رع . وهو – أى الثعبان – لا يزال شارة الأسقف القبطى . وهو يرى على رأس عصاه إلى الآن .

ولكن لما كان الكاهن المصرى طبيباً وساحراً أيضاً ، فإن الثعبان هو الآن شارة الطبيب فى أوربا . وفى اللغة العربية لا يزال معنى الطب هو : السحر : الكهانة .

بل هناك إشارات صغيرة تدل على تسلسل الثقافة الفرعونية من منف وطيبة إلى باريس ولندن . اعتبر قول الأوربيين « يوم أحمر أو ليلة حمراء » للدلالة على أوقات السرور والقصف والاحتفال . ونحن نقول فى مصر « ليلة حمراء » فى هذه المعانى أيضاً . والأصل هو عادة أسلافنا فى كتابة أيام الأعياد بمداد أحمر . والعيد قصف ولهو .

هذه الثقافة المصرية القديمة التى تفشت فى العالم القديم لم يكن من الضرورى أن يكون القائمون بها مصريين ، لأن البعثة المصرية التى وصلت إلى الصين مثلا حيث تركت التمساح وجعلت تمثاله شعاراً للصينيين ليست هى التى ذهبت إلى أمريكا وأوجدت التحنيط وعبادة الشمس التى تحيط بها هالة الثعبان . لأن هذه البعثة التى ذهبت إلى أمريكا كانت فى الأغلب هندية أو صينية أو جاوية قد تأثر أفرادها بالثقافة المصرية .

وأذكر البقرة هاتور المصرية ، وأذكر تقديس البقرة فى الهند ، وأذكر أيضاً ملوك إفريقيا المتوحشين ، وكيف يضربون الجهات الأربع بالقوس كما كان يفعل الفراعنة عندما كانوا يتولون العرش رمزاً إلى الاستيلاء على العالم .

بل أذكر أيضاً دعوى الحق الإلهى لملوك أوربا ، وهى الدعوى التى كافحتها الشعوب الديمقراطية . ولا ننس دعوى الألوهية عند الفراعنة . بل هناك ما يرجح أن معظم الأسر المالكة فى العالم يرجع إلى أصل فرعونى ، وذلك لأن كل بعثة كانت تخرج من مصر لجلب المواد والطيوب للتحنيط كان يرأسها أحد أفراد أسرة فرعون ، فإذا لم ترجع البعثة صار هذا الفرد ملكاً على البقعة التى كانت تحتلها بعثته حتى إذا استقر العرش الجديد خرجت بعثة أخرى . إلخ .

ولم يكن التحنيط الباعث الوحيد لهجرة المصريين إلى الأقطار

البعيدة . فإن الإنسان المصرى الذى كان يرغب فى بقاء حياته بالتحنيط ، كان أيضاً يحب أن يطول عمره على الأرض قبل التحنيط . فكان يجمع الودع ويحمله للمشابهة العظيمة بين الودعة وبين عضو التناسل فى المرأة ، ذلك أنه كان يعتقد أن هذا العضو هو أصل الحياة ، ومن هنا هذا الاشتقاق العربى وهو « الحياة من الحيا » أى عضو التناسل فى الأنثى . ثم صار أيضاً يجلب الذهب ويصوغه ودعاً لجماله . ثم نقل ميزة الودعة إلى الذهب . فصار الذهب يطلب لذاته لأنه يطيل الحياة مثل الودعة ، بل صار الذهب إكسير الحياة .

الذهب حجر الفلاسفة ، الذهب أصل النقود ، كل هذا من الاعتقاد المصرى القديم بأنه ، أى الذهب ، يطيل العمر .

ثم أذكر بعد ذلك الكيمياء التى نشأت من الرغبة فى إحالة المعادن إلى ذهب . بل ماذا أقول : إن كلمة كيمياء نفسها مصرية وهى خيمى أو كيمى ، أى مصر ، أى الأرض السوداء . والكيمياء هى«العلم المصرى».

وبعد الذهب صار الإنسان المصرى يجلب الأحجار الكريمة اعتقاداً بأنها تطيل العمر . وما زلنا فى مصر نشفى العين العليلة بتعليق حجر عليها أو فوقها . . . وما زلنا ننشد البخت بضرب الودع ، وكلمة « المرجان » تنطوى على معنى الحياة الطويلة فى الفارسية .

وإطالة أعمارنا على الأرض بالذهب والأحجار الكريمة ، وإطالة أعمارنا بعد الموت بالتحنيط ، كلتاهما دفعت الإنسان المصرى إلى الهجرة إلى الأقطار النائية . فتفشت الحضارة المصرية بهذه الهجرة فى أنحاء العالم وأخرجت الإنسان من التوحش وجمع الطعام من الغابات إلى التمدن وإنتاج الطعام بالزراعة . والزراعة أوجدت الحكومة ، والدين ، والفلك ، والحساب ، والهندسة ، والبناء ، والقانون .

* * *

نشأ الدين البدائي فى مصر وكانت غايته استبقاء الحياة بعد الموت بتحنيط الجثة . فإذا كان الميت عظيماً صار إلهاً بعد موته . فلما عرفت الزراعة أصبح للدين مهمة أخرى هى إخصاب الأرض وإنتاج المحاصيل. وإلى عصر الإسكندر بقى هذا التفكير البدائى حتى إن كهنة مصر قد حالوا الإسكندر إلى إله . وقرن آمون لا يزال منقوشاً على النقد الإغريقى الباقى من أيامه . ولا يزال الكهنة يباركون على الزراعة فى أوربا إلى الآن .

ومن الممارسات الدينية الباقية نعرف الكثير من نشأة الدين المصرى القديم . فإن البخور كان يطلق على تمثال الميت كى يكسبه رطوبة وعرقاً كأن الحياة قد عادت إليه .

وقد نشأت الفنون من هذه الثقافة الدينية القديمة . فإن التمثال صنع أولا كى تلجأ إليه الروح إذا كان الجسم قد فسد. والرسوم التى تروى لنا حياة الميت قد احتاجت إلى الرسامين والمعبد ، وهو فى الأصل الضريح الذى احتاج أيضاً إلى البنائين والنحاتين .

وجميع الفنون الحديثة ترجع إلى بؤرة مفردة هى الضريح المصرى ومركباته السيكلوجية . ورسم الميزان للعالم الآخر مألوف لا يخلو منه معبد ، وهو يعين الجنة التى تحوى الشجر والثمر للبررة ، كما يعين جهنم التى تحوى النار للفجرة . ومن هنا ظهر معنى العدل .

بل إن تحنيط الميت هو الأصل فى توبلة الطعام . لأن الملح والطيب والأفاويه التى كان يحتاج إليها الميت صارت تستعمل فى الطبخ كى يطيب الطعام ، ومن هنا كان القول العامى المألوف فى أيامنا أن الطعام « محنط » أى متوبل .

ودراسة التاريخ المصرى القديم هى دراسة البدايات ، بداية الزراعة وبداية الصناعة ، وبداية الحضارة والثقافة . وإن الغيبيات التى سادت

الأذهان البشرية نحو ستة آلاف سنة لتتكشف واضحة الأسس مفهومة البناء عندما ندرس الضريح المصرى .

* * *

لم أكن أنبعث فى دراساتى للفراعنة بباعث وطنى ، ولم يكن لفتوحات تحتمس ورمسيس وأمثالهما ذلك الوقع الذى يحسه أولئك الذين يستخدمون التاريخ لإشعال الوطنية . بل كذلك لم تكن دراسة التاريخ عندى محض السرد القصصى والتراجم والحروب. وظنى أنه لو لم يكن وراء دراسة الفراعة هذه النظرية القائلة بانتشار الثقافة من بؤرة الضريح المصرى لما كان التفانى يزيد على المطالعة العابرة .

ولكن هذه النظرية كانت تحوى العديد من المركبات الثقافية التى جذبتنى وحملتنى على التفطن لأصول الحضارة ، ومن هنا إغراؤها القوى لاستمرار الدراسة . وإحساسى نحو الفراعنة هو لذلك بشرى وليس وطنياً .

ولقد قرأت « فجر الضمير » للمؤرخ الأمريكى «بريستد» . وهو يشيد بالأخلاق العالية للمصريين قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة . بل إنه يقارن بين الأخلاق التى دعا إليها موسى فى الوصايا العشر وبين الأخلاق المصرية فيقول بأفضلية هذه على تلك ، ويضرب المثل بأن موسى قد حرم الشهادة بالزور فقط ولكن المصريين قد حرموا الكذب إطلاقا . والكذب بالطبع يشمل شهادة الزور ، ولكن ليس العكس كذلك .

ولكنى ، أنا المصرى ، أحس أنى أبعد ما أكون عن هذا الإحساس .

يجب أن ندرس التاريخ بالروح البشرى ، وأن نذكر أنه إذا كانت مصر قد أنشأت الحضارة الأولى فإن الفضل فى ذلك يعود إلى النيل الذى قهر المصرى على أن يتعلم الزراعة لمواظبة فيضانه ولانبساط

الوادى ، وليس لذكاء فذ فى أسلافنا .

* * *

والحضارة عالمية قد أسهم كل شعب بنصيب فيها . وإذا كان للمصريين فضل الاختراع للكتابة فإن للهنود فضل الاختراع للأرقام ، وما كان يمكن أن تكون هناك نهضة علمية لولا هذه الأرقام الهندية . ولولا الإغريق لما انفصلت الحقائق الفنية والعلمية عن « المعارف » الدينية أى ما كان يمكن للمنطق أن يتغلب على العقيدة . ولولا الإمبراطورية الرومانية ثم الإمبراطورية العربية ، لما تعارفت الشعوب هذا التعارف الذى انتهى بوجداننا البشرى الحاضر .

ومع أنى قد قرأت فى هذه النظرية وارتباطها نحو خمسين أو ستين كتاباً فإنى ما زلت فى اشتباكاتها أترصد مكتشفاتها الجديدة فى جميع أنحاء العالم . وأحس بأواصر الأجيال الماضية التى تربطنا نحن المصريين بكافة البشرية .



## هافلوك إليس
## والزواج الانفصالى

مات « هافلوك إليس » قبل الحرب الكبرى الثانية ، ووصفته إحدى المجلات الأوربية الكبرى حينئذ بأنه كان أعظم رجل متمدن فى أوربا .

وأنا أحاول هنا أن أروى للقارئ تاريخ حياته ، ووصف مؤلفاته ، كى يستخرج العبرة من هذا الوصف . لأنى أعتقد أن عندنا فى مصر من يخالف هذا الرأى ، فيحكم بأن هافلوك لم يكن متمدناً وإنما كان متوحشاً . وأنه لم يعش الحياة الصالحة . وإنما هو أفسد حياته بل حياة زوجته . والواقع أن شيئاً من هذا الفساد قد وقع لزوجته . . . ولكن ليس هناك ما يدل على أن أسلوب الحياة الذى اتخذه هو الذى أدى إلى هذا الفساد ، وإن كان هناك شبهات تبعث على هذا الظن .

وإذا أنت سألت عن هافلوك إليس فى إحدى المكتبات بالقاهرة عرفت

أنه معروف مشهور بمؤلفاته الجنسية . وهى محوسنة مجلدات ضخمة هى أدب وعلم وفلسفة ، تحس وأنت تقرأها أن كاتبها رجل فن وعلم وفلسفة. وهو يكتب بأسلوب مكين قد أحكمت عباراته كما نقيت من الزوائد . وهو كثير الإشارة إلى أقوال الفلاسفة من الإغريق القدماء إلى الأمريكيين المحدثين . وهو لا يرتجل الفكرة ولا يلتزم مذهباً . وإنما يزن الآراء ويعرض لها فى إسهاب شرحاً ونقداً . ثم ينتهى إلى الخلاصة التى يستقر عليها ويدعو إليها .

وهذه المجلدات الستة عن الشئون الجنسية هى أروع ما كتب عن هذا الموضوع فى لغة من لغات العالم . وإنك لتعجب حين تقرأ له فصلا واحداً عن البغاء . إذ تدهش لما يروى لك عن تاريخه فى الأمم القديمة والحديثة ، وعن قيمته ومكانته من الحضارات المتعاقبة ، وعن أقوال القديسين المسيحيين الذين أيدوه ، وعن القوانين العصرية التى تناولته . وحبذا لو قرأ هذا الفصل ودرسه أولئك الذين عملوا لإلغاء البغاء فى مصر ، ولكن نكبة الساسة فى مصر أنهم لا يدرسون الكتب الأوربية المنيرة .

كان هافلوك إليس من الرواد الذين شقوا الطريق وبسطوا الآفاق لهذه الدراسات قبل فرويد . فإن نشاطه العلمى كان فى ذروته فيما بين عامى ١٨٩٠ و ١٩٢٠ . وهناك فرق أصيل بينه وبين فرويد ، ذلك أن هافلوك إليس كان يبحث الشئون الجنسية من حيث إنها نشاط سليم يتصل بالأصحاء من الناس ، ويبحث أثرها فى حياة الشبان العزب والمتزوجين وفى الحياة العائلية وتربية الأطفال ومكانها فى الحضارة ، أما فرويد فيبحث النشاط الجنسى من ناحية المرض لا الصحة .

وقد كان فيما بين عامى ١٨٩٠ و ١٨٩١ يرأس تحرير سلسلة من الكتب العلمية التى تتناول المجتمع بالبحث العلمى وتضم مجلدات تبحث

الإجرام وأخرى تبحث المشكلة اليهودية وأخرى تبحث الوراثة . . . إلخ .

كما أن له مؤلفات يكفى ذكر أسمائها كى نعرف أن موضوعاتها أدبية ، مثل رقص الحياة . وروح أوربا .

وهو فى كل ما يكتب يمتاز بالنضج والإحاطة والنزاهة ، إذ هو لا ينتسب إلى حزب أو طائفة ولا يدافع عن مذهب . وإذا نحن اتهمناه بالغرض أو بشىء منه فإن هذا الاتهام ينحصر فى إكباره من شأن النظرية العلمية ، وهو هنا يعذر فإنه عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وامتد نشاطه إلى الثلث الأول من القرن العشرين . وكان الإيمان بالحضارة والرقى يعتمد أكبر الاعتماد على العلم . فإن الأمم الأوربية طوال القرن التاسع عشر كانت على اقتناع بأنها قد اهتدت عن طريق العلم إلى مفتاح يفتح لها جميع الأبواب المغلقة ، وأن سعادة الإنسان وقوته وصحته وثقافته كلها ترتبط بالعلم .

وقد نشأ طبيباً . ولكنه لم يمارس الطب لأنه قنع بالتأليف وقضى معظم حياته وهو فى فقر لم يشك منه . ولكن المتأمل لسيرة حياته التى كتبها بنفسه يحس الضيق الذى كان يعانيه . فإنه كان يسكن مسكناً وضيعاً ويطبخ طعامه بنفسه ، إذ لم يكن يكسب من قلمه ما يكفى لتناول طعامه فى المطاعم أو يمكنه من استخدام خادم . ولكنه فى السنوات الأخيرة من عمره تمكن من الاتصال بإحدى الصحف الأمريكية التى كانت تستكتبه مقالا أسبوعيًّا عن شئون أوربا ، وقد صرح بأن الأجر الذى كان يتناوله عن هذه المقالات كان يزيد أضعافاً على ما كان يحصل عليه من التأليف والصحافة معاً فى بريطانيا .

ومع أنه قد مات منذ أكثر من عشر سنوات فإن مؤلفاته ماتزال تقرأ وتجد الأنصار والخصوم لحيويتها ، حتى لقد قرأت هذا الأسبوع

إعلاناً عن كتاب جديد ينشر له فى الولايات المتحدة ويقول الناشر إنه لم يسبق نشره .

وفى كل ما ذكرنا لانجد شيئاً فذاً أو شاذاً فى حياة هافلوك إليس ، إذ هو مؤلف أو صحفى مثل سائر المؤلفين أو الصحفيين . وإن كان يمتاز عنهم بأنه جاد مثابر نزيه مفكر متبصر ، وليست هذه الصفات عامة بين من يؤلفون أو يكتبون للصحف .

ولكن ميزته الأصلية أنه اتخذ أسلوباً معيناً فى عيشه لم يتخذه غيره . وهذا الأسلوب هو الذى حفزنا إلى كتابة هذا الفصل كى ننبه القارئ المصرى إليه . ولسنا نشك أنه سوف يجد التقبيح والازدراء من تسعين فى المائة من القراء كما قد يجد الاستحسان من عدد قليل . ولكن ليس هذا غرضنا . إنما نحن نقصد إلى أن نوضح العوامل التى أدت إلى اتخاذ هذا الأسلوب وتقديره فى الحضارة القائمة .

فقد عرف هافلوك إليس فتاة إنجليزية تدعى الآنسة « إديث ليز » قبل نحو ستين سنة . وكانت هذه الفتاة من أولئك الفتيات الجديدات اللاتى كن يسمين فى إنجلترا باسم المرأة الجديدة ، وقد كن منذ عام ١٨٩٠ أو قبل ذلك يدعون دعوات جريئة مثل التعليم الجامعى للمرأة ، ومثل حقوق الانتخاب للمجالس النيابية ، والمساواة الاقتصادية بين الجنسين ، وتولى الوظائف العامة .

وكانت إديث ليز أكثر إيماناً بهذه الحقوق وأكثر إسرافاً فى الدعوة إليها ، وكانت سكرتيرة لأحد الأندية النسوية فى لندن . وكانت تقول إن البيت على حالته الحاضرة — أى حوالى سنة ١٨٩٠ — هو طاحون تسخر فيه الزوجة فتعمل طول نهارها وبعض ليلها وهى مجهدة لا يتوافر لها الوقت للراحة أو الاستمتاع الاجتماعى أو الثقافى . وأن

هذا الكد المستمر فى البيت ، من حيث الاشتغال بالطبخ والغسل والكنس ، يمكن الا ستغناء عنه بأن نتناول وجباتنا فى المطاعم .

وأنه يجب على كل امرأة أن تؤدى عملا اجتماعياً بأن تحترف حرفة تكسب منها كما يفعل الرجال . لأن الاحتراف هو تربية دائمة لها ، وهو يكسبها المال الذى يرفعها إلى كرامة اقتصادية يحسبها الزوج فيحترمها. وهى حين تحترف تحس مسئوليات كبيرة لم تكن لتحس بها لو أنها كانت قد قنعت بالنشاط المنزلى فى الطبخ والغسل والكنس ، وأن الحرفة هى الوسيلة لتكوين الشخصية ، ولن تكون للمرأة شخصية إذا هى قنعت بأعمال البيت .

والحق أن هذه الآراء كانت عامة حوالى سنة ١٨٩٠ ، ولكنها كانت آراء فى الهواء ، إذ لم تكن تجد ما يدعمها من النظام الاقتصادى السائد وقتئذ ، لأن الرجال كانوا يستوعبون الأعمال ، ولم يكن هناك غير عدد صغير جداً من النساء اللائى كن يعملن ويكسبن .

ويجب أن أقول إن هذه الحال قد تغيرت فى أيامنا هذه ، فإن نحو عشرين مليون امرأة يحترفن الحرف التجارية والصناعية والمكتبية كالرجل سواء فى الولايات المتحدة . وليس هناك شك فى أنهن قد كسبن الشخصية التى أشارت إليها إديث ليز . ولم تتم هذه الحال الجديدة لدعوة نسوية ، وإنما لأن هناك قوات اقتصادية جديدة دعت إليها هى ، قبل كل شىء ، هاتان الحربان الكبريتان لأنهما لما جندتا للجيوش والمصانع الكثير من الرجال أكرهتا المجتمع الأمريكى ، بل المجتمعات الأوربية أيضاً على استخدام المرأة فى المصانع والمتاجر والمكاتب .

ومما زاد هذا الاتجاه قوة أن واجبات المنزل قد اختصرت بالمخترعات الجديدة . فإن الطبخ بالضغط وبالكهرباء قد جعل تهيئة الطعام عملا

لا يتجاوز دقائق بينما كان يستغرق الساعات قبل خمسين أو ستين سنة . والكنس الكهربائى ، وكذلك الغسل الكهربائى ، قد أصبحا فى ميسور أفقر العائلات الأمريكية والأوربية الغربية. بل إن التليفون قد أخذ مكان الخادم .

وإذا كانت المرأة الأوربية أو الأمريكية كانت تجد فى المنزل ما يشغلها طوال نهارها قبل خمسين سنة ، فهى لا تجد فيه ما يشغلها نصف ساعة فى اليوم كله. فهى من ناحية تجد أن الأعمال العامة خارج البيت تناديها وتقدم لها المرتب الحسن فى المتاجر والمصانع والمكاتب ، ومن ناحية أخرى لم تعد تجد فى البيت ما يغريها بالبقاء فيه أو يضطرها إليه .

فهذا الذى أبصرت به إديث ليز قبل نحو ستين سنة قد تحقق فى أيامنا . ولا بد أنها قد بصرت بهذه القوات الاقتصادية التى كانت تعمل فى الخفاء ، وتسرى فى المجتمع ، وتنقل المرأة من المنزل إلى المصنع . وهى فى دعوتها إنما كانت تعبر عن هذه القوات أو عن بوادرها الخفية كما كانت تحسها وتتوقع نموها .

كانت إديث ليز قبل نحو خمسين سنة تحلم بما تم فى أيامنا من الوعود الاقتصادية التى حققت استقلال المرأة وكونت شخصيتها .

وكانت آراؤها هذه تغرى أمثال هافلوك إليس بحبها والتعلق بها . وقد تعارفا ، وبقيا مدة غير قصيرة وهما يتعاونان فى الدراسة ويتبادلان فى عطف هذه الآراء التجديدية التقدمية . . . وكانت لندن تختمر فى تلك السنين بآراء تقدمية عديدة .

وتم زواجهما ، وهنا تبدأ قصتنا أو عبرة القصة التى قصدنا إليها حين قلنا إنه ، أى هافلوك إليس ، قد اتخذ أسلوباً معيناً من العيش .

ذلك أننا نفهم من الزواج أنه ارتباط مادى كما هو ارتباط روحى بحيث يعيش الزوجان فى منزل مشترك وإن لم يناما فى سرير مشترك ، يشتركان فى الراحة والنوم ، ويأكلان من مائدة واحدة ، ولهما اقتصاديات منزلية مشتركة .

ولكن هذين الزوجين كانا على نية الابتداع لبدعة جديدة هى الزواج الانفصالى ! فإنهما بعد انقضاء شهر العسل عاد كل منهما إلى منزله ، يتلاقيان بمواعيد ، ويشتركان فى سريرهما بمواعيد ، كأنهما عاشقان وليسا زوجين . ولم يكن هذا الا نفصال يرجع إلى ضعف أو نقص فى حبهما وإنما كان عن مبدأ . وهو أن كلا من الزوجين يجب أن يستقل بحياته وحرفته وسكناه وبرنامج يومه لا يفسد عليه ذلك زوجه الآخر .

أو بكلمة أخرى : نحن نرى فى الزواج حياة شاملة تحتوى على جميع التفاصيل الأخرى ، فى حين كان هذان الزوجان يريان فيه أنه بعض الحياة فقط ، وأنه يجب أن يترك الزوج حرًّا لا يتدخل الزواج فى تفاصيل حياته ولا يشملها إذ هو ، أى الزوج ، إنسان أولا له طموحه وآماله وحرفته وهوايته وملذاته . وهو يجب أن يجد الحرية كى يمارسها جميعها فى خلوة وفى استقلال لا يفسدهما عليه الزوج الآخر .

وقد عاشا على هذا الأسلوب أكثر من عشرين سنة يتزاوران كأنهما ضيفان . وفى كل عام يقصدان إلى قرية فى الريف أو إلى أية بلدة على الشاطئ للتشتية أو الاصطياف فيقضيان نحو شهر معاً فى بيت واحد . حتى إذا عادا إلى لندن استقل كل منهما بمنزله دون الآخر .

ومما يذكر أن غريباً لقيهما فى القطار فلم يعرف من حديثهما

أنهما زوجان ، إذ كان كل منهما يداعب الآخر ويلاطفه أو يناغيه وظن أنهما عاشقان .

على أن هذه السعادة « الزوجية » لم تدم . فإن الزوجة أحست هوى جنسياً استسلمت له . فأحبت شاباً ، ثم عادت فأحست انحرافاً فأحبت فتاة . وفسدت العلاقة الزوجية بسبب ذلك . ولكنهما لم يعمدا إلى الطلاق .

وهنا يعلل بعض القراء هذا الشذوذ الذى وقعت فيه الزوجة بأنه كان النتيجة المحتومة لهذا الانفصال .

واعتقادى أن هذا الا ستنتاج قد يكون صادقاً . فإن الرجل حين يعيش منفرداً معتزلاً للمرأة ، وكذلك المرأة حين تعيش منفردة معتزلة للرجل ، كلاهما يعود عرضة للشذوذ الجنسى . وخاصة إذا كانت هناك زعزعة نفسية سابقة كما نستطيع أن نستنتج مما حدث لهذه الزوجة المسكينة التى احتاجت — فى فترة من حياتها — أن تلجأ إلى مستشفى الأمراض العقلية .

الواقع أننا نجد فى أخلاق هذه الزوجة رعونة وتقلباً لا يدلان على عقل رصين متزن . فإنها احترفت الزراعة سنوات ، ثم احترفت النشر ، أى نشر الكتب ، وأخفقت فى العملين . وكان من رعونتها هذه أن طلبت الانفصال الشرعى ، وهو فى إنجلترا دون الطلاق .

فهل نعلل إخفاق حياتها بهذا الزواج الا نفصالى ، أم نعزوه إلى أنها كانت من الأصل مزعزعة النفس لم تستطع الاستقرار ؟

أظن أن التعليلين مسئولان .

والذى نحسه حين نقرأ سيرة هافلوك إليس بقلمه أن حبه لها قد بقى إلى يوم وفاتها . بل هو يقص علينا إحساساته الأليمة حين رآها

تجرى وراء هذا الشاب الجميل ، ثم بعد ذلك حين زاغت بها الشهوة إلى إحدى الفتيات ، ثم هو يصف لنا فى مرارة كيف حمل جسمانها إلى المرمدة حيث أحرق وكيف حمل اللحاد الرماد وذره فى الجهات الأربع فى الحديقة .

* * *

والآن نقف كى نتأمل هذا الزى الجديد للزواج أو هذا الأسلوب الجديد للعيش . . . وهما زى وأسلوب يتفشيان هذه السنين الأخيرة فى الولايات المتحدة بدرجة خطيرة ، وفى أوربا الغربية ولكن ليس إلى المدى الذى بلغا ، بين الأمريكيين .

وكان « ليون بلوم » الرئيس الاشتراكى السابق للوزارة الفرنسية يدعو إليه ، ويقول إنه خير الأساليب للعيش ، وعلينا هنا أن نفترض الافتراضات والاحتمالات . فنقول إن خروج المرأة من البيت إلى المجتمع فى النصف الأول من هذا القرن كان منتظراً . وقد زادته الحربان الأخيرتان تأكيداً لحاجات المصانع إلى عمل المرأة بدلا من الرجل الذى ذهب إلى ميادين القتال . ثم إن المساواة فى التعليم قد جعلت للمرأة كفايات حرفية أهلتها للعمل والكسب . وأخيراً إحالة المنزل من مؤسسة تقوم على العمل اليدوى إلى أخرى تقوم على العمل الكهربائى ، قد جعل بقاء المرأة فى المنزل طوال النهار شيئاً غير معقول .

وجميع هذه الاعتبارات قد بلغت ذروتها فى الولايات المتحدة لأن المنزل هناك « مكهرب » والمرأة تكسب كالرجل . وكلمة « الشخصية » قد اكتسبت لهذا السبب معناها العصرى للمرأة فى أمريكا . والمرأة التى تنشد تكوين شخصيتها إنما تنشدها بالتعلم والاحتراف والاختلاط بالمجتمع ، وليس بالانزواء فى البيت وهى لذلك حين تتزوج تصر

على استبقاء حرفتها ونشاطها الاجتماعى . وتزيد هذا الإصرار قوة بأن تطلب بقاءها منفصلة فى منزلها وقت الزواج كما كانت أيام عزوبتها .

وحجتها أن حياتها الخاصة وما جمعت حولها من أصدقاء وكتب واهتمامات يجب ألا تنقطع بالزواج . ولكن اشتراكها فى منزل زوج يؤكلها ثلاث وجبات كل يوم ، ويقحم أصدقاءه على حياتها الخاصة ، وربما يعترض على أصدقائها هى . هذا الاشتراك لا يترك لشخصيتها المجال الحيوى كى تنمو وترقى . لذلك يجب أن تعيش حياتها الخاصة بعد الزواج كما يعيش هو حياته الخاصة . ووسيلة ذلك أن يعيش كل منهما فى منزله الذى كان يعيش فيه أيام العزوبة .

وكثير من الأزواج الذين اضطلعوا بمهام واشتغلوا باهتمامات تزيد على مألوف العامة يحسون الوجاهة فى هذا المنطق . وليست المرأة وحدها هى التى تطلب فى أمريكا وأوربا الغربية هذا الزواج الانفصالى . وإنما هو للرجل أيضاً حين يرصد نفسه لأهداف اجتماعية يحس أن الروابط الزوجية تقيده وتحول بينه وبين بذل ماله وعمره لتحقيقها . فإن رجل العلم أو رجل الأدب ، أو رجل الفن أو السياسة ، كل هؤلاء يجدون أن الحياة العائلية بمألوفها وارتباطاتها لا تتفق وما يضطلعون به من مسئوليات جسيمة سواء أكانت لأشخاصهم أم لوطنهم .

* * *

عاش هافلوك إليس نحو عشرين سنة أخرى بعد وفاة زوجته . وقد شغفت به بعد ذلك سيدة فرنسية وعاشت معه إلى يوم وفاته منذ نحو عشر سنوات .

وقد قرأت معظم ما ألفه هافلوك إليس . وإنى أحس أنه كان على فهم عميق للحضارة الأوربية ، وأعنى بهذا الفهم العميق أنه كان يصل حاضر

أوربا بعصر نهضتها فيما بين عام ١٤٥٠ وعام ١٥٥٠ حين شرعت تغير عقائدها وأسلوب معيشتها .

وما زالت أوربا حتى هذا العام فى سبيل هذه النهضة ، تغير عقائدها وأسلوب معيشتها . وهذا الزواج الانفصالى هو بعض تجاربها التى سوف تثبت الأيام أنها حسنة أو سيئة .

والفرق بين أوربا وأقطار الشرق أن الأولى دائبة فى التجارب ، تجدد وسائل عيشها وتغير فى مؤسساتها ، أما الشرق فيضفى على مؤسساته قداسة تجمد تطوره وتجعل أبناءه يعيشون فى عام ١٩٥١ كما لو كانوا يعيشون فى عام ٩٥١ أى قبل ألف سنة .

وقد رأى الأوربيون أن العائلة كانت فى الماضى تربى الشخصية ، أما الآن فإنها تعوق هذه التربية . لأن الإنسان الجديد قد زاد إحساسه الاجتماعى عما كان عليه قبل مائة سنة . فهو فى المجتمع بذهنه وجسمه فى عصرنا أكثر مما كان من قبل . لأنه يشترك فى السياسة والتطور الاجتماعى . ويشتبك فى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية .

والعائلة بتأليفها الماضى هى إلى حد ما ضد المجتمع . كما نرى مثلا فى ذلك الرجل العائلى المسرف فى التزام بيته ، من مكتبه إلى بيته ، يعيش مع أولاده ، ولا يفكر فى غير سعادتهم ، فهو « فاضل » من الناحية العائلية ، ولكن اهتماماته الاجتماعية فى هذه الحال ضعيفة .

ونحن نلاحظ أنه عندما يقوى المجتمع ، ويتولى الحكم ، وتكون له الكلمة العليا كما هى الحال فى الأمم الديمقراطية ، بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، تضعف الروابط العائلية . إذ يكثر الطلاق . وأيضاً يتجه الرجل كما تتجه المرأة إلى نشاط آخر خارج البيت . . ولكن ليس شك أن الرجل الاجتماعى ، وكذلك المرأة الاجتماعية ، كلاهما

يمتاز بشخصية أكبر وأنضج من الرجل العائلي أو المرأة العائلية . وخاصة إذا كان هذا المجتمع حراً لا تدوسه حكومة مستبدة ولا تطغى عليه قوات بوليسية تحرمه تطوره وارتقاءه .

إننا نحس حنيناً نحو العائلة وما فيها من استمتاعات الطفولة بين الأبوين ، ولكننا ننسى أن الأم في السنين الأولى من العمر هي كل شيء ، وأن قيمة الأب ضئيلة . والزواج الانفصالي ، كما هو شائع في أيامنا في الأمم الغربية ، يجعل التصاق الأم بأطفالها مكفولا كما كان الشأن قبلا .

وبالطبع ، هذا الزواج الانفصالي لا يمكن أن ينشأ ، إلا إذا كان الزوجان يريان ضرورته لرقيهما . أما إذا لم يجدا هذه الضرورة فإنهما يعيشان معاً . وأغلب الظن أن هذا الزواج الانفصالي لا يزيد في الوقت الحاضر على واحد في المائة ، أو أكثر أو أقل قليلا ، في الأمم الغربية التي أشرنا إليها . وذلك لأن هذا الإنسان الجديد الذي ارتقت شخصيته وزاد إحساسه الاجتماعي على إحساسه العائلي لا يمكن أن يزيد على واحد في المائة من السكان في أرقى أمة .

وعبارة « الإحساس الاجتماعي » تعني الاهتمامات المتعددة بالعلم والفلسفة ، والفن ، والاختراع ، والاكتشاف . لأن هذه الاهتمامات تحتاج إلى إرصاد القوى كلها لإتمامها في خلوة واستقلال . وقد كان هافلوك إليس من هذه الناحية إنساناً جديداً . ولكننا لا نستطيع أن نبت برأي في هذه الجدة ، هل هي للسعادة والخير أم للتعاسة والشر ؟



# چوركى
# والأديب المكافح

فى القرن التاسع عشر ، وخاصة فى نصفه الثانى ، كانت روسيا التى هى الآن جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتى ، تتنازعها حركتان أدبيتان ، أو الأحرى اجتماعيتان ، إزاء ضغط الثقافة الأوربية التى كانت تزحف إليها من أوربا الغربية والتى فتح لها بطرس الأكبر صدره حين أراد أن ينقل روسيا من الشرق إلى الغرب .

وكان ، إزاء هذا الضغط الزاحف ، تنشط حركة أخرى يقول دعاتها إن الروس صقالبة لا شأن لهم بالأوربيين . وإن لهؤلاء الصقالبة روحاً وتقاليد وعادات يجب على الروس أن يحافظوا عليها وألا يتلوثوا بالحضارة الأوربية الفاسدة .

وكان تولستوى ودستوفسكى داعيتى هذه الحركة الصقلبية ، كما كان

تورجنيف وجوركى داعيى الاتجاه الأوربى . وكان التصادم الفكرى بينهما كثيراً .

وهذا التصادم قد رأينا مثله فى مصر . ففى الخمسين أو الستين سنة الماضية رأينا دعاة السفور للمرأة ، مثل قاسم أمين ، يتجهون نحو الغرب ويقولون بالأخذ بالحضارة العصرية . كما رأينا دعاة الحجاب ، مثل طلعت حرب ، يقولون بأننا شرقيون لنا تقاليدنا التى تفضل التقاليد الغربية . بل كذلك حدث فى اليابان والصين والهند . ولكن فى جميع هذه المصادمات يتغلب دعاة الحضارة الغربية لسبب مفرد بسيط ، هو أنها ليست غربية . إذ أن وصفها الحقيقى أنها عصرية جديدة ، فى حين أن ما يسمى حضارة شرقية ، أو صقلبية ، إنما هو تلك العادات والتقاليد القديمة التى أثبت الاختبار أنها ليست كفئاً للوقوف فى وجه الحضارة العصرية .

الحضارة العصرية الصناعية منتجة ، توفر المال والقوة للغربيين . أما الحضارة الشرقية الزراعية القديمة فلم تكن منتجة إلى حد الوفرة ، ولذلك يحيا أبناؤها فى فقر وضعف يغرى المستعمرين الأوربيين باستغلالهم واستعمار بلادهم .

بقيت هذه المعركة بين دعاة القديم الشرقى والجديد الغربى مستعرة إلى عام ١٨٨١ ، حين قتل القيصر إسكندر الثانى . وعندئذ سادت البلاد رجعية سوداء كان من نتائجها أو وسائلها منع المؤلفات اليسارية الأوربية من الدخول فى روسيا واضطهاد المؤلفين الاشتراكيين . وفى مثل هذه الظروف تجرى الدعايات المضطهدة فى الظلام ، وتختمر بأشد وأعنف مما كانت تختمر لو كانت مكشوفة . إذ عندئذ يدخلها العنف الذى لا يتفق والحركات المكشوفة .

ولذلك فشت الجمعيات السرية التى يحدثنا عنها جوركى ، الذى كان

وقتئذ شاباً حوالى العشرين ، يجوس خلال الأفكار ، والناس ويحيا شريداً يتنقل من حرفة إلى حرفة لسد الرمق .

وفى هذا الضغط أو الكبت ، عقب مقتل القيصر ، تبخر الصراع بين دعاة الصقلبية ، أى الشرق ، وبين دعاة الحضارة الغربية . وأخذ مكانه صراع أعمق وأبعد بين الرأسمالية والاشتراكية .

وكانت الرأسمالية بازغة فى روسيا . قد جلبها المستعمرون ، أى المستغلون ، من الغربيين الذى ألفوا الشركات لإيجاد المصانع . واشترك معهم الأثرياء من الروس ، الذين آمنوا بالحضارة الغربية والذين وجدوا الظروف ملائمة لاستغلال الثروة المادية ، والبشرية الروسية . وذلك عقب إلغاء النظام الإقطاعى السابق وتحرير عبيد الأرض ، أى العمال ، الذين لم يكن يسمح لهم من قبل بترك الأرض إلا بإذن المالكين .

واتحد الاشتراكيون والأحرار فى التوجيه السياسى للشعب الروسى ، وحدثت ثورة عام ١٩٠٥ التى كانت فى صميمها مظاهرةِ أحالها طغيان الحكومة القيصرية إلى مجزرة قتل فيها أكثر من خمسمائة ، غير آلاف الجرحى . وكان يقودها إلى الفشل الكاهن « جابون » الذى دعا المتظاهرين إلى ألا يحملوا السلاح ضد « الأب الصغير » أى القيصر .

ولكن الأب الصغير كان يحمل السلاح هو وآلاف من جنوده . استعملوا جميعهم السلاح لقتل الجماهير المتظاهرة والتى لم تكن تطلب من القيصر أكثر من حكومة دستورية عادلة توفر الخبز والعمل لأبناء الشعب الجائعين .

وهنا نجد مكسيم جوركى لأول مرة يشترك فى هذه الثورة ، ويتعلم منها . وكان أول ما تعلم من دروسها أن عرش القيصرية لن يهدمه

الأحرار ، وأن أحزاب الأحرار لم يعد لها مكان فى القرن العشرين . وأن الاشتراكية وحدها تتحمل عبء التغيير المنتظر بإيجاد جمهورية بدلا من القيصرية .

وقصته العظيمة « الأم » التى ظهرت فى عام ١٩٠٧ هى التعليق على ثورة ١٩٠٥ الفاشلة . كما هى إرشاد وإلهام للشباب الثائرين فى روسيا حتى لا يقنطوا من النجاح المنشود فى ثورات أخرى .

* * *

ذكرت الصراع بين دعاة الصقلبية الشرقيين ، وبين دعاة الحضارة العصرية الغربيين . . .

هذا الصراع تغير ، أو تطور ، إلى حركتين جديدتين فيما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩١٤ . فإن الاتجاه الاشتراكى بين المفكرين والأدباء حملهم على الانحياز للإنسانية ضد الوطنية .

« نحن للعالم ولسنا لروسيا . لسنا وطنيين . نحن عالميون » .

هذا كان موقفهم . وكان منطقهم هنا أنه ما دمنا نعمل للاشتراكية فيجب ألا تكون هناك فوارق فى الوطن ، وإنما نهدف إلى خدمة الإنسان مهما يكن ، سواء أكان روسياً أم مصرياً أم صينياً أم إنجليزياً. فى حين كان خصومهم يقولون روسيا أولا . نحن وطنيون .

وجاءت الحرب فى عام ١٩١٤ ، فتغلب بالطبع الوطنيون . ولكن لفترة قصيرة ، واستحالت الوطنية إلى نزعة حربية عنيفة ضد ألمانيا . وهذا ما كان ينتظر .

ولكن جوركى بقى على ما كان عليه داعية للسلم حتى مدة الحرب . داعية للإنسان . الإنسان العالمى .

* * *

عاش جوركى أربعين سنة وهو يكافح فى صدره مرض الدرن ، أى السل . وأمضى معظم حياته فى جنوب إيطاليا ابتغاء الشمس والدفء ولم يستسلم لهذا المرض ، ولم ينم له . بل كان يعمل ، ويخرج فى الهواء ويمرن عضلاته ، لأنه كان يحس أنه فى سباق مع الموت . وعاش ٦٨ سنة كان يمكن بالطبع أن تكون ٨٠ أو ٩٠ لولا هذا المرض ، ولولا ذلك الكفاح الآخر الذى كافح به الفقر والحرمان فى صباه كله وبعض شبابه .

لقد نشأ جوركى فى أسرة من الفقراء الذين جر عليهم الفقر طائفة غير صغيرة من الكوارث . فرأى بعينيه الإجرام فى أعضاء أسرته . كما أن الجوع قد حمله على أن يحترف أوضع الحرف . بل كان احترافه لهذه الحرف أقرب إلى التشريد منه إلى الاحتراف . فعمل خبازاً ، وبائعاً جوالا ، وجامعاً للخرق، وبستانيًّا ، وبائعاً للأيقونات المقدسة. بل إنه احتاج أن يصيد العصافير كى يأكلها ويشبع بها جوعه .

وليس غريباً علينا أن نفهم أن قصته « من الأعماق السفلى » تحتوى أشخاصاً يشهدون أو يطابقون أولئك الذين خالطهم فى صباه وشبابه . بل ليس غريباً علينا أن نفهم أنه قد ألم الواقعية فى الأدب لأن مارآه من واقع حياة هؤلاء الناس قد ألهمه هذا المذهب .

إنما الغريب أن نعرف أنه تغلب على هذا الوسط السيئ فلم يقتد بأحد من أولئك المجرمين ، بل رفع نفسه فوق وسطه . فلم يتعود شرب الخمور ، ولم يقنع بالبطالة والتشرد ، ولم يقع فى جريمة أو فساد آخر . وإنما خرج من هذا الظلام ينشد النور فى درس المذاهب واقتناء الكتب والتفكير فى الإنسانية ، وترقية شخصية . تغلب على وسطه ، وتغلب على هذا الميكروب الذى كان يأكل رئتيه مدة أربعين سنة .

ونحن هنا إزاء رجل نجح فى الأدب وأخرج الكتب العظيمة.

ولكنه قبل أن يخرج كتاباً من مطبعة أخرج لنا حياته التى نجح فى تأليفها . وحياته هذه هى خير مؤلفاته . وهى التى تلهمنا أكثر من أى كتاب من كتبه .

ولكن ما هو الحافز فى هذه الحياة ؟

* * *

أعتقد أن أعظم نعمة أنعمت بها الأقدار على مكسيم جوركى أنه منذ بداية شبابه ، كما يخبرنا هو عن ذلك فى ترجمة حياته ، عرف المذهب الاشتراكى . وكان هذا المذهب جديراً بأن يلصق بقلبه أكثر مما يلصق بقلب أى إنسان آخر ، لأنه رأى بعينيه ، واختبر بأسلوب عيشه فى الفقر والتشريد والصعلكة ، أكثر مما كان يرى ويختبر غيره . فكان للاشتراكية الوقع العميق فى نفسه .

وهذا الوقع هو الذى نقله من الواقعية إلى الرومانسية .

لقد اكتسب الواقعية مما رأى واختبر . فصار ينقل إلينا فى أدبه صوراً من الفقر والحرمان ، وما يجران على الفقير المحروم من الانهيار النفسى والتفكك الأخلاقى فى بعض الأحيان . كما يبعثان فى أحيان أخرى قوة جديدة للتغلب والسيطرة على الوسط .

ولكن هذه الواقعية التى اكتسبها من واقع حياته الأولى استحالت عنده بالمذهب الاشتراكى إلى رومانسية علمية . فصار يرسم لنا الأهداف الجديدة للارتقاء الشخصى ، وأيضاً للارتقاء الشعبى عن طريق العلم الذى يخدم الإنسان ويسخر الطبيعة ويغيرها لتوفير الرفاهية للجميع .

إن بعض الناس يؤمنون بالاشتراكية لأنها عدل ورحمة . ولكن المفكر العلمى يؤمن بها لأنها علم تتفتح لنا أبوابه فى النظام الاشتراكى

فقط حين تنطلق الطاقات بلجميع أبناء الشعب للإنتاج والاختراع والاكتشاف والثراء والرخاء .

وهذه هى اشتراكية جوركى . وهذا الأمل فى تحقيقها هو الذى يجعله يحلم بالسعادة ، ويعود رومانسياً يرسم لنا ما سوف نستمتع به بعد تعميم هذا النظام للعالم .

* * *

قبل ثورة عام ١٩٠٥ الفاشلة كان جوركى يؤلف القصص القصيرة التى يعالج فيها أعماق الفقر والبؤس ويبعث فيها بخمائر الثورة . وكان موقفه الاجتماعى من مؤلفاته الفنية هو أن الفقر ساحق عام ، ولكننا نستطيع أن نلغيه بالعلم والاشتراكية . وأن الفقير زرى فى معظم أحواله لأنه يحيا فى وسط سيئ يحمله على الإجرام والرذيلة ، بل يحمله على أن يفر من الجوع والبؤس بالخمر .

ثم رأى بعد الثورة الفاشلة فى عام ١٩٠٥ أن هناك يأساً عاماً ، وأن السلطات الروسية قد استأنفت قسوتها ووحشيتها ، فألّف « الأم » .

ومغزى هذه القصة أن الثائرين يجب ألا ييأسوا . وهو يشرح ، كأنه الدليل المرشد ، كيف يجب أن يستعد المتآمرون ، وكيف يعرفون الخائن فيتقونه ، وكيف يحذرون الجواسيس . وقصة « الأم » من هذه الجهة ليست قصة فقط ، إذ هى قبل كل شىء دليل يوضح أساليب الثورة . وهذا هو المغزى العام منها .

ولكن هناك مغزى آخر يمكن أن نسميه المغزى الشخصى من الثورة . هو أن العامل الفقير ، عندما ييأس يفسد . ويهرب من الحياة بالخمر والرذيلة . ولكنه عندما ينهض ، ويحس أنه رجل له آمال فى الارتقاء العام وتغيير النظم الاستبدادية ، عند ذلك يعمد إلى نفسه هو فيرقى

شخصيته ويغير أخلاقه . فيشرع فى التعلم ، أو ما نسميه « التثقيف الذاتى » فما هو أن تمضى عليه سنوات قليلة حتى يكون قد انتقل من العامية المهنية إلى الثقافة العالية . وخاصة إذا كانت هذه الثورة التى ينشدها هى النظام الاشتراكى .

* * *

كما أن هناك « عقداً » أو « مركبات » فى الأخلاق تعين لنا سلوكنا وأهدافنا . كذلك نحن فى دراستنا وثقافتنا نجد أننا فى أسر هذه العقد أو المركبات الذهنية النفسية التى تكسبنا الحوافز وتبعث فينا النشاط للدرس ، وتفتأ تملأنا اهتمامات تكاد تكون هموماً مؤلمة ، لا نرتاح إلا بعد أن نحلها وننفرج من أسرها .

وهنا كلمة عن شخصى أنا من حيث اختباراتى للشهوة الثقافية والإرشاد للعلوم والآداب . فقد وجدت عقدتين فى حياتى كان لهما كل الأثر فى توجيه أبحاثى ودراساتى .

العقدة الأولى هى نظرية التطور التى طرأت علىّ ولما أبلغ السابعة عشرة من عمرى .

وكانت مجلة المقتطف تسميها نظرية النشوء والارتقاء . وما هو أن عثرت عليها حتى وجدتنى فى عاصفة من التفكير والتردد .

هذه النظرية ، هذه العقدة ، جعلتنى أبحث الأديان ، وأدرس البيولوجية ، أى علم الحياة ، وأقتنى عشرات بل مئات الكتب عن الإنسان البدائى ونشأة الحضارات ، وأسلوب الحياة عند المتوحشين فى أيامنا ، وثورة العلم على التقاليد فى النهضة الأوربية ، ومعانى التطور الاجتماعى ، وتاريخ الأرض ، وأصل الكون ، ومستقبل الإنسان ، وأخيراً السيكلوجية ، أى علم النفس .

كل هذه الدراسات كانت ، ولا تزال عندى ، تعود إلى العقدة الأولى التى غرستها فى نفسى نظرية التطور . والمهم الذى يجب أن أذكره أنى مازلت فى أسر هذه العقدة . وأن استطلاعاتى الجديدة للثقافة تعود إلى جذورها الأولى حين كانت سنى ١٧ سنة . وهى الأصل فى اتجاهاتى العلمية .

والعقدة الثانية هى الاشتراكية التى طرأت على وأنا حوالى العشرين فى لندن حين التحقت عضواً بالجمعية الفابية ؛ فقد حفزنى هذا المذهب على بحوث واستطلاعات اجتماعية جديدة .

ما هى علة الفقر ؟

ما هو معنى الاستعمار ؟

هل البغاء عند محترفاته استهتار أم فقر ؟

هل الجرائم تعود إلى ما يسميه بعضنا « سوء الأخلاق » أم إلى الفقر ؟

بل كذلك المرض ، يعود إلى عادات سيئة أم إلى قلة التغذية ؟

إلخ . . إلخ . . ودفعتنى هذه البحوث إلى أن أدرس العناصر التى يتألف منها الغذاء الحسن ، بل إلى أن أدرس طرق الزراعة العلمية والتقليدية ، وإلى أن أدرس مشكلة السكان . . إلخ .

ولكن نظرية التطور ، ثم نظرية الاشتراكية ، زيادة على ما حملتنى كل منهما على الدرس ، حملتنى أيضاً على الآمال البعيدة ، بل أحياناً المسرفة ، فى مستقبل الإنسان القريب بالاشتراكية .

والذى أفهمه من حياة جوركى أنه انبعث بدراسة العلم والاشتراكية إلى الآمال الإنسانية العظيمة التى نصفها بأنها رومانسية .

إننا فى حديثنا العام نفرض على الدوام أن المذهب الاشتراكى مذهب

إنسانى بار ، وأن الاشتراكيين يضحون ولا يكسبون منه شيئاً . ولكنى باختباراتى أستطيع أن أكذب هذا الفرض ، وأنا أقول إنى اكتسبت من إيمانى بالاشتراكية هذه الدراسات والاستطلاعات التى لاتنقطع ، والتى أحس منها أن ذهنى حىّ ، وأنه فى شباب ، ينمو وينضج ، وأنى أتفاءل فى حياتى بالمستقبل ، ولا أخشاه ، ولا أتشاءم .

* * *

ولكننا نجد فى جوركى شذوذاً ، أو فذاذة عجيبة فيما يختص بتأثير الوسط على الأخلاق . فإن الوسط الذى نشأ فيه ، وسط الأسرة من الجدود والأعمام والأخوال ، هذا الوسط كان هاوية من الخسة والشراسة والاجرام والرذيلة . وأيما مفكر قد تشبع من الثقافة الاجتماعية ، يقرأ عن هؤلاء الأشخاص الذين نشأ بينهم جوركى ، لا يتمالك الإحساس بأنه ، أى هذا الوسط ، كان جديراً بأن يخلق منه أعظم مجرم فى العالم .

ولكن جوركى كذب هذا المنطق ونشأ أعظم إنسان فى العالم .

وصحيح أنه كانت له فى هذا الوسط جدة بارة أحبته وخدمته . ولكن هل يكفى للنشأة الحميدة أن يكون هناك شخص واحد فاضل بين عشرة من الأرزال ؟

وإذا لم يكن الشأن كذلك فإلام تعزو هذه النشأة العصامية التى اتسمت بها حياة جوركى ؟

كان جوركى عصامياً ، ولكن ليس فى جمع المال كما هو المعنى العرفى ، وإنما فى تأليف شخصيته وتربية إنسانيته . وليس عندنا من تفسير لهذه الظاهرة الفذة سوى أنه تقلب كثيراً فى الحرف والمهن ، ورأى وقارن بين الناس . واستعمل ذكاءه فى الفهم والمقارنة وعرف فى غضون ذلك المذهب الاشتراكى . واستطاع أن يصوغ حياته وفق خياله . وخياله

هو الاشتراكية .

وهنا العبرة لكل شاب ، بل لكل فتاة . فإنى لا أكاد أتخيل وسطاً عائلياً أسوأ من الوسط الذى نشأ فيه جوركى . ومع ذلك تغلب على هذا الوسط كما تغلب على مرضه ، السل ، مدة أربعين سنة . وامتلأ آمالا فى المستقبل الاشتراكى .

* * *

ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر تأثير الوسط أو قيمته فى جوركى ، أو بالأحرى فى مؤلفاته . ونحتاج هنا إلى المقارنة بين تولستوى وجوركى .

فإن الذى لا شك فيه أن نشأة المؤلف ، ووسطه العائلى والاجتماعى ، يؤثران على موقفه من الدنيا وآرائه وفلسفته واتجاهاته . بل كذلك على أسلوب تعبيره وموضوع تفكيره . ولا يكاد أحدنا يتغير ويخالف هذه القاعدة إلا إذا عاش فى وسط اجتماعى آخر يزعزع عاداته وعقائده السابقة .

فقد نشأ تولستوى على القمة ، فى أسرة يرأسها كونت .

ونشأ جوركى فى الهوة ، فى أسرة أكثر أفرادها من المجرمين .

ولذلك نجد أن تولستوى ، على الرغم من يقظته وبغضه لمعيشة النبلاء ممن يضارعونه فى الجاه والثراء ، لا يزال يحس إحساسهم . فهو لا يؤمن إيماناً كاملا بالاشتراكية ، بل لا يؤمن بالحضارة الصناعية . وكل ما نجد فيه أنه إقطاعى رحيم بالفقراء الذين قلما يكتب عنهم ، لأن أبطاله جميعهم تقريباً من النبلاء أمثاله أو من المتيسرين . والرحمة المسيحية عند علاج المساوئ الاجتماعية . وهو يؤمن بالدين ، وإن كان يجحد الكنيسة .

العدل عند تولستوى هو الرحمة . وألا نقاوم الشر مقاومة إيجابية .

ولكن العدل عند جوركى هو الحق . ومذهبه مكافحة الشر بالسيف والنار .

وأبطال جوركى هم أولئك الذين أسقطهم الفقر على الحضيض . ولكنه يعمل على رفعهم بإيقاظهم وإيجاد الوعى الإنسانى فى قلوبهم .

تولستوى لم يدع إلى الثورة ، ولكنه أوجد السخط الذى هيأ لها .

وجوركى دعا إلى الثورة. واشترك بنفسه فى ثورة عام ١٩٠٥ . ثم عاد إلى روسيا بعد ثورة عام ١٩١٧ ، وخدمها فى أمانة وحماسة إلى أن مات فى عام ١٩٣٦ .

* * *

إن التصادم عند جوركى ، بين واقع حياته وأمانى نفسه ، هو الذى ينعكس أثره فى أدبه . حين يصف لنا رجال قصصه فيصف الإنسان بأنه بليد وخسيس وجاهل وراكد وأرعن ومغفل .

هذه هى الصفات التى رآها فى الناس ، فى الواقع .

ولكنه يعود فيشب من الواقعية إلى الرومانسية ، فيقول لنا على لسان إبليس فى قصة « الأعماق السفلى » :

« الإنسان . ما أعظمها كلمة »

أجل إن الإنسان سينتصر على بلادته وركوده .

واقعية جوركى جاءت من حياته السفلى مع أخواله وأعمامه .

رومانسيته جاءت من آماله ، بعد أن عرف الثائرين الاشتراكيين ، وبعد أن اشترك معهم بعقله وجهده .

كان يعيش فى الظلام الرأسمالى ويؤمل فى النور الاشتراكى .

كان يعيش فى الرق والفاقة ، ويفكر فى الحرية والرفاهية .

إن القبح فى الواقع ، جعله ، فى الخيال ، يفكر فى الجمال .

وكان اليأس يبعث فيه الأمل .

كان يحلم وهو فى عبودية المجتمع الروسى أيام القيصر فى سيادة الإنسان على الطبيعة وعلى الآلة ، وفى قدرة الإنسان ، بعقله ، على محو الخرافات .

* * *

يجب ألا نتعب من تكرار القول بأن الأديب يجب أن يستنبط من شخصه « نفساً أدبية » قبل أن يؤلف فى الأدب .

يجب أن يكون رجلا مكافحاً وإنساناً اشتراكياً .

فأين هى عوامل الرجولة والإنسانية فى جوركى ؟

لقد صار يتيما وهو فى السنة السابعة من عمره .

وصار عاملا يكسب عيشه وهو فى التاسعة من عمره .

وبعد ثلاث سنوات من العمل المتواصل ، وفى حيرة وتنقل من عمل إلى آخر ، وفق اختياره ؟

هذه الأعمال كانت بعد ذلك المواد الخامة التى صنع منها قصصه .

وفيما بين عامى ١٩٠٤ و ١٩١٣ أسس واشترك فى دار نشر تدعى « زنانيا » لنشر الأدب الذى يحمل دلالة اجتماعية . وبقى طيلة حياته بعد ذلك يفهم من الأدب أنه وسيلة لتغيير المجتمعات والناس .

وبقى أربعين سنة يكافح مرض السل ( الدرن ) الرئوى .

وفى سنة ١٩٠٨ وصف الشعب فى كتابه « الاعتراف » بأنه : « خالق الآلهة ، خالق المعجزات » . ويقول فيه أيضاً : « إن قوة

الشعب ، حين يسترشد بالإرادة الذكية ، لا تعرف حدوداً تعوقها عن التقدم » .

هذا الأمل العظيم إنما أحس به بعد الكوارث العظمى التى جعلته يتألم من الفقر فى صباه ، ومن المرض ، أربعين سنة ، حتى حاول الانتحار والفرار من الدنيا . ولكنه خرج من هذا اليأس إلى الأمل الواسع ، فأصبح أعظم مرشد للناس يرشدهم إلى طريق الخير الاشتراكى .

وما زلنا نحن ، بعد وفاته ، نسترشد به ونبنى ، أو نحاول أن نبنى حياتنا على غراره .

* * *

ولد جوركى فى عام ١٨٦٨ ومات فى عام ١٩٣٦ .

ونفهم من هذين التاريخين أنه أمضى ٣٢ سنة فى القرن التاسع عشر و٣٦ سنة فى القرن العشرين . ونفهم أيضاً أنه ألف، قبل الثورة الروسية، فى عام ١٩١٧، وبعدها . فكان من دعاتها المكافحين المضطهدين . ثم كان بعد ذلك من أبنائها الموالين .

كان مولده ، فيما كنا نسميه قبل الحرب « نجنى نوفجورود » ثم صارت بعد الثورة تسمى باسمه « جوركى » على نهر الفولجا الذى نجد ذكره يتكرر فى مؤلفاته .

وكانت روسيا قد ألغت الرق الإقطاعى ، ولكن ذكراه كانت لا تزال عالقة بالأذهان . ورأى جوركى فى صباه ناساً كانوا أرقاء ، لهم أخلاق إقطاعية فى الدرجات السفلى . ولكنه رأى أيضاً بزوغ الحركة الصناعية والرواج التجارى فى المدن حيث المصانع والمتاجر .

كانت روسيا فى فترة الانتقال تصطدم فيها الأخلاق الإقطاعية التى تعتمد على الإيمان والتواكل والمحافظة التى تقارب الجمود ، والأخلاق الجديدة ، أخلاق المتجر والمصنع .

وكلنا ، نحن أبناء القاهرة الذين أمضوا بعض حياتهم فى الريف ، نعرف الفرق بين الفلاح ، هذا الإنسان القديم ، الذى يخرج علينا بأخلاق الفراعنة ، والذى تغلبت عليه الأخلاق الإقطاعية ، ثم هذا الإنسان الجديد ، العامل فى المصنع أو المتجر ، بل أيضاً صاحب المصنع أو صاحب المتجر . هؤلاء جميعاً قد تغلبت عليهم الأخلاق التجارية الصناعية . وهم يعيشون فى المدينة الصناعية المنبهة بينما الفلاحون يعيشون فى القرى النائمة الغافلة .

رأى جوركى القرية التى لم تكد تتخلص من أخلاقها الإقطاعية ، كما رأى المدينة الصناعية . ومع أنه عرف أن مكانه هو المدينة ، هو الحضارة ، هو الصناعة ، هو استقلال الشخصية ، هو التعقل والتساؤل بدلا من الإيمان والتسليم ؛ فإنه مع ذلك وجد فى المدينة ما يكره وأعظم ما كان يكره هو المتاجر والعقلية التجارية .

كان ظهور المصانع نتيجة لإلغاء الإقطاع . وكذلك كان ظهور المتاجر .

وهنا تثب إلى أذهاننا كلمة عصامى ، أو الرجل الذى يصنع نفسه ، ينشأ فقيراً ، ثم لا يزال يجد حتى يجمع الثروة الطائلة . ثم يحصل على لقب ويشيد كنيسة فى بلدته .

هو رجل متحرر من قيود الإقطاع ، يجد جيوشاً من العمال يختار منهم ويعين الأجور لعملهم . ويجمع الثروة بعرقهم وجهدهم .

ونحن نعرف العصاميين فى بلادنا ، ينشأ أحدهم عاملا يقطع الحجر للبناء أو ينقله إلى القاهرة . ثم لا يزال يقتر على نفسه حتى يجمع ثمن عربة يجرها حمار أو جواد للنقل . ثم يسرف فى التقتير حتى يشترى عربة نقل كبيرة . ولا تمضى عليه السنوات القليلة حتى يكون مقاولا

يبنى العمارات .

والثروة الضخمة تأتى إليه عندئذ بلا عائق . لأنه يستطيع أن يقتطع من الأجور مقداراً يدخره ، ثم يعود « رأس مال » .

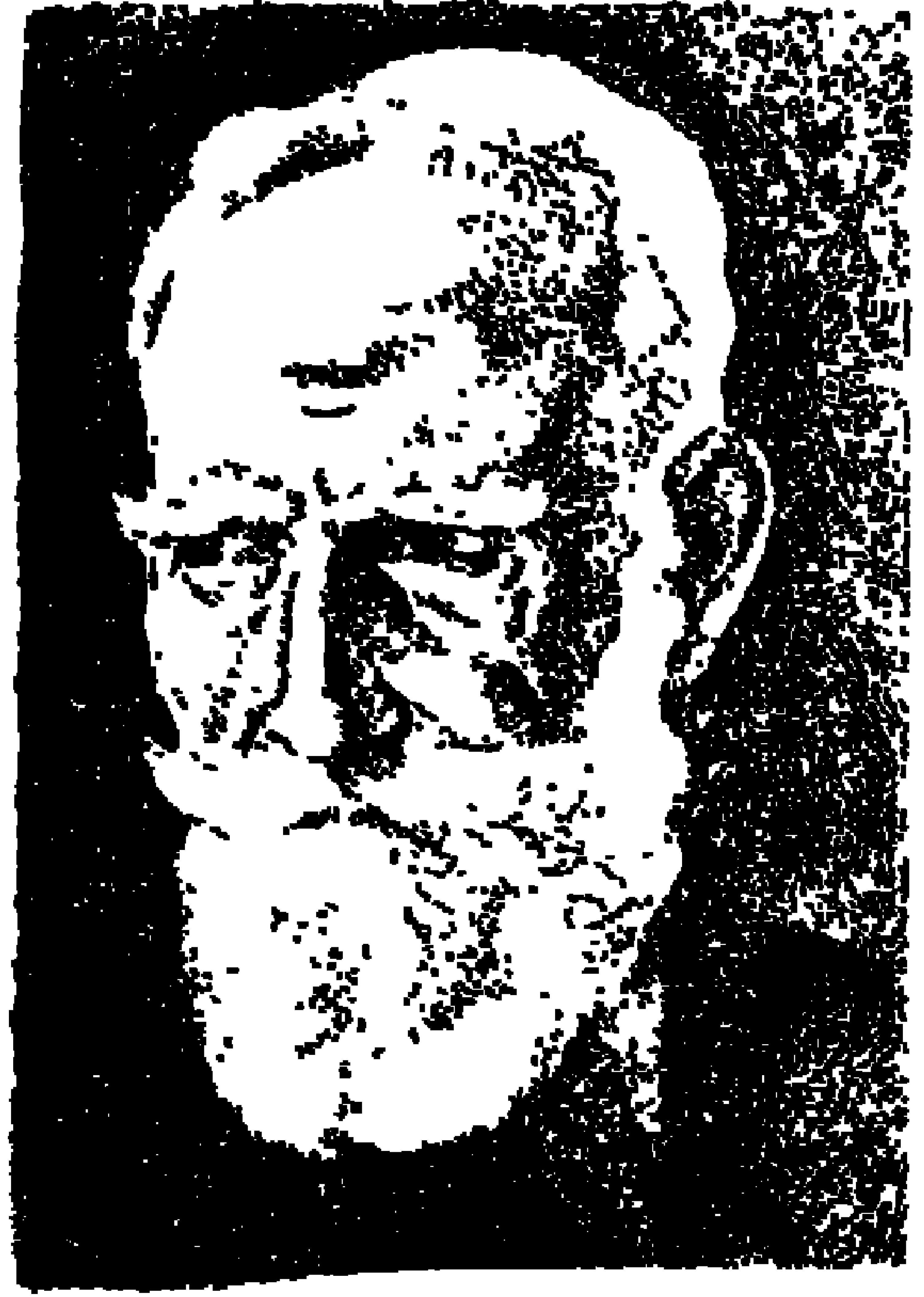
قبل أكثر من خمسين سنة قرأت كتاباً ترجمه « يعقوب صروف » مؤسس مجلة «المقتطف» عن صمويل سميلز . وكان عنوانه « سر النجاح» .

وفى « سر النجاح » هذا قصص متوالية للعصاميين الإنجليز الذين نهضوا من الفقر إلى الثراء . كانوا عمالا فأصبحوا سادة ، يملكون المتاجر أو المصانع ويستخدمون العمال . قصص نهوض رأس المال فى القرن التاسع عشر .

ولكن صمويل سميلز لم يسأل ، وهو يروى تواريخهم ، كيف جمعوا هذه الثروات ؟ وهل كانوا يجمعونها لو أنهم كانوا يؤدون الأجور الحقة لعمالهم . كما لم يسأل يعقوب صروف هذين السؤالين عندما ترجم الكتاب .

ويشير جوركى إلى هذا الكتاب بالذات ويسخر به ، ويعلن كراهته للتاجر الذى أثرى بإذلال العمال وحرمانهم ما كانوا فى حاجة إليه من طعام أو مسكن أو كساء .

وفى جميع مؤلفاته تقريباً نجد هذه الكراهة للتاجر والصانع ، أى للرأسمالى ، صاحب المتجر أو صاحب المصنع الذى يثرى بما يكسبه من عرق العمال .



## شو
## رفيق حياتى

أحسن ما اقتنيت فى حياتى هو ذكرى برناردشو . فقد لقيته حين كانت لحيته لا تزال صهباء ، وتحدثت إليه وسمعت خطبه وقرأت مؤلفاته . وإنى لأحس إحساس أولئك الذين نغبطهم ممن عاصروا أفلاطون أو أرسطوطاليس ، واستمتعوا بحديثهما ، وقرءوا وناقشوا مؤلفاتهما ، ورأوا ضمائرهما الذهنية تتفشى فى حياتهم .

ولقد عرفته فى عام ١٩٠٩ ورافقته إلى سنيه الأخيرة إلى أن مات فى الرابعة والتسعين ، وهى أربع وتسعون سنة من الخلود . ولقد درست فلسفته فكان لى منها توجيه وإرشاد .

ولكنى لم أنتفع بمؤلفاته قدر ما انتفعت بحياته وفلسفته التى — إلى مدى بعيد — تنبع من حياته أكثر مما تتألف من أفكاره . أو أن حياته

قد اندمغت فى أفكاره فعاش عيشاً فلسفياً. ولست أنكر النشوة الذهنية التى كنت أجدها عندما أقرأ له مؤلفاً جديداً ، ولكن الإيحاء الدائم والتنبيه المزعج لأسلوب عيشى واختيار أهدافى ، إنما كانا ينبعان من حياته أكثر من مؤلفاته .

فقد تناول برناردشو حياته كما لو كانت مادة خامة ، وجعل يحتملها ويصوغها حتى أخرجها تمثالا جميلا .

وقد ألف نحو أربعين كتاباً ودرامة ، ولكن أعظم مؤلفاته هو حياته .

وإنى ألتفت كثيراً إلى المؤلفين من هذه الناحية ، أى كيف ألفوا حياتهم وصاغوها وجعلوا منها بناء جميلا ، كما لو كانوا يرسمون صورة أو ينحتون تمثالا أو يصفون بطلا فى قصة أو درامة .

وإنى لأذكر هنا روسو ، وجيته ، وغاندى ، وڤولتير ، فإن كلا من هؤلاء قد ألفوا الكتب العظيمة ، ولكن أعظم ما ألفوه هو حياتهم .

ولو أنه طلب إلىّ أن أؤلف فى ترجمة برناردشو وفلسفته كتاباً يحتوى عشرة مجلدات لوجدت هذا الواجب سهلا أنهض به راضياً فى شهور . ولكنى أجد صعوبة كبرى فى كتابة هذا الفصل عنه ، وهى صعوبة الإيجاز والضغط والاختيار .

ويجب أن أبدأ بكتابه الأكبر وهو حياته . فإنه اتبع أسلوباً من العيش يتفق وكلمته :

« وإنما يكون الإنسان فاضلا إذا أعطى المجتمع الذى عاش فيه أكثر مما أخذ منه » .

ومعنى هذا أن المجتمع قد كسب بحياته فضائل وأخلاقاً وعلماً وأدباً وحكمة .

وقد نظر إلى جسمه كأنه تحفة غالية . وفهم من الطهارة أكثر مما نفهم ، فجعلها فى أمعائه ، إذ رفض أن يجعل جسمه جبانة لجثث الحيوانات . والتزم الطعام النباتى ، وعاش ٩٤ عاماً سليماً ، فبرهن على أنه كان بصيراً بالغذاء الملائم للتعمير والصحة .

وقد كان التعمير بعض أهدافه ، كما كان بعض فلسفته . فإنه كان يقول إن أعمارنا قصيرة لا تتسع للدرس والعمل والاستمتاع ، ويجب أن نعيش نحو ثلثمائة سنة على سبيل العلاج الوقتى لمشكلاتنا الاجتماعية .

أما الهدف الأخير فيجب ألا تقل أعمارنا فيه عن ألوف السنين ، لأنه إذا طالت أعمارنا اهتممنا بالدنيا وأصلحناها . أما مادامت أعمارنا قصيرة فإننا نخطف اللذة والمتعة ، ولا نبالى إصلاح هذه الدنيا ، لأننا زائلون منها قريباً .

وقد أحب واشتعل فى نفسه لهب العشق فلم يطفئه ، ولكنه أيضاً لم يؤججه حتى لا يحترق به . فقد عرف الممثلة « إلين ترى » ، وكانت الروعة فى الجمال والحكمة فى العيش . وكانت تجمع إلى هذا ذكاء الإحساس . فكان يذهب إليها كل مساء ويراها وهى تمثل ، فإذا كان الصباح الثانى كتب إليها خطاباً يتسامى فيه بحبه ويبسط لها أعاجيب من إحساسه وذكائه فى تفطن وحماسة .

ولم يقابل أحدهما الآخر . وقد طبعت مراسلاتهما بعد ذلك ، وهى جديرة بأن تكون دليلا للمحبين الذين يرتفعون بالحب إلى الثلث الأعلى من الجسم البشرى .

ولم يحظ بتعليم جامعى ولا مدرسى ، ولكن أوربا الفهيمة عرفت فيه بعد ذلك أسمى نفس بشرية تعيش فى عصرنا . ذلك أنه جعل سنى عمره الطويل جميعها سنى دراسة ، ومؤلفاته هى مشكلات اجتماعية قد سلط

عليها جهده وذكاءه فدرسها وأخرجها فى درامة كوميدية فنية ، نقرأها أو نراها على المسرح فنحس بالضمير الواخذ والعامل الحافز حتى حين نضحك من أشخاصها ووقائعها .

وقد كان المسرح قبله ميداناً للشخصيات ، فأحاله إلى ميدان للأفكار . وكان ميداناً للتبذخ بوصف الحياة فى القصور أو صلصلة السيوف أو الخيانة الزوجية الرخيصة : بإيجاد الشخص الثالث بين الزوجين ، فجعله مكاناً للتفطن فى معانى الحب والبطولة ، ومعايش الفقراء والمبئوسين ، ومعالجة الطموح الدينى ، وتطور الإنسان بعد آلاف السنين .

وكل هذه المشكلات كانت مشكلاته الخاصة التى درسها لأنها بعض تربيته .

عرف برناردشو الفقر والثراء ، وعرف الكفاح فى السياسة والفلسفة والعلم والأدب ، وصرخ صرخة ڤولتير فى مأساة دنشواى ، وكشف عن لؤم السياسة الإمبراطورية البريطانية فى الحرب الكبرى الأولى . ونال جائزة نوبل فسلمها لجمعية تنمية العلاقات بين نروج وبريطانيا . ودفع ثلاثين ألف جنيه لبناء منازل للعمال . ولم يعرف قط التدخين ، وكان يقاطع الخمر إلى ما قبل وفاته بنحو عشر سنوات . وطاف حول الدنيا ، وصادق العظيمين سدنى ويب وزوجته . وكانا يرتفعان إلى مستواه فى روح البر بالدنيا ، وكانا يمتازان بالدراسة الاقتصادية .

* * *

قبل أن ألقى برنارد شو وجهاً لوجه كنت قد قرأت بعض مؤلفاته ، فوجدت القوة التحريرية فيها تعادل أو تزيد على ما لقيته فى ڤولتير ونيتشه .

ولما التقيت به فى الجمعية الفابية فى لندن أحسست كأنى إزاء أجمل

رجل فى العالم ، فقد كان مديد القامة أحمر شعر اللحية والرأس . وكان فى نغمات صوته صحلة خفيفة محببة . وكانت كلماته للساسة الإنجليز بشأن دنشواى قد جعلتنى أحس كأنه واحد منا نحن المظلومين المضروبين المشنوقين لأنه بكى كما بكينا . ولم أترك له كلمة بعد ذلك لم أقرأها إلى يوم وفاته .

بل إن حبى له قد حمانى إلى أن أقتدى به فى التزام الطعام النباتى . وبقيت على ذلك سنة كدت أموت فى نهايتها من الهزال ، ولم يكن هزالى بسبب المذهب النباتى وإنما كان لجهلى قيمة البيض واللبن عند النباتيين .

كان برنارد شو يعد نفسه صحفياً قبل كل شىء ، وقد رأينا نحن فيه الفيلسوف العميق والمؤلف المسرحى المبدع والأديب الرصين ، بل أحياناً العالم الذى يستطيع أن يجادل العلميين فى أخص نظرياتهم . ولكنه كان يجمل كل هذه الكفاءات بقوله إنها « صحفية » من حيث إنها تتصل بالمشكلات العصرية . والصحفى العالى يجب أن يرتفع فى تفسير هذه المشكلات ومعها إلى المستوى الفلسفى . وأن يكون العلم والأدب بعض شئونه الدراسية .

ولد برناردشو فى عام ١٨٥٦ أى قبل افتتاح قناة السويس بثلاث عشرة سنة . وكانت سنه ٢٦ سنة حين وطئت أقدام الإنجليز أرض وطننا ولست أذكر هذين التاريخين اعتباطاً ، ذلك أن الحادث الأول قد أبرز مصر فى وجدان الأوربيين .

وأما الحادث الثانى فقد أبرز للمفكرين من الإنجليز رجال حزب الأحرار ودناءتهم ورياءهم بشأن الحرية التى داسوها فى مصر ونفوا زعيمها العظيم إلى سيلان .

وكان من هذا أن فكر بعض الأحرار فى ترك حزب الأحرار وإنشاء الجمعية الفابية لنشر الدعوة الاشتراكية . وكانت هذه الجمعية التى التحقت أنا بها ، والتى أحالتنى من شرقى جاف إلى أوربى متمدن، كانت السبب الأول لإيجاد حزب العمال الذى أسندت إليه رياسة الحكومة البريطانية أكثر من مرة . وكان برنارد شو أحد مؤسسيها ، وأكبر داعية لنشر الاشتراكية الفابية ، أى التدريجية ، التى تتسلل وتعالج دون أن تثور وتهدم .

عاش برناردشو طوال عمره وهو يدعو إلى الاشتراكية ، وقد اتخذ الطرف اليسارى منها هذه السنين الأخيرة من عمره . ولكنا على الرغم من أننا نجد أن نظرياته ثورية فإن خططه كانت عملية ، وهو لذلك يعنى أكبر العناية بالبحث فى مسائل المجالس البلدية التى يجد فيها بؤرة العمل الاشتراكى .

وهو أفلاطونى الذهن حين يتحدث عن العمال ، إذ يستصغر شأنهم ويقول بإيجاد صفوة معينة لمعالجة السياسة . وكأنه هنا فاشى يتحدث ، كما كان يتحدث موسولينى . ولكن فترات اليأس هذه قليلة عنده ، وسرعان ما كان يفيق منها إلى الاعتماد على الشعب .

وهو بالطبع عدو الاستعمار وعدو الاستغلال ، ويقول بالتأميم . ومؤلفاته ، رسائل وكتباً عن الاشتراكية ، عديدة وهى تتسم جميعها بأنها شعبية وإيضاحية .

واختصاص برنارد شو الأدبى هو التأليف المسرحى . وهو يضع لكل درامة أو كوميدية مقدمة قد تزيد أحياناً على مائة صفحة ، يوضح فيها وجهته الفلسفية التى حملته على تأليف هذه المسرحية . بل هو أحياناً يزيد على المقدمة بملحق يبرر أو يشرح فيه بعض ما احتاج إلى إيجازه

على لسان أحد الممثلين . ومن هنا نقرأ الدرامة أو الكوميدية كأنها كتاب مستقل زيادة على قيمتها المسرحية .

وأسلوب برناردشو هو الأسلوب العصرى ، أى الأسلوب الديمقراطى. فهو يكتب للشعب بلغة الشعب ، وهو لا يعرف التبذخ أو التظرف فضلا عن التبهرج . ونحن نقرأه كما لو كنا نقرأ مؤلفاً فى الدين أو الفلسفة أو التاريخ . ومرجعه ، أى مرد جذوره فى المسرح ، هو « هنريك إبسن » الذى جعل الدرامة الأوربية اجتماعية . وقد ألف برنارد شو فى بداية حياته الأدبية كتباً فى الدفاع عن إبسن ، ولكن إبسن كان فناناً مسرحياً قبل أن يكون باحثاً اجتماعياً .

أما برنارد شو فعكس ذلك إذ هو باحث اجتماعى قبل كل شىء . وهو يستعمل المسرح وسيلة لشرح المشكلات الاجتماعية ، وليس هو مع ذلك الوسيلة الوحيدة .

وقد بحث الدين ومستقبل الإنسان ، والحب والحكومة والبغاء والفلسفة ، فى نحو ثلاثين أو أربعين مسرحية . ومعظم مسرحياته كوميديات قد طعم فيها التفكير الاجتماعى بالفكاهة .

وقد تجددت المسارح الأوربية بهذا الاتجاه الجديد الذى ابتدعه هنريك إبسن ، ودعمه برناردشو . فالدرامة الأوربية واقعية ، تجابه الحقائق وتعالج المشكلات ، وليست رومانتية خيالية تعيش فى الأحلام والأمانى .

* * *

الكلام عن فلسفة برناردشو يحتوى أيضاً بحث ديانته وأدبه وفنه ، لأنه يعالجها جميعها بالروح الدينى . وقد ولد قبل أن يظهر كتاب داروين « أصل الأنواع » بثلاث سنوات ، ورأى واشتبك فى المعارك الثقافية

حول هذا الموضوع . ورأى الصدمة التى أحدثتها العقيدة الجديدة ، وهى أن الإنسان والحيوان من أصل واحد .

وعندما نقرأ درامته الكبرى « الإنسان والسوبرمان » نحس أن هذا الكتاب هو الامتداد لكتاب أصل الأنواع ، كما هو إيمان دينى جديد يدعو إليه برناردشو خلاصته أن ارتقاء الحضارة فى المسكن والملبس والتنقل ليس ارتقاء للإنسان ، وإنما الارتقاء الصحيح هو أن يطول عمره إلى ألف سنة ويزيد مخه إلى كيلوجرامين . وأن يكون حصيناً من الأمراض منذ ولادته إلى يوم وفاته . وهذا هو السوبرمان الذى يجب أن يستولد من الإنسان بالانتخاب الحكومى ، بحيث يكون منا كما نحن من القردة . أعلى فى سلم التطور ، وأذكى ذهناً ، وأسلم غرائز .

وقد اصطدم برنارد شو مع الداروينيين من حيث إيمانه بأن الصفات المكتسبة تورث ، وأن الوراثة ليست جامدة كما اعتقد ڤيسمان . وفى السنة الماضية عندما احتدم النقاش بشأن هذا الموضوع بين ليسنكو الذى دافع عن وراثة الصفات المكتسبة ، وبين القائلين بأنها لا تورث ، وأن الوسط لا يؤثر فى تغيير العناصر الوراثية ، وقف برناردشو إلى صف ليسنكو أو قل إلى صف لامارك قبيل مائتى سنة . وديانة شو كما نفهمها من مؤلفاته ومن حياته أيضاً هى الديانة البشرية التى تنأى عن الغيبيات ، فإن درامته عن المسيحية « أندروكليس والأسد » تحملنا على الاعتقاد بأنه لا يختلف عن رينان فى بشرية المسيح ، وأن الله كائن فى الإنسان ، ولكن إله برنارد شو هو قوة الحياة التى تقف خلف التطور ، وتعمل للارتقاء ، وتسير مكافحة نحو النور والحب . وإلى هنا تقف « غيبياته » ، غيبيات لا ترضى المؤمن ولا تقنع الملحد ، وهى أقرب الأشياء إلى برجسون. وعندى أنها بعض رواسب القرن التاسع عشر التى علقت به هو وبرجسون ، كما تعلق أساليب الطفولة بالرجل الناضج . وهو يقول : « إنسان بلا دين

هو إنسان بلا شرف » . وهذه عبارة سامية قد استنتجها من حياته . إذ هو لم يؤلف قط كتاباً أو رسالة إلا بروح الدين ، أى بروح المسئولية أمام المجتمع . بل ماذا أقول ؟ أمام البشر والأحياء والتطور . ومن هذه العبارة أيضاً نفهم أن نظرته للدين اجتماعية أخلاقية .

ومهمة الفلسفة هى فى النهاية إيجاد النظريات . والجاهل يحتقر النظريات ، ويزعم أنه عملى . ولكن ليس هناك من الأشياء العملية ما هو أفضل من النظرية الحسنة ، لأننا نقتصد بها ، ونستغنى بها عن كثير من المجهود العابث .

وكلاهما ، برناردشو وبول سارتر ، يقول بحرية الفرد من حيث حقه فى أن يعمل كما يشاء . ولكن الهدف يختلف بينهما . فإن برناردشو يبغى من هذه الحرية خير المجتمع ، من حيث إن حرية الإنسان تسير به نحو الخير إذا أدى الخير ، ونحو الهلاك إذا قدم الشر . فالمجتمع كاسب من هذه الحرية . دعوا السكير والنهم والمستهتر والمجرم يمارس كل منهم حريته ، لأنها فى النهاية ستقضى عليه بالهلاك فينتفع المجتمع . ولكن بول سارتر يقول فى خسة فلسفية ليس لها نظير : « أنا وحدى » وعلى المجتمع السلام !

وبرناردشو مثل ولز ، ينظر النظرة البيولوجية للإنسان فيقول بضرورة التطور . أجل . إن التطور هو الديانة الأصلية عند شو .

مات برنارد شو وكان أجمل الأساطير فى حياتى . ولقد رافقته وتعلمت منه ، وحاولت أن أقتدى به ، فكنت أصل أحياناً وأقصر أحياناً . ولقد حرصنا بالقدوة والعمل على أن نمارس الأدب لخدمة الجمهور ، وبعض هذه الخدمة أن نجعل ساستنا وقادتنا متمدنين مستنيرين . وهذا هو ما حاولت ، ولكنى للأسف لم أنجح .

ولقد أوصى بأن يحرق جثمانه فى المرمدة . وقد أحرقت زوجته

فيها من قبل ، كما أحرق جثمانا صديقه ولز وزوجته . وهذا الاحتراق هو طهارة أخرى مارسها شو فى موته كما مارس النباتية فى حياته .

* * *

مما يستحق الملاحظة أن الأمم العربية جميعها فهمت النهضة على أنها التحرر من الأجنبي المستعمر ومن الوطنى المستبد . فطالبت بالاستقلال والدستور ، واعتقدت أن كل شيء من أمانيها قد تم . ولكن الأمم الأوربية فهمت النهضة أو النهضات المتوالية فيها على أنها قبل كل شيء تحرير الضمير البشرى . ففصلت الدين من الدولة ، وكافحت التقاليد ، وتمردت على سلطة البابا ، وألغتها واعتنقت العلوم ، ومارست الفنون التى تعمل للتنوير الذهنى والسعادة البشرية . وهذا مالم تفكر فيه الأمم العربية إلى الآن مع أنها تحمل من أعباء الظلام ما يرهق الضمائر ويسود العقول .

والناهضون فى أوربا هم علماؤها وأدباؤها وليسوا ساستها . وهم جاليليو الذى خالف الكنيسة وأثبت أن الأرض تدور حول الشمس . هم لوثر الذى انفصل من البابا وترجم الكتاب المقدس . هم دافنشى الذى قال بأن الجبال كانت البحار تغمرها . هم داروين الذى أرجع الإنسان والحيوان إلى أصل واحد . هم رينان الذى قال ببشرية المسيح . هم إبسن الذى رفع المرأة من الأنثوية إلى الإنسانية .

هؤلاء هم الناهضون الذين غيروا أوربا ، وبرناردشو واحد منهم فإنه بأسلوب عيشه ومؤلفاته المسرحية دعانا إلى حياة الطهر ومكافحة النفاق الاجتماعى . وكانت مهمته تحرير الضمير البشرى من الخرافات والتقاليد والجبن الفكرى ، وبعث الآمال فى مستقبل البشر على هذه الأرض . وصحيح أنه كافح قوات الظلام التى يمثلها الاستعمار

والاستبداد ، ولكنه كافح أيضاً ، وبقوة أكبر ، قوات الظلام التي تمثلها التقاليد وموروث العقائد الغيبية .

ولو فهمنا نحن المصريين دلالة النهضات الأوربية وعملنا لتحرير ضميرنا ، لكان لنا إلى جنب الحرية السياسية حرية أخرى أكفل للسعادة وأعمل لتكوين الشخصية . ولكان لنا منها موقف آخر حيال المشكلات الاقتصادية والأخلاقية والثقافية . وفي هذه الحال ما كان لمستبد أن يحبس عقولنا بقوانين تحد من حرية الصحافة ، أو يسلط علينا بوليس الأفكار ، كي يعين لنا ما يجوز وما لا يجوز أن نفكر فيه ونكتب عنه .

أجل . إننا ما زلنا بعيدين عن دلالة النهضات الأوربية .

* * *

ليس من الصدق أن أزعم أني اقتديت ببرنارد شو . فإنه رفع نفسه إلى مستوى عال من « العيش الساذج مع التفكير السامي » وعاونه على ذلك وسط متمدن لم أجد أنا مثله إلى يوم خلع فاروق في مصر حيث يكافأ الرذل على رذيلته ويعاقب الفاضل على فضله . والأصل في هذه الحال المعكوسة هو الإنجليز من ناحية والتقاليد الشرقية من أخرى .

ولكني حاولت ، وكررت المحاولات ، ولم أتعب ولم أسأم . وخير ما أخذت عن برناردشو هو هذا الروح العلمي الذي يسود مؤلفاتي ، فإني مثله علمي الذهن أدبي الوسيلة فلسفي الهدف . أمتاز بالتفكير العلمي والتعبير الأدبي . وهذا إلى أنه حبب إليّ الاشتراكية ونقلها عندي من منطق العقل إلى عاطفة القلب . أجل . إنه جعلها دیانتي العملية . فليس البر عندي إحساناً وصدقة ، وإنما هو البرنامج الاشتراكي الذي يوفر

لكافة الشعب طعام الجسم وغذاء الذهن وحرية الضمير والإقدام على المستقبل .

وهو ، بعد داروين ، الذى جعلنى أستمسك بالتطور وأجعل منه الديانة المذهبية لحياتى وفكرى وموقفى البشرى . وقد كان هو يقول بالحاجة إلى « وزارة للتطور » تعمل لترقية السلالات البشرية . وهذا تفكير يعلو علوًّا عظيما على الصغائر التى يشتبك فيها صغار الأدباء .

وحين أعود إلى الأفكار التى بثها فى نفسى برنارد شو ، وحين أنظر إلى الدنيا من عدسته ، أحس السرور والغضب والإقدام والشجاعة والجهد والإرادة . أجل . أحس أن حياتى ترتفع إلى مقام التاريخ وأن لوجودى دلالة فلسفية .

* * *

مات برناردشو بعد أن ملأ الدنيا بفكاهاته ، وهى فقاقيع الحكمة . فكنا نضحك ونتعلم . نحن الآن أقل ثراء فى النفس وذكاء فى العقل مما كنا فى أيامه .

وقبل أن يموت بأيام قال زعيم الفكاهة هذا يصف عالمنا فى عام ١٩٥٠ : إن بين كل أمة وأمة حرباً باردة . وبين كل فرد وفرد من أبناء الأمة الواحدة حرباً باردة . وبين كل إنسان ونفسه حرباً باردة !

هذا ما قاله زعيم الفكاهة . وهى كلمات موجعة تصف عالمنا التعس الحاضر . .

* * *

لما مات برناردشو أطفئت الأنوار فى نيويورك خمس دقائق ، وكذلك أغلقت المدارس فى الهند يوماً كاملا ، وجرى مثل ذلك أو قريب منه فى أقطار أخرى . ولكن مصر لم تفعل شيئاً من هذا ، كأنها تعيش

فى ذهول لا تقدر القيم الأدبية والاجتماعية فى العالم . والواقع أنها كذلك .

ولو كانت هناك أمة مدينة لبرناردشو لكانت مصر فإن الصفحات القليلة التى كتبها عن دنشواى تحمل من غلواء الذهن والعاطفة ما ينظمها فى عداد الأدب العالمى والبلاغة السامية ، وستعيش هذه الصفحات وسيقرأها ، كما قرأها ، الملايين الذين سيغضبون من الاستعمار وسيعرفون منها حق مصر وباطل بريطانيا .

ولو كنا أمة عصرية لنقلنا إلى لغتنا جميع مؤلفات برنارد شو ، ولكانت هذه المؤلفات جديرة بأن تحدث نهضة اجتماعية وأدبية . فإن تفكيرنا السياسى جامد ، ونشاطنا الأدبى إما رجعى يتعمق ظلام القرون الماضية ، وإما سطحى يتبهرج بالألوان على صفحات الجرائد والمجلات . كأنه عبث الصبيان .

ولذلك ما كان أحوجنا إلى التوجيه السيكلوجى الاجتماعى الذى يتسم به أدب برناردشو . بل ما أحوج الأديب والسياسى معاً إلى هذا التوجيه .



# غاندى

## داعية الاستغناء

ولد غاندى إنساناً ومات قديساً .

ولم يكن غاندى مؤلفاً من حيث فن التأليف الكتابى وإخراج الكتب ، ولكنه ألف ما هو خير من الكتب . ألف حياته التى كانت مصباحاً منيراً نحو أربعين سنة للبشر من جميع الطبقات . وقد كانت دعواته أو رسالاته متعددة ، فقد دعا إلى الوطنية الهندية ومحاربة الاستعمار وإلى الاستقلال والحرية كما دعا إلى المغزل والمنسج وإلى الطعام النباتى .

ولكن كل هذه الدعوات كان يسودها روح القداسة . ولذلك نستطيع أن نقول إن دعوته الأولى هى القداسة .

ذلك أن وطنيته لم تكن للهند وحدها وإنما كانت إخاء بشرياً لسكان هذا العالم كله .

ولم يكن كفاحه دمويًّا قائماً على البطش والدم، وإنما كان مقاومة سلبية تنهض على حض الهنود على ألا يتعاونوا مع المستعمرين لهضم حقوقهم وضغط حرياتهم . ولم يكن تدينه لديانة آبائه فقط ، أى الهندوكية ، إذ هو كان يجعل صلاته حافلة جامعة للإنجيل والتوراة والقرآن ، والكتب الهندوكية المقدسة . وقد صام أكثر من نصف عام على فترات كى يحمل الهندوكيين والمسلمين على الإخاء . وبذلك رفع السياسة إلى مستوى القداسة .

وقد كتب تاريخ حياته فى أسلوب شعبى ساذج يخلو من التبرج لأنه لم يكن كاتباً أديباً لعوباً . ومن هذا الكتاب نحس قداسته ، ونهفو إلى ذكراه فى حنين وحنان معاً . كما نهفو إلى ذكرياتنا للأم الحبيبة أو للعشيقة التى أوسعتنا سعادة السنين ، أو للابن الذى حملناه على صدورنا وقبلنا وجنتيه الطريتين .

وذكرى غاندى عندى هى نشوة يغمرنى فيها إحساس فنى كذلك الإحساس الذى أنتعش فيه حين أرى الشفق الزاهى والحقول النضرة والرسم الرائع .

وليست عظمة غاندى من ذلك النوع الذى يحملنا على احترامه ، إذ ليس هناك مكان فى قلوبنا لذكراه سوى الحب . وحيث يكون الحب العميق لا يكون الاحترام .

وإنى لأكتنز كنوزاً نفيسة فى حياتى لا أرضى بها بدلا . هى أنى عشت وعاصرت تولستوى وبرنارد شو وشفيتزر وغاندى ، وكلهم قديس . وليست قداستهم من ذلك النوع القديم حين كان ينزوى الراهب فى صومعته بعيداً عن المجتمع كى ينشد خلاص نفسه بالصلاة . لأن هذا الراهب هو فى صميمه أنانى يطلب الخلاص لنفسه فقط . ولكن

هؤلاء القديسين المصريين كانوا يتألمون ويصومون ويكافحون من أجل خلاص البشر .

وقد استطاعوا أن يغيروا الأوزان والقيم البشرية ، وأن يغرسوا فى قلوبنا حبًّا جديداً وأن يعلمونا أسلوباً فلسفيًّا للعيش .

مات غاندى فى سنة ١٩٤٧ وهو أعظم رجل فى العالم . ومع ذلك كان كل ما يملك عنزة تدر له اللبن وشملة تكسو جسمه لا يزيد ثمنها على ثلاثة أو أربعة قروش .

وكان يغزل بيده ويكتب ويشترى القليل من الفواكه أو الجبن بما يكسب . وبذلك نصب غاندى أمام العالم كله مثالا يحتج به على أساليب عيشتنا الاقتنائية ، ويوضح لنا أن السعادة والشرف والمكانة أيسر من أن نتكلف من أجلها جميعاً هذا الجهد ، بل هذا العذاب فى اقتناء المال والهرولة التعسة التى نعيش بها من أجل التكاثر بهذا المال .

والفهم العام للنسك هو أنه عادة أو رهبنة دينية قد نشأت فى الأمم الشرقية ، وهو كذلك إذا فهمناه على أنه انزواء فى صومعة .

ولكن الحرمان الذى فرضه على نفسه كل من برنارد شو وتولستوى وغاندى وشفيتزر هو نسك آخر ، نسك غربى ينهل على أسس من الثقافة الغربية غايته خدمة المجتمع وإنهاض البشرية وتجديد القيم الاجتماعية . بل إنه ليس نسكاً ، لأن المعنى الأصيل للنسك أنه الحرمان من بعض الملذات فى الطعام أو الشراب أو اللباس أو السكنى أو إشباع الشهوات. ولكن هؤلاء الأربعة الناسكين لم يحسوا ، وهم يحرمون أنفسهم ما نحسب أنه متاع ، أنهم قد فقدوا شيئاً لأنهم قد أخذوا بقيم جديدة تجعل ما نعتز أو نلتذ أو نفخر به من ثراء أو اقتناء ، تافهاً لا يحرص عليه الرجل العظيم بل لا يباليه .

حادثة واحدة فى حياة غاندى تدلنا على أن استغناءه لم يحمل معنى القهر ، وهو انقطاعه عن الاتصال الجنسى منذ بلغ الرابعة والثلاثين فهو لم يكن يقسر نفسه على هذا الحرمان . ولم يكن يحس أنه حرمان . ذلك لأن الآمال والآفاق التى كان يترامى إليها تفكيره كانت تغمر نفسه ، وتشغل كل وقته ، وتهيب به ، بما تحمل من عظمة ومجد ، أن ينسى مادونها من ملذات أخرى . فهو لم يكن يشتهى طعام اللحم أو الاتصال بالمرأة أو اقتناء الثراء لأن نفسه كانت مغمورة بما هو أسمى . فالانكفاف هنا ليس قهريًّا أمريًّا وإنما هو سيكلوجى . أى أن غاندى قد سد القنوات فى شهواته لأنه جمعها كلها نهراً واحداً نحو غاية موحدة هى الإنسانية .

وكى يفهم القارئ هذه الحال ، عليه أن يذكر مثلا ذلك الأب الذى يفقد ابنه الحبيب ، فإن كثيراً من الآباء فى هذه الحال يحسون صدوداً عن المرأة كأن الشهوة الجنسية قد أصبحت حراماً لا يجوز لهم الاستمتاع بها بعد أن ثكلوا الابن الذى أحبوا . وهذا الصدود هو فى منطق النفس نذر لشىء آخر .

وكان نذر غاندى الذى سد قنوات شهواته جميعها تقريباً هو حب البشر واستقلال الهند ومحو النجاسة وطرد الإنجليز .

* * *

ومما ينبهنا فى حياة غاندى أنه على الرغم من المسحة البدائية الساذجة التى تبدو بها صورته لنا إنما كان غريباً فى ذهنه عصريًّا فى فكره . بل أكاد أقول إنه كان ماركسيًّا فى أسلوب كفاحه للإنجليز ، من حيث إنه فهم الاستعمار على أنه استغلال للأرض والبشر فى الهند لمصلحة الإنجليز فجعل مكافحته قائمة على الاستكفاء الاقتصادى بتعميم المغزل والمنسج ومقاطعة المصنوعات الإنجليزية .

ولم تكن دعوته للمغزل إيثاراً لهذه الآلة اليدوية الصغيرة على مصانع الغزل الكبرى التى يعول فيها على الحديد والنار ، وإنما هو وجد أن ظروف الهند ، وهى ظروف الحرمان والفاقة والفراغ ، مع الجوع فى الريف وترصد الإنجليز لأية نهضة اقتصادية وتصديهم لقتلها فى المهد ، كل هذا جعله يفكر فى الوسيلة التى تعم البيوت الهندية حيث يعمل الأب والأم والأبناء فى الغزل دون أن يستطيع الإنجليز أن يتدخلوا ويمنعوا .

والمتأمل للحركات الوطنية فى مصر والهند وتركيا يجد ظاهرة تستحق الالتفات ، هى أن جميع الوطنيين فى هذه الأقطار الذين قادوا هذه الحركات قد امتازوا بثقافة أوربية وأخذوا بالقيم والأوزان الأوربية .

أما الشرقيون الذين نشأوا فى حضن الثقافات التقليدية الدينية أو الاجتماعية فلم يتزعموا هذه الحركات ولم يستطيعوا أن يغذوها بتفكيرهم . فإن دعاة الوطنية الهندية : طيلاك وغاندى ونهرو قد تعلموا جميعهم فى أوربا . وكان أتاتورك مقاطعاً بل مجاهداً فى مقاطعته للأخلاق الشرقية . وهذا هو الشأن أيضاً فى مصر حيث نجد أن الزعامة الوطنية والانتهاض القوى العام والدعوة للاستقلال يحمل علمها ولا يزال يحمله أولئك المستغربون الذين تعلموا فى أوربا ، أو أخذوا بالثقافة الأوربية وما تحمل من أوزان وقيم جديدة فى السياسة والأخلاق والاجتماع .

وقد كان الا ستعمار البريطانى فى الهند يؤيد تقديس البقرة ويؤيد نظام المنبوذين ويؤيد حجاب المرأة . لأن أعظم مايؤخر هذه الأمم الشرقية هو هذه التقاليد المتحجرة . بل لولا هذه التقاليد لما استطاع الاستعمار أن يطأ بقدميه أرض الهند أو مصر .

ولعلنا لا ننسى هنا أن الإنجليز كانوا يعارضون حركة قاسم أمين

بشأن تحرير المرأة ، وكانت ناظرة المدرسة السنية الابتدائية للبنات تصر على اتخاذهن للبرقع .

ولكن الاستعمار مذهب غربى وهو ، مع أنه يدوس الأمم الشرقية ، لا يزال يحمل فى طياته السم الذى يقتله فى النهاية . لأنه ينقل معه الثقافة الأوربية التى تحيل بعض الشرقيين إلى أوربيين فى الذهن والعاطفة والنظرة . وهؤلاء يفكرون وينتهون إلى دعوة الاستقلال والتحرير من شيئين معاً وهما الاحتلال الأجنبى وأيضاً التقاليد المتحجرة .

ولذلك ماكاد الهنود يجلون الإنجليز حتى عمدوا أول ما عمدوا إلى إلغاء نظام الطبقات الذى كان يؤيد بقاء المنبوذين ولولوا منبوذاً وزارة المعارف . كما منحوا المرأة حق المساواة بالرجل فى الميدان الاجتماعى وأيضاً حق الانتخاب للبرلمان وللوزارة . وهم فى ذلك يشبهون مصر .

وليس شىء فى الدنيا أسوأ من الاستعمار الأجنبى سوى التقاليد الشرقية المتحجرة . وليس شىء فى الدنيا أسوأ من التقاليد المتحجرة سوى الاستعمار الأجنبى . ولكن مع ذلك حين أتأمل بعض الأمم التى لا تزال تعيش فى استقلالها واستبداد تقاليدها أحس كأنى أرغب فى استعمار أجنبى يصفعها الصفعة المنبهة التى توقظها وتنبهها وتحملها على إلغاء تقاليدها .

* * *

ثلاثة رجال يبرزون فى حياة غاندى من حيث تكوينه وتوجيهه فى التفكير الاجتماعى . وهؤلاء هم : ثورو وتولستوى وروسكين . وكانوا جميعاً من المتمردين على الحضارة الأوربية يحاولون الارتداد عنها إلى ما هو أبسط وأقل تعقداً وأميل إلى الخدمة والتعاون دون السلطة والاستثمار .

ولا يستطيع المتأمل لنشاط هؤلاء الثلاثة ، الدارس لأفكارهم ونظرياتهم ومثلياتهم ، أن يقول إنهم كانوا على بصيرة تامة بالحضارة الأوربية ومنتهاها ، ولكن تمردهم كان بمثابة التنبيه إلى ما فيها من أخطار تلصق بالمجتمع الاقتنائي الذى انتهت إليه حيث يعيش كل فرد وغايته الاقتناء والإثراء فى مباراة عنيفة قاتلة .

كان ثورو أمريكيًّا ، ولد فى عام ١٨١٧ ومات فى عام ١٨٦٢ . . واشتغل بالتعليم وبغيره . ولكنه فى عام ١٨٤٥ ترك حياة المدن وهاجر إلى الغابة ، حيث بنى لنفسه كوخاً وجعل يعيش حياة بدائية يصيد السمك من بحيرة قريبة ويأكل الثمار البرية ويعمل بالأجرة فى الحقول القريبة .

وكان يقضى معظم وقته فى تأمل الحيوان والنبات فى الغابة . وهو واضع عبارة « العصيان المدنى » التى أخذها عنه غاندى . وكان يعنى بهذه العبارة أن لكل فرد الحق فى أن يستقل بشخصيته ويرفض العادات والمطامع الاجتماعية ويعيش وفق مثلياته الخاصة وهو عاص لا يخضع للمجتمع . وبقى إلى عام ١٨٤٧ بالغابة حين عاد إلى المدينة وعاش مع صديقه « إميرسون » وألف كتاباً بعنوان « والدن أو الحياة فى الغابة » .

وهو يروى فى هذا الكتاب اختباراته ، وكيف أن حاجاته جميعاً من لباس وغذاء وسكنى لم تكن تكلفه سوى القليل من الجهد والقليل جدًّا من النقود .

وواضح أن غاندى حين ترك المدن وآوى إلى معتكفه فى الطبيعة يقنع بما تدره عليه عنزته من اللبن والجبن ، وأيضاً بقنوعه بتلك الشملة التى كان يشتمل بها دون أى لباس آخر ، إنما كان يستضىء بثورو فى حياته فى الغابة . ومكافحته للإنجليز الاستعماريين بشعاره « العصيان المدنى » يعود إلى القدرة على الاستغناء . فإنه نبذ الرفاهية فضلا عن البذخ وقنع

بالقليل الذى لا يستطيع الإنجليز أن يحرموه منه . وكان ثورو على الدوام فى ذهنه : رجل قانع يعمل عندما يحتاج ، ويرتاح ويتأمل الشمس والشجر والماء والسحاب عندما لا يحتاج . والحضارة القائمة تدعونا إلى الاقتناء والإثراء والجهد والمباراة . ولكن عبرة ثورو هى كيف نستغنى ؟ وليس كيف نقتنى ؟

أما تولستوى فليس هناك من يجهله . فقد ولد فى عام ١٨٢٨ ومات فى عام ١٩١١ وكان فناناً عظيماً يؤلف القصص الخالدة كما كان أخلاقياً متمرداً على الحضارة أيضاً مثل ثورو . وقد حرمته الكنيسة الروسية لأنه ألف كتاباً عن إيمانه وصف فيه المسيح باعتبار أنه إنسان عظيم لا أكثر ، وأن دعوة المسيح إلى الحب البشرى هى الخلاص لجميع الناس وأن « ملكوت الله » كما جاء في الإنجيل ليس حياة أخرى بعد الموت وإنما هو فى قلوبنا وأنفسنا وعالمنا هذا ، وأنه يتحقق بالحب بين البشر . وقد عاش فى الأرض التى ورثها عن عائلته وحاول تسليم هذه الأرض للفلاحين ، ولكن عائلته منعته ، وكان يصنع الأحذية بنفسه للفلاحين ، كما أنه أنشأ مدرسة لأولادهم وأصدر مجلة فى التربية .

وقبل وفاته بنحو عشرة أيام خرج هارباً من بيته يريد أن يرضى ضميره ويعيش كأحد الفلاحين .

وقرأ غاندى مؤلفاته وهو فى أفريقيا الجنوبية فتأثر بها كثيراً . وكان أن أسس ما سماه « مزرعة تولستوى » حيث كان يعلم أبناء الهنود ويزرع أرض المزرعة ، ومن هنا نشأت عنده فكرة التعليم بالعمل ، وهى الفكرة التى أحالت التعليم إلى تربية .

ويرى كثير من الناقدين أن الخطة التى اتبعها غاندى فى مكافحته للاستعمار فى الهند وهى « المقاومة السلبية » أى تقبل العدوان فى صمت

وثبات إنما ترجع إلى تعاليم تولستوى فى شرحه للمسيحية ، هذا الشرح الذى جلب عليه حرمان الكنيسة له حتى قال رومان رولان الأديب الفرنسى المعروف : « وحسبى ما قلت كى أبين أن غاندى كان ينطوى على قلب إنجيل خافق تحت كساء من الإيمان الهندوكى . أما روسكين الذى أحبه أيضاً غاندى فكان من الأدباء الإنجليز . وقد ولد فى عام ١٨١٩ ومات فى عام ١٩٠٠ ، وألف عدداً كبيراً من الكتب فى الفنون والأخلاق والاجتماع . ولما مات أبوه عام (١٨٥٥) ترك له ثروة قدرت وقتئذ بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيه فلم يمسكها بل تبرع بها للمنشآت الاجتماعية والتعليمية وقنع هو بأن يعيش بقلمه .

* * *

لم يكن غاندى يضع القواعد كى يتقيد بها ، وإنما كان يفرض القاعدة أو المبدأ للاسترشاد الأخلاقى فى الخطة العملية . ولذلك نجد أن التزامه للمقاومة السلبية لم يكن جامداً . إذ هو كان يلجأ إلى العمل الإيجابى من وقت لآخر . أى أن « العصيان المدنى » لم يكن عنده ركوداً أو اعتزالا أو جموداً ، وإنما كان أيضاً عصياناً مباشراً كما نرى فى حادث الملح .

ذلك أن الحكومة الهندية كانت فى استغلالها الإمبراطورى تحتكر صناعة الملح ، وهو إدام أو تابل يحتاج إليه كل فرد . فالكسب عظيم منه والضرورة تكفل رواجه الدائم . ورأى غاندى فى سنة ١٩٣٠ أن هاهنا فرصة يجب أن تستغل لتحريك التمرد على الاستعمار وتجرئة الشعب الهندى على عصيان القوانين والأخذ بالشجاعة ، فدعا إلى مظاهرة شعبية تبدأ من معتكفه حيث كان يقيم إلى شاطئ البحر حيث الملاحات الحكومية .

وهناك يخالف غاندى القانون عمداً وينزل المتظاهرون إلى الملاحات

ويحملون الملح مجاناً . وكافح المستعمرون هذه المظاهرة بكل الوسائل ووجدوا من الهنود أنفسهم من أيدهم فى تزييف هذه الحرية أو شلها ، فمنعوا القطارات من السفر إلى الشاطئ . ومنعوا الخطابات . وعطلوا الصحف وراقبوها . وأوفدوا البوليس والجيش يحمل كل فرد منهم هراوة ضخمة ، ثم أنحوا على المتظاهرين بالضرب أو بالأحرى بالخبط حتى تحطمت الرءوس والأجسام وخضبت الأرض بالدماء وألقوا القبض على رأس الفتنة وداعية العصيان غاندى .

ولكن كل هذا لم يهزم المتظاهرين . وبقى العصيان يفشو ويزداد . وامتلأت السجون وفاضت . فأسس الإنجليز حظائر من الأسلاك يحبسون فيها الثائرين ، وأصبح المسجونون يعدون بمئات الألوف . وانتشر روح التمرد فى جميع أنحاء الهند فامتنع المالكون من أداء الضرائب واستقبال ألوف الموظفين . وتراءى للإنجليز أن الثورة تسير فى طريق النجاح وأن الأداة الحكومية قد شلت . وعندئذ فكروا فى أساوب آخر للمكافحة . فإنهم إلى جنب الضرب والاعتقال عمدوا إلى الحكم بالغرامات ، ولكنها كانت تجربة تعلم منها غاندى وتعلم الهنود كيف يكافحون . وفهموا وفكروا ودبروا .

وفى عام ١٩٣٩ عند شبوب الحرب الكبرى الثانية ترك غاندى هذا الأسلوب القديم للمكافحة . ودعا دعوة أخرى هى « اتركوا الهند » .
وترك الإنجليز الهند فى عام ١٩٤٨ . وتحقق الاستقلال .

* * *

وكان الهنود يعيشون أيام الإنجليز فى تقاليد الفقر والجهل والمرض، وليس شىء يعمل للذلة والهوان مثل هذه العناصر الثلاثة التى تجمع شرور العالم كلها . وهى العون الأول للاستعمار . ولذلك حاربها غاندى

جميعها بطراز جديد من المدارس يلائم ظروف القرية الهندية . وهذا الطراز هو ما يسمى الآن « التربية الأساسية » .

فى عام ١٩٤٥ كتب أينشتين عن غاندى هذه الكلمات البليغة :

« إن غاندى يتزعم الشعب الهندى لا تؤيده فى هذه الزعامة أية سلطة خارجية . وهو سياسى لا يقوم نجاحه على الحيلة أو المهارة فى الوسائل الفنية إنما على القوة الاقتناعية فى شخصيته ، وهو مكافح مظفر يحتقر على الدوام أساليب العنف . وهو حكيم متواضع قد تسلح بالإرادة كى يتناسق سلوكه ، وقد أرصد كل قواه لأن ينهض بشعبه ويرقى بمصيره . وقد جابه توحش أوربا بوقار إنسانيته ولذلك كان على الدوام يرتفع عليها . إن الأجيال القادمة سوف تشك فى أن إنساناً مثل هذا سعى بقدميه على أرضنا » .

وهذه كلمات عظيم قد رأى العظمة فى غيره وفطن إليها .

* * *

علمنا أن غاندى أيضاً حكمة الحكيم ليست بالاقتناء وإنما هى بالاستغناء ، وأننا نستطيع أن نحقق السعادة والمكانة ، وأن ننجز وعد حياتنا على الأرض ، بالقليل من الحاجات دون هذا البذخ الذى يضنينا بلوعة ثم لا يسعدنا الحصول عليه ، وأن ضرورات العيش من مسكن وملبس ومطعم قليلة ، بل إننا إذا أقللنا منها عشنا على أحسن حال كما تتوافر لنا بهذه القلة القوة والوقت للاستمتاعات العالية .

وعلمنا نحن الشرقيين أن الاستعمار عدو لا شك فيه ، ولكن هناك ماهو أعدى منه لنا وهو الاستمساك بعادات وتقاليد وقيم ثقافية واجتماعية شرقية لا يصلح أن تبقى فى القرن العشرين .



# ويلز

## فيلسوف الصحافة

الصحافة أدب جديد لم يكن يعرفه أسلافنا ، غايته أن يرتبط الكاتب بمجتمعه ويكتب عن عصره ويدرس مشكلاته . ولهذا الأدب قواعده بل سننه التى يجب أن يلتزمها الصحفى . وإذا كانت البلاغة لم تدرس إلى الآن هذا النوع من الأدب فذلك لأنها تبنى قواعدها على حال اجتماعية قد مضى عليها أكثر من ألف سنة . ومن هنا عقم هذه القواعد فى عصرنا وخيبة نتائجها .

قواعد البلاغة القديمة تعلمنا كيف نكتب فى جد الجاحظ أو هزل الحريرى ، ولكن الصحفى الذى يكتب عن شئون البورصة ، أوالڤيتامين الحديد فى الخميرة ، أومناقشات مجلس النواب ، أو نقل البريد بالطائرات ، أو القنبلة الذرية يجد قصوراً عظيما فى لغتى الجاحظ والحريرى بلاغتهما .

وإذا كان الأديب يكبر بمقدار مسئولياته ، فإن الصحفى هو أعظم الأدباء فى عصرنا . لأن أعظم ما يؤثر فى الجمهور ويغيره ويوجه للخير أو للشر هو الجريدة ، وذلك لقوة الإيحاء الذى ينشأ من تكرار ظهورها كل يوم أو كل أسبوع .

ولذلك أول شرط لبلاغة الأدب الصحفى أن يكون من يمارسه أميناً لقرائه مخلصاً لمثلياته ومبادئه ، لايخون ولا ينحرف ، لأن فى خيانته أو انحرافه إفساداً للقراء وبعثاً للشر . ثم يجب أن يكون على دراسة مثابرة للمشكلات العامة ، إذ هى موضوعه الذى يتجدد كل يوم . ومهمته هنا أن ينير ويرفع مستوى البحث من ظلام الجهل والعامية إلى نور المعرفة والثقافة . وأيضاً من العاطفة إلى التعقل . ويجب أن تكون له أهداف فلسفية يتجه بها ويوجه قراءه إليها . والفلسفة ألزم للصحفى مما هى لأى أديب آخر لقوة التوجيه التى يملكها أكثر مما يملكها أى أديب آخر .

وقد يضحك قارئ الصحيفة الأسبوعية المبهرجة من كلماتى هذه ، ولكنى أذكره بأن أعظم من مارسوا الصحافة فى مصر هو لطفى السيد وهو فيلسوف يهتم بأرسطوطاليس كما يهتم بترقية الزراعة أو الصناعة . وكذلك الشأن ، على مدى أوسع فى صحف أوربا وأمريكا . وصحافة بلا فلسفة هى صحافة العوام يكتبون للعوام .

لقد عرفت أديبين صحفيين من أعظم أدباء العصر هما برنارد شو و هـ . ج ويلز . كان كلاهما يكتب فى الصحف ويؤلف الكتب . ولكن مؤلفاتهما . هى أدب صحفى ممتاز . ولأنه ممتاز ، قد جمع وحفظ فى صيغة الكتاب . وما من كتاب ألفه هذان الاثنان إلا وهو يعالج مشكلة بشرية أو اجتماعية أو اقتصادية يجب أن تعالجها الصحيفة اليومية أو الأسبوعية . ومؤلفاتهما قد لا تقل عن مائة مجلد . وقد كان من حظى أن أرافقهما

وأتعلم منهما نحو نصف قرن . فقد كتب برناردشو عن فضائح الإنجليز دنشواى ، وعن الأثمان والأسهم فى البورصة ، وعن المجلس البلدى فى لندن ، وعن الحب والزواج ، وعن الإلحاد والإيمان ، وعن التأميم ، وعن الحرب والسلم ، وعن اللغة والهجاء . وكل هذه الموضوعات صحفية . وكذلك الشأن فى ه . ج . ويلز فقد كان آخر ما كتبه قبيل وفاته بأيام مقالا عن أخطار القنبلة الذرية . وقد دعا إلى الإيمان بالأديان بقوة وتكرار وإلحاح ، ثم رأى أن يدعو دعوة أخرى مضادة استغرقت سائر حياته . ولكنه كان مخلصاً حتى عندما نعده ضالا منحرفاً . وكان مخلصاً فى الدعوتين لأنه كان متطوراً .

وحياة ويلز الأدبية منذ شرع يكتب حوالى عام ١٨٩٥ إلى وفاته فى عام ١٩٤٥ هى تاريخ نصف قرن من التطور الذهنى لكاتب عظيم إزاء التطورات والانقلابات العلمية والاقتصادية والسياسية . ومؤلفاته الأولى كلها تفاؤل واستبشار بالمستقبل . . . العلوم تسود المعارف وتغربلها ، تزويد سلطة الإنسان على الأرض والماء والسماء ، الأمراض تنهزم وتنمحى ، المحصولات الزراعية تزيد وتلغى الجوع ، الروح التنظيمى يعم العالم بالاشتراكية والتعليم يزداد . أجل ، وسوف تؤلف لجنة عالمية تتصل بعصبة الأمم أو بالأمم المتحدة تؤلف موسوعة من نحو ثلاثين أو أربعين مجلداً ، ثم تترجم إلى جميع لغات العالم . وعندئذ تتداول جميع الشعوب هذه المعارف المثقفة بأرخص الأثمان ويدخل ويلز فى التفاصيل فيقول يجب أن نؤلف هذه الموسوعة على مبدأ الورق السايب بحيث يستطيع المقتنون للموسوعة أن يستبدلوا بالأوراق التى قدمت وعقمت معارفها أوراقاً جديدة تحوى المعارف الجديدة وتبقى الموسوعة بهذه الطريقة يطرد تجددها على مدى السنين .

وهذا الاستبشار بالمستقبل يملأه طرباً . فهو داعية حب وخير

وإيمان حتى ليكتب عن الكوارث التى وقعت بأيوب ، وهو أيوب عصرى ، وليس توراتياً ، بحيث يذهب المال والولد والنسل والضرع ، يذهب كل شىء ولكن يبقى الإيمان . الإيمان بالله ملك الملوك .

ثم تأتى الحرب الكبرى الأولى فيخمد شى من هذا اللهب . ولكن يبقى منه شىء كبير . إذا هو يؤلف لنا فى عام ١٩١٩ تاريخاً للعالم كله يقول فيه إننا أمة واحدة ، وإن هذه الدنيا قريتنا الكبرى التى يجب أن ننظمها ونخطط حركة المرور فيها . وإننا يجب أن نتهيأ لإيجاد حكومة واحدة مع إدارة عامة موحدة للتعليم فى دول الدنيا . ولكن بعد عشر سنوات نرى هذا الاستبشار بالمستقبل يتقهقر ، فهو غاضب حانق يائس وهو يدعونا إلى مادية صرفة ، مادية منظمة يتوافر فيها الطعام والمسكن والمعرفة . ويقول إن هذا هو الدين . وبعد أن كان يستخرج من التوراة شخصية معذبة ينقلها إلى عصرنا ويثقلها الهموم والمتاعب وينتهى بها بعد كل ذلك إلى الإيمان والرضى والفرح ، يعود بعد عام ١٩٣٠ فيجمع أشياء أخرى من التوراة يهاتر بها ويسب ويقدح . حتى إذا بلغ عام ١٩٤٥ يعمه اليأس العلمى الذى كان أساس الأمل من قبل ، فيتحدث عن انقراض البشر بالقنبلة الذرية .

* * *

لقد عشت مع هذا الإنسان وأحببته ، وإليه أعزو روح الجد فى برنامجى الثقافى والآفاق الموسوعية فى معارفى ، والاتجاه الدينى الذى أتجهه فى الصحافة فضلا عن التأليف . فإنى أدرس جغرافية هذا العالم وتاريخه بالروح الدينى ، واهتمامى بما يجرى فى إسبانيا على أيدى الفاشيين ، أو فى الصين على أيدى الشيوعيين ، يفوق اهتمامى بشئونى الشخصية .

وأحداث العالم الكبرى يزيد وقعها فى نفسى على الكوارث التى تقع بشخصى . ومشكلة القنبلة الذرية هى أكبر من أن أقول إنها مشكلة لى . ولم أكره ولز إلا فى يوم واحد . وذكرى لهذه الكراهة يدل على أنها حزت فى نفسى حزًّا لم يبرأ إلى الآن ، ذلك أنه قال فى مقال صحفى إنه لو كان على سفينة ومعه برناردشو وبافلوف العالم الروسى ثم تعرضت السفينة للغرق واضطر إلى الاختيار بين إنقاذ شو أو إنقاذ بافلوف لأنقذ بافلوف دون شو !

وآلمتنى هذه الكلمة كما آلمت برناردشو كثيراً حتى إنه كررها فى مضض . وعندى أنه لو كانت نفس برناردشو من ذهب فإن نفس ويلز من طين ، حتى لو قيل لى إن الطين أنفع من الذهب . وأستطيع أن أقول لروح ويلز : أنت روح من طين ، لأن ويلز لم يجن هذا الجنون المقدس الذى رأيناه من شو فى حادث دنشواى . أين كانت بشريتك التى تزعم أنها ديانتك السيامية حين شنق أبناؤنا وجلدوا أمام أمهاتهم وأبنائهم وزوجاتهم وآبائهم ؟ لقد كنت أخرس حين نطق ، بل حين صرخ برناردشو .

وبافلوف عالم سيكولوجى ، وشو أديب . ولكنه فى أدبه يعلو على العلم ، ونزعة ويلز العلمية هى التى أسقطته هذه السقطة .

نشأ ويلز فى بدرون الحياة الاجتماعية إذ كانت أمه خادمة فى منزل لأحد الأثرياء ، وأول ما يذكره من ذكريات الطفولة هو رؤيته لأحذية الناس وهم يسيرون على طوار الشارع وهو قاعد فى أسفل الطبقة البدرونية يتطلع من النافذة إليهم فيرى أحذيتهم دون وجوههم .

وله كتاب أو رسالة تدعى « تعس الأحذية » .

واستطاع أن يتعلم ويصل إلى كلية العلوم حيث تخصص فى البيولوجية

« أى علم الحياة » وألف كتاباً عن تشريح الأرنب . وكان الدكتور هيوم، الذى كان يدير مصلحة الجيولوجيا فى حكومتنا ، زميله فى الكلية .

وحوالى عام ١٨٩٠ حين شرع ويلز يكتب كانت الأصداء للمناقشات الفلسفية والعلمية لنظرية التطور تتردد فى ذهنه، ومن هنا مؤلفاته الأولى التى تنزع إلى الخيال العلمى وتجرى على نسق « جول فيرن » ، وإن تكن على مستوى أعلى . وهى تتدرج من التافه مثل قصة « طعام الآلهة » إلى الجليل مثل « حرب العوالم » .

ورويداً رويداً ينجذب العالم ويلز إلى الأدب والفلسفة والاقتصاد والسياسة بضغط الحوادث ، إذ هو يعيش فى مجتمع حى ويقرأ صحفاً مرآوية تنقل إليه صورة العالم المعذب بالإمبراطورية البريطانية والاستعمار الفرنسى ، والتعطل الذى يشقى ملايين العمال ، والجهل الذى يعم الفقراء ، والمرض الذى يبليهم، فيشرع فى الدراسة وينتهى إلى تأليف كتاب « عوالم جديدة للقدامى » يقول فيه إن العلاج الوحيد للعالم هو الاشتراكية وليس شىء غير الاشتراكية .

وهنا يتعين موقفه . فهو اشتراكى ارتقائى يسارى . وعندئذ يدعوه زعماء الجمعية الفابية كى يكون عضواً فيها حتى تنتفع بمواهبه الأدبية فى نشر الاشتراكية . ويدخل الجمعية ويلقى المحاضرات ، ولكنه يصطدم ببرناردشو وينهزم فيخرج من الجمعية . فهذه هى الحزازة الأولى بين الأديبين ، وقد تركت على لسانه مرارة جعلته ينطق بتلك الكلمات الحاقدة عن موت برناردشو وحياة بافلوف .

وكان الخلاف بشأن برنامج الجمعية ، فإن ويلز أصر على أن يكون ضمن هذا البرنامج وفى أساسه تحرير المرأة.. والتحرير هنا يزيد عشرة أضعاف على مايفهمه القارئ المصرى عن معنى التحرير . وعارض برناردشو

هذا الاقتراح لا لأنه يكره التحرير بل لأنه كان يرى أن الجمعية يجب أن يقتصر نشاطها على نشر الاشتراكية ، وحسبها هذا دون التطلع إلى أية دعوة أخرى .

حدث هذا حوالى عام ١٩٠٦ ، ومن ذلك العام إلى يوم وفاته في عام ١٩٤٥ نجد في ويلز المجاهد المتوسع في جهاده ، وجهاده هذا للعالم وليس لبريطانيا وحدها فهو يدعو إلى إيجاد قانون أساسى عام ينص فيه على حق كل إنسان . فلكل إنسان الحق في العيش وفي العمل ، كما أن له حق التفكير والعمل ، وكذلك الحق في المعرفة . أى يجب أن يتعلم .

وهو يدعو إلى ارتباطات ونظم عالمية لا تزال في نمو وارتقاء حتى تتقلص الحكومات العديدة القائمة وتزول في حكومة عالمية واحدة وهو يدعو إلى إيجاد قانون عام لصيانة الثروات العامة باعتبارها ملكاً مشاعاً للأمم ، للبشر . أى يجب أن يحافظ على مناجم الفحم في إنجلترا أو عيون البترول في إيران ، وغابات أفريقيا والهند ، ووحوش الغابات ، باعتبار أن كل هذه الكنوز إنما هى ملك عام مشاع للبشر . وليس لأمة أن تستأثر بواحد منها .

وهو يطلب التنظيم العلمى للإنتاج ، ويذكرنا أن مدينة برمنجهام وحدها تستخدم من القوة في أيامنا لإنتاج مصنوعاتها مقدار ما كانت تستخدمه بريطانيا جميعها أيام الملكة إليصابات حوالى عام ١٦٠٠ ، وأن العلم هو الذى أدى إلى ذلك وأننا حين نستخدم العلم في الزراعة والصناعة والبناء في أقطار العالم فإن الجوع يزول كما أن الوقت يتوافر لجميع أبناء البشر كى يهنأوا بالسعادة وكى يتعلموا طوال أعمارهم .

والتعليم هو وسواس ويلز ، وسواسه النبيل ، فإنه يرى أن التنظيم العلمى لأحوال عالمنا جدير بأن يهيئ الفرصة لكل إنسان كى يحظى بتعليم جامعى .

وبداية هذا التعليم هو إخراج الموسوعة التى أشرنا إليها .

لست أشك فى أن هناك من يحبون أن يسألونى حين أكتب عن أحد الأدباء عن قيمته الفنية ، وإذن ما هى قيمة ويلز الفنية ؟

وجوابى أن الفن ، أى العناية بالتعبير الجميل وتصوير الأهداف والصور الجميلة ليست فى ويلز أوشو أو تولستوى أو أى أديب آخر أحببته ، وإنما أحببته لأنه انغمس فى مهمة أكبر وأخطر وأجل وأسمى من هذا الذى يسميه البادئون والذاهلون والموهون فنًّا .

أين يكون الفن فى حبل المشنقة الذى يمسح بالصابون كى يأخذ بعنق المشنوق ، ويضغطه كما يقول تولستوى ؟

أين يكون الفن فى البغى تبيع عرضها لكل قادم كى تجد القروش التى تأكل بها كما يقول برناردشو ؟

أين يكون الفن فى ويلز وهو يكافح من أجل التنظيم العالمى ويبحث الوسائل لإلغاء الحروب والجوع والجهل ؟

الحق إن قصص ه . ج . ويلز ودرامات برنارد شو هى جميعها لإبراز الأفكار ، وليست لإبراز الأشخاص . وهى جميعها لعرض المشكلات وليست للفن .

لقد عالج هؤلاء المؤلفون أقذارنا وقروحنا ، ولطخوا أيديهم فى المعالجة بالوحل والدم ، كى نتعلم النظافة والصحة ، فلم يجدوا مع الوحل والدم مجالا للفن .

فإذا ذكرت لى أن دستوفسكى قد عالج الوحل والدم وكان مع ذلك فناناً ، فإنى أجيب بأنه لم يكن من البشر . إنه كان قديساً فوق البشر .

وأخيراً يجب أن نختم الكلام عن ويلز بأن نتعمق قلبه ونسأل عن إيمانه وديانته .

والقارئ لمؤلفاته العديدة يستطيع أن يقول إن هذا الإيمان أو هذه الديانة هما العالمية أو البشرية من حيث إن تنظيم العالم يؤدى فى النهاية إلى خدمة البشر . وقد انتهى إلى النفور من الغيبيات ، بل إلى القول بضرورة مكافحتها وألف فى ذلك رسائل وكتباً . وعند ويلز أن الدين ، وهو الدين البشرى ، ضرورة حتمية للنفس ، وهو يعرفه بأنه تشوف الإنسان إلى ما هو أعلى منه وسعيه لمصلحة عالمية تعلو على مصلحته الشخصية . وهو يقول هنا إنه ليس هناك هناءة أو سعادة إلا حين نلغى ذواتنا ومصالحنا فى سبيل ذات ومصلحة تعلوان علينا . وهذه الذات هى البشرية جميعها وهذه المصلحة هى العالم كله .

والهدف الذى يهدف إليه هذا الإيمان هو بكلمات ويلز نفسها : « الانتصار المتدرج على الجوع والعطش والمناخ والمادة ، والقوة الآلية والألم الجسمى أو العقلى ، والفضاء والمسافة والوقت . وعلى الأشياء التى تبدو لنا كأنها قد فقدت فى الماضى ، وكذلك على الأشياء الممكنة فى المستقبل . وسيبقى نوعنا ، النوع البشرى ، فى امتداد هذا الكون الأوسع كى نعيش فيه على وجدان أكبر .

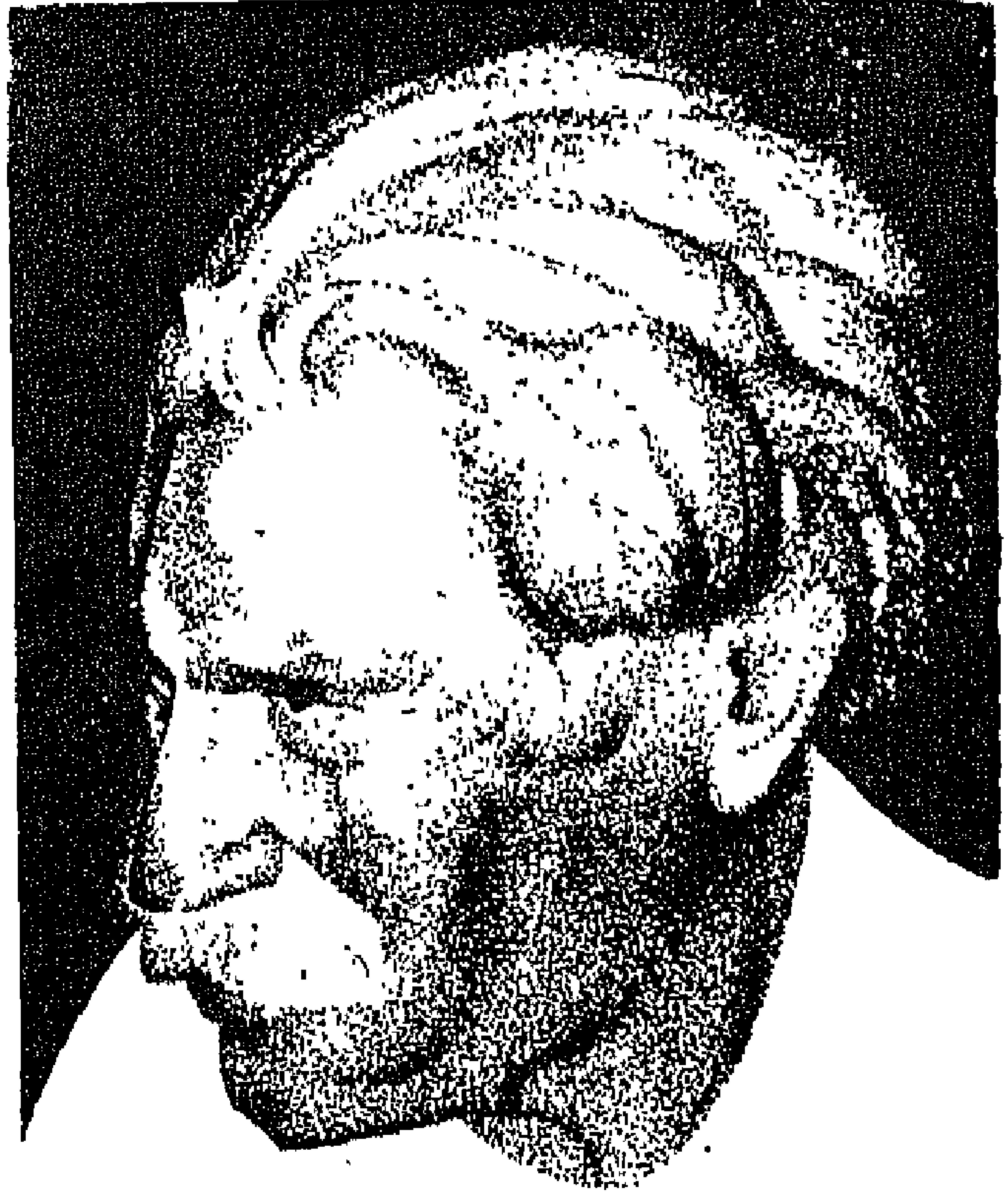
كلمات مادية صرفة ، ولكنها تهدف إلى خدمة البشر . فاختراع آلة « لتكييف الهواء » هو انتصار على المناخ ، فهو دين . ومخترع البنسيلين هو رجل دين أيضاً لأنه تغلب بهذا العقار على ألم جسمى أو عقلى .

فإذا سألنا ويلز : ماهى هذه البشرية التى تهدف فى ديانتك إلى خدمتها ؟ لأجاب بأنها البشرية المتدرجة فى التفوق ، وقبل سنين دعته جريدة الماتان الفرنسية إلى أن يدلى برأيه بشأن المشروع الذى كانت تعده الحكومة كى تصدر قانوناً لمساعدة العائلات على زيادة التناسل فكتب يقول بأن الآباء الذين يستحقون هذه المساعدة هم الأكفاء جسما وعقلا. أما من كانوا غير أكفاء ، أى من كانوا ناقصين فى صحة الجسم أو صفاء العقل ،

فليس من المصلحة البشرية أن ندعوهم إلى زيادة التناسل . وهذا اتجاه تطورى دارويني . أجل ، إن نظرية التطور قد عمرت العالم المثقف بروح ديني جديد لأن الإنسان يجب أن يعلى عليه إذ هو معبر بين الفرد والسبرمان .

ويلز فيلسوف الصحافة ، هو ثمرة الاندفاع العلمى فى القرن التاسع عشر ، قد وجد فى ديمقراطية القرن العشرين الجديدة ميداناً لتعاليمه . لأن هذه الديمقراطية عممت التعليم بالمدارس . حتى أصبح العالم الإنجليزى يطبع فى العام أكثر من عشرين ألف كتاب جديد ، وهذا زيادة على مئات الجرائد اليومية والمجلات التى تعلم وتثقف هؤلاء المتعلمين الديمقراطيين . وكان ويلز قوة توجيه لهم . وكانت النبرة العالية فى صوته هى : هذا العالم هو عالمنا ، هو قريتنا . هو حديقتنا . وعلينا أن نصلحه وننظمه .

وإنى أكتب هذه الكلمات فى صبيحة أول يناير من عام ١٩٥١ اليوم الأول من النصف الثانى من القرن العشرين فأحس كلمات ويلز بل أحس قوة الصدق فيها . ذلك أننا قبل أربعين أو خمسين سنة كنا نقول إن حرباً قد تقع بين دولتين أو ثلاث دول لا شأن لنا بها ، ولكن هذا القول لم يعد يصدق فى أيامنا . فإن حرباً تقع بين روسيا وأمريكا هى حرب أهلية للعالم كله ، هى قتال جنونى يشتبك فيه جميع سكان هذه القرية ، هذا العالم ، فى تشنجات دموية تزلزل وتحطم . . . هذه هى عبرة ويلز وهذه هى رسالته .



# شفايتزر
## صديق الزنوج

السيكلوجية هى التجسس على النفس". وقد تعودت . بما كسبته من الدربة السيكلوجية ، أن أتجسس على المؤلفين وأن أسأل عن حياتهم ومكانتهم الاجتماعية ، وتربيتهم ، حين أرغب فى الوقوف على البواعث التى حملتهم على الدعوة إلى فكرة معينة أو اتخاذ أسلوب خاص . ثم كثيراً ما أحس ، كما سبق لى أن أشرت إلى ذلك ، أن حياة المؤلف هى نفسها كتابه الأول ، وأنه إذا لم يكن قد أحسن تأليفها فإنه لن يحسن شيئاً آخر . وأن مشكلاته الخاصة التى عاناها فى حياته هى نفسها المشكلات العامة التى عالجها فى مؤلفاته .

اعتبر مثلا تولستوى . فإنه جحد مناعم الحضارة ، والانغماسات الكثولية والجنسية ، وحياة الترف والثراء . بل إنه بعد أن قضى سنى

النضج والإيناع وأخرج المؤلفات الفنية البديعة ، عاد فجحد الفن وعده استهتاراً يجب أن نتجنبه وأن نقنع بسذاجة العيش بل بالفقر والكفاف .

وكل هذه المؤلفات كانت ثمرة حياته أو مرآة حياته . فقد انغمس فى اللذات الجنسية أيام شبابه ثم نفضها وجحدها . ولكنه أحس من التوترات ما جعله يكافح جسمه ويضغط أعصابه . وكانت مؤلفاته تفريجاً أو شرحاً أو علاجاً لهذه التوترات والضغوط . وكان يقول بأننا يجب أن نتجنب المرأة إلا بغية التناسل . ثم كان ينهزم أمام هذا العزم فيطلب زوجته ويترضاها . وبلغ من كراهته للفن أن قاطع تأليف القصة باعتبارها تسلية وخيمة تنأى عن جد الحياة . ولكنه ، وهو فوق الثمانين ، كان يؤلف القصة ثم يخبئها فى درج المنضدة . وكان يحاول أن يعيش بالكفاف ، وأن يحترف صنع الأحذية وأن ينزل عن أرضه للفلاحين . ولكنه كان ينهض فى الفجر و « يأمر » خادمه بأن يلجم جواده ويخرج به إلى الحقول فيعدو به فى وجه الريح ويلتذ هذه « السيادة » على الأرض بل هذا الكفاح للريح والطبيعة .

وليس شك أنه كان ، بعد أن يعود إلى غرفته ، يندم على ضعفه ويحاول أن يكف ، لا بل أن يربى نفسه من جديد ، فيخرج من درج المنضدة المشرط والأديم كى يصنع حذاء سخيفاً ركيكاً لأحد الفلاحين .

وما أعتقد أن حملته على شكسبير كانت إلا تفريجاً عن إحساسه بالخطيئة التى كان يرتكبها هو بانغماسه فى الفن . فإن شكسبير كان فناناً عظيماً ، وكان تولستوى فناناً عظيماً أيضاً ، وقد رأى صورته فى شكسبير فلعن فى شخصه هذا الشاعر الإنجليزى العظيم . وهو إنما كان يلعن نفسه ويحاول التخلص من هذه المتناقضات التى كانت تحطم أعصابه . وأى تناقض أكبر من هذا الانفصال بين ناس يعيشون فى ترف الفن يؤلفون الأشعار والقصص ، وبين الملايين الكادحة التى تحيا بلا حياة وبلا فن ؟

إن عقولنا تزداد فطنة وبصيرة حين نتعمق حياة المؤلف ونسأله . من أين لك هذا ؟ .

من أين لك هذه الأفكار ؟ وما هى الأحداث التى نزلت بك ثم أنتجت هذه الأفكار فى مؤلفاتك ؟ ومن أين لك هذا الأسلوب ؟ وما هى العلاقة بينه وبين مكانتك الاجتماعية ؟ هل أنت من الشعب تخاطب الشعب بلغته؟ أم أنت فى مكانة اجتماعية عالية تعلو على الشعب فتتعالى عليه بأسلوبك ؟

إنى حين أجد مؤلفاً يبغض التعصب الدينى ، ويكافح الغيبيات ، ويدعو إلى مذهب العقليين ، ويقول بضرورة الاشتراكية ، أسأل : هل هو فرد فى طائفة من طوائف الأقليات تعانى ضغطاً اقتصادياً أو اجتماعياً بحيث يحب هذه المبادئ وينقلها إلى الوجدان الفنى ؟ أليست علة ذلك أنه قد أحس أن الغيبيات تفصل بين البشر ، وأنه لذلك بشرى العقيدة اشتراكى المذهب ؟

واعتقادى أنه إذا كان رجل السياسة مكلفاً أن يجيب عن سؤالنا : « من أين لك هذا ؟ » بتقديم الحساب المفصل عن ممتلكاته ، فإنه يجب على الأديب أن يجيب عن مثل هذا السؤال بأن يكتب تاريخ حياته حتى نفطن إلى البواعث ونتعمق الأسرار ونتربى ونستبصر بكوارثه .

* * *

ولكن هناك من المؤلفين والمفكرين من لا يحوجنا إلى مثل هذا السؤال لأن حياتهم مكشوفة . وقد كشفوها هم بأعمالهم أو كفاحهم . ولذلك نحن نقرأ سيرتهم فى هذه الأعمال أو هذا الكفاح لنسترشد ونتعلم ونقتدى ، فضلا عن النور الذى نستضىء به من مؤلفاتهم . وهذا هو الشأن فى ألبيرت شفيتزر .

هو مؤلف فى الأدب والاجتماع والفلسفة والمسيحية قد استطاع أن ينير الأذهان ويهذب الحيوان فى الإنسان . ولكنه زيادة على المؤلفات قد عمل وكافح ، حتى إننا لنجد فى هذا الكفاح ما يغنينا عن قراءة مؤلفاته ، كما نجد فى كفاح غاندى ما يغنينا عن مؤلفاته .

قضى شفيتزر قرابة أربعين سنة وهو فى « لا مبارينيه » فى سنغال الفرنسية بأفريقيا الغربية يعالج أمراض الزنوج بالمجان ، ويجمع لهم التبرعات من أوربا وأمريكا .

وقد بنى لهم مستشفى ، وأعد له كل ما يحتاج إليه من عتاد صحى وعلاجى إلى الأطباء الذين أقنعهم بترك أوربا والرضا بالعيش لخدمة المرضى من الزنوج فى شمس أفريقيا المحرقة .

وكان هذا عملا جليلا أرصد له حياته ، وعاد إلى بلاده وهو أعمى إذ لم تتحمل عيناه شمس أفريقيا . ولكنه عاد بعد أن أنجز وعد حياته كما ينجز أحدنا وعداً من وعود المجد والشرف والإنسانية .

وهو يقيم هذه الأيام ( عام ١٩٥١ ) فى قريته القريبة من « استراسبورج » ينتظر الموت بعد أن جاوز الثمانين .

كان ألبرت شفيتزر صبياً ألمانياً نشأ فى أسرة ألزاسية حيث تتاخم ألمانيا فرنسا ، وأحياناً تخالطها . وكانت نية أبويه أن ينشأ نشأة دينية . وقضى ألبيرت تلمذته والتحق بالجامعة فى استراسبورج وحصل على الشهادة الجامعية فى الإلهيات ، ولكنه طوال دراسته يكب على الموسيقا دراسة ومرانة . ونبغ فى العزف على الأرغن ، وهو أكبر آلة موسيقية لاتخلو منها كنيسة كبرى فى أوربا . واحتضان الكنائس للموسيقا قد رفع من قيمة هذا الفن وأكسبه الاحترام الذى لانجده للأسف فى بلادنا .

وكان يحصل من العزف فى الكنائس على أرباح كبيرة . وذاع اسمه -

حتى كانت الكنائس الكبرى تدعوه فى الأعياد والحفلات . وله مؤلفات عن باخ وعن الموسيقا تعد صفحاتها بالآلاف .

وإلى هنا ويتساءل القارئ : رجل حصل على الثقافة وعلى الحرفة وعلى الكسب ، ما الذى بقى من حياته يذكر فيؤثر ؟

والجواب أن الباقى كان كل شىء . فإنه جحد حياته الماضية كلها وآثر عليها كفاحاً إنسانياً يحتاج إلى الدم والدموع ؟

فقد تساءل شفيتزر وهو شاب : ماذا أفعل كى أخدم الزنوج الذين سحقهم الاستعمار ، البريطانى والفرنسى والهولندى والبلجيكى ، وكيف أستطيع خدمتهم ؟

وأجاب المبشرون بأنه يمكنه أن يرحل إلى أفريقيا حيث يبشر الوثنيين من الزنوج بالمسيحية . أليس هو دكتور فى الإلهيات ؟

ولكنه أحس مرارة التهكم فى هذا الاقتراح . فإنه كان يعرف ، بل يوقن ، أن كثيراً من المبشرين كانوا أعواناً للاستعمار . وزيادة على ذلك تساءل هو : كيف نقدم للزنوج تعاليم المسيحية وهم قد عرفوا أن هؤلاء المسيحيين الذين تعلموا هذه التعاليم هم أنفسهم الذين ينهبونهم ويذلونهم ويحرمونهم الثقافة والمدنية والعدل والشرف ؟

لا . إنه لن يكذب عليهم، ولن يزعم لهم أن المسيحيين المستعمرين أشراف . وإذن ماذا يفعل ؟

لقد بلغ الثالثة والثلاثين ، وكل ما يحذقه من المعارف دراية ومرانة عظيمتان فى فن الموسيقا . وأيضاً فقهيات جدلية فى المذاهب المسيحية . وأنها لسوف تكون سخرية حقاً أن يقصد إلى الزنوج ويعرض عليهم هذه البراعات !

لا إنه لن يفعل ذلك ..

وحزم رأيه ، ثم حزم أمتعته ، ورحل من ستراسبورج إلى باريس . وهناك عاد تلميذاً ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، والتحق بكلية الطب .

إنه حين يكون طبيباً يستطيع أن يرحل إلى أفريقيا وأن يعالج المرضى من الزنوج حتى يعرفوا أن بين الأوربيين من يواسى جراحهم ويعالج أمراضهم كما عرفوا من آلاف الاستعماريين المجرمين .

وبعد أربع سنوات نال شهادة الطب . فحزم رأيه وحزم أمتعته ورحل إلى لامبارينيه فى سنغال الفرنسية ، وهناك أسس مستشفى ، وأقام مع زوجته يخدمان الزنوج نحو أربعين سنة عاد بعدها فى سنة ١٩٤٩ إلى قريته التى عرفها وهو صبى بالقرب من ستراسبورج . عاد وهو أعمى .

وإلى هنا نستطيع أن نقتنع بأننا عرفنا إنساناً بارًّا بالإنسانية .

ولكن شفيتزر ، كما كان رجل عمل وكفاح ، كان مفكراً عميقاً يبحث ويستقصى ويحاول أن يهتدى إلى يقين . ومن هنا مؤلفاته العديدة . فقد ألف عن الموسيقا . ثم ألف عن المسيح وحوارى المسيح بولس.

ولا بد أنك ، أيها القارئ ، ستقول إن ها هنا إنساناً مسيحيًّا قد درس الإنجيل وعمل بتعاليم المسيح . وهذا حق . ولكنه ليس كل الحق .

ذلك أن شفيتزر ألف كتاباً عن المسيح الذى أحبه ،وعمل بتعاليمه . ولكنه عالج حياته بمشرط فرويد بما لا يرضى المسيحيين . وقد قرأت الكتاب وأحسست وأنا فى الفصول الأخيرة أن الحلوى التى كنت ألوكها بلسانى قد استحالت إلى علقم مر لا أسيغه ولا أطيقه ، ولكنه ، أى شفيتزر ، يقول ، وكأنه يحس برعشة الاشمئزاز الذى أحدثه تحليله السيكلوجى القاسى : وماذا علينا أن نؤمن بالفلسفة العظيمة حتى ولو كان داعيها ..

إنها مأساة . وإننا نحن البشر لا نطيق كل الحق ...
وإذن ما هو اليقين الذى يستند إليه شفيتزر ؟

ما هو اليقين الذى يحمله على أن يترك الثراء والمجد والراحة والمدنية ويرحل إلى أفريقيا ، ويقضى هناك أحسن سنى عمره فى خدمة الزنوج بعد أن يستعد لخدمتهم بالدراسة أربع سنوات فى جامعة باريس ؟

هذا اليقين هو احترام الحياة . إننا يجب أن نحترم الحياة كائنة ما كانت ولا نقتل نملة إلا إذا حتمت الضرورة ذلك .

ألسنا نحن الأحياء جميعاً ، من العشب الذى ندوسه إلى الجواد الذى نركبه ، إلى الكلب الذى يرافقنا ، إلى الشجرة الخضراء ، ألسنا جميعاً ننتمى إلى أصل واحد ونسير فى موكب التطور نحو المستقبل ؟

ثم احترام الحياة هو مفتاح يهيئ لنا التفكير السليم فى تطور المجتمع البشرى ، فهل نقنع من شفيتزر بذلك ؟ إنه يستطيع أن يقول انظروا إلى حياتى .

لقد أحببت شفيتزر على الرغم من العلقم الذى ملأ به فمى . وعلى الرغم من السحب الباهرة الناصعة التى أحالها إلى قتام أسود . ورضيت وأنا كاره أن أستمع بعقلى إلى أقواله ، كما هدأت نفسى إلى عجزى عن الرد عليه . وتقبلت دعوته إلى الحياة فى ترحيب وسرور ، لأن دراستى للتطور قد جعلتنى على إحساس عميق بوحدة الحياة نباتاً وحيواناً وإنساناً . ثم هو بعد كل هذا ، لم يعترض بكلمة واحدة على سمو الأخلاق التى دعا إليها المسيح .



## چون ديوى
## فيلسوف العلم

كنت أتحدث ذات مرة مع الدكتور كليلاند مدير الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن مركب أوديب أو مركب النقص لا أدرى ، فأنصت إلى ثم رفع عينيه فى وجهى يسأل فى خبث : هل هناك إحصاءات عن هذا الموضوع ؟

وبهذا السؤال أفحمنى وأضحكنى معاً .

فإنى أحسست أن السؤال أمريكى ، هو سؤال ينبع من الوسط الأمريكى الذى يعتمد على العلم ، ويحيا على أساس المعارف العلمية ، وهو التجربة . والإحصاء يقوم فى علم الاجتماع مقام التجربة فى الطبيعيات أو الكيمياء من العلوم المادية .

ويجب أن نسلم بأن الكثير من معارفنا السيكلوجية لم يرتفع إلى مقام

العلم . وقصارى ما نقول عن هذه المعارف إنها « فروض » ننتفع بها فى تفكيرنا . وأن هناك ما يرجح صحتها لأننا ، حين نعمل بها ، نجد النتائج الحسنة .

ولكنها ليست علماً ، وإنما العلم هو ما قام به بافلوف الذى جرب التجارب فى الكلاب واستنتج النتائج . هو أيضاً تلك الحقائق التى استطاع السيكلوجيون أن يستخرجوها بالإحصاء بالتجارب التى قاموا بها بين الطلبة ، أو العمال ، أو الأزواج ، أو المسجونين ، أو نحوهم .

والعلم هو شيء جديد فى عصرنا . إذ ليس هو محض التفكير والاستنتاج . وإنما هو التخيل أولا ، ثم التجربة باليد ، ثم التفسير بما يتلاءم مع النتائج من هذه التجربة .

وشيوع الأسلوب العلمى فى أيامنا قد جعل الفلاسفة والأدباء يتشككون فى قيمة ما يمارسون من فلسفة وأدب ، ولذلك أصبحت الفلسفة « تجريبية » .

وصاحب هذا الرأى أو هذه الدعوة إلى اتخاذ الأسلوب العلمى فى الفلسفة هو چون ديوى الذى مات قبل سنتين والذى يعد من أكبر الفلاسفة الأمريكيين ، كما أنه مؤسس المدارس « الارتقائية » الجديدة التى دعا فيها إلى أن تكون المدرسة مجتمعاً صغيراً يمثل المجتمع الذى سيعيش فيه التلميذ أو الطالب بعد ذلك . وفلسفته عن التعليم تندغم فى فلسفته عن الحياة .

وأنا أحاول هنا أن أشرح فلسفته التى تأثرت بها ، والتى ما زلت أسترشد بها وأعتمد على أسلوبها فى حياتى الذهنية .

وأبدأ بما أستطيع أن أسميه « مفتاح » التفكير الفلسفى « ديوى » وهو أنه ليس فى هذا الكون ، شيء كائن ، أى ثابت لا يتغير . لأن كل ما فيه

من ناس أو حيوان أو نبات أو جماد هو أشياء « صائرة » أى أنها فى تغير لا ينقطع . أو بكلمة أخرى هى فى تطور .

نحن ، وكل شىء حولنا ، فى صيرورة تغير ، ولسنا فى كينونة ثابتة .

واعتقادى أن الذى غرس هذه الفكرة فى الأذهان العصرية هو داروين حين أثبت أن التطور هو الأصل والمبدأ فى عالمنا .

ومادام التغير أو التطور هو الأساس لوجودنا فيجب لذلك أن نقول بالتجربة أى التجربة فى الفلسفة ، والتجربة فى الاجتماع ، والتجربة فى التربية .

ذلك أن مجتمعنا ليس نهائياً ، إذ هو سيتطور . ومادام هذا شأنه يجب أن نتناوله بالتغير كلما وجدنا الحاجة إلى هذا التغيير .

هذا هو المفتاح الأول . أما المفتاح الثانى الذى يفتح لنا أبواب الفلسفة عند ديوى فهو أن الفصل بين الماديات والمعنويات الذى قال به أفلاطون ليس حقيقة وإنما هو وهم . فالمادة والروح ، والجسم والعقل ، والفكرة والمادة ، كلها شىء واحد .

وهو يجبهنا بالقول بأننا لم نعرف قط عقلا بلا جسم ولا فكرة بلا مادة .

أما المفتاح الثالث فهو التسليم بأن معارفنا عن الكون والأشياء موقتة ، أى لوقتنا أو لعمرنا هذا فقط . وهى ليست نهائية . ولا نستطيع لذلك أن نقول إنها صادقة . لأن هذه الأشياء فى تطور . وقصارى ما نستطيع أن نقوله عن المعارف البشرية إنها « آلة » و « وسيلة » نفهم بها الأشياء . وغاية هذا الفهم غير النهائى إنما هى التسلط على الطبيعة واستغلالها لمصلحة البشر .

لو كانت الأشياء ثابتة ، ولو كان الكون ثابتاً ، ولو كانت عقولنا

ثابتة ، لكان فهمنا لهذه الأشياء ثابتاً نهائياً . ولكننا نحن جميعاً فى صيرورة ، نصير ونتغير ، ولذلك فإن هذا الفهم أيضاً سيتغير ولا يمكن أن يكون نهائياً .

وما عندنا من فهم عن الكون والأشياء إنما هو صورة وقتية ننتفع بها، ويجب أن ننتفع بها فى استخدام قوى الطبيعة لمصلحة الإنسان .
لا . ليست الغاية من الفلسفة أن نعرف أسرار الطبيعة ، وإنما هى أن نستخدم قوى الطبيعة .

أما المفتاح الرابع فهو أن الذكاء البشرى اجتماعى .
فما عندنا من أفكار وآراء وعقائد، وعواطف ، وفلسفات ،إنما مرجعها جميعها إلى المجتمع الذى نعيش فيه ، وكان يمكن ديوى هنا أن يقول إن اللغة اجتماعية وإنها الوسيلة للذكاء إذ لا يستطاع التفكير بلا لغة .

هذه هى الأسس لفلسفة ديوى التى يسميها « الآلية » أى أن الفلسفة يجب أن تكون آلة أو وسيلة للفهم وللتسلط بهذا الفهم على الطبيعة .

وربما يكون من الحسن أن ألخص هذه الأسس الأربعة فيمايلى :
١ ــ أننا وكل شىء حولنا فى صيرورة ولسنا ثابتين على حال لا تتغير .
٢ ــ كل ما فى هذا الكون هو وحدة لا تنقسم . فليس هناك فرق بين الماديات والمعنويات ، ولا بين الحياة والمادة ، ولا بين الجسم والعقل . بل ليس هناك عقل مستقل أو نفس مستقلة .
٣ ــ معارفنا عن الأشياء موقتة ، إذ هى فى تغير كما أن عقولنا التى نعرف بها فى تغير .
٤ ــ الذكاء البشرى اجتماعى أى أننا ننبعث بنظرياتنا وعقائدنا وأفكارنا بقوة الإيحاء الاجتماعى الذى ينغرس فى نفوسنا فى المجتمع الذى نعيش فيه .

هذا هو ديوى الفيلسوف ، فما هو ديوى المربى ؟

إن شهرته فى التربية أكبر من شهرته فى الفلسفة . وقد دعته تركيا وروسيا والصين كى ينظم لها وسائل التعليم . وإليه تعزى هذه الأساليب الجديدة فى التعليم فى الولايات المتحدة نفسها .

التربية عند ديوى هى النمو الذهنى . ولكن لما كان الذهن . فى كل حال ، اجتماعياً ، فإن المدرسة يجب أن تكون اجتماعية . فإذا كان المجتمع الأمريكى مثلا يتنقل أفراده بالسيارة فإن التلميذ يجب أن يتعلم قيادة السيارات . وإذن يجب على المدرسة أن تخلق لتلاميذها اختبارات اجتماعية بحيث يختبرون ويحاولون حل المشكلات كما لو كانوا كباراً على اهتمام يقظ بكل ما يحدث فى بلادهم بل فى الدنيا أيضاً .

المدرسة عند ديوى هى جنين المجتمع .

وحين تنطوى المدرسة على نفسها ، وتعلم النظريات وتلقى الدروس التى لا علاقة لها بالمجتمع العصرى ، حين تفعل ذلك ، تعود بالضرر على تلاميذها . ولهذا يجب ألا تنقطع بتاتاً عن الاتصال بالمجتمع .

وقيمة المدرسة عند ديوى تقاس بدرجة ما تخلقه فى التلميذ من الرغبة فى النمو . وهذا النمو هو فى النهاية تجدد ذاتى ، وهو دؤوب فى التوسع الذهنى بالاستطلاع والاختبار والدرس .

وكان أول مؤلفاته كتاب «المدرسة والمجتمع» فى عام ١٨٩٩ . واسم الكتاب يدل القارئ على الاتجاه الذى اتخذه ديوى فى فلسفته الاجتماعية . وفى هذا الكتاب يصف النشاط الذهنى بأنه لا يختلف من أى نشاط آخر نؤديه بعضلاتنا أى أنه تفاعل مع الوسط . هو أقرب الأشياء إلى الرؤية . فإننا حين نرى شيئاً بعيوننا لانحس أن الرؤية هى شىء داخلى فينا ، وإنما هى تفاعل بيننا وبين هذا الشىء . أى أنها حدث

قد حدث بيننا وبين هذا الشيء . وكذلك الشأن فى التفكير فإننا لا نفكر إلا لأننا قد التفتنا إلى شيء خارج عنا أو اهتممنا به .

وإذن ليست التربية ادخار المعارف ، وإنما هى غرس العادات الحسنة فى التفكير حتى نصل إلى أحسن النتائج . وأحسن النتائج هى استخدام المعارف كما لو كانت آلات لخدمة البشر أى المجتمع .

والهدف من التربية هو إيجاد التلاؤم بين الفرد والمجتمع .

وليست الأخلاق عند ديوى شيئاً مطلقاً . وليست هناك أخلاق مثلى دائمة . وإنما هناك تغيرات اجتماعية تؤدى إلى تغيرات أخلاقية . وما دامت غايتنا هى سعادة العيش فإذن يجب أن نجعل الملاءمة بين الفرد والمجتمع غاية التربية .

ثم ينتهى بأن الأخلاق المثلى فى مجتمع ما ليست سوى الأخلاق العلمية ، كما أن خير المجتمعات هو المجتمع العلمى .

وبالطبع هنا شطط . فإن ما يزعمه ديوى من أن غاية التربية يجب أن تكون الملاءمة بين المجتمع والفرد قد يحملنا على القول بأن هذه الملاءمة تقتضينا أن نعيش فيه حتى ولو كان ظالما . ورجل الثورة الذى يحتاج إليه رقى الأمم من وقت لآخر هو رجل لا يتلاءم مع المجتمع . ومن هنا ثورته ، وهى فضيلته .

والواقع أن ديوى رأى قبل أن يموت شطط هذا الاندفاع فى التساوق مع المجتمع . فقد عقد مؤتمر أمريكى بلغ أعضاؤه نحو ٦٠٠ من خريجى الجامعات وأساتذتها . وعرض هذا الاقتراح على المؤتمرين :

أيهما أنفع ، أن نعلم الطلبة اللغة الإغريقية أم نعلمهم فن الرقص ؟
فكانت الأغلبية الساحقة فى جانب الرقص .

وذلك اعتقاداً بأن المجتمع العصرى يحتاج الفرد فيه . كى يكون

متلائماً معه ، إلى الرقص . أما لغة الإغريق فيمكن الاستغناء عنها أو على الأقل تركها للمتخصصين .

لا ليست التربية الحقة أن نتلاءم على الدوام مع المجتمع .

والأغلب أن ديوى قد احتاج إلى الإكبار من شأن الاتصال بالمجتمع وإلى جعله الأساس للتربية كى يحمل المعلمين والمربين على أن يضعوا القيمة العملية فوق القيمة النظرية فى التربية . وعلى أن يجعلوا من المدرسة مجتمعاً يتهيأ فيه التلميذ أو الطالب لأن يكون فرداً اجتماعياً له عادات اجتماعية ارتقائية ، وليس محض خزانة للمعارف الكيماوية والرياضية والتاريخية والجغرافية .

عضو نافع متطور فى مجتمع ارتقائى متطور .

وقد نجح فى هذا الشأن ، فإن « المدارس الارتقائية » فى الولايات المتحدة هى ثمرة فلسفته هذه . وهى جنات للصبيان والشبان يجدون فيها سعادة كان أسلافهم يحرمونها بالدؤوب فى دراسة واختزان المعارف .

أعتقد أننى انتفعت كثيراً ، فى تربيتى الذهنية ، بجون ديوى .

وأول انتفاعى به أنه ألح على مراراً وتكراراً بضرورة الالتزام للأسلوب العلمى فى المشكلات الاجتماعية . وبالطبع كلنا يعرف قيمة الأسلوب العلمى ، ولكن هناك من الأفكار ما نحتاج إلى أن نكرر القول فيه ، ونبدئ ونعيد ، حتى يصير عادة ذهنية ثابتة وليس فكرة عابرة أو طارئة .

* * *

« هل هناك إحصاءات عن هذا الموضوع ؟ »

هذا السؤال الأمريكى الذى سألنيه « كليلاند » هو ما يسأله جون ديوى فى كل مشكلة ، ولذلك هو لا يفتأ ينشد التجربة التى تصحح منطق

الفكر المجرد وتوضح ما لعله قد أهمله هذا المنطق .

التجربة فى كل شىء : فى الفلسفة ، وفى الأدب ، وفى الموسيقا ، وفى الأغانى ، وفى الاجتماع . . .

ولم لا ؟

أذكر أنه عندما عمدت إحدى الوزارات الماضية إلى إلغاء البغاء بالأحكام العرفية أنى طلبت التجربة . فقلت إننا نستطيع أن نلغى البغاء الرسمى فى القاهرة وندعه فى الإسكندرية مدة عـــام ، ثم نقوم بتحقيقات بشأن الصحة الجسمة والنفسية بين فريقين مختلفين من الشبان آخر هذا العام ، فإذا ثبت لنا أن الإلغاء فى القاهرة قد نقص من الأمراض الزهرية ولم يؤد إلى تفشى الأمراض النفسية وتفشى الشذوذات التى تنشأ من التوترات الجنسية ، فإننا نعمم الإلغاء فى القطر كله . أما إذا ثبت العكس فإننا نعيد البغاء الرسمى .

هذه تجربة اجتماعية نحاول بها حل مشكلة معينة فى مجتمعنا حلا علمياً يقوم على الإحصاءات .

وقل مثل ذلك فى الفلسفة التى تنشد صلاح العيش وتحقق السعادة للإنسان ، بل كذلك فى الفن الذى ينشد سعادة النفس وجمال الذهن وجلال العاطفة . تجرب ألحاننا وما يحدث فى نفوسنا من إحساسات الشجاعة والشهامة أو الخسة والدعارة . ونجرب أشعار شوقى أو حافظ أو أبى نواس أو المعرى ، بحيث نجعل أحد الفصول فى الأقسام الثانوية يدرس واحداً من هؤلاء ويستغرق فى إحساساته وقوافيه ، ثم نحقق آخر العام أثر هذا فى النفس والذهن والعاطفة ونخرج بالنتيجة التى توضح لنا مانجهله .

بل كذلك التجربة فى أغانينـــا وموسيقانا بالمقارنة إلى الأغانى

والموسيقا الأوربية ، أيتهما تبعث على الانتعاش الروحي والصحة النفسية والإحساس الفنى ؟

أجل . ليست التجربة فى الكيمياء والطبيعيات وما إليها فقط ، إذ هى يجب أن تشمل حياتنا الاجتماعية كلها . نجرب فى نظام الدولة ، ونجرب فى نظام المجتمع ، ونجرب فى الزواج والطلاق ، ونجرب في طرق التعليم وفى معايش الناس حين يمارسون الزراعة أو الصناعة . .

هذه واحدة مما تعلمت من چون ديوى . وأخرى هى أن المجتمع هو الذى يربينا . ولذلك هو يقول إن المجتمع كان يمكن أن يكون هو المربى الوحيد لنا بلا مدارس . ولكننا نحتاج إلى المدرسة كى نجمع الاختبارات المختلفة التى تزيد قيمتها على غيرها فنلتفت إليها دون غيرها مما هو أقل خطورة . وبذلك نستطيع أن نكسب الطالب من هذه الاختبارات المختارة فى عام ، أكثر مما يستطيع أن يكسب من المجتمع فى سنين حين ينتظر طروء هذه الا ختبارات عليه جزافاً .

التربية للمجتمع والمجتمع للتربية ، وإذا انفصلت المدرسة عن المجتمع ، وإذا انفصل إنسان ، رجلا كان أو امرأة ، عن المجتمع فهو ، بقدر هذا الانفصال ، تنقص أو تنعدم تربيته .

* * *

وقصة صغيرة أخيرة أرويها عن چون ديوى لأنها تكاد تلخص لنا إيماءة حياته وهدف فلسفته . فإن هذا الرجل كان يحيا كى ينشد الاختبارات فى هذه الدنيا ، وهو يختبر كى يفلسف ويستقطر الحكمة والسعادة من اختباراته .

ولذلك نجده قبل نحو ست سنوات يقصد إلى قرية أو مدينة صغيرة يعيش فيها آخر أيامه بعيداً عن صخب العواصم وهرولتها . وهو يحب

حتى فى سنى شيخوخته فى هذا المعكتف أن يؤدى عملا أو خدمة للمجتمع ، فهو يربى البقر ويستدر اللبن ، فإذا جاءت طلائع الصباح حمل اللبن على عربته وهرع إلى البيوت يوزعه بالثمن المجزى . وهو يقص علينا فى فكاهة أن إحدى السيدات التى فتحت له الباب كى تتسلم منه زجاجة اللبن طلبت منه ألا يقرع هذا الباب ، وإنما يقصد إلى الباب الخلفى الذى يؤدى إلى المطبخ . . .

فيلسوف لا غش فيه . .



## سارتر
## زعيم الانفرادية

الفلسفة الوجودية ، المذهب الوجودى ، بول سارتر . . .

كلمات تجرى على الألسنة للمناقشة والمداعبة . . .

تجرى على ألسنة الأساتذة الذين تعمقوا الفلسفة ، أو العلميين الذين ينشدون ديناً أو مذهباً يتفق مع الثقافة المادية التى تغمرهم .

وتجرى على ألسنة الشبان والفتيات الذين وجدوا فى مذهب الحرية التى تدعو إليها الوجودية ، أو تضطر إلى الاعتماد عليها أساساً قوياً تنهض عليه ، وجدوا فيها ما يقارب الإباحة . فاستهتروا ، ولكنهم لم يخدعوا أحداً بأنهم فلاسفة أو أن بول سارتر يؤيدهم . . لا . هم شبان يضحكون ويمرحون لا أكثر .

حضرت درامة لبول سارتر فى باريس ، ولم أستطع الحصول على

تذكرتى إلا قبل ميعادها بخمسة أيام لفرط التزاحم على رؤيتها . وكان ثمنها جنيهاً كاملا ، وهذه الدرامة هى : « إبليس والله الطيب » .

وهى تحوى من الزندقة أو الهرطقة مالا يطيقه مؤمن ، ولكن المتفرجين أنصتوا وكأنهم كانوا فى قاعة جامعية يتعلمون .

إنهم شعب قد تعلم معانى التسامح ، وهو أن تتقبل فى يسر وصمت ما تتألم منه لأنك تعرف أن لغيرك الحق فى أن يعتقد غير ما تعتقد .

ولقد رأيت أحد الممثلين ينظر إلى أقدس شخصية عند المسيحيين فيقول : أنت أصم أنت أبكم !

ثم يقف ممثل آخر فيقول : « الناس متساوون ، الناس إخوة ، وهم جميعهم فى الله ، والله فيهم . والروح القدس ينطق من جميع الأفواه . وجميع الناس إنما هم كهنة وأنبياء ، وكلهم قادر كفء لأن يقوم بالتعميد وأن يشهد بالزواج ويعلن بالبشارة الطيبة ويغفر الخطايا . وكلهم يحيا الحياة العامة على الأرض فى مواجهة الناس كما يحيا الحياة الخاصة مع نفسه فى مواجهة الله » .

وهذه كلمات يستطيع القارئ المسلم أن يتحمل الكثير منها دون معارضة ، ولكن المسيحى يجد فيها المناقضة للمبادئ الكنسية إن لم نقل للمبادئ المسيحية المعروفة . ومن هنا الصدمة التى أحدثتها هذه الدرامة فى باريس للكثيرين من المؤمنين .

ولكن حتى هنا نجد سارتر رقيقاً مهذب الكلمة لطيف الإيماءة . أما فى كتبه فإنه يصارح بالإلحاد ، بل يجعل الإلحاد أساساً لفلسفته ومذهبه . وهذا على الرغم من أن هناك وجوديين ، مثل جاسبر ، وجبرايل مارسيل ، يأخذون بمذهب الوجودية مع الإيمان بالله .

وعندى أن وجودية سارتر ليست شيئاً جديداً على أوربا إلا من حيث لجتها الهجومية . وهى عندى أيضاً ليست فلسفة ، وقصارى ما أفهمه منها أنها مذهب أخلاقى هو فى النهاية ثمرة النزعة المادية فى العلوم، كما هو ثمرة النزعة الانفرادية التى كانت تسود القرن التاسع عشر فى السياسة والأخلاق .

ما هى الوجودية ؟

هى أنك موجود . هى أنك قد وجدت .

ولكن وجودك هذا لم يكن ليزيد على سائر الأشياء الموجودة مثل الحجر والشجرة والملح والسكر . ولكنك أنت تختلف عن هذه الأشياء بأنها هى تبقى « موجودات » لا تزيد على ذلك ، أما أنت فإنك تتناول وجودك هذا بعقلك ويدك فتصوغ نفسك وتستخرج أو تستخلص جوهرك . أنت وجود أولا ثم جوهر ثانياً .

أنت تولد وتحيا على هذه الأرض سبعين أو ثمانين سنة . ونحن نعرفك وأنت فى السنة الأولى من عمرك مثلا شيئاً « موجوداً » لا أكثر . ولكن بعد أربعين أو خمسين سنة نجد أنك قد « تجوهرت » فظهرت خلاصتك وأصبحت لك دلالة ، فأنت وزير أو مؤلف أو ثرى أو محام أو فيلسوف . وهذا هو الجوهر بعد الوجود .

ومن الذى أحالك من الوجود إلى الجوهر ؟

أنت نفسك . لأن كلا منا يتناول حياته من حيث يدرى أولا يدرى ، كأنها « مشروع » يقوم بإتمامه . وقد يشرع أحدنا فى بناء بيت أو متجر أو غير ذلك من المشروعات ، ولكن حياتنا « مشروع » أيضاً . إذ نحن نبنيها منذ طفولتنا تقريباً إلى أن نموت ، وعلى قدر مهارتنا فى البناء تكون حياتنا سامية أو متوسطة أو دون المتوسط .

وما دامت الحياة مشروعاً ، وما دمت أنت تقوم بإنجاز أو إتمام هذا المشروع ، فأنت مسئول عن حياتك . عن جوهرك .

أنت مسئول لأنك حر فى اختيارك للأشياء التى انتهت بك إلى هذا الجوهر . وواضح أنك قد أخذت أحسن ما وجدت فى هذه الدنيا ، وهنا يقول سارتر بالحرف :

« ليس الإنسان شيئاً أكثر من أن يكون المشروع الذى شرعه وخططه لنفسه . ووجوده نفسه ليس قائماً إلا على الحدود والقياسات التى يحققها لنفسه ، وهو إذن ليس شيئاً أكثر من مجموع أعماله ، ليس شيئاً أكثر من حياته » .

نحن أحرار ، إذ نحن نختار أحسن ما نجد فنخطط مشروع حياتنا . وإذن نحن نخترع شخصيتنا . أجل ، إن سارتر يقول إن الإنسان يخترع الإنسان . ويقول بالحرف : « ليس الإنسان شيئاً آخر غير مجموع مشروعاته ، هو مجموع علاقاتها الواحد مع الآخر » .

وهو يلحظ هنا أن هذا المذهب يكرهه كثيرون ممن لم يصيبوا نجاحاً فى الحياة ، ولكننا نحملهم مسئولية فشلهم لأنهم أساءوا الاختيار حين اختاروا عملا معيناً يرتزقون منه ، أو أخلاقاً معينة اتخذوها للسلوك العام أو الخاص ، أو حين اختاروا زوجاتهم أو أصدقاءهم أو نحو ذلك . ويقول :

« هاك رجلا يرتبط بعمل ويؤدى خدمة ، وهو بهذا قد رسم حياته . بل ليس هناك من حياته ما يزيد على ذلك . وواضح أن هذه الفكرة تبدو قاسية عند أولئك الذين لم ينجحوا فى الحياة . . »

* * *

ما هي النقطة البؤرية عند سارتر ؟

هى إلحاده ، هى أنه يقول إننا ، نحن البشر يتامى فى هذا الكون ليس لنا سند نستند إليه فى اتخاذ الأخلاق أو تعيين الأهداف « نحن همل » نحن سدى ، قد حكم علينا بالحرية . هى حكم علينا وهى ليست ميزة لنا .

ولذلك ، لأننا أحرار ، نحن فى قلق ، نحن فى حيرة ، كيف أختار ؟ كى أخطط حياتى ؟ كى أنجز مشروع حياتى ؟

ويتذكر سارتر هنا قول دستوفسكى :

« إذا لم يكن الله موجوداً فكل شىء " يجوز " . أى أن الإنسان عندئذ يصبح مجرماً يرتكب ما يشاء من جرائم كما تمليها عليه شهواته » .

ولكن سارتر يرد فيقول : لا ، إنما الإنسان حر لأنه مسئول . وهذه الشهوات لا تقود الإنسان ، إنما الإنسان هو الذى يقودها ، وهو مسئول عن التصرف بها .

هذه المسئولية هى التى تدفعه فى النهاية إلى أن يكون مسئولا عن المجتمع ، لأنه ما دام يختار أحسن الأشياء لنفسه فهو أيضاً يختار هذه الأشياء ذاتها للمجتمع الذى يعيش فيه . وهو يقول بالحرف : « إننا حين نطلب الحرية لأنفسنا نجد أنها تتوقف على حرية الآخرين كما تتوقف على حريتنا » .

وهذا عنده الرد الكافى على دستوفسكى .

وإليك منه هذه المقتبسات المثيرة :

« يجب أن نجعل الاختيار للأخلاق مثل صياغة العمل الفنى ، نصوغ حياتنا كما لو كانت تحفة فنية » .

ثم يقول : « يصف الوجوديون الرجل الجبان بأنه هو المسئول عن جبنه . وهو ليس جباناً لأن له قلباً أو رئة أو مخاً ، ليس جباناً لأن

له نظاماً فسيولوجيًّا معيناً ، وإنما هو جبان لأنه بنى نفسه على هذه الصورة بأعماله » . . وأيضاً : « الجبان قد صاغ نفسه بالجبن . والبطل قد صاغ نفسه بالبطولة » .

هو مذهب انفرادى ممعن فى الانفرادية . كأن المجتمع ليس مسئولا عن الفرد ، وأن الفرد ليس مسئولا عن المجتمع . وما دام الشأن كذلك فأنت مضطر إلى أن تقول إنك حر وإنك تختار ، وإنك تخترع حياتك ، وإنك مسئول عن كل ميزاتك أو نقائصك .

اعتبر كلماته هذه : « أنا محتاج إلى أن أعين القيم الأخلاقية . وإذن يجب أن نعتبر الأشياء كما هى فى الواقع . وإذا قلنا إننا نخترع هذه القيم الأخلاقية فمعنى هذا أنه ليس للحياة ، أولا ، معنى . أى قبل أن تولد أنت لم تكن الحياة شيئاً له معنى . والقيمة الأخلاقية ليست شيئاً أكثر من هذا المعنى الذى تكسبه أنت للحياة ، وإذن تجد أنه من الممكن إيجاد مجتمع بشرى على هذا الأساس » .

أصحيح هذا ؟ هل يمكن إيجاد مجتمع بشرى إذا كنا نفرض قبل كل شىء أن كل إنسان حر فى أن يخترع أخلاقه بنفسه لنفسه ؟

إن هذا إمعان فى الانفرادية التى قد تنتهى بالفوضى الاجتماعية والأخلاقية .

* * *

إنى عندما أتأمل الوجودية التى طغت على الباريسيين هذه الأيام ، أرانى أفتقد فيها الفلسفة فلا أجدها ، وأنتهى إلى أنها « مذهب » ولكنها مذهب ضار .

ذلك أن الفلسفة تمتاز بأنها يمكن البرهنة على صحة قواعدها . ولكن الوجودية تلقى بقواعدها كما لو كانت عقائد دينية ، وإن خلت من

الأساس للأديان الكبرى من حيث الإيمان بالله .

أما أنها مذهب ضار فذلك لإسرافها فى الفردية . فالإنسان عند الوجوديين مسئول أمام نفسه ولنفسه فقط . وليس مسئول أمام المجتمع ولا أمام الله .

ثم هى مع ذلك تفرض للإنسان حرية الاختيار ، كأن المجتمع بعاداته ولغته ، وسنى الطفولة التى تتكون فيها المركبات وتكاد تتجمد ، والوسط الثقافى والاجتماعى ، ووطأة الحوادث وتنوعها ، كل هذا لا يؤثر فى تكوين الفرد أو توجيهه . إذ هو حر فى الاختيار . وينسى سارتر أنه اختيار الضرورة ، اختيار الجبر .

ولكن السؤال هنا : لماذا نجحت الوجودية فى فرنسا بل فى أوربا ؟

اعتقادى أن نجاحها يرجع أولا إلى التفكير المادى الذى عم أوربا وجعل الأوربيين ينفرون من الغيبيات بأنواعها جميعاً . ويرجع ثانياً إلى إحساس الزهو الذى تضفيه الوجودية على المؤمن بها . من حيث إنه مستقل فى هذا الكون ، له حق الاختيار دون أية قوة أخرى . ويرجع ثالثاً إلى اليسر البديع فى أساوب سارتر الذى يجعل الأستاذ والطالب والحوذى والسمكرى ، يفهمونه بلا استغلاق . ولعل الوجودية أول ما فهموه من أنواع الرطانة الفلسفية . وهم بهذا الفهم سعداء مزهوون . ويرجع هذا النجاح أخيراً إلى أنها تناقض الأخلاق الاشتراكية التى تقول ، أول ما تقول ، بأن الإنسان قد تكون بالمجتمع ، ثم هو يجب أن يكون المجتمع الأمثل .

ومعنى هذا أنه أصبح للوجودية معنى سياسى ، حزبى . فهى لذلك تتسلل إلى المنابر ويأخذها الخطباء بالقدح والمدح وتذكر كلماتها وعقائدها أيام الانتخابات البرلمانية . ولذلك هى أكثر من « فلسفة » . هى كفاح ، هى سياسة ، هى حزبية .

* * *

ولو كنت أخاطب الشبان وأنشد لهم القوة والمجد لدعوتهم إلى الوجودية وعندئذ أكون معتمداً على مايسميه القانونيون « أكذوبة شرعية » أى أكذوبة أهدف منها إلى أن أجعل الشاب يحس أنه مسئول ، وأنه يستطيع أن يتسلط على القدر ويصوغ حياته كما يشاء . وأن عليه أن يأخذ حياته بالجد والبصر إذ هو مستقل ، وهو حر ، وهو قادر ، إذا شاء ، أن يصل إلى أعلى قمة فى المجتمع الذى يعيش فيه .

وحين أقول هذا القول أعرف أنى ، من حيث الفلسفة والسيكاوجية والاجتماع ، كاذب. إذ أن الإنسان ليس حرًّا ، وأن الحقيقة أن المجتمع يصوغه .

وموقفى هنا لا يختلف من موقف القضاء . فإننا نحاكم المجرمين « كما لو كانوا » مسئولين ليس للمجتمع تأثير عليهم . وعلى هذا الأساس نعاقبهم .

وهكذا الشأن أيضاً فى الأخلاق . يجب أن نقول إن كل إنسان مسئول عن أخلاقه ، ونعامله كما لو كان حرًّا قد اختار هذه الأخلاق .

وإذن لا تزيد الوجودية على أن تكون مذهباً ارتقائيًّا فى الأخلاق ووسيلة إلى بعث النشاط والحيوية والجد .

* * *

سبق أن قلت إن « إلحاد » بول سارتر يعد نقطة بؤرية فى فلسفته ولكننا يجب أن نبين هنا أن هذا الإلحاد ليس هوى وليس طارئاً . لأنه إنما يتفق ويتناسق مع فلسفته ، إذ هو يقول إننا نوجد أولا ثم نتجوهر ثانياً .

أى الوجود ، الظاهر لنا ، نعرفه أولا .

ثم الجوهر ، أو الماهية ، أو الأصل ، خلف الوجود ، نعرفه ثانياً ،

إذا استطعنا ذلك . وإذا عددنا أن الله هو أصل الكون فمحاولتنا لأن نعرفه يجب ألا تكون بداية البحث .

لأن بداية البحث هي الوجود الظاهر وليست الماهية المستترة ، بل ليست هناك عند سارتر ماهية لأى شيء ، وإنما هناك وجود فقط . وقد نقول إنك تتجوهر بعد أربعين سنة ، ولكن هذا المعنى مجازى هنا ، لأننا نقصد منه أنك تتكامل وتصل إلى أقصى كفاءاتك وميزاتك .

ولذلك سارتر ينكر الإيمان بالله ، بل هو يكافح هذا الإيمان .

* * *

ويجب أخيراً ألا نقلل من إقدام سارتر على أن يكتب الفلسفة للشعب ، أو على حد قوله إنه قد أدخل الفلسفة فى السوق . فإنك تقرأه فلا تجد تلك الكلمات النابية أو العبارات المعقدة التى تجدها عند من كتبوا قديماً حين كانت الفلسفة تكتب للفلاسفة وليس للشعب ، أو كما كان يكتب الفقه للفقهاء وليس للشعب .

وهو هنا مبتكر ونافع وجرىء، ولكن الأدباء العصريين قد سبقوه بأن صاروا يكتبون منذ نحو مائتى سنة للشعب أيضاً .

وهنا فرق عظيم بين الأدب الأوربى والأدب العربى ،أو على الأقل الأدب العربى القديم . فإن أمثال المتنبى والجاحظ والفرزدق وابن الرومى كانوا أدباء يكتبون لأدباء مثلهم وليس للشعب . بل إن المتنبى كان يفخر بأن الأدباء أنفسهم لا يفهمونه ، إذ يختلفون عن معانيه ويناقشونها وهو قاعد هانئ .

وهذا التغير إنما يعزى إلى أن « الشعب » لم يكن موجوداً عند الأمم القديمة . والذى أوجده فى أوربا هو الحركة الصناعية الجديدة التى عممت الثراء بين أفراده ثم عممت التعليم ، فصار الأدباء والفلاسفة يكتبون للشعب وليس للأدباء والفقهاء والفلاسفة .

# فهرست

الصفحة




تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٦٢٢٩ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١



اقرأ

يوسف جوهر

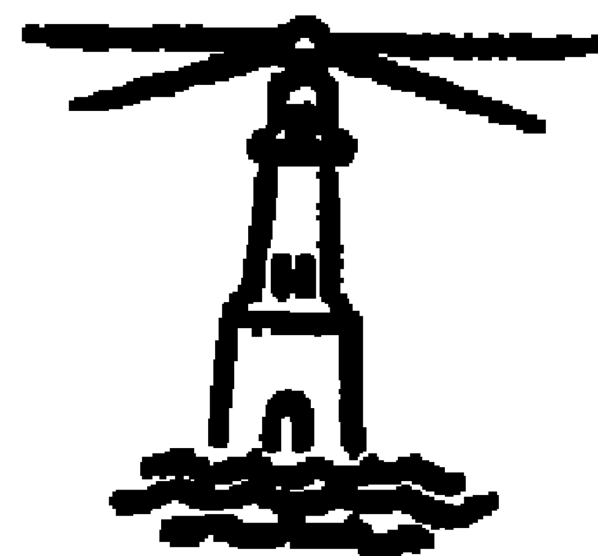
# دموع !!
# في عيون ضاحكة !!






تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



يوسف جوهر

# دموع!!
# في عيون ضاحكة!

اقرأ ٣٥٠

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٥٠ – فبراير سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

إلى ابنتي ماجدة

المغتربة في طلب العلم

رعاها الله في غربتها

قصص هذه المجموعة كتبت

بين عامى ١٩٤٠ ــ ١٩٦٥

# قوام رشیق!



لم يكن أمامى إلا أن أركب قطار الليل من تلك البلدة التى جئتها عند الظهر لمهمة طارئة، فتوجهت إلى المحطة، وقد أوفت الساعة على التاسعة . وكانت مكونة من غرفة يتيمة مخصصة لأحد هؤلاء الموظفين الذين يعملون بسبعة أرواح ، فقد كان هو الناظر والمعاون وموزع التذاكر فى ذات الوقت . استأذنته أن أحتمى بغرفته من البرد ، ومن المطر الذى كان ينهمر ، فأذن الرجل البدين فى فتور ، وكان الضجر يقطر من عينيه . ولقد عذرته . فإن رائحة « التقلية » كانت تقبل من ناحية مسكنه الملحق بالمحطة ، وتذكره بالعشاء الساخن الذى ينتظره ، وبالدفء ، فتباً لهذا القطار البطىء الذى جاءت الأنباء بأنه سيتأخر أربعين دقيقة .

وبدأت بدورى أضجر ، فإنه لم يكن فى الغرفة شىء يعين على ملل الانتظار . كانت الرطوبة تنبع من الجدران العارية . وكأن القشعريرة قد سرت إلى عظام المصباح الوحيد الجاثم على المكتب فصار يرسل الضوء راعشاً شاحباً من فتيلته المدخنة . وينفث فى وجه « حضرة الناظر » نفسه الأسود الكريه ، بينما قطرات البترول تتسرب من جسده الذى علاه الصدأ

وترصع الورقة البالية المفروشة فوق المكتب ببقع كبيرة .

وفضل الناظر أن يقتل الوقت بالنعاس فى كرسيه . وسرعان ما صدر من أنفه صوت بينه وبين صفير القطار قرابة قوية ، حتى خيل لى أن القطار سيجىء ويمضى دون أن يفيق .. ولذلك دهشت لما رأيته يفتح عينيه فجأة ، إذ اقتربت من مكتبه خطوات خفيفة لسيدة يصحبها طفل ، تقدمت لتطلب تذكرتين . وأدركت أنه اكتسب من المران تلك القدرة الفائقة على التنبه والإغفاء حسب الظروف فإنه لم يلبث أن أقفل عينيه بعد تسليم التذكرتين ، وسرعان ما تصاعد الصفير من أنفه ، معلناً أنه بدأ من جديد رحلته إلى نعاس مستغرق ، لا حلم فيه . .

ورمقتنى السيدة بنظرة باسمة ، لتشاركنى العجب من هذا التمساح النائم .

وخيل لى أن عينى هذه المرأة مرتا من قبل فى حياتى ، وأقبلت من الباب المفتوح نسمة باردة ، فاختلج المصباح ثم انطفأ ، لكنه قبل أن يلفظ آخر أنفاسه شب فجأة فاندلع فى المكان قبس من النور جلت قسماته وأضاءت ذاكرتى ، فلما ساد الظلام كنت قد عرفتها . يالتلك الذاكرة التى تحيا وتنشط فى العتمة ، وكأنها تقتات من الظلال التى يتنفس بها الليل والصمت .

لم أكن قد رأيت « إيناس » منذ عشرة أعوام .

والوجه الذى ارتسم فى الظلمة أمامى كان وجهها وقتذاك وهى فى العشرين ، بكل تفاصيله . . آخر مرة رأيتها فيها كانت فى ثياب الحداد

وكان محياها الناصع الممتقع يبدو من الطرحة السوداء التى تستدير حوله بالغ الحلاوة ، وعيناها اللامعتان قد تكسر فيهما الحزن ، كانت وقتذاك أصغر أرملة رأيتها ، ولم تكن قد سلخت فى حياة الزوجية غير عامين .

وتنبهت إلى الشبح الواقف إلى جوارها . . إنه ولدها من ذلك الزواج . . إذن فقد كبر الصغير ، وبلغ الحادية عشرة .

وتذكرت أن قرينها الراحل كان من أبناء هذه البلدة ، وأنها غادرت القاهرة وجاءت إليها لتعيش مع أمه من ريع الأرض الموروثة فى ظروف أليمة .

وكنت أعلم أن « إيناس » رفضت أن تتزوج مرة أخرى .

وكان لذلك قصة حزينة ، هى قصة امرأة صغيرة اعتزمت أن تدوس كل رغباتها وتظل طيلة حياتها أرملة ، برغم أنه كان أمامها ما يدعوه النساء اللاتى فى مثل موقفها « الفرصة الذهبية » .

ولقد عرفت القصة منه ، من صديقى أحمد . . الرجل المرفوض . اتصلت بينهما الأسباب هادئة ، وانتهت هادئة ، ومع ذلك فقد دمرت قلبين .

* * *

كان زوج « إيناس » فى الثانية والثلاثين عندما داهمه الداء . خانه القدر فى شبابه بغتة . بعد عام واحد من زواجه تبين أنه مصاب بسرطان فى المعدة . وكان هناك ما يربطه بالحياة ، حبه لزوجه ولطفله فلم تهن

الحياة عليه ، وغمرته موجة من الجزع والأسى الدفين .

ولم تلبث العلة أن استفحلت ، وطرحته فى سرير المرض .

ومضى يقاوم ليعيش تلك المقاومة المخفقة . وكان أقسى ما فى الأمر أنه كان يعلم أنه يدنو من الموت ، فكانت نظراته لزوجه الشابة تفيض حسرة وكآبة . وكثيراً ما كان يغرق حسراته فى عبراته . . وتسأله زوجه ، وهى تحتضنه كأنما تريد أن تحميه من المنية : « ماذا بك ؟ » فيغمغم وهو يحدق فى عينيها فى حسرة : « إنك تعلمين ما بى » .

وكان قلب « إيناس » يرتجف من تحديقه ذاك فى عينيها . إن شيئاً غير البكاء يملأ مآقيه . . وذات ليلة وهو يسند رأسه إلى كتفها ، ويمشط شعرها بأصابعه ، بشغف رجل يودع الهناء ، فطنت إلى معنى النظرة التى تفترس مقلتيه . . إنهما تقولان لها : « إنك ستعيشين بعدى » . .

نعم . . إنه يحسدها على حياتها .

إنه يكره ، وقد خسر المعركة ، أن تبقى من بعده ، كأنه يريد أن يأخذ معه ، إلى حيث هو ذاهب ، شبابها الذى يعتقد أنه يملكه ، وأن من حقه وحده أن يستمتع به .

وكانت « إيناس » ذكية ورحيمة ، فرثت له وحزت فى نفسها لهفته ، ورغبته العميقة فى ألا ينفصل عنها . . ومضت تكافح معه العلة بكل قواها ، ذلك الكفاح العقيم ، وتستدعى طبيبه مرات فى اليوم .

وماذا يصنع الطبيب والمسكين يئن ويتلوى . . لم تكن لثماتها التى تغمر بها جبينه وأنامله لتحميه من عذابه ، أو تطفئ تلك النظرة الملتاعة

التى يكتنفها جنون الألم « إنك ستعيشين بعدى » ولم تكن تملك إلا أن تؤكد له بدمعها الحائر ، وبلهجة تقطر صدقاً وإخلاصا : « أريد أن أموت قبلك . . أكره أن أعيش بعدك » .

وحقاً إن المريض كالطفل . . كان التعس يطمئن إلى هذا التأكيد . . ويهدأ . . ويثوب إلى النعاس الذى لم تكن تجلبه حقن المخدر ذاتها .

ثم كان يستيقظ ، ويطلب طفله الذى كان يحبو إلى الثانية فيقبله ، ويقول لها وكأنه يستغفر من هذيانه : « عيشى له . إنه هديتى إليك . . التى تذكرينى بها دائماً . . . » .

وكان الطبيب الذى يعالجه ، ويشهد ذلك الكفاح المرير بين الموت والحياة ، هو صديقى الدكتور أحمد .

كان أحمد فتى أميناً رفيع الخلال .. ولم يكن العمل قد قتل الروح الرقيقة الوادعة فى أعماقه ، كما هو الشأن مع بعض الأطباء الذين تنقلب كل نفوسهم إلى مسام متفتحة للنقود ، والمادة وحدها . فكان يحكى لى عن مأساة هذه الأسرة الصغيرة ، بعين منداة .

* * *

ومرت الأيام دون أن يبرأ الزوج أو يقضى ، كأن العناية الفائقة فى العلاج لاتكون فى صالح المريض عندما يبيت هلاكه محققاً ، فإن كل ما تصنعه أنها تؤخر النهاية ، وتطيل سلسلة ذلك العذاب الذى يتمرد

أحياناً على المسكنات ، ولاينطفئ ، ويغدو معه الموت نفسه هو النعمة المنشودة .

لكن الدكتور أحمد لم يكن يستطيع أن يتصرف تصرفاً آخر . إنه كان طبيباً بكل ما فى هذه الكلمة من دقة . وكان شرف المهنة يعلو فى عينيه على كل اعتبار. حتى لا يملك أن يتحرر من تقاليدها السامية . فكان يردد فى جلساتنا ذلك التساؤل : « ماذا ينبغى للطبيب أن يفعل فى مثل هذه الحالة ، عند ما يكون الموت هو الخلاص الوحيد من العلة .. إننى أعتقد أن الشيء الذى نرهبه ، الذى ندعوه مغادرة الحياة هو طريقة من طرق الشفاء . ثم تلك التعسة التى تظل تتألم ، وتتمزق ، وتكابد كل يوم مثلما يكابد . . هلا يرحم المريض نفسه ويمضى . . إن تلك الحياة الجديدة حياة طفله أصلح للبقاء ، وأحق بالعناية .

لكنه لم يكن يخضع طويلا لهذا المنطق ، ولم يكن يدنو من سرير المريض ، ويرى الألم وهو يدوس محياه بأقدام ثقيلة حتى تثور فى روحه غريزة المعالج ، وينسى كل شيء إلا أنه يكافح الموت .

فهل كان فى أعماقه الدفينة يشفق على ذلك العليل . . أم على الزوجة الصغيرة الشابة ؟ ! . .

لبثت طويلا وأنا أؤخر اتهامه .

إن حرارة تلك اللهجة قد بدأت تزيد يوماً فيوماً دون أن يتنبه . ولقد أدركت أنه مسوق ، دون أن يشعر ، فى ذلك الطريق الشائك المتعرج الذى يشقه فى حياة الإنسان ضلال العواطف .

كان يمشى نحو الهيام بإيناس ، كما يمشى النائم الحالم على حافة سطح شاهق الارتفاع .

ولقد فسرت حلمه الذى قصه على زاعماً أن غموضه يرهقه . فهمت تلك الرغبة التى لايكاد يهمس بها إلى سره إلا قلقاً مرتجفاً « هل يتزوج امرأة مريضه ، بعد أن يغادر هذا المريض دنيانا !! »

إن القلب البشرى مهما يكن نبيلا فإنه تمر به فترة حرجة تخونه فيها قواه وتختنق إرادته ، و يحس فى حمّى حاجته إلى امرأة بعينها ، إنه لايستطيع أن يناضل بعد فى سبيل مثله الأعلى .

ولو كان غير أحمد لما عبأ بالأمر ولسماها مسألة عملية أنه يموت زوج . ثم يحصل على الأرملة .

لكن ضميره الدقيق كان مرهفاً كمشرطه ، فمضى يشرّح به ذاكرته ومشاعره بحثاً عن الدليل الذى يحاكم به نفسه . إنه أحب « إيناس » فى بيت زوجها ، ودخل البيت طبيباً ، فما ينبغى أن يخرج عاشقاً . ولا يليق أن يستغل الموت ويفيد منه ؛ قرر تلك الحقيقة ، وفى الوقت نفسه ثار عليها . شرع القانون ، ورسم الحدود ليعصاه عامداً . لم يكن يريد أن يحصل على ذلك الحب بلا ثمن ، بل كان فى نظر نفسه ذلك الخاطئ المصمم على خطئه ، المستسلم لعقابه وعذابه المقسوم دون أية محاولة للفرار من قصاص الضمير .

وبهذه المشاعر المضطربة كان يلقاها كلما ذهب ليعود المريض ، فيحدق فى وجهها بنهم . ويتعقبها بنظراته اللاهثة الشاكية القلقة التى

لا تريد أن تأثم ولا أن تنصرف ، وهل كان الذى جمع بينهما إلا ذلك التوافق العجيب فى المشارب . لقد أحبت بادئ الأمر رقته ، ولم تعترف لنفسها بأنها تهيم بشخصه إلا بعد أن هربت من ذاتها طويلا ، خجلا من تلك الحقيقة . . ومع أنها كانت تنسى يدها فى يده عند الباب فإنها ظلت تتمنى أن تموت قبل أن تسقط على شفتيها تلك القبلة التى كانت تحلم بها من فمه .

ومع ذلك فإنها لم تنج هى الأخرى ، من تلك الفكرة الرهيبة التى كان الموت يوحى بها : بعد أن يذهب المريض إلى قبره تستطيع أن تتزوج هذا الرجل .

كان هذا التفكير يبدو لها بالغ الخسة ، ممعناً فى النذالة، ومع ذلك فإنها لم تكن تقوى أن تتحرر منه .

وخلال هذا الصراع المر بين الضمير والغرائز كان المريض المشرف على الهلاك يطاردها بعينين حزينتين ، تقولان : « ستعيشين بعدى » .

* * *

وذات ليلة تصاعدت آلام المريض وانقلب أنينه صراخاً مفجعاً . ولما سكنت النوبة وسرق المخدر وعيه تهالكت « إيناس » التى مزقها الانزعاج باكية ذلك البكاء العنيف الذى يثيره إشفاق لايحد . . حقا أنها ما أحبت زوجها حبًا جارفاً، لكنها ما كرهت قط هذا الإنسان الذى كان يتعذب .

ودنا الدكتور أحمد منها . وأخذ يديها ليواسيها . وكانت ضعيفة

وواهنة ومسلوبة المشاعر . فألقت فى إعياء رأسها على كتفه طلباً للشفقة والرثاء. وألصق هو خده بشعرها بحركة لاشعورية . . وهكذا لقيت الروح المتعبة أختها المتعبة . . .

هل ظلا طويلا هكذا . . .

إن الدكتور أحمد قد حكى لى أنه ما عرف قط كيف حسب الزمان تلك اللحظات ، إنما عرف أن ذلك الحلم الصغير الرقيق قد انقضى . . . فإن « إيناس» قد وثبت فجأة على قدميها وأن الروع قد سرى منها إليه . فوثب هو أيضاً ليرى الزوج الذى لم يغادر سريره منذ شهرين واقفاً يتساند عند باب غرفته .

وكانت لحظة رهيبة سقط بعدها المريض إلى الأرض .

ونقلاه إلى سريره . وقد كانا يستطيعان أن يوضحا الأمر . لكنهما لم لم يفوها بكلمة وكأن براءتهما قد اشتبهت عليهما ! . .

أخذ العليل يحدق فى عينى امرأته لاهث الأنفاس .. ونظرته الثابتة التى كانت تتهم لم تلبث أن غرقت فى دموعه .. إن الرفيقة التى لم يكن يريد أن يموت ليظل معها قد خذلته .. كأن القدر أراد أن يلطم تشبثه بالحياة . . وقد كانت لطمة .. قاضية .

فتح فمه ليتحدث . اختلجت شفتاه . قرأت « إيناس » عينيه وتوقعت أن يقول : « إنك ستعيشين بعدى » .. لكنها كانت عبارة أخرى مريرة : « إنك ستتزوجين بعدى » .

وبكى . . .

وغمغم بكلمات ، فهمت منها : « لو أنك انتظرت قليلا . لكفيتني هذا الحزن » .

ثم لفظ أنفاسه وأنينه يتقطع على شفتيه .

وقد أكد لها أحمد ، وكان قريباً من السرير : أن المحتضر لم يقل ذلك وأن وهمها الملاحق هو الذى صب هذه المعانى فى أذنيها ، لكنها ظلت مصرة أنها سمعتها .

ولأنها سمعتها أجابت عليها ، ذلك الجواب الرهيب الذى أملته اللوعة : « يا عزيزى فلتطمئن . . أقسم بك إننى سأنتظر ، لا قليلا . . بل دائماً . ولن أتزوج بعدك . وهبت قلبى لك ولولدك » .

* * *

هل ندمت على ذلك القسم عندما انجاب الحزن . . كلا . . لقد صممت أن تدوس شبابها . وقد توسل أحمد إليها لتحل نفسها من هذا القسم . فإنه كان أمام ميت . وقد أصدرته تحت تأثير الوهم بأن الراحل ما زال حيًّا يصغى ويعى . . وما دام لم يسمعه فإنه لن يتمسك به ولن ينتظر منها ذلك الوفاء الأعمى . . وروحه النبيلة فى عالمها الأسمى لا تقبل هذه التضحية العقيمة ، أن تظل أرملة وتقضى على شبابها هذا القضاء وهى فى ربيعها العشرين . . .

لكنها لم تصغ لهذا التوسل . . ولم تقتنع . . وأصرت أنها ما أقسمت أمام جثة والد طفلها بل أمام الموت نفسه .

* * *

وهكذا لم يكن حلمها بسعادة أخرى إلى جانب رجل آخر إلا إغفاءة ضمير حى سرعان ما استيقظ ، وكان أحمد يذوب وجداً وهياماً . وما كان هناك ريب فى أنها تهواه . لكنها ظلت على عنادها وأخفق المسكين فى أن يطرد من قلبها ذكرى الميت .

ورأيتها عنده بعد ذلك ثلاث مرات ، من بعيد ، دون أن نتعارف . . جاءت إلى عيادته لتواسيه . . لتعالجه .. لتطالبه أن يحتمل كرجل .

ولن أنسى تلك المرة الأخيرة التى صادفتها فيها . كانت تهبط الدرج وهى تنتحب . . . وكنت صاعداً لأزوره ، فلما دخلت حجرته رأيته متهالكاً فى كرسيه ممتقعاً . . وبادرنى بقوله إنها جاءت تودعه ، فقد اعتزمت أن تمضى إلى الريف ، لتعيش هناك . . مع أم زوجها . .

* * *

إن عينى التى كانت مفتوحة فى ظلام غرفة ناظر المحطة قد رأت بجلاء عجيب كل مشاهد تلك القصة المؤسية البعيدة . . ولم يخلصنى من ذكرياتى إلا أن الرجل البدين تحرك ، وكأنه شم رائحة القطار من بعيد ، وفتح عينيه ؛ وأضاء المصباح ، وتهيأ للعمل .

وفى النور الجديد رأيت « إيناس » التى أنفقت عشرة أعوام فى حياة الترمل . . إنها الآن فى الثلاثين. .إن جمالها قد نضج . . وبدا مقدساً فى ذلك الثوب القاتم الذى ترتديه . وفى تلك الطرحة السوداء التى تستدير حول وجهها كأنما تحميه من النظرات الطائشة .

وترامى إلى سمعى الحديث الذى كانت تبادله الصبى . . إنها فرحة

لأنه نال الشهادة الابتدائية . . وهى ماضية به إلى القسم الداخلى فى المدرسة الثانوية فى المدينة . . وهى توصيه أن يكون أميناً ومجتهداً . . وتنبهه إلى أنها ستنتظر منه رسالة كل ثلاثة أيام فإن جدته تجن إن أبطأت أخباره . .

إذن فقد بقيت على وفائها لأم زوجها . وظلت تعيش معها كل هذا الزمن فى تلك البلدة الصغيرة المملة . . وما أرحمها . . لقد كان يسقى صوتها ، وهى تتحدث عن المرأة المسنّة ، حنان كبير . .

* * *

فى القطار ضمّنا ديوان واحد ، ولم تكن تعرفنى . فراق لى أن أتأمل محياها دون خجل ، وقد ألقت ذراعها على كتفى ولدها لتضمه إلى جوارها . وأغمضت عينيها .. كانت كحمامة متعبة تضم فرخها تحت جناحها . .

وخيل لى أن الذكريات تترقرق على صفحة هذا الوجه العذب . وأن تحت هذه الطبقة الرقيقة من الهدوء والتسليم يسرى الندم والحنين .

لكن الشفتين الرقيقتين الشاحبتين كانتا تنمان عن العزم ، الذى صاح ذات مرة فى وجه أحمد : « دعنى .. لا أستطيع . . إن ابنى سيكبر . . وسيحتقرنى ذات يوم إذ يكتشف أننى لم أقنع به . . وعندما يعرف أننى تزوجت الطبيب الذى كان يعالج أباه سيسألنى بارتياب : « ألم يقصر ذلك الطبيب عمداً ؟ . . إنه كان صاحب مصلحة . . وإنى لأتهمك معه . . إنك شريكته . . » .

ابني سيكبر . .

ها هو ذا قد كبر .. وتحققت نبوءتها . . وإنى لأرى فى عينيه أنه فخور بأمه الشابة الحسناء . . وما أجمل صحبتهما . . إن الأمومة قد عوضت « إيناس » وواستها .

* * *

وأخذ القطار ينهب الطريق . . وأخذت الخواطر تنهب رأسى .

إن صديقى أحمد لم يرها منذ عشرة أعوام أيضاً . . وقد اندملت الجراح ، نسى لكنه لم يفكر فى الزواج .. منذ خرجت من حياته ماتت رغبته فى اختيار أخرى .

وباغتتنى فكرة .. إن النادى الذى يسهر فيه قريب من المحطة . . وقد وعدنى أن ينتظرنى عند رصيف القطار فى تلك الليلة ، لنعود إلى إلى الشقة التى نسكنها معاً . . فهل يأتى ؟ وهل تشاء المصادفة الساحرة أن أن يلتقيا هكذا . . بغتة ؟

كم أخافنى ذلك . . أشفقت أن تعاود المسكين رجعة الداء القديم . .

ولما وصل القطار رأيته ينتظرنى . فوثبت ، وهرعت إليه . . لأبعده .

وسرنا معاً .. واتفق ، برغم محاولتى ، أنها مرت بنا ، وتجاوزتنا ، وتقدمتنا دون أن يتنبه .

واطمأننت .. وغلبتنى سخرية مرة، فقلت له، وأنا أشير إلى ظهرها وهى تبتعد : « انظر . . إنه لقوام رشيق » .

وغمغم ، وهو يرسل وراءها نظرته الباردة : « نعم إنه قوام رشيق »

ورأيت نظرته تطول ، وكأنه يبحث عن شىء فى ذاكرته . .

فخشيت العاقبة ، وناديت عربة ودفعته إليها محتجاً بالتعب .

ولما دخلنا شقتنا لاحظت أنه واجم . . وأنه يحدق فى الفراغ وهو يخلع ملابسه بعين ثابتة ، وكأنه يفكر فى شىء .

وسألته عما به ، فهمس بلا وعى : « إنه قوام رشيق » .

وعدت أسأله مرة أخرى : « ماذا تعنى ؟ » .

أجاب وهو يضحك بمرارة : « خاطر سخيف مر برأسى . . كأن ذلك الشبح القديم الذى دخل حياتى ذات مرة عاد إلى الظهور . لكن كلا . . إنه وهم من الأوهام » .

ومضى إلى النافذة . . وفتحها . . وطفق يحدق فى الظلام وكأنه يبحث . . عن شىء ضائع .





# الوزير والراقصة!



ككل صباح وقفت السيارة أمام « جروبى » وانزلق السائق من مقعده وأسرع يفتح الباب للسيد الخطير وهو ينحنى باحترام . . وأخرج السيد الخطير من حافظة نقوده الثمينة تذكرة طبية وقال وهو يناولها للسائق :

« هات هذا الدواء من الأجزخانة » .

وأجاب السائق وهو ينحنى باحترام مرة أخرى : حاضر يا معالى الباشا .

* * *

كان السيد الخطير يعرف أنه لم تعد هناك معالى، وأن الباشوية فاضت روحها ، ومع ذلك فلم يكن يكره هذه الكلمات الحلوة من « بكر » السائق . وإنما كان يكره شيئاً غريباً فى صوته ، لعله السخرية وهو يقول : « يا معالى الباشا » .

ولعله أيضاً الشماتة تتقمصه وهو ينحنى له باحترام . . عجباً لهؤلاء الخدم كأنهم فرحون بالمصائب التى حدثت . . . . وكأن « بكر » نال لنفسه الرتبة التى أخذت منه . . أم أنه شرف لهذا الغبى أن يصبح سائقاً عادياً بعد أن كان مستمتعاً بلقب سائق . . معالى الباشا .

هكذا حدث السيد الخطير نفسه وهو يتوكأ على عصاه فى مدخل « جروبى » . .وفى الماضى عندما كان يهل من المدخل بطلعته البهية، كان الناس يخفون لتحيته . . بعضهم يقف . . وبعضهم ينافس «بكر» السائق

فى الانحناء . . وبعضهم يتفوق على « بكر » فى الأدب ويقبل يده .

* * *

ولكن يظهر أن الدنيا تغيرت . . لايوجد الآن راغبون فى فتات الابتسامات التى كان يجود بها . . والعيون . . تتجنبه حيناً . . وحيناً تحدجه بنظرات فيها بريق كأنه بريق الشماتة .

* * *

وطلب فطوره بلاشهية وهو يفكر فى المجد الضائع ، وفى الأيام الجميلة التى ذهبت ولن تعود . كان السيد المهيب وزيراً مرات عديدة من قبل . فإنه كان مستقلا . وكان يحتفظ باستقلاله حتى يتبين اتجاه الرياح عند تشكيل كل وزارة جديدة ؛ ثم يصيبه حنين مفاجئ إلى المذهب السياسي الذى صعد نجمه ويجد نفسه فجأة مستقلا بعقله وحزبيا بقلبه وعواطفه . . والعواطف لاجناح عليها إن هى تبدلت ، والطلاق جائز شرعاً .

وتنهد السيد المهيب وهو يقلب السكر فى فنجان الشاى . . كان السكر قد ذاب منذ زمان . ولكن الملعقة ظلت تدور فى حركة ذاهلة فى فنجان الشاى ، وفى رأسه لتذيب هناك خواطره الحزينة . . . إنه لن يكون وزيراً بعد اليوم . . . النجوم الصاعدة انصرفت من السماء . . . ولاتوجد ليلى يغازلها ويطلب ودها . وليست هناك هند يناجيها وتشفى نفسه مما يجد . الأحزاب جميعاً . . « شطبت » والعرس انتهى . . « والمعازيم » . . هربوا . وهيهات أن تمر زفة جديدة . . .

إن عمله الوحيد الآن أن يجلس فى « جروبى » . يدخل فطوره فى جوفه ، ويدفن وجهه فى الصحف ، باحثاً فى أعمدة الوفيات عن ميت يعرفه لكى ينشط إلى الجنازة ويتسلى بالسير فيها ، ويسمع أهل الفقيد يقولون له وهو يقدم العزاء: « مع الشكر يا باشا » .

ولكن يبدو أن عزرائيل اليوم فى عطلة . . . إنه بحث فى الصحف عن ميت معروف أو نصف معروف فلم يجد . وليس أمامه إلا أن يتثاءب فى كرسيه حتى موعد الغداء . . .

وجاء أصدقاؤه . . وجلسوا معه . . . كانوا ثلاثة . . . وأخذ كل منهم يسأل صاحبه : « كيف الصحة يا باشا ...؟ » ، وتكررت كلمة باشا فى الحديث . . وكان كل منهم ينطقها بصوت ملائكى وفى خشوع كأنها صلاة تتلى على ضريح .

كان « جروبى » هو موقف هذه الشلة من الباشوات السابقين ، ينتظرون فيه إلى أن تفرج بوزارة . . فإذا فرجت اختفوا منه . وألهمهم جلال المنصب الترفع عن مخالطة الجماهير ، ولكنهم الآن شعبيون جدًّا ومقتنعون جدًّا بأن مقاعد « جروبى » ألذ من مقاعد الحكم .

قال أحدهم وهو يتنهد ، بعد أن ألقى نظرة على العناوين الكبيرة: « مساكين هؤلاء الشبان يتوهمون أنهم سينجحون فى مفاوضاتهم مع الإنجليز . . شبنا وشخنا ومع كل حنكتنا لم نفز من الإنجليز بطائل . . أيظن هؤلاء الأولاد أنهم ينجحون حيث أخفقنا نحن » .

وقال الباشا الثانى وهو يمر بأنامل مرتعشة على شاربه المصبوغ : « دعهم

يتمرنون » ثم أضاف بصوت أعلى وقد أشفق أن يكون الجالس خلفه قد سمعه : « إنهم شبان طيبون مملوءون إخلاصاً » وأدنى الثالث رأسه من الرءوس الأخرى وهمس :

« المسألة ليست طبية : . . إن إدارة الحكم تحتاج إلى تجربة ومهارة» .

وابتلع حبة دواء يساعد المرارة على الإفراز ثم أتم جملته : « إننى كنت وزيراً قبل أن يولدوا لماذا لا يستعينون بخبرتى » .

وقال السيد الخطير الذى جاء أولا إلى الموقف بصوت ينضح براءة : « وخاصة أن الإنجليز يثقون بك . . . يا باشا » .

وفى هذه اللحظة وصل «بكر» السائق وقدم له الدواء الذى جاء به من الصيدلية .. وتطلعت العيون إلى الزجاجة الجميلة ، فقال السيد الخطير : « إنها فيتامينات » فمال الباشا الذى يثق به الإنجليز على أذن صاحبه وسأله : « أهى سر نشاطك ؟ » .

وابتسم السيد الخطير وقال فى تواضع : « أى نشاط ؟ ! . . كان ياما كان » .

أما الباشا الذى يصبغ شاربه فأسرع بإخراج مفكرته وقلمه ونقش اسم الفيتامينات الجديدة وهو يقول باهتمام : « دعنى أجربها » .

وقال صاحب الفيتامينات : «إن عندى وصفة إذا أضيفت إلى الفيتامينات كان لها فعل السحر . إنها تجعلكم أقوياء جداً وترد لكم الشباب» ، فهتفوا جميعاً فى نفس واحد : « تكلم » .

وقال السيد الخطير : « الجزر المعصور » مع عصير الكرفس وعصير الخرشوف » .

فقاطعه صاحب المرارة وهو يحدق فيه تحديق الطالب النجيب فى أستاذه : « النسب من فضلك » .

وخرجت المفكرة من جيب الشارب المصبوغ مرة أخرى ليقيد النسب .

* * *

وعلى مائدة قريبة قالت فتاة رشيقة لصاحبتها إننى أعرف وجوههم من الصور . . . هذا فلان . والآخر . . . والآخر فلان الذى كان وزير أوقاف .

قالت الثانية وكان « جروبى » جديداً عليها :

«لأول مرة أرى فيها فى حياتى وزراء وباشوات. يا لها من شخصيات مهيبة . . انظرى إلى علامات الاهتمام على وجوههم . . لاشك أنهم يفكرون فى مصالح البلد . . إن المناقشة بينهم حادة » .

* * *

كانت المناقشة حادة فعلا . . فقد حدث خلاف على « النسب » وطعن أحد السادة البارزين فى قيمة الجزر . ولكن صاحب الفيتامينات انبرى له وفند مزاعمه ، وقال بلهجة الواثق إنى أتكلم عن خبرة .

ونقر الباشا الذى يثق به الإنجليز على المائدة بأنامله فى وقار وقال فى كياسة وروية : « هدوءاً يا سادة وانظروا إلى الشرق .. هنا فتاتان تنفثان من عيونهما السحر » .

وتنهد الباشا الأول وهمس وهو يضع السيجارة فى الفم المذهب: «تعجبنى سيقان الجالسة إلى اليمين» .

ولكن ذا الشارب المصبوغ اعترض قائلا:

« لا ياباشا .. الثانية أحلى .. احكم بالعدل فإنك كنت مستشاراً .. انظر مليًّا إلى صدر الثانية . . إن فيه دسامة » .

وتدخل صاحب الفيتامينات قائلا: « هل تريدون رأيى . . . أجمل ما فى المرأة السيقان . . . اسألونى أنا » .

ابتسم صاحب المرارة قائلا : « نعم . . إنك اختصاصى فى السيقان .. إنك دائماً كنت على مودة وعلاقة طيبة بالراقصة . . إياها » .

وأجاب فى تواضع : « يا إخوانى أبداً .. إنها إشاعة أذاعها المغرضون.. لاتصدقوا » .

وقال وزير الأوقاف السابق وهم ينهضون وقد حل موعد الغداء : « هل كنت اكتشفت كوكتيل الجزر والكرفس أيام معرفتك بها يا باشا . . ؟ » .

وضحكوا وهم ينصرفون .

وانتهت جلسة الأقطاب التى بدأت بالرثاء للبلد الذى أصبح فى قبضة حفنة من الشبان عديمى التجربة .

* * *

ولكن الجلسة لم تنته بالنسبة لصاحب الفيتامينات . لم يشعر بنفسه

و« بكر» السائق ينحنى له وهو يفتح باب السيارة . . ولم يتنبه إلى أن السيارة تنهب به طريق العودة إلى البيت ، كانت سيقان الراقصة تملأ خياله .

وأفاق فجأة وصاح بالسائق « قف » .. ثم أكمل وهو يغادر السيارة : عد أنت إلى المنزل . لاينتظرنى أحد على الغداء . . أنا معزوم ».

ومضى يمشي الهوينا . .

كانت بيت الراقصة قريباً . . وقد « وحشه » طعامها . إنه منذ شهور لم يتذوقه . . ولم يمتع ناظريه بساقيها .

تنهد . . وأرسل إلى فمه حبتين من زجاجة الفيتامينات . وسال لعابه .. وسالت الذكريات فى رأسه .

متى عرف الراقصة الساحرة .. إنه رآها لأول مرة فى عرس ابنته .. وكان رقصها وكل حركات جسدها الأفعوانى الفائر المعبر موجهة إليه . . وإليه وحده.

وشعر ليلتها أنه فتنها .

ومنذ الصباح التالى بدأ يشاغله فى التليفون صوت ناعم . . وقالت له صاحبة الصوت الناعم إنها منذ رأته بالأمس لم يهدأ لها بال ولم يغمض لها جفن . . وإنها شابة وصغيرة ولكنها تموت فى الشعر الأبيض . .

وكان أيامها خالى شغل .. لم يكن فى مقاعد الحكم . . وكانت الوزارة القائمة على وفاق مع .. ولى الأمر تنحنى له كما ينحنى « بكر» السائق تماماً وهو يفتح باب العربة ، لم يكن لديه أقل أمل فى أن يلبى داعى

الوطن وبقبل الوزارة مضحياً بصحته وراحته؛ ومن هنا صار الحديث التليفونى الناعم شغله الشاغل . . وكان يقفل على نفسه باب مخدعه ، ويأمر بإخلاء الطابق كله . لأنه سيتفرغ لكتابة مذكراته ولايريد ضجة . .

وكان الوقت يمر ممتعاً . . اعترفت له المجهولة صاحبة الصوت الناعم أنها تحبه . . لابد أنها الراقصة فإن ضحكاتها والمعانى فى كلماتها شيقة مثيرة .. راقصة بدورها . وطلب منها موعداً فتمنعت وسببت تمنعها . الحياء . . وشخصيته القوية . . إنها تخاف أن يغمى عليها عندما تصبح بين يديه . .

وكان الإغماء بين يديه هو أعز ما يتمناه . . فإنه يجد نفسه أصغر من عمره بعشرين سنة . وأنه يستطيع أن يمارس كل الحماقات التى مارسها فى فتوته . . وأمام حماسته وحرارته كشفت عن شخصيتها وهى تذوب خجلا . . إنها كما حدث وتوقع .. الجسد الأفعوانى .

* * *

وتردد عليها .. ولكن لم تحدث الأمور التى توقعها . أقسمت له أنها . . . عذراء . وتوسلت إليه أن « يحافظ » عليها ولايستغل شخصيته القوية . . وضعفها .

ووجد نفسه ميالا إلى تصديقها .. حقاً إنها راقصة ولكن أهذا يمنع أن تكون عذراء . . إن المجتمع يقسو فى الحكم عليها كما قسا من قبل فى الحكم عليه .. كم اتهم بأنه رجل غير شريف لمجرد أنه « استفاد »

من بعض الشركات وأثرى من بعض المناورات . . الاقتصادية . .

ولم تكن الراقصة « وش فقر » .. على العكس بعد تردده عليها بأسبوع واحد جاء الخير . . أصيبت الوزارة القائمة بزلزال . . وقذف التركى فى نوبة هياج بالوزراء إلى الخارج كما يقذف الطفل المدلل بتماثيل الخزف التى يلعب بها .

وكان فى بيت الراقصة عندما دق جرس التليفون وزف إليه صديقه مريض المرارة . . البشرى : إنه دخل معه الوزارة الجديدة . .

* * *

وبعد أن حلف رجل الفيتامينات يمين الولاء . . عاد مباشرة إلى بيت الراقصة . . إنه يريد أن يحلف لها هى أيضاً اليمين وهو ما يزال فى كسوة التشريفة .

وأخلت الفتاة البيت .. حتى من الخدم احتراماً لمقام الرجل العظيم وحرصاً على سمعته .

واقتسمت معه كل كأس من زجاجة الوسكى التى حضرت احتفالاتهما بالمناسبة السعيدة .

وذهب الوسكى بالخفر والحياء فرقصت له وحده ، كما لم ترقص من قبل . .

ونسيت أنها . . عذراء .

ونسى أنه ملاذ الأمة فى الملمات .

وفى الصباح استيقظ ليجد نفسه رافلا فى ثوب الراقصة . والراقصة إلى جانبه نائمة فى كسوة التشريفة .

وعندما عادت إلى وعيها بكت بين يديه . . واتهمته أنه استغل طيبة قلبها وسعادتها بدخوله الوزارة ، وسلبها أعز ما تملك .

وطيب خاطرها . . وهمس فى أذنها أنه سيعوضها عما أصابها .

وجاء التعويض فى شكل أذونات استيراد وتصدير لأصدقائها . . . وتعيينات هنا وهناك لمن تعطف عليهم . . وكانت تقسم له إنها ليس لها غرض إلا خدمة الإنسانية .. وكان يصدقها ويقول لها هاشاً : « أنا مثلك . فى تصرفاتى لا أبغى إلا وجه الله والوطن » .

وكان السيد الخطير يحترم منصبه ويربأ بنفسه أن يسهر فى الأماكن العامة مثل الملوك الطائشين . ولذلك اتخذ مع شلته بيت الراقصة الهادئ محلاً مختاراً .

وعلى نغمات الصاجات كانوا يفكرون فى المقالب الوزارية التى تقتضيها مصلحة البلاد العليا .

وأعقب توسع الراقصة فى التعارف بالوزراء أنها توسعت فى خدماتها الإنسانية .

وجمعت فى مدة وجيزة ثروة لا بأس بها . .

واستغنت عن بدلة الرقص .

تذكر صاحب الفيتامينات كل هذا وهو يصعد إلى شقتها . . إنه لم يرها منذ شهور . . وإنه ليسأل نفسه : هل تتنكر له بعد أن تنكر

له السلطان وتخلى عنه النفوذ . . إن الغوانى شيمتهن الغدر .

وأسعده أنها استقبلته معانقة. . . ولكنها كانت حزينة . . وباحت له أن القمار والسباق ذهبا بما تدخر وصارت فقيرة معدمة . . وكأنها أميرة .

توقعت منه أن يخرج دفتر الشيكات ، ولكنه تحدث عن قانون الإصلاح الزراعى وكيف جعله من بنى قحطان وهمس فى أذنها : عودى إلى الرقص .

قالت فى حسرة : إننى سمنت وترهلت والأفلام تتطلب نحافة و رشاقة . . وفتحت الدولاب .

هناك كانت بدلة الرقص .

وإلى جوارها بدلة أخرى هى كسوة التشريفة الكبرى . . . التى احتفظت بها منذ تلك الليلة التى أقسم لها فيها يمين الولاء .

وسالت من عينيها دمعة . . .

وسالت من عينه أخرى وهو يتأمل الكسوة ، إنها مثل بدلة صاحبته تمثل المجد الرفيع الضائع .. لا أمل أبداً فى أن يرتديها ويذهب بها إلى القصر .. إن عهد الرقص على الحبل قد ولى وانقضى . . . والأحزاب « شطبت » . . والعرس انتهى والمعازيم هربوا . . . ولا أمل فى « زفة » جديدة يطبل فيها . . هيهات . . .

# هذا أنت!



كان ينظر من الشرفة إلى شجرة فى الطريق .. وكره الشجرة . . إنها دائماً جافة جرداء الغصون فى الصيف والشتاء . . وتمنى كما تمنى من قبل لو تهوى عليها فأس وتقطعها عندما اقتحمت أنفه رائحة القهوة . وعرف أن زوجته « فريدة » ، التى تمشى بخطوات لاصوت لها ، قادمة بالصينية والأقداح .. واستدار ليستقبلها وهو يحسّ أن بينها وبين الشجرة الجافة شبهاً . الحياة معها لا طعم لها .. إنه أحياناً يشرب قهوته وهو يرتدى ملابسه ، ثم لايدرى إن كان شربها حقاً إلا عند العودة إلى « الفنجان » والنظر فى قاعه . . كذلك هى . . ينظر إليها ولكنه يراها من الذاكرة . . عشر سنين زواج كافية لكى يحفظها عن ظهر قلب . . صورة وصوتاً . . ليس من الضرورى أن يسمعها لكى يعرف أنها تتحدث إليه عن ذلك الألم فى جنبها . . أو عن حذاء الولد الذى بلى . . أو عن شكوى البنت من مدرّسة تضايقها .

وهو يستطيع أن يتنبأ بأن الشاى على مائدة الفطور سيكون خفيفاً ، وسيحتج كما يفعل دائماً . . وهو يعرف سلفاً أنها ستلومه لأنه ينفض رماد سيجارته فى أى مكان إلا المنفضة التى وضعتها أمامه ، ولكنه لن يتوب .

. . . ثم قبلة وداع عند الباب ، ليست حارة ولا بارده . . الولد والبنت يلعبان أمام باب البيت فى انتظاره . . سيوصلهما إلى المدرسة سيراً على الأقدام تخففاً من نفقات الأتوبيس . . زوجته تقول له كلما ضاق بهذا : « إنه يوفر لنا شيئاً ويوفر لك صحتك . . وزنك بدأ يزيد . . »وهو لايستطيع أن يعترض فإنها تقاسمه المشقة .. هى التى تذهب لتصحبهما من المدرسة بعد الظهر .

طيبة أنت يا « فريدة » ، ولكنك سقتنى فى طريق التقشف وأنا لا أدرى . . وقد قطعت فيه شوطاً بعيداً . بعد العهد بينى وبين كل مسرة . . هدفنا واحد : أن ندخر كل قرش لنسدد قسط البيت الذى أقامته لنا الجمعية التعاونية .

وعندما تذكر القسط فضل أن يمشى إلى مقر عمله .. حقاً قلما أدركه الكمسارى فى زحام الصباح ، ولكن ذلك يحدث فى احترامه لنفسه خدشاً طفيفاً . . وقد كثرت الخدوش الطفيفة .

إنه رئيس حسابات الشركة . . والبواب يفتح له المصعد باحترام يوحى بأنه قادم فى سيارته الخاصة أو على الأقل فى تاكسى .. وعندما يصل المصعد إلى الطابق الذى تحتله الشركة يهرع إليه الساعى ليحمل حقيبته الأنيقة . . والموظفون يحيونه باحترام . . وسكرتيرته « رجاء » تقف عندما تراه وعلى محياها ابتسامة طيبة .

. ولكنه يعرف أنه لا هو ولا حقيبته يستحقان هذا الاحترام . . فإن فى الحقيبة إلى جوار الملفات الهامة جريدة قديمة ملفوفة على بعض

الشطائر ، لأنه لايعود إلى بيته ظهراً فى بعض أيام الأسبوع ، وقد قال لنفسه إنه يكره المطاعم . . ويشك فى اتباع الطهاة أصول النظافة . . وأخفى عنها أنه يفعل ذلك لأسباب اقتصادية .

خدوش طفيفة ليس آخرها أنه لايخرج علبة سجائره ليدخن إلا إذا رأى السيجارة مشتعلة بين أنامل ضيفه . . ولا يطلب له القهوة إلا وهو منهمك فى حديث تليفونى أو فى النظر إلى ورقة ، لكى ينسى فى غمار انشغاله الإلحاح فى الدعوة .. حاشا أن يفعل ذلك عن عمد وتدبير فإنه صار ملكة وطبعاً لايحاسبه عليه أحد ، ولكنه يحاسب نفسه حساباً يهدأ أحياناً ، ويلتهب أحياناً ، مثل الجلد المصاب بالحكة ما يكاد صاحبه يلمسه حتى يهيج .

حادث صغير جعله اليوم يهرش ذاكرته . . عبثاً يطلب إليها أن تهدأ وتستكين . رفع سماعة التليفون وقبل أن يطلب الرقم سمع ضحكة ناعمة تدغدغ صوتاً رقيقاً يتحدث . . وأدرك أن خطه مشتبك بخط آخر . . وهم أن يعيد السماعة إلى مكانها ولكنه تريث ، فإن الحديث كان جذاباً ، يغرى بالفضول .. الضحكة الناعمة كانت تصد صوتاً يسأل لقاء عاجلا . . خشونة آمرة مغلفة بذلك التوسل الذى يطيب للأنثى . . أنثى تبدى التمنع الذى يحمل جنين الرضا .

وتنفصل الخطوط المتشابكة . . وتختفى هذه الأصوات المترعة بالسعادة . . ويجد « أحمد » السماعة فى يده وقد نسى الرقم الذى كان موشكاً أن يطلبه . .

تمنى لو أنه كان ذلك الرجل الذى يرجو ويتوسل . . لو أنه هدف ذلك الصد الرقيق . . وحك رأسه وهو يبتسم لفضاء الحجرة ابتسامة كسيرة . . ولكن أصابعه أصابت ، تحت فروة رأسه ، ذلك العرق الذى يتصل بالذاكرة . . وهاجت خواطره .

فى الأيام الخوالى كانت له هو أيضاً مواعيد رقيقة .. وكان يستطيع أن يدير رأس الفتاة التى يريد بالقول المعسول . . ذاق من قبل حلاوة العذاب فى الحب . . العاطفة التى كان يشبعها الوصال كانت تهدأ ثم تموت . . ينبغى أن تتألم لكى تكون عاشقاً حقًّا . . وأن تجد فى حلقك الغصّة التى دفعت « فرتر » إلى الانتحار بعد موت « شارلوت » . مع فارق بسيط ، إنه ليس من الضرورى أن تنتحر فى عصرنا هذا . . يكفى أن تمرض من الحب . . وحسبك هذا دليلا على أن قلبك حى ينبض .

وتنهد أحمد وهو يتذكر زوجته فريدة . . كانت أحلى مغامراته . . عندما كان يسمع صوتها فى التليفون كانت عروقه كلها تتحول إلى أسلاك متصلة بصوتها . . ما لعروقه الآن قد أصابها التصلب ، وصارت موصلا رديئاً للإرسال والاستقبال .. سخفاً لهذه الحياة الرتيبة . . الولد عاد من المدرسة مرتفع الحرارة ، هل أستدعى الدكتور يا أحمد ؟ . . أختك رتيبه تريد أن تزورنا مساء الخميس هل يلائمك الموعد؟ . . ليس عندنا شيء للعشاء أحضر معك بعض « السجق » . .

دخل عليه الساعى وصوت زوجته يطن هكذا فى أذنه . . رفع

رأسه وتصور لحظة أن زوجته هي الموجودة داخل ملابس هذا الساعي . إنها مولعة بالخدمة . . خدمة الآخرين . . إنها تنسى نفسها فى بيتها ولا تمنح نفسها إلا القليل . حقاً إن الزواج شركة .. ولكن التعب هو البضاعة الوحيدة الموجودة على رفوف الشركة .. شركة على بابها نحاسة علاها الصدأ . . مكتوب فيها : « حياة لا طعم لها » .

يا أحمد يجب أن يكون لحياتك طعم .. مصطفى وكيل الحسابات يتحدث عن مغامراته بوجه يطفح بالبشر والتفاؤل .. له كل يوم حكاية مع فتاة .. إنه يصول ويجول فى ميدان كنت من فرسانه . . أنت أولى بانتصاراته . . جرب . . حطم القوقعة التى حبست نفسك داخلها .

ورفع سماعة التليفون . . هناك رقم ما زال عالقاً بذاكرته . . لم يستعمله منذ تزوج . . .

وأسعده أن « درية » رحبت بأن تراه . .

* * *

وذهب إلى الموعد بعد أن حلق ذقنه بعناية ، وتأنق ما وسعه التأنق .

واحسرتاه . . إنى جئت يا درية من أجل شعرك الأشقر . . ماذا صيره أسود . . أشياء كثيرة فيك صارت لها صبغة جديدة . . حتى الضحك فى عينيك تغير أيضاً لونه . . اللون القديم كان أحلى .. تركت نفسك تسمنين . . أين عودك الهش الضئيل الذى كنت أخاف أن ينكسر تحت ساعدى إذا هصرته . وسمانة ساقك التى كانت رائعة

صارت حبلي كعضلة مصارع . . ليتني ما اعتنيت بهندامي وطاردت بالملقاط الشعرات البيض لكي أكون فى مستوى الموقف .

الموقف محرج يادرية . . لست المغامرة التى أهفو إليها . . كل ما أملكه لك أن أسمع شكواك من الأيام . . ظللت ترفضين الخاطبين . . لأنك وجدتهم خونة . . طلاب مال أو متعة . . هل أنت واثقة مما تقولين . . سأصبح بعد قليل أحد هؤلاء الخونة . . يشق على أن أصارحك أن لقاءنا لن يتكرر . . هل يكفى التلميح . . أنا الآن زوج يادرية . . زوج وأب أحمل على كتفى جبلا من المسئوليات والهموم . . كنت أظن أن شبح زوجتى عندما أستحضره لك سيفزعك . . ولكنك ثابتة القلب . .تريدين أن ترفعى عنى ظلم زوجة لم أتظلم منها . . وتخفين إلى نجدتى قبل أن استغيث . . وألمح لك أنى لا أفكر فى العبث بثقة زوجتى ، ولكنك ترفضين أن تفهمى .

وهل حقـًا لم أفكر فى العبث بهذه الثقة ؟ . .

وضحك من نفسه . . فقد جاء إلى الموعد وأهدار هذه الثقة فى حسابه . . ولكن إستعمال زوجته سلاحاً ، يدفع به « درية » ، جعل إثمه فى نظره ، إثمين .

ومع ذلك لم يعد به هذا الشعور بالإثم إلى منطقة الضمير . . إن « درية » قبل أن تذهب قدمت له ، من حيث لاتدرى اقتراحاً بالمغامرة التى يصبو إليها . . فقد تحدثت عفواً عن « سهام » . . وكيف أن الرجال لا يعبدو مثيلان إلا من بها الفتيات العابثات . .

فى اليوم التالى طلب « سهام » فى التليفون . . عرفت صوته فى الحال بعد كل هذه السنين . . . شحنه ذلك بالثقة . وأطربه أنها فرحة بحديثه . . وتأنى لكى تطلب هى الموعد . . وعندما فعلت راودته لذة خفية فى أن يصدها . إنه لممتع أن يكون المرء سيد الموقف . . وبعد أن وضع السماعة بدأ يلوم نفسه . . كيف مضت كل هذه السنين من غير أن يرى « سهام » . . فى الماضى كانت تطارده . . كانت مجنونة به . . ولكنه كان قد دخل منطقة الاتزان، وكان يدور فى فلك « فريدة » ، الفتاة التى تزوجها من بعد . . ولم يكن ثمة قوة تقدر أن تجذبه . . أما الآن فإنه يحس أن قانون الجاذبية معطل منذ زمن . .

صوت « سهام » على سلك التليفون ما يزال ساخناً ، مشحوناً بالجرأة والرغبة . . . كعهده بها فى الأيام الخوالى لم يكن يطيب لها خفر العذارى . إنها تصرخ فى البوق : « كيف أنساك . . المرأة لاتنسى أبداً رجلا هرب منها ، وحرمها متعة أن تكون البادئة بالهجر . . نلتقى غداً . . غداً بعيد . . لو نلتقى الليلة أكون أسعد » .

ووضع السماعة بيد ترتجف . . . ما تزال مجنونة، ولكن مرحباً بالجنون الساعة الآن العاشرة صباحاً . . الوقت يتسع لتدبير سهرة خليقة بالمناسبة المهولة . . جعل يقلب الصحف ، « أين تسهر هذا المساء ؟» العنوان الذى كان بصره يتخطاه دائماً يشعر اليوم أنه موجه له بالذات . . إنه كتب خصيصا من أجله .

وبعد بحث دقيق استقر عزمه على أن يدعو « سهام » إلى ذلك العشاء

الراقص . . ويحك يا، أحمد . . التذكرة بخمسة جنيهات . . يارجل « السندوتش» تدفع عشرة جنيهات فى تذكرتين . . خيل إليه أن الجبن « القريش » القابع فى الرغيف الصغير داخل الحقيبة الأنيقة ينظر إليه فى هلع . . . وقال لنفسه وهو يروغ من تلك النظرة : « أنا مدير حسابات . . . ضقت ذرعاً بالحساب العسير . . إن هى إلا نزوة لن تتكرر . . كل الدفاتر مهما تكن منتظمة تقع فيها أغلاط » .

وطافت برأسه فكرة ارتجف منها : لو أن هذا الرغيف الصغير وشى به لزوجته! . . أن تضبطه «فريدة » متلبساً بالخيانة لم يكن شاغله الكبير . . الخيانة هى ثمرة المغامرة وبهجتها .. جزء من متعته أن يتظاهر بعد كل الذى سيحدث بأنه ملاك . . ولكن الذى يخشاه حقاً أن تضبط زوجته هذا العجز فى الميزانية . . عشرة جنيهات كاملة . . إنها تعرف ما يقبضه بالقرش والمليم . . حقاً أنه رئيس حسابات ولكن « فريدة » هى السلطة العليا . . إنها الرقابة الإدارية .

ومشى إلى الموعد وهو يفكر فى الطريقة التى سيعلن بها ضياع الجنيهات العشرة . . نشلت يا« فريدة » . . صديق لى معرض أن يحبس فى دين نفقة .. لا . . أفضل من هذا أن أزعم أنى فوجئت بعجز فى الخزينة غطيته قبل أن ينكشف الأمر .

ثم زجر مخاوفه .. لماذا ينغص نفسه بالهواجس . . الآن لا ينبغى أن يفكر إلا فى « سهام » .. ستوافيه فى السادسة تماماً وسيبقى معها حتى منتصف الليل . . ربما الثانية صباحاً .. هذا لن يقلق زوجته .. عودها

أن يسهر كثيراً فى مكتبه مع أرقام الميزانية . . ومن حسن الحظ أن البيت ليس به « تليفون » يمكنها من تعقبه .

السادسة بالضبط كان مرابطاً فى بار شبرد ووجهه إلى الباب . . ووثب قلبه . . « سهام » قادمة تخطر كالغزال . . . الأعوام لم تفعل بها ما فعلته بدرية . . واحتوت الجالسين بنظرة عابرة . . تخطته نظرتها . . ثم جلست بسرعة فى مقعد بعيد ، أسرع من محاولته النهوض لاستقبالها . . واضطر أن يذهب إليها وقد خامره الاستياء ، أنها لم تلحظه لأول وهلة . . واستقبلته وهو يتجه إليها بنظرة متحفظة . . ثم هتفت وهى تمد له يديها الاثنتين :

— لم أعرفك فى البداية . . شد ما تغيرت . . . .

ما أحلى هذا اللقاء . . وما أحلى أن يتحدث إلى « سهام » من السادسة إلى الثامنة مع كأس أو كأسين من الويسكى . . ثم يذهبان إلى ذلك العشاء الراقص ، وفى الرأس والقلب نشوة « . . جميلة كما كنت دائماً يا سهام . . لم تزيدى فى العمر ولا سنة واحدة ،

وتركته يمسك يدها وهما يتحدثان ولكن يدها كانت باردة . . وصوتها الذى كان ساخناً فى التليفون صار دافئاً فقط . . دفء المودة بين أصدقاء قدامى . . حدثنى يا أحمد عن أولادك . . عن زوجتك . . هل هى جميلة . . هل أنتما على وفاق . . ليس أجمل فى الحياة من الوفاق بين زوجين .

وحاول أن يتجنب الحديث عن «فريدة» ولكنها ظلت تلح فيه حتى أوشك أن يصرخ بها :

— ميزتك كانت الجنون . . لا مأرب لى فى عقلك :

ولكنه آثر أن يصبر قليلا . . وعدل عن الثورة إلى القول : « حدثينى عن نفسك . . إنى هنا من أجلك . . لا من أجل زوجتى » .

وأجابته ضاحكة : « سأقدم لك تقريراً يا أحمد بقدر ما تسعفنى الذاكرة . . بعد أن تزوجت أنت وهجرت أصحابنا . . هجرتهم أنا أيضاً . . وعملت مضيفة جوية . . الطواف بالعالم كان وسيلتى لكى أنسى أشياء كثيرة . . » .

وحدث نفسه : « عظيم . . هذا معناه أن بصماتى ما تزال باقية على قلبها » .

وتحسس تذكرتى العشاء الراقص فى جيبه . . وأثنى على اختياره . . إنهما جواز مرور سريع إلى كل ما يتمناه .

وقطع عليه أفكاره صوتها وهى تقول : « ذات رحلة وأنا أقدم كوب برتقال فى الطائرة لشاب فرنسى أمسك بيدى » . . ولم يفلتها حتى تزوجنا ... وعشت حقبة فى باريس . . لك أن تفخر أنى "مسحت" الباريسيات . . كان اسمى هناك نفرتيتى . . ولكنى ضقت "بروبير" . . كان غيوراً جداً وكأنه شرقى . . وركلت ملايينه . . وتحررت » .

بعد ربع ساعة كانت قد وصلت إلى زواجها الثالث الذى انتهى بطريقة لابد لها فيها . . مات المسكين فى حادث تصادم .. وأقسمت ألا تتزوج بعد ذلك أبداً ..

قال لنفسه : « حسناً . . انتهت من الحديث عن زوجتى وعن

أزواجها . . جاء دوري . . . الأرامل يبحثن دائماً عن عزاء ، وينشدن الرجل الكتوم .

أشار للجرسون طلباً للكأس الثانية، احتفاء بالبداية الحقيقية لهذا اللقاء الحلو ، لكنها أعترضت وهي تقول له بصوت ناعم إنها مضطرة أن تنصرف :

« كنت أود يا أحمد أن أقضي السهرة معك . . ولكن وأنا أتأهب للقائك وصلتني برقية من « جون ». جون وصل فجأة إلى القاهرة، وسيقضي فيها الليلة فقط . . إنه سينمائي أمريكي يفكر أن يسند إلى بطولة فيلم تدور حوادثه في اليابان . . أعطني رقم تليفونك ، سأتصل بك . . » .

وأدرك وهي تدون رقم التليفون أنها لن تتصل به فقد كتبته وهي عجلى . . لم تحاول التثبت من صحته ، وعندما امتنع الحبر عند تدوين الرقم الأخير لم تكترث .

وأستكبر أن يقول لها إن في جيبيه تذكرتين لن يقدر على شراء مثلهما مرة أخرى .

نظر إلى ساعته بعد أن ذهبت « سهام» . . إنها السادسة والنصف . ماذا يفعل ببقية الوقت الذي وهبه للمغامرة . . لم يبق إلا أن يذهب إلى مكتبه في الشركة كدأبه كل يوم .

كل موظفي الحسابات انتهزوا فرصة غيابه ، وكأنها فرصة لا تعوض وزاغوا ، إلا « رجاء » سكرتيرته .. يالها من فتاة مخلصة لواجبها .

وكان شعر رجاء منسدلاً على جبينها وهي منحنية على أوراقها . .

وعندما تنبهت إلى قدومه وقفت باحترام وابتسمت وهى شبه شاردة .

وكان يفصل بين حجرته وحجرتها باب متأرجح ، وداس الجرس ، ودخلت « رجاء » وعلى محياها الابتسامة الوديعة التى يعرفها . . إنها ليست جميلة . . كأنها تعتذر بهذه الابتسامة عن خلو وجهها من الفتنة .

وطلب أحمد منها بعض الأوراق .. ورمق قوامها وهى منصرفة . . غصن فتاة فى العشرين . . لم يفعل ذلك من قبل . . دائماً يحترم مكتبه وعمله . . ولكنه لم يعد إلى مكتبه من قبل وفى رأسه كأس الويسكى . . وقال له كأس الويسكى : « غازل رجاء » وعندما جاءت بالأوراق تأملها من أمام ، كما تأملها من خلف .

يا أحمد لا تضيع الفرصة . . اثأر لهزيمة شبرد . . فى جيبك تذكرتان يسيل لهما اللعاب . . ما أجمل أن تراقص هذا الغصن وتحتويه بين ساعديك . . قل أن ترفض فتاة عشاء راقصاً .

وطلب إليها أن تدع الباب بينهما مفتوحاً ، وراقبها وهى منحنية على أوراقها تكتب بيد وخدها متكئ على راحة يدها الأخرى ، وابتسامتها الوديعة تطفو على الجزء الظاهر من وجهها .

كيف يفاتحها . . تردد وجبن ، ثم خف إلى نجدته مثل يقول : فاز باللذة الجسور .

وصمم أن يحرق تردده وصاح فجأة : « ما رأيك يارجاء .. عندى تذكرتان لعشاء راقص ؟ » .

ورفعت خدها عن راحة يدها . . وظهرت بقية الابتسامة . . ابتسامة واسعة تضج بالفرح . . وقالت له وأصابعها على قرص التليفون :

ـــ إذاً سمحت لحظة . . سأتصل بالبيت .

وأحس أن رأسه تلف مع قرص التليفون . . كما أيقن أن « سهام » لن تلقاه مرة أخرى يوقن الآن أن « رجاء » قبلت الدعوة، وأن الاتصال بالبيت إجراء شكلى . .

ونهض . . وصار خلفها وهى تتأهب للحديث . . بعد أن تضع السماعة سيطبع قبلة فى شعرها . . فاز باللذة الجسور .

وبينما هو يتأهب لذلك فوجئ بها تهتف فى التليفون :

ـــ يا صفوت ما رأيك . . عندى تذكرتان لعشاء راقص . . هل تستطيع الحضور الآن لكى نذهب معاً . . إذن أستطيع أن أقبلهما . . هدية . . من رئيسى . . وأنت أيضاً يجب أن تشكره .

وأعطت السماعة لأحمد وهى تقول :

ـــ صفوت ابن خالى . . وخطيبى .

وابتلع أحمد القبلة التى تأهبت على شفتيه وهو يتحدث إلى . . خطيبها .

وفى أثناء ذلك لمحها وهى تحاول إخفاء بعض الأوراق على مكتبها . . مرحى . . إنها ليست كشوفات حسابات .

ورفع الدوسيه عن الورقة التى حاولت أن تخفيها . . وإذا هى رسم كاريكاتورى له .



سيدة فاضلة جداً !    [ ص ٥١ ]

وقالت بارتباك وخجل : « أحببت دائماً أن أرسمك . . مات أبى وأنا طفلة .. ولست أذكر وجهه ، ولكننى دائماً تخيلت أنه كان يشبهك .»

وسكت وهو يفحص الصورة . . إنها أول مرة يرى فيها نفسه فى رسم كاريكاتورى . . شعرات قليلة واقفة فى رأسه . . حقيبة من الدهن تحت ذقنه . . كرة كبيرة منبعجة تحت صدره .

وألقى التذكرتين على المكتب وانصرف متجهماً . . ولكنه صادر الصورة وأخذها معه .

وفى الصباح عندما سبقت رائحة القهوة زوجته إلى حجرة النوم كان ما يزال عابساً . وعندما سألته « فريدة » عن سبب عبوسه أخرج الصورة من حيث كان يخفيها وقال لها : « هل يرضيك أن أرسم هكذا ؟ »

وتأملت الصورة وهو يراقبها . . وأدهشه أن ملامحها تنطق بالرضا . . . وغمغمت بصوت منتعش :

ـــ صورة جميلة .

ووجد نفسه يقول :

ـــ لو عرفت الثمن الذى دفعته . .

وقاطعته : « لايهم » . ثم أضافت وهى تردد بصرها بينه وبين الصورة وفى صوتها ارتياح بالغ .

ـــ هذا أنت . . أنت بالضبط .

وقبلته فجأة . .

وأيقن بعد القبلة أن الثمن . . لم يكن غالياً . .

# سيّدة .. فاضِلة جدًا !



فى قطار حلوان وجدت كتاباً منسيًّا على مقعد . . وفتحته فإذا هو مجموعة من الشعر المنثور . . . الحسان المترفات يتلهين بإبرة التطريز يغرسن بها الزهور فى الحرير ، . . ويبحن لها بما يساورهن من فرح ، ومن هم دفين . . . وكذلك الشعراء ، السعداء منهم والمعذبون فى الأرض ، سن القلم هو لهم إبرة التطريز ، يعينهم على الضجر ، والخذلان ، وينمق لهم الأحلام . . . ا

وبينما أقلب الصفحات عثرت بجسم غريب . . زهرة جافة ، مضغوطة ومحفوظة بعناية . . وعليها مسحة من جمال يجتذب القلب ، مثلما يجتذبه محيا حسناء شفها السقم ، وخطبها الموت لنفسه .

وابتسمت الزهرة لى ابتسامة ذابلة وهمست :

« إن روحى فاضت منذ زمان ، ولكنها ترفرف — كما ترى — فوق رفاتى . . . فإننى كنت شديدة التعلق بالحياة . . ولا يتبادرن إلى ظنك أن حياتى كانت سعيدة إننا مثلكم نصبو إلى البقاء مهما كابدنا . . أنت تريد أن تغفى بقية ... الطريق إلى حلوان ؟ فلأعفك من حديثى ...»

فأنكرت بشدة أن بى رغبة فى النوم ، ولكن الرقة كانت سجية فيها ، فعرضت على أن تسمر معى وأجفانى مغمضة .

والزهر خيالى بفطرته ، وأفكاره شاعرية . . ومن هنا وجدتنى ميالاً أن أتهم الزهرة بالمبالغة فيما روته لى . . . ولكن الراجح أنها مبالغة يسيرة لم تقصد منها إلا أن « تنثر » قليلا من الملح على الحقيقة كى تكون سائغة . . وسأقص عليكم قصتها ، كما سمعتها منها ، كى تحكموا لها أو عليها .

قالت فى كثير من التواضع :

إننى أعدّ كريمة المحتد . . فقد ولدت وترعرعت فى حديقة قصر ، وكان لى عاشق هو البستانى ، يمر على أوراقى بأنامل خشنة تضطرب حناناً . . ويقطف أخواتى ويسلمها للوصيفات ليضعنها فى الأوانى داخل القصر ، وهو يلح عليهن أن يبقين على ، ويتوسل إلى الله كى تغفل عنى عين سيدة القصر . . . وهى سيدة كان يلذ للخدم والوصيفات والبستانى أن يجتمعوا حول مائدة شائقة هى سيرتها ، ومنهم عرفت عنها الكثير . . . فإنهم أكثر من سواهم إلماماً بالحقائق . . . ولو ترك لهم تدوين التاريخ لتغير الكثير من صفحاته ، وأتيح لنا أن نرى وجهه الصادق .

ولست أدرى كيف أقدمها لك . . . وهل يكفى أن أقول إن وجهها الجميل كله طهر وبراءة . ولكن مهلا . . . لقد ألف الناس أن يحكموا على الشخص من محياه ، وهو عرف ساذج سبب للكثيرين ممن ركنوا إليه أفظع المتاعب ، وهاهى ذى « سميرة هانم » سيدة القصر . . . اولئك حكمت عليها من ملامحها لقبلت بلا تردد - إن كانت فى يدك مقاليد الأمور - أن تعينها رئيساً للملائكة . . وهى على كل حال تشغل ما يشبه هذا المنصب فى كوكبنا هذا .. فإنها عضو عامل فى أكثر من جمعية

من جمعيات الخير ، التى تنفق الجانب الأكبر من ميزانياتها فى الإعلان عن « تضحيات » . . أعضائها وجهادهن المجيد .

ولنعد « لسميرة هانم » . هل تقدر الأمة السيدة المسكينة ؟ ! . . أبداً . . إن أقل ما يوصف به هذا الشعب . . الجحود . . وهل تريد دليلا على هذا أكبر من أن بعض الألسنة تذكر أن الصورة التى تعطيها « سميرة هانم » للصحف هى صورتها منذ عشرين عاماً . . ياللظلم . . وهل يوجد فارق بين صورتها اليوم وصورتها فى ذلك الأمس . القريب . . . . اللهم إلا بضع تجاعيد لم يمكن « متشو » الحلاق النابغ أحداً من أن يراها أبداً . . وهل هناك ما يقطع بأنها فى مقتبل العمر أكثر من أن أربعة من صفوة الشباب الرياضيين يتنافسون على هواها . . ولولا أنها مولعة بالعفة لأحبتهم معاً . . ولكنها كانت دائماً أرفع من أن تصنع هذا ، ولم تتصل أبداً بأحدهم قبل أن تهجر الآخر . . . مع الحرص المتناهى على أن تجرى الأمور فى الخفاء ، إكراماً لشعور زوجها .

وثق يا سيدى أن الحب ما كان يشغل بالها بقدر ما كان يشغلها التفكير فى إقامة حفلات ناجحة ، باسم الفقراء . . وهى حفلات كان خيرها « يعم » الجميع . . . الشابات الحالمات بالزواج يضفن إلى القائمة أسماء جديدة لامعة . . . والأرامل الحزينات يتسلل الأمل إلى قلوبهن فى حلبة الرقص .

ثم همست الزهرة فى أذنى وكأنها تأتمننى على سر : "هناك نوع آخر من الأرامل ... أولئك اللاتى يعشن مع أزواج سخفاء عيشاً مملا . . إن

الكلب مهما كان مدللا — وحتى لو كان له الحق أن ينام مع الزوجة فى السرير — يعاشرها ثلاثة أعوام، أو خمسة على الأكثر، ثم يشعر أنه صار ثقيلا ويحاول أن يموت، أو على الأقل أن يضيع .. والعصفور اللطيف يلازم الزوجة فى دارها بعض الوقت، ثم يهجر القفص أو يأكله الصقر، والثوب مهما كان قريباً من نفس صاحبته يعيش معها موسماً أو موسمين ثم يبلى . . ولكن هناك نوعاً من الأزواج يتمادى فى الصفاقة وكأنه يريد أن يشارك الزوجة عمرها .. نوعاً لايموت، ولايضيع، ولا يأكله الصقر، ولايشعر أنه شاخ وبلى . . فهل تلام الزوجة إذا هى تاقت إلى شىء من التجديد واستجابت للتوسلات . . . إن « سميرة هانم » نفسها، مع أنها أقسمت ألا تخون زوجها إلا مع الرياضيين الأربعة الشرفاء، لم يطاوعها قلبها عندما ركع « ميتشو » الحلاق الشاب عند قدميها يبكى من اللوعة . . فمنحته شفتيها . . ومع ذلك فقد بذلت له النصح. وأنذرته أنها لن تمكنه من أن يعانقها مرة أخرى . .

إيه . . . إننى حدثتك عن « سميرة هانم » فى سن الخمسين بينما كان قصدى أن أمضى فى القصة من أولها .

فلنعد إلى الوراء ربع قرن فقط . . أيام كانت « الرئيسة » فى ريعان الصبا . إنها كانت فى ذلك الحين عاملة فى محل حلوى تبيع الفطائر الساخنة مصحوبة بابتسامتها الشهية .

وقد استمرأ هذه الابتسامة سياسى كهل، فأكثر من أكل الحلوى. . ولم يكن جهازه الهضمى وحده هو الذى أصيب من جراء هذا بالاضطراب

. . . وهل أدل على ضعف البشر من أن نظرة ناعسة من عين بائعة حلوى تزيد ضغط الدم فى شرايين المخ وتفسد على صمامات القلب عملها ! . . .

والذى يغيظ أن بائعة الحلوى لاتستطيع أن تحدث هذا بزميلها فى العمل ، ولكنها تحدثه برجل سياسى يجب أن تكون أعصابه مضبوطة . . فإن حياة السياسى حافلة بجسام الأمور . . ولأضرب لك أمثلة حتى تؤمن معى بخطره فى الحياة . . إنه إن كان طبيباً فعليه أن يهجر مرضاه . . فقد تكون الوزارة التى يناصرها على فراش الموت و بحاجة إلى حقنة كافور أو عملية نقل دم . . وإن كان محامياً فلا بأس أن يترك موكله المحبوس على ذمة جناية شهراً آخر فى الحبس الاحتياطى ، ولتوجل قضيته إلى دور مقبل لأنه محام فى المنصورة وقاعة المجلس فى القاهرة بحاجة إليه؛ فإن المعارضة تعده من أحسن « الخوازيق » التى تجلس عليها الوزارة ، ووجوده الليلة قد يرجح كفتها عند أخذ الأصوات ، الأمر الذى يقلب مأتم المعارضة إلى فرح ! . .

واستدركت الزهرة قائلة : لم يكن السياسى الكهل طبيباً ولا محامياً . . ومع ذلك فإنه كان خطيراً . . كان يقدم للصحف بتوقيعه مقالات رنانة يكتبها له سكرتيره . . لضيق وقته ! . . ولولا أمواله لما انطلقت زنابير الحزب لتحدث فى الشوارع طنين « يحيا » « ويسقط » . . . ثم إنه كان يستطيع بسهولة أن ينكب الحزب الذى ينتسب إليه ؛ بانسحابه منه فى أحرج المواقف وانتقاله إلى أحضان المعسكر الآخر طبقاً لخطة مرسومة .

وابتسمت «الزهرة» وهي تقول معتذرة : قاتل الله السياسة .. فقد أبعدتنا عن بائعة الحلوى .. إنها صارت زوجة السياسي المحنك . . ولم يكن الناظر إليها يشك أنها ولدت وفى فمها ملعقة من ذهب .. وفى الحق كان زواجاً موفقاً . . فإن السياسي صار فى وسعه أن يدعو « الأقطاب » إلى بيته فتحسن استقبالهم سيدة لبقة ، تقنع كلا منهم بأنه رجل الساعة ومنقذ البلد ، بالسهولة التي كانت تقنع بها « الزبون » أن يأخذ دستى فطائر بدلا من دستة واحدة .

ولم يقتنع أصدقاء زوجها أنهم عظماء فقط ، بل اقتنعوا أيضاً أنهم فى عنفوان الصبا . . وبحث أصحاب الرءوس التي عاث فيها الشيب عن أصدق صبغة فى السوق . . وصبر أصحاب الرءوس الصلعاء على أدهنة تكسو جلد الرأس وتكويه ، طول الليل ، طمعاً فى استنبات قليل من الشعر . . وتذكر بعضهم أن الرياضة مفيدة ، فتجاهلوا الروماتيزم وبدأوا يتعلمون « التنس » ليزاملوها فى الملعب . . وركبوا الخيل ليرافقوها فى رحلاتها الخلوية . . واستغنى المقرورون منهم عن المعطف وصدار الصوف ، فإن الالتهاب الرئوى خير من أن ترتاب الحسناء فى فتوتهم .

* * *

وحذار أن تظن السوء بسيدتنا ذات الوجه الملائكي .. فإنها لم تبذل شيئاً أكثر من ابتسامتها الشهية ، التي سحرت أحدهم فوضع اسم الزوج العزيز ، عندما كلف بتشكيل الوزارة ، فى رأس القائمة . وحرص أن يأخذ رأيه — ورأيها — فى بقية الزملاء ! . .

وهكذا أصبحت « سميرة هانم » قرينة صاحب معالى . . وسكنت قصراً . ومن الحق أنها ملأت مركزها ، وصار يضرب بها المثل فى الحشمة والوقار . . وقد تظلم معارفها ، فى ظرف ، من غرامها المفاجئ بالأكمام الطويلة . . وذموا ثياب السهرة التى صارت تخفى أكثر من نصف صدرها . ومع ذلك أصرت على هذا التقشف . ولا أريدك أن تنسى سياسينا المحنك .. أن السكرتير — ذلك الجندى المجهول — الذى كان يكتب لسيده المقالات النارية صار يكتب الخطب الرنانة ، وكانت الزوجة لاتجد من زوجها هذه الفصاحة فى أحاديثه معها ، فأدركت أن فى الأمر سراً . . وكان السكرتير كتوماً ، ولكن « سميرة هانم » ما زالت تتربص به ، حتى ضبطته يضع الشكل على حروف خطبة عنيفة . .

ومنذ فطنت إلى أن السكرتير يملى على زوجها كل تصرفاته ، ويحشو فمه بالكلام ، انتقل إعجابها من الببغاء إلى الملقن . . .

وكان السكرتير يحمل كل مساء حقيبة الأوراق إلى المنزل ، فتستقبله الزوجة فى ثوب غرفتها بالرثاء له ، رثاء يأسر القلب . . ويظلان يسمران معاً فى انتظار وصول الوزير الخطير . . الذى كان يبطئ فى العودة يوماً بعد يوم لانهماكه فى حفر لحد مريح يدفن فيه الوزارة التى يتشرف بعضويتها . . فإن ذلك يدنيه من الرياسة .

وفى انتظار أن يصبح زوجها رئيساً للوزارة ، حاولت « سميرة هانم » أن تقتل الوقت بوضع يدها الغضة بين يدى السكرتير المحترقتين .. ولم يحدث

الانقلاب الذى كان ينشده السياسى المحنك .. ولكن حدث فى البيت إنقلاب من نوع آخر . .

والمصائب لاتأتى فرادى . . . سقطت الوزارة أخيراً ، ولم تقبل الرياسة عليه تجر أذيالها . . وكل ما ظفر به مقعد دائم فى فندق شبرد ، ومنذ أصبح وزيراً متعطلا اشتغل بتصدير واستيراد الإشاعات . . ووهب كل قواه للمؤامرات الحزبية والمناورات والدسائس ، وكان قد بلغ الستين ، فناء تحت عبء الحقد والأرق ... ودمر أعصابه تفكيره المضنى فى القضاء على خصومه . . وذات ليلة فاجأته نوبة حادة وجاء الطبيب الذى فحصه متجهما ، ثم همس فى أذنه بأقصى ما يستطيع أن يتكلف من لطف ، إن حالة قلبه سيئه ، وإن عليه أن يعفى نفسه من واجباته السياسية . . . والزوجية .

وليس أحب للمرء مما يمنعه .

وكانت « سميرة » كبيرة الأمل فى علة القلب . . ولكن الشهور مرت وهو ما يزال على قيد الحياة ، فبدأ صدرها يضيق . .

وفجأة خطر للحسناء خاطر رقيق . . فلتساعده على الرحيل بأن تعشقه عشقاً مبرحاً . فلما حاول أن يذكرها بأوامر الطبيب ، أسكتته بقبلات ملتهبة لاعدد لها وهى تبكى ، فإذا ما سألها عن سر بكائها أجابته لاهثة الأنفاس ، وهى تلف ذراعيها حول عنقه ذى الجلد المتهدل ، إنها تذوب شوقاً إلى أن تنجب منه ولداً ، ثم تتلوى كالهرة وتمسح وجهه المكروب بشعرها المعطر وهى قريبة من الإغماء . . فيذكر أيام

شبابه المدبر .. وأنه كان دائماً شهماً، ولم يكف أبداً عن أن يخف لإغاثة الأنوثة فى محنتها .

وبعد بضعة أسابيع من الإغراء ، والفتنة السوداء ، والهوى المشبوب ، سقط السياسى المحنك ميتاً .

وأضافت الزهرة فى تأثر شديد : أؤكد لك أن صحف الحزب ظهرت مجللة بالسواد تعلن أنه سقط صريعاً فى ساحة الجهاد . . وتطالب بأن يقام له تمثال .

وشاركت صحف الخصوم صحف الأنصار فى الجزع للمصاب الفادح والخسارة الوطنية الكبرى . . . ورثوه بعنف ليقتنعوا أنه مات حقا ، ومشوا فى مأتمه ليستوثقوا أنه لن يعود .

ومن هنا كان مأتمه حافلا مهيباً ، يدل على أن الأمة لاتنسى قدر العاملين . . وكان من أبلغ القول فى رثاء الفقيد ما كتبته زوجته عن موته والقلم فى يده . . وكيف خسر ثروته الطائلة فى خدمة الوطن حتى لم يبق له شىء إلا الشرف . . . أما سكرتيره فقد نثر على القبر كلمات كلها حسرات ... ثم رثاه بمقال ذيله بتوقيع حزين : « تلميذك .. الأمين على مبادئك إلى الأبد » .

ومن الإنصاف للسيدة أن تعرف أنها بكته بحرقة . . ومرات قليلة خطر ببالها أنها هى التى قتلته . . ثم أكد لها السواد الذى يجلل صورته ، والأشرطة الحزينة التى تزين الستائر أنها واهمة.. وإليك الدليل على أن مصيبتها فيه كانت فادحة . . ظلت أسبوعين طويلين بعد الوفاة لاتلتقى بصاحبها

. . ثم وجد صعوبة كبيرة فى إقناعها بأن الذهاب إلى « السينما » وإلى مسرح الريحانى أمور لا تتنافى مع شعائر الحداد .

* * *

وتريثت الزهرة قليلا وكأنما تحاول أن ترتب معلوماتها ثم قالت : مرت الأعوام ولم ينتبه الناس إلى أن التمثال لم يقم . كما لم يتنبهوا إلى أن السكرتير قد ملأ فى تواضع وهدوء مكان الفقيد . . إنه وفاء منه لذكراه قد تزوج أرملته برغم أنها تكبره بأعوام . . وقد شغل أيضاً مكانه فى الحزب ليتمم رسالته .. وهو خير من يتممها ، وخاصة أن حصر تركة الفقيد قد أثبت أنها بخير كبير . . وهو يستطيع كسلفه أن يشترى للحزب أنصاراً . . ويستطيع أيضاً أن يمد جريدة الحزب « بالأوكسجين » كلما أشرفت على الاختناق .

ومع كل هذه المواهب لم يصل إلى كرسى الوزارة . . وا أسفاه .

أرأيت أن الكفاية وحدها لا تكفى للوصول إلى أرفع المناصب . ولقد بذلت الزوجة المخلصة محاولات جبارة كانت تكفى محاولة واحدة منها أن تجعل منه رجلا سعيد الطالع ، ولكن النحس كان له بالمرصاد .

على أى حال وجد العزاء فى عضوية مجالس إدارة الشركات ، ولا يتبادرن إلى ظنك أنه من العسير أن تكون من رجال المال والأعمال ، وأن من الضرورى أن تكون عالما فى الاقتصاد ، لأنه يكفى ، أحياناً لا دائماً ، أن ترضى بوضع طربوشك على الشماعة ، إلى جانب القبعات ، فى الردهة الموصلة إلى قاعة مجلس الإدارة . فإن لونه

الجذاب يجعل شكلها جميلا وألوانها مريحة للعين .

من هنا اقتنى السكرتير الفاضل . . معذرة . . أقصد المالى الكبير مجموعة من الطرابيش الثمينة . . ولاتنس أن مما ساعده على النجاح أنه كان ملمًّا إلماماً بديعاً بفن إقامة المآدب .

وفى المآدب تقع أحياناً أمور مسلية ، مثل تصادم الأقدام تحت الموائد ، مصادفة ، بعد النخب الثالث على الأكثر ، وهى لعبة لطيفة تعلمها المالى الكبير من« سميرة هانم » أيام كان سكرتيراً لزوجها . لعبة عشقها وأصبحت عنده عادة ، حاول عبثاً أن يقلع عنها . وبعد لعبة الأقدام كنت ترى المعجبة تتحدث إلى المالى فيجيبها فى وقار ، وعلى شفتيه ابتسامة رزينة تخيل إليك أنه يتبسط معها فى شرح مشاكل العملة الصعبة . ولايخطر ببالك أن ملاحظات الحسناء تدور حول الشبه الكبير بين المالى الشاب وبين أحد ممثلى « السينما » الذين لايهابون الأخطار. وكم ضايقه أن تذيع فى بعض الأوساط شهرة شبهه بأحد أبطال « السينما » المخاطرين . تضايق حقًّا ، لأن للشهرة أعباءها وتكاليفها . . وحسبك أن تعرف أن أمل الكثيرات قد تعلق به . . وقد أبى عليه ضميره أن يكسر قلوبهن الرقيقة ، ورضى أن تسوء سمعته وأن تغمزه الصحف الرخيصة . . وانه لنوع من الاستشهاد فى سبيل غاية نبيلة.

وقد زكمت تلك السمعة السيئة أنف الزوجة المسكينة ، فهل تلام « سميرة هانم» لأنها حاولت أن تداوى جراحها برعاية الرياضيين ، والتفانى فى إقامة سهرات الجمعيات الخيرية . . صحيح أنها تبنت الرياضيين الأربعة

قبل أن تصدر من زوجها أعمال مريبة ، ولكنها لم تفعل ذلك إلا لبعد نظرها . إن خبرتها بزوجها ساعدتها على التنبؤ بما سيصدر منه . . ثم إنها كانت مسوقة بفكرة استولت على لبها من البداية : إن السكرتير السابق قد خان صديقه فى زوجته ، ويجب أن يدفع هذا السكرتير الخائن الثمن ، وأن يفعل به ما فعل بزوجات الغير . هذا عدل وحكم صائب من أحكام القدر لا يجب عليها أن تقاومه . .

ثم تنهدت الزهرة وهى تقول بصوت حزين : ولكن هل فى هذه الدنيا وفاء . . إن الرياضيين الأربعة ذهبوا . . الواحد وراء الآخر . . بمنتهى الخسة . .

* * *

وسكتت الزهرة قليلا كأنما لتستريح . ثم استأنفت حديثها قائلة : إن كانت تخامرك شبهة شك فيما رويته لك نقلا عن البستانى والخدم ، فاعلم أن ما بقى من الحديث لاريب فيه ، لأننى كنت قد ولدت ورأيت رأى العين الحوادث وهى تجرى أمامى . . رأيت « سميرة هانم » تمشى وحدها فى الحديقة ، فى الليالى المقمرة ، مهجورة مقهورة تفكر فى الرياضيين الأنذال بمنتهى السخط والتقزز . . وتضرب البستانى بمقدمة الحذاء فى بطنه لأنها تجد فى عشب الحديقة ، كلما تمرغت عليه ، نملا فارسيًّا . .

وفى إحدى تلك الليالى الموحشة تذكرت أنها لم تر « ميتشو » منذ عام ، فقد ترك معهد التجميل الذى كان يعمل به إلى حيث لاتعلم . . ولكنها

الليلة تريد أن تعلم . . فإن وجهه الوسيم يخايلها ، وكأنه أحد آلهة الإغريق القدماء . . .

ونادت سائق سيارتها ، وحذرته أن يريها وجهه قبل إن يجد « ميتشو » فإنها لم تعد تطيق أن تأتمن حلاقاً آخر على شعرها .

ومع أنه وجده بسهولة فقد غاب ثلاثة أيام ، وادعى أنه أحرق عدة صفائح من البنزين قبل أن يهتدى إلى « ميتشو » . . وصدقته ، فإن السيدة الفاضلة ، ذات الوجه الملائكي ، لاتعرف أن هناك رذيلة فى الدنيا اسمها . . تزوير الحقيقة !

وتلك الأيام الثلاثة المفعمة بالترقب والانتظار ارتقت بالإله الإغريقى من درب سعادة حيث يقيم إلى السماء السابعة ، فلما علمت بوصوله تركته ينتظر ريثما تدارى اضطرابها ، ومع أنه مفروض أنه مبعوث معهد التجميل ، وأنه آت للقيام بمهمته ، استقبلته بتسريحة مبتكرة ووجه منمق يعجز « ميتشو » نفسه عن تبين تجاعيده . .

وصدمها أنه فاتر .. وأن حمرة الخجل لاترقص فى خديه كيوم ركع عند قدميها . . فتلطفت معه فى الحديث وهو يأخذ شعرها الناعم بين يديه ليعيد تنسيقه ، وحاولت جهدها أن تذهب وحشته . . وتأبطت ذراعه . . وخرجت معه إلى الحديقة ، فتبخر منها البستانى ، فإنه كان أحصف من أن يظهر حين لاتكون هناك شكوى من وجود النمل فى الأعشاب.

وأضافت الزهرة وهى تتنهد : وكانت السيدة قد تأملتنى طويلا فى الصباح . فلما طاف بصرها بالأزهار القريبة من النافوزة ، وهى تتأبط ذراع

« ميتشو » خفق قلبى وكدت أصرخ مستنجدة وأناملها القاتلة تمتد إلى وتقطفنى . . وشغلنى عن الألم الذى ينزف من جرحى حديثها العذب وهى تهدينى له وتهمس بلطف ودلال : « هذه الزهرة البيضاء رمز لما أكنه لك من حب نقى » .

وأخذنى « ميتشو » بين أنامله وقبلنى . . وشعرت أنها تغار منى . . وكانت تلك أول مرة ألمس فيها عن قرب غيرة النساء . . إنها محرقة كنار جهنم .

وواصلت «سميرة هانم» حديثها بصوت يتذبذب بين الأمر ، والاستجداء . . قالت له : لا أريدك بعد اليوم أن تكون حلاقا . . إنى لم أضع فى جيبك بقشيشاً كما تتوهم . . إنه مبلغ يكفيك أن تعيش أعواماً عيشة أولاد الذوات . . إليك مفتاح شقة مفروشة فى أفخم عمارة أملكها . . فإنك منذ الليلة ابنى . . ولا أريد أن يعيش ابنى المدلل فى حى وضيع . . وسأمر بك مرات قليلة كل أسبوع لأطمئن على أنك راض سعيد لاينقصك شىء .

فقبل يدها شاكراً ، مع أن فمها كان الأقرب إليه ! وكادت السيدة الحانقة تضربه بمقدمة الحذاء ، فى بطنه ، لولا أن عقلها الراجح اعتذر له بأنه ما يزال حديث عهد بالبنوة . . والأمومة .

واستأذن فى الانصراف . . ورأيته ، وأنا ما أزال فى يده ، يكاد يعدو فى الطريق . . ثم زال عجبى عندما تبينت أنه كان على موعد مع فتاة من بنى جنسه فى مشرب لبن .

وكانت « ليديا » فتاة تفوقنى نضارة وجمالا . . لم تقطفها يد بعد وما تزال تميل ، مسكرة العبير . فوق غصن شبابها . وكان جليًّا أنها ما تزال طالبة ، فإن كتبها كانت تحت ذراعها ، واستقبلته منفعلة يكاد الدمع يطفر من عينيها لأنه أبطأ وتركها تنتظر . وليس أكذب من النساء إلا الرجال . . فقد زعم لها أنه كان يمسح دموع سيدة مسكينة . تعزه كثيراً لأنه يشبه ابنها الميت شبهاً قويًّا . . وقد فاضت عواطفها الليلة فنحته شقة ستكون مأوى لهما بدلا من هذا العذاب فى المشارب العامة .

ثم أضاف وهو يرمقها بشغف : « إن الذى أخرنى أكثر أننى تعبت وأنا أبحث فى حديقة الأم الحزينة عن أجمل زهرة كى أقدمها لك وأخذتنى « ليديا » بين أناملها فى فرح طاهر وعوضنى حنانها ، وأنا بين يديها . حنان البستانى . . وعندما عادت إلى مسكنها فى حلوان ، وخلت بنفسها فى حجرتها ، وضعتنى فى كأس قريباً من فراشها ، وذكرتنى فى صلاتها . وتوسلت إلى الله أن يحفظنى من الذبول ! . .

وحاولت من أجلها أن أعيش ما استطعت . ولكن روحى كانت تفيض يوماً بعد يوم . . وأدركت أننى سأعجز بعد قليل عن الاستماع إليها وهى تصف لى حبها « لميتشو » وحب « ميتشو » لها .

وكان صادقاً حقًّا فى حبه ومشغولا به ، فنسى « سميرة هانم » . . ومضت الشهور وهو يروغ منها .

وقد تسألنى أنى لى العلم بهذا .. وهل ظللت كل هذا الوقت حية . .؟ فاعلم

أن « ليديا » عندما رأتنى أشحب شحوب الموت ، وأننى أريد أن أستريح ، أرقدتنى بين صفحتى كتاب للشعر المنثور ، وسقت بدمعها ما يبس من أطرافى ، فجدت بآخر أنفاسى وأنا سعيدة بقربى من شفتيها الورديتين ، ولكن روحى لم تقو على فراقها . . ولم تنضم إلى عطر الله السابح فوق الحدائق والحقول ، فكنت أهيم هنا وهناك ثم أعود فأحلق فوق رفاتى .

وروحى الهائمة هى التى رأت السيدة تبحث كالمجنونة عن « ميتشو » وتطرق باب شقته الفخمة ولا مجيب . .

وأخيراً أقنع « ميتشو» « ليديا » بأن تزور شقته الفخمة . وبعد تردد طويل ذهبت ، وفى يدها كتاب الشعر المنثور .

وشاءت الأقدار أن تمر سيارة السيدة بالشارع ، وأن ترى نور « ميتشو » مضاء ، فأسرعت إلى المصعد . . وفتح « ميتشو » الباب وهو يظن أن بواب العمارة جاءه بالمرطبات التى طلبها . . وإذا هى « سميرة هانم » . .

والتقطت عينها أول ما التقطت دبلة الخطبة فى أصبعه ، ووشماً أحمر جميلاً فى شكل شفتين على خده الأسيل .

ورأت « ليديا » نظرة « الأم الروحية » وهى تتسمر على خد « ميتشو» فى مكان الوشم . فكادت تذوب خجلا . . والتقطت كتاب الشعر المنثور وهرولت مستأذنة . . وركبت القطار إلى حلوان حيث تقيم . . وكان الخجل ما يزال يعذبها . . فنسيت كتاب الشعر المنثور فوق مقعد القطار ، ونسيتنى . . كما ترى .

ولأن روحى الطليقة تستطيع أن تكون حيث تريد فقد شاهدت الأزمة التى حدثت بين « سميرة هانم » والإله الإغريقى. لقد اتهمته بالجحود والعقوق . . وسألته حانقة كيف جاز له أن يخطب دون أن يستأذنها . . وكيف سمح لنفسه أن يأتى بهذه الفتاة المستهترة إلى بيت لايملك فيه قشة ، فلم يحتمل « ميتشو » التقريع ، ووضع بين يديها مفتاح الشقة ، وأعلنها فى قحة أنه حر يخطب من يشاء ويحب من يشاء . .

وعندما عادت إلى مخدعها سارعت إلى هدم التسريحة التى ابتكرها لها « ميتشو» لتقطع آخر ما يربطها به .. وبصقت فى احتقار . . وهى تتذكر أن كل من غمرتهم بأنعمها قلبوا لها ظهر المجن ، وعضوا اليد التى امتدت إليهم بالإحسان . . حتى زوجها الذى كان سكرتيراً أجيراً فقفزت به ، ووضعته فى مكان سيده ، يبلغ به الصغار أن تضبط فى جيبه صورة فتاة لاتتجاوز السابعة عشرة ، يزعم بصفاقة أنه تبناها روحياً .

يالها من دنيا دنيئة وأرض خبيثة لايثمر فيها المعروف . .

وأوت إلى فراشها البارد مقرورة ترتعد . . وأخفت نفسها تحت الأغطية كأنما لتختفى وتحتجب عن كل هذه النذالات التى تحيط بها .

وأضافت الزهرة فى ألم ورثاء « وأنا آتية من عندها الآن . . كم تمزق قلبى وأنا أراها تتلوى . . وتزفر . . وتبكى . . »

* * *

ووصل القطار إلى حلوان . . وهمست الزهرة فى أذنى : « اصنع معى معروفاً واجمعنى بليديا » .

وإنها لمهمة شاقة فإن حلوان ضاحية كبيرة .

ولكنى أرجو ، على أى حال ، من يعرف « ليديا » أن يتفضل ويبلغها أن زهرتها التائهة تبحث عنها .



# الرغيف القاتل !



ساقته من الصعيد ريح مشئومة . . جريمة قتل ارتكبها شقيقه . . وذهب الشقيق إلى « الليمان » . . وبقى الثأر معلقاً على رأس « عبد الجليل » .

وقالت له أمه المعذبة : « دمك مطلوب هنا يا بنى . . القاهرة مدينة كبيرة ، فيها الناس كالنمل . . هناك نختفى عن أعين الانتقام وننسى ، ولا أفجع فيك فى آخر أيامى » .

هكذا جاء عبد الجليل من « البدارى » إلى القاهرة . . التى سمع أنها تعطى عملا لكل متعطل . . يالها من أكذوبة . . إن أيام البطالة التهمت المال الضئيل الذى كان يدخره . . وآخر « عملة » فى جيبه اشترى بها نصف رغيف . . حمله إلى أمه . . وقال لها إنه أكل فى المطعم حتى التخمة .

قال لها ذلك والجوع يفرى أمعاءه . . وترك الحجرة التى يقيمان فيها وهو يتغنى بموال وبأكذوبة . . إنه سيقابل رجلا وعده بعمل . . وكانت الأكذوبة فى ذات الوقت أملا . . أملا مضى عليه وقت طويل وهو يتعثر فى شباك الفشل .

وأحس وهو ينظر إلى مصابيح الطريق بالخوف من الحياة يملأ قلبه . وكان يجر ساقيه . . وحانت منه التفاتة إلى مقهى مزدحم من مقاهى العمال فدخله وتهالك فى مقعد . .

وكان الزبائن يصفقون استعجالا فى طلب الشاى والحلبة والجنزبيل

والساقى عاجز عن تلبية نداءاتهم المتلاحقة . فحمد الله على أن أحداً لم يسأله ماذا يشرب . . ولن يحاسبه على النظرة الظامئة التى يرقب بها وعاء النحاس الأصفر فى ركن المقهى، يسيل من صنبوره الجميل ليملأ الأكواب ، عصير الخروب ، ذهبى اللون .

وهربت نظراته من المقهى وقد تحلب ريقه وتصبب وجهه عرقاً . غير أن المشهد الذى رآه عبر الشارع الضيق كان أوجع وأشد إيلاماً . . فقد كان بائع الفول يقف فى واجهة الدكان على منصة عالية ، والقدر أمامه يتصاعد منها بخار أخاذ، ومن حولها الغلمان والبنات يرفعون الأطباق مختلفة أشكالها كأنها أكف مرفوعة بالتضرعات إلى إله .

وكان « فتحى » بائع الفول شابًّا متواضعاً .. لم يكن يعتقد أنه إله ، ولكنه كان يرجح أنه سلطان .

ومال المسكين برأسه على المنضدة ليخفى وجهه بين ذراعيه ولكنه لمح فى تلك اللحظة بلدياته حمدان واندفع يناديه .. فى لهفة .

* * *

وقال «حمدان» لـ «عبد الجليل» وهما يمشيان من عابدين إلى الضاهر : « إننا نهدم بيتاً قديماً على نور الكلوبات . . المعلم صميدة المقاول مستعجل وسنعمل ليل نهار .. مالك تمشى كالنائم .. ؟ » .

واستحى « عبد الجليل » أن يقول لصاحبه إنه جائع . . فليصبر حتى ينال أجره . . الفرج الآن قريب .

وأخرج « حمدان » من جيب صداره العربى ذى الخمسين زراراً علبة ( السجائر ) وقدم واحدة لصاحبه وهو يقول: « أنا رئيس الأنفار..

وكان المقاول يستخدم أنفاره من «درنكة» .. ولكنه طردهم .. طلبوا زيادة فى اليومية وقالوا : إن العمل بالليل خطر » .

وشعر « عبد الجليل » بقشعريرة وكلمة « درنكة » تستقر فى أذنه .. إنهم ليسوا أقل من أبناء البدارى بأساً . . هم مثلهم يفطرون بالرصاص ويتعشون بالبارود . وهناك منافسة على الرزق فلابد من معركة . . إنه هجر بلدته هرباً من الموت . . ولكن يظهر أن الموت فى كل مكان .

وشعر «حمدان» أن صدر صاحبه قد انقبض فقال له مشجعاً : « إذا تعرضوا لنا فسنأكلهم .. »

وغمغم « عبد الجليل » ببلادة : « نعم سنأكلهم » .

وعلى مقربة من البيت المتهدم رأى «عبد الجليل» بعض الأنفار من درنكة يعترضون الطريق . . وقال واحد منهم وفى صوته صليل السلاح وهو يمضغ الطباق : « لو كانوا رجالا لوقفوا معنا يداً واحدة وطلبوا زيادة الأجر » .

وبصق عند قدمى « عبد الجليل » بصقة صفراء من التبغ والغيظ . وتظاهر « عبد الجليل » بأنه لم يسمع ولم يفهم شيئاً .. واستمر فى سيره .. ولكنه أحس أن البصقة سقطت على وجهه . وأنه يستحقها . وود لو يعود أدراجه . ولاينتزع من الآخرين عملهم . ولكن الجوع الذى كان يكويه ويضنيه رده إلى صوابه .

وفى هذه اللحظة جاء المقاول ، المعلم صميدة ، وصاح فى العمال المطرودين « لماذا تقفون هنا .. ؟ فارقونا .. انتهت بيننا المعاملة » .

وأجابه ما ضغ الطباق متحدياً وهو يبصق بصقة أخرى : « إننا نقف فى شارع الحكومة » .

كان المعلم صميدة المقاول سليطاً . لكنه لم يكن شجاعاً . ولذلك فإنه أجاب على التحدى بشتيمة غير مسموعة . وانصرف إلى الصباح فى « حمدان » قائلا : « أفهم أنفارك أن من يطلب زيادة مصيره الطرد كهؤلاء العمد » .

ونظر « عبد الجليل » إلى المعلم صميدة وهو يأمر وينهى . .
وأحس أنه رجل لم يجع فى حياته ابداً . . كان الحزام الحريرى الذى يمسك القفطان معقوداً على بطن ضخم . وكان له خدان كأنهما يقطران دسماً . . وكانت شفته السفلى تتدلى مثقلة بالشراهة والشراسة ، تحت أنف قبيح أفطس ، وجبهة تشبه ثمرة ضخمة غير منتظمة الشكل من ثمار القلقاس لم تذهب عنها سمرة الطين الذى ارتطمت به فى نشأتها . . . وكان يقبع فوق هذه الثمرة السوداء طربوش فاقع اللون .. وأسنانه الصفراء كانت متشابكة كأنها فى عراك .

وجعل المعلم صميدة يبرطم لنفسه وهو يتمشى أمام البيت المهدم : « شارع الحكومة .. يتجرأ ويقول لى شارع الحكومة مصائب آخر زمن .. بلاوى . »

كان جليًّا أن الجملة حزت فى نفسه جدًّا . . إنه لم يتعود أن يرفع أجير حقير صوته فى حضرته . . لقد نسى منذ زمن بعيد أنه كان عاملا يرفع مقطف الجير على كتفه .

وأحب المعلم صميدة أن يهدئ أعصابه فطلب « كرسى دخان » وجلس يشد « الجوزة » ويراقب العمال . . كانوا يتسلقون « الجدران » المتداعية بعضهم فى مرح القردة . وبعضهم فى استسلام العبيد .

وعلى صوت الفؤوس وهى تطعن الجدران استغرق المعلم صميدة فى التفكير ، إن عليه أن يسوى هذا البيت بالأرض هدماً ، فى أسرع وقت ، لأن المالك يريد أن ينشئ على الأرض عمارة جديدة ويتخلص من الإيجار القديم الذى أورثه المرض .

وسأل المعلم صميدة نفسه للمرة الألف عن أرباحه من عملية الهدم وبيع الأنقاض . إن الرغيف الذى ينتظره هو ربحه الذى يزيد لو قل عدد العمال وقل أجرهم . . ومن أجل ذلك جاء « بالكلوبات » ليعمل فى الليل . .

وصاح «عبد الجليل» وهو يترنح من الإجهاد : «يامعلم .. النور ضعيف نريد « كلوبا » آخر ، فصرخ المقاول حانقاً : « الأعمى يرينى عرض اكتافه .. الأعمى يفارقنى . إلى شارع الحكومة » .

وسكت « عبد الجليل » وسقط قلبه . . وعاد المعلم صميدة إلى مستنقع الأرقام . . بكم يبيع الخشب . . وبكم يبيع الأحجار ؟

وأكد له رقص فقاعات الهواء فى الجوزة أنه سيشترى فداناً آخر فى البلد . . ثم شىء آخر يريد أن يحققه وهو التخلص من غريمه « عرفات » . . . سيخصص خمسين جنيها لقتله .

وبعد ذلك يعاشر زوجته « أم عباس » كما يحلو له .

وابتسم صميدة .. وظن العامل الذى كان ينفض الرماد عن فحم الجوزة أن المعلم يبتسم له . فابتسم أيضاً وقد أسعده تواضع سيده . . .

ولكن صميدة لم يره لأنه كان يرى أم عباس التى تقيم فى « بدروم » بيته فى القللى مع زوجها عرفات .

كان يعجبه فيها أنها سمينة كالإوزة . . وأن لها رنة قبقاب تستهوى الفؤاد حينما تخرج إلى الشارع لتلتقط « عباس » الذى تعلم أن يحبو . . وكانت ترقص حاجبيها وهى تتحدث إليه وتسأله عن صحته يسكر جوارحه .. وطالما اصطدم بها وراء باب الطريق وهو عائد فى الليل . . وكانت تبعد فى دلال يديه المحمومتين وهما تتحسسان لحمها . . وعندما كان يندفع وراءها إلى مسكنها محاولا انتهاز الفرصة كانت تغلق الباب فى وجهه فى تمنع حلو ، وتهمس واللادن « يطرقع » بين أسنانها « لا . عرفات يمكن يطب . . عرفات صعب » .

وكان اسم عرفات كافياً ليرد المعلم صميدة إلى الصواب .. فقد كان له سبع سوابق كلها اعتداء على رقاب البشر برقاب الزجاجات المحطمة . . وهو يحترف الآن حراسة صالات الرقص وإلقاء البعض إلى الخارج واجتذاب البعض إلى الداخل .

وكان مولعاً بأم عباس زوجته . . وقد تعرف بها وهو يعربد فى أحد الشوارع الخلفية ، وتردد عليها مع المترددين . ولما أغلقت الحكومة الشوارع الخلفية ولم يكن بد من التوبة تابت على يديه .. وجاءت لتعيش معه . .

ولاشك أنها امرأة مدربة وشهية ولكن هذا الإخلاص لعرفات يضايقه .. كره المعلم صميدة عرفات لهذا السبب ، ولسبب آخر .. أن البلطجى لم يفكر أبداً فى دفع إيجار البدروم .. باعتبار أنه حامى الحى .. وكان صميدة يسمى هذا سلباً .. لكنه لم يجرؤ على الكلام ، وأقنع نفسه أنه يتسامح من أجل النهدين الممتلئين اللذين يصادفهما فى الظلام وراء باب الطريق .

وقال صميدة لنفسه وهو يجذب نفساً عميقاً من الجوزة : إن دفع خمسين جنيهاً ثمنا لرأس هذا الكلب عملية اقتصادية من كل الوجوه . وشعر بأن تفكيره صار ممتعاً . وأن أم عباس بين أحضانه . فابتسم من جديد ودس أصابعه فى طيات الحزام الحريرى المعقود على بطنه الضخم .. وأخرج قطعة حشيش فى حجم الحمصة وضعها فى شغف تحت لسانه . وطلب من الأبله الذى « يخدّم » على الشيشة ويظن أن الابتسامات له أن يأتيه « بكنكة » قهوة سادة .

وتذكر وهو يرشف القهوة . أن أرباح هذه المقاولة هى التى ستحقق له خططه فصرخ فى العمال : كل لوح خشب .. كل قالب طوب .. لازم ينزل سليم .. من يكسر شيئاً .. إلى شارع الحكومة ! ..

ووصل التهديد إلى سمع « عبد الجليل » الذى كان يحلم بالأجر . وبالخبز الذى سيحمله إلى أمه .. وكان يرى موضع قدميه بصعوبة لأن نور « الكلوبات » القريب منه بدأ يختنق .. وأحس بالتعب .. وأن رأسه يتورم وينتفخ من الصداع ويوشك أن ينفجر .. ووصل إلى

سمعه حديث زملائه الذين يعملون إلى جواره كأنه آت من واد بعيد. وملأ الحزن قلبه .. إنهم يتحدثون عن المعركة المقبلة بين البدارى ودرنكة. ويتأهبون لها .. وسخر من جديد بن نفسه عبثاً ترك البدارى والانتقام الذى يلاحقه .. إنه هرب لأنه على موعد مع الموت هنا .. إن جنبه لايؤلمه من الجوع بل من طعنة خنجر .. إنه سيأكل خبزه مغموساً فى الدم .

وكانت هواجسه قد شلت يده عن العمل .. وجلس فاغراً فاه على قطعة خشب معلقة فى الفضاء، فى الطابق الثالث .. وفى هذه اللحظة أمسكت عين المعلم صميدة بالنذل الذى يسرقه ويريد أن يقبض الأجر دون أن يعمل ، وصرخ فى غضب الضبع المسعور انزل ياحرامى .. أنا لا أريد لصوصاً .. إلى شارع الحكومة .

وسقطت الصيحة فى قلب عبد الجليل . وفقد توازنه .. وفى اللحظة الأخيرة تشبثت يداه بحجر كبير .. غير أن الحجر الضخم كان يريد أيضاً أن يترك مكانه .. فسقط من حالق مع « عبد الجليل » .. وعندما وصلا معاً كان الحجر قد سحق صدره .

وهبط قطيع القرود والعبيد عن الجدران التى يتسلقونها . ورفعوا الحجر عن صدر زميلهم .. وكان يئن أنيناً خافتاً .. كان يردد كلمات ضعيفة رقيقة . يبدو أنها أسهل وأحلى الكلمات للشفاه الذابلة .. كان يهمس وفى همسه توسل : « أمى .. أمى » .

وأسرع « جمدان » بجرعة ماء من القلة المكسورة ليرطب بها الشفتين

الذابلتين ولكن الماء بقى فى فم «عبد الجليل» .. إنه لم يعد بحاجة إليه .. إلى الأبد .

ووصل أبناء درنكة الذين كانوا يتربصون فى أول الشارع . ووقفوا على رأس الفقيد وقد أنساهم الموت الحقد والخصام .

وحل أحدهم المنديل المترب الذى يعصب به رأسه وغطى وجه « عبد الجليل » .

وبكوا . . بكوا جميعاً وقد ألف الموت بين قلوبهم .. بكوا بعيون جافة مثقلة أهدابها بالغبار والشقاء .. وأصواتهم كانت مبللة بنحيب غريب .. بكآبة ثقيلة ... تشبه كآبة الذئب المريض الذى يعوى بخشونة ويشكو ألمه لليل الموحش والغابة المظلمة الصماء ، كان كل أجير يحس أن الجثة المسجاة هى جثته ويرى عويل عشيرته على رأسه . . وحرمانهم من الخبز الذى كان يكسبه بعرق الجبين .

* * *

وكانت حمصة الحشيش قد ذابت الآن تحت لسان المعلم صميدة تماماً .. وبدأ يحس بدوار لطيف .. ومنذ ربع ساعة وهو يحاول أن يتكلم ويتدخل فى الموقف . . ولكنه كان مقتنعاً أن صوته يخرج من فمه وله قوام منظور وملموس كقوام الحبل . . وهذا الحبل لكى يمتد إلى العمال ويصل إليهم يحتاج إلى وقت . . والآن وصل الحبل إلى حيث يريد له . . ووجد المعلم صميدة نفسه يصيح : تبكون كالنساء . . تريدون أن تموتوا فى البيوت كالنعاج . . هذا أمر الله .

وردد العمال فى بلاهة واستسلام : « انعم إنه أمر الله . . أمر الله »

وصاح صاحب الحبل الممدود وهو يناول « حمدان » خمسة جنيهات :
« اشتر الكفن وقم بالواجب .. وسنتقابل فى الصباح عند باب المشرحة .. »

وانصرف مشيعاً بالدعاء الحار . وقد أطربه بالثناء على أريحيته . . انصرف مرتاح البال . . فقد كان يعرف أن موت « عبد الجليل » لاضرر منه . إن أحد الضباط سيأتى ويحرر محضراً . يختمه بإهداء تحياته إلى حضرة المحترم القضاء والقدر . . وقالت له الحمصة التى ذابت تحت لسانه وصارت الآن فى تلافيف مخه . لماذا يغضب « عبد الجليل » .. إن الحكومة ستحتفل بجنازته . ستخرج من المبانى الأميرية . . من المشرحة .. لامن زقاق .. ويالها من « خرجة » مشرفة .

وابتسم ملاطفاً نفسه .. غير أنه لم يلبث أن عبس . . فقد تذكر أن العمل قد يقف أياماً . . وقد يضطر إلى أن يدفع عشرة أو عشرين جنيهاً لأهل « عبد الجليل » إن كان له أهل .. وبدأ يتضايق .. وصور له الحشيش أن هذه الأفكار التى تضايقه ذباب كبير الحجم يحط على وجهه فمضى يهشه .. ودس يده من جديد فى تلافيف الحزام . . وعادت أصابعه بحمصة جديدة استقرت تحت لسانه .

وعندما وصل إلى القللى ، كان العمال الذين رآهم ينتحبون قد تحولوا فى خياله إلى ذباب . وقال لنفسه بصوت مسموع : حجر قتل ذبابة .. لماذا أدفع ثمناً لها عشرين جنيهاً . . سنين سوداء .. حتى الذباب ارتفع سعره .

وأعجبه صوته فضحك بصوت مسموع . وجاء عسكرى الدورية فى أثر القهقهة .. وصافح المقاول المعروف باحترام .. ودس المعلم صميدة أصابعه مرة أخرى فى تلافيف الحزام ، وأعطى العسكرى حمصة وهو يقول : خذ اضحك أنت أيضاً . ووقفا يتناقشان وعسكرى الدورية يشم الحمصة بأنف خبير . . وانطلقا يتناقشان عن الصنف . .

* * *

وفى تلك اللحظة كان عرفات يناقش زوجه أم عباس مناقشة غريبة . . كان يقول لها فى سخط : هذا الخنزير المعلم صميدة لم يفكر أبداً فى أن يغمزنى ببضعة جنيهات . . كأنه لا يعرف أنى أحميه . . وأن وجودى يمنع الثعالب من دخول الحارة .

وأجابت أم عباس بلهجة نصفها نفاق ونصفها تصديق : « نعم إنه خنزير . . خنزير سمين » .

وقال عرفات بعد تفكير وهو يبرى رأس عصاه بسكينه الحادة « انتظريه وراء الباب » .

وتجاهل نظرة الدهشة التى ومضت فى عينيها وأكمل قائلا : « اعزميه ليدخل عندك كأنى غائب . . وأنا متأكد أنه قذر . . وسيقبل الدعوة . وسأصل فى الوقت المناسب ؛ إن محفظته الضخمة تكوّن ثدياً آخر فوق ثديه الكبير . . وسيرضى بفصل هذا الثدى بدلا من فصل عنقه .

فوجئت أم عباس . . وساءها الأمر . . وهمت أن تعترض ولكن ضحك صميدة لنفسه وهو يقترب من الباب وصل إلى أذنها . . وبريق

السكين فى يد عرفات وصل إلى عينيها .. كانت تعرف أن لافائدة من مقاومة عرفات إذا أراد شيئاً . . فاتجهت فى صمت إلى باب الطريق واستقبلت الرجل الطروب .

وفى هذه المرة لم تغلق فى وجه صميدة باب مخدعها .

وقال العاشق الظافر وهو يتجرد فى حماسة من بعض ثيابه « ياماكرة ؛ إنك تركتنى أنضج جيداً على النار » .

وقالت فى ذعر : « لاتفعل . . عرفات صعب . »

وأطلق ضحكة ساخرة « عرفات ذبابة ثمنها خمسون جنيهاً . . ما أغلى ثمن الذباب »

وأهاب بها وكأنه رجل حكيم مولع بالحذر وهو يخلع حذاءه . لاترفعى فى صوتك لئلا يستيقظ الولد ويعكر علينا » .

واندفع محاولا أن يعانقها .. ولما قاومت صاح وهو يلهث : سنة كاملة وأنا لا أعرف تحت قميصك شيئاً غير هاتين الرمانتين .. سنة كاملة . . وأنا أطلب المزيد وأنت تخوفينى بعرفات .

وصرخ عرفات وهو يثب من مخبئه .

وصرخت المرأة وقد أدركت أنها سقطت فى كمين .

لو أن الثعابين تضحك لكانت تشبه عرفات وهو يضحك ويقول : « منذ شهور وأنا أشك .. وقد أوقعتك فى الفخ .. كنت أعرف أن لسانه سينزلق فى الكلام قبل أن تنجحى فى تحذيره . »

وكانت أم عباس مدربة على النجاة من المآزق . . وكانت تراقب

حركة السكين فى يد عرفات . . وفى اللحظة الحاسمة وثبت من النافذة . . ولم يكن بحاجة إلى أن يتبعها واتجهت السكين إلى الرجل العارى وعرفات يزمجر : « أنا سبع ولا تشرب من حوضى الخنازير . »

وضحك المعلم صميدة وكأن عسكرى الدورية هو الذى يحدثه . . إن الرعب وحبات الحمص التى ذابت فى ذاكرته تضامنت فى أن تظفر له بسلام عجيب . . وحتى محاولته فى أن يرفع جسمه ويقف أخفقت . . وشعر أنه استحال إلى مخلوق مكون من الرمل والنمل والثلج .

وعندما ذبحه عرفات لم يتألم كثيراً . فإنه كان فى شبه غيبوبة .

وخرج عرفات إلى الطريق يهز فى يده السكين الحمراء . خرج يبحث عن عسكرى الدورية الذى كان مستنداً إلى جدار ينعم بتعسيلة ويثنى على كرم المعلم .

وصرخ عرفات فى أذن الشرطى ، فاستيقظ مذعوراً متضايقاً وهو يظن أنها مظاهرة عليه أن يفضها . . ليتها مظاهرة .. إنها سكين تهتز تحت أنفه وقاتل يصيح فى وجهه : « أنا سبع ولاتشرب من حوضى الخنازير » .

وهكذا لم يخل المعلم صميدة بوعده . . أن يذهب إلى المشرحة فى الصباح . . وجمعت معجزة سهلة الظالم والمظلوم .

وشاعت المعجزة أن يفحص أحشاء العبد والسيد مشرط واحد وطبيب واحد لم يخطر بباله أن البلادة البادية على وجه صميدة تقول : « إن سعر الذباب ارتفع كثيراً فى هذا الزمان الأسود » . ولا أدرك

أن الابتسامة المرتسمة على شفتى « عبد الجليل » تنادى : « أمى . . أمى . . إننى نجوت من الموت برصاص أصحاب الثأر ونجوت من الموت جوعاً . ونجوت من انتقام العمال المطرودين . . سامحينى . . . بذلت كل ما فى وسعى كى لا أتركك » .

وجلس أبناء درنكة والبدارى فى مأتم مشترك يتقبلون العزاء .

وقال « حمدان » وهو يخفض رأسه كمذنب : « الموت أرسلنى لآخذه من القهوة . . ليتنى لم أقابله » .

وسقط صوته فى لجة الصمت . . كان الباقون واجمين . . يخيم عليهم طائر الحزن . . كل أجير منهم كان يشعر أنه « عبد الجليل » . . . . وأنه يتقبل العزاء . . فى نفسه .





# أربعة ذئاب .. ونعجة !



كانوا أربعة : حضرة العمدة ، « والمِتّر » ، والشيخ قابيل ، ورأفت أفندى .

أما حضرة العمدة فهو حضرة العمدة وكفى . . إنه لايرضيه منك أن تناديه بياعمدة فقط ، أو بياحضرة ، فقط ، إن موسيقاه الشجية هى « ياحضرة العمدة » ، إن ناديته بها فأنت صديقه وصغيره ، وإن أغفلته أحد شقيها فى مخاطبتك معه فأنت خصمه وغريمه . .

وهو بعد عمدة « كفر شحاتة » ، وهى قرية على النيل نصف خفرائها لصوص ، ونصف أعيانها مفلسون ، ونصف نسائها آثمات ، ونصف تجارها غشاشون ، ونصف محصولها للدودة وأخواتها من الآفات الزراعية . .

أما « الميتّر » فهو محامى حضرة العمدة وهو أيضاً من عباد الألقاب . والنداء المحبب لديه «يامِيتّر» . . إن قلت له يا أستاذ ، أو ياحضرة «الأفوكاتو» أو ياحضرة القانونى الضليع ، أو ياحضرة الفاضل ، لم تبلغ من نفسه ما تبلغه منها حين تنغم له كلمة « ياميتّر » . هى وحدها التى تجعله يهش ويبش ، ويقبل ويصغى ، ويفحص القضية بهمة وذمة . ويتساهل فى « الأتعاب » أيضاً . . .

أما الشيخ قابيل فهو شيخ بلد « كفر شحاتة » . وهو رجل نحيل مفعم العينين بالدهاء . . إنه قد ألف أن ينادى العمدة بياحضرة العمدة فى ذلة وخضوع ، وأن ينادى المحامى « بياميتر » فى توقير وإجلال . . وهو يضحك منهما فى كمه . .

أما رأفت أفندى فهو من المحاربين القدماء . وساحة الهزيمة التى أثخنته بالجراح هى امتحان شهادة الكفاءة . لقد تقدم لهذا الامتحان تسع مرات آب فيها جميعاً . . بالإخفاق المبين . لقد كان للكفاءة فى الماضى شأن وأى شأن . ما يزال يروقه أن تقدمه للناس بقولك : حضرته رأفت أفندى . . ساقط كفاءة .

هذه هى مفخرته الأولى . أما مفخرته الثانية فهى أنه شقيق ضابط نقطة « كفر شحاتة » .

* * *

وحضرة العمدة يربطه « بالميتر » أنه محامى ولده ، وولده الآن نزيل السجن الاحتياطى بتهمة سرقة حمار ، وصبغه ، وبيعه فى سوق البلدة المجاورة بلون جديد وسعر زهيد .

وتربطه بشيخ البلد العلاقة التى تربط الرئيس بمرؤوسه . إن العمدة يأمر وشيخ البلد يطيع وينفذ . . إن أراد حضرة العمدة أن ينقب متجر « عمر » ، فإن متجر « عمر » ينقب . وإن أراد أن تتلف زراعة « بكر » فإنها تتلف ، وإن أعجب حضرة العمدة بزوجة « عويس » فإن زوجة « عويس » فى الخدمة . إن شيخ البلد رجل نشيط . . .

وتربطه « برأفت أفندى » علاقة « الاستظراف » المتبادل ، فإن « رأفت أفندى» شقيق ملاحظ النقطة . وحضرة العمدة رجل ذكى . حينما يطلب « رأفت أفندى » خروفاً حولياً أو ديكاً رومياً فإن معنى ذلك أن حضرة الضابط هو الذى يريد هذه الأشياء . والعمدة يرسلها مع « مخصوص » لغاية البيت ، ويقسم ألا يتقاضى ثمنها ، وهو يعلم فى دخيلة نفسه أن « رأفت أفندى » لم ولن يخطر بباله قط أن يدفع ثمنها . ولكن العمدة موقن بعد هذا أن الضابط النشيط سينظر إلى أعماله ، وإلى الأمن فى القرية بعيون الديوك والخراف . .

* * *

اجتمع الأربعة فى « البندر» فإن قضية نجل العمدة تنظر اليوم .. وتأجلت القضية ، وجلسوا عند الظهر ، كعادتهم فى « بار البندر » الوحيد .

وصفق العمدة فى طلب الشراب .

وشربوا حتى ثملوا . . .

وكان كل واحد منهم ينظر لرفاقه على أنهم سكارى وهو اليقظ الوحيد . وكان كل واحد منهم يغطى صاحبه بنظرات كلها استخفاف وسخرية وهو واثق أنه يوجد فى الأربعة ثلاثة مغفلون وثعلب واحد . . .

كان حضرة العمدة يعتقد أن « الميتّر » مغفل كبير فإن الميتّر يسخّر كل مواهبه فى خدمة القضية ليحصل على مؤخر « الأتعاب » الجسيم ، لكنه لن يعطيه المؤخر أبداً . . أبداً !

كان المحامى يعتقد أن العمدة مغفل كبير . إنه قانع بالجنيهات القليلة التى أخذها. لقد حضر القضية عدة مرات وطلب التأجيل . . التأجيل فقط . لكنه مصمم أن يتقاضى ليلة جلسة المرافعة أتعاباً جديدة . لأن القضية كبيرة متعبة وإلا فلا حضور فى الصباح ، وليذهب المتهم إلى الجحيم . .

وكان العمدة يعتقد أن شيخ البلد مغفل كبير . فإن العمدة اشترى أرضاً فى مديرية أخرى نائية . وتزوج من القرية التى تقع فيها تلك الأرض كاعباً حسناء، أنشأ لها بيتاً فى الضيعة الجديدة يزورها فيه بين حين وآخر ، فى غفلة من زوجاته الثلاث ، المقيمات بمقر العمودية . . . إن أحداً لا يعلم بهذه الزوجة الجديدة إلا شيخ البلد ، فإن العمدة يرسله بين الوقت والآخر . ليراقب شئون الضيعة ، ويقضى حاجات الزوجة الجديدة . . وإن العمدة لينتهز فرصة غياب صديقه العزيز شيخ البد فيتسلل إلى داره فى جنح الليل ويأخذ مكانه فى فراش الزوجية . . .

وكان الشيخ قابيل يعتقد أن العمدة مغفل كبير ، فإنه ينام ، حين يصل إلى الضيعة الجديدة ، لا فى مندرة الضيوف بل فى أحضان الدرة المصونة والجوهرة المكنونة .

وكان العمدة يعتقد أن « رأفت أفندى » مغفل كبير ، لأن ثمن التستر على الجناية فى القرية ديك رومى وثمن التستر على الجنحة ديك فيومى .

أما رأفت أفندى فكان يعتقد أن العمدة أكبر مغفل فى الدنيا . .

لأن نجل العمدة لم يذهب إلى السجن إلا ببركة أخيه ، وأنه ليعلم أن أخاه منقول من القرية . . وهو معتزم أن يقدم للمأمور تقريراً سريًّا فيه إحصائية بجرائم العمدة ومخازيه . .

وطاب الشراب . . وكان « البار » يقع على قارعة طريق تمر بها السيارات الذاهبة إلى القاهرة . وتاق « الميتّر » إلى سهرة فى العاصمة ، فطرح الاقتراح على الجماعة . . وهللت الجماعة . .

هلل العمدة وقد سبق إلى خاطره أنه يستطيع أن يستدرج المحامى فى صباح اليوم التالى إلى مقر لجنة تسوية الديون العقارية ليترافع عن تسويته .

وهلل « رأفت أفندى » وقد سبق إلى خاطره أن يستطيع أن يزور صديقته الراقصة « بدرية » .

وهلل الشيخ قابيل وقد سبق إلى خاطره أنه يستطيع أن يزور السيدة زينب وسيدنا الحسين .

وكان ظاهر حماسهم أنهم سعداء بصحبة بعضهم بعضا ، وباطنه يقينهم أنهم لن يتحملوا شيئاً من نفقات الرحلة ما داموا مع العمدة ، فإن العمدة يعتبر وضع يد أحدهم فى « جيبه » — وهم فى حضرته — إهانة لا تغتفر لكرمه الحاتمى . .

وأدار العمدة فى رأسه حسبة صغيرة ، أثبت فى باب المصروفات نفقات هذه النزهة إلى القاهرة . واعتمد فى باب الإيرادات مبلغاً مقابلا : إن « خضرة بنت محمود » تبيع الأفيون المغشوش فى أمان ، وقد آن لها

أن تدفع «ضريبة الدخل» . . ولدى «بسطويسى بن هانم» حمار أبيض لابأس أن يصبغ بلون آخر ويباع فى إحدى الأسواق البعيدة ، حتى تعرف الحكومة أن الحمير تلبس جلوداً غير جلودها برغم وجود نجل العمدة فى الحبس الاحتياطى ؛ فيكون فى ذلك مورد من موارد الدخل ، ودليل من أدلة البراعة . .

وربت « حضرة » العمدة على العمامة الأنيقة المستوية فوق رأسه ، وتنهد بارتياح بعد فراغه من موازنة الميزانية ، ونادى إحدى سيارات الأجرة من الموقف القريب .

وجاءت السيارة . وركب الأربعة : العمدة والشيخ قابيل إلى جوار السائق ، . والمحامى ورأفت أفندى فى المقعد الخلفى . .

وقطعت السيارة بعض الطريق إلى القاهرة ، وإذا فتاة تلوح للسيارة كى تقف ، ووقفت السيارة . وسألت الحسناء السائق :

ـــ أتأخذنى معك إلى القاهرة ؟

وأسرع المحامى إلى الإجابة وهو يفسح لها مكاناً بينه وبين رأفت أفندى :

ـــ تفضلى يا « مدموازيل » . .

كان العمدة والشيخ قابيل يتلهيان فى جلوسهما إلى جوار السائق بالنظر إلى الطريق . . لكن نظرهما ارتد بغتة بعد ذلك ، إلى داخل السيارة . ولم يجد العمدة غضاضة فى أن يلوى رقبته الغليظة إلى الوراء ويسأل الفتاة وهو يحدق فيها بعينين فهمتين :

— اسمك إيه يا عروسة ؟

— اسمي جورجيت

— بنت مين يا عروسة ؟

— أنا بنت كرياكو أسطى وابور مجدى بك .

— ورايحة مصر تعملى إيه يا عروسة ؟

— أنا مش عروسة أنا لسة بنت با شتغل فى شيكوريل .

وضحكت ضحكة ، وسيقية أطارت النعاس من رءوس الأربعة المثقلة بالخمر . . .

كانت فتاة لعوباً . ذات عينين تفريان المهج . يشرف عليهما حاجبان من صنع حلاق حاذق .

ذكر العمدة بحزن وهو يحدق فى وجهها المشرق وخدها الأسيل وجنات زوجاته المكتظة باللحم .

وحدث الشيخ قابيل نفسه وهو يخالسها النظر : « هذا هو الغزال الذى سمعت عنه فى المواويل » .

وذكر المحامى وهو يحدق فى فمها المزدهر كالزنبقة الحمراء حياة « الظمأ » التى يحياها .

وأحس رأفت أفندى بغثيان وهو يذكر رِدْفَيْ الراقصة « بدرية » الثقيلين ، وفمها الواسع ، وثدييها المترهلين . وحاول الأربعة أن يفوزوا « بالفتاة » جورجيت .

تحدث المحامى عن قضاياه ومسئولياته ومركزه الاجتماعى .

وتحدث العمدة عن أطيانه وثرائه ونفوذه فى القرية .

وتحدث الشيخ قابيل عن « حيثيته » بصفته شيخ مشايخ بلدة « كفر شحاتة . .

وتحدث رأفت أفندى عن الروايات التى قرأها وعن أخيه حضرة الملاحظ .

وحاول كل من طرف خفى أن يغض من قدر صاحبه ليكون الرجل المفضل . .

فتحدث شيخ البلد فى رفق عن أزمة المحامين .

وتحدث « الميتر » فى رثاء عن قيمة شهادة الكفاءة فى الوقت الحاضر .

وتحدث العمدة فى تواضع عن تنفيذ مشايخ البلاد لأوامر العمد .

وتحدث رأفت أفندى فى قلق عن سارق الحمير ونزيل الحبس الاحتياطى .

وهشت جورجيت للجميع . . .

* * *

لما وقفت السيارة فى منتصف الطريق فى إحدى محطات البنزين ، كانت جورجيت قد كسبت صداقة ، أو بعبارة أصح ، عبادة الأربعة .

كان قد جرى بينها وبين « الميتر » الحديث الآتى فى غفلة من الجميع :

— إنك ظريفة جدًّا .

— مرسى .

— إنك وديعة كالحمامة .

— مرسى .

— العفو .

— هل أستطيع أن أراك فى القاهرة ؟

— إننى أتناول غدائى عند الساعة الثانية فى مطعم « النجمة » .

— صحيح .

— صحيح .

. . . وكان قد جرى بينها وبين رأفت أفندى الحديث الخامس الآتى :

— إنك أجمل من ماجد ولين .

— مرسى .

— ومن غادة الكاميليا .

— مرسى .

— ومن صوفيا لورين وفاتن حمامة .

— العفو .

— إنك ملاك .

— مرسى .

— إن يدك صغيرة ولطيفة . لم تخلق إلا للإحسان للقلوب . هل أستطيع أن أراك فى القاهرة ؟

— إننى أتناول غدائى فى مطعم « النجمة » فى الساعة الثانية .

— صحيح ! ؟

— صحيح . . قسما بساقيك الجميلتين .

وتنهد رأفت أفندى بارتياح . . . .

وكان الجميع قد ترجلوا عند محطة البنزين ولما بدأوا يأخذون أماكنهم رأى المحامى أن يجلس هو ورأفت أفندى إلى جوار السائق وأن يدعا مكانهما لصاحبيهما من قبيل المجاملة .

ووجدت جورجيت نفسها بين عمامتين ضخمتين ، ونثرت ابتسامة إلى اليمين وابتسامة إلى اليسار .

وعربد دم العمدة الضخم فى شرايينه ومال بكلكله على قوامها الهش . وهمس فى أذنها فى غفلة من الجميع :

— ياست الحسن .

— نعمين ؟

— دمك شربات .

— مرسى .

- كلامك سكر نبات . . .

— مرسى .

— ياست الحسن نظرة . ا . . . ا . .

— إننى أتناول غدائى فى مطعم « النجمة » فى الساعة الثانية .

— الثانية تماماً ؟

— تماماً .

— الله يخليك وينجيك ويتم عليك جمالك و كمالك وظرفك ودلالك ياست الحسن . .

* * *

. . . ولما وصلت السيارة إلى القاهرة كان الشيخ قابيل يعتقد أيضاً أنه الفائز الوحيد بميعاد الساعة الثانية فى مطعم « النجمة » وأن الفضل فى ذلك لعينيه العسليتين ، وشواربه المفتولة الصاعدة إلى أرنبتى أنفه ، ومواويله التى ناح بها راجياً إقبال الغزال النافر وهو يميل على « جورجيت » .

. . . ومدت الحسناء يدها لهم مودعة وضغط كل منهم على يدها ضغطة ذات معنى .

وأمضوا السهرة معاً : وعند باب الكباريه ، بعد منتصف الليل ، بدأ كل منهم يعتذر لصاحبه عن اللقاء فى اليوم التالى :

ومضوا إلى حيث ينامون .

وأفنى الذئاب الأربعة بقية الليل يفكرون فى افتراس النعجة التى ألقاها القدر فى طريقهم . . .

كان المحامى يحدث نفسه أن جنبها سيكون إلى جنبه ، فى فراش هذا الفندق فى الليلة القادمة .

وكان العمدة يفكر فيها كما يفكر فى « وجبة» يشتهى أن يلتهمها .

وكان رأفت أفندى يذاكر من « نوتة » يحملها فى جيبه دائماً ، عبارات الهيام والغرام التى اقتبسها من الروايات الرخيصة التى قرأها ليهمس بهذه العبارات فى صدر « جورجيت » وهى تحيط عنقه بذراعيها العاريتين .

أما الشيخ قابيل فقد كان يحلم أنه جاث جثى الكلب عند قدمى « جورجيت » يتأملها وهى تنضى ثيابها قطعة قطعة عن جسدها الشبيه بالقطن المندوف .

* * *

فى حوالى ظهر اليوم التالى بدأ الذئاب الأربعة يتحركون نحو مطعم « النجمة » .

نسى العمدة عمله الهام فى لجنة التسوية ، ونسى رأفت أفندى « بدرية » الراقصة . ونسى الشيخ قابيل حق السيدة زينب وسيدنا الحسين عليه . ونسى المحامى مكتبه وقضاياه .

وجلس « الميتر » فى إحدى زوايا المطعم على مائدة تمكنه من مراقبة الداخلين .

وكان الثلاثة الآخرون يحومون حول المطعم .

ولمح رأفت أفندى الشيخ قابيل . ولمح الشيخ قابيل العمدة . ولمح العمدة رأفت أفندى . واعتقد كل منهم أن صاحبه يقتفى أثره

ويتلصص وراءه . وحقد كل منهم على صاحبه . وود كل منهم لو يقرض « رقبة » أخيه .

ورأى « الميتر » من وراء الجريدة التي يخفي خلعها وجهه ، الثلاثة وهم يتسللون الواحد فى أثر الآخر إلى داخل المطعم .

ورأى كل منهم يعطى ظهره للآخر . وفازت به الدهشة .

ورأى الثلاثة وهم يكنسون المطعم بنظراتهم بحثاً عن « جورجيت » . المحامى وهو يخفى رأسه وراء جريدته .

وازداد عجب الذئاب .

* * *

وجاءت « جورجيت » أخيراً بقامتها الرشيقة وشعرها الذهبي وابتسامتها المتألقة .

ولم تكن وحدها . . كان يرافقها شاب وسيم من أبناء جنسها . وكان الظاهر أنه مثلها من عمال المتاجر وأنهما اعتادا التلاقى لتناول الغداء فى مطعم « النجمة» معاً . كان ذلك واضحاً من معاملة الخدم لهما . .

وجاء الطعام الشهى . وأخذت زجاجة النبيذ مع ابتسامات «جورجيت» تغسل العناء والجهد من محيا الفتى .

ورآه الأربعة يتأمل وجهها بحنان وشغف . وأناملها تعبث بيديه الموضوعتين على المائدة ، فعرفوا مكانها من قلبه ومكانه من قلبها .

كان واضحاً أنهما يعيشان قصة غرام .

ورمقت « جورجيت » كلا من الأربعة بنظرة خبيثة .

ورآها الأربعة تتحدث لصاحبها وهى تشير نحوهم بطرف الشوكة وكأنها تدله عليهم . وتحكى له قصة كل منهم معها .

ورأوا الفتى يضحك ويغرق فى الضحك وهو ينظر نحوهم نظرات مفعمة بالسخرية ويغطى يد « جورجيت » بيده فى حماس وحنو .

وكلما مضت فى الحديث مضى فى ضحكه . ونظراته الماكرة تستقر عليهم وتخيل لهم أنه يراهم قروداً فى أقفاص . . .

ومرت بهم « جورجيت » فى طريقها إلى باب الخروج وذراعها معلقة بدلال فى ذراع رفيقها ، ولذعتهم بابتسامات كالسياط .

وهكذا أفلحت الشاة فى أن تضحك من الذئاب .

* * *

وهجم رأفت أفندى على منضدة حضرة العمدة وكأنه رآه فجأة . وتصافحا فى حماس .

وأدار حضرة العمدة رأسه ثم صاح : أما عجايب . دا كان « الميتر » هنا . . ولما استقروا جميعاً على مائدة « الميتر » رأوا الشيخ قابيل يتقدم نحوهم قائلا : « سلامو عليكو ياجماعة » .

وهز « الميتر » رأسه مغمغماً : رب صدفة خير من ألف ميعاد .

وأقسم العمدة أن يدفع الحساب .

* * *

وقال العمدة فى الطريق : أرأيتم « بدع » « بنت كرياكو » وكيف كان الولد الذى معها يغازلها جهاراً نهاراً .

وقال رأفت أفندى : ياضيعة الأخلاق .

وقال الشيخ قابيل : « لقد ولى الوقار الأدبار من بر مصر » .

وقال المحامى : الشباب خلعوا برقع الحياة .

واتفق الأربعة أن يفترقوا بضع ساعات لبعض شئونهم ، ثم يجتمعوا فى سيارة تحملهم إلى « البلد » .

وفى هذه الساعات : ذهب الشيخ قابيل لزيارة « الأسياد » . . وذهب العمدة إلى لجنة التسوية ، ثم إلى زيارة ابنة له متزوجة من أحد علماء الأزهر . وذهب رأفت أفندى لزيارة « بدرية » الراقصة ليقول لها إنه جاء خصيصاً يملأ عينيه من حسنها الرائع . وقطع المحامى الوقت فى مشاهدة معروضات الحوانيت ، وإلقاء نظرة على المؤلفات المعروضة فى واجهات المكتبات .

* * *

ولما مضت السيارة تقطع بهم الطريق إلى الريف لم يكن لهم حديث إلا حديث الحسرة على سوء الحال والمآل فى القاهرة .

كأن الذئاب الأربعة جد زاهدين فى لحم النعاج . . .

# الكناري ..



نحن الرجال المتزوجين منذ بعيد ، المحاربين القدماء ، نكتشف غالباً عندما نراجع تاريخ حياة قلوبنا حقيقة حزينة : إن الفتاة التى اقترنا بها هى غير التى أحببناها وزفها إلينا خيالنا الخصيب ، فى أحلام الشباب . .

وأنا أسطر هنا قصة هذه الحقيقة ، المقترنة فى فؤادى بذكريات حب قديم ، مات فى مهده .

إن الليل الآن انتصف ، والسكون يحتضن البيت ، وقد نام منذ قليل ابنى سامى الذى يذاكر دروسه بحماس ليحصل على الشهادة الابتدائية .

وقد تسللت إلى منضدته التى يصفّ عليها كتبه بعناية فائقة ، وجلست إليها وبى حنين عجيب إلى الماضى والأيام التى كنت فيها فى مثل عمره تبهرنى الكتب المصورة والأقلام الملونة .

مسكين صغيرى سامى . . عندما كنت فى سنه كنت أحسن منه حظاً ، لم تكن منضدتى من الخشب الأبيض الرخيص كمنضدته كان أبى تاجراً موسراً ، أما أنا أبوه ، فلست إلا كمسارى قطار . .

فلأكتب . . إننى فى أمان من زوجتى ، فإنها مستغرقة فى النوم ،
إن زوجتى فاطمة طيبة ، لكن « كيتى » ، كانت . . . حلوة .
ويوم كانت كيتى فى حياتى لم تكن فاطمة فيها ، وهذه هى المسألة.
فإننا نحن الرجال المتزوجين لانتزوج فى الغالب المرأة التى أحببناها بل امرأة أخرى غيرها . . وتوجد دائماً فى قلوبنا منطقة نخفيها عن أعز الأعزاء ، عن الزوج والولد ، ونهبها للصمت والسكوت ، ونتسلل إليها أحياناً خلسة ، لنعيش مع الذكريات التى لاتنسى .

ومهما كبرنا ، وصعدت بنا السن ، وثقلت على أكتافنا المسئولية فإننا نبقى فى هذه الناحية الخفية أطفالا نفرح ونألم لأتفه الأمور .

كنت فى العشرين أتلقى دروسى فى مدرسة الطب .

وكانت فى الثامنة عشرة .

وكانت الملاك الذى هبط فجأة . . من السماء السابعة .

ولم تكن السماء السابعة إلا الطابق الرابع فى بيت كنا نقطن الطابق الثالث منه .

وبصفتنا السكان الجدد نزلت أم كيتى لترحب بأمى . . وسرعان ما أصبحتا صديقتين تتبادلان الزيارة .

عدت من المدرسة ذات يوم عند الغروب . . وسمعت فى قاعة الضيوف صوتاً نسائياً ناعماً ، وضحكات فضية .. فانحنيت على ثقب المفتاح . . وظللت منحنياً طويلا .. فإن « كيتى » كانت جميلة حقاً . .

* * *

وبعد أيام قليلة جاءت « كيتى » مع أمها ترجونى أن أشرح لها بعض مسائل فى الهندسة استعصى عليها حلها .

ولما أصبحنا وحدنا فى حجرتى ، أمام مكتبى ، تبينت أن الفتاة أنجب من أن تعجز عن حل هذه المسائل . .

لكننا على أى حال لم نبعد كثيراً عن الهندسة . واتفقنا على أن الخط المستقيم هو أقصر الخطوط ، حتى فى المسائل القلبية .

فلما أطلت أمها برأسها علينا من باب الحجرة سائلة : « هل وصلتم إلى نتيجة ؟ » أجبناها بالإيجاب ؛ فإننا كنا قد وجدنا الحل فعلا ، عندما فكرنا فى كرسيين متجاورين فى « السينما » فى اليوم التالى .

وكان لقاء عذباً .

وكان حباً عفيفاً . لن أنسى نزهاتنا البريئة . وأحلامنا الذهبية عن جنة الزواج . .

ثم رأيت « كيتى » تبرد فجأة . . وبدأت تهملنى ! . .

ولم يكن من بخاطرى أنها ربما تهجرنى يوماً ، فلما وضح مللها راقبتها عبثاً . فقد كانت حريصة .

لكن المصادفة أخبث من اليقظة . . هى وحدها التى أتاحت لى أن أراهما معاً ، وهما يصعدان السلم إلى طابقها .

كان وسيماً ، يرتدى ملابس ضابط فى الجيش ، برتبة يوزباشى .

وأدركت أنها ضحت بالطالب الذي لم يتحدد مستقبله ، من أجل النجوم اللامعة ، وهذا إذن هو السر فى أن أمها لم تعد صديقة حميمة لأمى ، وأن زياراتها لنا أصبحت نادرة وفاترة .

وعلى الرغم من أن الحقيقة كانت سافرة فإننا نحب أحياناً أن نبدو أغبياء . . . ذهبت أراجع « كيتى » . وذكرتها بعهودها وبقلبي . ولكنها رمقتنى باستخفاف . إن عيونهن التى ترسل السحر تستطيع أن تنفث السم أيضاً . .

واعتصمت بكبريائى وضحكت وأنا أقول لها : اسمعى . الأيام بيننا . . إن مستقبلى باهر وسأتزوج فتاة خيراً منك . . وسترين . . »

وأجابت ساخرة : « ربما . . لكن الآن . . ماذا تصنع لو أبوك طردك من البيت . . .

قلت : « أبحث عن فتاة فى حاجة للدروس فى الهندسة . »

ولطمتها على وجهها واستدرت خارجاً . .

وكان هذا اللقاء المر هو اللقاء الأخير .

لكن هل انتهى ما بيننا حقاً ؟ !

إن الوداد فقط هو الذى انتهى ! أخلى مكانه للكراهية وأصبحت مريضاً أن أبدو أسعد منها . وأن تكون لى امرأة تفوقها فى كل شىء . وبذلك ينال قلبي ثأره .

ولم تدخر وسعاً فى أن تجعلنى أعرف أنها أسعد فتاة فى الدنيا .

ويوم كنا على وفاق كانت ترسل لى كل مساء ، وأنا جالس إلى

كتبي ، فى حجرتى القبل والابتسامات على نغمات « البيان » .

وبعد الجفاء .. أصبح المعزف يرسل لى أنغاماً أخرى ، ذات معان موجعة .

ولن أنسى قط الليلة التى سهر فيها المعزف طويلا ليعصر فى أذنى ألحانه المسمومة ، كان جلياً أنها قرأت الصحف وتبينت أننى لم أنجح فى الامتحان . . وأنها تحتفل بهذه المناسبة السعيدة .

وكنا نلتقى أحياناً على السلم فأرى الشماتة على وجهها المتجهم الجامد.

* * *

بعد شهور كنا فى ظروف جد متباينة .

كان مسكننا غارقاً فى الحداد لأن أبى مات . وكان كل شىء فى مسكنها بهيجاً ضاحكاً . . فقد تم زفافها إلى « كامل نجاتى . . اليوزباشي » .

ومضى وقع الأقدام فى الطابق الرابع يحدثنى عن السهرات المرحة الراقصة .. لم تكن كعوب أحذية النساء الرشيقة الرفيعة تقع على البلاط . . بل كانت تقع فوق قلبي . .

ولم أحتمل . . خيل لى أن القدر يساعدها ويناوئنى . . فبحثت عن بيت آخر ، فى حى بعيد . .

وانقطعت أخبار « كيتى » عنى .

* * *

. . . وقد مضت خمسة عشر عاماً دون أن ألقاها أو أسمع عنها خبراً .

ولم أكن بحاجة إلى هذا اللقاء .

فإن الكوكب الذى لازمنى طيلة هذه المدة لم يكن كوكب السعد .

لم يعد ميسوراً بعد موت أبى أن أتم تعليمى .. وأصبحت مسئولا عن أسرتى وأشقائى الصغار . . فغادرت المدرسة . . وآثرت أن آخذ مكان أبى فى متجره . . لكننى أسرفت فى الثقة بعملائى . . ومات المتجر . .

وتذكرت شهادة البكالوريا التى أحملها . فبدأت أطوف بها على المصالح ذلك الطواف المهين .

ونجحت أخيراً ، فى أن أجد وظيفة كمسارى قطار . . .

وتزوجت فاطمة . ابنة الرجل الذى وجد لى الوظيفة . فقد كان ذلك شرطاً ضمنياً فى المسألة .

ولم يكن للقلب دخل فى هذا الزواج . . لكن ربطنى بها بعد ذلك ابنى سامى ، الذى جر وراءه ثلاثة أطفال آخرين .

وأصبحت لنا متاعبنا المشتركة . وهمومنا المشتركة .

ولم يبق لى من الأحلام العذبة البعيدة إلا تلك المنطقة السرية فى قلبى ، التى أخفيها عن أعز الأعزاء ، وأهبها للصمت والسكوت ، وأتسلل إليها أحياناً لأعيش مع « كيتى » . ومع الذكريات . .

ومنذ أيام كنت أجوب قطار الإكسبريس العائد من الإسكندرية إلى القاهرة لأتفقد تذاكر الركاب .

ودخلت عربة الدرجة الأولى .

ورأيت فى الديوان الأول رجلا وسيدة وطفلا .

ومد لى الرجل بين أصبعين ، وفى عجرفة ، تذكرتين فقط .. وأحنقنى ذلك فطالبته فى جفاء بتذكرة الطفل .

وأجابنى فى غطرسة بأن الطفل صغير لا يستحق تذكرة .

ولما اشتد جدالنا رفعت السيدة عن وجهها الصحيفة التى كانت تطالعها .

وإذا هى . « كيتى » . .

« كيتى » . . بعد خمسة عشر عاماً .

الرجل الغليظ هو اليوزباشى « كامل نجاتى » . . الذى كان وسيماً . . فى الماضى . .

وابتسمت الصديقة القديمة . . عرفتنى بدورها . . كانت ابتسامة تقول « أتذكر ؟ »

وفتحت مدام « كامل نجاتى » حقيبتها ومدت لى أناملها بالقروش المطلوبة حسماً للنزاع . . .

ولم تتكلم لكن عينيها قالتا لى : « أترى . . . الدنيا لى لا لك .. إنك رجل بلا بخت . . . »

وأحنيت رأسى . كانت ما تزال جميلة . وناعمة ومعطرة . .

. . . وكم كانت هزيمة مرة وأنا أعبر من عربة إلى عربة كرهت الحياة . . . ولكن وجه ولدى سامى ملأ عينى وطلب إلى أن أتجلد وأتماسك .

وعدت إلى بيتى منقبض الصدر . كنت قد هربت من ذلك الرهان المشئوم بينى وبين « كيتى » . فلماذا نلتقى فجأة . . بعد خمسة عشر عاماً . على هذه الصورة .

لماذا قدرلى أن أرى فى عينيها تلك السخرية القاسية وكأنها كانت تزداد وتتراكم لتنتظرنى كل هذا الزمن .

وأخذت الأيام تمضى كئيبة مملة . .

. . . حتى كان ذلك المساء الذى عاد فيه ابنى سامى من المدرسة سعيداً مغتبطاً . . . ودنا من صدرى . وبدأنا سمرنا .

قال الصغير بعد تردد : « يا بابا برضه زى كل الشهور اللى فاتت طلعت الأول » وأجبته وأنا أقبله : « برافو ياسامى » .

وعاد يقول وقد لمع الحماس فى عينيه : « أنا مبسوط خالص يا بابا إنى بطلع الأول على الأولاد اللى بيتكبروا على. ومبيرضوش يصاحبونى عشان أهلهم أغنيا . . »

ــ زى مين يا سامى .

ــ أنا البرنجى على سعيد ثابت ابن ثابت باشا وخيرت على ابن ناظر المدرسة . وحسن ابن كامل نجاتى الأميرالاى و . . .

قاطعته : هو ابن كامل نجاتى وياكم فى الفصل ؟

وأجاب : إيوه يا بابا . . ده بليد قوى .

وذكرت الغلام البدين . . ابن « كيتى » . . الذى اختلفت مع أبيه المتغطرس فى القطار من أجل تذكرته .

لقد أصبح كامل نجاتى إذن « أميرالا يا » . . بينما غدا طالب الطب « كسارياً » . .

لكننى أحسست مع ذلك بالغضب يتبخر من صدرى . وانهلت على وجه ولدى بالقبل . .

خيل لى أننى لم أهزم. لم تنتصر « كيتى » على بعد .

وأنا مدين بذلك لطفلى العزيز .

لن أخجل لو لقيتها ثانية فى القطار . سأستطيع أن أقول لها : لنا أيضاً نحن الفقراء مسراتنا المتواضعة . إنه لأمر يبعث على التفاؤل أن يتفوق ابن « الكمسارى » على ابن « الأميرالاى » . . ويثبت أنه أذكى منه . لم نخسر المعركة بعد يا سيدتى .

ولست أخفى أن خاطراً خبيثاً يمر برأسى أحياناً . ربما يغدو ابنى طبيباً . . وربما يغدو ابنها . . « كمسارى » قطار .

ربما . . من يدرى . . إن المعركة لم تنجل بعد .

# كلّه تمام!



قالوا لها : « اجلسى هنا حتى يأتى دورك » .

وجلست . . . على الدكة .

والدكة كانت ملقاة خارج « بوفيه الاستوديو » .

وكانت ترتعش من برد يناير فى الليل . . ومن الرهبة . فإنها فى الاستوديو لأول مرة فى حياتها . . أقصد ، فى فناء الاستوديو . أما « البلاتوه » فقد كان يبعد بضع خطوات عن الدكة . . وقد قال لها الصديق الذى جاء بها ، فى صوت به خشوع ، وهو يشير إلى بابه المصفح : « وراء هذا الباب يجرى التمثيل والتصوير . أنظرى إلى المصباح الذى يعلو الباب . . عندما يكون النور أحمر لا أحد يدخل ولا ولا أحد يخرج وإلا " باظ " الشغل » .

وطلب لها من البوفيه واحد شاى وسندوتش حلاوة طحينية . .

وقال لها الصديق : « انتظرينى . . سأبحث عن مساعد المخرج . . »

ومضت « سنية » تقضم « السندوتش » وأسنانها تصطك . إنها ليلة حاسمة فى حياتها . . إن صديقها « كاميللو » قد وعدها بالمجد .

لقد أكد لها أنه « مهم » فى الاستوديو . . وأنها الليلة ستمثل حتما . .

حقاً أنه دور صغير . . ولكن من الضرورى فى البداية أن يكون الدور صغيراً .

وكان كاميللو نجاراً فى الورشة الملحقة بالأستديو . . وكان اسمه فى الأصل « كامل » . . ولكن ممثلة مشهورة أرادت مرة أن تدلله وهو يشد الخيش على القوائم الخشبية داخل البلاتوه ، وأضافت الحرفين الأخيرين . . وضحك الحاضرون وتمسكوا بعد ذلك بالاسم .

وأحس كاميللو منذ ذلك كأن روح « فالنتينو » تتقمصه . وزاد فى طول شعره سنتميرات أخرى . . ولم يعد يبخل عليه بالبريانتين من أجود الأصناف . . ووضع بين أسنانه بيبة . . ووضع على بدنه قميصاً زاهيا تحليه الكاروهات . . وأحاط معصمه بسلسلة فضية تشبهاً بأبطال الشاشة الشبان .

وفى الورشة وهو يخرط الخشب ويجرى عليه « الفارة » كان يتفلسف ويبدى رأيه فى الروايات والنجوم والمخرجين . . وكان يقول : « بصراحة ليس عندنا فن . . والمسألة تهبيش فى تهبيش . . والحالة زفت فى زفت » .

وعندما تعرف كاميللو بسنية ، فى حديقة الأندلس ، قال لها إنه مهندس ديكور . . ولما لم تفهم شرح لها الموضوع بأمانة . . قال لها : « هذه القصور التى تظهر على الشاشة بكش فى بكش . . خيش على مراين . . ويغطى بالورق . . والورق يطلى . . وتعلق عليه الصور . . ويبدو عندما يجف كأكمل ما تكون عليه الجدران فى أحسن البيوت . .

هذه هي شغلتى فى الأستوديو ياسنية . . » .

وبهر سنية أنه يشتغل فى الأستديو . . فقد كانت تحلم بالأستوديو . . وتتمنى لو ترى التمثيل فيه مرة واحدة ثم تموت .

ولكن كاميللو قال لها : « سترين الأستوديو . . وستمثلين أيضاً . . ثم أضاف وهو يمسك ذقنها : «إن بروفيلك يشبه بروفيل جريتا جاربو، وساقيك — ولا مؤاخذة — مخروطتان على شكل ساقى مارلين ديتريش » .

واحمر وجه سنية . . وشعرت بالدوار . . سكرت من الثناء . .

ونظر كاميللو إلى ساعته واستأذن فى الانصراف لكى يصلّى الظهر حاضراً .

وعندما صارت وحدها استغرقت فى التفكير فى كلامه .

* * *

كانت سنية طالبة فى الفنون الطرزية . . وكانت تأتى أحياناً إلى الحديقة وفى يدها كتاب . . ولكن لم يكن ذلك بقصد المذاكرة . . كانت تعرف أنها ستفتح الصفحات ولن ترى السطور . . لأنها قادمة لكى تحلم . . ولكى « تغيظ » حبيبها . . فقد كان لسنية حبيب . .

وكان حبيبها طالباً فى الحقوق ، يقيم فى الشقة الواقعة تحت شقتها ، فى منزل صغير بحارة الباشا فى السيدة زينب . . وقد بدأ الحب حلواً . . كلما كانت تدلى السبت بالحبل لكى يملأ لها بائع المدمس طبق الصباح كان « محسن » يستوقف السبت . . وانتهى به الأمر إلى أن يضع تحت

الطبق رسالة غرام . . ورضيت بعد عدة رسائل أن تقابله على محطة الترام . . ثم رضيت أن تركب معه إلى نهاية الخط . . وتوسل إليها أن يمشيا معاً قليلا فى هدوء المساء .. ولكنها خافت أن يراهما أحد . . ووعدته أن تعوضه عن ذلك بأن يتقابلا فى « السينما » لأن الظلام هناك أمين على الأسرار .

وفى « السينما » حاول محسن أن يمسك يدها ، ولكنها أجفلت منه ، وتلاحقت أنفاسها كأنه ضربها . . وافترقا قبل إضاءة الأنوار . ولم ينم ليلتها . . وطلع عليه الصباح وبين يديه خطاب مكون من عشرين صفحة إتهام أنها لا تثق فيه . . وكانت « حيثياته » قوية وكأنه وكيل نيابة وليس طالباً فقط فى الحقوق .

وذاب قلب سنية وهى تقرأ كلماته الحزينة . ونادت بائع البطاطة لكى تبرر أمام أمها هبوط السبت . ووقف السبت فى محطة إجبارية . . وكان دفاع سنية مقتضباً ولكنه كان ناجعاً . . قالت له : « نتقابل فى القناطر » .

وفى القناطر سمحت له أن يمسك يدها .. وذكرها أن البطل فى الفيلم الذى شاهداه تمدد فوق العشب . . ووضع رأسه على ركبة حبيبته . . وقاومت هذه الفكرة الجميلة . . ثم أشفقت أن يبعث إليها بصحيفة اتهام أخرى . . وتم له ما أراد .

وعادت بعد الغروب مدغدغة الحواس . . وأصابعها التى تخللها بأصابعه تؤلمها . . وذراعها التى لمسها متقدة . . وجبينها ، الذى فشل

فى تقبيله ، ملتهب . . وجورب بها ملتصق بقدمها من السير الطويل .

وغسلت الجورب . . وذهبت تعلقه على حبال « البلكونة » .

وكانت تستطيع أن تعلقه على أقرب صف من الحبال . . ولكنها اختارت الحبل البعيد لكى يتدلى نصفها فى الشارع وتستطيع إلقاء نظرة . . على حبها . . !

وفقدت توازنها . . وكادت تسقط فى الشارع . . ولكن الله سلم . . وفردة من الجورب هى التى سقطت . . واصطادها محسن . . وقال لها بالإشارة : « تعالى خذيها » .

وهزت كتفيها . . ولكنه توعدها أن يشعل فيها النار إن لم تهبط فى الحال وتأخذها .

وخافت أن يفعل ذلك ، فإنه لا يعرف أنها لا تملك جورباً غيره وأنها ذاهبة إلى المدرسة فى الصباح . .

وهبطت إليه . . ووقفت ببابه ، فى حذر . . ولكنه اقتنص اليد التى مدتها لتأخذ الجورب . . وجذبها إلى الداخل .

وقبلها فى فمها .

والقبلات على الفم إذا بدأت تتابعت . . كحبات المسبحة .

وبعد القبلات ساءت طباعه . . وصار طاغية . . ونصب نفسه سيداً عليها . . يحاسبها على موعد عودتها من المدرسة بالدقيقة والثانية . . ويؤنبها إذا رأى على خديها ظلا من طلاء . . ويرميها بالفجور إذا خرجت بلا جورب ، وهى خجلة أن تقول له إن الجورب ملأته الثقوب ،

ولا قبل لها بشراء آخر جديد إلا بعد أن تقبض أمها من الوقف .

أما المعركة الكبرى بينهما فقد نشبت عندما قصت شعرها بدون استئذانه . . ذهبت إليه وهى موقنة أن أناقتها الجديدة ستروقه ولكنه بدلا من أن يقبّلها صفعها . . وشفع الصفعة بقوله : « ماذا ينتظر من فتاة ترضى أن تقبّل » .

وقالت له ، وقد طار صوابها : « هل نسيت كم توسلت إلىّ . . وكم ألححت . وأنك جررتنى إلى ما كنت أكره » .

وقال لها ساخراً : «إنها تمثيلية معادة . . دائماً تزعمين للأخير أنه الأول ».

ولوى ساعدها وهو يصيح محنقاً : « الحلاق حجة . . ولكن من يدرينى أين كنت بقية الوقت . . فى السينما ترتعشين من يد تلمسك . .؟ أم فى القناطر تمنعين ركبتيك عن رأس يحاول أن يستريح ؟ . . أم كنت فى محطة الترام تخدّرين عاشقا أبله من أن يتحدث إليك أمام الناس . . » .

وتخلص معصمها من قبضته القوية ، وتقول له وعيناها تطفحان مقتا : « إنى أفعل ما أشاء فلست زوجى » . .

وعندما وصلت إلى مخدعها أقفلت الباب على نفسها ، وبكت بكاء مرًّا . . ثم قررت أن تثأر لدموعها .

صارت تخرج دون أن تستأذنه ، وتقرع درجات السلم بكعب حذائها عند عودتها وكأنها تتحداه . إنها فطنت إلى نقطة الضعف فيه . . الشك . . ومن أجل ذلك كانت تذهب إلى حديقة الأندلس . . ولم تكن تقابل هناك أحداً ، ولكنها كانت تعرف أن «محسن » لها بالمرصاد

فى « البلكونة » . . ومن أجل ذلك كانت تشبك على صدرها وردة وكأنها قادمة من القناطر . . وتتوج شعرها بحبل من الفل الذى يشتريه العشاق لحبيباتهم . . ولم يكن يبدو عليه أنه مكترث . . ولم يحاول أن يفتح باب شقته وهى صاعدة « ليزنقها » ويستجوبها . . ومع ذلك كانت واثقة أنه . . يغلى . وكانت تتلذذ بعذابه .

* * *

بعد لقائها الأول « بكاميللو » أغلقت على نفسها باب حجرتها عندما وصلت إلى البيت . . واتجهت إلى المرآة لترى الوجه الذى أكد لها أنه يصلح « للسينما » .. ودارت حول نفسها لترى « بروفيل جريتا جاربو » .. ونظرت إلى خصرها وصدرها .. واستحضرت إلى شفتيها الابتسامة الحلوة .. ودعت الدموع إلى عينيها فأجابت الدموع النداء . .

وبعد ذلك وصلت إلى قرار .. إن « كاميللو » على حق !

نعم ستطلب إليه أن يأخذها إلى الأستوديو .

وستضع قدمها على أول السلم .. ومن يدرى .. كل البطلات كن فى البداية بسيطات . وكثيرات منهن خريجات من حارات أضيق من حارة الباشا ! ..

وتنهدت سنية وسألت نفسها : ماذا يفعل محسن عندما يعرف أنها ذهبت إلى الأستوديو . لقد ثار لأنها قصت شعرها .. هذه المرة سيقتلها ؛ ومن الأوفق أن تخفى الأمر عنه ،

تخفيه إلى أن يفاجأ بها على الشاشة . وشاب آخر أجمل منه يقبلها ،

ويخطفها على جواده ، ويذهب بها إلى حيث لا يعلم المتفرجون ومنهم « محسن » .

وانفتح باب الحجرة، ودخلت أمها بالشاى الذى أعدته لها . كانت تذاكر .. وقبّلت أمها وقالت لها: « يا أماه من يدرى.. بعد بسنين أو بعد شهور سنترك هذه الحارة .. أين تفضلين أن تسكنى .. فى الزمالك ؟ أم فى جاردن سيتى ؟ أم فى الإيموبيليا ؟ . . » .

وابتسمت الأم المجهدة من الإكباب على ماكينة الخياطة طول النهار وقالت لها : « من يدرى ياسنية ! .. وأنا أعد الشاى كنت أحلم لك.. ليس مستبعداً أن تلميذ الحقوق الذى يسكن تحتنا يخطبك .. وتصبحين ذات يوم حرم "البيه" وكيل النيابة .. ويشترى لك الحاجب الخضار من السوق .. ويضرب لك العساكر تعظيم سلام ! » .

وقالت سنية لأمها وهى تتقصع أمام المرآة وتختلس النظر من ساق مارلين ديترتش : «إذا جاء "البيه" وكيل النيابة ليخطبنى فاقفلى فى وجهه الباب . وقولى له إن مرتبه لا يكفينى شرابات » .

وضحكت الأم ، فقد كانت تظن أن ابنة الحائكة المسكينة توسع على نفسها بالخيال . ولكن سنية كانت جادة .. وكان تصديق الخيال من طبع الثمانية عشر ربيعاً التى تعيث فى عودها وتدفع الدم فى رأسها وكأنه خمر . . ولم تكن ترى أمها وهى تخاطبها . بل كانت ترى نفسها أمام عجلة القيادة فى سيارة حمراء . . والجماهير تضحك فى وجهها . والشبان والبنات يعترضون سيرها و يطلبون توقيعها على «الأوتوجراف» .

وصارت سنية تتأخر عن موعد عودتها من المدرسة، فإنها تعرج على حديقة الأندلس لكى تقابل «كاميللو». الذى وعدها بالبحث عن فرصة.. وكان دائماً يقول لها: «كل آت قريب» ولكنها كانت مستعجلة، وبدأت تشك فى نياته، وفى أنه يكرر المقابلات لغرض فى نفسه.

ولكن «كاميلاو» كان مظلوماً.. كان كل يوم يتوسل للمخرجين ومساعديهم، ويتذلل لقاسم وجدى منظم الكومبارس، وكانوا دائماً يقولون له: : «حاضر».

وكان يضع كلمة «حاضر» فى باكو الشكلاتة الذى يقدمه لها.. وجاء وقت أصبحت فيه سنية تنظر إلى غلاف الشكلاته.. ولا ترى كلمة «كادبورى».. وتخال أن كلمات أخرى مكتوبة بدلا منها هى «كل آت قريب».

وذات مرّة وقالت له فجأة بعصبية: «إنك تضحك منى».

وقال لها بتعاظم الفنان: «اسمعى.. ليس بى ضعف للنساء.. إن لى ضعفاً آخر هو أن أسكر طينة.. ومن أجل ذلك أصلى كثيراً لأنى فى حاجة متجددة إلى الغفران.. وضعفى الثانى هو ميلى إلى اكتشاف النجوم.

وصدقته.. وتذكرت أنه لم يحاول أن يلمس يدها، ولا أن يقوم بالمناورات التى عهدتها من «محسن».

* * *

نعم لم يكن كاذباً. وآية ذلك أنها جالسة الآن على الدكة الخشبية

خارج البوفيه ، تقضم سندوتش الحلاوة الطحينية ، وتزدرده بمساعدة جرعات من شاى ثقيل تفوح منه رائحة النعناع ، وتنتظر ، مبهورة الأنفاس ، إنطفاء النور الأحمر المعلق على واجهة « البلاتوه ».

وفى الساعة الواحدة صباحاً وقفت أمام الكاميرا . . وكان كل المطلوب منها أن تبكى وهى تتحول عن شباك البريد بعد أن سألت عن رسالة لن تأتى أبداً .

وقد بكت بسهولة .. ولم يكن السبب أنها قدرت قسوة الموقف كما شرحه لها المخرج ، فإن الذى حدث أنها تذكرت « محسن » فجأة وتمنت لو لم يكونا متخاصمين ، ودعا ذلك الدموع إلى عينيها . .

ولكن المخرج صاح وهو يضرب كفاً بكف : « هذه فتاة تفهمنى يا « كاميللو » . . يا مكتشف النجوم . . مر على غداً صباحاً ، ومعك فتاتك . لتمضى عقداً » .

وفى طريق العودة أخذ المكتشف ، فى زهو المنتصر ، يسدى لها النصح :
« لا أدرى هل أفرح لك أم أبكى عليك . إنك دخلت رسمياً الغابة . . السينما مملوءة ذئاباً وحيات . إن بعض المنتجين سيحاول أن يقيس نسب جسمك وأنت بالمايوه . . وبعض الصديقات الحميمات سيدعونك لتناول العشاء ولن يخطر فى بالك أنه كمين . . وأنك ستكونين طبق المائدة المفضل . . يجب أن تسأليني قبل كل خطوة . . » .

* * *

وعند باب البيت قبلها فوق جبينها وكأنه يباركها . واضطرب وهو

يقول لها : « أنا عنيف كالأسد وأنت هشة كالبسكويتة . . إذا حاول أحد أن يؤذيك فأبلغيني . . وأنا أفترسه » .

وكرهت أن تجفل من قبلته .. إن فضله عليها جديد جداً . . وشكرت الله أن « محسن » لا يستيقظ إلى الثانية صباحاً وإلا ظن بها الظنون .

ولكن لم هي زاهدة الليلة في النيل منه . . ألم تكن تذهب إلى الحديقة وتعود وعلى صدرها وردة ، وفي شعرها فل ، لكي تثير غيظه وهواجسه . . وتعذبه بالإهمال كما يعذبها . !

وصعدت السلم . . وعندما صارت أمام بابه رفعت يدها وهمت أن تطرقه وتقول له : «استيقظ أيها النائم . . في وسعي أن أكذب عليك كما كذبت على أمي ، وأن أقول لك إني كنت في زفاف سميرة صاحبتي . . ولكني سأقول لك أنت الحقيقة ، لأنك حبيبي .. سأعترف لك بما حدث.. وإذا رفضت أن أصبح ممثلة فسأطيعك . . إذا ضربتني لأني ذهبت إلى الأستوديو من غير أن أستأذنك فلن أبكي . . قلبي مملوء خوفاً من الغابة التي حدثني عنها " كاميللو" . آه لو ضممتني إلى صدرك . . لو قبلتني لذهب خوفي » .

ذلك ما تمنته . . ولكن يدها تخاذلت . وآثرت أن ترجئ ذلك إلى الصباح .

ونسيت أن عليها أن تبكر إلى المدرسة في الصباح . . وأن أمها تلاحقها بالدعاء ، وتلحظها بحنان ، وهي تهبط السلم .

وفي الساعة الخامسة عادت من المدرسة وهي مصممة أن تدق باب

« محسن » ولكنه لم يجب . .

وعندما وصلت إلى شقتها قالت لها أمها وهى تبتسم : « تبطرت ياسنية على وكيل النيابة . . حمل حاجاته وأخلى الشقة . وأعطانى المفتاح لكى أسلمه للمالك » . . . وجلست سنية قبل أن تترنح وتسقط .

وأضافت الأم وهى تواصل الابتسام : « لم يذهب كل الأمل . . قال لى إنه سيعود ويزورنا » .

* * *

وهمت سنية أن تصرخ : « لا يا أماه . . إنه لن يأتى . . لا بد أنه رآنى و"كاميللو" يقبلنى . . وأن هذا سبب ذهابه » ، ولكن لسانها ثقل .

ومضت الأيام ، بلا جديد . . وكانت سنية تغافل أمها وتأخذ مفتاح الشقة الخالية ، وتغلق الباب على نفسها . . وتبكى فى وحدتها . . وتفحص بعينيها الدامعتين الجدران البيضاء . . لعله ترك لها كلمة بقلم الرصاص . . ليتها تجد كلمة يعنيها بها ولو كانت سباً واتهاماً . . لكن حتى هذا لم تظفر به .

ولم تظفر بالعثور عليه عند أبواب الجامعة . . وعندما وجدت الشجاعة لتسأل عنه معاون الكلية قال لها إنه انقطع عن الدراسة .

وزادها هذا كمداً ، ويقينا أنه رأى عودتها فى الثانية صباحاً مع رجل وأن هذا صدمه . . وحطمه . . وقضى عليه .

* * *

ومضت السنون والأمل فى أن يعود لا يبرح قلبها . . سبع سنين . . إنها تجلس الليلة على الدكة الخشبية ، خارج بوفيه الأستوديو ، من قبيل التواضع . .

فإنها غير الفتاة التى جلست ذات ليلة من ليالى يناير تقضم السندوتش . . وترتجف من البرد . . ومن الرهبة .

إنها الآن ممثلة كبيرة . . ونبوءة « كاميللو » لما تحققت .

لقد أحبت « الكاميرا » وجهها الحزين . . والمتفرجون راقتهم دموعها . . واشتهرت بالدموع . . كأن فى عينيها نبعاً لا يجف . . يكفى أن تتذكر « محسن » ، كما فعلت فى المرة الأولى . . ثم تبكى .

وكانت تبكى بأمل . . بأمل أن يرى هو هذه الدموع . . ويفهم . . ولكنه ظل المتفرج الوحيد الذى لا يستجيب .

* * *

والرجال فيهم هواة السيارات ، وفيهم هواة الخيل . . وفيهم هواة الممثلات المشهورات . . وقد كان لسنية من هؤلاء طابور يحرق البخور . . ويقدم ليلاً ونهاراً فروض الطاعة والولاء . . وكان فيهم فتيان يبكون فى التليفون من لوعة الحب . . ويركعون فى « الصالون » التماساً لقبلة صغيرة على القدم . . ولكن سنية ظلت زاهدة فيهم جميعاً ، وتمنت لو يظهر « محسن » فى حياتها فجأة ، ويعود بها من الزمالك إلى حارة الباشا فى السيدة . . إنها ليست فى حاجة للذين يطيعون إذا أمرت . . ويمرضون إذا عطست . . ويصفقون إذا قالت نكتة سخيفة . . إنها فى حاجة إليه هو . . الذى صفعها لأنها قصت شعرها من غير أن تستأذنه .

ولعل أملها فى أن تسترده يوماً هو الذى شجعها على أن تظل شريفة .

ولكن « كاميللو » كان يظن أنه صاحب الفضل . . وأنها مدينة باستقامتها لنصائحه . . وكان ذلك يطربه .

وكان يطربه أكثر أنها لا تتعالى وتستكبر . . ولم تأنف يوماً أن تتأبط ذراعه على ملأ من الناس .

وطالما حاولت وهى تتأبط ذراعه أن تقنعه بالإقلاع عن السكر . . ولكنها لم تنجح . . وظل يصلى كل صباح استغفاراً من ذنب الليل . . وبقيت « توبته » كلمة مسجلة على أسطوانة مملوءة خدوشاً ، تدور بلا تفكير ووجهها إلى السماء .

وعندما عرفت سنية مرة أن اليوم عيد ميلاده ، أرسلت إليه صندوقاً من الكونياك الجيد . . وجرب « كاميللو » زجاجة وزجاجة . . ثم فوجئت به فى بيتها يعيد لها البقية قائلا : « لا ياستى . . إن « الطفية » هى التى تجعل رأسى يدور . . أما هذا فماء معبأ فى زجاجات ، إذا شربته لم أعد فى حاجة إلى الاستغفار والصلاة . . أنت تبعدينى عن الله » .

قالت له سنية : « فماذا تريد أن أهديك . . إنك لم تطلب منى شيئاً أبداً . . أريد يا "كاميللو" أن أعبر لك عن اعترافى بفضلك » .

وأجابها : « إذا كنت جادة فإن الهدية التى أريدها منك . . تربة أريد قبراً أنام فيه مستريحاً بعد عمر قصير » .

وقالت له سنية : « أعوذ بالله . . إنى مستعدة أن أبنى لك بيتاً صغيراً .

وقاطعها فى عصبية : « يا ستى البيت يتخانق عليه الورثة . . لا أريد

أن أترك ورائى خلافات . . أما التربة فلن يطالب أحد بنصيبه فيها إلا فى زهد شديد » .

وحققت له سنية أمنيته . . وانتقلت نزهاته من الأندلس إلى القرافة . .

وهناك صار يمضى عطلة الأسبوع ، يعتنى باللبلابة ويسقى الصبار . . وكان يصيح فى وسط الأستوديو : « اقبلوا عزومتى . . وتعالوا تفرجوا على هدية عيد ميلادى ! ، وشاهدوا المكان الذى سأحتمى فيه منكم ! ومن فنكم . . فن إيه . . سيمتكم زفت فى زفت . . وتلبيخ فى تلبيخ . . وقطران فى قطران » .

* * *

ولم يقبل أحد من أصحابه فى الأستديو دعوته . . قبلتها فقط والدة سنية . . ماتت فجأة . وحارت ابنتها أين توسدها الثرى وليس لأسرتها مدفن. ولكن « كاميللو »تقدم بشهامة لإنقاذ الموقف ، وصار مضيفاً لأول مرة فى حياته .

* * *

وصارت سنية وحيدة جداً. بعد موت أمها . . إن المعزين من حولها كانوا كثيرين . . ولكن مواساتهم الجوفاء كانت تزيدها وحشة وكآبة .

* * *

وذات مساء ، وهى داخل « البلاتوه » استدعيت لتتكلم فى التليفون . وصرخت والسماعة فى أذنها : « أنت..أنت يا "محسن" . . أنت أخيراً

بعد كل هذه السنين . . لا تتكلم ولا تشرح . . ليس الآن وقت التفاصيل . . أريد أن أسمعها منك وأنا أنظر إليك . . بعد ساعة . . ساعة واحدة . . سأكون فى البيت فى انتظارك » .

وعادت الممثلة الكبيرة إلى « البلاتوه » وقالت للمخرج إنها تعبانة . . وإن رأسها يلف . . وانصرفت فى الحال .

* * *

وأمام عجلة القيادة فى سيارتها الحمراء وثب الماضى كله إلى قلبها ، وأخذت سيارتها تنهب طريق الذكريات .

فى أول عهدها بالتمثيل وهى ما تزال تحبو فى « البلاتوه » كان « كاميللو » يميل على أذنها هامسا : « ألم تفرطى فى شىء ؟ . . » . وكانت تعرف أنه يقصد ذئاب الغابة . . وكانت تهز رأسها سلباً تبتسم !

ويعود إلى الهمس وكأنه يريد أن يستوثق : « كله تمام ؟ »

وتجيبه وابتسامتها تتسع : « تمام يا كاميللو . . اطمئن » .

وصارت كلمة « تمام » شفرة يفهمانها وحدهما .

وبعد أن تألقت ، وصارت كوكباً ، لم يكن يتورع أن يصيح بها بصوته الأجش كلما رآها فى الأستوديو : « كله تمام » ؟ . .

وتجيب وهى تضحك : « تمام يا كاميللو » .

* * *

والآن . . والحبيب يعود . . ما أجمل كلمة كاميللو « كله تمام »

هذه هى مكافأة صبرها الطويل . .

وبرغم أنها كانت حزينة ، وثوبها أسود حداداً على أمها وقفت أمام المرآة وعنيت بوجهها .. وأخذت تدقق النظر إلى الخصر الذى طوقه « محسن » يوماً بساعده . . وإلى الفم الذى تحس حتى اليوم بطعم قبلته عليه .

وتحت « أباجورة » واهنة الضوء أعدت مائدة . . وطعاماً خفيفاً . . وكأسين . . لا بد أن تشعره أن البيت بيته . وكانت وهى تفعل هذا فى لهفة وحماسة تبحث عن جواب عشرات من الأسئلة . . ماذا ذكره بها فجأة ؟ . . هل عجز عن المزيد من المقاومة ؟ هل استطاع أن ينسى أخيراً أنه رأى رجلا يقبلها قرب باب البيت . . فى الثانية صباحاً . . هل يطلب إليها أن تهجر التمثيل ؟ . . ما أسعدها بذلك إن كان يسعده ! . .

وقطع عليها سيل الأسئلة أن جرس الباب يدق . . وذهبت لتفتح . . فقد صرفت الخدم . . تأهباً للإغماء بين ذراعيه .

ولكنه لم يكن وحده . . كان معه طفل فى السابعة من عمره .

وقال لها وهو يسلم عليها بيد سمينة ينز منها العرق : « بسطويسى ابنى . . سميته باسم جده » .

ونظرت سنية إلى منجب البسطويسى ، ونظرت إليه كثيراً . . إنه ليس حبيبها أبداً . . كله أصبح سميناً وليست يده فقط . . حتى الكلمات وهى تخرج من شدقيه كانت سمينة وهو يقول لها : « لم أعرف إلا أمس

أنك صرت ممثلة . . فليس عندنا فى فرشوط "سينمات" . . ومدة خدمتى كلها أمضيتها فى فرشوط . . أنا مفتش التموين هناك . . والوقت كله يضيع فى صرف بطاقات السكر والزيت والدقيق » .

ثم أضاف وهو يضحك : « هل تعملين أنى مثلت وأنا طالب فى الحقوق . . مثلت عليك . . وعلى فتاة فى شبرا . . وثالثة فى السكاكينى . . كنت أخاصم إحداهن لكى أتفرغ للأخرى وهكذا بالدور . . شقاوة . . شقاوة دفعت ثمنها . . أرملة تكبرنى كان عندها قرشين فى صندوق التوفير أقنعتنى بأن أترك الكلية وأتزوجها وأتوظف . . وكان ما كان . . وخلفت منها البسطويسى . . وبنتين أيضاً فى البيت » .

وقالت له سنية وذهنها شارد ، وكأنها تتفرج على بروفة لقطة « سينمائية » قبل ابتداء التصوير : « ربنا يخلى يا محسن » .

وقال وهو يجلس على حرف الكرسى متأدباً : « إننى جئت إليك لكى تتوسطى لى فى النقل إلى القاهرة . . » .

وقالت سنية : « حاضر » .

وطول طريقه من مقعده إلى الباب لم يتكلم عن شىء غير النقل من فرشوط إلى القاهرة . . حتى أمها لم يسأل عنها . . ولم يلفته ثوبها الأسود .

وعندما أقفلت الباب وعادت كانت خطواتها ثقيلة . . وأخذت تفكر فى سآمة . . ماذا تصنع بليلتها ؟! . . .

وفى تلك اللحظة رن جرس التليفون . . إنه الفتى الأول الذى يمثل

أمامها فى الفيلم الجديد . . لقد كان يهمس فى أذنها منذ ساعتين فى الأستوديو : « متى تسمحين لى بتقبيل قدمك . »

وهاهو ذا يواصل الهمس .

وقالت له بلا تفكير « تعال . . . »

* * *

وعندما رأى البطل المائدة الصغيرة تحت النور الناعم . . والطعام الخفيف .. والكأسين .. فرك يديه بسرور .. ومضت نظرته المختلسة تقيس المسافة بين المائدة والمخدع ، خلال الباب الموارب .

ولم تخف على سنية نظرته المختلسة . . ولم تكرهها .

* * *

وعندما لقيها « كاميللو » مصادفة فى الأستوديو فى الصباح صاح بها « كله تمام ؟ . . . »

وقالت بفتور وانكسار . « تمام يا "كاميللو" » . . ونكست رأسها . . فقد كانت كاذبة .

# يدٌ على الزناد !



ماكدت أصل إلى بيتها عقب استغاثتها التليفونية حتى ابتدرتني قائلة : « أنا امرأة شقية عاثرة الحظ ، وآية شقائي أني تزوجته ، وربطت حياتي بحياته . . . ولو كان الأمر اقتصر على الزواج لا ستطعت أن أحتمل ، فكم من النساء يؤاكلن الرجال على مائدة واحدة ، ويقاسمنهم الفراش ، ويحتملن في سبيلهم آلام الوضع ، ومع ذلك يضمرن لهم الا حتقار . ولكن مصيبتي أنني أحببته وتصور شقائي إذ أحب ذئباً ماكراً ، قاسي القلب ولا أطيق له بعاداً » .

وخنقتها العبرات ، فكفت عن الكلام ريثما تجفف دمعها بمنديل لا أدري من فرط رقته أهو من الحرير ، أم هو قطعة من التنهد ، خرجت من صدرها الرقيق وتجمدت في نسيم المساء البارد .

وانتهزت فرصة اشتباك منديلها بأهدابها ، وابتسمت الابتسامة التي كنت أكظمها احتراماً لألمها وتعاستها ، فإن الذئب الذي تشكوه كان صديقي ، وكنت أعهده حملا وديعاً يعيش في مرعى الزواج منذ شهرين ، ويطعم ، ناعم البال ، عشب الحب .

وسألتها وهي تبعد قطعة التنهد المتجمدة ، عن عينين جميلتين

كدرهما البكاء : « ماذا فعل الذئب ياسيدتى ؟ » قالت ، « إنه خائن . . يخوننى مع أخرى » .

ـ متأكدة أنت ؟

ـ تأكدى من أنى أراك أمامى . . إن رقم تليفونها مقيد فى مفكرته .

ـ إن أى زوج مهما بلغ به حب المخاطرة لا يجرؤ أن يضع فى مفكرته رقم تليفون ناعم . .

ـ نسيت أنه ذئب ماكر . . لقد رفع صمام القنبلة ، ذكر رقم التليفون وإلى جواره حرفان فقط هما س . م. وما أحسبك تزعم أن الرجال يرمزون إلى أسماء الرجال بهذه الطريقة .

ـ معك حق . . وبعد ذلك واجهته بالتهمة ؟

ـ تظننى بلهاء . . أواجهه بالتهمة لكى يأخذ حذره ويخفى معالم الجريمة . . ويهرب من انتقامى .

ـ وإذن فقد رسمت للانتقام خطة ؟

ـ بدأت بحرب الأعصاب . . إننى دائماً أطالبه بأن يذكر لى اسما جميلا لسيدة يبدأ بحرف س . . وأكرر هذا على الطعام ، وقبل النوم ، وعندما يفتح عينيه فى الصباح . . وتصور الدهاء ، إنه يبتسم ابتسامة لا لون لها ولا طعم ولا رائحة وهو يسألنى بلا اكتراث ماذا أقصد بهذا السؤال الذى أسقيه له فى ساعات منتظمة وكأنه الدواء .

ـ يا له من دواء مر المذاق .

ـ بدأت غريمتى تتجرعه أيضاً . . أدرت النمرة التى ضبطتها فى

المفكرة ، وأجابنى صوت رقيق أدركت أن رقته من الأسباب التى جذبت زوجى . . ومضيت أستدرجها وأسألها منذ متى بدأت علاقتها بحبيب القلب ، فشتمتنى وأقفلت التليفون فى وجهى .

— طبعاً . . . إن من تسرق الأزواج لا تتورع عن السباب .

— وللسباب عقاب .. قلت لنفسى ربما يكون لهذا البيت رجل .. وجعلت أدير قرص التليفون مرات فى اليوم حتى أجابنى صوت خشن ، وبعد حوار قصير أدركت أنه الزوج ، وصارحته أن زوجته تخونه وسأل فى لهفة : « مع من ؟ . . »

ووجدت نفسى أذكر له اسم زوجى وعنوان مكتبه ، وصارحته أن الدليل الحاسم موجود فى مفكرته التى يحملها فى جيبه .رقم التليفون المشئوم.

وانفجرت باكية ، وعاد المنديل الصغير إلى الاشتباك بأهدابها وهى تقول : « هذا هو السبب فى أنى استدعيتك ، أخاف أن يقتلوه . . إنه ذئب شرير ، ولكنى أخاف أن يقتلوه » .

وبينما هى تكفكف دمعها بتلك السحابة الناعمة من التنهد التى تجمدت فى الهواء فوجئنا بالذئب قادماً بادى الإعياء ورأسه مغلف بالقطن والشاش ، وقال وهو يتهالك فى مقعده ، يرقب شحوب زوجته : « أولى بك أن تبتهجى فإنك كنت على وشك أن تصبحى أرملة على يدى مجنون كاد يودى بحياتى . . » .

وسألته عن جلية الأمر فأجاب ، وشبح الرعب يدب فى عينيه : « صرفت المساعدين وبقيت وحدى فى المكتب لدراسة بعض القضايا

كما أفعل أحياناً، ودق جرس الباب الخارجي فذهبت وفتحته .. وإذا فوهة مسدس مصوبة إلى صدري. . وقدّرت أني أمام لص فاجر، وأخرجت في الحال حافظة نقودي أفدى بها حياتي . . ولكن الرجل الضخم ألقى الحافظة في وجهي ، وطلب مفكرتي وهو يدفعني إلى الداخل بلا هوادة . . وأمرني أن ألصق وجهي بالحائط رافعاً ذراعي ، وجلس يقلب أوراق المفكرة بأصابع محمومة ، ثم صاح فجأة كالنمر الضاري قائلا : "ثبتت عليك الجريمة"، فأدرت عنقي وسألته في أدب بالغ عن أي جريمة يتحدث ، فاندفع يطبع أنفي في الحائط وهو يزمجر حانقاً : " هذه نمرة تليفوني التي كنت تتحدث فيها إلى زوجتي مدونة في مفكرتك " .

وألهمني حب الحياة أن أصيح وهو موشك أن يضغط على الزناد : حذار .. إنها رقم ورقة يانصيب لا نمرة تليفون .. ألست ترى إلى جوارها حرفي س . م ، إنني أعني بهما . سباق المواساة . . وقد قيدت الرقم عندي لأن الورقة نفسها في حيازة صديق شاركني فيها .

وتطاير الشرر من عينيه ، وصرخ وهو يضرب رأسي بمؤخرة المسدس إنها أكذوبة أحتال بها على النجاة . . فشكرت له تلطفه أنه ضربني وأسال دمي بمؤخرة المسدس لافوهته ، وعمدت إلى التليفون ، وخاطبت الصديق الذي يحتفظ بالورقة ، والدم يسيل من رأسي ، متوسلا إليه أن يوافيني بها حالا . وإذا هو ينبئني أنه مزقها منذ ساعتين وهو جالس في بار الأنجلو ، بعد أن راجع السحب وعرف أنها خاسرة .

عند ذلك ضحك المجنون ضحكة صفراء وقال لي ، بلهجة من صح

عزمه على أمر : « اعترف بكل شيء قبل أن أزهق روحك . . وقل الحقيقة ولا تلق ربك بوجه أسود » : « هل سرت معها إلى آخر الشوط » .

وانطلقت ، من حلاوة الروح ، أقسم بأغلظ الأيمان أنى برئ ، وسمح لى بعد لأى أن أعصب بمنديلي جرح رأسى ، ورضى أن يحقق دفاعى ويصحبنى إلى بار الأنجلو لكى نبحث فى القمامة عن الورقة الممزقة ، وأنذرنى أن يده ، وهو إلى جوارى ستكون طول الوقت على الزناد ، وأنه سيطلق النار فوراً إذا حدثتنى النفس بالا ستغاثة ، أو الهرب . .

* * *

وبعد بحث ، محفوف بالخطر ، تحت مقاعد رصيف بار الأنجلو وجدت الورقة الممزقة ووجدت حياتى .

واستأذنت المجنون فى أن أذهب إلى طبيب لأضمد جرحى .

وسألت صاحبى المسكين ، وأنا أبتلع ابتسامة تريد أن تنزلق إلى شفتى : « ألم تستوضحه كيف اتفق له أن يعرف أن مفكرتك تحوى رقم تليفونه . » ؟

فأجاب : « هل تظن أن من الحكمة توجيه الأسئلة إلى مجنون يده على الزناد » ؟

قلت ونا أنظر إلى دموع التوسل فى عينى الزوجة : « على كل حال أن تقع بين يدى مجنون أسلم عقبى من أن تقع بين براثن مجنونة » .

وأجابت ، والتوسل ينتقل من عينها إلى ابتسامتها : « هذا حق . . وخاصة إذا كان جنونها . . مبعثه الحب . »

# دموع .. في عيونٍ ضاحكة !



أيها الأستاذ العزيز

غاظنى منك أنك لم تتنبه إلى قدومى وأنا أدخل بار شبرد ، فقد كنت أحسب أن لك أذناً موسيقية تلتقط حفيف ثوبى الناعم . . ولو أن بك صمماً فكيف لم تنفذ رائحة عطرى الجذاب إلى أنفك . . ولو أنك مزكوم ، فما عذر عينيك ووجهى الجميل ينطبع على المرآة أمامك ؟! . .

ولكن غيظى ذهب عندما رأيتك تحدق فى كأسك . . قرأت فى ملامحك أنك لست موجوداً حيث تجلس . وأن بينك وبين نفسك عدة أميال ، وسألت فراستى عن سرك الحزين : هل أنت مدين تدق فى قلبه أجراس الإفلاس ؟ ! . . أم أنك عاشق طرده الحب من جنته ، ورحمته؟ أم قاتل نسى إلى جوار ضحيته بصمات أصابعه ، وبطاقته ! . .

وأردت أن أقطع الشك باليقين فوضعت يدى الحلوة — هكذا يقول عنها المعجبون — على كتفك . . وطلبت إليك ، فى حنان يذيب الصخر — وأنا ممثلة كبيرة كل العواطف طوع بنانها — أن تحكى لى عن همك الدفين . . وشد ما خاب ظنى عندما قلت لى أن سر كمدك أنك تبحث عبثاً عن موضوع قصة ، وأنك تحس أن رأسك

شبكة واسعة الثقوب لا تمسك شيئاً .

ولكنى حمدت الله أنك لست عاشقاً ، ولا مفلساً ، ولا قاتلا . . ويالك من مسكين ، فكيف تكون الكلمات عزيزة المنال .. إنني إذن أقوى منك أيها الرجل ، لقد حصلت مرة على شيك بخمسة آلاف جنيه من مقاول قطاع خاص ، على سبيل الاعتذار عن ظنه ، بأنى قطاع عام . ومرة طلبت من رجل متزن يعلم الفلسفة أن يستغنى عنى أو عن زوجة عاشرته عشرين سنة ، وأعطيته مهملة من الصباح إلى المساء ، فجاءنى فى الضحى وفى يمينه قسيمة الطلاق . . وأنت ! . . تعصاك الألفاظ ، ويركبك الهم ، من أجل قصة ! . .

وعدت إلى بيتى وما تزال فى عينى ملامحك الحزينة . ولا شك أننى ثملة ، فإننى أنظر إليك بحنان حقيقى . . وأشفاقى عليك يزداد فى كل دقيقة ، فإن هذه الكلمات التى أكتبها إليك أخذت منى حتى الآن ساعتين كاملتين . لقد بدأت أدرك أن الكتابة صعبة . . ولكن يجب أن أستمر . وأن أستغل ، مرة فى العمر ، مكتبى المصنوع من الأبنوس والصدف ، الذى أهداه لى أمير شرقى ، لكى أرسل منه ، على الورق ، آهات الغزل فى لحيته المدببة كلما غاب عن القاهرة . . على فكرة أنا لم أخلف وعدى له . . هو الذى أخل بالاتفاق ، ومات من ضربة الشمس ذات موسم من مواسم الحج .

أظنك بدأت تدرك أنى أحاول أن أساعدك وأسعفك بقصة ، ودعنى أعاتبك ، فإن القصة كانت إلى جوارك فى بار شبرد ، فى ثوبها الفاتن

وعطرها المسكر ، وحدقت فيك بعينيها الساحرتين ، وأشعلت لها سيجارتها . ولكنك لم تأبه بها .. كنت فى نظرك قصة قديمة معادة .. ممثلة اغراء مخلوقة تافهة لفتها الشاشة الفضية فى غلاف براق .. لها روح داخل جسمها الخلاب ولكن أى روح .. إنها أشبه بالخمر الرخيصة الرديئة فى كأس من الذهب .

ولكن ليتك تدرك أن كل روح لها قيمتها .. وأن لها نفعاً ، فإن البنات الطيبات ينظرن إلينا ، ويتقربن إلى الله على حسابنا ، ويحمدنه أنهن لسن مثلنا .

أعرف هذا الشعور ، فقد كنت يوماً بنتاً طيبة طاهرة .. وكنت أنظر باشمئزاز إلى اللاتى ينحرف بهن السبيل . وإنى لأرانى وأنا فى الثامنة عشرة فى طريقى إلى مدرسة الراهبات ، لا أكاد أرفع عينى من الأرض حياء وخفراً ، وشعرى الأسود ينسدل على أفكارى البيضاء ، ويتدثر بقلنسوة زرقاء تخفيه عن العيون ، وتحت ذراعى حقيبة كتبى ، حبيبتى التى احتضنها دون أن ينظر إليه أحد شزراً . فقد كان جمالى الذى لم يكن لى فيه ذنب يخلق حولى جواً من الريبة .. الراهبات فى الفصل يحذرننا من الشيطان وعبثه بالقلوب وهن ينظرن إلى بالغات الشفقة ، وكأنه ليس فى الفصل سواى .. وينهرننى إذا رأيننى فى الفناء أتأبط ذراع صديقة ، هامسات فى هلع تشوبه الرقة إن هذا خطيئة ! ..

وأبى يسألنى عندما أعود إلى البيت ، وعينه الفاحصة تطوينى وتنشرنى : هل قطعت الطريق بسلام .. وهل كنت أمشى كالسيف ..

أم أني تلكأت ، وينظر إلى ساعته يحصى على الثوانى .. وكان بين المدرسة والبيت سير عشر دقائق ؛ فكنت أسأل نفسى ماذا أستطيعه من شر فى هذه الدقائق العشر . . وانتابنى ضرب من الخوف من الناس، ومن نفسى .

* * *

وكان بيتنا خالياً من البهجة .. فلم تكن فيه سيدة منذ ماتت أمى وأنا طفلة فى الثامنة .. وتولت شئونى مربية عجوز من الجنوب . . ولم يشأ أبى أن يضعنى فى القسم الداخلى، قد يكون ذلك إمعاناً منه فى العطف على يتمى، أو لأننى كنت أخفف عنه ما يقاسيه من وحشة .. لعله لم يتزوج مرة أخرى من أجلى . . ولعله لم يفعل لأنه لم يسعد فى زواجه الأول ، فإن صوراً من الشجار العنيف بينهما ما تزال مطبوعة فى نفسى ، وما أزال أذكر دموعى وأنا أراهما يتشاتمان ويتخاصمان أياماً طويلة . .

وهل أقلع عن الشجار بعد موت أمى . . إن الخدم ، وحتى مربيتى لاتنجو من شتائمه . . وتسرّ إلىّ ، حين تأمن أنه لايسمعنا ، أنها ماتت من انكسار القلب .

ولم يقصر طبعه النكد على الخدم فقط ، بل تعداهم إلى خاصة الأقارب ، وكان يتفنن فى إسماعهم مالايحبون ، ويغلظ لهم فى المعاملة حتى لايعودوا ، فلما أصبحت شابة كنت قد نسيت وجوههم .

وكان لنا جيران لايعرفون باب بيتنا ، فإنه لم يكن يجامل أحداً فى

فرح أو حزن أو مرض . وكم حزّ فى نفسى أن أرى أحدهم ، وأنا مطلة من النافذة ، يشير إلى أبى وهو يمشى فى الطريق قائلا لصاحبه : « الغول ».

فإذا عرفت أنه كان يحظر على أن أرى صواحبى ، أو أن أزورهن ، أدركت ما هى الوحشة التى كانت تغلف حياتى .

وكان البيت يتوسط حديقة شاهقة الأسوار . وبعد ساعات المدرسة كنت أعود إليها كأنما أعود إلى السجن ، وأمشى بين أشجارها كاليمامة التائهة .

ثم يبسط عليها المساء جناحه القاتم ، ويستسلم الورق الأخضر للكآبة ، فأظل أواسيه وهو يغرق رويداً رويداً فى لجة الظلام . . ثم أنسحب إلى البيت العتيق .. وتأمرنى رائحة السيجار التى تستقبلنى أن أنعطف إلى اليمين وأدخل على أبى فى حجرة المكتبة ، حيث أقبع وكتابى فى حجرى ، أنتظر الساعة التى يعن له فيها أن يقوم لتناول العشاء .

وقد يضحك أبى ونحن فى جلستنا تلك . . ولكن ليس معى . . إن ضحكته القصيرة الخشنة تكون للسطور التى يطالعها .. ولكن ما أقل أن يكون هكذا لين العريكة .. الأغلب أن يشتم ، ويلقى الكتاب فى عنف وسخط ، وكأنه يود أن يضرب المؤلف .

وعلى العشاء يستمر فى سبابه للمؤلفين ، ويسميهم لصوص الوقت ، ويظهر أسفه لأنه لم يتمكن من حبس مؤلف فى جنحة أو جناية فى أثناء عمله فى البوليس .



نسيت أن أقول لك إنه كان من رجال الأمن ، وقد تقلب فى عدة مناصب فى وزارة الداخلية . ثم كلف بالاستقالة قبل أن يبلغ الخمسين ، بعد أن أحاطت به شبهة استعمال القسوة مع المتهمين فى قضية مشهورة ولم يؤذه ذلك ماديا ، فقد كانت له أرض جيدة موروثة تدر عليه مالا وفيراً . . ولكن الضرر الذى لحقه كان روحيا ، فقد وجد نفسه فجأة مجرداً من السلطة ، محروماً من النشاط الذى كان يستغرقه من الصباح الباكر إلى الليل المتأخر . . ولزم البيت يمارس فى خدمه ، وفىّ أنا ابنته الوحيدة شهوة الأمر والنهى ، ويسترخى ساعات فى المكتبة ، يعض بأسنانه على سيجاره ويتحرش بالكتب والمؤلفين .

* * *

وبعد العشاء يخرج إلى رياضته المحببة ، السير على الأقدام حتّى منتصف الليل . . فما يكاد يصفق وراءه باب الحديقة ، حتّى تأوى مربيتى العجوز إلى فراشها ، وتظل خادمتى « نظاكة » معى فى غرفة المكتبة ، ريثما أفرغ من مراجعة دروسى .

وكانت « نظاكة » شابة صغيرة فى مثل عمرى ، تربت فى البيت منذ نعومة أظفارها . . وكانت سمراء رشيقة ، خفيفة الظل ، فى خديها غمازتان مفعمتان دائماً بالابتسام ، وعيناها لا تكفان أبداً عن الضحك . .

وما تكاد « نظاكة » تثق أن « الغول » قد ابتعد عن البيت حتّى تقفل لى كتابى ، وتفض غلاف قلبها عن حكاياتها . . الحلوة ، فإن خروجها إلى السوق يتيح لها أن تعرف مالا أعرف . . وعندها نبأ كل

غرام يولد فى الحى . . وأنها لتروى لى بأسلوب شائق ، مغامرات الفتيات فى البيوت المجاورة ، وكيف يمشين متكئات على الصدور القوية الشابة ، وكيف تختلس القبلات الرقيقة فى الظلام ، فى مداخل البيوت ، عند العودة من النزهات الحارة الحالمة .

ما كان أحلى حديث الحب من شفتى « نظاكة » . . كنت أصغى إلى كلامها المرتجف المهموس ودمى يترنح فى عروقى ويخدرنى ، فأخرج إلى الحديقة كى ألتقط أنفاسى ، وأجوس خلالها وذراعى مشبوكة بذراعها ، نقشعر من الظلام ، ونستسيغه ؛ لأنه يزيدنا قرباً والتصاقاً . . كانت مثلى محرومة من الحب . وقد محا الحرمان ما بيننا من فوارق ، وعقد بيننا صداقة وثيقة . .

وجاءت ليلة اكتشفنا فيها أن كلتينا تعبد الأخرى . كان نور القمر يغمر الحديقة ، وارتميت على العشب ، وألقيت رأسى على ركبة « نظاكة » وأخذت أسمعها ما أحفظ من أشعار تتحدث عن عذابات الحب ، وقد صور لى الوهم أنى أرنو إلى عينى عاشق مفتون . .

وفوجئت بنظاكة تهوى على شفتى وتقتطع منهما قبلة نهمة ، وفوجئت بنفسى أضمها إلى صدرى بكل قواى ، وأتلاشى فى غيبوبة غريبة .

ومنذ تلك الليلة المقمرة لم يعد لى عن « نظاكة » غنى . . وكنا نتواعد كما يتواعد العشاق . . أتسلل من حجرة نومى ، ومن حراسة مربيتى ، بعد منتصف الليل ، وبعد أن يكون أبى قد أوى إلى فراشه فأوافى صاحبتى فى الحديقة . . نتناجى ، ونقاسى ما يقاسيه عبيد العاطفة

من صد وهجران . . فقد كان فى وسع « نظاكة » أن تخلف موعدى لتؤلمنى . وكنت أجاوبها بالخصام ، لأمزق قلبها كما تمزق قلبى ! ..

وكنا نشترك فى الخوف العذب الناشئ من مخاطر المغامرة . . فما العمل لو تنبه البستانى الذى عودنا أن يغط فى غرفته فى آخر الحديقة . . وأين المفر لو كشف أبى أمرنا ! . .

وكان يركبنى من الفرض الأخير هم ثقيل .. إنه حرمنى ، خوفاً على خلقى أن يضار ، من السينما ، ومن الصواحب ، وكان يصادر كل مجلة تحوى صورة خليعة ..وإنى لأحتمل كل هذا الأذى على شرط ، أن تبقى لى « نظاكة » . ومجرد التصور أن أحرم منها كان يملأ عينى ، وقلبى ، بالدموع .

* * *

ولكنى حرمت منها .. كان ذلك على صورة لم أتوقعها ولا خطرت فى بالى .. وكان أبى قد خرج منذ نصف ساعة إلى نزهته الليلية . . وكان الطقس حارًّا ، والقمر غائباً ، والحديقة عمياء حالكة ، فارتمينا على العشب الندىّ نتبرد به ، وتوسدت نظاكه ذراعى وهى تحكى لى قصة حب عفيف رأتها فى السينما . . وإذا بنا نفاجأ بصرير باب الحديقة الحديدى ، فأدركنا ، فى لحظة بالغة الهول ، أنه للكلب « الولف » الذى يرافق أبى فى نزهاته ، وكنا نعرف طبعه ، إنه إذا اقترب من البيت سبق سيده إلى الباب ودفعه برأسه الضخم . . وإذن فإن أبى قد قطع نزهته ، وإن هى إلا لحظات ثم يصبح فى الحديقة ، فانتفضت واقفة ،

وهمست نظاكة وهى تدفعنى إلى الأمام : « اسرعى واصعدى إلى فراشك » . . ووجدت نفسى أجرى وأدخل البيت . . وبدأت أصعد السلم ولكنى وجدت ركبتى ترتعشان ولا تقويان على حملى ، فهبطت الدرجات القليلة التى صعدتها وجنحت إلى حجرة المكتبة .

ووقفت فى ظلامها أرتجف ، يبللنى العرق ويغربلنى الخوف . . . ووصل إلى سمعى صوت أبى الجاف على السلم الصاعد من الحديقة . . إنه يتحدث إلى نظاكة . . وإذن فقد رآها . .

واقترب الصوت ونظاكة تقول له : « أحسست ياسيدى بحركة فى تقفيصة الدجاج . . وخشيت أن يكون قد هاجمها ذئب وجئت أستوثق من الأمر » .

فأدركت أنه كان يستجوبها . . وسمعته يقول لها والصوت يزداد اقتراباً : « إنك إذن شجاعة ولا تهابين الذئاب » .

ووجدت نفسى أثب فى غمضة عين ، وأقبع وراء الكنبة الكبيرة ، فإن الصوت دخل المكتبة .

ومن مكمنى رأيته على البصيص الخافت القادم من البهو ، ويده اليمنى على كتف نظاكة تكاد تطوقها .

وسألته الفتاة بصوت يرتعش : « هل أضىء النور ياسيدى »؟

وأجابها فى حدة : « لا . . لا أريد النور »

وكان صوته هو أيضاً . . يرتعش . .

وكأن نظاكة أحست أن خطراً ما يتهددها ، فحاولت أن تبعد قبضته

عن كتفها وهى تنظر إلى الباب .. ففهم مغنى نظراتها وأسرع إلى الباب وأغلقه من الداخل .. وغرقت الحجرة فى الظلام . . ولاح لى فى وسط الحجرة شبح نظاكة وهى تنتفض وكأنها طير وقع فى الفخ . . وأقبل الشبح الآخر نحوها .. وهمس وقد تحول صوته الآمر إلى صوت خاضع يتوسل : « إنى أحبك منذ زمان . . وقد كنت أتجنبك وأهدئ بالسير الطويل كل ليلة ثائرتى . . ثم يرسلك إلى الشيطان فى هذه الليلة الملتهبة .. تعالى » .

وسمعتها تدفعه عن نفسها . . وتقول وهى تخر على قدميه :

« بربك يا سيدى » .

ولكن المقاومة أنهتها لطمة . . وأخذنى الإغماء . وأنا أسمع صوت قميصها يشق ويتمزق .

* * *

وأفقت على صوته الجاف وهو يأمرها بالانصراف إلى مخدعها . . وتلم التعسة ، فى صمت ، شعث شعرها ، وغلالتها ، وعرضها ، وتخرج خافضة الرأس دون أن تنبس بكلمة .

وخرج فى أثرها .

* * *

وفى الصباح جمعتنى بأبى مائدة الإفطار . . وكانت نظاكة تقوم على خدمتنا شاحبة خائرة القوى . . أما هو فلم يرفع عينيه عن جريدة الصباح ، وكان يمضغ طعامه بشهية ، وعلى مهل ، وكأن لم يحدث شئ ! .

وبعد خروجه سألتني بقلق : « هل رأيت أباك ليلة الأمس عند دخوله البيت» ؟

فأدركت أنها تريد أن تخفى الأمر عنى . . وزعمت لها أنى صعدت السلم وأويت إلى مخدعى . . وسألتها بدورى وأنا أحاول أن أضمها إلى صدرى : « وأنت . . ماذا بك ؟ ! » .

فدفعتنى عن نفسها فى ذعر ونفور . . وقالت وهى تحبس دمعها وتفر هاربة : « لا شىء . . لا شىء » .

* * *

ومنذ تلك اللحظة أدركت أن حبنا مات وقبر . . وانقلب إدراكى إلى يقين عندما تبينت أن أبى صار يقطع نزهاته الليلية . . وكنت أسمع خطواته الحذرة على السلم ، فأعرف أن الذئب استمرأ المرعى . .

وغرقت فى دوامة من المشاعر المريرة . . أبى أصبحت أضمر لكلبه من الحب ما لا أضمره له . وصرت أتخيل وأنا أشاركه الطعام أنى أخطف السكين من المائدة وأغرسها فى قلبه . . ونظاكة تتجنبنى فتصور لى الضغينة أنها صارت تحس أنها سيدتى .. وأهم أن أتكلم وأصارحها باحتقارى ثم تخذلنى الكآبة المقيمة فى عينيها . . وأهرب إلى مخدعى كى أبكى بدموع لا يقاسمنى فيها أحد .

* * *

وقالت لى دموعى وعزلتى الموحشة إن راحتى فى الموت، وسرقت من البستانى سما قاتلا كان يطعمه لفيران الحديقة . . وقررت أن أعاقب

بموتى أبى الملوث . . وصديقتى الخائنة . .

وذات ليلة ، بعد العشاء ، خرج أبى ليمارس نزهته الليلية الموهومة ووقفت فى نافذة المكتبة أرقب قوامه المديد وهو يبتعد . . كانت نظراتى تودعه . . فقد كانت تلك هى الليلة التى اخترتها لموتى .

ولكنه عاد فجأة ونادى البستانى فأسرع « حسن » إليه .. ودار بينهما الحديث تحت نافذتى .

قال له أبى : « أريد أن أزوجك نظاكة » .

وأجاب حسن ، فى حزم ، وعلى الفور : « لا ياسيدى . . إنها تذهب إلى السينما وتختلط بخدم الجيران » .

فصاح به : « أتعصانى ؟ ! » . .

واستجمع حسن شجاعته وأردف فى توسل : « ياسيدى . . إن هناك من يقول إن بطن « نظاكة » أكبر من بطون العذارى » .

وفى لمح البصر هوى أبى بكفه الثقيلة ، على وجه خادمه . . وصمد حسن للطمة الأولى . لكنه لم يحتمل المطر المنهمر . . وسقط على الأرض وأبى يعمل حذاءه فى وجهه وأحشائه . . وبعد أن تعب من الضرب وتلاحقت أنفاسه عدل عن نزهته . وصعد إلى حجرة نومه .

أما أنا فوقفت جامدة فى النافذة أراقب « حسن » وهو يزحف على بطنه وركبته إلى حجرته فى آخر الحديقة .

* * *

وانتصف الليل وأنا قابعة فى أحد مقاعد المكتبة منهوكة منهارة . . السم فى يدى . . وأنين « حسن » يصل إلى سمعى . . وخيل إلى أننا روحان شقيقتان تغادران الحياة فى وقت واحد . . وشاقنى أن أذهب إليه وأودعه .

وعندما دخلت عليه رأيته يمسك أحشاءه بيديه وكأنه يمسك بقية نفسه . . وجثوت إلى جواره . . ومزقت ياقة ثوبى وجعلت أمسح بها الدم المتجمد على جبينه . . .

وعصف « بحسن » التأثر ، وفوجئت به يلصق شفتيه بقدمى ، فلم أقاومه وأخذت أنظر إلى عينيه البراقتين الحزينتين وهما ترتمحان تحت نظراتى .. وامتدت يدى لتستقر ملاطفة على رأسه .. وارتجفت شفتاه .. خيل إلى أنه يطلب أن أسقيه . . ولكنى بدلا من أن أسقيه . . قبلته .

وأحسست وأنا أفعل ذلك أن قبلة « نظاكة » لم تكن قبلة . وأن « حسن » وضع على شفتى جمرة متقدة . . ونسيت نفسى .

وعندما أفقت أيقنت أننى صرت « أحقر » من « نظاكة » . . فقد كانت هى مكرهة . . وكنت أنا راغبة .

وطلع الفجر على مخدعى وقد قر قرارى على الهروب مع « حسن » وعدت إليه وفى حقيبتى مجوهرات أمى . . ودفعت باب حجرته . . وناديته فى حنان ، ولكنه لم يستيقظ . . فقد كان ميتا .

* * *

وقال التشريح إنه نزيف داخلى . . وقال أبى إنه رأى « حسن »

يترنح فى الليل ... وأنه عرف منه أنه كان عائداً من شجار . . لا يعرف أين . .

وهممت أن أصرخ وأبوح بالحقيقة ، ولكن الصرخة احتبست فى حلقى .

* * *

ودخلت الفصل ككل يوم . . ولكننى أحسست أنه لم يعد لى فيه مكان . . وأن نظراتى تلوث وجوه الراهبات . . وهل من حقى بعد أن أجلس إلى جوار بنت بريئة ليس لها أب مثل أبى ، وليست صحيفتها سوداء كصحيفتى ! . .

وفى آخر النهار لم أتخذ إلى البيت الطريق الذى يستغرق عشر دقائق . . مشيت هائمة على وجهى . . ولاحظت أن سيارة تتبعنى فتريثت . . وفتح لى بابها شاب أنيق . . وارتميت إلى جواره .

ولم أعد إلى البيت . . لم أعد أبداً . .

ولم ينجح أبى فى أن يجدنى . . فقد كنت جميلة . . ولم يكن من يعرفنى يقوى على بعادى.

* * *

ومات أبى بعد أعوام . . وبعد أن بدد ثروته نكاية بى ، وحرصاً منه ألا أرث شيئا .

مات وحيداً . . فإنه بعد هربى بقليل وجد « لنظاكة » زوجاً ولطفلتها أباً .

* * *

وأظنك تستطيع ، يارفيق كأسى ، أن تستنتج كيف أصبحت ممثلة كبيرة .

لكن الذى لا تعرفه هو الذى جعلنى أدخل البار الليلة وأسكر .

إن « نظاكة » وجدتنى . . وفاجأتنى بالزيارة . . وفى يدها طفلة . . ابنتها .

شكت لى من تقلبات الأيام . . إن زوجها تخلص منها بعد أن أذاقها الهوان .

وسألتنى وهى تغض بصرها إلى الأرض إن كنت فى حاجة إلى خادمة فانها لا تدرى كيف تطعم الطفلة .

وفاضت دموعى وأنا أضم الطفلة إلى صدرى . . وقلت لنظاكة : « إنها تشبهنى . . وتشبهك » .

ولكنها تجاهلت الملاحظة . . . إنها ما تزال حريصة على إخفاء سرها . . وسر الرجل الذى رحل .

وها الآن تنامان نوماً عميقاً . . فى غرفتى . . فما الذى يؤرقهما مثلى إلى مطلع الفجر .

* * *

أيها الأستاذ العزيز.

هل عرفت الآن أن القصة كانت إلى جوارك ، فى بار شبرد . .
وأنها حدّقت فيك بعينيها الساحرتين . . وأنك أشعلت لها سيجارتها .

إذا كنت تصرّ على أنها قصة قديمة معادة ، فإن عندى أخرى . .
وصبراً جميلا . . .

# رحلة صيف ...



عاد حشمت أفندى من الديوان مكدوداً ، وتهالك على « الكنبة » الوحيدة فى الصالة ، وطرح طربوشه جانباً وألقى رأسه إلى الوراء كى يلتصق بالحائط ويحس رطوبته ويبترد بها . كان يجد فى هذا لذة بعد شقاء الديوان . . . إنه كاتب حسابات ، والأرقام من الصباح إلى الظهر تطن فى رأسه ، وتلف وتدور ، وتصعد وتهبط ، ومن فرط الإعياء يخال وهو عائد إلى البيت أنه يمشى على رأسه . . وأنه من طول ارتطامه « بأسفلت » الطريق تورم والتهب . . وكان يعالج الورم والالتهاب برطوبة الحائط الواقع وراء « الكنبة ».

ولأنه كان يمشى على رأسه وقدماه إلى فوق ، لم يكن يرى الثقوب فى نعل الحذاء ، وشغل عنها وعن كل الثقوب التى تملأ حياته بالنظر إلى الأرض القريبة من مستوى بصره .. أرض الدرجة السابعة التى . . ظفر بها بعد معركة مع أرقام الديوان احتدمت طوال . . ربع قرن .

كان للمعركة المريرة غبار غطى على بصره ، وإصابه بنعمة الرضا . . وتسربت أعوامه فى حلم تافه طويل من البؤس والإقلال مشى فيه كالنائم . . ولم يكن يؤذيه أن يرفع إلى شفتيه كأس القناعة لينتشى من خمرها الغثة المغشوشة ، ويتأمل بلا ملل الصدأ يعلو جدرانها

المتآ كلة ، وكأنه يتأمل بريق الماس . . وهكذا يعود بسهولة إلى الغيبوبة التى تلتهم حياته ويستغنى عن كراهية الذين خطفوا منه أدواره فى الترقية ، بمخالب الشفاعة ، وينسى فى صفح جميل ، أسماء أقرانه الذين سمنوا من الرشاوى واقتنوا العقار ويقبل بلا تذمر أكداس الأوراق التى يتخلص منها زملاؤه الكسالى بل يحس شيئاً من الزهو عندما يقولون له متملقين إنه « شيال » الحمول . . « وبغل » الديوان !

وقالت فهيمة لزوجها بغل الديوان ، وهى تضع فتة الكوارع على المائدة : « اسمع ياحشمت . . سأرسل البنتين لتمضيا الصيف فى الإسكندرية .. بعد إذنك .

ورفع حشمت رأسه عن الحائط البارد وضحك . وأجابها وهو يضع القبقاب فى قدميه وينهض نحو فتة الكوارع : « نكتة مليحة . . ولماذا لا ترسلينهما إلى سويسرا . . الإسكندرية لا تليق بالمقام » .

وأجابته وهى تداعب سلوك النظارة الفضية الموثقة بأذنيه ، كدأبها كلما أرادت استمالته : « المسألة جد، سعاد مصممة أن تأخذ هما معها . . ستكونان فى ضيافتها » .

* * *

وكانت سعاد تقيم فى الشقة المقابلة ، وكان زوج سعاد من زملاء حشمت فى البأساء . . موظف مثله فى بئر السلم . . كانا يتقاسمان الحمول، وقنينة النبيذ الأحمر ، وورقة النصيب التى يشتريانها فى الحانة . وفجأة ارتفع زوج سعاد من القاع إلى القمة . . وكانت زوجته هى

« الأسانسير » الذى صعد به فى غمضة عين . . وحاشا أن يكون ذلك على حساب الشرف .. كل ماهنالك أنها كانت تمت بصلة القرابة للوزير الجديد .

وانتقل زوج سعاد إلى فيلا جميلة . . ولم يتنكر لزميل السنين العجاف . . وذهب « بغل » الديوان إلى الفيلا ورأى البار الجذاب ومراياه الباهرة ، يتلألأ على سطحها بريق المجوهرات التى تتزين بها سعاد .. ورأى اللهب المستطاب المندلع من بلور النجف الكبير ، يترامى ويرقص على وجنات الكئوس ، وشاهد الوسكى يتدفق من الزجاجات جميلا أشقر عذب المذاق . . وشارك زوج سعاد فى توجيه السباب إلى النبيذ الأحمر والحانة العفنة .

وليس هذا آخر الكرم . . ها هى ذى سعاد تدعو بنات حشمت أفندى لتمضية الصيف فى شقة أخيها فى الإسكندرية .

* * *

وبدأ الاقتراح لحشمت لأول وهلة غريباً . إنه لم يفارق بنتيه من قبل . . ناهد الآن فى الثامنة عشرة . . ونوال تصغرها بعامين . . لم تغيبا عن عينيه أبداً . . كانتا كل أولاده . . وكل قلبه . . ناهد نصف القلب ونوال النصف الآخر . . وأمهما فى الوسط . . إنها حبة الفؤاد . . إنه ليفخر إنه بغل الديوان ولكن مفخرته الكبرى إنه زوج فهيمة . . المرأة التى ولدت له بنتين ومع ذلك ظلت صبية تضارعهما فتنة وشباباً .

وأفاق حشمت على صوت فهيمة تسأله من جديد : « لم تقل لى

رأيك فى سفر البنتين ؟» .. ووقفت ملعقة « الفتة» التى كانت فى الطريق إلى فمه، وقال وهو يتأمل وجهها الصبيح : « أنا خائف .. إنهما فى سن خطرة » . .

وأجابت ، ويدها البضة الطرية تعبث بسلك النضارة الفضى : « وتدعى أنك كاتب حسابات. اعقلها وستجد أنها حسبة رابحة .. إن سعاد هى بنت خالة الوزير ، وسيسهر عندها فى الإسكندرية ، وسيرى البنتين و يعطف عليهما . . وتسنح الفرصة لفتح موضوعك وطلب إنصافك . . ثم إنهما ستكونان مع سعاد فى ضيافة شقيقها . . وهو سكرتير الوزير . . وهو أعزب . . أفهمنى » .

وصاح : « لا . . لا أريد أن أفهمك . . أنا فى هذه الأمور بغل عنيد » .

* * *

وفى هذه اللحظة سمع على باب الشقة نقر حلو . وعرف أن بنتيه وصلتا من المدرسة . . وطالعته والباب يتفتح ابتسامتان باهتتان . . وأربع ضفائر من الشعر الغزير الأسود، وفى كل ضفيرة شريط أبيض كأنه زهره الياسمين تضىء فى الليل الحالك . . ولدغ ضميره الشحوب الذى يمشى فى خدودهما . . إنه سوء التغذية . . والهواء الراكد فى الشقة المطمورة فى آخر الزقاق . . وإنهاك المشى من المدرسة البعيدة إلى البيت توفيراً لأجر الترام . .

ووجد حشمت نفسه يقول، والفتاتان تجلسان إلى المائدة : « إنكما

ستسافران إلى الإسكندرية . . ولكن أمكما ستسافر معكما » .

* * *

وأطلت فهيمة من نافذة القطار لتودع زوجها الواقف على الرصيف وهمس فى أذنها : « حافظى على البنتين وافتحى عينيك جيداً » . . وهمست فى أذنه : « التعرف بسكرتير وزير فرصة لا تسنح كل يوم . . أطمئن . . قلبى يحدثنى أنى سأعود بغير ناهد أو بغير نوال » .

وتحرك القطار . . وأنبثقت فى عينه دمعة ، ونفسه تبارك فهيمة التى تريد أن تكون حماة وجدّة وهى فى عز شبابها . . وسالت الدموع على خده والضفائر الأربع وأشرطتها البيضاء تبتعد ، هى والوجوه الشاحبة الحلوة . .

وتحول إلى باب الخروج وهو يشكر الحظ الذى ساعده على أن يقترض ويركبهن الدرجة الثانية التى لم يركبها أبداً فى حياته .

ووصلن إلى الإسكندرية لأول مرة فى حياتهن . وفى المحطة كان ينتظرهن سكرتير الوزير شقيق سعاد .

وحملتهن سيارته إلى الشقة الأنيقة . . وجاء المساء فأخذهن إلى إحدى صالات الموسيقى ، وذعرن عندما رأين الرجال يخاصرون النساء على أنغام الرقص . ولكنهن عندما رأين فى الصباح المتجردات من الثياب والمنبطحات على صدر الرمال تحت أقدام الغادين والرائحين غفرن لراقصات الليل فعلتهن الشنعاء . .

* * *

وبعد أيام كفت فهيمة وبنتاها عن مهاجمة المايوه واستنكار الرقص .

وبدأ السكرتير الوسيم يقلع عن ضيقه بهن .

وذات مساء قالت سعاد لضيفتها : « البيت بيتكن . . أنا ذاهبة لأقيم أسبوعًا عند ابن خالتى الوزير ، ولكن أخى محسن سيكون معكن ولن يتركوكن دقيقة واحدة » .

وبعد ذهاب سعاد وضع محسن على المائدة زجاجة خمر فاخرة وأربع كئوس . . ورمقته فهيمة بنظرة نارية وهى تنحى الكئوس ، وقالت فى حزم : « إننا لم تذق الخمر ولن نذوقها أبداً » .

ونحى محسن الزجاجة جانبًا .. وتجاهل فى ألم الرغبة الكظيمة فى عيون ناهد ونوال ، والظمأ المحترق فى شفاههن الوردية .

وبدأ أمله فى أن تكون الحياة مع الإناث الثلاثة « مسلية » يخيب . ولكن عز عليه أن يستسلم لليأس ، ودس بين أسطوانات أم كلثوم التى كان يدور بها « الجرامافون » كل ليلة أسطوانات الرقص . . وهمس ذات مرة فى أذن الأم وهو يشير إلى أقدام الفتاتين التى لا تستقر على حال من القلق : « ما رأيك فى أن أعلمهما الرقص » ؟

ورفضت الأم الحريصة فى إصرار ، ولم تعبأ بالتوسل الذى يبلل أهداب الفتاتين .

* * *

ومع ذلك قرر محسن أن يقوم بالمحاولة الأخيرة . . اشترى ثلاثة

مايوهات ، وفاجأهن بها ، هو يقول ضارعا : « ما فائدة الإسكندرية إذا لم تغمس أجسامكن الحلوة فى الماء المالح ، ولو مرة » .

واغرورقت الرغبة فى عيون ناهد ونوال مع دموعهما ، وصاحت وهى ترمق المايوهات بنظرة شزراء : « ويرى الناس بناتى عاريات . . يا للعار » واحمر محسن خجلا وغيظاً . . وأكد لها أنه لم يقصد أبداً إهانة الفضيلة ومكارم الأخلاق .

وفى ذلك النهار جلست ناهد وأختها نوال تحت الشمسية حزينتين كاسفتين . . ولمح محسن فى مآقيهما نظرات الكمدوهما ترقبان المستحمات . وثار وهو يثب على قدميه وصاح فى غضب : « فليسقط الظلم ... أنا ذاهب إلى البيت لأقنع فهيمة هانم أنها متعسفة . . أنا متأكد أنى سأقنعها وسأعود بالمايوهات » .

وعندما وضع المفتاح فى باب الشقة وصل إلى سمعه صوت موسيقى . . إنه « الجرامافون » يرفع عقيرته بنغمة راقصة . . ودفع الباب فى رفق . . وأخذ نظره ، أول ما أخذ ، زجاجة الوسكي وقد مشت من مكانها إلى المائدة وفقدت من قوامها ثلاثة قراريط ، ودهش : من هو الضيف الثقيل الذى سمح لنفسه أن يفسد على فهيمة هانم هدوءها وعزلتها . . وجالت عيناه فى الحجرات . . لا ضيف هناك . . لم يبق إلا مخدع فهيمة . . الباب نصف مفتوح . . فليسترق نظرة إلى الداخل . . وحبس أنفاسه . . وتصبب جبينه عرقاً . . وجحظت عيناه . . إن فهيمة فى المايوه الأحمر . .

وفى يدها كأس تتمايل وتتثنى محاولة أن تطيع نغمات «الجرامافون» طاعة عمياء .

وصفر محسن وقد تملكه الإعجاب بقوامها الممشوق . . ولحمها الوردى .

وسقطت الكأس من يدها . . وأسرعت تخفى وجهها بين راحتيها .

وأسرع إلى الارتماء عند قدميها ضارعاً : « ما الضرر فى أن أرى جمالك الجبار . . إن الحسان تحملق فيهن على الشاطئ آلاف العيون ، وأنا واحد » وانهال على قدميها يقبلهما . . .

* * *

وطال انتظار ناهد ونوال تحت الشمسية . وأخيراً عاد محسن ليقول لهما إنه اقتنع بوجهة نظر فهيمة هانم .

وفى اليوم التالى لم ترافق أيضاً ابنتيها إلى الشاطئ فإنها كانت تريد أن تجرب المايوه الأصفر .

وفى هذه المرة مشت زجاجة الوسكى إلى المخدع ، ووقفت إلى جوارها كأسان تتناجيان .

وعند عودة الفتاتين إلى البيت فى اليوم الثالث لم تكن أمهما هناك ، ولا حقيبتها . ووجدتا بدلا منها ورقة وداع فيها كلمات قليلة حاسمة : « اطلبا من أبيكما أن ينسانى وسامحانى » .

وضرب محسن كفاً بكف . . وقاد حملة البحث عنها . . بحث

عنها فى كل مكان فى الإسكندرية . . إلا المكان الذى اتخذاه وكراً لغرامهما .

* * *

ووصل قطار الليل إلى القاهرة ولفظ فتاتين كانتا تريدان أن تستترا بالظلام . . وأخذتا طريقهما إلى الشقة القائمة فى قاع الزقاق . . وعندما دفعتا الباب ، وقع بصرهما على رجل يجلس على « الكنبة » ورأسه ذاهب إلى الوراء ليبترد برطوبة الجدار . . رجل ظل يمشى على رأسه طول حياته .. وقال وهو يخفى بكفه المضطربة دمعة سقطت على شاربه : « سامحانى ، لم أقو على انتظاركما . قالت لى أمكما إنها قد تعود بغير ناهد أو بغير نوال . . لكننى لم أتوقع أبداً أن تعودا بدونها » .

وأغمض عينيه ليخفى عن بنتيه بقية دموعه .

وأسرعتا إلى صدره وهما تجهشان بالبكاء ، وقالت له قبلاتهما الذليلة : « سامحنا . . لولانا ما كانت تلك الرحلة المشئومة » .

لكنه لم يفتح عينيه ولم يبد عليه أنه سمع ما تقولان . . . وترك رأسه مكانه المفضل عند الحائط ، وسقط على كتفه .

وأدركتا أن أباهما سئم إلى الأبد الجدال . . والأمل . . والألم . . وأنه بدأ هو الآخر رحلته . .

# عاصم بك .. نائب محترم!



لم يطرأ على تلك الحارة ، كما لم يطرأ على الحى كله شيء جديد ، منذ عشرات الأعوام .. إن أحياء كثيرة فى القاهرة قد تبرجت ، وبدت فى أزياء أوربية شائقة ، لكن تلك الناحية من المدينة لم تخلع الثياب القذرة التى كانت ترتديها فى عهد المماليك .

كما يوجد موظفون منسيون توجد أيضاً فى العاصمة شوارع منسية من مصلحة التنظيم . . شوارع ضيقة غير مرصوفة ، تتفرع منها أزقة ملتوية مظلمة غنية بالتراب .

التراب الذى تسقيه النساء الفقيرات بمياه الغسيل الزرقاء ،وبالأقذار المتخلفة من تنظيف السمك والطيور .

إنهن يحاولن أن يهدئن ثائرة ذلك التراب الذى يتمرد فى الصيف .. وأن يتخلصن من لهب الشمس فى ساعة القيلولة .. فتستحيل الحارة إلى مستنقع تتصاعد منه أفظع الروائح ،عندما يتلظى حر الظهيرة فى تلك المعاجن ، ويبدأ ذلك الماء الملعون فى التبخر .

وكان « عم على » يقطن إحدى حوارى الحى .. عاش ثلاثة أرباع حياته جالساً فيه وأمامه قفص من الليمون ، يفتح عينيه الثقيلتين من

الهرم وينادى على «البنزهير» كلما سمع صدى خطوات عابر سبيل تقرع الطريق .

كأن الزمن نفسه ملّ البقاء هنا ، وبعض البيوت المسنة قد تعبت وارتمت على الأرض ، أحبت أن تنقلب على جنبها الآخر .. أما عم على فباق كما كان منذ أعوام وأعوام .. إنه فى فم الحارة الناب العتيق الأزرق الباقى دائماً أبداً .

لم تكن له مطامع .. لم يعد الفقر يخيفه بعيد .. لا سلطان للحياة الآن عليه ، لأنها لا تستطيع أن تؤذيه أكثر مما آذته .. لم تكن له آمال يمكن أن تنتزع منه .. إنه يستطيع أن يجد الرغيف ، وطبق الفول ، وقطعة الجبن ، وقد كان قانعاً بذلك .. ونسى اللحم وأكله ...

كما نسى أشياء أخرى كثيرة .. بدأ منذ بعيد يفقد شيئاً فشيئاً الشعور القوى بالذات وبالوجود ، الذى يدفعنا إلى طلب الأشياء التى تنقصنا .. كأن حواسه الخمس نفسها قد سئمت عملها وجنحت إلى التبلد .. إنه لا يحقد الآن على مرضه ، كما لا يحقد على فقره .. فى البداية كان يشكو من السعال .. أما وقد أقامت النزلة الشعبية فى صدره أعواماً وأعواماً فإنه يرضخ لعذابه فى استسلام .. حتى كأنه لم بعد يذكر أنه يتألم ... ولقد ألف أن يحمل كبده المريضة ، وتدرب على احتمال الأوجاع والمكاره ، كما يتدرب فقراء الهنود على التهام الزجاج ، وابتلاع الثعابين ، والنوم فوق المسامير .

* * *

لا قيمة للمستقبل ، ولا للماضى ، فى نظر عم على . لم يأسف ... إنه دفن منذ أعوام زوجاته الثلاث واستراح من الشجار . أحياناً يلتقى بأولاده مصادفة ... فقط . . كانوا ينفصلون عنه بعد أن يكبروا كما تنفصل القطة عن أمها بعد الرضاع . أحدهم الآن يشتغل بسلخ الجلود فى المذبح ، والآخر يبيع الحص على عربة يد ، والثالث ذهب إلى « العسكرية » وأصبح جندياً ، والرابع فقط هو الذى لم يكن موفقاً ، فإنه بعد أن اشتغل بائعاً سريحاً فى العتبة ، يكسب خبزه بعرق جبينه التقطته إحدى جماعات النشل ودربته على السرقة . وقد زاره مرات ونفحه بقروش كثيرة ، ثم انقطعت أخباره ... ثم سمع أن الأمر انتهى به إلى إصلاحية الأحداث .

* * *

أقبلت على عم على ذات صباح فتاة « تتقصع » فى ملاءتها . وانحنت على قفص الليمون ، وبدأت تساوم وهى « تطرقع » بين شدقيها فصاً من اللبان .

وأخذ عم على يحدق فى يدها الجميلة المصبوغة بالحناء ، وقد ذكرته هذه اليد « وطرقعة » اللادن ، بإحدى زوجاته فى يوم « الصباحية » وبهناء كبير ذاقه ذات ليلة . منذ عشرين سنة . وهذه الذكرى وحدها هى التى جعلته يصبر طويلا على تقليبها الليمون .

ثم يختلفان فى السعر ، فتصر الحسناء وتمضى لسبيلها ، فيناديها قبل أن تبعد . إن قلبه يغلبه ، إنه لا يريد أن يغضبها ، فإنها تذكره بهناء ]

ذاقه منذ عشرين سنة .

وبينما كانت الفتاة تقلب الليمون للمرة الثانية وقفت سيارة أنيقة على مقربة من عم على ، ونزل منها سيد مهيب .

ووقف السيد المهيب يرقب عملية الشراء ، وذهبت « زنوبة » بعد أن ألقت فى كف الرجل مليما .

ومصمص « عاصم بك » ثم قال متحسراً : « الناس فى هذه الأيام قد خلت قلوبهم من الرحمة ياعم ، ياعم ، ما اسمك ؟ » .

— اسمى على ..

— يا عم على . لم يعد يوجد من يرحم الفقير .

ومضى عاصم بك يجاذب بائع الليمون أطراف الحديث حتى انتهى إلى القول : « إذن فأنت تجلس طول النهار لتكسب قرشين اثنين . لا ، لا . هذا ظلم كبير ، سأعمل بكل قواى على رفعه ، أنا من أنصار الديمقراطية ؛ أنت تعرف أن الانتخابات قادمة . وأرجو أن تعطينى صوتك لكى أدخل مجلس النواب ، وأكون محاميك هناك . أتكلم باسمك وأطالب الحكومة بحقوقك » .

غمغم عم على متعجباً : « الانتخابات قادمة ؟ » .

وأجاب عاصم بك : « نعم . إن الشعب سيستفتى من جديد ليختار ممثليه . وأنا فى حاجة إلى صوتك . إلى ثقتك ، يا عم على » .

ولم يسمع عم على العبارة الأخيرة ، لأن ذاكرته قد ارتدت إلى الماضى ؛ وأخذ يمشط شعر لحيته الناصل بأصابعه اليابسة . الانتخابات قادمة ..

إن ذلك قد حدث من قبل منذ أعوام . لكنه لم يعن بأن يذهب ويعطى صوته ، وقنع بأن يسمع قصص الذين ذهبوا وجاءوا . لقد عادوا وفى عيونهم نظرات ذليلة . لقد ضربهم رجال الإدارة لأنهم أرادوا أن يناصروا خصوم الوزارة . كان العائدون يضحكون فى حين يمشى فى عيونهم شبح البكاء ، وهم يذكرون ظهورهم الملوثة بالطباشير . إن ذلك الجير الأبيض كان علامة العقاب للمذنب .

وفى تلك المرة سمعهم عم على يتناقشون فى سعر الأصوات . كان ذلك السعر يرتفع وينخفض ، وكم حدث فى السوق من تقلبات!

* * *

ولما طال صمت عم على تململ عاصم بك فى وقفته وقال : « مارأيك يا عم على ؟ » .

— لا أكذب عليك يا سعادة البك . الله يغنيك عن صوتى . ليس فى نيتى أن أذهب . أنا رجل كبير لا أحتمل الضرب ولا الإهانة فى القسم .

فضحك عاصم بك وقال للرجل ملاطفاً :

— لن يكون هناك ضرب يا عم على . الانتخابات هذه المرة حرة .

حك عم على ذقنه حائراً وقال :

— ولكن ما فائدة كل هذا .. لماذا تتعب الحكومة نفسها . إن الانتخابات لا يمكن أن تمر بغير شجار .

— للانتخابات فوائد عظيمة يا عم على . فإنكم بعد أن تختارونا

نذهب إلى مجلس النواب ونقول للحكومة : أنت أخطأت ، وأنت أصبت . الشعب يريد كذا وكذا . ولا يريد كذا وكذا.

وهكذا يحكم الشعب نفسه بنفسه .

— أنا رجلى فى القبر يا سعادة البك . ولا أريد شيئاً . الحكومة لا تستطيع أن تصنع شيئاً لأجلى .. دعنى وشأنى .

— أنت رجل طيب يا عم على . كيف تقول ذلك ؟ .. هناك أشياء كثيرة تستطيع الحكومة أن تقوم بها . سأخدمك بكل قواى عندما أصبح نائباً عنك . إن من حقك أن تحصل على شيخوخة مريحة . إنك كبرت ،، ولا يصح أن تشتغل وتشقى . سأعمل على أن تقرر الحكومة لك ولأمثالك إعانة تعيش منها . وهذه الحارة المتربة يجب أن ترصف ويدخل فيها النور الكهربائى.سأشد أذن مصلحة التنظيم ؛ وهذه البيوت المتهدمة لا تليق لسكنى الآدميين . سأطالب ببناء مساكن جديدة نظيفة للعمال والفقراء ، مساكن مزودة بالماء والكهرباء .

— بيتى أنا .. يزود بالماء والكهرباء ، أنا رجل غلبان يا سعادة البك ، لا تسخر منى .

— إنى لا أمزح ،، أنت لا تفهم حقوقك . أقسم لك إن هذا سيحدث

أتدفع ضرائب ؟

قاطعه على متوجعاً .

— نعم . العوائد مربوطة على بيتى .

— يجب يا عم على أن تعطينا الحكومة منافع مقابل المبالغ التى تحصلها. سنطالب بإصلاح كل هذه الأحوال . أتسعل منذ بعيد يا عم على ؟

— منذ سنين .

— الحكومة يجب أن تتولى علاجك ، المستشفيات يجب أن تفتح مجاناً .

دعك يابك من مستشفيات البلاش . لقد ذهبت إلى إحداها ذات مرة فلم ألق من « التمورجى » إلا الإهانة ، وقال لى الطبيب إنها نزلة مزمنة .. وإن العلاج السريع فى المستشفى لا ينفع ، وطلب منى أن أذهب إليه فى العيادة ، فذهبت ، وهناك أراد أن « يقاولنى » . ولم ير وجهى بعد ذلك طبعاً .

أنا رجل على الله .

فضرب عاصم بك كفاً بكف ، واستعاذ بالله من أولاد الحرام ووجه أقبح السباب إلى الظلم والظالمين ، ونثر بين يدى ناخبه العزيز كنانة الإصلاحات التى يفكر فيها ، والحملات التى يتأهب لها فى المجلس .

وأخذ عم على يصغى إلى حديثه الحماسى ، وقد تفتحت فى نفسه من جديد ينابيع الأمل التى انهارت فوقها منذ بعيد حياته الشقية ، أحب الحياة التى وصفها عاصم بك له ، وحلا له أن يفكر فيها . الحارة سترصف وتضاء . المساكن ستبنى على حساب الحكومة . الميرى سيوزع الأرزاق والأقوات ، ويعين العمال العاطلين ، وسيمنح العلاج

والدواء مجاناً ، حقيقة لا مجازاً ؛ وسيسعى النائب المحترم ليخرج ابنه من إصلاحية الأحداث .

ما أجمل هذا !

ومر عاصم بك بناخبه العزيز بعد ذلك بضع مرات . وكان عم على يشعر بسرور كبير لأن البك صاحب السيارة السوداء اللامعة يتواضع ويتحدث إليه حديث الصديق إلى الصديق .

* * *

وجاء المرشح الآخر فأدار عم على له ظهره . قال له هذا المرشح الآخر إذا كان عاصم بك قد دفع لك ريالاً فإنى أدفع لك جنيهاً . فبصق على على الأرض اشمئزازاً .. وأجاب فى جفاء وهو يضع فى فمه مضغة الطباق : « قل هذا لغيرى .. ولا تغرك ثيابى الممزقة . أنا أعطيت كلمة شرف » .

* * *

وجاء اليوم المشهود . وارتدى عم على جلبابه الذى يحتفظ به للمناسبات الخطيرة : ولف على طاقيته شاشاً نظيفاً وتوجه إلى مقر اللجنة .

ووقف على قدميه من الشروق إلى الغروب حتى استطاع أخيراً أن يدخل ويؤدى واجبه .

وعند منتصف الليل عاد ضاحك الأسارير .. إن عاصم بك قد نجح .

لقد استخفته الحماسة ووجد نفسه يهتف : « يحيا عاصم بك .

ويحيا الثبات على المبدأ » .

إن نور القمر الذى يمشى الآن على هداه عائداً إلى بيته ينير له أيضاً الآمال الجديدة التى علمه عاصم بك أن ينتظرها .. إنه يرى الشارع مرصوفاً بالأسفلت ، ويرى عربة الرش تمر فى الحارة ، ويرى حنفية عامة فى وسط الميدان توزع الماء مجاناً على الجميع .. هذا مؤقتاً إلى أن تشيد الحكومة بيته ، وتوصل إليه المواسير والنور ، وتجعله مكاناً لائقاً بأن يحيا فيه إنسان يوحد الله .

* * *

ومضت أيام .. ولم تعد سيارة عاصم بك السوداء اللامعة تظهر فى الحى .

ثم مضت الأسابيع .. ولم يأت الكناسون إلى الشارع ، ولم يوزع الماء بالمجان .

* * *

وذات يوم تغير عسكرى الداورية وجاء إلى المنطقة عسكرى جديد .

وأعجب الجندى الهمام بليمون عم على . كان ينتقى كل يوم عشر ليمونات يختارها بعناية ويبحث فى جيوبه عن فكة .. ولا يجد .. ويرجئ الحساب إلى الغد . وتكرر اختيار « الشاويش سويلم » لأجود الليمون ، ولم يحدث أبداً أن وجد فى جيبه فكة .

ثم رفع « الشاويش سويلم » التكليف ، ولم يعد يكلف نفسه مشقة البحث فى جيوبه .

ونفد صبر عم علي ، فانفجر ذات ليلة وسويلم يضع الليمون في جيبه : « أتظن أني آتي به من حديقتنا . إني رجل على باب الله » .

فألقى سويلم بالليمون حانقاً ، ومضى بعد أن رمقه بنظرة احتقار .

ومنذ تلك الليلة تنكر له ، وبدأ يطبق على الشيخ المسكين لوائح التنظيم والمرور وتعليمات المحافظة ضد الباعة الجائلين ..

— يا عجوز النحس إنك تخالف اللوائح.. الجلوس في الطريق ممنوع .

— يا عجوز النحس .. أتريد أن تسرق الحكومة . أين رخصتك . من يدري ؟ ربما تكون لصاً ، أو شيخ منصر ، أو تاجر مخدرات .

وأشعل الغضب النار في عروق الشيخ اليابسة ، واحترق كل ما فيها من الخوف والحذر ، وصاح : « يا ظالم .. فلتأكل بعضك . النهب كان زمان . في البلد حكومة وبرلمان . لسنا في أيام قراقوش ! »

وصوّب الشاويش مقدمة حذائه إلى جنب الشيخ ودفعها بين ضلوعه . وبينما كان عم علي يصرخ من شدة الألم كان الشاويش يزمجر : « ما شاء الله ! أتهددني ؟ هل مقامك من مقامي ؟ سأجعل السجن مأواك » .

وأجاب الشيخ منفعلا ساخراً : « أتظن أن الدنيا فوضى .هذا شنبي أحلقه إن لم أربيك »

من أين استمد عليّ تلك الجرأة .. وتلك القدرة على التهديد .. إنه تذكر صديقه .. نائب الدائرة .

وبات ليلته مؤرقاً يتحسس بأصابعه الراجفة مكان حافة الحذاء بين ضلعيه .

وارتدى فى الصباح ذلك الجلباب الذى يحتفظ به للمناسبات الخطيرة .

* * *

واستطاع أن يصل فى الظهر إلى مجلس النواب ، وضحك الحجّاب من المتسول الذى يدب على عصاه ويسأل بجرأة عن عاصم بك .

ثم رق أحدهم له ، ودله على عنوان البيت فى الزمالك .

إنه عاش كل هذه السنين ، لكنه لم يمر بهذه الشوارع الكبيرة إلا مرات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة .

كان يرفع بصره الكليل إلى العمارات الشاهقة ، والقصور الجميلة ، والحدائق ، بعينين مفعمتين إعجاباً ودهشة . كان يسير فى حلم جميل . أتكون الجنة يا ترى حلوة هكذا ؟ .. يا للنعيم الذى يعيش فيه هؤلاء الأغنياء !

ووصل إلى الفيلا الأنيقة التى يقيم فيها النائب المحترم .

لم يكن البواب رجلا دمث الطبع . أحنقه أن يسأل هذا الصعلوك عن البك . وقال وهو يغمره بنظرة ازدراء .

— ماذا تريد من البك ؟

— قل له .. عم علىّ ..

— يا سلام يا عم على .. يعنى صاحبه . طيب يا سيدى .

ومضى إلى الداخل ، ثم عاد . وكانت السخرية تظهر فى عينيه وفى صوته وهو يقول لعم على ، وهو يدس فى يده شيئاً : « البك يسلم عليك » .

نظر الرجل إلى قطعة النقود التى وضعت فى كفه وهو ذاهل . إنها خمسة قروش ... اضطرب صوته ، وبدت فيه الذلة وهو يغمغم : « إنى لم أكن أريد نقوداً . كنت أريد أن أقابله لأجل .. » .

وشلت عبارته بين شفتيه . لم يستطع أن يتمها . فإن البواب قاطعه بجفاء : « لا تتعب نفسك . مهما تنتظر فلن تحصل على أكثر من ذلك » .

ودفعه نحو الطريق بلا رفق ..

ومضى يدب على عصاه ! وهو لا يعى أن أصابعه مطبقة على القطعة الفضية الصغيرة . ووقف فى نهاية الشارع يستعيد صوابه ويلتقط أنفاسه ويجفف عرقه .

وحانت منه التفاته إلى الوراء ، إلى بيت النائب المحترم ، فإذا السيارة اللامعة تدرج ناحيته ثم تقترب منه .. وتلتقى عيناه بعينى عاصم بك . لكن السيارة لا تتوقف ولا تخفف من سرعتها .. وتمضى فى سبيلها .

وكانت مياه الرش متجمعة فى جانب الطريق المنحدر ، فلما مرت بها السيارة تناثر الماء الملوث بالتراب وأصاب رذاذه وجه عم على وجلبابه الأبيض .

ونظر المسكين بحسرة إلى السيارة وهى تختفى ، ثم بدأ يمسح وجهه ويرمق بحزن ثوبه الملطخ .

وسقطت القطعة الفضية الصغيرة من بين أصابعه دون أن يشعر .

عندما لمح عاصم بك عم على ظن أنه يريد أن يشكره على هبته !

وبينما كانت السيارة تنهب الطريق أخذ يتلهى بالتفكير فى هؤلاء الناخبين ، وعجب وهو يتبين أن الصلة بينه وبينهم تبعد . إنه لم يكن يكذب أو يخادع عندما كان يقول إن بابه سيكون مفتوحاً لهم ، وإنه سيكون دائم الاتصال بهم . لقد كان صادقاً . ولقد تخلف عن وعوده ومواثيقه بحسن نية .

أخذ يعتذر عن نفسه لنفسه .. لم يكن يقدّر أن وقته سيمتلئ بالمشاغل. فما أكثر الحفلات التى يدعو ويدعى إليها . إنه مضطر أن يرعى مستقبله السياسى ؛ فلابد أن يجامل وأن يسهر فى الأندية ، ويحتك بكبار الرجال .

ومع ذلك فإن عم على والنائب المحترم اشتركا فى شىء واحد فى تلك الليلة .. الأرق .

كيف يستطيع عم على أن ينام وهو يفكر فى شاربه الذى يجب أن يحلقه من الغد . وكيف يستطيع عاصم بك أن ينام وهو يفكر أن بين النيابة والوزارة خطوات قصاراً إذا ابتسمت الأقدار .

وفى الهزيع الأخير من الليل صرع النعاس عم على... وأغلق أجفان عاصم بك أيضاً ... .

ورأى عم علىّ فى حلمه رذاذ الماء الملوث بالطين يتناثر على وجهه ويلطخ ثوبه .

ورأى عاصم بك فى حلمه ... كرسى الوزارة !

# سلسلة ( اقرأ )

## الكتب التى نشرت فيها منذ صدورها فى يناير ١٩٤٣ حتى الآن

١ أحلام شهر زاد
( تأليف : طه حسين ) .
٢ شاعر الغزل : عمر بن أبى ربيعة
(عباس محمود العقاد)
٣ مذبح المريخ : (فؤاد صروف)
٤ عود على بدء
( إبراهيم عبد القادر المازنى )
٥ دستويفسكى ( حسن محمود )
٦ شاعر ملك ( على الجارم )
٧ الشاعر الرجيم بودلير
( عبد الرحمن صدقى )
٨ مذكرات دجاجة
( إسحق موسى الحسينى )
٩ المذاهب السياسية المعاصرة
( على أدهم )
١٠ شفاء النفس ( يوسف مراد )
١١ الكون العجيب (قدرى حافظ طوقان)
١٢ سنوحى ( محمد عوض محمد )
١٣ جميلة بثينة (عباس محمود العقاد )
١٤ من يوميات فتاة عصرية
( حسين شوقى )
١٥ بايرون ( أمينة السعيد )
١٦ دمشق : مدينة السحر والشعر
( محمد كرد على )
١٧ شكسبير ( محمد فريد أبو حديد ، وزكى نجيب محمود وأحمد خاكى )
١٨ قنديل أم هاشم ( يحيى حقى )
١٩ سيدة القصور ( على الجارم )
٢١ أبو نواس ( عبد الحليم عباس )
٢٢ جحا فى جانبولاد
( محمد فريد أبو حديد )
٢٣ صوت أبى العلاء ( طه حسين )
٢٤ لافوازييه
( عبد الحميد يونس ، وعبد العزيز أمين )
٢٥ قصة البنيسيلين
( مصطفى عبد العزيز )
٢٦ العشاق الثلاثة ( زكى مبارك )

٢٧ بغداد مدينة السلام (طه الراوى)
٢٨ بوشكين : أمير شعراء روسيا (نجاتى صدقى)
٢٩ النار والنور (أمين إبراهيم كحيل)
٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان)
٣١ الغزالى (طه عبد الباقى سرور)
٣٢ الشيخ قرير العين (كرم ملحم كرم)
٣٣ فى بيتى (عباس محمود العقاد)
٣٤ فارس بنى حمدان (على الجارم)
٣٥ جوته (صديق شيبوب)
٣٦ مع الحيات (حسين فرج زين الدين)
٣٧ العناصر النفسية فى سياسة العرب (شفيق جبرى)
٣٨ العلم والحياة (على مصطفى مشرفة)
٤٠ مهد العرب (عبد الوهاب عزام)
٤١ الفيتامينات (مصطفى عبد العزيز ، ومحمد رشاد الطوبى)
٤٢ قصة عبقرى (يوسف العش)
٤٣ عنترة بن شداد (محمد فريد أبو حديد)
٤٤ قصة العدوى (محمد عبد الحميد جوهر)
٤٥ مشاهدات فى الهند (أمينة السعيد)
٤٦ الشيخ الرئيس : ابن سينا (عباس محمود العقاد)
٤٧ أبو زيد الهلالى (محمد فهمى عبد اللطيف)
٤٨ غرائز الحيوانات (محمد محمد فياض)
٤٩ بين البحر والصحراء (شفيق جبرى)
٥٠ تشيخوف (نجاتى صدقى)
٥١ الشاعر الطموح (على الجارم)
٥٢ النار الخالدة (فؤاد صروف)
٥٣ قصة الكتابة العربية (إبراهيم جمعة)
٥٤ تولستوى (حسن محمود)
٥٥ مع الأسماك (حسين فرج زين الدين ، وموسى باسيليوس)
٥٦ طرائف من الصحافة (محمود العزب موسى)
٥٧ قضية فلسطين (محمد رفعت)
٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
٥٩ الجوارى (جبور عبد النور)
٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)

٩٦ شيخ التكية ( محمد عبده عزام )
٩٧ فلاسفة الحكم فى العصر الحديث
( عباس محمود العقاد )
٩٨ الخوف ( أحمد فؤاد الأهوانى )
٩٩ نساء محاربات ( صوفى عبد الله )
١٠٠ قصة العناصر ( إمبابى أحمد )
١٠١ ملامح من المجتمع الغربى
( محمد عبد الغنى حسن )
١٠٢ من نافذة العقل ( نقولا فياض )
١٠٣ المهدى والمهدوية ( أحمد أمين )
١٠٤ أرض المعجزات ( بنت الشاطئ )
١٠٥ الحب الضائع ( طه حسين )
١٠٦ سجل التوبة ( أمين الريحانى )
١٠٧ تحرير وادى النيل ( محمود كامل )
١٠٨ سارة ( عباس محمود العقاد )
١٠٩ نديم الخلفاء
( عبد الستار أحمد فراج )
١١٠ نحن المعمرون ( حسن عبد السلام )
١١١ الصعلكة والفتوة فى الإسلام
( أحمد أمين )
١١٢ مع طه حسين ( سامى الكيالى )
١١٣ عبقرية الإمام ( عباس محمود العقاد )
١١٤ الفن المصرى الإسلامى
( محمد عبد العزيز مرزوق )

١١٥ الإمام المراغى ( أنور الجندى )
١١٦ اللحن الشرود ( كرم ملحم كرم )
١١٧ تيجان تهاوت ( محمد عبد الغنى حسن )
١١٨ المعذبون فى الأرض ( طه حسين )
١١٩ نساء شهيرات ( مبارك إبراهيم )
١٢٠ شاعر الشعب ( محمد سامى الدهان )
١٢١ عذراء الأندلس
( أحمد الصاوى محمد )
١٢٢ أشطر من إبليس ( محمود تيمور )
١٢٣ الحكماء الثلاثة
( أحمد الشنتناوى )
١٢٤ قصة العقاقير ( محمود محمد سلامة )
١٢٥ الصديقة بنت الصديق
( عباس محمود العقاد )
١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء
( توفيق الحكيم )
١٢٧ شلى ( أحمد الصاوى محمد )
١٢٨ الجدة الصغيرة ( حسن محمود )
١٢٩ زامر الحى ( محمود تيمور )
١٣٠ فى بطون الليالى ( رشاد دارغوث )
١٣١ أمين الريحانى ( مارون عبود )
١٣٢ البساط السحرى ( عبد السلام فهمى )
١٣٣ النسيان ( أحمد فؤاد الأهوانى )
١٣٤ أساطير مصرية ( عبد المنعم أبو بكر )

١٣٥ ليلى العفيفة ( عادل الغضبان )
١٣٦ أبو على الفنان ( محمود تيمور )
١٣٧ سيكولوجية الجنس ( يوسف مراد )
١٣٨ الجمعيات السرية ( على أدهم )
١٣٩ تيمورلنك ( محمد محمد فياض )
١٤٠ عائشة بنت طلحة ( كمال بسيونى )
١٤١ بنت قسطنطين ( محمد سعيد العريان )
١٤٢ بطل السند ( محمد عبد الغنى حسن )
١٤٣ ابن عمار ( ثروت أباظة )
١٤٤ ابن بطوطة فى العالم الإسلامى ( إبراهيم أحمد العدوى )
١٤٥ عيون معصوبة ( محمد كامل )
١٤٦ هذا الإنسان ( حبيب صادر )
١٤٧ مارس يحرق معداته ( عيسى الناعورى )
١٤٨ أخى المواطن ( فتحى رضوان )
١٤٩ بين البقاء والفناء ( قدرى حافظ طوقان )
١٥٠ وعى الشباب ( واصف البارودى )
١٥١ العاشقة المتصوفة ( وداد سكاكينى )
١٥٢ قلوب معذبة ( قدرى قلعجى )
١٥٣ دماء وطين ( يحيى حقى )
١٥٤ أينشتين والعالم ( محمد عاطف البرقوقى )

١٥٥ بنت يزيد ( سامى الكيالى )
١٥٦ النوم والأرق ( أحمد فؤاد الأهوانى )
١٥٧ غرام الأدباء ( عباس خضر )
١٥٨ الغيرة ( إبراهيم المصرى )
١٥٩ أجواء ( حسن محمود )
١٦٠ حبات المسبحة ( يحيى نامق )
١٦١ الفلسفة الوجودية ( زكريا إبرهيم )
١٦٢ مكسيم غوركى ( نجاتى صدقى )
١٦٣ غرائب الرحلات ( محمد عبد الغنى حسن )
١٦٤ دانتى ( مصطفى آل عيال )
١٦٥ مصرع طاغية ( حسن رشاد )
١٦٦ الأحلام والرؤى ( عبد العزيز جادو )
١٦٧ أنات الساقية ( حسن عبد الله القرشى )
١٦٨ القارة العذراء ( محمود العزب موسى
١٦٩ عادات الزواج وشعائره ( أحمد الشنتناوى )
١٧٠ القلق ( أبو مدين الشافعى )
١٧١ حرب الخامات ( عبد الحليم منتصر )
١٧٢ المخترعون ( أحمد طه السنوسى )
١٧٣ الجزر الخضراء ( حبيب جاماتى )
١٧٤ فنون السحر ( أحمد الشنتناوى )
١٧٥ هذا الشرق العربى ( فتحى رضوان )

٢٩٠ شخصيتك فى الميزان
( عبد الكريم دهينة )
٢٩١ الكعبة على مر العصور
( على حسنى الخربوطلى )
٢٩٢ شيء من الخوف ( ثروت أباظة )
٢٩٣ معركة العلمين ( السيد فرج )
٢٩٤ كوكب الإنسانية
( أحمد حسين المحامى )
٢٩٥ فلسطين قلب العروبة
( محمد فيصل عبد المنعم )
٢٩٦ البترول العربى فى المعركة
( محمد أمين )
٢٩٧ ابن السلطان (عبدالغفار مكاوى )
٢٩٨ ٤ كتب و ٤ كتاب
( محمد بدر الدين خليل )
٢٩٩ التغذية ومخاطر الصناعة
( أسامة أمين العطار )
٣٠٠ الصيام فى القرآن ( محمد الدسوقى )
٣٠١ مع طه حسين – الجزء الثانى
( سامى الكيالى )
٣٠٢ نشيد الكروان ( طاهر الطناحى )
٣٠٣ من عجائب الحياة ( فوزى الشتوى )
٣٠٤ الحرية فى الإسلام
( على عبد الواحد وافى )
٣٠٥ قصة الفلسفة ( مراد وهبة )
٣٠٦ سندباد فى رحلة الحياة
( حسين فوزى )
٣٠٧ قالت له ( محمد زكى عبدالقادر )
٣٠٨ البحر والناس
( سيد حسن شرف الدين )
٣٠٩ التفاؤل والتشاؤم
( نجيب يوسف بدوى )
٣١٠ حوار مع برتراند رسل وسارتر
( لطفى الخولى )
٣١١ حرب الأفيون (محمدالعزب موسى )
٣١٢ الرسول فى رمضان
( على حسنى الخربوطلى )
٣١٣ « عفراء » قصة الحب الخالد
( فايد العمروسى )
٣١٤ الفداء فى الإسلام(أحمدالشرباصى )
٣١٥ أعترف إليك ( أحمدفؤادتيمور )
٣١٦ سجين ثورة ١٩١٩
( محمد مظهر سعيد )
٣١٧ صور باريسية ( يوسف فرانسيس)
٣١٨ أسنانك وكيف تحافظ عليها
( فاروق مرشد )
٣١٩ فى مواجهة إسرائيل
( إسماعيل صبرى عبد الله )

٣٢٠ مذكرات زوج ( أحمد بهجت )
٣٢١ الإنسان الأوربى فى الجد واللعب ( عبد الستار الطويلة )
٣٢٢ قناة السويس فى مائة عام ( محمد عبد الرحمن برج )
٣٢٣ مع المصطفى فى عصر البعث ( بنت الشاطىء )
٣٢٤ هوشى منه ( جورج عزيز )
٣٢٥ لمحات من المسرح العالمى ( جاذبية صدقى )
٢٢٦ الروح والخلود بين العلم والفلسفة ( عبد العزيز جادو ) — تقديم ( رؤوف عبيد )
٣٢٧ مواقف إسلامية ( عبد العزيز كامل )
٣٢٨ المعقول واللا معقول ( أحمد فؤاد الأهوانى )
٣٢٩ رسائل إلى ولدى خالد ( بقلم البدوى الملثم )
٣٣٠ أروى بنت اليمن ( عارف تامر )
٣٣١ البطولة فى الشعر العربى ( شوقى ضيف )
٣٣٢ يوم بيوم ( أنيس منصور )
٣٣٣ رسائل وأسرار ( محمد التابعى )
٣٣٤ ماذا نستخرج من البترول ( جورج وهبه العفى )
٣٣٥ القرآن والتفسير العصرى « هذا بلاغ للناس » ( بنت الشاطىء )
٣٣٦ مكرر — أيام خالدة فى حياة عبد الناصر ( جمال الدين العطيفى )
٣٣٦ النفس والبدن ( إبراهيم فهيم )
٣٣٧ فى اللغة والأدب ( إبراهيم بيومى مدكور )
٣٣٨ الهجرة فى القرآن ( محمد الدسوقى )
٣٣٩ موس تؤلف كتاباً وقصص أخرى ( فتحى رضوان )
٣٤٠ محمد عبد الوهاب ( محمود عوض )
٣٤١ فى مولد النبى ( حسين الشافعى )
٣٤٢ صراع الأجيال فى أدبنا المعاصر ( غالى شكرى )
٣٤٣ إنى صاعدة ( حلمى سلام )
٣٤٤ الوادى السعيد ( لويس عوض )
٣٤٥ مذكرات ذرة ( عبد المحسن صالح )
٣٤٦ ذكريات عارية ( السيد أبو النجا )
٣٤٦ مكرر أحاديث رمضان ( عبد العزيز كامل )
٣٤٧ بنك القلق ( توفيق الحكيم )
٣٤٨ نحو النور ( محمد زكى عبد القادر )
٣٤٩ هؤلاء علمونى ( سلامه موسى )

# محتويات الكتاب



## الكتاب القادم

( عدد مارس ١٩٧٢ )

## من أخطاء القضاء

مجموعة قضايا ومحاكمات عن جرائم عالمية

بقلم

حسن الجداوى


تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ١٩٧٢/١٨٢٢

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢

١٠

اقـرأ ٣٥٠ ١/٤٠٣٨٦٤

